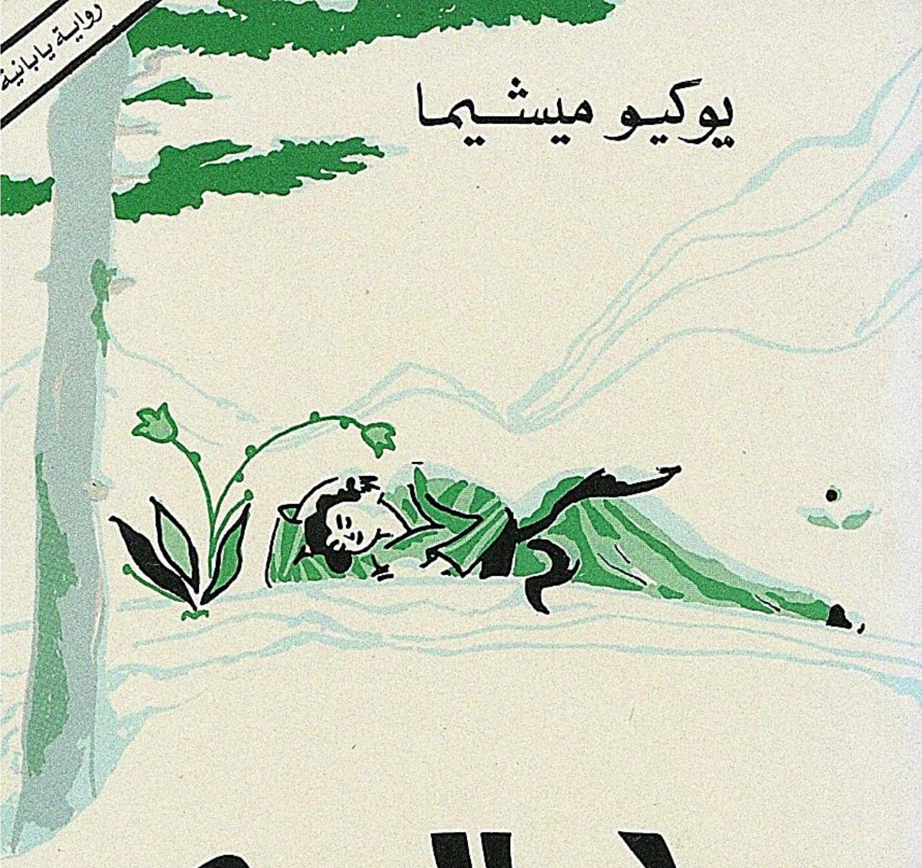
رواية يابانية



يوكيو ميشيما

ثلج الربيع

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار الآداب

ثلج الربيع

- ١ -

بحر الخصوبة

ثلج الربيع

رواية : يوكيو ميشيما

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٠

ترجمة هـذه الربـاعية مهـداة إلى ابنتي، دينـا، النُسـغ، والنور، والندى.

كامل يوسف حسين

مقدمة المترجم

العمل الماثل بين يدي القارىء، «ثلج الربيع» رواية متكاملة وقائمة بذاتها، لكنها، في الوقت نفسه، ترتبط مع شقيقاتها الثلاث الأخريات: «الجياد الهاربة» و«معبد الفجر» و«سقوط الملاك» بوشائج لها قوة أمراس من فولاذ، لتشكل معاً رائعة ميشيما نادرة المثال، في الأدب العالمي كله: رباعية «بحر الخصب».

و«ثلج الربيع»، بهذا المعنى، وسواء أنظرنا إليها في ذاتها أو بحسبانها الحركة الأولى في سيمفونية «بحر الخصب»، عمل ضاف وممتد. وليس في نيتي جعلها أكثر طولاً أو امتداداً، لا بكتابة مقدمة مسهبة بأكثر مما يحتمله المقام، ولا بإرفادها بهوامش أو شروح أو تعليقات تثقل على القارىء، وتشتت تركيزه، وتفقده استمتاعه بالرواية.

مع ذلك، فإن من حق القارىء علينا، في هذه الصفحات القلائل، التي ننتزعها منه انتزاعاً، قبل أن ينطلق، في رحلته، عبر معراج الرواية، أن نحقق له حداً أدنى من الإضاءة، نعتقد أنه لا غنى عنه، بصدد موضوعين محددين، هما:

١ ـ موضع رواية «ثلج الربيع» من مشروعنا للتعريف بالرواية والمسرح اليابانيين.

٢ ـ أبعاد العالم الخلفي، الذي انبعثت منه رباعية «بحر الخصب» وقيمتها، باعتبارها من أكثر الأعمال والمشروعات الأدبية طموحاً وامتداداً، في الأدب العالمي كله، منذ مطلع القرن العشرين، وحتى الآن.

ولما كان الموضوع الأول لا يتجاوز تناولنا له مجرد الإيضاح العاجل؛ فإننا نبادر إلى البدء به، لنفرغ من بعده لمهمتنا العسيرة، المتمثلة في معالجة الموضوع الثاني.

منذ أواخر السبعينيات، على وجه التقريب، واستطراداً مع اهتمامنا برواية التراث الفلسفي الشرقي، وأبرز أدبيات الشرق، شرعنا في القيام بتنفيذ برنامج محدد الملامح؛ لتعريف القارىء العربي بالمسرح والرواية اليابانيين.

وقتها، فوجئتنا، من ناحية، بالثراء الهائل لعطاء العبقرية اليابانية، في هذين الميدانيين، واهتمام العالم كله بهذا العطاء، ومن ناحية أخرى بأننا، نحن العرب، نكاد، دونما مبالغة، لا ندري شيئاً عن هذا العطاء.

ورغم كل الجهود التي بذلناها، وبذلها كتاب آخرون، منذ ذلك الحين، لا يمكننا الزعم بأن هذه الصورة قد تغيرت كثيراً؛ فلا يزال الميدان بكراً، ولا زلنا بحاجة إلى المزيد من العمل في هذا الاتجاه.

وحتى لا يبدو كلامنا مجرداً، بالنسبة للقارىء، فإننا نضرب مثالاً عملياً واحداً، ربما يغني عن غيره. لقد أصدرت سلسلة «من المسرح العالمي» الكويتيةّ، حتى كتابة سطور هذه المقدمة، ٢٣٢ عدداً، لم يحظ المسرح الياباني من بينها بفرصة للإطلال على القارىء العربي، إلا عبر الأعداد ١٠٠، ١٠٩، ٢٢١ ـ والعدد الأخير من ترجمتنا وهو يتمثل في مسرحية «السيدة دي ساد» ليوكيو ميشيما.

ما الذي يعنيه هذا؟

إنه يعني، ببساطة، أنه في أبرز سلاسل الإصدارات المسرحية على الإطلاق في العالم العربي، لا تتجاوز نسبة الإصدارات من العناوين اليابانية أكثر من ١٪ أو فوق ذلك بقليل، هذا على الرغم من أن هناك اثني عشر

شكلاً للمسرح التقليدي الياباني، إضافة إلى «الشنجيكي» أو المسرح الحديث، الذي تطور على نحو هائل خارجاً من براثن الرقابة إلى وهج ما بعد «مسرح تحت الأرض».

أياً ما كان الأمر، فإننا إذا ضربنا صفحاً الآن عن الجانب المتعلق بالمسرح من مشروعنا هذا، باعتبار أنه ليس مناط اهتمامنا هنا، لوجدنا أن تعريفنا بالرواية اليابانية الحديثة شمل تقديم ترجمتنا سيئة الحظ، والتي احتجبت سنوات طويلة قبل أن يتاح لها الإطلال إلى النور، لرواية ميشيما الموسومة «اعترافات قناع»، وكذلك ترجمتنا لروايتي شوساكو إندو «الصمت» و «البحر والسم» وروايتي كوبو آبي «المرأة في الرمال» و «موعد سري» ومجلد «علمنا أن نتجاوز جنوننا!»، الذي يضم أربع روايات لكينزابورو أوى، تبدأ بالرواية التي يحمل المجلد عنوانها، جنباً إلى جنب مع روايات «يوم يكفكف دمعي بنفسه» و «الجزاء» و «أجوى المسخ السماوي»، وكذلك قدمنا ترجمتنا لرواية جونيتشيرو تانيزاكي «التاريخ السري لأمير موساشي» في مجلد واحد مع روايته الموسومة «المرنطة».

وهانحن نشرع في تتويج هذا المشروع بإصدار «ثلج الربيع» و «الجياد الهاربة» و «معبد الفجر» و «سقوط الملاك»، التي نأمل أن ندفعها إلى يدي القارىء العربي تباعاً.

فإذا ما قدر لنا، يوماً، أن تتاح لنا الظروف، التي تمكننا من أن نقدم للقارىء العربي ثلاثية موريو كيتا، الموسومة «دار ناير»، المترعة بروح السخرية والفكاهة الراحلة في متاهات الكوميديا السوداء، لكان بمقدورنا القول بأننا حققنا مشروعنا، الذي يضم أكثر من خمسة آلاف صفحة، صحبتها ـ حتى الآن ـ عشرات من المقالات المكتوبة بقلمنا والمترجمة، على السواء، عن المسرح والرواية في اليابان.

والملاحظة التي تفرض نفسها على الفور هنا هي أن هذا المشروع

للتعريف بالرواية اليابانية، رغم ارتفاع سقف طموحه، يظل، في نهاية المطاف، مشروعاً فردياً؛ ومن ثم ترد عليه كل الانتقادات التي تأخذ بأكناف المشروع الفردي، أياً كان الجهد الذي يبذل في غمار تنفيذه، فمثل هذا التوجه إلى التعريف بالآداب العالمية إنما ينبغي، ونكرر هنا ما سبق أن قلنا ـ مراراً ـ أن يكون مهمة تضطلع بها مؤسسة، تضم في إطار عملها الجماعي، المخطط وفق رؤية كلية واضحة، شتى الجهود الفردية، التي تنصبّ لتأخذ شكل وروح عمل الفريق المتكامل.

وفي هذا الصدد، لا نملك إلا أن نحيي ما بذلته وتبذله دار الآداب من جهد رائد ومتميز، تمثل بصفة خاصة في إصدارها لسلسلة الروايات اليابانية، التي يرى هذا العمل النور في إطارها.

أما الملاحظة الأكثر أهمية، والتي ينبغي أن تضاف إلى سابقتها، فهي أن توجهنا إلى التعريف بالأدب الياباني إنما يأتي في إطار جهود عربية شاملة للإطلال على الأدب العالمي الحديث، من نوافذ شتى، دون الاقتصار على ما كان قائماً من قبل، وهو تركز نظرتنا على المصادر الغربية، والأوروبية بالتحديد، في متابعة تطور الأدب العالمي.

وغني عن البيان أن هذا الجهد يأخذ بعده الصحيح، حينما يتم في إطار إدراك أنه جزء ممدود من عمل دائب، أو هكذا ينبغي أن يكون، لتحطيم ثنائية المركز ـ الهامش التي تضع أوروبا الغربية والولايات المتحدة تقليدياً في المركز، والعالم الثالث في الهامش.

ولعله من هنا تأتي الأهمية الخاصة والضرورة الملحة للتعريف، عن قرب أكبر، وبمزيد من الوفرة والتعمق معاً، على الآداب الحديثة في أميركا اللاتينية وأفريقيا، إضافة إلى أجزاء أخرى من آسيا، في مقدمتها الهند والصين.

فإذا انتقلنا إلى الموضوع الثاني، الذي نعالجه في هذه المقدمة، وهو

التعريف بأبعاد العالم الخلفي الذي انبثقت منه رباعية «بحر الخصب» وتحليلها، باعتبارها من أكثر الأعمال الأدبية جرأة وطموحاً، في القرن الحالي، على المستوى العالمي، لبادرنا، على الفور، إلى لفت نظر القارىء، ابتداء، إلى أننا سنحدد ما نحاول القيام به هنا بطريقة التعريف بالسلب، قبل أن نندفع لإنجازه.

نحن، في هذه المقدمة، لسنا بين يدي التعريف بيوكيو ميشيما أو تقديم لوحة خارجية لحياته وأعماله، وحتى إذا تطرقنا إلى بعض التفاصيل، التي يمكن أن تندرج في هذا الإطار، فإن ذلك لن يكون إلا من منظور إضاءة هذه التفاصيل لبعد معين في الرباعية.

لماذا؟

الإجابة على علامة الاستفهام هذه واضحة وبسيطة ومحددة، وما نحسبها تغيب عن ذهن القارىء العربي؛ فقد سبق أن قمنا بهذه المهمة، على وجه الحصر، أي التعريف بالحقائق الأساسية المتعلقة بميشيما وعالمه الإبداعي في موضعين على الأقل، هما:

أ ـ تقديم ترجمتنا لرواية «اعترافات قناع».
ب ـ تقديم ترجمتنا لمسرحية السيدة دي ساد.[1]

هذا فضلاً عن أنه تم التعريف بالكاتب الياباني الأكثر شهرة في العديد من المقالات، التي نشرناها في مجلات «الآداب» و «آفاق عربية» و «الأقلام». كما بذل كتاب عرب آخرون جهوداً، أكثر من رائعة، في التعريف به أيضاً.

---

(١) ميشيما، يوكيو ـ السيدة دي ساد ـ سلسلة «من المسرح العالمي» الصادرة عن وزارة الإعلام، الكويت ـ ١٩٨٨ ص ٧ إلى ٢٦. ويجد القارىء، في هذا المصدر، ثبتاً بالمصادر والمراجع التي يمكنه الرجوع إليها، إذا رغب في الإلمام بالمزيد من التفاصيل عن حياة وأدب ميشيما.

هـذه واحدة، وأخـرى أننا لسنـا، في هذه المقـدمـة، بـين يـدي تقـديم تلخيص لرواية «ثلج الربيع»، ولا سرد للتضاريس الأكثر بروزاً في أحداث رباعية «بحر الخصب».

لماذا؟

مرة أخرى، لأن الإجابة على قدر كبير من الوضوح، وتتمثل في أن مثـل هذه المحاولة للتلخيص بالنسبة للرواية الحـالية، أو السرد المـوجز للربـاعية بكاملها، يندرج في صلب التحليل، الذي نحاوله هنا. هـذا من ناحيـة، ومن نـاحيـة أخـرى، فـإن مهمـة التلخيص تلك، عـلى وجـه الحصر، تم إنجازها في مصادر متوافرة بين يدي القارىء العربي بالفعل.[2]

إذن، ما الذي نحاوله هنا بالضبط؟

إذا انتقلنـا إلى تحديـد ما نحـاوله في هـذه المقدمـة من خـلال التعـريف بـالايجاب، لقلنـا إننا بـين يدي تقـديم رؤية سيميـولوجيـة لما تمثله «بحـر الخصب». إننـا لا نحاول أن نقـرأ النص للقارىء العـربي، لكننا ببسـاطـة نـدعه يقـرأه، ونساعـده عـلى هـذه المهمـة، من خـلال تقـديم سلسلة من العـلامات، أو المفـاتيح، أو الإطـلالات السيميولـوجية ـ سمهـا ما شئت ـ لكنهـا، في النهايـة، بمثابـة مجمـوعـة من معـالم الـطريق، يمكن للقـارىء، بالاستعانة بها، أن يصل إلى رؤية أوضح، وأن يحكم قبضة أشد قوة، عـلى هذا الكون الهائل، الذي أسماه ميشيما «بحر الخصب».

ولكن، بداية، لماذا هذا العنوان الغريب: بحر الخصب؟

إن ميشيـما نفسه هـو الذي سـيرد على هـذا السؤال، ليمنحها العـلامـة الدالة الأولى، التي ينبغي أن ندرك أنها لا تقرأ لنا الأسرار، ولكنها تتيح لنا

---

(٢) أنظر، على سبيل المثال، يورسينار، مرجريت ـ ميشيما أو رؤيا الفراغ ـ دار التنويـر ـ بيروت ـ ١٩٨٤ ص ٤٣ ـ ٧٧.

الحد الأدنى، الذي انطلاقاً منه نستطيع أن نحلق إلى سقف الطموح المتمثل في استكناه هذه الأسرار.

في رسالة بعث بها ميشيما إلى الباحث الأميركي الشهير، الذي يعد من أبرز المساهمين في التعريف، على المستوى العالمي، بالأدب الياباني وأسراره، رونالد كين، يشير إلى أنه أطلق هذا العنوان على رباعيته، في إشارة إلى منطقة بعينها، على سطح القمر، يدعوها دارسو الفلك بهذا الرسم، لا تبعد كثيراً عن «بحر الصمت». والسبب في هذا الاختيار هو أن العنوان «بحر الخصب» قصد به الاشارة إلى منطقة قاحلة على سطح القمر، يكذِّب مضمونها اسمها، أو قد يمكنني المضي إلى القول بأن هذا العنوان يدمج صورة النزعة العدمية الكونية بصورة «بحر الخصب». [٣]

هنا تلفت نظرنا جزئية طريفة حقاً، لها دلالتها الواضحة، على مدى هشاشة التراكم المعرفي، الذي حققناه، نحن العرب، فيما يتعلق بالأدب الياباني.

نلاحظ أنه في كتاب «مختارات من الأدب الياباني المعاصر»[٤]، يشار إلى رباعية ميشيما على أنها «ثلاثية بحر الخصب». والأمر عينه يرد في كتاب «مختارات من الأدب الياباني»[٥]، حيث يشار بثقة شديدة إلى أن ميشيما أتم آخر أعماله الكبيرة، وهي ثلاثية بعنوان «بحر الخصوبة».

ويخيل إلينا أن الخطأ، في الحالتين، مصدره عدم تدقيق المترجم، وخلطه

---

(٣) Stokes, Henry Scott- The Life and Death of Yikio Mishima -Peter Owen- London- 1970- P. 163.

(٤) عدد من المؤلفين ـ مختارات من الأدب الياباني المعاصر ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ـ ١٩٨٣ ـ ص: ٣٣٢.

(٥) مجموعة من الكتاب اليابانين القدماء المحدثين ـ مختارات من الأدب الياباني ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٨ ـ ص: ٣٨.

بين كلمة Tetralogy التي تعني الرباعية، والتي تطلق عادة على «بحر الخصوبة»، وبين كلمة Trilogy التي تعني الثلاثية.

إذا نحيّنا هذا الاستطراد جانباً، وعدنا إلى طرح تلك المؤشرات السيميولوجية، التي تعنينا هنا، لأشرنا إلى أنه في الفترة من ١٢ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠، أي قبل أيام قلائل من انتحار ميشيما في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠، أقيم معرض كبير عن أعماله وحياته. وقد اشترط مشيما أن يعبّر هذا المعرض عما أسماه بأربعة أنهار، تصب في بحر الخصب، وتجسّد حياته، وهذه الأنهار هي على التوالي: نهر الكتابة، نهر المسرح، نهر الجسد، نهر الحركة.

فما الذي قاله ميشيما عن نهر الكتابة في الكتيب التقديمي لمعرض «توبو»؟ إنه يقول:

«يساعدني هذا النهر في زراعة حقولي برحمة مياهه، يدعم حياتي، وفي بعض الأحيان يفيض عليّ، ويوشك على أن يغرقني في إندفاعاته الوافرة. ويقتضيني هذا النهر معبراً لا حدود له، وعملاً شاقاً يومياً عبر الفصول المتغايرة والزمن المندفع. ألا ما أشد شبه الكتابة بالزراعة! يتعين على روح المرء أن تحذر في كل لحظة من العواصف والأعاصير الجليدية. وبعد مثل هذه المراقبة الطويلة واليقظة لحقل كتاباتي، ومثل هذا الاجهاد للخيال والشعر، هل بمقدوري أبداً التيقن من أن حصاداً وافراً في انتظاري؟ إن ما كتبته يفارقني، ولا يغذي خواتي قط، ولا يغدو شيئاً، اللهم إلا سوطاً، لا يفتأ ينهال عليّ. وما أكثر الليالي الحافلة بالمجالدة والساعات المترعة باليأس التي ينبغي أن تنفق على مثل هذه الكتابات! ولو أني راكمت وسجلت تذكاراتي عن مثل هذه الليالي، لاستبد بيّ الجنون يقيناً. غير أنه ما من

سبيل أمامي لمواصلة الحياة إلا الاستمرار في الكتابة، سطراً، سطراً آخر، سطراً آخر...»[٦]

هذا الارتباط بين الحياة والكتابة، بهذا الشكل الذي لا سبيل إلى فصم عراه، اللهم إلا بانطفاء التوهج الأخير للحياة ذاتها، هو الذي جعل ميشيما يذهب، في أكتوبر ١٩٧٠، إلى القول بأن إنهاء الرباعية يجعله يشعر بأن في ذلك نهاية العالم. وهو نفسه الذي جعله يحدد موعد انتحاره باليوم الذي أنهى فيه آخر سطور «بحر الخصب» ووضع الصفحات الأخيرة في مظروف يحمل اسم الناشر، قبل أن ينطلق إلى مقر القيادة الشرقية للجيش الياباني، حيث أنهى حياته بالانتحار بطريقة «السيبوكو»، الدموية، الرهيبة.

ولكن أين مكان رباعية «بحر الخصب» في نهر الكتابة هذا على وجه الدقة؟

إن الإجابة ستأتينا، هذه المرة، من آخر مكان نتوقعها فيه؛

في مقال فريد[٧] من كتاباته الأخيرة، يشير الروائي الأميركي هنري ميللر إلى أن «الشباب، والجمال والموت ـ تلك هي الموضوعات التي تمنح كتابات ميشيما جوهرها، بل قد ندعوها بأنها كانت العناصر التي استحوذت عليه تماماً، ومن أجل هذا الثالوث صلب نفسه».

الآن، لنضع هذا التصور جنباً إلى جنب مع ما ينسب كثيراً إلى ميشيما، من القول بأن المثقفين الغربيين لم يتناولوا بالتقدير إلا الجانب «اللين» من الثقافة اليابانية، متجاهلين العنصر المظلم في هذه الثقافة.

لنقطع خطوة إضافية أخرى! في صيف ١٩٤٥، قرر ميشيما أن ينفذ

---

(٦) Stokes, Henry Scott- Op. Cit.- P. 111.

(٧) Reflections on the Death of Mishima, in: Miller, Henry- Sextet: His Later Writings- Capra press- Santa Barbara- 1977- P. 26.

عملاً عملاقاً يختزل هذا الثالوث، ويتغلغل في قلب ذلك الجانب المظلم، أن يكتب رواية توقع أن تستغرق منه ست سنوات، بحيث ينتهي منها في صدر السبعينيات، لتغطي ـ من الناحية الزمنية السنوات الستين الممتدة من عام ١٩١٢ فصاعداً.

هذا القرار، الذي كان الأكثر أهمية في حياة ميشيما العملية، كان يقضي بتنفيذ الرواية في أربعة مجلدات، يضم كل منها رواية متكاملة، ولكل منها بطل متميز، لكن هؤلاء الأبطال ليسوا منفصلين تماماً أحدهم عن الآخر.

كيف؟

إن بطل المجلد الأول ـ وهو الماثل الآن بين يدي القارىء، متجسداً في رواية «ثلج الربيع» ـ هو الفتى «كيواكي»، سليل عائلة ماكسوجاي اليابانية النبيلة، يحيا قصة حب، من النوع الذي يستعصي على الذاكرة أن تنساه، ويقف صديقه «هوندا» شاهداً على قصة حبه الفريدة والفاتنة تلك.

في كل مجلد يعقب ذلك، نجد أن البطل لا يعدو أن يكون هو نفسه البطل الأول ولكن بعد انتقاله من خلال تناسخ الأوراح، ليبدأ دورة وجود جديدة، وليتاح لهوندا وحده أن يعرف الرابطة التي تصل الأبطال الأربعة، وذلك من خلال عنصرين محددين، هما ثلاث شامات يحملها الأبطال جميعاً، ومجموعة الأحلام العجائبية، التي تمتد كسلسلة تنتظم حيواتهم جميعاً، بحيث أن أحدهم قد تتراءى له أحلام هي ذاتها شرائح وقائع غرائبية في حياة الأبطال الذين سيلونه.

ماذا؟ تناسخ أرواح؟

علامتا استفهام ستقفزان، على الفور تقريباً، ربما مع قدر ليس باليسير من الدهشة، إلى ذهن القارىء، وفي اعتقادنا أنه من الضروري إلقاء الضوء عليهما، وإنارة الدلالات التي تتراقص حولهما تراقص النور والظل.

إننا نعلم، عملياً، أن ميشيما قد استمد جانباً من وحي عمله الهائل هذا من رواية رومانسية، تعود إلى القرن الحادي عشر، هي «حكاية همامتسو»، التي لا ترقى، رغم جمالها الفريد، إلى شهرة سابقتها التي تعود إلى القرن العاشر الموسومة «حكاية جنجي». غير أن ما يهمنا هو أن «حكاية همامتسو» تستند إلى فكرة تناسخ الأرواح، من ناحية، والأحلام ـ النبوءة، من ناحية أخرى.

وفي الوقت نفسه، استعان ميشيما، كخلفية فكرية للرواية، بأفكار الهوسوية اليابانية التي يؤكد في إطارها مبدأ اليويشيكي[8] ـ أو نظرية الوعي وحده ـ أن كل التجارب ذاتية، وأن الوجود بأسره لا سبيل إلى التحقق منه.

ونعلم أيضاً أن ميشيما قد سافر إلى الهند، وإلى العديد من أرجاء آسيا، لدراسة وفهم ومعايشة الخلفية الفكرية والمكانية للرباعية.

ومفهوم التناسخ يتجلى ويحتجب في الرباعية، بهذه الدرجة أو تلك من الوضوح، لكنه ماثل هناك، وموجود دائماً.

والأهمية البالغة لهذا المفهوم هي ما أدركه الباحث الأميركي رونالد كين، وربما لهذا السبب، على وجه الدقة، يقول: لا يمكننا التصور أن ميشيما، سيد الأدب الشعبي، كما هو سيد الخرافة الجدية، لم ينتبه إلى كونه يجازف بإضجار قرائه [بالمقاطع المطولة عن التناسخ والاستطرادات الفكرية المعمقة] ولا بد أن تكون هذه المقاطع غاية في الأهمية بالنسبة له كي يصبح إقحامها ضرورة. وربما كانت السبب الرئيسي الذي دفعه لكتابة رباعيته»[9].

---

(٨) ستتصدى بالايضاح للهوسوية ومبدأ اليويشيكي، على نحو بالغ الايجاز، على هامش طرح ميشيما لهما، في غمار هذا المجلد.

(٩) كين، دونالد ـ العلامات الخمس للملاك الساقط ـ مجلة «الثقافة العالمية» ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ العدد الأول ـ نوفمبر ١٩٨١ ص: ٣٩.

لكن تلك ليست الرواية الوحيدة هنا؛ إذ تقول يورسينار، في هذا الصدد: «إن الموضوعية الأساسية، بالنسبة للقارىء المتوسط والقيمة الأسرة لهذه الرباعية... تكمن في فكرة التجسد بعد الموت، التي تشكل خلفية للعمل كله. وهنا ينبغي أن نوضح بعض الأمور. لنبدأ بمحو كل الخرافات الشعبية، التي لسوء الحظ كان ميشيما قد أفرد لها هامشاً كبيراً؛ ربما لاقتناعه بأن هذه الصيغة ملائمة، وربما لأن هذه الخرافات الشائعة في الأوساط اليابانية التقليدية لا توحي هناك بنفور يفوق ما توحي به للقارىء الأوروبي أي إشارة إلى الجمعة ١٣ أو إلى المملحة المقلوبة. ولا يثير الإصرار في أجزاء بحر الخصب الأربعة على الشامات الثلاث التي تسم في الموضع ذاته بشرة كيواكي الشاحبة وبشرة إيساو [بطل الجياد الهاربة] وجلد الأميرة التايلاندية المذهبة [بطلة معبد الفجر] سوى الشعور بالغيظ، أكثر منه بالاقناع. وينتهي بنا الأمر إلى التساؤل إذا لم يكن الأمر يتعلق بنوع غامض من الإثارة الجنسية»[10].

أياً كان الأمر، فإن هذه القدرة على إثارة الخلاف، بل وإثارة «الشعور بالغيظ» هي أكثر سمات أدب ميشيما بروزاً، وفي مقدمة المؤشرات الدالة على عظمة إنجازه الأدبي؛ فالأدب العظيم هو وحده الذي يستطيع اجتراح إثارة هذا القدر الهائل من الخلافات حوله.

دعنا نتابع رحلتنا السيميولوجية، إذن، برصد المزيد من العلاقات في خضم الأدبيات الدائرة حول «بحر الخصب».

يقول ستوكس، كاتب سيرة حياة ميشيما، في معرض بسط رؤيته النقدية لرواية «ثلج الربيع»، الماثلة بين يدي القارىء، والتي تمثل المجلد الأول في الرباعية، ما يلي:

---

(١٠) يورسينار، مرجريت ـ م. س. ذ. ـ ص: ٥٤.

«ثلج الربيع رواية أبدعت كتابتها؛ فالعاشقان الحالمان، والنجوم، الذين يحيطون بهما، جرى وصفهم على نحو رائع. غير أنه ما أن تبدأ قصة الحب، حتى تتقلص قدرة الكتاب على الاستقطاب، ولا تبدو النهاية ـ موت كيواكي ـ مؤثرة بصفة خاصة؛ لأن شخصيته ذات طابع سكوني، شأن شخصية يويتشي بطل رواية «ألوان محرمة». أما الصعوبة الثانية التي واجهت «ثلج الربيع» فهي توصيف ميشيما للهيكل الفكري... هنا مشكلة كبرى تواجه الكاتب: كيف يجعل فكرة مقنعة، بينما هو لا يؤمن بها. وفي المجلدات اللاحقة من روايته اضطر ميشيما لمواجهة هذه المشكلة»[١١].

إن ستوكس هنا يعمل مبضعه، في مواجهة أبرز النقاط التي ركّز النقاد ملاحظاتهم عليها. فالعمل رائع وجميل، ولكنه يواجه مشكلات. أليست تلك بالضبط أبرز سمات كل الأدب العظيم منذ ظهر إلى النور ذلك النصّ الفاتن الذي كتبه الحكيم الفرعوني أيبو ـ وير ووصف فيه عالمه وهو يحترق مفسحاً الطريق أمام ثورة الدولة القديمة حتى اليوم؟

ربما نفهم علاقة الاستفهام هذه بشكل أوضح، إذا علمنا أن رواية «ثلج الربيع» بيع من طبعتها الأولى أكثر من مائتي ألف نسخة، خلال أقل من شهرين، واشترى المسرح والتلفزيون حقوق نقل وإعداد هذا العمل بشكل فوري.

هذا العالم الشفيف والرقيق والمحلق، الذي سنعيش تحت سمائه، على امتداد صفحات «ثلج الربيع» سنفارقه، على نحو مباشر، في المجلد الثاني من الرباعية، «الجياد الهاربة». فنحن هنا أمام صورة رائعة ومتقنة لليابان، في ثلاثينيات القرن العشرين، بكل ما فعلت به هذه الفترة من اضطرابات، وتحولات عنيفة، بلغت حدها الأقصى في الانقلاب وسيطرة النزعة العسكرية العدوانية.

---

(١١) Stokes, Henry Scott- Op. Cit. PP. 148-149.

وينعكس هذا في أن إيساو، بطل «الجياد الهاربة»، الذي يحمل العلامات الثلاث، التي كانت من قبل للفتى كيواكي في «ثلج الربيع» يتجلى لنا شاباً خلق للسيف، ينغمس حتى أطراف أصابعه في العمل السياسي، ويحلم بأن يتمجد في «السيبوكو»، والشمس تتألق حمراء أمام ناظريه.

وميشيما يضع إيساو موضع اختبار ضار، فهو إما أن ينجرف في قصة حب شديد الحميمية مع الفاتنة ماكيو ويتعرض للفساد، وإما أن يمضي إلى المصير الدامي، الذي ينتهي به إلى «السيبوكو»(١٢).

وإذا كانت رواية «الجياد الهاربة» هي أطول المجلدات الأربعة، وأكثرها اقتضاء للجهد من ميشيما وقرائه، على السواء، فإن الرواية الثالثة في الرباعية، وهي «معبد الفجر»، هي، على نحو ما يعبر «ستوكس» عمل يختلف تماماً عن سابقيه «ثلج الربيع»، و«الجياد الهاربة»؛ ذلك أن هذين المجلدين يتضمنان روايتين مطولتين، مترعتين بالدراما. أما «معبد الفجر» فهي، في المقام الأول، توصيف لإطار فكري. وفي العام السابق لتأليفه، زار ميشيما الهند بدعوة من حكومتها بصحبة زوجته، وأجرى بحثاً من أجل هذا الكتاب، وزاره كلكتا وبنارس وأجنتا، على نحو ما فعل هوندا في «معبد الفجر».

بالمجلد الرابع الموسوم «سقوط الملاك» ينهي ميشيما رباعيته الهائلة، لنجد أنفسنا في مواجهة نهاية هوندا نفسه، الذي وقف شاهداً على كل النهايات، ونهاية رحلة التناسخ الهائلة ذاتها.

وتنفرد رواية «سقوط الملاك» بأنها كتبت بكاملها بعد أن اتخذ ميشيما قراره بإنهاء حياته، بعد الفراغ من رباعيته؛ ومن ثم فإنها تعكس فلسفته

---

(١٢) Ibid. P. 162.

ورؤيته للعالم على نحو أكثر امتلاء وزخماً من أي عمل من أعماله المئة، التي تركها لنا ميشيما في ستة وثلاثين مجلداً تضم أعماله الكاملة.

إن الأمر الذي يلفت نظرنا هنا حقاً أن ميشيما ينهي «سقوط الملاك» بزيارة يقوم بها هوندا إلى معبد جيشو، حيث يلتقي ساتوكو، بطلة «ثلج الربيع»، بعد أن علا بها العمر، الذي أمضته كاهنة أدارت ظهرها للدنيا. ويصعق هوندا، عندما يجد أن ساتوكو لا تذكر حبيبها القديم كيواكي، بل إنها تتساءل عما إذا كان قد قدر لإنسان يحمل هذا الاسم أن يوجد قط، عندئذ يشعر هوندا بأنه إذا لم يكن هناك وجود لكيواكي، فليس هناك وجود لإيساو ولا ينج سان، بل وربما لا وجود لهوندا نفسه، ربما ما مضى كان بكامله حلماً وارتحالاً في السديم. وإذا التساؤل المرير الذي يطرحه هوندا في هذا الشأن تبتسم الكاهنة، مشيرة إلى أنه على كل منا أن يقرر الأمر لنفسه، إنطلاقاً مما يحدثه به قلبه.

وينهي ميشيما عمله الصرحي الهائل بخروج هوندا إلى الفناء الداخلي للمعبد، وهناك... «كانت الحديقة خاوية. وحدّث هوندا نفسه بأنه جاء إلى مكان خلا من الذكريات، ومن كل شيء. تدفق سنا شمس الظهيرة الصيفية، فغمر الحديقة الساكنة.

هي ذي الرحلة تنتهي، ليقابلنا عندها السؤال الأكثر صعوبة: ما هو الجوهر الحقيقي لهذه الرحلة الهائلة؟

ربما لم يكن هناك، فيما يتعلق بالأدب الياباني الحديث، سؤال أشد صعوبة من ذلك الذي تطرحه علامة الاستفهام الدائرة حول الجوهر الحق لـ «بحر الخصب». وربما لهذا السبب، على وجه الدقة، تختلف محاولات الرد على هذا السؤال اختلاف ما بين الشرق والغرب(١٣).

---

(١٣) Mishima, Yukio- The Decay of the Angel- Alfned A. Knopf- NewYork- 1974- P. 263.

إننا، مرة أخرى، لن نحاول التصدي لعلامة الاستفهام هذه بإجابة مباشرة، وإنما من خلال مجموعة من الاضاءات السيميولوجية، هي أقرب ما تكون إلى زاد يحمله القارىء، في طريقه نحو حد أدنى من الفهم الصحيح لميشيما وللعالم الذي أبدعه في رباعيته.

أولاً: نحن نلاحظ صمت دوائر المعارف العامة العالمية، وأبرزها دائرة المعارف البريطانية[١٤] عن تناول ميشيما من قريب أو بعيد، بل والامساك حتى عن مجرد ذكره. قد يرجع ذلك، بالطبع، إلى أن الرجل لم يصبح، عكس سابقيه العتيدين تانيزاكي وكاواباتا، من الداخلين في رحاب من يدعوهم الناشرون بالكلاسيكيين الجدد، وأن أعماله لم تصل، بعد، إلى أن تصبح جزءاً من التراث الإنساني البارز، تشير إليه هذه المراجع العامة. ولكن الأقرب إلى المنطق الاعتقاد بأن هذا الامساك عن ذكر ميشيما يعكس تحفظاً معيناً في الدوائر الانجلوسكسونية بصفة خاصة، حيال أدب ميشيما، وخاصة في ضوء بعض التفسيرات السياسية، التي تحمِّل نصوصه ما لا يمكن أن تحمله، إلا تعسفاً، و«بحر الخصب» ليست استثناء من هذه القاعدة.

ثانياً: هذا الرفض بالصمت يتوازى معه رفض بالصراخ، يصل إلى أقصى قممه، حينما يقول مارتن سيمور سميث، في مادة لا تتجاوز نصف صفحة من القطع المتوسط، عن ميشيما: «لا يمكن تفسير أي من كتب ميشيما، أو التزاماته السياسية، بصورة كاملة، إلا من خلال مفاهيم علم النفس العلاجي»[١٥].

ثالثاً: مع مرجريت يورسينار تبدأ المحاولات الجدية في التفسير، وهي

---

(١٤) نتحدث هنا عن طبعة شيكاغو الصادرة في ١٩٨٣، وإن كان لن يدهشنا أن تستدرك طبعات جديدة مقبلة هذا النقص.

(١٥) Smith, Martin Seymour- Guide to Modern World Literature P. 820.

تعطينا مفتاحاً حقيقياً لتفسيرها في هذه الفقرة: «إن العنوان نفسه [تقصد عنوان المجلد الرابع المترجم في الفرنسية بما مؤداه «الملاك يتعفن»، هي ترجمة نعترف بأننا لم نستطع التحمس لها] يذكّر بإحدى الأساطير البوذية التي تروى أن «التنان» (وهم ليسوا سوى جواهر إلّهية مجسدة، عباقرة، أو ملائكة)، بدل أن يكونوا من الخالدين أو الأبديين، لا يعيشون سوى ألف عام في مثل هذه الهيئة، وبعد ذلك يشهدون أكاليل الزهر التي يعتمرونها وهي تذبل، وحلاهم تذوي، ويحسون بالعرق النتن ينضح من أجسادهم. وهذا الملاك، مهما كان المظهر الإنساني الذي يتخذه ههنا، يبدو أنه اليابان نفسها، ويبدو ثانياً بالنسبة لنا، نحن القراء، رمز الكارثة المعاصرة، حيثما حلت»[١٦].

ما الذي تريد يورسينار قوله؟

هل تريد أن تقول إن ميشيما حينما كتب، عبر سنوات من الدأب والجهد الذي لا يعرف الكلل «بحر الخصب»، إنما كتب في الواقع نوعاً من التأريخ لليابان الحديثة، بحيث نقابل في «ثلج الربيع» يابان ما بعد إصلاحات ميجي، وفي «الجياد الهاربة» يابان سنوات الاضطراب تحت وطأة المشروع العسكري لامبراطورية الرخاء المشترك، وفي «المعبد البعيد» يابان قبيل وبعيد الحرب العالمية الثانية، لنلتقي أخيراً مع اليابان الحديثة في «سقوط الملاك» حيث يحذر ميشيما من أنها تندفع في مشروعها الحالي نحو الفراغ، العدم الخواء؟

ربما.

رابعاً: لا يقل جدية عن التفسير السابق ما يطرحه رونالد كين، مقدماً في سطور قلائل تفسيره الخاص: «رغم أن العنوان [يقصد «بحر الخصب»] يوحي بالخصب، فإن البحر في الواقع عقيم. هذا على ما يبدو تلخيص لما توصل إليه ميشيما حول الحياة. لكنه مهما اعتقد أن الحياة لا معنى لها، لم

---

(١٦) يورسينار، مرجريت - م. س. ذ. ص: ٦٦ - ٦٧.

يكن يتصرف بوحي من هذه الفلسفة. كان افتتانه بالموت يوحي بأن أخرى تراقب موته هو. مملكة أخرى منها تراقب روحه هذه المملكة: ربما لم يكن إيمانه بتناسخ الأرواح موقفاً يتلاءم مع طبيعة رجل ليس له أي قناعة دينية أخرى فقط، بل كان ضرورة. كان بوسع ميشيما بوصفه كاتباً التأكد من نوع من أنواع الخلود. وقد عمل ما في وسعه لتصوير هذا الخلود. وربما أراد أيضاً الحياة بعد الموت كإنسان يعرف ماذا يحل بالناس»[١٧].

ما الذي يريد كين قوله؟

ترى هل يقصد أن يقول بأن «بحر الخصب» إنما هي تصوير لرحلة ميتافيزيقية هائلة تقوم بها البشرية في محاولتها الممكنة ـ المستحيلة للانعتاق من ربقة الموت؟

مرة أخرى، ربما.

خامساً: على امتداد أكثر من عشر سنوات، شغلتنا رباعية «بحر الخصب» قراءة وتأملاً ومحاولة للفهم، إن لم يكن للتفسير، فإن سألنا سائل عما نرى أنه جوهر هذا العمل، لأحلناه إلى ما قالت ساتوكو، قبيل خروج هوندا إلى الفناء الداخلي للمعبد، في نهاية الرباعية، حيث الشمس لاهبة، وبين الجدران ليس سوى سماء فارغة، مدهشة: على كل منا أن يقرر الأمر لنفسه، انطلاقاً من قلبه!

إذا انتقلنا من جوهر العمل إلى إهابه الخارجي، الذي يكسوه، لغته، لوجدنا أننا لسنا في معرض الحكم على الإطار اللغوي الأصلي، الذي كتب به العمل.

ومع ذلك، فليسمح لنا القارىء العربي بأن ننقل إليه عن بعض الباحثين اليابانيين، الذين أجرينا حواراً مطولاً معهم، في هذا الصدد،

---

(١٧) كين، رونالد ـ م. س. ذ. ص ٣٨.

قولهم إن الرباعية مكتوبة بلغة مدهشة، شديدة الثراء في مفرداتها وتراكيبها، تعكس نوراً مذهلاً من تملك ناصية التراث الياباني القديم والسعي إلى تطويعه في خدمة أغراض المؤلف. وإن لم يمنع ذلك، على حد تعبيرهم، أن هناك بعض المقاطع في العمل تشبه قراءتها ـ من حيث صعوبتها وتعذرها ـ تكسير الأحجار، في منجم بائس، على جزيرة نائية، تأخذ شمس استوائية بخناقها.

أياً ما كان الأمر، فإنه حتى عبر الترجمة الانجليزية الممتازة، التي نقلنا عنها، يمكننا أن نلاحظ أن ميشيما يستخدم أسلوباً مختلفاً عن الأسلوب المغرق في الذاتية الذي استخدمه، من قبل، في رواية «اعترافات قناع» والأسلوب المتراخى المستخدم في «ألوان محرقة» والأسلوب المقتضب الحريص على استدامة توازن دقيق وحرج المستخدم في رواية «هدير الأمواج»، أو الأسلوب الباذخ المستخدم في رواية «معبد السرادق الذهبي»، والأسلوب الباتر المقتضب إلى حد الجفاف المستخدم في «البحّار الذي لفظه البحر».

إننا، في الرباعية، أمام أسلوب لا تتردد يورسينار في وصفه بأنه: «أسلوب عارٍ، ومسطح أحياناً، وضمني، حتى في لحظات الغنائية، تشوبه ثغرات يبدو أنها متعمدة للإخلال بالسياق... ثمة انقطاعات محبطة من شأنها كما في النصب الأصلي ربما أن تدع القارىء حائراً. إلى ذلك يستبدل ميشيما المدى المنظوري للرسم الأوروبي بالأبعاد العميقة، التي يتسم بها الرسم الصيني أو الرسمة المنتشرة سطحياً، التي نراها في الرشميات اليابانية، حيث ترتسم الخطوط الأفقية التي تمثل، اصطلاحاً، سديماً غائماً ومكتسحاً فتقطع الأشياء وتجزىء الحيز»[١٨].

---

(١٨) يورسينار، مرجريت ـ م. س. ذ. ص ٤٤ ـ ٤٥.

ويورسينار محقة، بالطبع، في إشارتها إلى ما تصفه بالانقطاعات، التي تتخلل الرباعية بأسرها، والتي نؤثر أن نصفها بأنها استطرادات. فميشيما، عبر مجلدات العمل الأربعة، لا يتردد لحظة واحدة في الخروج عن الإطار الدرامي، حتى ولو اقتضاه ذلك مفارقة حقيقية لهذا الإطار، ليستطرد مطولاً في طرح فكرة بعينها، أو إيضاح وجهة نظر، أو حتى في شرح إطار فكري، أو سرد معلومات بعينها، بحيث أن هذه المادة لا تتجانس، في النهاية، مع نسيج العمل، وتبدو، للوهلة الأولى، وكأنها لا تخدم بحال الوعاء الدرامي الذي تندرج فيه.

مع ذلك، فإن رونالد كين ـ كما رأينا في مقتطف سابق ـ لا يرى أن هذه الاستطرادات تؤخذ على العمل بل يرى أنها في التحليل النهائي في مصالح نص ميشيما، ويمضي قدماً إلى القول بأنها ربما كانت هي ما دفع ميشيما إلى كتابة الرباعية.

أياً كان مدى اتسام هذا القول بالدقة، فإننا لا ينبغي علينا أن ننسى أنه قيل عن ميشيما إنه ليوناردو دافنشي اليابان، لتعدد جوانب موهبته وتنوع وعمق ألوان إبداعه. وعلينا في الوقت نفسه أن نتذكر أنه ربما لم يكن هناك كاتب أكثر إثارة للخلاف من ميشيما، في القرن العشرين.

وليس من قبيل المبالغة القول بأن هذا الحكم نفسه ينطبق على رباعية «بحر الخصوبة» بدورها؛ فمارتن سيمور سميث لا يتردد، في أقسى هجوم على ميشيما شنّه ناقد، على مستوى العالم، حتى الآن في وصف الرباعية بأنها «ملحمة مضطربة» لا يستطيع ناقد الدفاع عنها![١٩]

---

(١٩) Smith, Martin Seymour - Op. cit. P. 821.

الآن، ماذا نجد لو أننا وضعنا هذه الرؤية النقدية، جنباً إلى جنب، مع تقويم ياسوناري كاواباتا، الكاتب الياباني الوحيد، حتى الآن، الفائز بجائزة نوبل للأدب؟[20]

في مقابلة مع مراسل صحفية «نيويورك تايمز» أكد كاواباتا أنه: «لا يظهر كاتب له وزن ميشيما إلا مرة كل قرنين أو ثلاثة قرون، في تاريخنا، و (بحر الخصب) هي رائعة ميشيما»[21].

وفي الإطار نفسه، يرى رونالد كين أنه: «في يابان ما بعد الحرب، كان ميشيما الكاتب الأكثر موهبة والأكثر اكتمالاً. وأعماله المهمة تقربه من عظام هذا القرن، على أي حال، أكثر من أي ياباني آخر. . . وإن ميشيما كان على يقين من أن «بحر الخصوبة» كانت نقطة الوصول لكل ما تعلّمه بوصفه كاتباً، فقد لفت انتباه أصدقائه إلى أنه عندما ينتهي من كتابه، لن يبقى له سوى عمل شيء واحد: «الانتحار».

أخيراً بقيت هناك علامتان حرصنا على الاحتفاظ بهما حتى النهاية لتكونا في ذهن القارىء، لدى انطلاقه عبر صفحات هذا العمل، وهما:

أ ـ ليس بالأمر المجهول، للمهتمّين بأدب ميشيما، أنه في يفاعته كان ينظم الشعر، وأنه على حرص على التردد على الشاعر رايكو كواجي؛ لعرض قصائده عليه. ومعظم هذه القصائد مقطوعات قصيرة مرحة،

---

(٢٠) لعله ليس بالأمر الجديد، بالنسبة للقارىء العربي، أن يعلم أنه بات معروفاً الآن، على الصعيد العالمي، أن قائمة المرشحين لنيل جائزة نوبل في الأدب تضم كاتبين محددين من اليابان هما كوبو آبي، الذي ترجمنا له روايتي «المرأة في الرمال» و «موعد سري»، وكذلك يا سوشي إينوي، الذي أحجمنا عن ترجمة أي من أعماله المتاحة باللغة الانجليزية، التي ننقل عنها، لسبب محدد هو اعتقادنا بأن الناشرين العرب قد لا يقتنعون بنشر أعماله؛ لأسباب لا نحسبها تخفى على القارىء.

(٢١) Stokes, Henry Scott - Op. Cit. P. 163.

احتفى فيها بابتهاجه حيال عالم الخيال المترع بالنشوة. ومع ذلك فهناك استثناء بارز، يتمثل في قصيدة «أشياء مشؤومة»، تتضمن استحضاراً لليل، ويقول ميشيما في أحد مقاطعها:

واقفاً إلى جوار النافذة،
أنتظر، كل مساء،
مقدم أحداث تتوشح بالغرابة.
أرقب نُذُر السوء،
عاصفة رملية تكتسح الدرب،
قوس قزح يتجلى ليلاً.

وبعد موت ميشيما، ذهب الناقد جن إيتو إلى القول بأن هذا العمل العدمي «يحمل المفتاح المفضي إلى أدب ميشيما بأسره»!

ب ـ في صباح ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠، الدموي ذاك، الذي انطلق فيه ميشيما مع رفاقه إلى مقر القيادة الشرقية للجيش الياباني، حيث لقي حتفه عبر طقوس السيبوكو، ترك الكاتب الياباني، قبل مغادرته داره، قصاصة ورق على مكتبه، كتب عليها «حياة البشر قصيرة، لكني أودّ أن أحيا إلى الأبد».

الآن هل نستطيع، ونحن نقرأ «بحر الخصب»، القول بأن ميشيما قد حقق أمنيته؟

. . . وبعد، فإن «بحر الخصب» كون هائل من الغموض والسحر والجمال. ليس الإبحار فيه بالمهمة السهلة، ولكن تلك، في نهاية المطاف، هي الصعوبة الجميلة حقاً؛ ربما لأننا في هذا البحر اللّجي إنما نعيد

اكتشاف أنفسنا، بمعنى ما، ونطرح على الإنسان القابع في أعماقنا الأسئلة الأكثر أهمية، المفضية إلى الفضاء الرحب والمدهش، المطل على إمكانية تغيير العالم.

المترجم

- ١ -

عندما تحول مسار الحوار، في المدرسة، إلى الحرب اليابانية ـ الروسية، سأل كيواكي ماتسوجاي أقرب أصدقائه إليه، شيجيكوني هوندا، عن مدى اتساع نطاق ما يمكن أن يتذكره عنها، وكانت ذكريات شيجيكوني تتشح بالغموض، فبالكاد تذكر اصطحابه إلى البوابة الأمامية لمشاهدة موكب لحملة المشاعل. وفي العام الذي انتهت فيه الحرب، كان كلاهما في الحادية عشرة من العمر، ويبدو لكيواكي أنه كان حرياً بهما أن يتذكرا الحرب، ولو بقدر يفوق هذا بقليل من الدقة. أما زملاؤهما، الذين راحوا يتحدثون حديث العارف عن الحرب، فما كانوا، في الغالب، إلا عاكفين على تجميل ذكريات غائمة بما التقطوه من أنباء سارة، نقلوها عن الكبار.

وقد لقي اثنانٌ من أبناء عائلة ماتسوجاي، هما عمّا كيواكي، مصرعهما في الحرب. ولا تزال جدته تتلقى معاشاً من الحكومة، بفضل هذين الابنين، اللذين فقدتهما، ولكنها لم تستخدم النقود قط، وإنما تركت المظاريف، دون أن تفضها، على رف المقام القدسي في الدار. وربما كان هذا هو السبب في أن الصورة التي أثرت في نفس كيواكي، أكثر من غيرها من صور الحرب، كانت صورة بعنوان «في جوار معبد توكوري: صلاة على أرواح ضحايا الحرب». وقد أُرّخت في ٢٦ يونيو ١٩٠٤، أي العام السابع والثلاثين من عهد الامبراطور ميجي. وهذه الصورة ذات اللون البني، الذي يشبه حبر السبيدج، كانت مفارقة تماماً لذكريات الحرب العادية المتناثرة. وقد التقطها الفنان واضعاً عينه على معمارها الفني، الأمر

الذي جعلها تبدو كما لو أن آلاف الجنود، الذين تصورهم، قد تم صفهم بصورة متعمدة، شأن شخوص في لوحة زيتية، بحيث يتركز انتباه الناظر إليها على النصب الشامخ من الخشب، غير المطلي، الذي انتصب وسطهم. وفي البعيد، تحدرت الجبال هوناً، وقد لفها الغمام، لتسمق على مراحل متتابعة إلى يسار الصورة، بعيداً عن السهل الرحب، الذي وقف فيه الجنود. أما إلى اليمين فقد شمخت، في البعيد، ترقشها أجمات الأشجار، لتتوارى في الغبار الأصفر، الذي خيَّم على الأفق. وهنا امتدت، بدلاً من الجبال، مجموعات من الأشجار، تزايد طولها مع انتقال العين يميناً، وأطلت سماء مصفرَّة، عبر الفواصل القائمة بينها، وشمخت ست شجرات، بالغة الطول، في مقدمة الصورة، تفصلها مسافات منتظمة، وقد بدت كما لو وضعت لتكمل التناسق الكلي لمعالم الطبيعة. وكان من المستحيل تحديد نوعها، ولكن أغصانها العليا، الثقيلة، بدت منحنية مع الريح، بجلال مأساوي.

تألق المدى الرحب للسهوب، على نحو خافت؛ ففي هذا الجانب من الجبال كانت الخضرة مسطحة ومتناثرة. وفي قلب الصورة، انتصب، جلي التفاصيل، النصب الخشبي، غير المطلي، والمذبح، الذي علته الأزهار، وتموَّجت في الريح أطراف القماش الأبيض الذي يكسوه.

فيما بقي من الصورة، لا تقع العين إلا على الجنود، آلاف الجنود. وفي وصدرها أُبعدوا عن آلة التصوير، للكشف عن الواقيات البيضاء من الشمس الممتدة من قبعاتهم، والأحزمة الجلدية المتقاطعة عند ظهورهم. لم يشكلوا صفوفاً منتظمة، وإنما انخرطوا في مجموعات، وقد انحنت منهم الرؤوس. وحوَّلت قلة منهم، عند الركن الأيسر الأدنى، وجوههم نحو آلة التصوير، في التفاتة يسيرة، فبدت، وقد لوحتها الشمس، وكأنها شخوص في لوحة من لوحات عصر النهضة. وفيما وراء ثلة الجند تلك، ترامى حشد

منهم، في شبه دائرة هائلة، تمتد حتى نهايات السهل، عدد هائل من الجنود، بحيث استحال تماماً أن يميز المرء أحدهم عن الآخر، وتجمع المزيد منهم، في البعيد، وسط الأشجار.

راحت شخوص هؤلاء الجنود، سواء في المقدمة أم في الخلفية، تستحم في ضوء كابٍ، غريب، حدَّد أطراف أربطة الأرجل والأحذية العسكرية، والتقط أقواس انحناءات الجنود وأقفيتهم. وقد شحن هذا الضوء الصورة كلها بشعور بالحزن، يستعصي على الوصف.

شعَّ من هؤلاء الرجال انفعال، ارتطم كالموجة بالمذبح الأبيض، الصغير، وبالزهور، وبالنصب الشامخ، في وسطهم. وانهلَّت من هذه الكتلة الهائلة، الممتدة إلى حافة السهل، فكرة واحدة، تتجاوز كل طاقة التعبير البشري، كأنها حلقة ثقيلة وكبيرة من الحديد في المنتصف.

لوَّن قدم هذه الصورة، وملمح حبر السبيدج الذي يحفها، كيانها كله بمناخ من الألم والوجع اللامتناهي.

* * *

كان كيواكي في الثامنة عشرة من عمره. ولم يكن هناك شيء في الدار، التي ولد بها، يبرر كونه على مثل هذا القدر من الحساسية والميل إلى الحزن والاكتئاب. وسيتعين على المرء أن يبذل جهداً فوق الطاقة، في تلك الدار والمترامية الأطراف، المشيدة على تل قرب شيبويا، لكي يعثر على شخص يشارك كيواكي حساسيته، على أي نحو من الأنحاء. كانت الدار لعائلة ساموراي عريقة المحتد. ولكن والد كيواكي، الأمير ماتسوجاي، وقد أحرجته المكانة المتواضعة التي احتلها أسلافه، منذ عهد قريب، يصل إلى نهاية الحكم العسكري، قبل نصف قرن، بعث بالفتى، فيما كان لا يزال طفلاً صغيراً، لكي يُربّى في دار نبيل من نبلاء البلاط. ولو أنه لم يفعل ذلك، لما غدا كيواكي شاباً على مثل هذا القدر من الحساسية.

احتلت دارة الأمير ماتسوجاي مساحة واسعة من الأرض، فيها وراء شيبويا، عند مشارف طوكيو، وامتدت المباني العديدة فوق ما يزيد على مئة فدان، وشمخت أسقفها، في تناسق جذاب. كانت الدار الرئيسية ذات معمار ياباني، ولكن في ركن الحديقة انتصبت دار منيفة مشيدة على الطراز الغربي، قام بتصميمها معماري إنجليزي. وقد قيل إنها واحدة من أربع دور ـ كانت دار القائد أوياما أولاها ـ يمكن للمرء أن يدخلها دون خلع نعليه، عند الباب.

وفي قلب الحديقة، امتدت بحيرة كبيرة، يحفها تل، كسته أشجار القيقب، وهي من الضخامة بحيث تستوعب حركة القوارب فيها، وفي وسطها جزيرة وزنابق ماء مزدهرة، بل وأوعية أبواغ الأشنة المائية، التي يمكن قطفها، ونقلها إلى المطبخ، وتطل قاعة الاستقبال بالدار الرئيسية، وكذلك قاعة المآدب في الدار الغربية، على البحيرة.

تناثر حوالي مئتي مصباح حجري، بصورة عشوائية، على امتداد الضفاف وفي الجزيرة، التي تزينها ثلاثة كراكي، صنعت من الحديد المسبوك، تميل اثنتان منها بجيديها الأتلعين نحو السماء، أما الثالثة فرأسها مُنحنٍ نحو الأرض.

يندفع الماء من منبعه، عند قمة تل القيقب، ويهبط المنحدرات، في شلالات عديدة، ثم يمر الغوير تحت جسر خشبي، وينحدر إلى مسبح، تظله صخور من جزيرة سادو، قبل أن يتدفق إلى البحيرة، عند بقعة تزدهر فيها، خلال الموسم، سوسنات بديعة، تمتد على مساحة واسعة. وقد امتلأت البحيرة بكل من أسماك الشبوط والشبوط الأسود الشتوي. ويسمح الأمير ماتسوجاي، مرتين في كل عام، لتلاميذ المدارس بالقدوم إلى هناك في نزهات خلوية.

وفي طفـولة كيـواكي، كان الخـدم يخيفونـه بـأقـاصيص عن السـلاحف النهّاشة. فمنذ زمان طـويل، حينـما ألمّ المرض بجـدّه، أهداه صـديق له مئـة من هذه السلاحف، على أمل أن يعيد له لحمهـا قوتـه، وعندمـا أطلقت في البحـيرة تكاثـرت بسرعة، وكـان الخدم يحـدثون كيـواكي، قـائلين إنـه إذا أطبقت سلحفاة نهّاشة على أصبعك فقل عليه السلام!

وكانت هناك مقصورات عديدة، تستخدم لحفلات الشاي، وقاعة بليارد فسيحـة. وخلف الدار الـرئيسية، نمت بـطاطا اليـام البريـة بكثافـة لتمـلأ الأرض، وشمخت أجمة من أشجار السرو، التي غرسها جـدّ كيواكي لأبيـه، وشقها طريقـان متقاطعـان، يفضي أحدهمـا إلى البوابـة الخلفية، أمـا الآخر فيمضي صعداً، عبر تل صغير، وصولاً إلى قمة هضبـة، يعلوها مزار، يقع في ركن مساحة رحبة من الأرض المعشبة. وقـد كان هـذا هو المكـان الذي دفن فيه جده واثنان من أعمامه. وكان الـدرج والمصابيـح والحلى المحـدبة، وكـل ذلك من الحجـر، شيئاً تقليـدياً، ولكن عـلى جانبي الـدرج كليهـما، وبـدلاً من الأسود المـألوفـة الجاثمـة مجثم الكلب، طليت قنبلتان من قنـابل المدافع من مخلفـات الحرب اليـابانيـة ـ الروسيـة بطلاء أبيض ونصبت عـلى الأرض. وعـلى نحـو أكـثر انخفـاضــاً، كـان هنــاك مـزار لإينــاري، رب الحصاد، وراء تعريشات رائعة من الوستارية، بزهـورها العنقـودية الـزرقاء والبيضاء والأرجوانية. وكانت ذكرى وفاة جده تحل في نهايـة مايـو، وهكذا كـانت الوستارية، عـلى الدوام، في أوج تـألقها، لـدى تجمع العـائلة هنـا للصلاة على روحه، وكانت النســوة يقفن في ظلها، تجنبـاً لوقـدة الشمس. فترقّش وجـوههن البيضــاء، التي نـثر عليهـا الـذرور الأبيض، بمـزيـد من التدقيق يفوق المعتاد لمواكبة المناسبـة، باللون البنفسجي، كـأنما ظـل فريـد للموت ترامى على وجناتهن.

النسـاء. ما من أحـد كان بـوسعه أن يحصى عـلى وجه الـدقـة كم منهن

يقمن في دارة ماتسوجاي. وجدة كيواكي تحتل مرتبة الأولوية، بالطبع، عليهن جميعهاً، وذلك على الرغم من أنها آثرت أن تحيا معتكفة على مبعدة عن الدار الرئيسية، تحيط بها ثماني خادمات، يلبين طلباتها. وصبيحة كل يوم، ممطراً كان هذا اليوم أو مشرقاً، تنتهي أم كيواكي من أخذ زينتها، وتمضي تواً، وبصحبتها خادمتان، لتحيّي الجدة العجوز. وكل يوم تمحص هذه الأخيرة مظهر كنتها.

تقول، وقد تقاربت عيناها في ود:

ـ تلك التسريحة ليست مناسبة تماماً. لم لا تجربين تسريح شعرك ليتناسب مع الياقة العالية غداً؟ إني على تمام اليقين من أن منظرك سيكون أحسن حالاً.

ولكن عندما يصفّف الشعر على الطريقة الغربية، في اليوم التالي، تعقّب الجدة قائلة:

ـ حقاً، يا تسوجيكو، إن تصفيف الشعر مع الياقة العالية لا يناسب حسناء يابانية، متمسكة بالطراز العتيق، مثلك. جرِّبي، لطفاً، تسريحة ماروميج غداً!

وهكذا دواليك، وبقدر ما يسع كيواكي أن يتذكر، فقد كان مصفِّف شعر أمه يعكف دوماً على تغيير أساليب تصفيف شعرها.

كان مصفِّفو الشعر ومساعدوهم في حالة عمل لا تكل؛ فلم يكن شعر أمه وحده هو الذي يتطلب خدماتهم، وإنما كان عليهم الاعتناء بشعر ما يزيد على أربعين وصيفة وخادمة. ومع ذلك، فقد أظهروا اهتماماً بشعر عضو واحد من الذكور في العائلة، وذلك في مناسبة واحدة فحسب. وقد وقع ذلك عندما كان كيواكي في عامه الأول من المدرسة الوسيطة التابعة

لمدرسة النبلاء، فقد نال شرف اختياره ليقوم بمهام الوصيف، في احتفالات العام الجديد بالقصر الامبراطوري.

قال أحد المصفّفين:

- أعلم أنهم في المدرسة يرغبون في أن تظهر بمظهر الكاهن الصغير، لكن ذلك الرأس الحليق لن يبدو متناسباً مع حلتك البديعة اليوم.

- لكنهم سيكيلون لي اللوم، إذا كان شعري مسترسلاً.

قال المصفِّف:

- طيب. طيب. دعني أرى ما يمكنني القيام به لتحسينه، وعلى أية حال فسوف تعتمر قبعة، ولكنني أظنّ أن بمقدورنا أن نرتب الأمور، بحيث أنك، حتى إذا نزعت قبعتك، ستبزّ كل النبلاء الشبان الآخرين.

على هذا النحو تحدث، ولكن كيواكي في الثالثة عشرة من عمره كان شعره يقص فيغدو قصيراً للغاية، حتى يبدو رأسه أزرق، وحينما فرق مصفِّف الشعر شعره أوجعه المشط، ولسع زيت الشعر جلده، ورغم براعة المصفِّف، التي يتباهى بها، فإن الرأس لم يَبْدُ في صقال المرآة مختلفاً عن رؤوس الفتية الآخرين. ومع ذلك، فقد أُشيد به في المأدبة لبهائه المتميز.

كان الإمبراطور ميجي نفسه قد شرَّف دارة ماتسوجاي، ذات مرة، بحضوره، وترفيهاً عن سموه الأمبراطوري أقيم عرض لمصارعي السومو، تحت شجرة جنكة هائلة، أسدلت الستائر حول المنطقة المحيطة بها، فعزلتها عما سواها. وراح الأمبراطور يتابع العرض، من شرفة في الطابق الثاني من الدار الغربية. وقد أفضى كيواكي لمصفِّف الشعر بأنه، أي كيواكي، سمح له بهذه المناسبة بالمثول في حضرة الأمبراطور، وكلف سموه نفسه عناء التربيت على رأسه. وكان ذلك قبل أربع سنوات، ولكنه رغم

ذلك كان من المستحيل أن يتذكر الأمبراطور رأس وصيف من الوصفاء في احتفالات العام الجديد.

صاح المصفِّف، وقد غلبه الانفعال، قائلاً:

ـ حقاً؟ أتعني، أيها السيد الشاب، القول بأن الأمبراطور نفسه قد ربت على رأسك!

قالها، متراجعاً عبر الأرضية، المكسوة بالحصير، وقد مدَّ كفيه متطابقين أمامه في إجلال أصيل للفتى.

كان الزي، الذي يرتديه وصيف لإحدى سيدات البلاط، يتألف من سترة وسروال متناسق من المخمل الأزرق، ويصل الأخير إلى أسفل الركبتين مباشرة. وفي أسفل كل من جانبي السترة، يمتد صف، مؤلف من أربع كريات بيضاء، رقيقة الملمس، وجُمّلت الأكمام والسروال بالمزيد منها. وكان الوصيف يتوشح سيفاً، والحذاء الذي تنقله قدماه بأربطتها البيضاء يثبت بأزرار مطلية باللون الأسود، وقد عقدت ربطة عنق بيضاء عند وسط ياقته العريضة ذات الشريط الزخرفي، وتدلت قبعة مثلثة، تزيِّنها ريشة كبيرة على ظهره، مشدودة بخيط حريري. وفي مطلع كل عام، يتم اختيار حوالي عشرين من أبناء النبلاء ذوي التقارير المدرسية المتميزة، ليتتابعوا، أربعة فأربعة، على حمل طرف رداء الأمبراطورة، أو اثنين فاثنين، على حمل طرف رداء أميرة من أميرات العائلة الأمبراطورية ، خلال الأيام الثلاثة التي تقام فيها الاحتفالات. وقد حمل كيواكي طرف رداء الأمبراطورة مرة، وحمل طرف رداء الأميرة كاسوجا مرة كذلك. وعندما حان دوره في حمل طرف رداء الأمبراطورة، مضت تشق طريقها قدماً بكبرياء وقور، عبر الأبهاء التي يضوع فيها عبق البخور المسكي، الذي أطلقه القائمون على رعاية شؤون القصر، وقد وقف خلفها، خلال الاحتفال. كانت امرأة شديدة الأناقة والذكاء، ولكنها كانت في ذلك الحين قد علا بها العمر، فبلغت الستين.

أما الأميرة كاسوجا فلم تتجاوز الثلاثين بكثير وقتذاك، وفي حسنها وأناقتها وتميزها، بدت كأنها زهرة في لحظة كمالها.

وحتى الآن، لايزال بوسع كيواكي أن يتذكر عن طرف رداء الأميرة العريض، المصنوع من فراء القاقم الأبيض، بنقاطه البيض، واللآلىء التي تزين حافته، أكثر مما يذكر عن طرف الرداء البالغ القتامة، الذي كانت الأمبراطورة تؤثره، وكانت له أربع أنشوطات ليمسكه منها الوصفاء، بينما كان لرداء الأميرة أنشوطتان. وقد تدرب كيواكي والآخرون تدريباً بالغ الكثافة على مهامهم، حتى أنهم لم يواجهوا أية مشكلات في الإمساك بالرداء بثبات، فيما هم يتقدمون بإيقاع ثابت.

كان لشعر الأميرة كاسوجا ذلك السواد الفاحم والتألق، الذي يتميز به اللّك البديع، ولدى النظر إليها من الخلف، بدت تسريحتها الضافية وكأنها تنحل منسابة إلى البشرة البيضاء الفائقة لقفاها، تاركة جدائل متفردة على كتفيها العاريتين، اللتين كانت فتحة ثوبها تطبق على تألقهما الخافت.

مضت منتصبة القامة، وانطلقت قدماً بخطى ثابتة، دون أن تند عنها اختلاجة تصل إلى حملة أطراف ردائها، ولكن بالنسبة لعيني كيواكي بدت تلك المعجبة العظيمة بالفراء الأبيض، وكأنها تتوهج وتخبو على صوت الموسيقى، كأنها قمة جبلية يكسوها الجليد، يحجبها أولاً، ثم يكشفها للناظرين، دفق منساب من السحب. وفي تلك اللحظة، وللمرة الأولى في حياته، فاجأته القوة الكاملة لحسن المرأة ـ دفق باهر من الأناقة ترنحت له حواسه.

امتد استخدام الأميرة كاسوجا الكثيف للعطر الفرنسي إلى طرف ردائها، وقد فاق عبقه الرائحة المسكية المنبعثة من البخور. وعلى مسافة ما من بداية الدهليز، تعثّر كيواكي للحظة، جاذباً دونما قصد طرف الرداء، فالتفتت

الأميرة قليلاً، وفي معرض الإيماء إلى أن الأمر لم يثر ضيقها على الإطلاق، ابتسمت، في رفق، للصبي مصدر الإزعاج. مرت إيماءتها دون أن يلحظها أحد، وإذ ظل جسمها على تمام الانتصاب، في غمار تلك الالتفاتة العابرة، منحت كيواكي لمحة من ركن فمها. في تلك اللحظة، انزلقت خصلة واحدة من شعرها فوق خدها الأبيض الصافي، ومن الركن البديع التكحيل لإحدى عينيها، تألقت ابتسامة متوهجة، في شرار من نار فاحمة. لكن خط أنفها الدقيق لم يختلج. بدا الأمر كأن شيئاً لم يقع... وقد جعلت هذه الزاوية المنفلتة سريعاً لوجه الأميرة، والتي كانت أضيق من أن تسمح بالحديث عن صورة جانبية، كيواكي يحس كأنه رأى قوس قزح يتوهج، للحظة عجلى، عبر منشور بلوري نقي.

راح أبوه، الأمير ماتسوجاي، يرقب دور ابنه في الاحتفالات، مستوعباً المظهر المتألق للصبي، في حلته المراسيمية الجميلة، ومستشعراً الاغتباط الذي يخالج رجلاً يرى حلم عمره وقد تحقق. ونحّى هذا الفوز تماماً مخاوفه المتأرجحة من أنه لايزال يبدو دعياً، رغم كل محاولاته لتكريس نفسه باعتباره شخصاً مؤهلاً لاستقبال الأمبراطور في داره. أما الآن، فقد رأى في شخص ولده الانصهار المطلق لتقاليد الساموراي والأعراف الأرستقراطية، والانسجام الكامل بين نبلاء البلاط القدامى والنبالة الجديدة.

ولكن مع استمرار الاحتفال، انقلب اغتباط الأمير، حيال المديح الذي كاله الناس لمظهر الصبي، إلى مشاعر قوامها عدم الارتياح؛ فقد كان كيواكي، في الثالثة عشرة من عمره، أنيقاً أكثر مما ينبغي، في مجمل مظهره. وإذ نحّى جانباً العاطفة الطبيعية التي يكنها لولده، فإنه لم يملك إلاّ أن يلاحظ أنه كان متفوقاً، حتى على رفاقه من الوصفاء، فقد كان خداه الشاحبان يتضرجان بالحمرة، حينما يأخذه الانفعال، وحاجباه يلوحان ممددين تماماً، وعيناه النجلاوان، اللتان لا يزال يسكنهما الفضول على نحو طفولي،

تؤطرهما أهداب طويلة. كانتا سوداوين، ولهما لمعة فاتنة. وهكذا، فإن فيض المجاملات دفع الأمير إلى ملاحظة الحسن الاستثنائي، الذي يتميز به ولده ووريثه، واستشعر شيئاً يثير القلق في ذلك الحسن، ومسه هاجس مزعج، لكنه كان رجلاً متفائلاً، على نحو مفرط، فتخلص من انزعاجه بمجرد انتهاء الحفل.

كانت هناك مخاوف مماثلة أكثر إلحاحاً، في ذهن إينوما الشاب.. الذي أقبل للإقامة في دارة ماتسوجاي، وهو فتى في السابعة عشرة من عمره، قبل عام من قيام كيواكي بمهمة الوصيف الأمبراطوري، وقد أوصت المدرسة الوسطى في قريته، كاجوشيما، به ليكون مدرساً خصوصياً لكيواكي، وأرسل إلى آل ماتسوجاي مزوداً بشهادات تدل على قدراته الذهنية والبدنية. وكان والد الأمير الحالي يحظى بالتوقير باعتباره رباً، قوياً وصارماً، في كاجوشيما. وقد نظر إينوما إلى الحياة في دارة ماتسوجاي بصورة كلية، من خلال ما سمعه في قريته أو في المدرسة عن منجزات الأمير الراحل. غير أنه، في العام الذي أمضاه مع أهل الدارة، وضع أسلوب حياتهم المترف حداً لتوقعه، وجرح حساسيته التطهرية، على نحو صبياني.

لم يستعص عليه أن يغمض عينيه عن الأمور الأخرى، ولكن ذلك لا ينطبق، فيما يتعلق بكيواكي، الذي كان مسؤولاً عنه مسؤولية شخصيته. وكان كل شيء فيه يثير ضيقه ـ مظهره، رقته، حساسيته، مساره الذهني، اهتماماته ـ كما كان كل شيء يتعلق بموقف الأمير والأميرة حيال تعليم ابنهما يثير شعوراً مماثلاً لديه بالتعاسة، فيمضي محدِّثاً نفسه: «لن أربي ابني قط على تلك الشاكلة، حتى ولو جعلت أميراً. ترى أي قدر من الاكتراث تعتقد أن الأمير يبديه حيال معتقدات أبيه؟».

في الليلة التي عاد فيها كيواكي إلى الدار، بعد الاضطلاع بواجباته باعتباره وصيفاً إمبراطورياً، أقام الأمير وزوجته مأدبة عشاء عائلية خاصة،

احتفالاً بهذه المناسبة. وعندما جاء وقت إسراع كيواكي ليأوى إلى فراشه، ساعده إينوما في التوجه إلى غرفته. كان خدا الفتى، الذي يجتاز الثالثة عشرة من عمره، متضرجين بالحمرة، جراء النبيذ الذي جعله أبوه، بين الجد والهزل، يحتسيه راغماً. اندس في الأغطية الحريرية، وترك رأسه يتراجع إلى الوسادة، فيما ترددت أنفاسه ثقيلة، دافئة. درت أوردته، الممتدة تحت شعره القصير، حول شحمتي أذنيه، وبدا الجلد شفافاً، على نحو بالغ الغرابة، إلى حد أن المرء كان بمقدوره، أن يرى الآلية الهشة الدائرة داخله. وحتى في عتمة الغرفة لاحت شفتاه حمراوين. وترددت أصوات التنفس الصادرة عن الصبي، الذي بدا وكأنه لم يجرب العناء يوماً، وكأنها الصدى الساحر لأغنية شعبية.

تطلع إينوما إلى محياه، إلى العينين الحساستين، البراقتين، بأهدابهما الطويلة ـ كأنهما عينا ثعلب ماء ـ وعرف أنه لا أمل يرجى من توقع أن يقوم بأداء قسم الولاء المفعم بالحماس للإمبراطور، الذي كان حرياً أن تدفع ليلة كهذه أي فتى ياباني، عادي، يشق طريقه نحو الرجولة، حظي بأداء مثل هذه المهمة المجيدة، إلى تأديته.

كانت عينا كيواكي الآن مفتوحتين تماماً، فيما هو راقد على ظهره، يحدق في السقف، وقد اغرورقتا بالدموع. وعندما تحولت هذه النظرة المتألقة نحو إينوما، ازداد شعوره بالاستياء عمقاً. لكن هذا جعل إيمانه بولائه يزداد إلحاحاً. وعندما شعر كيواكي، فيما يبدو، بالحر، وجذب ذراعيه العاريين المتضرجين قليلاً من تحت الغطاء، وشرع في طيهّما خلف رأسه، أنّبه إينوما، وأغلق ياقة منامته المفتوحة:

ـ ستصيبك نوبة برد. عليك بالنوم الآن!

ـ إينوما، أتعرف. . . أتيت أمراً سيّئاً، اليوم. لئن وعدت بألا تبلغ أمي أو أبي، فإني محدثك به.

ـ وما ذاك؟

ـ اليوم، فيما كنت أحمل طرف رداء الأميرة، تعثرت قليـلاً، لكنها لم تحـر إلا الابتسام، وصفحت عني.

أثارت هذه الكلمات اللعوب، وغياب أي شعور بالمسؤولية، ونظرة النشوة الدامعة المرتسمة في هاتين العينين، وكل شيء، شعور إينوما بالغثيان.

- ٢ -

لم يكن من المـدهش، إذن، أنه ببلوغ كيـواكي الثامنـة عشرة من عمـره أفضت اهتماماته، على نحو متزايـد، إلى عزلـه عما يحيط بـه، فهو لم يتبـاعد عن عائلته وحدها، ذلك أن المدرسين في مدرسة النبلاء كانوا قد غرسوا في نفوس طلابهم المثال الفائق النبل، الذي ضربه الناظر، القائد نوجي، الـذي انتحر، ليتبع امـبراطوره في رحـاب الموت. ومنـذ ذلـك الحـين شرعـوا في التأكيد على أهمية ما قام به، مشيرين إلى أن عـرفهم التربـوي ما كـان يمكن أن يكون على هذا القدر من الثراء، لو أن القائد نـوجي مات حتف أنفـه، وسيطر مناخ من البساطة الاسبرطية على كل مـا في المدرسـة، ولهذا السبب استشعر كيواكي، الذي اتسم بنفور من كل ما يوحي بالنـزعة العسكـرية، كراهية تصل حد المقت للمدرسة.

كان صديقه الوحيـد هو زميله في الصف شيجيكـوني هونـدا. وبالـطبع تعدَّد من كان يعدهم أن يكونوا أصدقاء له، لكنـه ضاق ذرعـاً بفـجاجتهم الصبيانية، ولم يطق صبراً حيال أساليبهم الخشنـة، المترعـة بالمـزاح، بل وثـار شعـوره بالغثيـان، حيـال نـزعتهم العـاطفيـة الغليـظة، التي تتبـدى حينـما يجـأرون، دونما اكـتراث، بالنشيـد المدرسي. لم يجتـذبه إلا هـوندا، بمـزاجه الهادىء، المتحفظ، والعقلاني، وهـو المـزاج غـير المـألـوف في فتى في مثـل عمره. ومع ذلك، فلم يكن يربطهما إلا القليـل من القواسم المشـتركة، في المظهر أو المزاج.

بدا مظهـر هونـدا موحيـاً بسنوات أكـبر من عمره. وعـلى الرغم من أن

ملامحه كانت عادية تماماً، فقد سيطر عليه ميل إلى اتخاذ هيئة توحي بالفخامة والأبهة. وقد احتذبته دراسة القانون، وأوتي موهبة الحدس الدقيق، لكنها قوة كان يميل إلى حجبها، وبدت هيئته موحية بأنه يلتزم اللامبالاة حيال المتع الحسية، غير أنه أتى عليه حين من الدهر بدا فيه وقد ألهبته بسياطها عاطفة جارفة من نوع ما، وفي مثل هذه اللحظات يفجأه المرء وقد انفرجت شفتاه قليلاً، وهو الذي يطبق شفتيه، في حزم، على الدوام، فيما هو يضيق ما بين عينيه، في قسوة، يستجيب لها حاجباه في تقطيبة جلية.

وبما كان كيواكي وهوندا مختلفين في تركيبهما، مثلما تختلف الزهرة وورقة نبته وحيدة، فقد اتسم الأول بالعجز عن حجب طبيعته الحقة، وتجرد من أساليب الدفاع حيال قدرة المجتمع على الإيلام. وقد هجعت نزعته الحسية، التي لما تستيقظ من مرقدها في أعماقه، دونما حماية، كأنها جرو تنهمر عليه شآبيب مطر مارس، فتأخذه الرعدة، وينساب الماء من خطمه. وبالمقابل، أدرك هوندا في مرحلة باكرة من عمره مكمن الخطر، فاختار الاحتماء من كل العواصف، مهما كانت جاذبيتها.

غير أنهما، على الرغم من هذا، ربطتهما عرى صداقة وثيقة، فلم يكتفيا باللقاء في المدرسة، وإنما راحا يقضيان كذلك أيام الآحاد معاً في دار أحدهما، ولأن ضيعة ماتسوجاي تضم مجالاً أرحب للنزهات وضروب الترفيه؛ فغالباً ما كان هوندا يزور كيواكي في داره.

ذات يوم أحد، من شهر أكتوبر ١٩١٢، وهو العام الأول في عهد تايشو، وفي أصيل أوشكت أوراق أشجار القيقب أن تبلغ فيه كمالها، وصل هوندا إلى غرفة كيواكي، ليقترح الذهاب لركوب القارب في البحيرة. ولو أن هذا العام كان كأي عام غيره لأقبل عدد متزايد من الزوار لتأمل أوراق أشجار القيقب، ولكن آل ماتسوجاي لزموا الحداد، منذ وفاة الامبراطور،

في الصيف السابق، وأجلوا الأنشطة الاجتماعية العادية، فهيمن صمت غير مألوف على الحديقة.

ـ طيب، إذا كانت تلك رغبتك، القارب يتسع لثلاثة أشخاص، وسنصحب إينوما ليجذف لنا.

قال هوندا، متذكراً التعبير الصارم، الذي ارتسم على ملامح الشاب، الذي رافقه بلا داع، بخنوع صامت لا يتراجع إلى غرفة كيواكي:

ـ وما حاجتنا لمن يجدف لنا؟

ابتسم كيواكي، قائلاً:

ـ إنك لا تكنُّ له وداً، يا هوندا! أليس كذلك؟

ـ ليست المسألة أنني لا أكنُّ له وداً، كل ما في الأمر أنني، طوال معرفتي له، لم أستطع معرفة ما يدور داخل رأسه.

ـ لقد أمضى هنا ست سنوات، فأصبحت اعتبر وجوده من الأمور المسلم بها، شأن الهواء الذي أتنفسه. من المؤكد أننا لا نتفق تماماً في نظرتنا للأمور، ولكنه مع ذلك مخلص لي. ويكنُّ لنا الولاء، ويعكف جاداً على دراسته. بمقدورك الركون إليه.

تقع غرفة كيواكي، في الطابق الثاني، في مواجهة البحيرة. وقد أثبتت، في الأصل، على الطراز الياباني، إلا أنها أعيد تصميم محتوياتها لتبدو غربية، حيث استخدمت سجادة وأثاث غربي. اقتعد هوندا حافة النافذة، والتفت متأملاً امتداد البحيرة بأسرها، الجزيرة، ووتد القيقب المترامي وراءها. بدا الماء ساكناً تحت شمس الأصيل، وتحت موضعه مباشرة كان بمقدوره أن يرى القوارب، وقد أرسيت في خور صغير.

في الوقت نفسه، راح يمعن التفكير في افتقار صديقه للحماس، فلم يحدث أن أخذ كيواكي بزمام المبادرة قط، وإن كان في بعض الأحيان

يشارك، وقد بدا عليه الضجر التام، لا لشيء إلا ليمتع نفسه على طريقته الخاصة. وإذن، فقد وقع دور الناصح المتصدي للقيادة على كاهل هوندا دوماً، في حالة قيامهما بأي شيء على الإطلاق.

قال كيواكي:

ـ باستطاعتك رؤية القوارب. أليس كذلك؟

ردّ «هوندا» ملقيا نظرة مترددة وراءه:

ـ بلى، أستطيع ذلك، بالطبع.

* * *

ما الذي قصده كيواكي بسؤاله؟ لو أن المرء قُدِّر له أن يخاطر بالقيام بتخمين ما، لذهب إلى أنه كان يحاول القول بأنه ليس مكترثاً بأي شيء على الإطلاق، فقد كان ينظر إلى نفسه باعتباره شوكة، شوكة صغيرة سامة غرست في يد عائلته الصناع. وكان هذا قدره؛ لأنه أحرز قليلاً من التأنق ورغد العيش. فقبل ما لا يزيد على نصف قرن. كان آل ماتسوجاي يكسبون عيشهم بمزيد من المشقة في الأقاليم، ولكن في فترة قصيرة من عمر الزمن صعد نجمهم، وعلا، وفي الوقت الذي أطل فيه كيواكي على الدنيا راحت الآثار الأولى للرغد تهدد بإحكام قبضتها على العائلة، التي تمتعت، على العكس من نبلاء البلاط، بقرون من الحصانة ضد الرفاه والدعة. وشأن نملة تستشعر مقدم الفيضان، كان كيواكي يعايش أولى التهديدات بالانهيار العاجل لعائلته.

كانت رهافة حسه هي الشوكة. وقد أدرك حق الإدراك أن نفوره من الخشونة وابتهاجه بكل ما هو مصقول ومتألق كانا بلا طائل؛ ذلك أنه نبتة مالها من جذور. فدون أن يقصد تقويض دعائم عائلته، وبغير رغبة منه في انتهاك تقاليدها، قُدِّر له، بحكم طبيعته ذاتها، القيام بذلك، وأحس الفتى الوسيم بأن هذا التجرد من الجدوى قد وسم وجوده بميسمه.

شكل اقتناعه بأنه ليس هناك قصد من حياته إلا أن يتصرف كما لـو كان سماً زعافاً جزءاً من ذات فتى في الثامنة عشرة من العمر، وقرَّ قـراره على أن يديه البيضاوين البديعتين لن تلطخا قط، ولن تعلوهما التسلّخات، أراد أن يكون مثـل راية ترفرف بحسب الريح. والشيء الوحيد الذي بدا له قائـماً، لا يـأتيه الشـك، هـو أن يحيـا من أجـل العـواصف، المجـردة من المـبرر، والبعيدة عن الثبات، التي لا تحتضر إلا لتبعث من مرقدها ثانية، تتراجـع، وتتوهج دون اتجاه ولا هدف ترمي إليه.

في الـوقت الراهن، لم يكن هنـاك من يثـير اهتـمامـه. التجـديف؟ لقـد حسب أبـوه أن القـارب، الــذي يجمـع بــين اللونـين الأخضر والأبيض، والمستورد من الخارج، مواكباً للصرعات الحديثـة، وبالنسبـة لهذا الأب كـان القارب ثقافة، ثقافة اكتست إهابـاً ملموسـاً. ولكن ماذا إن كـانت كذلـك؟ منذا الذي يكترث بقارب؟

فهم هوندا بحدسه الداخلي سر صمت كيـواكي المفاجىء؛ فعـلى الرغم من أنهما كانا من عمـر واحد، إلا أن هـوندا كـان أكثر نضجـاً، وفي حقيقة الأمر، كان شاباً يرغب في أن يحيا حياة بناءة، وقـد اتخذ قـراره، فيما يتعلق بالدور الذي سيضطلع به مستقبلاً. غير أنه كان مع كيواكي يحرص على أن يبدو أقل حساسية وحذقاً مما هو عليه بالفعـل، لعلمه بـأن صديقـه يرصـد بدقة إفصاحاته الحريصة عن تبلد ذهنه ـ ذلك الطعم الـوحيد، الـذي لاح أنه يجتذب انفعال كيواكي. وقـد امتد خيط الخـديعة هـذا، عبر صـداقتهما بأسرها.

قال هوندا، بحدة:

ـ سيفيـدك القيام ببعض النشــاط البدني. أعلم أنـك لم تقـرأ كـل هــذا القدر، ولكنك تبدو كما لو كنت قرأت مكتبة بكاملها.

ابتسم كيواكي، في معرض الرد؛ فقد كان هوندا على حق، ولم تكن كتبه هي التي استنزفت طاقته، وإنما أحلامه. وما كانت مكتبته بأسرها لترهقه على نحو ما يفعل انغماسه في الأحلام ليلة إثر الأخرى.

راوده البارحة حلم عن تابوته، وقد صنع من خشب لم يمسه طلاء. جثم في منتصف غرفة خاوية، ذات نوافذ رحبة، وفي الخارج كانت ظلمة ما قبل الفجر تستحيل ظلالاً من زرقة عميقة، امتلأت بتغريد الأطيار، تشبثت امرأة في مقتبل العمر بالتابوت، وقد انسدل شعرها الفاحم من رأسها المنكس، وتهافتت كتفاها الرشيقتان، مع موجات انخراطها في البكاء أراد التطلع إلى محياها، لكنه لم يستطع أن يميز أكثر من جبينها الشاحب الوضيء بطرة الشعر الرقيقة، الفاحمة، التي تتوّجه. كان التابوت شبه مغطى بجلد فهد، زيّنت اللآلىء حوافه، اتقد الوهج الأول الصامت للفجر على امتداد صف الحلى، وبدلاً من البخور الجنائزي، ملأ عبق عطر غربي الغرفة بعبير فاكهة انضجتها الشمس. بدا كأن كيواكي يرقب هذا من أعلى، على الرغم من اقتناعه بأن جثمانه مسجى داخل التابوت، ورغم يقينه، فقد ظل يستشعر الرغبة في أن يراه هنالك، على سبيل التأكد. غير أنه، شأن بعوضة في سنا الصباح، فقد جناحاه كل قوتهما، وكفّا عن الرفرفة في الهواء، وعجز على نحو مطلق عن التطلع إلى داخل التابوت المغطى والمثبت بالمسامير. وعندئذ، ومع تفاقم حدة إحباطه، استيقظ من منامه، والتقط مذكراته السرية، ودوَّن فيها هذا كله.

* * *

أخيراً، هبطا كلاهما، إلى المرسى، وفكّا الحبل، الذي يربط القارب إلى الشاطىء. عكست صفحة الماء الساكنة الحمرة الصارخة لأشجار القيقب، التي شرعت في الانداياح على التل في البعيد. وعندما ركب الزورق، أثار ارتجاجه العنيف في نفس كيواكي مشاعره الأثيرة، حول هشاشة الحياة

وتقلبهـا. في تلك اللحظة، بـدت أفكاره الـداخلية، كـما لو كـانت تصف قوساً هائلة، انعكست بجلاء في الحافة الشهباء الجديـدة للقارب، فـارتفعت معنوياته.

دفـع هـونـدا بـالمجـذاف في اتجـاه معـاكس للمـرسى الحجـري، ونـاور للانطلاق بالقارب. فيما كانت المقـدمة تـرعش صفحة المـاء المتألقـة باللون الأحمر الوهاج، حلَّقت التموجات الناعمة عالياً بإحسـاس كيواكي بـالتحرر والانـطلاق. بدا المـاء القاتم وكـأنه يتحـدث بصـوت عميق وقـور. ومضى كيواكي يحدث نفسه قائـلاً: «خريفي الثـامن عشر، اليوم، هـذا الأصيل، هـذه اللحظة: لن يعـود مجـدداً قط، شيء مـا ينـزلق، عـلى نحـو لا مجـال للاسترداد معه، إلى البعيد».

ـ أنلقي نظرة على الجزيرة؟

ـ وما الطريف في ذلك؟ ليس هناك ما يرى.

ـ لا تفسد علينا فرحتنا، هلم، لنمضِ، ولنلق نظرة!

قالها هوندا مستحثاً، تردد صوته عميقـاً في صدره، فيـما هو يجـدف بقوة مترعة بالعافية تناسب سنوات عمره.

فيما كيواكي يحدِّق في البحيرة، مثبتاً نظره إلى أسفـل، تناهى إلى سمعـه الصـوت الخـافت المنسـاب من الشـلال البعيـد. عـلى الجـانب الآخـر من الجزيرة، لم يكن بـوسعه رؤيـة الكثير؛ بسبب الغبش الضـارب أطنابـه على المـاء وحمرة أشجـار القيقب المنعكسة عـلى صفحته. كـان يعلم أن الشبوط يسبح في الأسفل هنالك، وعند القاع ذاتـه تجثم السلاحف النهَّـاشة في حمى الصخور، وللحظة توهجت مخاوف طفولته، ثم انكفأت إلى العدم.

لطمت الشمس الدافئة قفاهما الحليقين. كان أصيل أحـد مجيداً، مـترعاً بالسلام، خلا من الحوادث. ومع ذلك، فقد ظل كيواكي على اقتناعه بـأنه

في قرارة هذا العالم، الذي يشبه قربة جلدية مليئة بالماء، كان هناك ثقب صغير، وبدا له أن بمقدوره سماع الزمن، وهو ينسرب منه قطرة فأخرى.

بلغا الجزيرة، عند موضع تنتصب فيه شجرة قيقب وحيدة، وسط أشجار الصنوبر، وصعدا الدرج الحجري إلى المنطقة المعشبة، التي اجتثت أشجارها عند القمة ذات الكراكي الثلاثة من الحديد الزهر، واقتعدا الأرض عند الكركيين، اللذين يمدان عنقيهما في صيحة صامتة، خالدة، ثم استلقيا على النجيل ليحدقا في سماء أواخر الخريف. اخترق النجيل الخشن ظهري كيمونيهما، باعثاً شعوراً بعدم الارتياح في نفس كيواكي. غير أنه منح هوندا إحساساً بألم منعش، على نحو رائع، يتشظى، وينتشر تحت ظهره. وكان بمقدورهما أن يلمحا من أطراف أعينهما الكركيين، وقد تعاورهما المطر والريح، ولطختهما فضلات الطيور ذات اللون الطباشيري الأشهب، وبدا عنقا الطائرين اللدنان، المقوسان، الممتدان حيال السماء، وكأنهما يتحركان على مهل على إيقاع السحب، التي لا تني تغير أماكنها.

قال هوندا، وقد حركه هاجس ما:

ـ إنه يوم جميل. وقد لا تتاح لنا في حياتنا بأسرها أيام كهذا، على مثل هذا القدر من الكمال.

تساءل كيواكي:

ـ هل تتحدث عن السعادة؟

ـ لا أذكر أني قلت أي شيء عن السعادة.

ـ طيب، ليكن، إذن. إنني أشد شعوراً بالخوف من أن أقول أموراً كالتي تتحدث بها. لست أملك زمام هذا النوع من الشجاعة.

ـ كلي اقتناع بأن مشكلتك هي أنك شره، على نحو فظيع. والرجال الشرهون عرضة لأن يبدوا بؤساء. انظر، ما الذي يمكنك أن تتطلع إليه أكثر من يوم كيومنا هذا؟

ـ شيء محدد. أما ما هو كنهه فليست لدي فكرة عن ذلك.

هكذا رد الشاب، في سأم، جامعاً بين الوسامة والافتقار للحزم. وبقدر ولع كيواكي بهوندا إلا أنه كانت تأتي عليه أوقات يجد فيها أن عقلية صديقه الحادة في طابعها التحليلي وحديثه الموحي بالثقة في النفس ـ وهما الصورة المجسدة لوعد الشباب بالعطاء الآتي ـ اختبار عسير لطبيعته القُلَّب.

فجأة، تقلب على بطنه، فوق النجيل، ورفع رأسه، محدِّقاً عبر الماء في بقعة نائية، باتجاه الحديقة، التي تواجه قاعة الاستقبال في الدار الرئيسية. كان درج حجري مثبت في الرمل الأشهب يفضي منها إلى حافة البحيرة، التي تميزت بنتوءات دائرية، تتداخل معها خيران صغيرة، تعبرها سلسلة من الجسور الحجرية. ولاحظ وجود مجموعة من النساء هناك

- ٣ -

ربت على كتف هوندا، وأشار إلى ذلك الاتجاه، فرفع هوندا رأسه، وتطلع عبر الماء إلى أن رصد النساء بدوره. هكذا راحا يحدِّقان من مكمنهما، كأنهما قناصان فتيّان. كانت أمه تنطلق في نزهتها اليومية، حينما يحلو لها ذلك، لكن رفيقاتها اليوم لم يقتصرن على وصيفاتها وحدهن، وإنما سارت وراءها تماماً ضيفتان، إحداهما علا بها العمر، والأخرى في ميعة الصبا. كانت النسوة جميعهن، فيما عدا الفتاة، ترتدين كيموناهات ذات ألوان هادئة فاترة. ورغم أنها كانت ترتدي كيمونو شاحب الزرقة، فإن القماش كان مطرزاً على نحو وفير. وفيما عبرت الرمل الأشهب لتسير على حافة الماء، تألق ثوبها حريراً شاحباً، كأنه السماء عند انبلاح النور. وكشف ضحك النساء، الذي حمله نسيم الخريف عن ترددها في السير على الدرج الحجري غير المنتظم، ولكنه تردد ضحكاً بالغ النقاء ورنّ في الآذان على شيء من الافتعال. وكان كيواكي دائماً يضيق ذرعاً بسماع نسوة الدار يضحكن، على ذلك النحو، ولكنه أدرك تماماً طبيعة الأثر الذي خلفه في نفس هوندا، الذي تألقت عيناه، كأنه ديك حفزته قوقأة الدجاجات. راحت السوق الهشة للنجيل الخريفي الجاف تتكسر تحت صدريهما.

خالج كيواكي شعور يقيني بأن الفتاة ذات الكيمونو الشاحب الزرقة ما كانت لتضحك قط على ذلك النحو. في دفق من المرح، مضت وصيفات أمه بسيدتهن والضيفتين يداً بيد من حافة البحيرة إلى تل أشجار القيقب على امتداد طريق جرى تعقيده عمداً، من خلال متاهة من الجسور

الحجرية، امتدت، مثلما الخيط، فوق الخيران. وسرعان ما احتجبن عن أنظار كيواكي وهوندا الجاثمين وراء النجيل الكث.

ـ لديكم، بالتأكيد، العديد من النسوة في أرجاء داركم، أما نحن فليس لدينا إلا الرجال.

قالها هوندا، مخفياً اهتمامه، الذي كان من الحدّة بحيث يدفعه إلى النهوض والانتقال إلى الجانب الآخر من الجزيرة. كان بمقدوره من هنا، من ذلك المخبأ بين أشجار الصنوبر، أن يتابع التقدم غير المطّرد للنساء على الطريق. وإلى يساره احتضن تجويف في المنحدر الشلالات الأربعة الأولى من الشلالات التسعة، ثم يتبع الغدير عقب ذلك انحناء التل، وفي نهاية المطاف يتحدر إلى الأمام نحو البحيرة أسفل صخور سادو الحمراء. شقت النسوة طريقهن أسفل هذه الشلالات الأخيرة، وهن يتخيرن مواضع أقدامهن، على الأحجار المنحدرة. كانت أوراق أشجار القيقب جميلة، على نحو خاص، في ذلك الموضع، وشديدة الكثافة، حتى لترقّش شريط الشلالات الأشهب، وتصبغ الماء عند حافة البحيرة باللون القرمزي القاتم. مضت الوصيفات بالفتاة ذات الكيمونو الأزرق الشاحب عبر المنحدر الحجري، وقد انحنى رأسها إلى الأمام، وحتى من على ذلك البعد لاح قفاها الأبيض واضحاً لكيواكي، فجعله يعود بأفكاره إلى الأميرة كاسوجا وجيدها الحليبي، وهو شيء لم يقدر له أن يفارق ذهنه قط.

بعد امتداد الطريق أسفل الشلالات، انبسط لمرحلة ما، متبعاً تعانق البر مع الماء، لدى شروع الشاطىء في الدنو من الجزيرة. وكان كيواكي قد تابع، بمزيد من التركيز، تقدّم مسيرة النسوة، لكنه لمح الآن المشهد الجانبي للمرأة، التي ترتدي الكيمونو الشاحب الزرقة، فأدرك أنها ساتوكو، وتبددت نثاراً أخيلته الحالمة. ترى لم عجز عن تعرفها قبلاً؟ ربما كان السر في ذلك

يكمن في رغبته، الأقرب إلى النزوة، في أن تكون الفتاة الحسناء غريبة تماماً بالنسبة له.

أما الآن، وقد قضت على الوهم، الذي ساوره، فلم يعد هناك مبرر للبقاء طي الخفاء. نفض أطراف النجيل الخشنة عن ردائه، وانبعث واقفاً، ونحّى الفروع السفلى لأشجار الصنوبر، التي يختفي وراءها.

هتف:

- مرحباً!

أذهل هذا المرح المباغت هوندا، فمال ليلقي نظرة أفضل، وإذ أدرك أن الروح المعنوية العالية التي يبدو عليها صديقه ليست إلا رد فعل منعكساً لما أصاب تيار أحلامه من انقطاع لم يكترث بإمساك هذا الصديق لزمام المبادرة.

- من هناك؟

- إنها ساتوكو. ألم أطلعك على صورتها أبداً؟

على هذا النحو رد كيواكي، متلفظاً باسمها في لامبالاة فاترة، ومن المؤكد أن ساتوكو، الفتاة الواقفة على الشاطىء، كانت حسناء باهرة الجمال. غير أن كيواكي بدا مصمماً على تجاهل هذا، إذ كان يدرك أنها واقعة في هواه.

كان هذا الرفض الغريزي لكل من يظهر عاطفة حياله، وهذا الاحتياج إلى الاستجابة بنفور فاتر، هما عيب في كيواكي ما كان أحد ليعرفه خيراً من هوندا، الذي نظر إلى هذا التكبر باعتباره نوعاً من الورم الخبيث، أنشب مخالبه في كيواكي، وهو لما يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، عندما اضطر لأول مرة إلى احتمال الناس، وهم يثيرون ضجة كبرى حول مظهره الخلاب. وشأن كتلة فضية من الفطر، كان ينتشر لدى أدنى لمسة.

وفي حقيقة الأمر، أنه ربما كانت جاذبية صداقة كيواكي بالنسبة لهوندا تضرب جذورها في الدافع نفسه. فقد حاول كثيرون مصادقة كيواكي، فكان جزاء ما تكبّدوه من عنت هو الهزء والازدراء. وفي غمار تحدي تحفظ كيواكي اللاذع السخرية، كان هوندا وحده هو الذي بلغ من الحذق حداً جعله يفلت من براثن الكارثة. ولربما جافاه الصواب، ولكنه طالما تساءل عما إذا كانت كراهيته الحادة لمعلم كيواكي، الجهم المحيا، تنبع من تعبير الهزيمة الدائمة المرتسم على ملامح الأخير. على الرغم من أن هوندا لم يلتق بساتوكو قط، إلا أن قصص كيواكي مليئة بها. كانت عائلة أياكورا، وهي واحدة من ثماني وعشرين عائلة من طبقة النبلاء تحمل لقب «أورين» الرفيع، منحدرة من صلب سلف يدعى ناموبا يوريسوكي، وهو لاعب حاذق لـ «كيماري»، أو نوعية كرة القدم، التي كانت رائجة في البلاط الأمبراطوري في عهد آل فوجيوارا. وقد عُينّ كبير العائلة حاجباً للبلاط الأمبراطوري، عندما استقر في طوكيو في عهد إصلاح ميجي. وانتقل آل أياكورا إلى المدينة، وأقاموا في دارة بحيّ أزابو كان يقطنها في السابق أحد مساعدي الشوجون. وامتازت العائلة في «الكيماري» وفي نظم شعر «الواكا». وبما أن الأمبراطور قد رأى من المناسب أن يكرم وارث العائلة الشاب بمنحه مرتبة الجدارة «من الدرجة الخامسة، طبقة الشباب»، فقد غدا لقباً رفيعاً كمستشار الدولة العظيم غير البعيد المنال.

وقد عهد الأمير ماتسوجاي، الذي لم يغب عنه افتقار عائلته إلى الصقل، وعلّق الآمال على أن يمنح الجيل التالي، على الأقل، لمسة من التأنق والدعة، بالوليد كيواكي إلى آل أياكورا، بعد الحصول على موافقة أبيه. وهكذا نشأ كيواكي في مناخ نبالة البلاط مع ساتوكو، التي كانت تكبره بعامين، وأغدقت من عاطفتها عليه، وقد ظلت الرفيق الوحيد له حتى التحاقه بالمدرسة. وقام النبيل أياكورا نفسه، وهو رجل عذب

الحديث، رقيق الحاشية، بتعليم كواكي في صدر عمره الخطّ ونظم قصائد «الواكا». وكانت العائلة تلعب لعبة «السوجوروكو»، وهي شكل عتيق من أشكال نرد الطاولة، حتى وقت متأخر من الليل، كما كان الحال في العهد الهاييني[1]، ويتلقى الفائزون، الذين حالفهم الحظ، الجوائز التقليدية، ومن بينها حلوى غُلِّفت كهدايا من الأمبراطورة.

وعلاوة على ذلك، فقد رتب النبيل أياكورا لمواصلة كيواكي تدريبه المبكر بالذهاب إلى القصر مع حلول كل عام جديد لحضور حفل المناظرات الشعرية الأمبراطوري، الذي كان أياكورا نفسه من المبرزين فيه. في البداية، نظر كيواكي إلى هذا بحسبانه مهمة روتينية بغيضة، ولكنه لما نضج أصبح إسهامه في هذه الطقوس الرائعة، العتيقة، مصدر فتنة معينة بالنسبة له.

بلغت ساتوكو العشرين من عمرها الآن. وإذا ما تصفح المرء دفتر صور كيواكي، لاستطاع رؤية التغيرات، التي طرأت عليها، وهي تنمو، شاقة طريقها نحو النضج، منذ طفولتها، التي كانت خلالها تلصق خدها في ود بخدّ كيواكي، وصولاً إلى مايو الماضي، عندما شاركت في مهرجان ماتسوجاي أومياساما. وفي العشرين من عمرها، كانت قد تجاوزت المرحلة التي يفترض بصورة شائعة أنها تشكل أعلى قمم الجمال التي تصل إليها الفتاة، لكنها لم تتزوج بعد.

ـ إذن، فتلك هي ساتوكو. والأخرى، المرأة ذات الرداء الكهنوتي

---

(١) العهد الهاييني: من أبرز مراحل تطور المجتمع الياباني، يمتد بين السنوات ٧٩٤ ـ ١١٨٥، وللتدليل على أهمية هذا العصر، يشار إلى أنه، على الصعيد الأدبي، هو العصر الذي ترك لنا أهم الآثار الأدبية اليابانية القديمة: «حكاية جينجي» و«كتاب الوسادة». (هـ. م.)

الرمادي، التي يحتفى بها الجميع أي احتفاء، من عساها تكون؟

ـ هي؟ آهٍ، نعم، إنها عمة والد ساتوكو، رئيسة دير جيشو. لم أتعرفها تواً؛ بسبب غطاء الرأس المثلث الغريب ذاك.

كانت قداسة رئيسة الدير ضيفة غير متوقعة حقاً؛ فتلك هي زيارتها الأولى لآل ماتسوجاي؛ ومن هنا جاءت تلك الجولة التعريفية في الحديقة، وهي شيء ما كانت أمه لتقوم به من أجل ساتوكو وحدها، ولكنها أسعدها القيام به لرئيسة الدير. ولا شك أنه بالنظر إلى ندرة زيارات عمة أبيها لطوكيو، حرصت ساتوكو على إحضارها لمشاهدة أوراق القيقب. وكانت رئيسة الدير قد سعدت سعادة كبرى بكيواكي حينما قدم إلى آل أياكورا لأول مرة، لكنه لم يتمكن من تذكر ذلك العهد البعيد. وفي وقت لاحق، عندما كان بالمدرسة الوسطى، وقامت كبيرة الكاهنات بزيارة طوكيو، دعي إلى دار آل أياكورا، لكنه لم تتح له إلا فرصة تحيّتها فحسب. ومع ذلك، فقد ترك محيا رئيسة الدير الشاحب، بهالة الكبرياء الهادئة التي تحيط به، والسلطة الخالية من التعسف، التي تخالج صوتها، أثراً دائماً في نفسه.

دفع صوت كيواكي بالمجموعة الواقفة عند الشاطىء إلى التوقف، على نحو مفاجىء. تطلعن، مأخوذات، نحو الجزيرة، كما لو كان قراصنة قد نهضوا أمام أبصارهن من قلب النجيل الشامخ، الممتد إلى جوار الكراكي الحديدية الزخرفية.

جذبت أم كيواكي مروحة صغيرة من حزامها، وأشارت باتجاه رئيسة الدير، في إيماءة إلى أنه من المتوقع منه أن يقدّم تحياته لها بمزيد من الإجلال. وبناء على هذا انحنى كيواكي، حيث يقف على الجزيرة انحناءة عميقة، وحذا هوندا حذوه مسرعاً. فأومأت لهما معاً، ثم فتحت أمه مروحتها، ولوّحت بها في جلال، فانبعثت من سطحها الذهبي فجأة

انعكاسات ارجوانية. استحث كيواكي هوندا على الإسراع إذ علم أن عليهما الرجوع من الجزيرة على الفور.

- ساتوكو لا تفوتها فرصة للقدوم إلى هنا، وها هي تنتهز فرصة مجيء عمة أبيها.

قالها كيواكي مدمدماً، وقد بدا منحرف المزاج، فيما هو يساعد هوندا بالإسراع لحل القارب. غير أن هوندا نظر إلى إسراع كيواكي وتذمره بشيء من التشكك. وكانت الطريقة التي نفد بها صبر كيواكي حيال حركات هوندا المطّردة المنتظمة، وأمسك بالحبل الغليظ بيديه البيضاوين، اللتين لم تعتادا هذا العمل؛ ليحاول مساعدته في المهمة البغيضة، المتمثلة في فكه، كافية لإثارة الشكوك في أن رئيسة الدير هي سبب عجلته.

فيما عكف هوندا على التجديف، عائداً بالقارب إلى الشاطىء، لاح كيواكي مشوش الذهن، واكتسى محياه بحمرة، التقطها من انعكاس أوراق القيقب الطافية على سطح الماء. وتجنب، في عصبية، الالتقاء بعيني هوندا، في غمار محاولة لإنكار ضعفه حيال ساتوكو، ذلك أن كل لحظة كانت تدنو به من الفتاة التي تعرف حق المعرفة كل شيء عنه، عن طفولته، وحتى عن أكثر تفاصيل جسمه حميمية، والتي بدا أنه تربطه بها عرى لا تفصم من العاطفة.

- مرحى يا سيدي هوندا! يالك من نوتي بارع!

قالتها أم كيواكي، بإعجاب، عندما بلغا الشاطىء. كانت لمحياها التقليدي الشاحب إطلالة مكتئبة، على نحو دائب، حتى عندما تضحك. غير أن التعبير المرتسم على ملامحها كان واجهة أكثر مما هو مؤشر حقيقي إلى مشاعرها الأعمق غوراً. وفي حقيقة الأمر، أنها كانت مجردة من الحساسية، في كل الأحوال، على وجه التقريب. وقد ربّت ابنها على احتمال انغماس

أبيه في الملذات وفيض طاقته المحفوف بالجلافة، ولكنها لم تكن قادرة بالمرة على إدراك تعقيدات طبيعة ابنها.

تعلقت عينا ساتوكو بكيواكي، منذ لحظة هبوطه من القارب. وبقوتها وهدوئها وبريق العاطفة المتألق فيهما بين الحين والآخر كانتا تثقلان، في كل الأحوال، على أعصاب كيواكي. أحس، دون أن يخلو الأمر من سبب لذلك، بأن في مقدوره أن يقرأ انتقاداً في نظرتها إليه.

ـ شرفتنا نيافتها بالزيارة اليوم، وسنسعد بعد قليل بالاستماع إلى كلمة منها، لكننا أردنا أولاً أن نريها أوراق القيقب، وعندئذ أزعجتنا بصيحتك الفظة تلك. ما الذي كنتما تفعلانه على الجزيرة بداية؟

ـ آه، كنا نتطلع إلى السماء فحسب.

قالها كيواكي، وقد بدا غامضاً وملغزاً في نظر أمه على نحوٍ ما.

ـ تتطلعان إلى السماء؟ وماذا في السماء لترياه؟

لم تستشعر أمه بالمرة حرجاً، حيال عجزها عن إدراك ماليس محسوساً وملموساً، وهو الأمر الذي بدا له أنه سمتها الوحيدة الجديرة بالإعجاب. ولاح له شيئاً فكاهياً أن يكون بوسعها أن تتخذ هذا المظهر الورع تأهباً لعظات رئيسة الدير. وطوال هذا الحوار لزمت الأخيرة دورها باعتبارها ضيفة، وهي تبتسم دونما تكلف. ولم يحر التفاتاً إلى ساتوكو، التي راحت تحدِّق، بنظرة ثابتة، في الشعر الكث، المتألق، المشعث، الذي راح يداعب خديه الناعمين.

شرعت المجموعة الآن في ارتقاء الطريق، وهي تتطلع في إعجاب إلى أشجار القيقب، فيما هي تمضي، وتروِّح عن نفسها بمحاولة التعرف على نوعية الطيور المغرِّدة، وسط الأغصان، الممتدة فوق الرؤوس. وأياً كانت محاولة الشابين كبح جماح سرعتهما، فقد كانا يتقدمان على نحو حتمي

ليسيرا أمام المجموعة وعلى مبعدة منها. وقد انتهز هوندا هذه الفرصة، ليناقش أمر ساتوكو للمرة الأولى، وليعرب عن إعجابه بحسنها.

ـ أتعتقد ذلك؟

رد كيواكي، مدركاً حق الإدراك أنه على الرغم من أنه إذا وجد هوندا ساتوكو بعيدة عن الجاذبية، فإن ذلك سيكون لطمة قاسية لكبريائه، فإنه يتعين عليه الظهور بمظهر اللامبالاة الفاترة. وكان على تمام الاقتناع بأن أي فتاة تربطها العُرى، التي تصله بساتوكو، يتعين أن تكون جميلة، سواء اختار الاعتراف بها أم لم يختره.

في نهاية المطاف، انتهى صعودهم، عند الجسر الواقع أسفل أكثر الشلالات ارتفاعاً، فوقفوا متطلعين إلى حافته. وفي اللحظة التي كانت أمه فيها تستمتع بإطراءات رئيسة الدير، التي كانت تشاهد الشلالات للمرة الأولى، اكتشف كيواكي اكتشافاً مشؤوماً، ألقى بظلاله على المزاج الذي ساد اليوم بأسره.

ـ ماذا هنالك؟ عند القمة هناك؟ ما الذي يحجز الماء على ذلك النحو؟

استجابت أمه لتساؤلاته، على الفور. ومستخدمة مظلتها لتحمي عينيها من وهج الشمس الباهر، الذي راح يتقد من خلل أغصان الأشجار، حدَّقت إلى أعلى. كان مصمم معالم الطبيعة قد شاد، جاهداً، صرح جدران صخرية على جانبي الحافة لضمان رشاقة الشلال، وما كان ليمكن له قط أن يكون قد قصد أن يتحول دفق الماء على هذا النحو المتقلقل في منتصف القمة. وبدا بعيداً أن صخرة انحشرت هناك يمكن أن تسبب هذا الانقطاع في تدفق الماء.

قالت أمه لرئيسة الدير وقد استبدت بها الحيرة، بجلاء:

ـ ترى ما الأمر؟ يبدو أن شيئاً ما قد انحشر هنالك.

لم تحر رئيسة الدير رداً، وابتسمت كعهدها، رغم أنه بدا أنها تدرك أن ثمة شيئاً مفارقاً لما هو متوقع. ولئن كان هناك من يمكنه الإفصاح عن جلية الأمر، بغض النظر عن تأثير ذلك، فهو كيواكي، لكنه أمسك عن الحديث، خشية تأثير كلماته على المزاج الطيب للجماعة، وأدرك أن الجميع عرف جلية الأمر.

ـ أليس كلباً أسود؟ وقد تدلّى رأسه إلى أسفل؟

قالتها ساتوكو، بوضوح تام، فشهقت السيدات، كما لو كن يلاحظن الكلب للمرة الأولى.

أصاب خدش كبرياء كيواكي، فقد أشارت ساتوكو، بجرأة يمكن أن تفسر على أنها مفارقة للطبيعة الأنثوية، إلى جثة الكلب، متجاهلة العواقب المشؤومة لذلك. وقالت كلماتها بنغمة سارة، على نحو مؤاتٍ، ومتسمة بالصراحة، الأمر الذي كان شاهداً على تربيتها الرفيعة، كانت لها طزاجة فاكهة ناضجة في إناء من البلّور. خجل كيواكي من تردده، وأشعرته بالاستخذاء قدرة ساتوكو على امتلاك ناصية الأمور مباشرة.

أصدرت أمه بعض الأوامر السريعة للوصيفات، اللاتي بارحن المكان تواً، للبحث عن البساتنة المهملين. لكن رئيسة الدير قاطعت اعتذاراتها العديدة لنيافتها عن هذا المشهد غير اللائق، وطرحت اقتراحاً رؤوفاً، كان غير متوقع بالمرة.

ـ يبدو لي وجودي هنا أمراً دبرته العناية الربانية. لئن دفنتم الكلب تحت ركام صخري، فإني سأصلي من أجله.

ربما كان الكلب قد أصابه مرض، أو جرح على نحو قاتل، عندما أقبل إلى الغدير ليشرب، وسقط في الماء. وقد دفع دفق الماء بحثته، فحشرها وسط الصخور الجاثمة في قمة الشلالات. أثارت شجاعة ساتوكو إعجاب

هـوندا، ولكنـه في الوقت نفسـه أحس بالضيق حيـال مشهد الكلب، وقـد تـدلى نـافقـاً في الشـلالات، تحت السـماء المشرقـة، التي رقّشهـا السحـاب.
لمع فرو الكلب الأسود في الرذاذ الصافي، وتألقت أسنـانه في الخـطم الفاغـر، القاتم، الأحمر، التجويفي.

تـأقلم الجميع سريعـاً مع الانتقـال بـالانتبـاه من أوراق القيقب إلى دفن الكلب. ودبت الحيـاة في الوصيفـات المرافقـات فجأة، إلى حـد الاهتياج، على وجه التقريب. كانوا قد عـبروا جميعاً الجسر، كـانوا ينـالون قسـطاً من الراحة، في تعريشة صُممت كنقـطة متقدمـة تطل عـلى الشلالات، عنـدما أقبل البستاني مهرولاً، وهو يغمغم بكل عبارات الاعتـذار التقليديـة، التي تعيهـا ذاكرتـه. وعندئـذ فحسب تسلق الـوجـه الصخـري الـزلق والمنحـدر لإزالة الجثة السوداء المتدلية، ودفنها في بقعة ملائمة.

سألت ساتوكو، مستبعدة على نحو فعال أي مساعدة من الوصيفات:

ـ سأمضي لقطف بعض الزهور، يا كيو، فهلا ساعدتني؟

رد كيواكي، وقد اجتذب تردده الـواضح مـوجة من الضحـك الفجائي من النسوة:

ـ أي نوع من الزهور تجمعينه من أجل كلب؟

في غضـون ذلك، نحّت رئيسـة الديـر رداءهـا الكهنـوي الفضفـاض، كاشفة عن زي كهنوتي أرجواني تحته والبطرشي الصغير الملتف حول عنقها. كانت تحظى بحضور يشع بهاء ورحمة على من حولها، وإشراقها يمجُّ مناخـاً من نذير السوء.

قالت أم كيواكي:

ـ قـدوس! مبارك هـذا الكلب إذ تؤدين نيافتـك صلاة لخـلاص روحه. يقيناً أنه سيبعث بشراً سوياً.

لم تكترث ساتوكو بانتظار كيواكي، وإنما شرعت ترقى الطريق الصاعد مع التل، منحنية بين الفينة والأخرى، لالتقاط زهرة جنطيان تأخر ازدهارها، بعد أن رصدت موضعها. أما كيواكي فلم يجد أفضل من بضع أزهار بابونج ذابلة.

في كل مرة تنحني ساتوكو لتقطف زهرة، كان الكيمونو شاحب الزرقة، الذي ترتديه، يبدو حاجباً غير مناسب لاستدارة عجيزتها، التي بدت وافرة، على نحو مدهش، مقارنة بقوامها الرشيق. فجأة، استشعر كيواكي اضطراباً يلفه، وأحس أن ذهنه بحيرة نائية صافية الماء تعتكر، على حين غرة، من جراء اضطراب في الأغوار بعيداً عن صفحة الماء.

بعد قطف زهور الجنطيان الضرورية لاستكمال باقتها، استقامت ساتوكو واقفة، وتوقفت فجأة في طريق كيواكي، فيما كان يبذل أقصى ما في وسعه لينظر في اتجاه آخر. الآن واجهه أنفها البديع التكوين، وعيناها النجلاوان اللامعتان، اللتان لم يجرؤ حتى الآن على النظر إليهما مباشرة، عن مدى قريب يثير القلق، بدت شبحاً مهدِّداً.

سألته وكلماتها تنساب همساً مندفعاً:

ـ كيو، ما عساك تفعل إن لم يعد لي وجود هاهنا بعد الآن؟

- ٤ -

كانت تلك حيلة مألوفة من حيل ساتوكو لإثارة قلق الناس واضطرابهم. وربما حققت آثارها دونما جهد مقصود، ولكنها لم تسمح لأدنى إيماءة عابثة بأن تتسلل إلى نغمة صوتها، حتى لا تبعث في ضحيتها الشعور بالارتياح. وكان صوتها، في مثل هذه الأوقات، يتردد مثقلاً بالنفحات العاطفة للقلب، كأنها تفضي بأخطر الأسرار.

ورغم أن كيواكي كان يتعين عليه أن يكون قد تمرَّس بهذا، إلا أنه لم يملك إلا التساؤل:

ـ لم يعد لك وجود هاهنا بعد الآن؟ ولم؟

بصرف النظر عن كل جهوده، التي بذلها للإيحاء بعدم اكتراث مدروس، فإن رده وشى بعدم ارتياحه. وقد كان هذا هو ما أرادته ساتوكو.

ـ لا أستطيع إخبارك بالسبب.

ردت، ملقية الحبر في مياه قلب كيواكي الصافية، ولم تتح له الوقت لإقامة التحصينات الدفاعية.

حدَّق فيها متأملاً. هكذا كان الحال دوماً؛ ولهذا السبب كان يكرهها، فدون أدنى تحذير كان بمقدورها أن تلقي به في رحاب ألوان من القلق لا يعرف لها اسماً، وانتشرت قطرة الحبر كئيبة ومعتمة، لتضم في رحابها كل ما كان رائقاً وشفافاً في قلبه، منذ لحظة واحدة لا غير.

كـانت ساتـوكو لاتـزال تراقبـه، عامـدة، وفجأة تـألقت عيناهـا، اللتان كساهما الحزن.

في طريق عودتها، أدهش مزاج كيواكي المنحرف الجميع، ومنح النسـوة في دارة ماتسوجاي موضوعاً للهمس الفضولي الثرثار.

* * *

كان كيواكي من التقلب بحيث أنه مال إلى مفاقمة ضروب القلق ذاتها، التي راحت تتنـاهشه. ولـو أن الأمر اقتصر عـلى الغراميـات، لكان إصراره العنيـد هو إصرار أي شـاب في عمره، عـلى وجه التقـريب. لكن الأمر في حالته كان مختلفاً؛ وربما لهذا تعمدت ساتـوكو غـرس بذور الأزهـار المقبضة ذات الأشواك في نفسه، بدلاً من الأزهار البهيجة الألوان، مدركة مدى الفتنة المريضة التي تشكلها الأزهار الأولى بالنسبة لكيواكي، فقد كان حقاً، وعـلى الدوام، أرضاً خصبة لمثل هذه البذور، وألقى بنفسه، مستبعداً كل ما عـدا ذلك، في غمار استنبات لقلقه.

استقـطبت ساتـوكو اهتـمامه، وعـلى الرغم من أنـه كان، بمـلء إرادته، حبيس سخطه، إلا أن الغضب استبد به حيال ساتوكـو، التي توافـر لديهـا على الدوام، رصيد جاهز من الالتباسات والأحاجي الجـديدة لإثـارة قلقه. واستشاط غيظاً كذلك حيـال افتقاره للحـزم حينما يجابه بـالعثور عـلى حل لمعابثتها.

عندما استلقى مع هوندا على العشب في الجزيرة، قال بالفعل إنه يبحث عن «شيء محدد بصورة مطلقة». غير أنه لم يدر له كنهـاً، ولكن ما إن يبـدو هذا اليقين السـاطع متـألقاً غـير بعيد عن قبضتـه، حتى يعترض ردنـا رداء ساتوكو الشاحب الزرقة المرفرفان الطريق موقعين إياه من جديد في فخ الرمال المتحركة للتردد. وعلى الرغم من أنه قد استشعر شيئاً محـدداً، برق حـدس

ناء، لا يدرك، إلا أنه آثر الاعتقاد بأن ساتوكو هي الحاجز الذي يحول بينه وبين التقدم خطوة واحدة نحوه.

أثار غيظه، على نحو أكبر، اضطراره للإقرار بأن كبرياءه ذاتها هي، على وجه الحصر، التي تعزله عن كل الوسائل الممكنة لمعالجة أحجيات ساتوكو والقلق الذي تثيره هذه الأحجيات في نفسه. فلو أنه، على سبيل المثال، سأل أحدهم: «ما الذي تعنيه ساتوكو بحديثها عن أنها لن توجد هاهنا بعد الآن؟» فإن ذلك لن يفضي إلا إلى الكشف عن مدى عمقِ اهتمامه بها. راح يحدث نفسه، قائلاً: «ما الذي يمكنني القيام به؟ أياً كان ما آتيه لإقناعهم بأنني لست معنياً بساتوكو، وإنما بقلق مجرد من وحي خيالي، فما من أحد سيصدقني». راح حشد من مثل هذه الأفكار يتراكض في ذهنه.

شكلت المدرسة، التي تعد في العادة شيئاً مضجراً، مصدراً لبعض الارتياح، في ظل هذه الظروف، بالنسبة لكيواكي. وعلى الدوام، كان يمضي ساعات الغداء مع هوندا، على الرغم من أن حديث الأخير إتخذ منعطفاً مضجراً، في الآونة الأخيرة. وفي يوم زيارة رئيسة الدير لدارة آل ماتسوجاي، صحب هوندا الأخريات إلى الدار الرئيسية، وهناك ألقت قداستها عظة فيهم، استقطبت خيالهم تماماً. والآن لم يطق هوندا صبراً، فراح يمطر أذني كيواكي غير المكترثتين بتفسيره لكل نقطة وردت في العظة.

من العجيب أن العظة تركت كيواكي الحالم في حالة من اللامبالاة التامة، بينما أثارت اهتمام هوندا العقلاني، بما فيها من مضاء قوة الحجة.

كان معبد جيشو، الواقع عند مشارف مدينة نارا، ديراً، وهو أمر نادر، في إطار البوذية الهوسوية. وقد خاطب لب العظة هوندا، واجتذبه بقوة، وحرصت رئيسة الكاهنات على أن تقدم لمستمعيها مبدأ اليويشيكي[1]

---

(١) اليويشيكي: هو المبدأ الرئيسي في البوذية الهوسوية، ويذهب القائلون به إلى أن

بضرب أمثلة على جانب كبير من السهولة واليسر.

قال هوندا، وقد استغرقه الحديث تماماً:

ـ ثم جاءت القصة الرمزية، التي قالت نيافتها إنها خطرت لها عندما شاهدت جثة الكلب تتدلى من الشلال. ولست أحسب أن هناك شكاً على الإطلاق في أن استخدامها لهذه القصة يوضح مدى تعلقها بعائلتك، وهناك طريقتها في سردها ـ العبارات البلاطية الممتزجة بلكنة كيوتو العتيقة الطراز. إنها لغة مراوغة، تحفل بكل أنواع الفروق الدقيقة بين المعاني، ومن المؤكد أنها أسهمت بالكثير من السمو بالتأثير الذي أحدثته العظة في النفوس.

ومضى هوندا، قائلاً:

ـ تذكر أن القصة وقعت في الصين في عهد التانج. فقد كان رجل يدعى يوان هسايو يمضي في طريقه إلى جبل كايويو الشهير لدراسة تعاليم بوذا. وعندما أرخى الليل سدوله، تصادف أنه ألفى نفسه إلى جوار مقبرة، وهكذا رقد ليحظى بقسط من النوم وسط القبور. وفي منتصف الليل،

= الوجود بأسره قائم على وعي الذات بما حولها. والهوسوية في اليابان هي الصياغة اليابانية الخاصة والمتميزة لمدرسة اليوجاكاره، في الهند، ومدرسة الفا ـ هسيانغ في الصين. ولعل القارىء العربي، المتابع لجهودنا، يذكر أننا فصّلنا القول في اليوجاكاره، في شرحنا لمتن كتاب أنطوني يو، الموسوم «مقدمة الهسي ـ يوتشي».

فنكتفي هنا، إذن، بالقول بأن اليوجاكاره، التي لا تعدو الهوسوية أن تكون صياغة يابانية لها هي عبارة عن صياغة للمذاهب الرئيسية، التي قدر لها أن تكون الحجر الأساسي في تطور المهايانا. والمبدأ الأساسي لليوجاكاره هو أن الوعي هو وحده الحقيقي والواقعي، والفكر أو العقل هو الواقع المطلق، أما الأشياء الخارجية، فلا وجود لها؛ إذ لا شيء يوجد خارج العقل.

(هـ. م.)

استيقظ من نـومه، مستشعـراً ظمأ رهيبـاً. مدَّ يـده، واغترف بعض المـاء من حفرة صغيرة إلى جـانبه، وفيـما النعاس ينـاوشه مجـدداً، حدَّث نفســه بأنـه لم يحدث من قبل قط أن كان الماء صافياً وعذباً وبارداً على هـذا النحو. ولكن عندما طلع النهار رأى ما شرب منه في الظلام، ورغم أن الأمـر بدا عصيـاً على التصديق، إلا أن ما بدا فواقه سائغاً، على هذا النحو، كان مـاء تجمع في جمجمة بشرية. حاول التقيؤ، وقد أخذ الغثيان منـه مأخـذاً عظيـماً، غير أن هذه التجربة علَّمته شيئاً لم يغب عن باله، فقد أدرك أنه طالما أن الرغبة الواعية تمارس تأثيرها، فإنها ستسمح للفوارق بأن تـوجد، ولكن إن عمـل المـرء على كفهـا عن التأثـير، فإن هـذه الفـوارق ستتـلاشى، فـيرضى المـرء بالجمجمة، شأن أي شيء آخر.

واستطرد:

ـ ولكن ما يثير اهتمامي هو الآتي: إذا استنارت بصيرة هسايو، عـلى هذا النحو، هل يستطيع شرب ذلك الماء مرة أخرى آمناً في سرب معرفتـه بأنـه مـاء عذب نمـير؟ ألا تعتقد أن الأمـر ذاته ينـطبق على العفـة؟ إذا كـان فتى غـراً، بالطبع، فإن بإمكانه أن يقع ببراءة في هوى عاهرة، إلى حد التوله. ولكن لدى إدراكه أن امرأته بغي، وأنـه كان يحيـا في رحاب وهـم لم يكن يعكس إلا براءته، هل سيكون بمقدوره أن يحب تلك المرأة على النحو ذاتـه من جديد؟ ولـو أنه استـطاع ذلك ألا تعتقـد أن ذلك سيكـون أمراً عجيبـاً ومدهشاً؟ أن تمسك بناصية مثالك الأعلى، وتحني الـدنيا تجاهه، عـلى ذلك النحـو. ألا تكون تلك قـوة مميزة؟ سيحـاكى الأمر امتـلاك ناصيـة المفتـاح السري للحياة في قبضتك. أليس كذلك؟

كـانت براءة هـوندا الجنسيـة تعادلهـا براءة كيـواكي، الذي عجـز، لهذا السبب، عن تفنيد مثاله الغريب. ورغم ذلك، فقد أحس؛ لسبب عناده، أنـه مختلف عن هونـدا، وأنه بـالفعل يـطبق قبضته عـلى مفتـاح الـوجـود،

باعتباره شيئا مستحقا له بحكم مولده. لم يدر ما الذي منحه هذه الثقة. كان وسيماً على نحو يحمل معه النُذُر، حالماً، وبالغ الصلف، ومع ذلك، فهو ضحية لقلق بالغ، وساوره يقين بأنه، على نحو ما، المستأمن الشاب على كنز لا مثيل له. ولكونه في بعض الأحيان يبدو متسربلاً بتألق جثماني بالغ، كان يثقل نفسه بكبرياء رجل دمغه مرض نادر، على الرغم من أنه لا يعاني من آلام الأوجاع ولا من التورمات المؤلمة.

لم يكن كيواكي يدري شيئاً عن تاريخ معبد جيشو، ولم ير أن هناك حاجة لمعالجة هذا القصور. وبالمقابل، فإن هوندا، الذي لا تربطه بالأمر روابط شخصية، على الإطلاق، تكبد عناء القيام ببعض الأبحاث في المكتبة. وقد اكتشف أن جيشو معبد حديث نسبياً، بني في بداية القرن الثامن عشر. فقد كرّست ابنة للأمبراطور هيجا شياما، كانت ترغب في الحداد لفترة ما على أبيها، الذي مات في سمت حياته، نفسها لعبادة «كانّون» ربة الرحمة في معبد كيوميزو. وسرعان ما تأثرت أشد التأثر بتفاسير كاهن عجوز من معبد جوجو لمفهوم هوسو عن الوجود، وبالتالي أصبحت تابعة متحمسة لهذا المذهب. وبعد طقس حلاقة شعرها، رفضت تقبل أحد الامتيازات المخصصة لأميرات العائلة الأمبراطورية، وقررت بناء معبد جديد، تكرّس كاهناته أنفسهن لدراسة النصوص المقدسة. ولايزال المعبد محتفظاً بمكانته الفريدة كدير تابع للمذهب الهوسوي. غير أن عمة والدساتوكو، على الرغم من أنها تنحدر من عائلة نبيلة، حظيت بالتميز النابع من كونها أول رئيسة للدير من غير أميرات العائلة الأمبراطورية.

فجأة، التفت هوندا إلى كيواكي:

ـ ماتسوجاي! ما الذي دهاك هذه الأيام؟ لم تبد أدنى إكتراث لأي شيء مما قلته. أليس كذلك؟

ـ لا شيء هناك.

قالها كيواكي في معرض الرد مدافعاً، بعد ضبطه لمرة متلبساً بالشرود. أطلت عيناه النجلاوان الصافيتان على صديقه. ولو أن هوندا ظن به الغطرسة لما عناه ذلك في شيء. كان ما يخشاه هو أن يدرك صديقه المعاناة التي يجتاز ذهنه غمارها، وقد علم أنه لو شجع هوندا أدنى تشجيع في هذا الصدد، لما غدا في جعبته شيء لا يحيط به صديقه علماً. وبما أن ذلك سيغدو انتهاكاً لا يغتفر، فإنه سيفقد صديقه الوحيد.

تنبه هوندا تواً لتوتر كيواكي. وكان يعرف أنه لكي يحتفظ بمودّة كيواكي تجاهه يتعين عليه أن يكبح جماح الخشونة اللامبالية، التي تبيحها الصداقة عادة، تعين عليه أن يعامله بالحذر الذي يتعامل به المرء مع سور حديث الطلاء، تترك أدنى لمسة نابعة من الإهمال بصمة لا تمحى عليه، ولئن اقتضت الظروف ذلك لما تردد في المضي قدماً إلى حد التظاهر بعدم ملاحظة معاناة صديقه القاتلة، وبصفة خاصة إذا كانت تلك البلادة المزعومة من شأنها أن تشير إلى الشموخ، الذي من المؤكد أنه سيميز معاناة كيواكي المطلقة.

في مثل تلك اللحظات، كان بمقدور هوندا أن يمضي حتى إلى الشعور بمحبة صديقه، لنظرة المناشدة الصامتة المرتسمة في عينيه. بدت نظرتها الجميلة وكأنها تحمل نداء ضارعاً: دع الأمور على ما هي عليه، جليلة في استعصائها على التحديد، مثلما ساحل البحر! وللمرة الأولى في علاقتهما ـ وهي تفاوض ممتد وحذر التبادل حول صياغة صداقة ـ كان تماسك كيواكي معرضاً للتمزق إرباً؛ إذ كان يبتهل لصديقه. ولم يكن من يعتبرون كيواكي وهوندا صديقين على خطأ، ذلك أن علاقتهما، في وضعها الراهن، كانت تمنح كلًا منهما ما يريده، على وجه الدقة.

ذات مساء، بعد عشرة أيام، تصادف أن عاد الأمير ماتسوجاي إلى دارته مبكراً، على غير المعتاد. وهكذا، تناول كيواكي العشاء مع أبويه، وهو أمر

نادر الحدوث للغاية. وبما أن الأمير كان مولعاً بالطعام الغربي، فقد جرى تقديم طعام العشاء في غرفة المائدة الصغيرة بالدار الغربية الطراز، ومضى بنفسه إلى قبو الخمور لاختيار النبيذ. صحب كيواكي معه، وأوغل في إيضاح أي أنواع الخمور تتناسب مع أي أطايب الطعام، وأي الخمور لا يتعين تقديمها إلا بمناسبة زيارة أحد أعضاء العائلة الأمبراطورية للدارة، وما إلى ذلك، وقد تهللت أساريره طوال الوقت. لم يكن يبدو سعيداً، على هذا النحو، إلا وهو يفضي بمعلومات لا طائل وراءها من هذا النوع.

فيما كانوا يرتشفون مقبِّلاتهم من المشروبات، راحت أمه، التي مضى سائق السيارة الشاب بها إلى يوكوهاما منذ يومين، تصف رحلة التسوق، كما لو كانت حدثاً كبير الأهمية.

ـ أذهلتني الطريقة التي راح الناس ينظرون بها إلى ملابسي الغربية، وفي يوكوهاما دون أي مكان آخر! وانطلق بعض الأطفال الصغار القذرين بالفعل وراء العربة صائحين: سيدة أجنبية! سيدة أجنبية!

غامر أبوه بالقول بما معناه أنه يفكر في اصطحاب كيواكي معه لشهود حفل تدشين السفينة الحربية «هاي»، وتحدث كما لو كان من الاستنتاجات المسلم بها أن ابنه لن يكترث بالأمر.

هنا غابت عن الأبوين كليهما الموضوعات الحية، التي يمكن تبادل الحديث حولها، وشرعا في التعثر، وبدا عدم إرتياحهما جلياً حتى لكيواكي. غير أنهما بشكل ما صادفا، في نهاية المطاف، الموضوع الملائم للموقف، المتمثل في «الأوتاتشيا تشي» الخاص بكيواكي، أي الحفل الطقوسي المتعلق بالتنبؤ بمستقبله، والذي أقيم قبل ثلاث سنوات، عندما كان في الخامسة عشرة من عمره.

صادف هذا الحفل السابع من أغسطس، حسب التقويم القمري،

فوضع حوض خشبي ضخم مليء بالماء في الحديقة، لينعكس البدر على صفحته، وقُدِّمت أضحيات مناسبة، فإذا تلبدت السماء، في هذه الليلة من ليالي أغسطس، في العام الخامس عشر من عمره، فإن الحظ التاعس يتوقع أن يجثم على الصبي، الذي وقف أمام الحوض، طوال ما بقي من عمره.

فيما راح أبواه يتبادلان الحديث، عاد المشهد متوهجاً إلى ذاكرة كيواكي. وقف أبواه يومها كل إلى جانب من جانبيه، وقد ارتدى «الهاكاما» الخاصة به، وهي زي يلف النصف الأسفل من بدنه، وله فتحة في منتصفه، وكيمونو زُركش بشعار العائلة، ووقف في قلب المرجة، التي كساها الندى، وأمامه الحوض الجديد المليء بالماء، وجوقة من الحشرات المسقسقة تتردد أصواتها في سمعه.

ارتسم انعكاس الأشجار المحيطة بالحديقة التي عمَّها الظلام الآن، وأسقف الدارة القرميدية فيما وراءها، بل وتل القيقب، وما يزيد عن هذا على السطح المتموج، الذي أدمج في دائرة الماء المحددة بحافة الحوض. أصبحت تلك الحافة المصنوعة من خشب الصنوبر الأشقر بمثابة تخوم ينتهي عندها هذا العالم، ويبدأ عالم آخر. ولما كان هذا الحفل الطقوسي، خلال العام الخامس عشر من عمر كيواكي، يقرر حظه طوال عمره، فقد أحس كما لو أن روحه ذاتها وضعت هنالك، متجردة من غلائلها، فوق العشب الندي. كانت الجوانب الخشبية للحوض تعبر عن ذاته الخارجية، وسطح الماء الذي حددته تلك الجوانب بدورها يعبر عن ذاته الداخلية.

ساد الصمت الجميع، فملأت سقسقة الحشرات على امتداد الحديقة مسامعه، على نحو لم يعهده من قبل قط. راح يحدق بشغف في الحوض. في البداية، كان الماء داخل الحوض عكراً، ارتمت عليه ظلال سحب كثيفة مشتبكة، مثلما كتلة من أعشاب البحر، وبعد لحظة بدت أعشاب البحر وكأنها تتموج، وحدَّث نفسه بأنه رأى وهجاً خافتاً ينتشر في الماء، لكنه

تلاشى عندئذ. لم يستطع أن يتذكر إلى متى طال انتظاره، عقب ذلك، ثم فجأة غدا الماء العكر في الحوض، الذي بدا قاتماً على نحو لا سبيل إلى اختراقه، صافياً، وهنالك في وسطه تألقت صورة دقيقة للبدر.

انطلق الجمع يعبر عن فرحته، وأحست أمه، التي تصلبت طوال الوقت، بارتياح بالغ، وبدأت في تحريك مروحتها لإبعاد البعوض المتجمع حول ردائها.

قالت:

- آه! كم أنا سعيدة! الآن سيهنأ الفتى بحياته. أليس كذلك؟

عند ذلك، هنأ جميع الحاضرين كيواكي.

مع ذلك، ساورته رهبة مالم يعرف كنهها، فلم يستطع حمل نفسه على التطلع إلى البدر نفسه في كبد السماء، أصل الصورة التي ارتسمت على صقال الماء، وإنما واصل التحديق في الحوض، وفي الماء الذي يحتويه بجوانبه، المقدسة، انعكاس ذاته الداخلية، الذي غاص القمر فيه عميقاً، كأنه قوقعة ذهبية. ذلك أنه في تلك اللحظة أمسك بما هو سماوي، تألق كأنه فراشة ذهبية وقعت في شراك روحه.

راح يحدِّث نفسه متسائلاً: مع ذلك، هل هذه الشراك دقيقة بما فيه الكفاية لاحتجاز السماوي؟ ولئن وقعت الفراشة في الفخ ألا تنزلق مسرعة وتحلق إلى البعيد؟ كان حتى في الخامسة عشرة من عمره لايزال يخشى فقدها. لقد تشكلت شخصيته بالفعل، ومن شأن كل فوز يحرزه أن يجلب هذا الخوف في أعقابه. بعد أن فاز بالقمر، إلى أي حد سيخشى الحياة في عالم تجرد من هذا القمر؟ يا لبطش القهر الذي يمارسه هذا الخوف! حتى هذا البدر لم يثر إلا الكراهية في أعماقه.

من المحتم أن نظام الدنيا سيختل، حتى في تفاهة غياب ورقة واحدة من مجموعة أوراق لعب رابحة. وبالنسبة لشخص مثل كيواكي، يأخذ أدنى عدم اتساق أبعاد ساعة حرمت من دولاب مسنن. انهار نظام كونه، وألفى نفسه واقعاً في شرك عماء مفزع. وبالنسبة له تتخذ ورقة اللعب الضائعة، التي لا قيمة لها في حدّ ذاتها، أهمية تاج ينغمس المتنافسون عليه في صراع من شأنه أن يلقي بالعالم في وهدة أزمة طاحنة. هكذا، فإن حساسيته كانت تحت رحمة كل واقعة يحجبها الغيب، مهما كانت محدوديتها، ومهما كانت لديه دفاعات يعتصم بها.

فيما حملته أفكاره، عائدة به إلى حفل الأوتاتشيماتشي الطقوسي، الذي أقيم له في ليلة السابع عشر من أغسطس تلك، قبل ثلاث سنوات، أخذته الرعدة، فجأة، مع إدراكه أن ساتوكو قد هيمنت بشكل ما على أفكاره.

في تلك اللحظة، ولعظيم شعور كيواكي بالارتياح، دخل كبير الخدم، مرتدياً هاكامته الفاترة، التي تحدث حفيفاً نابعاً من حرير سنداي ليعلن أن طعام العشاء معدّ. فمضى كيواكي وأبواه إلى غرفة المائدة، ليجلس كل منهم أمام مكان زود بصحاف خزفية، انجليزية، بديعة، زخرفت بشعار العائلة. ومنذ طفولة كيواكي اضطر إلى تحمل الضجر الذي تثيره في نفسه دروس أبيه في آداب المائدة الغربية. وإذا صح القول، فإن أمه لم تألف الطريقة الغربية في تناول الطعام قط، فيما واصل أبوه التصرف بعناد رجل حريص على أن يبدو بالخارج كما لو كان في داره، وهكذا كان الوحيد الذي تناول طعامه بشكل طبيعي، ودونما توتر.

عندما أقبلت صحاف الحساء، لم تضع أمه وقتاً في طرح موضوع جديد للحديث، بصوتها الهادىء.

ـ حقاً، يمكن لساتوكو أن تثقل على الأعصاب، فلم أكتشف إلا صباح

اليوم أن آل أياكورا بعثوا برسول يحمل رفضها، ولبعض الوقت أعطت الجميع الانطباع بأنها قررت القبول.

ردَّ أبوه، قائلاً:

- إنها في العشرين. أليس كذلك؟ وإذا واصلت التشدد على هذا النحو، فقد تجد نفسها وقد أصبحت من العوانس. لقد همني أمرها بدوري، ولكن ما الذي أستطيع القيام به؟

أرهف كيواكي السمع، فيما واصل أبوه الحديث بلا مبالاة:

- ترى ما الذي دهاها؟ أم ترى أن أهلها يعتقدون أنه أقل مرتبة منها بأكثر مما ينبغي؟ أياً كان المدى الذي بلغته عائلة أياكورا في مدارج النبالة ذات يوم، فإن وضعها الحالي لا يسمح لها برفض شاب، مثل ذلك الشاب، ينتظره مستقبل باهر في وزارة الداخلية. كان ينبغي للعائلة أن تسعد به، دونما اكتراث بالعائلة التي ينتمي إليها. أليس كذلك؟

- هذا، بالضبط، شعوري، حيال الأمر. وذلك هو السبب في أنني لا أميل إلى القيام بالمزيد من الجهد لمساعدة الفتاة.

- طيب، إننا ندين لأهلها بالكثير، نظراً لما قاموا به حيال كيواكي. وأحس بأنني ملتزم بالقيام بكل ما في وسعي لمساعدتهم على استرداد مكانة العائلة من جديد. ولكن ما الذي نستطيع القيام به للعثور على خطيب تقبل به زوجاً؟

- ترى هل لمثل هذا الرجل وجود؟

فيما راح كيواكي يصغي لهذا الحديث ارتفعت معنوياته. لقد حُل اللغز الذي كان يواجهه. سألته ساتوكو: «كيو، ماعساك تفعل إن لم يعد لي وجود هاهنا بعد الآن؟». كانت تشير إلى الخطبة التي تفكر في موقف تتخذه منها وقتذاك. وفي حينه كانت تميل إلى القبول، وطرحت إيماءتها حرصاً على

تلمس رد فعل كيواكي. أما الآن، وبعد عشرة أيام، فيبين مما قالته أمه أنها قد رفضت الخطبة رسمياً. وبدا السبب الذي حدا بها لذلك جلياً بالنسبة له؛ فقد قامت بذلك لأنها تهواه.

وبالوصول إلى ذلك، انجابت السحب عن أفقه، ولم تعد ضروب القلق تحكم قبضتها عليه. مرة أخرى، غدا الماء في القدح صافياً. طوال عشرة أيام، عزل عن الملاذ الصغير الآمن، الذي كان ملجأه الوحيد. أما الآن فبمقدوره العودة إليه، وأن يتنفس الصعداء.

انغمس في التمتع بلحظة نادرة من السعادة الغامرة، سعادة نبعت، دونما شك، من استعادته لوضوح رؤيته. لقد عاودت ورقة اللعب، التي حجبت عمداً، الظهور في يده، واكتملت مجموعة الأوراق الرابحة. وهكذا، غدت من جديد مجرد مجموعة من أوراق اللعب. تألقت سعادته جلية، لا تشوبها شائبة. وللحظة، على الأقل، نجح في تحطيم قبضة عواطفه.

غير أن الأمير والأميرة كانا لا يزالان يتبادلان النظر، عبر المائدة، أحدهما إلى الآخر، وقد حجب افتقارهما إلى الحساسية عنهما شيئاً بالغ الوضوح، كدفق السعادة الذي حل بساحة ابنهما. واجه الأمير التجهم التقليدي لمحيا زوجته، وبدورها جابهت غلظ ملامحه وخشونتها. وقد بهتت الملامح التي تناسب رجل الحركة والعمل جراء تصاريف حياة الانغماس في الملذات، التي تركت أثرها تحت جلده.

على الرغم من المسار، الذي يبدو عشوائياً، الذي يشقه حوار والدي كيواكي، إلا أنه كان على الدوام يدرك ذلك الالتزام بطقس ثابت لا يتغير، كان محدداً كأنه الحفل الطقوسي، الشنتوي، الخاص برفع تقدمة للأرباب، هي غصن من أغصان شجرة الساكاكي، الحفل الذي يؤدي فيه كل مقطع من مقاطع التراتيم بتدقيق بالغ، ويتم اختيار كل غصن متألق بعناية.

راقب كيواكي هذا الطقس، مرات لا حصر لها، منذ طفولته الباكرة. لا أزمات متوهجة. لا عواصف من الانفعال. كانت أمه تعرف، على وجه الدقة، الخطوة التالية. وكان الأمير يعرف أن زوجته تعرف. وبتعبيرات لا تشي بشيء على الملامح، وإنما توحي بالبراءة من المعرفة المسبقة، كانا ينزلقان مع التيار، كأنهما تويجتان تعانقتا على سطح مياه صافية، تعكس سماء زرقاء وسحباً خفيفة ليصلا إلى الانزلاق الحتمي، عبر قمة الشلال.

وعلى نحو ما هو متوقع تماماً، ترك الأمير قهوة ما بعد الغداء، دون أن يتمها، والتفت إلى ابنه:

ـ الآن، يا كيواكي، ما قولك في مباراة بليارد؟

قالت الأميرة:

ـ طيب، إذن، اسمحا لي بالانصراف، لطفاً!

غير أن كيواكي كان سعيداً الليلة للغاية، حتى أن هذا الضرب من التمثيليات التحزيرية لم يثر ضيقه بحال. عادت أمه إلى الدار الرئيسية، ومضى مع أبيه إلى قاعة البليارد، وكان الزوار يعجبون أشد الإعجاب بهذه الغرفة، بأسلوبها الانجليزي في التكسية بخشب البلوط، وصورتها التي تمثل جد كيواكي، وخريطتها الممتدة المنفذة بالألوان الزيتية، الموقعة عليها المعارك الحربية للحرب اليابانية ـ الروسية. وقد قام أحد تلاميذ سير جون ميليز، الذي اشتهر بالصورة الشخصية التي رسمها لجلادستون، برسم هذه الصورة، التي تحمل شبهاً كبيراً لجده، وذلك خلال إقامته في اليابان. والآن بدا شخص جده متشامخاً، وقد اتشح برداء احتفالي من الظلال.

كان تكوين اللوحة بسيطاً، لكن الفنان أظهر درجة رفيعة من المهارة، في مزجه الحكيم بين إضفاء الطابع المثالي والوقار الواقعي ليرسم صورة شخصية، لا تعبر فقط عن المناخ الذي لا يقهر المتوقع أن يحيط بأحد نبلاء

عصر الاصلاح، وإنما كذلك تلك السمات، التي يغلب عليها الطابع الشخصي، والأثيرة لدى عائلته، وصولاً إلى الثآليل التي تعلو خده. وبحسب العرف الجاري في الدار، فحينما تقبل خادمة جديدة للدارة، من منطقة كاجوشيما بالأقاليم، التي تنتمي إليها العائلة، يمضي بها لتمثل أمام اللوحة، لكي تظهر التوقير والإجلال لشخص صاحبها. وقبيل موت جده بسويعات قلائل، وعلى الرغم من خلو قاعة البليارد، وما كان من المحتمل أن خيط اللوحة غدا بالياً إلى هذا الحد، فقد هوت اللوحة إلى الأرض بصوت مدو، تردد صداه في الدار بأسرها.

اشتملت القاعة على ثلاثة طاولات بليارد، مكسوة بطبقات من الرخام الإيطالي. وعلى الرغم من أن اللعبة ثلاثية الكرات أدخلت في زمن الحرب مع الصين، فلم يلعبها أحد قط في قاعة بليارد آل ماتسوجاي. واستخدم كيواكي وأبوه أربع كرات، ووضع كبير الخدم الكرات البيضاء والحمراء على الطاولة، بالترتيب الصحيح، وسلم عصا بليارد لكل منهما. أطل كيواكي على سطح الطاولة، فيما هو يفرك طرف عصاته بالطباشير الإيطالي المصنوع من الرماد البركاني المسحوق. قبعت الكرات العاجية الحمراء والبيضاء ساكنة على النسيج الأخضر، وكل منها تلقى ظلاً دائرياً كمحار يقوم بغزو متردد للعراء، فلم تثر فيه أدنى قدر من الاكتراث. خالجه شعور بأنه يقف وحيداً، في شارع مجهول، في سمت النهار، وفجأة يجد نفسه وجهاً لوجه مع هذه الأشكال الغريبة، المجردة من كل المعاني.

كان الأمير يستشعر على الدوام ضيقاً حيال الضجر، الذي يرتسم على محيا ولده الوسيم. وعلى الرغم من شعور كيواكي بالسعادة الليلة، فقد ارتسمت الكآبة في مقلتيه. قال أبوه لفتح مجال الحوار:

ـ أتعلم أن أميرين سياميين سيصلان إلى اليابان لتلقي العلم في مدرسة النبلاء؟

ـ كلا.

ـ بما أنهما سيلتحقان بصفك الدراسي، قد نستضيفهما هنا لعدة أيام.

وقد ذكرت ذلك في وزارة الخارجية. إن سيام بلاد خطت خطوات عملاقة، مؤخراً، فقد ألغى أهلها الرق، وهم يمدون السكك الحديدية، وما إلى ذلك. ضع ذلك في ذهنك لدى تعاملك معهما!

أعدّ أبوه لضربته، ووقف كيواكي خلفه، وراح يرقبه، فيما هو يتحفز، مثل فهد بدين يعجم عصاه في استعراض لضراوته، فلم يستطع كبح جماح ابتسامة علت شفتيه. اختلطت في ذهنه سعادته بصورة بلاد استوائية غامضة مع قرقعة ناعمة تجتذبه مثل تلامس الكرات العاجية الحمراء والصفراء على الطاولة. وعندئذ اتخذ ابتهاجه، الذي كان صافياً كالبلّور النقي، شكل الوفرة الخضراء للأدغال الاستوائية.

كان الأمير خبيراً في البليارد، ولم يرق كيواكي إلى مستوى الندّيّة معه قط. وبعد أن أطلق كل منهما الضربات الخمس الأولى، تحول أبوه فجأة عن الطاولة باقتراح طال توقع كيواكي له:

ـ أحسب أنني سأتمشى قليلاً. ما رأيك في ذلك؟

لم يحر كيواكي رداً. وعندئذ طرح أبوه اقتراحاً غير متوقع بالمرة:

ـ تستطيع المجيء معي حتى البوابة. أليس بمقدورك ذلك؟ مثلما اعتدت خلال طفولتك.

أخذ كيواكي على غرة، فحول عينيه السوداوين، اللامعتين نحو أبيه. على أية حال فقد أحرز الأمير نصراً في مواجهة ابنه بفضل المباغتة.

أفردت لخليلة أبيه إحدى الدور الواقعة خارج البوابة مباشرة. واستأجرت عائلتان أوروبيتان الدارين الأخريين. وكانت لكل دار بوابة خلفية خاصة بها في السور الذي يفصلها عن ضيعة ماتسوجاي. أما البوابة

الوحيدة التي أوصدت بقفل علاه الصدأ فقد كانت البوابة الواقعة خلف دار الخليلة.

فصل نصف ميل الباب الأمامي للدارة الرئيسية عن البوابة الأمامية. وعندما كان كيواكي طفلاً، اعتاد أبوه أن يمضي معه، يداً بيد، حتى البوابة، في طريقه إلى دار خليلته. وهنالك يفترقان، فيرجع خادم بكيواكي أدراجه.

عندما يخرج أبوه في عمل، كان يستقل في كل الأحوال العربة، أما حينما يغادر الدار مترجلاً، فإن مقصده يبدو جلياً للجميع. وكانت مرافقته لأبيه في هذه الظروف مؤلمة له دوماً. وبينما استحثته غريزة ساذجة، تنتمي إلى عالم الطفولة، على إرجاع أبيه، لأجل خاطر أمه، فإن إدراك عجزه أثار فيه شعوراً مريراً بالإحباط. ولم تكن أمه، بالطبع، مسرورة بمصاحبة لزوجها في هذه النزهات الليلية. ولكن كلما أبدت ضيقها بها زاد إصرار زوجها على مصاحبة كيواكي يداً بيد فيها. وسرعان ما أدرك كيواكي رغبة أبيه الخفية في جعله ضالعاً معه في خيانة أمه.

غير أن هذه النزهة، في ليلة باردة من ليالي نوفمبر، كانت شيئاً جديداً تماماً. وفيما كان أبوه يرتدي المعطف، الذي قدمه له كبير الخدم، غادر كيواكي قاعة البليارد ليجلب المعطف الخاص بزيه المدرسي، ذي الإزرار المعدنية، الذي يرتديه في المدرسة. وكالمعتاد، كان كبير الخدم ينتظر عند الباب بالهدية المألوفة، التي غُلِّفت بنسيج قرمزي، ثم تبع سيّده على المسافة التقليدية، وهي عشر خطوات.

لاح البدر متألقاً، ومضت الريح تزف بين أغصان الأشجار. ورغم أن والده لم يكترث بإلقاء نظرة إلى الخلف على شبح يامادا، قيِّم الدار، الذي يحاكي طيف نذير، فإن كيواكي كان من القلق بحيث ألقى أكثر من نظرة

وراءه. ودون أن يكترث بإضافة شيء إلى الهاكاما التي يرتديها يتجاوز الحرملة، سار ياMADA خلفهما، متأرجحاً قليلاً في مشيته، على ساقيه غير الثابتتين، ويداه اللتان دسهما في قفازين أبيضين كما هو الحال دائماً، ممسكاً بالمدية في غلافها القرمزي، كما لو كانت مهداً يحمله. لمعت عويناته ببريق جليدي تحت سنا البدر. عجب كيواكي من هذا الرجل، الذي يعلو ولاؤه على الشك، ولا يسمح لشيء على وجه التقريب بأن يتجاوز شفتيه. كم من العواطف قبعت مهدرة داخل بدنه كأنها نوابض مشتبكة علاها الصدأ؟ خلافاً للأمير المرح الانبساطي، كان ولده المتحفظ، ذو المظهر اللامبالي، قادراً على سبر غور شعور الآخرين.

ذكّر نعيب البوم وزفيف الريح كيواكي، الذي واصل التوهج بتأثير النبيذ، بالفروع، التي لفحتها الريح، في الصورة التذكارية للجنود. وفيما هما يخوضان في الليل الشتوي الجهم، راح أبوه يتلهف على الدفء الرطب، النابع من حميمية البدن الوردي، الذي ينتظره، بينما كانت خواطر ابنه تحوّم حول الموت.

فيما مضى الأمير يغذ السير، منتشياً بما احتساه، وراح ينثر الحصا بطرف عصا السير، التي يستعين بها، التفت فجأة إلى كيواكي:

ـ لست ممن يؤثرون قضاء وقت طيب. أأنت منهم؟ ليس بمقدوري أن أحدثك كم من النساء نلت عندما كنت في مثل عمرك. أعرني انتباهك! ماذا لو أني صحبتك معي في المرة المقبلة؟ سأرتب وجود العديد من فتيات الجيشا هناك، وبمقدورك، ولو لمرة، أن تستمتع بوقتك. وأحضر معك بعض الأصدقاء من المدرسة، إن أردت.

ـ كلا، شكراً لك.

أخذت الرعدة كيواكي، فيما هو يقول ذلك، دونما تفكير. أحس بقدميه

وقد التصقتا، فجأة، بالأرض. حيال هذه الملاحظة من أبيه، تبددت نشوته، متهشمة، كأنها مزهرية، ارتطمت بالأرض.

ـ ماذا دهاك؟

ـ أتسمح لي بالانصراف رجاء؟ طابت ليلتك.

انقلب كيواكي على عقبيه، ومضى في طريق العودة مسرعاً، ماراً بالمدخل الخافت الإضاءة للدار الغربية، باتجاه المقر الرئيسي، الذي كانت أنواره البعيدة تلتمع خافتة عبر الأشجار.

جافى النوم كيواكي في تلك الليلة. لكن ما أقضَّ مضجعه لم يكن خواطر عن أبيه أو أمه، بل الأمر على العكس، فقد غرق في التفكير في الانتقام لنفسه من ساتوكو. راح يحدِّث نفسه:

ـ كانت من القسوة بحيث استدرجتني إلى ذلك الفخيخ. وتركتني أعاني طوال عشرة إيام. لم يكن في ذهنها إلا أمر واحد: أن تلقي بي في عباب المعاناة والعذاب. ليس بمقدوري تركها تفلت بهذا. ولكني لست بالند لها، إذا ما تعلق الأمر بابتكار سبل تعذيب الناس. ما الذي يمكنني عمله؟ ما هو أفضل شيء لإقناعها بأنني لا أكنُّ احتراماً لكرامة الأنثى يفوق ما يكنُّه أبي لها. لو أني كان بمقدوري أن أقول أو أكتب لها شيئاً بالغ الجرأة يوجه لها طعنة نجلاء. ولكن مشكلتي هي أنني في الجانب المرجوح الكفة؛ لأنني لست من الجرأة بحيث أعلم الآخرين صراحة بشعوري نحوهم على حقيقته. لن يكون أمراً كافياً أن أبلغها بأنها لا تثير فيَّ أدنى اهتمام، فذلك من شأنه أن يترك لها مجالاً واسعاً للمناورة. يتعين عليَّ أن أهينها، ينبغي عليَّ إذلالها بصورة كاملة حتى لا تعود إليَّ بالمرة أبداً للمزيد من المساجلات. ذلك هو ما يتعين عليَّ القيام به. وللمرة الأولى في حياتها سأجعلها تحسّ بالأسف لما أقدمت عليه.

ورغم هذا كله، فقد كانت قرارات كيواكي واهنة. ولم تخطر على باله بعد خطة محددة يتبعها.

تدلى على كل من جانبي فراشه زوج من الستائر الثلاثة الطيات، وقد زركش كل منها بقصائد لهان شان. وعند أقصى أطراف الفراش أكل ببغاء محفور في اليشب من مجثمه على الرف المصنوع من خشب الصندل. ولم يكن كيواكي يكترث كثيراً بأي شيء ينتمي لما هو رائج الآن في عالم الصرعات كأعمال رودان أو سيزان. فقد غلب الطابع المحافظ على ذوقه. راح، مسهداً، يحدّق في الببغاء. بدا له أن جميع تفاصيل يشبه الأخضر، وصولاً إلى الحفر الدقيق لريش الجناح، تتوهج بمزيد من الوضوح. وعلى هذا النحو، بدا شبح الطائر وكأنه يحلق متلاشياً في الظلام، صورة طيفية أفعمت نفس كيواكي بعدم الارتياح. أدرك أن هذه الظاهرة سببها شعاع تائه من سنا البدر، انسلّ عبر النافذة، ففتح الستار بجذبة واحدة على آخره في حركة مفاجئة. كان البدر في كبد السماء، ونوره ينسكب على الفراش.

كان البدر متألقاً بما فيه الكفاية ليوحي بالعبث بدلاً من الجلال. راح كيواكي يفكر في كيمونو ساتوكو الحريري، المتألق، الفاتر. وبجلاء غير أرضيّ، رأى عينيها هنالك في البدر، هاتين العينين النجلاوين، البديعتين، اللتين رآهما قريبتين على نحو مثير للقلق من عينيه. كانت الريح قد سكنت.

ما كان يمكن تفسير حرارة جسم كيواكي المتقدة بمجرد الدفء الذي شاع في الغرفة، وبدا أن شيئاً كالحمى يصطرع في شحمتي أذنيه. نحّى عنه الغطاء، وفتح ياقة منامته. كانت النار لا تزال تتقد وتهتاج تحت جلده. وأحس بأنه لن يعرف للراحة طعماً إلا بخلع منامته وتعريض جسمه لسنا البدر البارد. وفي نهاية المطاف، تقلب، وقد أنهكته خواطره، على بطنه، ورقد

دافناً وجهه في وسادته، مستدبراً البدر والدم الساخن لايزال يتـدفق نابضـاً عند صدغيه.

وعلى هذا النحو رقد، وسنا البدر يحمم البيـاض الناعم، الـذي لا نظير لـه، لظهـره، وبريقـه يحدد الخـطوط الرشيقـة لجسمه ليكشف عن الإيمـاءة المراوغة والشاملة، مع ذلك، إلى الذكورة الصلبة، التي جعلته من الواضح أن هذا اللحم ليس لإمرأة، وإنما هو لشاب لما يكتمل نضجه بعد.

سطع البدر بألق يأخـذ بالألبـاب، على جـانب كيواكي الأيسر، حيث تردد النبض بنعومـة في لحمه الشـاحب، متناغـماً مع وجيب قلبـه. وهاهنـا كـانت ثلاث شـامات صغـيرة لا تكاد تبـين. وكـما أن أنجم حـزام الشرق الثـلاث تشحب في ضوء القمـر القوي، فكـذلك أوشكت أشعتـه أن تمحو هذه الشامات الثلاث.

- ٦ -

في عام ١٩١٠، خلف جلالة الملك راما السادس أباه الراحل، الملك راما الخامس على عرش سيام. وكان الأمير باتاناديد، الملقب ببرونج تشاو، أحد الأميرين القادمين للدراسة في اليابان، هو أخوه الأصغر. أما رفيقه، الذي كان مثله، في الثامنة عشرة من العمر، وخير أصدقائه، فهو ابن عمه الأمير كريد سادا، حفيد الملك راما الرابع، الملقب بمون تشاو. وكان الأمير باتاناديد يطلق عليه، تحبباً، اسم «كري»، لكن الأمير كريدسادا كان، مراعاة لمرتبة باتاناديد في استحقاق العرش، يخاطبه على نحو أكثر توقيراً بـ «تشاوبي».

كان الأميران كلاهما بوذيين ورعين، متحمسين لما يعتقدانه، لكنهما ما كانا يرتديان ملابس كملابس السادة النبلاء من الانجليز في غالب الأوقات فحسب، وإنما يتحدثان الانجليزية بطلاقة تامة كذلك. ومن جراء خوف العاهل الجديد من انغماسهما في النزعة الغربية، بأكثر مما ينبغي، قرر إرسالهما إلى اليابان لتلقي دراستهما الجامعية. ولم يثر أي منهما اعتراضاً، على الرغم من أن أحد جوانب الأمر كان جالباً لسوء الحظ، فقد اقتضت مغادرة سيام فصل تشاوبي عن أخت كري الصغير.

شكّل حب هذين الشابين أحدهما للآخر مصدر ابتهاج للبلاط، حيث كانت خطبتهما، لدى انتهاء تشاوبي من دراسته، أمراً مسلماً به، وكان مستقبلهما آمناً من كل الوجوه. غير أن تشاوبي، عندما انطلق مبحراً استبد

به الحزن إلى حد أثار الانزعاج في بلاد لا تحبذ أعرافها مثل هذه التعبيرات الصريحة والمباشرة عن المشاعر.

ساعدت الرحلة البحرية وتعاطف ابن عمه تشاوبي، بصورة ملحوظة، على التخفيف من الأسى الذي حل به، وعندما وصلا للإقامة لبعض الوقت في دارة ماتسوجاي، ألفى كيواكي محياهما الداكن البشرة يتألّق بالسعادة.

أتيحت للأميرين حرية اتباع النظام الثابت المعمول به في المدرسة، بالطريقة التي تروقهما، حتى بداية عطلة الشتاء. وعلى الرغم من أنه تعين عليهما البدء في الانتظام بصفهما الدراسي في يناير، إلا أنه تقرر ألا يتم إدراجهما رسمياً إلا بعد بداية الفصل الدراسي الجديد في الربيع، حيث يكون قد أُتيح لهما في ذلك الوقت التأقلم مع الظروف الجديدة ودراسة اللغة اليابانية بصورة مكثفة كذلك.

وخلال إقامتهما في دارة ماتسوجاي، شغلا غرفتين متجاورتين من غرف الضيوف، في الطابق الثاني من الدار غربية الطراز، التي زودت بنظام للتدفئة باستخدام البخار تم استيراده من شيكاغو. كان الوقت الممتد من فترة ما قبل تناول طعام العشاء مع أعضاء عائلة ماتسوجاي مجتمعين وحتى بداية الوجبة مربكاً بالنسبة لكيواكي وضيفيه، ولكن عندما يترك الشبان الثلاثة معاً بعد الوجبة، فإن الطابع الرسمي الصارم تخف حدته، حينما يبدأ الأميران في إطلاع كيواكي على صور المعابد الذهبية والمناظر الخلابة لبانكوك. ولاحظ كيواكي أن الأمير كريدساد ليس أصغر سناً من ابن عمه، ومع ذلك فقد احتفظ بقدر من التقلب الصبياني، ولكنه أحس تعاطفاً حاراً مع الأمير باتاناديد، الذي استشعر فيه طبيعة حالمة، مثل طبيعته.

مثلت إحدى الصور لقطة عامة لمعبد وات ـ بو الشهير، بتمثاله الهائل

لبوذا المتكىء. وبما أن فناناً بارعاً قام بعملية تلوين دقيقة للصورة، فقد بدا الأمر كما لو أن المعبد ماثل أمام عيني المرء. ماست أشجار النخيل في رشاقة، واكتست كل تفاصيل فروعها الملتمة باللون في دقة بالغة في مقابل خلفية قوامها سماء استوائية، شكّل لونها الأزرق النابض بالحياة مفارقة، حادة مع البياض الخالص، الذي اكتست به السحب. لم يكن هناك نظير لمباني المعبد، فهي تسلب لب المشاهد بإشراقة مفاجئة، باهرة، من الذهب والأرجوان والبياض. يقف إلهان محاربان، ذهبيان، حارسين عند كل جانب من جانبي البوابة الأرجوانية، المحفوفة خطوطها بالذهب، ويمضي نقش ذهبي، بارز، دقيق التنفيذ، صاعداً عبر جدران المعبد وأعمدته الشهباء، ليشكل نوعاً من الإفريز، عند القمة، ثم يأتي السقف بحشده من القمم، التي اكتسى كل منها بنقش بارز متداخل من الذهب والأرجوان، ومن دار الخزانة، في وسطها، تشمخ القمم المستدقة، المتألقة، التي تعلو البرج الثلاثي، نحو زرقة السماء الباهرة.

ابتهج الأميران بنظرة الإعجاب، غير المتكلفة، التي رمق بها كيواكي الصورة، ثم شرع الأمير باتانادید في الحديث، وقد لاح الشرود في عينيه النجلاوين، المنكستين، اللتين تناقضت نظرتها الحادة بقوة مع وجهه الناعم المستدير:

ـ لهذا المعبد خصوصية بالنسبة لي، وخلال الرحلة إلى هاهنا، راودتني غالباً أحلام تدور حوله. بدت أسقفه الذهبية كما لو كانت تطفو خارجة من رحاب البحر، الذي لفه الليل. واصلت السفينة الانطلاق، وحتى في الوقت الذي كان المعبد بأسره لا يزال ظاهراً للعيان، كان بعيداً تماماً عني. بعد أن نهض من الأمواج، راح يتألق تحت النجوم، على نحو ما يتألق سنا الهلال عبر سطح الماء. وقفت على سطح السفينة، وضممت كفي متواجهين، وانحنيت في إجلال نحوه. ومثلما يحدث في الأحلام، وعلى الرغم

من أن الليل أرخى سدوله والمعبد بعيد للغاية، فإنه كان بمقدوري تبين أصغر تفاصيل الزخرفة الذهبية والأرجوانية.

مضى قائلاً:

- حدثت كري بهذا الحلم، وقلت إن المعبد بدا كما لو كان يتبعنا إلى اليابان، لكنه سخر مني، وقال إن ما يتبعني إلى اليابان ليس المعبد، وإنما ذكرى شيء آخر... وقد أثار غضبي وقتها، لكني أميل الآن إلى موافقته على ما قال؛ ذلك أن كل ما هو مقدس له جوهر الأحلام والذكريات، وهكذا فإننا نعايش المعجزة المتمثلة في جعل ما فصله عنا الزمان أو المكان يتراءى لنا محسوساً ملموساً على حين غرة. الأحلام، والذكريات، والمقدس، كل ذلك يتشابه، في أنه لا تطاله قبضتنا. وما أن يتم فصلنا، حتى ولو على نحو هامشي، مع ما يمكننا لمسه، فإن هذا الشيء يكتسب قداسة، ويتحقق له بها ما لا تطاله اليد، وهو سمة الأمر المعجز والعجائبي. حقاً إن لكل شيء طابع القداسة هذا، ولكننا يمكننا تدنيسه بلمسة واحدة. ما أعجب الإنسان! إن لمسته تدنس، ومع ذلك فهو يضم بين جوانحه مصدر المعجزات.

قال الأمير كريدسادا، مقاطعاً:

- من المؤكد أنه يعبر عن الأمر بطريقة صعبة، وملتفة، ولكن ما يفكر فيه حقاً هي الفتاة التي يهواها في بانكوك. اطلع كيواكي على صورتها ياتشاوبي!

تضرَّج وجه الأمير باناتاديد بالحمرة، لكن بشرته الداكنة أخفت اندفاع الدم إلى خديه. ولدى ملاحظة كيواكي لعدم ارتياح ضيفه، حوَّل دفة الحديث، عائداً إلى الموضوع السابق.

تساءل:

- هل تراودك كثيراً أحلام على هذا النحو؟ إنني احتفظ بسجل يومي لأحلامي.

تألقت عينا تشاوبي. مفصحتين عن اهتمامه، وهو يرد قائلاً:

ـ أود لو كانت لغتي اليابانية جيدة بما يسمح لي بقراءة هذا السجل.

أدرك كيواكي أنه على الرغم من اضطراره للحديث باللغة الانجليزية، إلا أنه نجح لتوه في أن ينقل لتشاوبي افتتانه بالأحلام، وهو شيء لم يجرؤ على الإفضاء به حتى لهوندا. وشعر بأنه يميل أكثر فأكثر إلى تشاوبي. غير أنه منذ تلك اللحظة فصاعداً تعثر الحوار، ولاحظ كيواكي التألق العابث في مقلتي الأمير كريدسادا، فأدرك الصعوبة التي اعترضت مجرى الحديث، فهو لم يصرّ على رؤية الصورة، وهو ما أراده تشاوبي أن يفعله.

سارع إلى السؤال:

ـ أرجو أن تطلعني على صورة الحلم الذي تبعك من سيام إلى هنا!

ـ أتعني المعبد أم الفتاة؟

قالها كريدسادا متدخلاً، على نحو عابث، كعادته أبداً، وعلى الرغم من أن تشاوبي وبخه على سلوكه العابث، المتقلب، إلا أنه لم يقلع عما درج عليه. وعندما أخرج ابن عمه الصورة في نهاية المطاف، مدَّ يده في حرص، ليقول:

ـ الأميرة تشانترابا هي أختي الصغرى، واسمها يعني «سنا البدر»، لكننا عادة ندعوها بينج تشان.

نظر كيواكي إلى الصورة، فشعر بخيبة أمل بالغة؛ حيث شاهد فتاة أكثر عادية بكثير مما كان قد تخيل. كانت ترتدي ملابس غربية، هي رداء أبيض مزركش، وقد عقدت شعرها بشريط أبيض، وتحلت بعقد من اللآلىء، بدت متواضعة، بسيطة. وربما كان أي طالب في مدرسة النبلاء يحمل صورة فتاة مثلها. وأظهر التهدل الجميل، المموَّج لشعرها على كتفيها مؤشرات الرعاية، التي تلقاها. ولكن الحاجبين البالغي القوة كانا يمتدان

عريضين، فوق عينين نجلاوين، خفرتين، والشفتان انفرجتا قليلاً، كأنهما بتلات زهرة رائعة، قبل أن تربّ بالندى. وأعطت ملامحها، في مجملها، انطباعاً، لا تخطئه العين، بالبراءة الصبيانية، التي لا تعي حسنها، وبالطبع فإن ذلك له جاذبية، لكنها تشبه إلى حد كبير فرخاً جاثماً في وكنته، غافلاً عن قدرته على الطيران، فبدت مغتبطة على نحو بالغ السلبية.

حدَّث كيواكي نفسه قائلاً: «إذا قورنت ساتوكو بهذه الفتاة، فإنها ستبدو أكثر أنوثة بمائة مرة، بل بألف مرة. أليس هذا هو السبب في أنها تبدو مقيتة بالنسبة لي، لأنها تبدو مغرقة في الأنوثة؟ فضلاً عن ذلك، فإنها أجمل كثيراً من هذه الفتاة، وهي تعرف مدى جمالها. وليس هناك شيء لا تحيط به علماً، لسوء الطالع، بما في ذلك مدى افتقاري للنضج».

لما رأى تشاوبي مدى استغراق كيواكي في التحديق في صورة الفتاة التي يهوي، وربما لشعوره بالانزعاج قليلاً، حول إمكانية انجذابه لها بأكثر مما ينبغي، مدّ فجأة يده الكهرمانية البشرة، البديعة التكوين، واسترد الصورة. وفيما هو يقوم بذلك، اجتذب نظر كيواكي وميض أخضر، ولاحظ للمرة الأولى خاتم تشاوبي الجميل. كانت جوهرته زمردة كبيرة، مصقولة بشكل رباعي. وعلى كل من جانبي الخاتم حُفرت الرؤوس الوحشية لزوج من «الياكشا»، أو الآلهة المحاربين، على نحو بديع في قلب الذهب. وإجمالاً كان خاتماً كبير الحجم، عظيم القيمة، بحيث أن عدم ملاحظة كيواكي له حتى الآن جاء برهاناً على محدودية ميله إلى ملاحظة الآخرين.

أوضح الأمير باتاناديد، وقد لفَّه قليل من الحرج، مجدداً:

ـ ولدت في شهر مايو. إنها جوهرة مولدي، وقد أعطتنيه ينج تشان هدية وداع.

حذَّره كيواكي، قائلاً:

ـ لكنك إن تحليت بشيء ثمين كهـذا، في مدرسـة النبلاء، فـإنني أخشى أنهم سيأمرونك بالكف عن هذا.

انزعج الأميران، حيال هذا الأمر، فشرعا يتداولان فيه، بحدة، بلغتهما الـوطنية، لكنهـما سرعان مـا أدركا عـدم لياقـة سلوكهـما، فعـادا للحـديث بالانجليزيـة؛ ليتابعهـما كيواكي. حـدثهما الأخـير بأنـه سيبلغ أباه بضرورة إجراء الترتيبـات التي تكفل لهـما الحصول عى خـزانة للودائـع في المصرف. وبعد تسوية الأمر، واكتسـاب المناخ بينهم للمـزيد من الدفء، أبرز الأمـير كـريدسـادا صورة صغـيرة لحبيبته، ثم استحث الأمـيران معاً كيـواكي عـلى إخراج صورة حبيبته بدوره.

قال كيواكي مسرعاً، وقد استخفّه غرور الشباب:

ـ إننـا في اليابـان لسنا معتـادين عـلى تبـادل الصـور، ولكنني بـالتـأكيـد سأعرفكما بها، في القريب العاجل.

لم تـواته الشجـاعة لإطـلاعهما عـلى صور سـاتوكـو، التي يحفل بهـا دفتر الصور، الذي احتفظ به منذ طفولته الباكرة.

أدرك، فجأة، أنه على الرغم من أن مظهره الوسيم قوبل بالإشادة طوال عمره، إلا أنه بلغ الثامنة عشرة تقريباً في التضاعيف الكئيبة لضيعة عائلته، دون أن تكون له صديقة واحدة، باستثناء ساتوكو.

وكانت ساتـوكو تحمـل طابـع العداء، الـذي يسم أي شيء آخر، فهي أبعد ما تكون عن المثل الأعلى للأنوثة والرقة وتجسيد العاطفـة، الذي كـان حـرياً بـالأميرين أن يعجبـا به، فـأحس بأن غضبـه يتصاعـد، في مواجهـة الاحبـاطات العـديـدة التي تـطوقه. ومـا قالـه له أبـوه الذي رنّحـه السكر قليلاً، خلال تلك «النزهة الليلية»، وعلى الرغم من أن نغمة صوته كـانت بالغة الرقة، بدا الآن، إذ يعي النظر فيه، متضمناً سخرية مقنعة.

فجأة، اكتسبت الأشياء عينها، التي جعله شعوره بالكبرياء يتجاهلها، حتى الآن، قدرة على إذلاله. بدا كله شيء يتعلق بهذين الأميرين المترعين بالحيوية، القادمين من المناطق الاستوائية - بشرتهما البنية، الرجولة المتدفقة من مقلتيهما، أصابعهما الكهرمانية، الطويلة، الرشيقة، التي بدا أنها مخضرمة فيما يتعلق بالملاحظات - كل ذلك بدا أنه يوبّخ كيواكي في سخرية: «ماذا؟ في مثل سنك هذا ولم تعشق مرة واحدة؟».

وإذ أحس كيواكي بأن رباطة جأشه تتبخر، سارع بما بقي له من احتياطي التحفظ وبراعة الحديث إلى القول: «سأعرفكما بها في القريب العاجل. ولكن كيف له أن يتدبر الأمور؟ كيف يستطيع استعراض جمال ساتوكو أمام صديقيه الأجنبيين؟ ذلك أنه بالأمس فحسب، وبعد تردد طويل بعث، في نهاية المطاف، برسالة تكيل أشد الإهانات لساتوكو.

كانت كل عبارة في تلك الرسالة، وهي رسالة عكف على صياغة الإهانات الواردة بها مراراً وتكراراً، بأقصى قدر ممكن من العناية، لا تزال تتوهج في ذهنه. فقد بدأ بكتابة: «يؤسفني للغاية أن أقول إن وقاحتك حيالي ترغمني على تسطير هذه الرسالة». وانطلق من هذا الاستهلال الفظّ:

«عندما أفكر في المرات العديدة، التي طرحت فيها عليّ هذه الأحجيات العبثية، حاجبة عني أطراف خيوط الحقيقة، لجعل الأحجيات تبدو أكثر جدية مما هي عليه حقاً، يسيطر الخدر على يدي هذه، التي تحمل فرشاة الكتابة، حتى لتكاد تشلني. وليس لدي شك في أن نزواتك العاطفية قد دفعتك للقيام بذلك حيالي. لم تكن هناك أية رقة في أسلوبك، ومن الجلي ألا عاطفة هنالك، ولا حتى ظل من صداقة. هناك بواعث عميقة تكمن في قرار سلوكك المستهجن، عميت عيناك عنها، لكنها تدفعك دفعاً إلى هدف بالغ الوضوح. لكن الأدب يحول بيني وبين الاسترسال.

غير أنّ كل جهودك ومراميك غدت الآن زبداً على سطح الأمواج؛ ذلك أنني على الرغم من أنني كنت تعيساً، ذات يوم، فقد تجاوزت الآن أحد المعالم على طريق الحياة، وهو انتقال أحس أنني مدين لك ببعض العرفان عنه، مهما كان ذلك على نحو غير مباشر؛ إذ دعاني والدي للذهاب معه في إحدى جولاته، في حي القصف والمرح، والآن ها قد عبرت الحاجز، الذي لا بد لكل رجل من أن يجتازه، ولكي أعبِّر عن الأمر صراحة أقول إنني أمضيت الليلة مع إحدى فتيات الجيشا، اختارها لي أبي. وما كانت إلا واحدة من تلك التجارب في عالم اللهو، التي يقصرها المجتمع على الرجال وحدهم.

ومن حسن الحظ أن ليلة واحدة كانت كافية لإحداث تغيير كامل في نفسي، فتبددت مفاهيمي السابقة عن المرأة، وتعلمت أن أنظر إلى الفتاة باعتبارها لا تعدو أن تكون مجرد حيوان صغير، لحيم، داعر، رفيقة عبث، جديرة بالازدراء. هذا هو الاكتشاف العجيب، الذي يمكن الوصول إليه، في مجتمع من نوعية مجتمع أبي. وبعد أن كنت لا أتعاطف، حتى تلك الليلة، مع موقفه من النساء فإنني الآن أساند هذا الموقف تماماً، وكل نسيج من أنسجة جسمي يحدثني بأني سر أبي.

وربما تشعرين الآن بأنني ينبغي تهنئتي، على أنني تجاوزت أخيراً الآراء الميتة العتيقة لعهد ميجي، لأتمسك بآراء أكثر استنارة. وربما تبتسمين بازدراء، مدركة أن اشتهائي للنساء المأجورات لن يؤدي إلا إلى زيادة تقديري للنساء النقيات من أمثالك. كلا! دعيني أفنِّد لك تماماً مثل هذا المفهوم. فمنذ تلك الليلة (الاستنارة هي ما تقوله على وجه الدقة) اجتزت كل هذه المعايير إلى نطاق لا ضوابط فيه، فلا تمييز هناك بين فتاة جيشا وأميرة، ولا بين عذراء وعاهر، ولا بين عاملة في مصنع وفنانة. وكل امرأة هي دون استثناء مخلوق كاذب و «لا تعدو أن تكون مجرد حيوان صغير، لحيم، داعر»، وكل ما بقي هو أثواب وأدوات تجميل. ويتعين عليّ القول

بأنني أنظر إليك باعتبارك مثل الأخريات جميعاً، على وجه الدقـة. أرجو أن تصـدقي أن كيو الـرقيق، الذي تعتـبرينه عـذب الروح، شـديـد الـبراءة، مطواعاً للغاية، قد مضى إلى غير رجعة».

من المحتم أن الأميرين قد أُخذا، إلى حد ما، حينما حياهما كيواكي تحية المساء، فجأة، وهرع إلى خارج الغرفة، في وقت جد مبكر من المساء، على الرغم من أنه راعى باسماً كل المجاملات، المعتادة من رجـل مهذب، مثـل التأكد من ترتيب فراشيهما بصورة سليمة، والاستفسار عما إذا كانـا بحاجـة إلى أي شيء آخر، وأخيراً الانسحاب، مؤدياً المراسم المعتادة في التحية.

غمغم كيـواكي محدِّثـاً نفسه، فيـما هـو يهـرب مسرعـاً، عـبر الدهليز الطويل، المفضي إلى الدار الرئيسية، من الدار الغربية: «لم يـتـفق أنه في أوقات كهذه لا يوجد من يعتمد عليه قط؟». فكَّر في هوندا. لكن معايـيره الدقيقة والمتشددة، فيما يتعلق بالصداقة، جعلته يستبعد هذا الاحتمال.

مضت الريح الليلية تدمدم عند نوافذ الدهليز، بخطه الممتد إلى البعيـد من المصـابيح الكـابية. خشي، فجـأة، أن يراه أحـد، ويتساءل عن هـربه وتقطع أنفاسه على هذا النحو، فكف عن السير، وفيما هو يريح مرفقيه على إطار النافذة المزخرف، ويتظاهر بالنـظر إلى الحديقـة، حاول يـائساً تـرتيب أفكـاره. لم يكن من اليسير التحكم في الـواقع، خـلافاً لما هو عليـه الحال بالنسبة للأحلام. كان عليه أن يتدبر أمر خطة، لا سبيل إلى أن تكون شيئاً غـامضاً أو بعيـداً عن اليقين، وإنما يتعـين أن تكـون متماسكـة مثـل حبـة الدواء، وأكيدة المفعول مثلها. أثقل على كاهله شعور بضعفـه، وبعد دفء الغرفة التي غادرها لتوه جعله الدهليز البارد يرتجف.

ضغط بجبينه على الزجاج الـذي قارعتـه الريـح، وحدَّق من خـلاله في الحديقة. لم يكن هنـاك قمر الليلة، وشكلت الجـزيرة وتـل القيقب الواقـع وراءهـا كتلة واحـدة في قلب الـظلام. وكـان بمقـدوره في الضـوء الكـابي

المتسرب من مصابيح الدهليز أن يتبين سطح البحيرة، الذي موَّجته الريح. تخيل فجأة أن السلاحف النهَّاشة قرأت أفكاره من قلب الماء، وراحت تتطلع باتجاهه، فأخذته الرجفة حيال هذه الفكرة.

فيما هو يعود إلى الدار الرئيسية، ويوشك أن يرقى الدرج إلى غرفته صادف معلمه إينوما، وتطلع إليه، ببرود بالغ.

- هل أوى الأميران إلى فراشيهما يا سيدي؟

- أجل.

- أيوشك سيدي الشاب على أن يأوي إلى فراشه أيضاً؟

- لديَّ بعض الدراسات، ينبغي إنجازها.

كان إينوما في الثالثة والعشرين من العمر، وفي العام الدراسي الأخير من مدرسته الليلية . والحقّ أنه ربما كان قد عاد لتوه من الصف، حيث كان يتأبط بعض الكتب. أما كونه شاباً، بل في ريعان شبابه، فلم يترك على ما يبدو أثراً في نفسه، بخلاف تعميق نظرة الاكتئاب المميزة له. وكان كيانه الضخم المعتم يثير أعصاب كيواكي، ويثقل عليها.

عندما عاد الفتى إلى غرفته، لم يكترث بإشعال جهاز التدفئة، وإنما شرع يذرع المكان جيئة وذهاباً، في قلق، طارحاً على نفسه الخطة بعد الأخرى.

حدَّث نفسه قائلاً: أياً كان ما سأفعله، ينبغي عليَّ القيام به على وجه السرعة. ألم يفت الأوان بالفعل؟ بشكل ما، وفي المستقبل القريب للغاية، ينبغي أن أعرِّف الأميرين بفتاة على أنها تربطني بها أشد الصلات حميمية، بينما أرسلت إليها لتوي هذه الرسالة، وفضلاً عن هذا، يتعين عليّ تدبر الأمر بشكل لا يثير القيل والقال.

كانت الصحيفة المسائية، التي لم يتح له الوقت لقراءتها، ملقاة على المقعد. ودونما سبب وجيه، التقطها، وفتحها، فلفت نظره إعلان عن

مسرحية كابوكي تقدم على خشبة المسرح الأمبراطوري، وفجأة بدأ قلبه يخفق مسرعاً بين ضلوعه.

ـ تلك هي الخطة. سأصحب الأميرين إلى المسرح الأمبراطوري. أما فيما يتعلق بتلك الرسالة، فهي لا يمكن أن تكون قد وصلت بالفعل؛ حيث لم أرسلها إلا بالأمس فحسب. لا يزال هناك أمل. لن يسمح أبواي لساتوكو بالذهاب لمشاهدة مسرحية بصحبتي، ولكن إن التقينا مصادفة، فلن يكون هناك بأس في هذا.

اندفع خارجاً من الغرفة، وهبط الدرج إلى الغرفة المجاورة للمدخل الأمامي، حيث الهاتف. غير أنه قبل أن يلج تلك الغرفة تطلع بحذر في اتجاه غرفة إينوما، التي كانت خيوط الضوء تتسرب منها. لا بد أنه عاكف على الاستذكار.

التقط سماعة الهاتف، وأعطى عامل البدالة الرقم. راح قلبه يخفق بعنف، وقد طار ضجره المألوف شعاعاً.

ـ مرحباً! أهذه دار أياكورا؟ هل أستطيع التحدث إلى الآنسة ساتوكو رجاء!؟

قالها كيواكي متسائلاً، بعد أن رد عليه صوت امرأة عجوز، مألوف له. من بعيد، تردد صوت أزابو واشياً بقدر معين من الاستياء، وإن ظل مهذباً على نحو معذِّب:

ـ أهذا هو السيد ماتسوجاي الشاب فيما اعتقد؟ آسفة أشد الأسف، لكن الوقت جدّ متأخر، فيما أخشى.

ـ أوقد آوت الآنسة ساتوكو إلى فراشها؟

ـ طيب، كلا، لا أعتقد أنها آوت إلى فراشها بعد.

بعد إلحاح من جانب كيواكي، أقبلت ساتوكو إلى الهاتف، في نهاية

المطاف. أبهجه، إلى أبعد الحدود، رنين صوتها الدافىء، الصافي.
ـ كيو، ما الذي تريده بحق السماء في هذا الوقت من الليل؟
ـ طيب، أقول لك الحقيقة، إنني بعثت لك برسالة أمس. أياً ما كان الأمر لا تفضّيها! أرجوك، عديني بأن تلقي بها تواً إلى النار!
ـ طيب، حقاً، يا كيو، لست أدري عم تتحدث!

حدَّث شيء ما في صوت ساتوكو البادي الهدوء كيواكي بأنها قد شرعت في نسج شبكتها المعتادة من الألغاز والاحجيات. وتناهى إليه صوتها، في هذه الليلة الشتائية الباردة، دافئاً وناضجاً، كأنه ثمرة مشمش في شهر يونيو. قال، وقد ضاق ذرعه:

ـ أعرف أنك لا تدرين عما أتحدث، فما عليك لطفاً إلا أن تصغي وتعدي! عندما تصلك رسالتي فما عليك إلا أن تلقي بها في النار تواً، دون أن تفضيها، رجاء!
ـ فهمت.
ـ أتعدين بذلك؟
ـ طيب.
ـ الآن، هناك شيء آخر أريد أن أطلبه منك...

ـ تبدو هذه الليلة بالتأكيد ليلة الطلبات. أليس كذلك ياكيو؟
ـ أيمكنك القيام بهذا من أجلي، احصلي على بطاقتي دخول للمسرحية المعروضة بالمسرح الأمبراطوري لبعد غد، لك ولوصيفتك.
ـ مسرحية...!

جعل الصمت المفاجىء الذي حلَّ على الجانب الآخر من الخط كيواكي يخشى أن ساتوكو قد ترفض، لكنه أدرك أنه في غمار تعجله نسي شيئاً محدداً، ففي ضوء الظروف الراهنة لآل أياكورا، يشكل دفع ثمن بطاقتي

دخول للمسرح مقابل ينين وخمسين سيناً[1] للبطاقة الواحدة تبذيراً صارخاً.

- كلا، بل انتظري، عفواً، سأبعث إليك بالبطاقتين. ولئن كان مقعداك مجاورين لمقاعدنا فقد يتقول الناس، ولكني سأرتب الأمور بحيث يكون مقعداك على مقربة نسبية منا، لسوف أذهب بصحبة الأميرين السياميين، بالمناسبة.

- كم هو لطيف أن تقوم بذلك ياكيو! ستسر تاديشينا، بالقطع، إني أتوق إلى الذهاب إلى هناك.

قالتها ساتوكو، دون أن تبذل جهداً لإخفاء سرورها.

---

(١) غني عن البيان أن «السين» هو الوحدة الأصغر، التي تعادل واحداً من المائة من العملة اليابانية، وهي الين، كما هو معروف.

(هـ. م.)

- ٧ -

طلب كيواكي، في اليوم التالي، بالمدرسة من هوندا مرافقته والأميرين السياميين إلى المسرح الأمبراطوري، ليل الغد، فسرّ هوندا، وقبل الدعوة في الحال، وإن لم يخل الأمر من شعور غامض بالحرج. ولم يشأ كيواكي، بالطبع، أن يخطر صديقه بذلك الجزء من الخطة، الذي يتيح الفرصة للقاء المصادفة مع ساتوكو.

في ذلك المساء، وعلى طعام العشاء بالدار أبلغ هوندا أبويه بالدعوة، التي وجهها إليه كيواكي. أعرب أبوه عن بعض التحفظات على المسرح، ولكنه أحس بأنه لا ينبغي أن يقيِّد حرية شاب في الثامنة عشرة من عمره، في أمر كهذا.

كان أبوه قاضياً بالمحكمة العليا، وقد حرص على أن يسود داره مناخ من اللياقة والذوق الرفيع. وقد أقامت الأسرة في دارة فسيحة في هونجو، ذات غرف عديدة، أثِّث بعضها بالأسلوب الغربي الخانق الذي كان ذائعاً في عصر ميجي. ومن بين خدمه كان هناك عدد من الطلاب، وامتلأت الدار بالمكتب، حتى فاضت بها المكتبة وغرفة المكتب، بل ودارت مع الدهاليز، في امتداد شاسع من الجلد البني والحروف المذهبة.

وبدورها كانت أمه نقيض الأنوثة العابثة اللعوب، إذ كانت تحتل منصباً في «العصبة الوطنية للنساء»، وقد أفعمها ألماً أن ابنها قد صادق صداقة وثيقة نجل الأميرة ماتسوجاي، وهي سيدة ما كانت لتطيق صبراً مع هذه الأنشطة الجديرة بالاهتمام. أما إذا ضربنا صفحاً عن هذا، فإن سجل

شيجيكوني هوندا الطيب في المدرسة، واجتهاده، ومجتمعه، وأخلاقه الحميدة، التي لا تشوبها شائبة، كانت مصدراًلفخار دائم تستشعره أمه، وما كانت لتسأم قط من الإشادة به، أمام الآخرين.

كان كل شيء في حياة عائلة هوندا، حتى أقل الآنيةقيمة، يخضع لمعايير دقيقة، فابتداء من شجرة البونسيه، الواقعة أمام المدخل، والستار المسدل خلفها، بالرمز الصيني الذي يزخرفها تحقيقاً للتناسق، وصندوق السجائر والمنافض الموضوعة في قاعة الاستقبال، وغطاء المائدة ذي الشُرّابة، وانتهاء بصندوق حفظ الأرز في المطبخ، وحامل المنشفة في المرحاض، والمقلمات في المكتب، بل وحتى ثقّالات الورق في المكتب، كل شيء كان هو الكمال بعينه، في النوع الذي ينتمي إليه.

وقد امتد هذا الاعتناء إلى الحوار الذي يدور بين أفراد العائلة. وفي دور أصدقاء هوندا، كان يمكن الاعتماد على شخص أو اثنين من كبار السن لطرح أقاصيص عبثية، فعلى سبيل المثال قد يستعيدان ذكرى ليلة أطل فيها قمران عبر النافذة، أحدهما غرير متنكر اتخذ في التو هيئته العادية، لدى مضايقته بقسوة، وابتعد متثاقل الخطو. وسيكون هناك على الدوام جمهور مقدر لما يسمع. ولكن في دار هوندا، كان من شأن نظرة قاسية من أبيه أن توضح حتى لأكثر الوصيفات تقدماً في العمر أن الانغماس في مثل هذا اللغو الجاهل لا مجال له.

وكان أبوه، في شبابه، قد أمضى بعض السنوات في دراسة القانون في ألمانيا، وقد وقَّر الاحترام الألماني للمنطق.

عندما قارن داره بدار كيواكي، بدا له جانب محدد من جوانب الاختلاف مسلياً، فعلى الرغم من أن آل ماتسوجاي بدوا وكأنهم يعيشون حياتهم على الطريقة الغربية، ومع أن دارهم كانت حافلة بالأشياء المستوردة من الخارج، فقد كان مناخ دارهم يابانياً، على نحو صارخ، وبشكل

تقليدي. ومن ناحية أخرى، فإنه في داره ربما كانت الحياة اليومية يابانية، إلا أن المناخ اتسم بالكثير مما هو غربي، في قرارة روحه، ثم إن اهتمام أبيه بتعليم الطلاب في داره كان متبايناً أشد التباين مع موقف الأمير ماتسوجاي من تعليم الطلاب في داره.

وكالمعتاد تحوّل هوندا بمجرد الانتهاء من واجبه المنزلي، الذي كان الليلة متعلقاً بالفرنسية، وهي لغته الثانية، إلى بعض قراءاته في القانون. وكانت هذه المواد مكتوبة بالألمانية والفرنسية والانجليزية، وقد اضطر لطلبها عن طريق مكتبه ماروزين. وقد عكف عليها ليلة بعد الأخرى، توقعاً لمتطلبات العمل في الكلية مستقبلاً، وكذلك وعلى نحو أكثر أهمية لأنه كان لديه ميل طبيعي إلى رد كل شيء إلى مصدره. وشرع مؤخراً في فقدان اهتمامه بالقانون الطبيعي الأوروبي، الذي فتنه أشد الفتنة. ومنذ ألقت رئيسة الدير جيشو عظتها، أصبح أكثر وعياً بضروب قصور هذا الفرع العلمي.

غير أنه أدرك أنه على الرغم من أن القانون الطبيعي قد أُهمل نسبياً في السنوات الأخيرة، إلا أنه ما من نقد فكري آخر قد أفصح عن مثل هذه القدرة على مواصلة البقاء، فهو قد ازدهر في أشكال متباينة، تناسب المراحل العديدة، التي توالت عبر ألفي عام من التاريخ ـ منذ أصول البادية عند سقراط، وتأثيره القوي على عهد تكوين القانون الروماني، مروراً بوسيط، هو كتابات أرسطو، إلى تطوره المتشابك وتنسيقه في القرون الوسطى المسيحية، ورواجه الذائع لصيت في عصر النهضة، وقد وصل هذا حقاً إلى قمة سامقة، حتى ليمكن أن يطلق على ذلك العهد اسم عهد القانون الطبيعي. وفي الغالب، فإن تلك الفلسفة المتواترة هي التي أبقت على الإيمان الأوروبي بقوة العقل. ومع ذلك، لم يستطع هوندا الحيلولة دون التفكير في أنه على الرغم من عناده وصموده، فإن ألفي عام من نزعته

الإنسانية القوية المشرقة الأبوللونية قد كفت بالكاد لصد غارات الظلام والبربرية.

كما أن الاغارة لم تقتصر على هاتين القوتين وحدهما، فقد هدده كذلك ضوء آخر أكثر قدرة على أن يخطف البصر، حيث أن القانون الطبيعي قد استبعد بصورة متصلبة كل احتمال لمفهوم عن وجود يقوم على أساس القومية الرومانسية اللاعقلانية.

أياً ما كان الأمر، فإن هوندا لم يتشبث بالضرورة بالمدرسة التاريخية في القانون، التي تأثرت بالنزعة الرومانتيكية للقرن التاسع عشر، ولا بالمدرسة العرقية. حقاً إن اليابان في عهد ميجي قدمت حاجتها إلى نمط قومي من القانون، نمط يضرب جذوره في فلسفة المدرسة التاريخية. ولكن اهتمامات هوندا كانت مختلفة تمام الاختلاف، فقد حرص أولاً على أن يفصل المبدأ الجوهري الكامن وراء القانون بأسره، وهو المبدأ الذي شعر بأنه لا بدّ من أن له وجوداً، وقد كان هذا هو السبب في أن مفهوم القانون الطبيعي قد فتنه لبعض الوقت، أما الآن فهو أكثر حرصاً على تحديد الحدود القصوى الخارجية للقانون الطبيعي، التي أشارت إليها، على نحو غير مقصود، دعاواه الخاصة بالشمول والإطلاق. وقد استمتع بإطلاق العنان لخياله في هذا الاتجاه، وحدَّث نفسه بأنه لو كان القانون سيزيد القيود والضوابط، التي فرضها القانون الطبيعي والفلسفة، وينطلق إلى مبدأ أكثر إطلاقاً وشمولية (بفرض وجود مثل هذا المبدأ) ألا يصل إلى مرحلة يكفّ فيها القانون ذاته، على نحو ما عرفه، عن الوجود؟

كان هذا، بالطبع، هو ذلك النوع الخطر من التفكير الذي يستهوي الشباب. وفي ضوء ظروف هوندا، ومع مثول الهيكل الهندسي للقانون الروماني متعملقاً على نحو هائل في الخلفية ليلقي بظله على القانون الحديث المعمول به، الذي عكف الآن على دراسته، لم يكن من العجيب أن يجد

نزعته الأصولية مضجرة للغاية؛ ومن هنا كان بين الفينة والأخرى ينحّي مجموعات قوانين اليابان في عهد ميجي، التي صيغت بإخلاص على غرار النماذج الغربية جانباً، ويحول ناظريه إلى اتجاه آخر- إلى التقاليد القانونية الآسيوية، الأوسع نطاقاً، والأكثر امتداداً في العمر.

وفي مناخه النفسي المتشكك الراهن، تضمنت ترجمة فرنسية قام بها ديلونجشامب لقانون مانو، وصلت لتوها من مكتبة ما روزين، في لحظة مناسبة، الكثير مما وجده جذاباً، على نحو قوي.

كانت قوانين مانو، التي ربما صيغت عبر الفترة الممتدة من عام ٢٠٠ ق.م. إلى عام ٢٠٠ب.م. أساس القانون الهندي. وفي صفوف الهندوس الملتزمين، احتفظت بسلطتها، باعتبارها تقنيناً، حتى الوقت الحاضر. وقد تجمع في فصولها الاثني عشر وبنودها البالغة ٢٦٨٤ بنداً كيان هائل من المفاهيم، مستمد من الدين والعرف والأخلاق والقانون ، تراوح من أصل الأكوان إلى عقوبات السرقة وقواعد تقسيم الميراث. وقد أثقلته فلسفة آسيوية. كانت كل الأشياء في إطارها واحداً، في مفارقة ملحوظة للقانون الطبيعي ورؤية المسيحية للعالم، بولعهما بإقامة ضروب التمييز والفواصل، القائمة على عوالم صغيرة وأخرى هائلة، متوافقة بصورة مرتبة.

غير أن حرية التصرف في القانون الروماني جسّدت مبدأ ناقض المفهوم الحديث للحقوق. وكما أن القانون الروماني نص على أن الحقوق تسقط بتقادم عدم الاستخدام، حينما لا يكون هناك مجال للإنصاف أو الإصلاح، فكذلك قوانين مانو، بحسب القواعد الإجرائية المعمول بها في البلاطات العظيمة للراجات والبراهمة، قصرت الدعاوي، التي يمكن رفعها، على قضايا عدم سداد الديون وثماني عشرة قضية أخرى.

أفتتن هوندا بالأسلوب النابض بالحيوية، على نحو فريد، الذي تميزت به هذه القوانين. وحتى التفاصيل المضجرة مثل إجراءات المحاكم، صورت

من خلال استعارات وتشبيهات ملونة، فعلى سبيل المثال خلال إجراء محاكمة كان يتعين على الراجا أن يقرر حقيقة أو زيف الأمر المطروح أمامه «تماماً كما يبحث الصياد عن وجار الغزال الجريح، بتتبع أثر الدم». وفي معرض تعداد واجبات الراجا، استحث هذا الأخير على أن يسدي الأيادي البيضاء إلى شعبه «مثلما يجعل إندرا المطر، واهب الحياة، يهمي في ابريل». أوغل هوندا في القراءة، حتى النهاية ذاتها، بما في ذلك الفصل الأخير الذي يتناول المسائل الملتبسة، التي تتحدى التصنيف، سواء باعتبارها قوانين أو تفسيرات.

يقوم الإلزام المتضمن في القانون الغربي، بشكل حتمي، على قوة المنطق، أما قوانين مانو فتضرب جذورها في قانون كوني، مغلق في وجه المنطق ـ مذهب تناسخ الأرواح. وقد طرح هذا في القوانين بحسبانه أمراً طبيعياً:

«الأعمال تنطلق من الجسم، من الحديث، ومن العقل، وتؤدي إما إلى الخير أو الشر».

«في هذا العالم، تؤدي الروح، متوحدة مع الجسم، ثلاثة أنواع من الأعمال: الطيّب، اللامبالي، والشرّير».

«ما ينبع من روح الإنسان يشكّل روحه، وما ينطلق من حديثه يصوغ حديثه، والأعمال التي تنشأ من جسمه تطوّع جسمه».

«من يقترف الخطيئة بجسمه يصبح شجرة أو نجيلاً في الحياة المقبلة، ومن يأتها في حديثه يغدُ طيراً أو بهيمة، ومن يرتكبها بروحه يبعث في أدنى الطبقات مرتبة».

«من يلزم الحرص، في حديثه، وعقله، وجسمه، حيال كل ما تدب فيه الحياة، ومن يلجم شهوته وغضبه سيحرز التحقيق، ويمتلك ناصية الانعتاق الكامل».

«من المناسب أن يستخدم كل إنسان الحكمة التي أوتيها ليتبين كيف أن مصير روحه يعتمد على التزامه بالقانون من عدمه، وأنه ينبغي أن يكرس نفسه، قلباً وقالباً، للمراعاة الأمينة للقانون».

هاهنا، مثلما في القانون الطبيعي تماماً، نظر إلى الالتزام بالقانون والقيام بالأعمال الطيبة باعتبارهما شيئاً واحداً، ولكن هنا يقوم القانون على أساس تناسخ الأرواح، وهو مبدأ يعوق البحث العقلاني العادي. والقوانين يبدو أنها، بدلاً من أن تخاطب العقل البشري، تعزف على نغمة التهديد بإيقاع العقاب، وهكذا فإنها باعتبارها مذهباً في القانون تولى ثقة أقل، إلى حد ما، للطبيعة الإنسانية، مما يوليها القانون الروماني، باعتماده على قوى المنطق.[1]

---

(١) حار النقاد، على اختلاف اتجاهاتهم، في تفسير مثل هذه الاستطرادات، الطويلة غالباً، التي تصادف القارىء، على امتداد صفحات رباعية «بحر الخصب»، وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى:

أ ـ فهناك فريق من النقاد ذهب إلى القول بأن هذه الاستطرادات هي شروحات، كان ميشيما نفسه يعتبرها ضرورية له، مثلما هي ضرورية للقارىء.

ب ـ وقال فريق ثان إن ميشيما عمد إليها، في إطار تأثره بكتاب عالميين أثيرين لديه، اعتمدوا أسلوب التضمين هذا، وفي مقدمتهم توماس مان.

ح ـ وذهب فريق ثالث إلى أن ميشيما، في إطار رغبته في جعل الرباعية أعظم عمل صرحي، في الأدب الياباني الحديث، استخدم هذه الاستطرادات، دون أن يرده كونها بمثابة المواد غير المتجانسة مع نسيج العمل نفسه.

د ـ وفريق رابع لم يتردد في اتهام ميشيما بأنه لجأ إلى إطالة النص؛ لأسباب عملية =

لم تراود هوندا الرغبة في إنفاق وقته في التفكير ملياً في مشكلة كهذه، أو أن يغمس نفسه في حكمة القدماء. وبحكم كونه دارساً للقانون، كان يميل إلى تأييد المؤسسة القانونية، غير أنه ضايقته بصورة دائبة شكوك وظنون حول النظام المطبق الذي كان موضوع دراسته. وقد علمته مجالداته بتركيبها المتداخل والمشتبك، على نحو مؤلم، أن رؤية أوسع نطاقاً تمس الحاجة إليها، في بعض الأحيان، وليس هذا قائماً في القانون الطبيعي بتمجيده للعقل الكامن في قرار القانون المعمول به فحسب، وإنما كذلك في الحكمة المنطوية على بذور التطور لقوانين مانو. ومن هذه النقطة المتقدمة كان بمقدوره الاستمتاع بعالمين ـ الزرقة الصافية للظهيرة، والليل الذي توشيه النجوم.

ومن المؤكد أن دراسة القانون كانت فرعاً دراسياً غريباً، فهي شبكة ذات عيون بالغة الدقة، حتى لتمسك بأقل أحداث الحياة اليومية شأناً، ومع ذلك فإن امتدادها الهائل، في الزمان والمكان، شمل حتى التحركات الخالدة للشمس والنجوم. وما من صياد، يسعى إلى زيادة صيده، يمكن أن يكون أكثر شراهة من دارس القانون.

وإذ غرق هوندا طويلاً، على هذا النحو، في مطالعته، غافلاً عن انقضاء الوقت، أدرك أخيراً، ببعض القلق، أنه من الخير له أن يأوى إلى فراشه، إذا شاء ألا يبدو مجهداً، عندما يلتقي كيواكي في المسرح

= محض، ترجع إلى أن نفقاته الهائلة كان يتعين عليه أن يغطيها بدفق مالي كبير من عائد نشر نصوص مطولة.

وقد لفتت هذه الظاهرة نظرنا، على امتداد ما يزيد على عقد من الزمان من الاهتمام بالرباعية، ومع تعاطفنا مع التفسير الثالث، إلا أننا حرصنا على طرح الصورة كاملة أمام القارىء ليحكم في الأمر بنفسه.

(هـ. م.)

الأمبراطوري، ليلة الغد. وحينما فكَّر في صديقه، البالغ الوسامة، والذي يصعب سبر أغواره، ثم تأمل كيف أن مستقبله هو يبدو من غير المحتمل أن يكون أي شيء آخر، إلا مستقبلاً عادياً، يمكن التنبؤ به، لم يستطع كبح جماح رعدة أخذته أخذاً، وراح، في تكاسل، يقلب في ذهنه الانتصارات التي أبهجه بها رفاقه في الصف، بمزيد من الفخار، مثل استخدام وسادة ملفوفة للعب الرجبي في مشرب شاي «جيون» مع حشد من فتيات الجيشا الشابات.

وبعد قليل. حملته الأفكار على جناحها إلى حادثة وقعت في داره، هذا الربيع، كان يمكن أن تكون بعيدة عن الأهمية، في بيئة أكثر انغماساً في شؤون العالم، ولكنها فجَّرت أصداء هائلة في دار هوندا. فقد أقيمت صلاة بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة جدته، في معبد نيبوري، حيث دفن رفات العائلة، وبعدها جرت استضافة أقرب الأقارب. وكانت فوساكو ابنة عم شيجيكوني الثاني، في وقت واحد، أصغر الضيفات سناً وأبرعهن حسناً وأكثرهن مرحاً ونشاطاً. وقد سببت ضحكاتها المتتابعة، في دار هوندا الرصينة، شعوراً بالدهشة والاستنكار.

ورغم الإطار الديني لليوم، إلا أن الوعي بالموت لم يكن كافياً للحيلولة دون الغمغمة الهانئة للحوار بين الأقارب، الذين لم يروا بعضهم البعض لوقف طويل للغاية. وهكذا، راحوا يتحدثون، ربما معرجين في حديثهم سريعاً على الجدة الراحلة بين الفينة والأخرى، وإن كانوا أشد حرصاً على أن يحدث أحدهم الآخر بأنباء الأطفال، الذين كانوا موضع فخار كل أسرة.

مضى الضيوف الثلاثون يجوبون الدار، منتقلين من غرفة إلى أخرى، مندهشين لمواجهتهم للكتب حيثما مضوا. وطلبت قلة منهم رؤية مكتب

شيجيكوني، وأطلوا على قمطره، لبعض الوقت، ثم غادروا المكتب، واحداً إثر الآخر، إلى أن بقيت فوساكو وحدها معه.

اقتعدا الأريكة الجلدية، غير بعيد عن الحائط. كان شيجيكوني يرتدي الزي المدرسي الرسمي، وفوساكو ترتدي كيمونو أرجوانياً رسمياً. وما إن أدركا أنهما تركا وحدهما، حتى حل بهما الارتباك، أحدهما حيال الآخر، وكفت عن الانطلاق ضحكات فوساكو المسترسلة.

راح شيجيكوني يتساءل عما إذا كان من الصواب أن يطلع فوساكو على دفتر صوره. أو شيء من هذا القبيل، ولكن من سوء الحظ أن لم يكن تحت يديه شيء من هذا القبيل، في الوقت الراهن. وزاد الطين بلة أن فوساكو بدت مستاءة، على حين غرة. لم يكن قد انجذب إليها، حتى الآن، بشكل خاص، بما يحيط بها من طاقة بدنية مفرطة، ويضحكتها المجلجلة المتقطعة، وتعودها مشاكسته، رغم أنه يكبرها بعام، وانطلاقها الدائب في غمار النشاط. والحق يقال إنها كانت تتمتع بالازدهار الدافىء، الذي يميز زهرة، في منتصف الصيف، ولكن شيجيكوني كان قد وصل بالفعل إلى قرار خاص: خير له ألا يتخذ امرأة مثلها زوجة له.

- إنني متعبة، كما تعلم، وماذا عنك، يا شيجي، ألست مرهقاً؟

قبل أن يتمكن من الرد، بدا أنها تثني خصرها، وتهوي نحوه بزنارها العريض، مثلما ينهار حائط فجأة، وبعد لحظة، كان رأسها قد استكن في حجره، فألفى نفسه يتملى الثقل الدافىء، العطر، القابع عبر ركبتيه.

ارتج عليه تماماً، وتطلع إلى الوقر اللين المستكن في حجره، وظلت الأمور على ذلك النحو لبرهة، خالها دهراً، أحس بالعجز عن أن يحرك عضلة واحدة من عضلاته، وبدورها فوساكو ما إن دفنت رأسها، مغتبطة، في النسيج الصوفي المتين للزي الرسمي، الذي يرتديه ابن عمها، حتى حجبت كل إشارة إلى أنها تنوي أن تحركها.

ولكن، عندئذ، فتح الباب فجأة، وأطلت منه أمه وإحدى العمات وأحد الأعمام. شحب محيا أمه، وكفَّ قلبه عن الخفقان، غير أن فوساكو اكتفت بالتطلع، في بطء، باتجاه القادمين الجدد، ثم، آه، بفتور همة بالغ، رفعت رأسها.

ـ إني متعبة للغاية، وأعاني من صداع أيضاً.

ـ رباه! لا يمكننا احتمال ذلك، هل آتي لك بشيء لعلاجه؟

لم يكن عبثاً أن أمه تشغل منصباً في العصبة الوطنية للنساء، وقد بدا هذا جلياً، فيما هي تقتحم هذه الثغرة، كأنها ممرضة متطوعة.

ـ كلا، شكراً، لا أعتقد أن الأمر على مثل هذا القدر من الخطورة.

أضافت هذه الواقعة قدراً يعتد به من البهار إلى حديث الأقارب، وعلى الرغم من أنها لم تصل، لحسن الحظ، إلى مسامع أبيه، إلا أن أمه جعلته يدفع الثمن غالياً. أما بالنسبة لفوساكو فعلى الرغم من أنها ابنة عمه، فإنه لم تجر دعوتها إلى الدار مجدداً قط. ومع ذلك فما كان هوندا لينسى أبداً تلك اللحظات القصار، التي استقر فيها وقرها الدافىء في حجره.

وعلى الرغم من أنه كان يسند جزعها بكامله، ملتفاً في الكيمونو الذي ترتديه والزنار الذي يحيط خصرها، فقد كان الحسن المركب على نحو مراوغ لرأسها وشعرها هو الذي اجتذبه أكثر من سواه، فقد ضغطت عليه كتلته البديعة بالتشبث الثقيل الذي يميز البخور، الذي أطلق عرفه، وما استطاع حجر سرواله الأزرق حجب دفئه الملحاح، المتوغل. كان يشبه دفء نار بعيدة، فراح يتساءل عما أضرم هذه النار التي شعّت منها، كأنما من جمرات فحم في آنيةٍ خزفية بديعة، تضمن الأمر أن عاطفتها نحوه كانت جارفة، على نحو ما. ألم يكن ضغط رأسها توبيخاً لاذعاً كذلك؟

ثم هناك عينا فوساكو. فبينما كان جانبها على حجره، تمكن من التطلع

إلى عينيهـا النجلاوين، السـوداوين. كانت عينـاها صغـيرتين، ومعرضتين أمامه، تتألقان كقطرتي مطر، مثل فراشتين راقصتين استقرتا لـبرهة، وكـان ارتعاش أهدابها الوطفاء هو رفيف أجنحتهـما، التي رقطّت عـلى نحو جميـل كبؤبؤي عينيها.

كـانتا مخـادعتين، دانيتـين للغايـة، ولامبـاليتـين تمـاماً، بـالغتي التـأهّب للانطلاق نحو البعيد ـ لم يسبق لـه أن رأى قط مثل هـاتين العينـين، اللتين راحتا تنطلقان، بلا توقف، في سخط. تركزتا أولاً، ثم شردتا، فبدتا مثل الفقاعة في ميزان البنائين.

لكنها لم تكن تغازله، فقد نقلت عيناه أقل ممـا كانت تـوحيان بـه عندمـا كانت تثرثر في مرح، قبـل لحظـات قـلائـل. فما كانتا تعبران عن شيء أكـثر أهمية من العاطفة المباشرة، التي اتقـدت في أعماقهـا. كانت القـوة، المؤدية برباطة الجأش، لمثل هذه العذوبة والعبق، تنبع من شيء أكثر جوهريـة من مجرد الرغبة في المغازلة.

مـاذا، إذن، كان المنـاخ النفسي المتغلغل لهـذه اللحـظات من الاتصـال الجسـدي التي بدت وكأنها تمتد دهراً؟

- ٨ -

لم يكن العرض الرئيسي في المسرح الأمبراطوري، في الفترة من منتصف نوفمبر وحتى العاشر من ديسمبر، عملاً حديثاً، تشارك فيه ممثلات، وإنما تمثل في مسرحيتي كابوكي[1]، يتألق فيهما عمالقة في هذا الفنا من أمثال بايكو وكوجيرو. وقد اختار كيواكي المسرح الكلاسيكي لإحساسه بأن هذا اللون من الترفيه سيكون أكثر اجتذاباً لضيفيه الأجنبيين. ولكن بما أنه لم يكن على

---

(١) كابوكي: شكل من قرابة اثني عشر شكلاً من أشكال المسرح التقليدي في اليابان، يتميز بتأثره وأخذه العديد من عناصر المسرحين التقليديين، اليابانيين، الأكثر عراقة وأصالة، وهما «النو» و«البونراكو». وقد تطور الكابوكي إلى شكله الراهن، في أواخر القرن السابع عشر الميلادي. ومن المدهش حقاً أن تقديمه كان، في أول الأمر، يقتصر على الممثلات وحدهن، ثم انضم الممثلون إليهن، فيما بعد، إلى أن تبلور الكابوكي في شكله الراهن، الذي ينفرد الرجال بتقديمه، حتى بالنسبة لأدوار النساء. والمرجع التقليدي والأكثر أهمية، للراغبين في الإلمام بالمزيد عن الكابوكي، هو، بالطبع، كتاب جونجي الشهير، وهاك بياناته لمن يرغب في الاطلاع عليه:

Gunji, Masakatsu - Kabuki - Kodansha - Tokyo - 1986 - ISBN O - 7 - 732 - 87011 أما في اللغة العربية، فبقدر ما نعلم، هناك كتاب «المسرح في الشرق». ومن سوء الحظ أن طبعته القاصرية نفذت دون أن يعاد طبعها، ويجد القارىء مقالات متفرقة لنا، عن المسرح الياباني، في مجلتي «الآداب» البيروتية، و«الأقلام» البغدادية، نشرت في منتصف الثمانينات. (هـ. م).

كبير معرفة بالكابوكي؛ لم يبد العملان اللذان سيشكلان صلب الأمسية مألوفين له، وكانا مسرحية «نشأة وسقوط التايرا» ومسرحية «رقصة الأسد»، وهكذا فقد أقنع هوندا بأن يمضي الساعة المخصصة لطعام غذائه في المكتبة في الإطلاع على المسرحيتين، لكي يقوم بإيضاحهما للأميرين، قبل عرضهما.

لم يبد الأميران ميلاً إلا إلى إظهار الفضول الكسول، فيما يتعلق بالمسرحيتين الأجنبيتين. وكان كيوواكي قد قدمهما لهوندا، الذي أقبل إلى الدار معه من المدرسة. والآن، بعد تناول طعام العشاء، لاحظ أنهما لا يبديان كبير اهتمام بالموجز الذي يقدمه صديقه باللغة الانجليزية لمسرحيتي الليلة.

وفي مثل هذه الظروف، دفع ولاء هوندا وجديته كيوواكي إلى الشعور بالذنب والاشفاق. ومن المؤكد أن أياً من فريق رواد المسرح تلك الليلة لم يكن مكترثاً للغاية بالمسرحيات ذاتها، وفيما يتعلق بكيوواكي فقد كان مشغول البال؛ فلربما تكون ساتوكو قد قرأت الخطاب في نهاية المطاف وربما لهذا قد لا تفي بوعدها بالحضور.

أقبل كبير الخدم؛ ليعلن أن العربة تنتظر. صهلت الجياد، وتألق تنفسها أشهب اللون من مناخرها، لينداح نحو السماء الشتوية السحماء. ابتهج كيوواكي برؤية الجياد تبدي في كبرياء قوتها في الشتاء، حيث رائحتها النفاذة أقل انتشاراً، وحوافرها تفحص الأرض المتجمدة، فيتردد صداها جلياً. وفي يوم ربيعي حار لا يعدو الجواد المنطلق دراكاً أن يكون بجلاء حيواناً متعرقاً من لحم ودم. ولكن الجواد الذي يندفع منطلقاً في عاصفة ثلجية يتوحد مع العناصر الطبيعية الأولية ذاتها، وإذا يلتف الحيوان بالزفيف المدوِّم لريح الشمال فإنه يجسد التنفس الثلجي للشتاء.

أحب كيوواكي ركوب العربة التي تجرها الجياد، وخاصة حينما يجثم عليه هم أو آخر؛ ذلك أن ارتفاع العربة وانخفاضها من شأنه أن ينتزعه من

الإيقاع الكابي والمتواصل لما يثير قلقه. الذيـول تتقوس مبتعـدة عن الكفلين العاديين غير بعيد عن العربة، المعـرفات تنتشر منتفشـة في الريـح، اللعاب ينثال في شريط ملتمع من الأسنان التي يصدر عنها الصرير ـ أحب كيـواكي أن يستمتع بالمفـارقة بـين القوة الـوحشية للحيـوان والموجـودات المتألقـة في داخل العربة.

إرتدى كيواكي وهوندا معطفين فوق زييهما المدرسيين. أما الأميران فعلى الـرغم من أنّ كـلا منهمـا يلتفّ في معطـف سـابـغ ذي ياقـة من الفراء، إلا أنهما كانا يرتعدان على نحو بائس.

قال الأمير باتاناديد، ونظرة تعسة ترتسم في عينيه:

ـ لسنـا معتادين عـلى البرد، بعض أبنـاء عمومتنـا درسـوا في سـويسرا، وحـذرونا من الـبرد هناك، لكن أحـداً لم يحدثنـا عن مـدى بـرودة الجـو في اليابان.

ـ لكنك ستعتاد عليها.

قالها هوندا، مطيِّباً خاطريـهما، فقد ربـطتهم المودة معـاً، رغم قصر مدة تعارفهم.

وبمـا أنهم كانـوا في ديسمبر، مـوسم مشتريـات نهاية العـام، فقد بـدت الشوارع متألقة بالأنـوار ولافتات الإعـلانات ومـزدحمة بـالمتسوقـين، الذين التفـوا بعباءات ثقيلة، وهـذا كله حدا بـالأميرين إلى السؤال عن المهـرجان الذي يجري الاحـتفال به.

طوال اليومين الماضيين، وربما أكثر من ذلك، ازداد اكفهرار وجه كل من الأمير باتاناديد وكريدسادا، الـذي لا يأبـه لشيء، ولا يحمل لمسؤوليـة همّاً، وبدا هذا الاكفهرار دليلاً لا تخطئه العـين على الحنـين المرضي إلى الـوطن. ومن الطبيعي أنهما حرصا على عدم الوضـوح البالـغ فيما يتعلق بهـذا الأمر؛

حيث لم يرغبا في الإساءة إلى كرم ضيافة كيواكي، لكنه كان يعلم أن أفكارهما تحلق في البعيد، طافية على سطح محيط رحب. ولكنه سعد ذلك؛ فقد كانت فكرة بقاء المشاعر الإنسانية على جمودها محبوسة في البدن لا تنفصل عنه، غارقة في اللحظة الراهنة والمكان الحالي، شيئاً قاهراً ومحبطاً، على نحو لا يحتمل، بالنسبة له.

فيما هم يمرون بحديقة هيبايا، ويقتربون من الخندق المحيط بالقصر الإمبراطوري، لاح المسرح الأشهب؛ ذو الطوابق الثلاثة، أمامهم في غبش المساء الشتوي.

عندما ولجوا المسرح، كانت المسرحية الجديدة التي تأتي في بداية البرنامج قد عرض جانب منها بالفعل. لمح كيواكي ساتوكو، حيث جلست إلى جوار خادمتها العجوز، تاديشينا. كان مقعداهما يبعدان عنهم بصفّين من المقاعد، إلى الخلف، ويميل جانباً بالنسبة لمكانهم. وإذ رآها هناك، ولمح مطالع ابتسامة متألقة على شفتيها، كان على استعداد لأن يغتفر لها كل شيء.

خلال باقي المسرحية الأولى، وفيما راح قائدان عامان من عهد كاماكورا يحشدان قواتهما أحدهما ضد الآخر على خشبة المسرح، مضى كيواكي يرقب، وكأنما في دوار، أحداث المسرحية. شحب كل شيء على خشبة المسرح، حيال اعتداده بنفسه، بعد أن تخلص هذا الاعتداد من أي خطر يتربص به.

راح يحدث نفسه، قائلاً:

- ساتوكو الليلة أجمل منها في أي وقت مضى، وقد أبدت اهتماماً أكبر بزينتها، فجاءت تماماً على نحو ما تمنيت.

أسعده مسار الأمور على هذا النحو، وهنأ نفسه مراراً وتكراراً، فيما هو

جالس هناك في غبطته، عاجزاً عن الالتفات والتطلع باتجاه ساتوكو، وإن كان قرير العين بحسنها الداني، وما كان ليرغب في أكثر من هذا.

كان ما أراده منها الليلة هو حضور جميل، وهو مالم يسبق له قط أن طلبه منها. ولدى تأمله الأمر، أدرك أنه لم يعتد التفكير في ساتوكو، من حيث مدى ما تتمتع به من جمال. وعلى الرغم من أنه لم يفكر فيها، على وجه الدقة، باعتبارها عدداً مؤكداً، إلا أنها كانت رغم ذلك مثل حرير بديع، يخفي في طياته إبرة حادة، أو مثل قماش مقصب يخفي جانباً سفلياً حاكاً. وفي المقام الأول، كانت المرأة التي أحبته، دون أن تكترث باستشارته في الأمر على الإطلاق. وما كان بمقدوره أن يحتمل هذا، فليس من شأنه أن يلقي هبات تقدم له بتقبل مذعن، وعلى الدوام أوصد فؤاده في وجه الشمس الناهضة عالياً في إشراقتها، خوفاً من أن تخترقه أشعة واحدة من سناها القاسي المبالغ في الانتقاد.

حان موعد الاستراحة، ومضى كل شيء على نحو طبيعي. فقد التفت كيواكي إلى هوندا، وهمس له بأن ساتو موجودة في المسرح بالصدفة المتميزة. وعلى الرغم من أن النظرة التي ارتسمت على مقلتي هوندا، بعد إطلالة سريعة إلى الوراء، لم تدع شكاً في أنه عرف أن ثمة ما هو أكثر من الصدفة يأتي ثماره، إلا أن هذا لم يهز، ويا للدهشة، شعور كيواكي بالرضا بأدنى قدر؛ ذلك أن نظرة هوندا كانت برهاناً بليغاً على صدق مفهوم كيواكي عن الصداقة، وهو مفهوم لم يقتضِ قدراً مفرطاً من الصدق قط.

ماجت القاعة بالحديث والحراك، ومضى الجميع قاصدين البهو، سار كيواكي وأصدقاؤه على مهل، تحت الثريات، للقاء ساتوكو ووصيفتها، أمام نافذة تطل على خندق القلعة والأسوار الحجرية العتيقة بانفعال غير مألوف. ومدركاً إلى أي مدى سيكون الطابع الرسمي البارد غير مناسب راعى

أصول السلوك، ولكن مع تقديم العرض ذاته للنزعة الحماسية الساذجة الذي كان قد قدمه حينما أتى على ذكر ساتوكو أمام الأميرين لأول مرة.

كان يعرف أن التدفق المائج للعاطفة والقوة المحررة النابعة من شعوره الذي اكتسبه حديثاً بالأمن قد مكناه من أن يتبنى نضجاً غريباً عنه، هكذا تخلى عن كآبته المميزة، وابتهج بحريته، ذلك أنه كان يعلم أنه ليس مغرماً على الإطلاق بساتوكو.

آوت تاديشينا إلى ملاذ اتخذته من أحد الأعمدة، مع كل إيماءات الخضوع. واستناداً إلى إحكام ياقة الكيمونو الذي ترتديه والمرفرفة بأزهار البرقوق، يمكن للمرء أن يدرك أنها قررت معاملة هذين الأجنبيين بحرص. وأسعد موقفها كيواكي، الذي وفَّر على نفسه هكذا عناء تشكرها بصوتها الحاد النبرة، لتقديمه إياها للآخرين.

ورغم أن الأميرين أسعدهما أن يكونا بصحبة مثل هذه المرأة الجميلة، فإن تشاوبي لم يكن مستغرقاً في الأمر للغاية، بحيث لا يلاحظ التغير الملحوظ في أسلوب كيواكي، عندما قدم ساتوكو. وإذ لم يخطر له على بال قط أن كيواكي يصوغ نفسه على غرار نموذجه، أي نموذج تشاوي بي، الصبياني في التلهف إلى الأمور، فقد خامره شعور بالإعزاز نحو كيواكي، اعتقاداً منه بأنه يراه للمرة الأولى وهو يتصرف على نحو ما ينبغي لشاب في مقتبل العمر.

في غضون ذلك، غرق هوندا في إعجابه بساتوكو، التي رغم عدم نطقها لكلمة انجليزية واحدة، احتفظت على وجه الدقة بالدرجة الصحيحة من رباطة الجأش، أمام الأميرين. ورغم إحاطة الشبان الأربعة بها وارتدائها كيمونو رسمياً فضفاضاً، فقد تصرفت على نحو لا يشي بأدنى مؤشر إلى التوتر، وتألق حسنها وتأنقها.

وفيما قام كيواكي بترجمة الحديث للأميرين، اللذين تبادلا إمطار ساتوكو بالأسئلة، ابتسمت له، وكأنها تنشد موافقته. كانت ابتسامة تتضمن ما يفوق كثيراً مقتضيات الظروف، فأحس بعدم الارتياح.

راح كيواكي يحدِّث نفسه، قائلًا: «لقد قرأت الرسالة». ولكن، لا؛ فلو أنها قرأتها لما تصرفت على هذا النحو حياله الليلة، بل في حقيقة الأمر لما جاءت على الإطلاق. من المؤكد أنها ما كان يمكن أن تتلقّى الرسالة، قبل أن يتصل بها هاتفياً، ولكن لم يكن هناك سبيل لمعرفة ما إذا كانت قد قرأتها بعد مكالمته الهاتفية، وسيصبح مما لا طائل وراءه أن يواجهها بسؤال مباشر، في هذا الصدد؛ لأنها سرعان ما ستنفي ذلك. ولكن مع ذلك تفاقم سخطه على نفسه لعدم إقدامه على القيام بذلك.

حاول أن يبدو عادياً، في سلوكه، وبذل قصارى جهده لكي يكتشف ما إذا كانت هناك نغمة في صوتها تختلف عن الدفء المرح، الذي وشّى هذا الصوت، قبل البارحة، أو تغير موح في التعبير الذي يكسو محياها من عدمه. ومرة أخرى غاض صفاء تملكه لزمام أمره.

بدا أنفها بديع التكوين كأنه أنف دمية من عاج، دون أن يكون محددا على نحو بالغ، بحيث يضفي لمسة من الغرور على ملمحها الجانبي. ولاح محياها مراوحاً بين التألق والظل الرقيق، اللذين تجاوبا مع حركة عينيها السريعة، المترعة بالحيوية. يُعَدُّ تيقظ العين عادة من السمات السوقية في النساء، لكن ساتوكو كانت لها طريقتها الجذابة، على نحو لا سبيل إلى مقاومته، في تسديد نظراتها اللماحة. وراحت ابتسامتها تلاحق كلماتها، ونظرتها تلاحق ابتسامتها ـ فحلّق هذا التتابع الرشيق عالياً بالفتنة الساحرة لمحياها، وعلى الرغم من أن شفتيها كانتا رفيعتين بعض الشيء، إلا أنهما أخفتا شهوانية كامنة مراوغة، ولدى ضحكها، كانت على الدوام تسارع بإخفاء

بريق أسنانها بأصابعهـا الرشيقـة اللدنة، ولكن ليس قبـل أن يلحظ الشبان التألق الأبيض، الذي ينافس الثريات المعلقة فوقهم.

وفيما كيواكي يترجم المجاملات المليئة بالإطناب التي وجههـا الأميران إلى ساتوكو، لاحظ حمرة خجل تنتشر حتى شحمتيْ أذنيها، وإذ غطاهما شعـرها تماماً، على وجه التقريب، بدتـا مكتسيتين بـالحسن المتدفق لقـطرات المطر، ومهما دقق النظر فيهما، ما كـان بوسعـه أن يقرر مـا إذا كانتا تدينان بلونهما المتوهج لمادة تجميل من نوع ما، أو للشعور بالحرج.

غير أن شيئاً واحداً فيما يتعلق بساتوكو سما فوق كل تجمُّـل، وهو مضـاء عينيها المتألقتين... وقد أثار ذلك أعصابه، كعهده أبداً، وأحس بـأن وحدة هذا المضاء الماكرة تخترقه، وأن جبروته ينبع من جوهر ساتوكو ذاتها.

دوَّى الجـرس، معلنـاً بـدء مسرحيـة «نشـأة وسقـوط التـــايـرا»، وشرع الجمهور في التدفق، عائداً إلى مقاعده.

- إنها أجمل إمرأة رأيتها منذ وصولي إلى اليابان. كم أنت محظوظ!

قالها تشاو بي، بصوت خفيض، فيما هو ينـطلق عبر الممشى بـين المقاعـد مـع كيواكي. وفي ضـوء النظرة التي ارتسمت في مقلتيـه كـان يمكن للمـرء القول بأنه قد عوفي من هجمة الحنين المرضي إلى الوطن التي داهمته.

- ٩ -

كان إينوما، معلم كيواكي، قد وصل إلى إدراك أن الفترة التي تزيد على ست سنوات، والتي أمضاها في خدمة دار ماتسوجاي، لم تطح بآمال شبابه فحسب، وإنما أخمدت كذلك الحنق المترتب على ذلك الذي اعتراه في أول الأمر. وعندما أمعن التفكير في ظروفه المحبطة، قام بذلك بضيق فاتر يختلف تماماً عن الغضب المتوهج الذي استشعره ذات يوم. وبالطبع، كان للمناخ السائد في دار ماتسوجاي، وهو مناخ غير مألوف بالمرة بالنسبة له، تأثير كبير في التغيرات التي طرأت عليه. غير أنه منذ البداية ذاتها، كان المصدر الرئيسي للتغير هو كيواكي، الذي بلغ الآن الثماني عشرة من عمره.

سيبلغ الفتى التاسعة عشرة من عمره في هذا العام المقبل. ولو أن إينوما حرص على أن يتخرج كيواكي من مدرسة النبلاء بتقديرات جيدة، وأن يتم إلحاقه بكلية الحقوق في جامعة طوكيو الأمبراطورية، مع إقبال خريف العام الحادي والعشرين من عمره، لأحس بأن المسؤولية التي اضطلع بها قد أديت على مايرام. غير أنه لسبب لم يقدر لإينوما أن يسبر غوره، لم ير الأمير ماتسوجاي أن من المناسب أن يحمل ولده حملاً على أداء مهمته المتعلقة بإيجاد سجل مدرسي مشرف على أفضل وجه. وبحسب ما تبدو الأمور عليه الآن، فليست هناك فرصة كبيرة أمام كيواكي لدراسة الحقوق في جامعة طوكيو. وبعد التخرج من مدرسة النبلاء لا يبدو أن أمامه مخرجاً إلا الاستفادة من امتيازاته باعتباره عضواً في طبقة النبلاء ودخول أي من

جامعتي كيوتو أو توهوكو الأمبراطورية دون الاضطرار إلى اجتياز امتحان القبول. وقد اتسم أداؤه في المدرسة باللامبالاة، فلم يبذل جهداً في دراساته، ولم يعوض عن هذا على الإطلاق بمحاولة التفوق في الألعاب الرياضية. ولو أنه كان طالباً متميزاً، لكان بمقدور إينوما أن يشارك في الافتحار، مانحاً أقاربه وأصدقاءه في كاجوشيما سبباً للتباهي به. أما الآن فما كان بوسع إينوما إلا أن يستعيد على نحو غائم الآمال الكبار التي كانت تحدوه يوماً. وإضافة إلى هذا فقد أدرك، محرور النفس، أنه بغض النظر عن مدى تدني تقديرات كيواكي فإنه لايزال يضمن مع ذلك الحصول على مقعد في مجلس النبلاء.

كانت الصداقة بين كيواكي وهوندا مصدراً آخر للشعور بالضيق، فقد احتل هوندا مرتبة الصدارة في صفه، لكنه لم يقم بأي محاولة للتأثير على صديقه باتجاه الأفضل، رغم تقدير كيواكي له، وإنما حدث العكس في حقيقة الأمر. ومن منظور إينوما كان هوندا يتصرف كأنه معجب عمي عن كل عيوب كيواكي، فلم يحر حيالها انتقاداً.

لعبت الغيرة، بالطبع، دورها في الضيق الذي خالج إينوما، فبحكم كون هوندا صديقاً وزميلاً لكيواكي كان بمقدوره أن يتقبل هذا الأخير على ما هو عليه، بينما كان بالنسبة لإينوما صرحاً خالداً يجسد إخفاقه.

كان مظهر كيواكي، تأنقه، عدم ثقته بنفسه، تعقده، وعدم ميله إلى القيام بأي جهد، ونزعته الحالمة فاترة الهمة، وجسمه الرائع، وبشرته الرقيقة، وأهدابه الوطفاء، المنسدلة فوق عينيه الحالمتين ـ كل سماته تآمرت لتخذل آمال إينوما بفتنة بديعة ولا مبالية نابعة من ذاتها. فنظر إينوما إلى سيده الشاب باعتباره تقريعاً ساخراً دائماً.

من شأن هذا الإحباط بالغ المرارة، والشعور بالفشل القاضم في حدته

أن ينقلب، إذا امتد عبر فترة طويلة، إلى حماسة دينية موجهة إلى سبب الإحباط. وقد اعترى غضب هائل إينوما حيال كل من يستخف بكيواكي، وأدرك من خلال نوع من الحدس المضطرب الذي لم يَعِ هو نفسه حقيقته جانباً من طبيعة عزلة كيواكي، التي لا سبيل على وجه التقريب إلى اقتحامها. وبالمقابل، فلا شك أن إصرار كيواكي على الاحتفاظ بمسافة فاصلة بينه وبين إينوما قد نبع من حقيقة إدراكه بجلاء بالغ لطبيعة النزعة المتعصبة التي تتقد بين جوانح معلمه.

من بين جميع أفراد المعية في دار ماتسوجاي، كان إينوما وحده هو الذي سيطرت عليه هذه الحماسة، وهي شيء غير ملموس، غير أنه يتبدى جلياً بمجرد تطلع المرء إلى عينيه. وذات يوم، سأل أحد الضيوف مضيفيه، قائلاً: «عفواً، ولكن وصيفكما هذا ليس بالاشتراكي. أهو كذلك؟». لم يستطع الأمير وزوجته منع أنفسهما من الانفجار ضاحكين، حيال هذا السؤال، إذ كانا على إلمام تام بالعالم الخلفي، الذي قدم منه إينوما، وبسلوكه الحالي، والتبتل الذي كان ينطلق به يوماً بعد يوم ليرتل صلواته في مزار «أومياساما». فقد اعتاد هذا الشاب الجهم الصوت أن يمضي إلى مزار العائلة صباح كل يوم، وهنالك يفضي بمكنون فؤاده لوالد الأمير الذائع الصيت، الذي لم يعرفه قط في حياته. وفي الأيام الأولى، كانت توسلاته تطلق بغضب جارف، ولكن مع تقدمه في العمر راح يشكلها سخط شامل، امتد الآن ليضم رحاب دنياه بأسرها.

كان أول من يستيقظ، فيغسل وجهه، ويتمضمض، ثم يرتدي كيمونوه المقلم بالأزرق القاتم والأوكورا هاكاما، وينطلق باتجاه المزار.

كان يشق الطريق الذي يمر غير بعيد عن مهجع الوصيفات، في مؤخرة الدار الرئيسية، مخترقاً أجمة السرو اليابانية. وفي الطقس البارد، كطقس هذا الصباح، كان البرد يحول وحل الطريق إلى أكوام لولبية صغيرة، وعند

سحقها وطء قبقاب إينوما الخشبي الثقيل تناثرت إلى شظايا صافية متألقة. والتمعت شمس الصباح، الجاثمة، متوهجة وشفافة فوق الوريقات الذاوية والخضراء التي لاتزال تتشبث بأشجار السرو، على أنفاسه المتجمدة المنطلقة في الهواء الشتائي، فاعتراه شعور بالنقاء، على نحو مطلق. وملأ شدو الطيور السماء الصباحية الشاحبة الزرقة. على أنه بالرغم من الدافع للابتهاج الذي ينبع من الهواء البارد، وهو يلطم بحدة جلده العاري، تحت كيمونوه المفتوح العنق، كان ثمة شيء ما يعتصر فؤاده بأسى مرير: «آه، لو جاء السيد الشاب معي، ولو لمرة واحدة!».

لم يقدر له أن يفلح أبداً في إيصال هذا الشعور الذكوري القوي بالرفاه إلى كيواكي. وما كان بمقدور أحد أن يحمّله المسؤولية عن هذا الفشل. لم يكن هناك مجال لإجبار الفتى على مصاحبته، في هذه المسيرات الصباحية، ومع ذلك، فقد واصل إينوما توجيه اللوم إلى نفسه، ففي خلال ست سنوات لم يستطع إقناع كيواكي بالمشاركة، ولو لمرة واحدة، في هذه «الممارسة الورعة».

على القمة المسطحة للتلة، تفسح الأشجار المجال لمنطقة عريضة ينمو فيها النجيل، الذي غدا الآن هشياً بنّي اللون، وعبرها يفضي طريق مرصوف بالحصى إلى المزار. وفيما إينوما يتطلع إليه وقوة شمس الصباح بأسرها تنهل على الحليتين المتخذتين من الحجر الجرانيتي أمامه وقذيفتي المدفع عند جانبي درجه الحجري، غمره شعور بتملك ناصية الذات. هاهنا، عند الفجر، وجد هواء من نقاء ينطلق، حراً من الضخامة الخانقة التي تتغلغل في دار ماتسوجاي. أحس كما لو كان يتنفس في تابوت جديد من الخشب الأبيض حديث العهد، فمنذ طفولته الباكرة كان كل ما لُقن توقيره باعتباره جليلاً وجميلاً، فيما يتعلق بآل ماتسوجاي، كان يوجد في جوار الموت.

بعـد أن مضى إينومـا صاعـداً الدرج، واحتـل مكانـه أمام المـزار، رأى عصفوراً صغيراً، لمحة من صدر أحمـر قاتم، فيـما هو يتـواثب على أغصـان شجرة ساكـاكي، محدثـاً حفيفاً بـين الوريقـات المتألّقـة،ثم بصيحـة مصاكة إندفع دافًّا نحو البعيد، فحدَّث نفسه بأن ذلك العصفور كان صائد ذباب.

ضم راحتي يديه معاً، وكعهده، راح يبتهـل إلى جد كيـواكي، باعتبـاره «السلف المـوقر»، ثم في صمت مضى ينـاشده، «لمـاذا قدر لعهـدنا أن يكـون عهد تفكك وانحدار؟ لماذا لم تزدري الدنيا القوة والشباب والطموحات اللائقة والاعتداد بالرأي؟ كنت ذات يوم تبطش بالـرجال بسيفـك، وقد جـرحتك سيوف آخرين، وتحملت أشد المخاطر جسامة ـ كل ذلك لتقيم صرح يابان جديدة. وفي نهاية المطاف، بعـد أن نلت مكانـة رفيعة وتقـديراً من الكـافة متَّ، أعظم الأبطال في عهد بطولي. لماذا لا نستطيع أن نستعيد مجـد عهدك؟ وحتام يستمر هذا العصر الذي يسوده ما هو عقيم وجديـر بالازدراء؟ أم أن الليالي لاتزال حبلى بما هو أسوأ؟ الرجال لا يفكـرون إلا في المال والنسـاء، لقـد نسوا كـل ما يليق بـالرجـل، لقد انقضى ذلـك العهد العـظيم والمتألق الحافل بالآلهة والأبطال مع رحيل الأمبراطور ميجي. أترى سنشهد مثيلاً له من جديد؟ عهـد تمنح فيـه قوة الشبـاب نفسها، دون أن يعـوقها عـائق، من جديد؟

«في عهدنا الحالي، عندما تتناثر أماكن تـدعى بالمقـاهي، في كل مكـان، مجتذبة الآلاف من الكسالى، الذين يحملون مالا يرغبون في تبديده، عندمـا يتصرف التـلاميذ والتلميـذات على نحـو يصـدم المشـاعـر أشـد مـا تكـون الصدمة، بسلوكهم في الحـافـلات، حتى ليصبـح من الضروري فصلهم بعضهم عن البعض الأخر، فقد الرجال كل أثر لتلك الحماسة، التي حدت بأسلافهم إلى قبول أفظع التحديات. أما الآن فلا جـدوى منهم، اللهم إلا

في الإشارة بأيديهم العاجزة، كأنها وريقات أشجار جافة، هشة، تهزها أقل نسمة هواء.

«لماذا كل هذا؟ كيف حلَّ مثل هذا العهد بساحتنا، عهد دنَّس كل ما كان ذات يوم مقدّساً. يا للحسرة أيها السلف الموقر! إن حفيدك، الذي أعمل بخدمته، هو، من كل الجوانب، وليد هذا العصر المتحلل، وإني لعاجز عن القيام بأي شيء حيال ذلك. أترى يتعين عليّ أن ألقى حتفي تكفيراً عن فشلي؟ أم أن الأمور تجري في مسارها بحسب مخطط كبير من وضعك؟».

ناسياً البرد في غمار حماسة ابتهالاته، وقف إينوما هنالك، كياناً مكتمل الرجولة، بصدره المتلبد الشعر، البارز من خلال كيمونوه المفتوح. وفي حقيقة الأمر، أنه شعر بالأسف، في قرارة نفسه، لأن جسده لم يستجب لنقاء حماسته. ومن ناحية أخرى، فإن كيواكي، الذي نظر إلى جسمه باعتباره إناء مقدساً، كان يفتقر إلى النقاد الصلب، الذي يُقتضى من كل الرجال الحقيقيين.

عندئذ، فجأة، وفي سمت إفضائه المتقد حماسة بمكنون قلبه، وفيما حرارته تتصاعد، رغم هواء الصبح البارد المدوّم تحت هاكاماه، بدا في الشعور بأنه مستثار جنسياً؛ فانتزع في التو مقشة، من موضعها على الأرض، وشرع في كنس المزار في دفق من الطاقة المهتاجة.

- ١٠ -

بعـد وقت قصير من حلول العـام الجديـد، استدعي إينـومـا إلى غـرفـة كيـواكي، وهنالـك ألفى السيدة العجـوز، تـاديشينـا، التي كـان يعلم أنها وصيفة ساتوكو.

كانت ساتوكو نفسها قد زارت دارة ماتسوجـاي بالفعـل، لتبادل التهـاني والتبريكات، بمناسبة حلول العام الجديد، أما اليـوم فقد انتهـزت تاديشينـا الفـرصة لإحضـار بعض الهريس المنخـول، التقليدي، المعـد على طـريقـة كيوكو، كهـدية منهـا، وانسلت دون أن يلحظهـا أحد إلى غـرفة كيـواكي. وعلى الرغم من أن إينوما كان يدرك هويتها، إلا أن تلك كـانت المرة الأولى التي يدفع فيهـا إلى لقائهـا عمداً، ولم يكن السبب في هـذا واضحاً بـالنسبة له.

قوبل العام الجديـد على الـدوام باحتفـالات زاخرة في دارة مـاتسوجـاي حيث يجيء حوالي عشرين شخصاً أو يزيدون من كـاجوشيـما، وبعد المضي إلى المستقـر الأخير لكبـير العشيرة التقليـدي لإبداء تـوقيرهم، يشـاركون في الاحتفال في دارة ماتسوجاي. وقد حظيت مـآدب عشاء العـام الجديـد، التي كان طعامها يطهى على طريقة هوشيجوكا، ويقدم في القاعة الرئيسيـة ذات عروق السقف السوداء، بشهـرة كبـيرة، ويـرجـع ذلـك إلى حـد كبـير إلى الحلوى مثل «الأيس كريم» والشمام التي كانت ألـواناً لا يكـاد أبناء الـريف يعرفون لها مذاقاً على وجه التقريب. غـير أنه في هـذا العام، وبسبب عـدم انقضاء فترة الحداد على الأمبراطور ميجي، لم يأت إلا ثلاثة ضيوف فحسب

من كاجوشيما، من بينهم ناظر مدرسة إينوما الوسطى، وهو سيد مهذب شرف بمعرفة جد كيواكي.

كان الأمير ماتسوجاي قد أرسى دعائم طقس معين مع الناظر العجوز، ففيما إينوما يقوم على خدمته على المائدة يمضي الأمير في الحديث بمزيد من التلطف مع العجوز: «أجاد إينوما العمل هنا». وفي هذا العام كذلك، استخدمت هذه الصيغة، وغمغم الناظر بمزيد من التهذيب بكلمات مألوفة توحي بتواضع ما قام به إينوما، على نحو ما هو منتظر منه مثلما يضع أحدهم خاتمه على وثيقة مكرورة. ولكن في هذا العام، وربما بسبب وجود أضياف يعدون على الأصابع، بدا الاحتفال لإينوما مجرد إجراء شكلي يفتقر للحماسة والإخلاص.

وبالطبع، لم يكن إينوما قد قدر له أن يقدم نفسه لأي من السيدات الباهرات اللاتي أقبلن لزيارة الأميرة؛ ولذا فقد دهش حينما جوبه في مكتب سيده الشاب بإحدى الزائرات بمناسبة العام الجديد بغض النظر عن مدى تقدمها في العمر.

كانت تاديشينا ترتدي كيمونو أسود مرقَّشاً بريشات زخرفية. وعلى الرغم من أنها جلست منتصبة في مقعدها، على النحو اللائق تماماً، فقد بدا من الواضح أن الويسكي الذي راح كيواكي يهيب بها أن تحتسي المزيد منه قد ترك بعض الأثر عليها، ودون أن يفقد شعرها الضارب إلى اللون الرمادي، والذي جمع في إحكام، في عقدة واحدة ـ دون أن يفقد نعومته وبريقه، توهج جلد جبينها عبر طبقة مادة التجميل البيضاء بظل من لون زهر التموج الذي غطاه الجليد.

بعد أن حيَّت إيتوما بنظرة قصيرة، عادت إلى القصة التي كانت ترويها عن الأمير سايونجاي:

«يقول الجميع إن الأمير تمتع بالطباق والكحول منذ كان في الخامسة من عمره فصاعداً. وعائلات الساموراي حريصة دوماً على تربية أبنائها على نحو معصوم من الخطأ. أما في العائلات النبيلة ـ وأحسب أنك تعرف ما أقصد أيها السيد الشاب ـ فإن الآباء لا يعملون على انضباط أبنائهم من لحظة ولادتهم. ألا توافق على ذلك؟ ذلك أن أبناءهم، في نهاية المطاف، يتلقون رتبة الدرجة الخامسة البلاطية لدى ميلادهم، الأمر الذي يؤهلهم لأن يصبحوا أتباعاً لسموه الأمبراطوري، وهكذا فإن آباءهم لا يجسرون، توقيراً للأمبراطور، على التزام الخشونة معهم. وفي دار نبيل من نبلاء البلاط، لا يتفوه أحد بكلمة عن سموه الأمبراطوري مالم تكن متسمة بالحكمة المطلقة، تماماً مثلما لا يجرؤ أي شخص ينتمي حتى إلى دار نبيل متواضع على التغامز علانية على هذا النبيل. وعلى هذا الحال تمضي الأمور. وسيدتي بدورها تكنُّ هذا الإجلال العميق عينه لسموه الأمبراطوري. ولكن الأمر بالطبع لا يمتد إلى النبلاء الأجانب». كانت هذه الإشارة الأخيرة هي طعنة تاديشينا الساخرة، الموجهة إلى كرم الضيافة، الذي يعامل به آل ماتسوجاي الأميرين السياميين، ثم سارعت إلى تدارك الموقف قائلة: ولكن بفضل رقتك العظيمة حصلت على امتياز رؤية مسرحية من جديد، بعد زمن لست أدري مداه، فأحسست بأن ذلك منحني عمراً جديداً».

ترك كيواكي تاديشينا تثرثر، على هواها، حسبما اتفق. وحينما طلب منها القدوم إلى مكتبه كان في ذهنه شيءمحدد بالدقة، فقد أراد التحرر من الشك الذي طارده، وأثقل كاهله منذ تلك الليلة. وهكذا، وبعد أن قدم لتاديشينا المزيد من الويسكي، سألها، بغتة، عما إذا كانت ساتوكو قد تلقت رسالته، في حقيقة الأمر، وألقت بها دون أن تفتحها إلى النار تلبية لما طلبه منها.

جاء ردها عن طواعية بأكثر مما توقع: «آه! ذلك الأمر! حدَّثتني سيدتي الشابة، فور حوارك الهاتفي معها بالأمر، وهكذا عندما وصلت الرسالة في اليوم التالي، مضيت بها، فأحرقتها دون فتحها، وتم ترتيب كل شيء، فليس لك أن تشعر بالقلق، حيال هذا الأمر، على الإطلاق».

لدى سماع كيواكي بهذا، أحس بشعور رجل كافح لساعات طوال عبر نباتات شائكة ملتفة، وفي النهاية شق طريقه عنوة إلى العراء. تفتحت أمام عينيه آفاق من الاحتمالات البهيجة. فعدم قيام ساتوكو بقراءة الرسالة أنجز أمرين: فهو لم يعد بالأمور إلى توازنها السابق فحسب، وإنما أصبح كيواكي الآن يشعر، بمزيد من السعادة، بأنه على يقين من أنه قد فتح أفقاً جديداً، يطل على الحياة.

كانت ساتوكو قد قامت بالفعل بمبادرة ذات عواقب باهرة، فقد تزامنت زيارتها السنوية بمناسبة العام الجديد مع يوم كان الأمير يخصصه تقليدياً لأبناء أقاربه الذين يجتمعون في داره، وتتراوح أعمارهم من الثالثة إلى العشرين. وفي ذلك اليوم الواحد يضطلع بدور الأب المحب، فيصغي بسعة صدر لما يقوله كل منهم له، ويتقدم بالنصح عندما يطلب منه ذلك. وفي هذا العام، أحضرت ساتوكو بعض الأطفال لمشاهدة الجياد.

مضى بهم كيواكي إلى الاسطبل، الذي يحتفظ فيه آل ماتسوجاي بجيادهم الأربعة. كان مزيناً بمناسبة الأعياد بالحبل الملتوي التقليدي في الاحتفال الشنتوي. بدت الجياد لكيواكي فجأة بأجسامها القوية اللدنة العضلات، فيما هي تتراجع، أو تغمض الألواح الخشبية بحوافرها، وكأنها تنبض بحياة تناسب العام الجديد. ابتهج الأطفال لمرآها، وسألوا السائس عن أسمائها، ثم صوّبوا نحو الأسنان الصفراء الكبيرة، وألقوا بحفنات من قطع الحلوى المجروشة، كانوا يمسكونها في أيديهم. حدَّقت الجياد المتوفرة طويلاً في معذبيها، بأعين تقدح شرراً، الأمر الذي زاد في بهجة الأطفال؛

حيث أن هذه النظرات المتقدة تعني أن الجياد تنظر إليهم باعتبارهم من الكبار.

غير أن ساتوكو أفزعها اللعاب المنثال من أشواق الجياد الفاغرة؛ فانسحبت إلى شجرة دائمة الخضرة على مبعدة تتخذها ملاذاً، ومضى كيواكي ليلحق بها، تاركاً الأطفال للسائس.

وشت عيناها بآثار الساكي المقبل الذي كان احتساؤه أمراً تقليدياً في احتفالات العام الجديد. ومن هنا فإن ما قالته - في إطار من صيحات البهجة الصادرة من الأطفال - ربما يعزى إلى هذا المؤثر. وعلى أية حال، فإنها فيما كان كيواكي يقترب من جانبها، راحت تتطلع إليه، على نحو مفارق للرزانة، وشرعت في الحديث وبحة انفعال تخالج صوتها:

- سعدت كثيراً تلك الليلة، لعلك تعلم هذا، قدمتني كما لو كنت خطيبتك. إني واثقة من أن الأميرين قد دهشا حيال تقدمي في العمر. ولكن أتدري ما كان عليه شعوري آنذاك؟ لو أنني لقيت حتفي راغمة في تلك اللحظة عينها لمت سعيدة. إن سعادتي في قبضتي يديك. فاحرص عليها! هل لك في ذلك؟ لم أكن سعيدة مع مقدم عام جديد كسعادتي الآن. لم أتطلع على مثل هذا النحو من قبل قط لما يمكن أن يحمله العام الجديد.

لم يدر كيواكي ما عساه يقول، فتساءل أخيراً بصوت متوتر النبرات:

- لماذا لم تحدثيني بكل هذا؟

- آه، يا كيواكي، عندما تغلبني السعادة تنطلق كلماتي، كأنها الحمام الذي يطلقونه في احتفال بتدشين سفينة جديدة، فتحلق منطلقة، عبر نثار من قصاصات الورق الملون، سرعان ما تفهم الأمر قريباً يا كيو!

ومما زاد الطين بلة أن ساتوكو أنهت حديثها بتلك العبارة التي أعدت لتثير ضيق كيواكي: «سرعان ما تفهم الأمر قريباً».

حدَّث كيواكي نفسه، قائلاً:
ـ ألا ما أشد تفاخرها واعتدادها بنفسها! إنها أكبر سناً وأكثر حكمة.

وقع هذا كله قبل أيام. أما اليوم، وبعد الصورة التي رسمتها تاديشينا عن مصير الرسالة، فقد تبددت شكوك كيواكي المتأرجحة، وغدا الآن واثقاً من أنه يستهل عاماً جديداً في ظل أفضل الظروف، لسوف يتخلص من الأحلام الكئيبة التي أرَّقته الليالي، وصمم على أنه من الآن فصاعداً ستكلل السعادة أحلامه، وسيتسم أسلوبه دائماً بالصراحة، وبما أنه سيتحرر من الكآبة والقلق، فسوف يحاول توصيل رفاهيته إلى الجميع. ولكن الإعراب عن حسن النية للبشر أمر محفوف بالمخاطر في أفضل الأحوال، ويقتضي درجة يعتد بها من النضج والحكمة. ومع ذلك، فقد دفع شعور غريب بالرغبة في الإسراع كيواكي إلى المضي قدماً.

غير أنه كائناً ما كان شعوره هذا بالاضطلاع برسالة عليه أداؤها، فإنه لم يستدع إينوما إلى غرفته لمجرد الرغبة العطوف في تخليص معلمه من كآبته، ورؤية ملامحه والسعادة تكسوها.

تحالف الساكي، الذي احتساه، مع شيء آخر لدفعه إلى حد التصرف الأهوج. كانت تاديشينا، على الرغم من طريقتها الموحية بالحياء وباللباقة الجمة، يحيط بها مناخ معين، يذكِّر المرء بمشرفة على مبغى، وإن كان مبغى يتمتع بشهرة قديمة ومشرفة. وبدت نزعة حسية خالصة، لا سبيل إلى أن تخطئها العين، متشبثة بتجاعيد وجهها ذاتها. وقد أثار قربها على هذا النحو عناد كيواكي الطبيعي.

قال، عامداً، وموجهاً حديثه إلى تاديشينا، على نحو يقصره عليها:
- بالنسبة للعمل الدراسي، علّمني إينوما كل شيء. ومع ذلك، فهناك عدد من الأمور التي لم يعلمني إياها. والحقيقة هي، بالفعل، أن هناك عدداً من الأمور لا يحيط بها إينوما علماً. ولهذا السبب، على وجه الدقة، سيتعين عليك أنت، يا تاديشينا، أن تصبحي معلمة إينوما، كما لعلك فهمت.

قالت تاديشينا، بمزيد من الاكتراث بالأمر:
- حقاً، يا سيدي الشاب، أياً كان ما تعنيه بالتصرف على هذا النحو. هذا السيد المهذب الماثل هاهنا هو طالب جامعي، ومخلوقة عجوز جاهلة مثلي...
- بالضبط. لأن ما أتحدث عنه لا علاقة له بما يتم تعلمه في المدرسة.
- هيء، هيء، أي حمقاء تجعلني أبدو!

وعلى هذا النحو، استمر الحديث سجالاً، دون أن يشارك فيه إينوما. ولما كان كيواكي لم يشر إلى أن بمقدوره الجلوس؛ فقد واصل الوقوف، متطلعاً إلى البحيرة في البعيد. كان اليوم من الأيام المكفهرة، وراح سرب من البط يسبح بها، قرب الجزيرة، التي ارتفعت منها تيجان أشجار الصنوبر قاتمة الخضرة، باردة، ومتوعدة. وذكّره النجيل الخشن البنّي اللون، الذي غطى الجزيرة، بمعطف واحد من المطر، صنع من القش مما يرتديه الفلاحون.

أخيراً، وبكلمة من كيواكي، جلس إينوما، متخشباً، في أحد المقاعد. حتى الآن لم يبد على كيواكي أنه لاحظه في وقوفه إلى جوار الباب، الأمر الذي بدا له غاية في الغرابة. فحدّث نفسه بأن سيده ربما كان يقوم باستعراض لسلطته، أمام تاديشينا. ولئن كان الأمر كذلك، فإنه شيء جديد في كيواكي يدخل السعادة على نفسه هو، إينوما.

ـ طيب، الآن، يا إينوما، كانت تاديشينا تتبادل لتوها الحديث الفضـولي مع وصيفاتنا، وبالصدفة المحض اتفق أنها سمعت. . .

ـ أيها السيد الشاب، أرجوك، لا تفعل ذلك!

قـالتها تـاديشينا، ملوِّحـة بيـديهـا، في إظهـار للضيق، المفعم بـالتـوتـر والاضطراب، وحاولت إيقافه، ولكن بلا طائل.

ـ اتفق أنها سمعت أن الوصيفات مقتنعات بأنك، عندما تمضي إلى المزار كل صباح، فإن ما يساورك لا يقتصر فحسب على الحماسة الدينية.

ـ لا يقتصر فحسب على الحماسة الدينية؟

قـالها إينـوما، وقـد تقلصت ملامحـه، واستقرت قبضتـاه المضمومتـان في حجره، وشرعتا في الارتجاف.

ناحت تاديشينا:

ـ أرجوك، أيها السيد الشاب، لا تفض إليه بجلية الأمر!

تهـالكت في مقعدهـا، كأنها دميـة خزفيـة ألقيت في إهمـال، ولكن عـلى الرغم من إفصاحاتها عن الكرب الشديـد، كان هنـاك بريق خـافت، لكن العين لا تخطئه، في عينيها الغائرتين في محجريها. ولاحت الخطوط المحيـطة بفمها مرتخية، جنباً إلى جنب مـع طاقم أسنـانها، الذي لا ينـاسبها تمـاماً، كشهود على نزعة حسية غابرة.

ـ لكي تصل إلى المزار، يتعين عليك المرور بالجناح الخلفي للدار. أليس كذلك؟ الأمر الـذي يعني، بالـطبع، أنـك تسير إلى جـوار نـافـذة جنـاح الـوصيفات تمـاماً. وفي طـريقك، كـل صباح، كنت تتبـادل النظرات مـع «مـايني». وأخيراً، قبـل أيام، دسست لهـا بقصاصـة مكتوبـة، عبر شبكـة النافذة. أو هكذا يقلن. أهذا صحيح أم لا؟

قبل أن ينهي كيواكي حديثه، جثا إينوما على قـدميه، وقـد تقلص وجهه

الشاحب، في يأس طاغ، بينما هو يكافح للسيطرة على نفسه. بدا الأمر كما لو أن حرارة متوهجة البياض تتصاعد في أعماقه، على أهبة الانفجار متحوِّلة إلى جحيم رهيب. ابتهج كيواكي بما ارتسم على محياه، الذي انقلب من التعبير الكئيب، الرابط الجأش، الذي اعتاده. وعلى الرغم من أن إينوما بدا غارقاً في المعاناة، على نحو جلي، فإن سحنته التي تقلصت متحولة إلى قناع بشع كانت بالنسبة لكيواكي توحي بالسعادة.

ـ ألا يتكرم السيد الآن بالسماح لي بالانصراف؟

قالها إينوما، منقلباً على وجه السرعة نحو الباب، لكنه قبل أن يتمكن من قطع خطوة واحدة، وثبت تاديشينا من مقعدها لإيقافه، بخفة أذهلت كيواكي. ففي لحظة، انقلبت من عجوز، أقعدتها الشيخوخة، إلى فهدة تنقض على فريستها.

ـ لا ينبغي أن تنصرف! ألا ترى ما سيحل بي إن فعلت ذلك؟ لقد خدمت آل أياكورا، طوال أربعين عاماً، ولكن لئن اكتشفوا أنني الملومة في طرد شخص من خدمة آل ماتسوجاي، بسبب زلة من لساني، فإنهم سيطردونني كذلك. أشفق عليّ قليلاً رجاء! عليك بالتفكير فيما سيقع. أتفهم ما أقول؟ يا لطيش الشباب وتهوره! ولكن ماذا عسانا نملك حيال ذلك؟ إنه أحد مصادر جاذبية الشباب.

هكذا، تشبثت تاديشينا بردن إينوما، وراحت تتحدث في بساطة حديثاً في الصميم، معترضة برقة، وبسلطة يهبها طول العمر.

تكاملت طريقتها المفعمة بالثقة الراسخة على مدار السنين، وخلال ذلك المدى الزمني، أقنعت نفسها بأنها مخلوق لا غنى عنه، في إدارة شؤون الدنيا. الآن عاد محياها إلى تماسكه، وشعَّ بثقة من ألف الإشراف على الإدارة المرنة للأحداث، من وراء الكواليس. في قلب حفل وقور، قد

يتمـزق كيمونـو عند خط الاتصـال، في مفاجـأة تثير الاستيـاء، وقـد ينسى أحـدهم نسخته من خـطاب التهنئة، الـذي دبجه بمـزيد من العنـاء. لقـد ولدت ثقة تاديشينا من قـدرتها المجـرّبة عـلى معالجة هذه الأزمـات وآلاف غيرها، بكفـاءة لا تعرف الاضـطراب. والأمور التي كـانت بالنسبـة لمعظم الناس صواعق مدمرة انقضت من المجهول لم تعد بالنسبة لهـا أن تكون ممـا يتـدبر شـأنه في يـوم أو نحوه. وهكـذا بحذقهـا الحاضر في تفـادي مخـاطـر الكوارث المباغتة كرَّست مراراً جدارة دورها في الحياة. كـانت هذه السيـدة العجـوز الهادئـة تعرف أنـه ما من شيء في الأمـور المتعلقة بـالإنسـان يمكن الركون إلى وقوعه تماماً على نحو ما أريد له. فرفرفة سنونو وحيـد عبر سـماء زرقاء خلت من السحب قد تكون نذير عاصفـة مفاجئـة. هكذا مـا كانت لتخالج تاديشينا، باحتياطيـاتها التي لا تنفـد من التجارب، الشكـوك حول قيمتها وجدواها.

أتيح لإينوما، فيما بعد، وقت طـويل ليمعن التفكـير في الأمر، ولكن في غالب الأحوال تتغـير حياة إنسـان بأسرهـا بسبب لحظة تـردد. وقد عـايش إينوما مثل هذه اللحظة، وبها قضي الأمر. وبما أنـه كان شـاباً، ومـا عركتـه الحياة، فقد غاص الافتقار إلى اليقـين في أعماقـه، مثلما تشق زعنفة سمكـة قرش سطح الماء. أترى مايني سخرت من قصاصته وأرتها للجميع؟ أم أنها ظهرت بشكل آخر مسببة لها شعوراً هائلاً بالخجل والعـار؟ أراد، على نحـو يائس، أن يعرف الحقيقة.

مضى كيواكي يتفحصه، وهو يعاود الجلوس من جديد. لقد أحرز فـوزاً لما يمنحه الكثير مما يتفاخر بـه. فتخلى عن كـل أمل في مدّيد المكـرمات إلى إينوما. لم يعد هناك ما يمكن القيام به إلا إطلاق العنان لشعوره بـالسعادة، وإنجاز التفاصيل خلال مضيه في الأمر قدماً. خامره شعـور جديـد بالقـوة، وأحس بمقدرته على التصرف بالاقتدار الذي يهبه النضج:

ـ لم أطرح هذا الأمر، لأثير الأسى في نفسك أو لأضعك موضع السخرية. ألا ترى أنني وتاديشينا نحاول التوصل إلى خطة تناسبك على أفضل وجه؟ لن أبلغ أبي بكلمة واحدة مما سمعت، وسأعمل على التيقن من عدم وصول أي شيء إليه من مصدر آخر. أما فيما يتعلق بما سنقوم به تواً، فإنني على يقين من أن معرفة تاديشينا واسعة النطاق وخبرتها متعددة الجوانب في هذه الأمور سيكونان خير عون لنا. أليس كذلك يا تاديشينا؟ حقاً إن مايني من أجمل الفتيات بالدار، وهذا يشكل مشكلة صغيرة، ولكن ما عليك إلا أن تدعني أتدبر الأمر.

تألقت عينا إينوما، مثل عيني جاسوس وقع في فخ نصب له؛ وتشبث بكل كلمة من كلمات كيواكي، خائفاً من أن تصدر عنه نأمة. وعندما حاول التغلغل في جوهر كلمات كيواكي، بدا أنه يطلق في أعماقه فيضاناً جائحاً من مشاعر القلق. ومن ناحية أخرى، فإنه عندما جلس هنالك ملتزماً السلبية، بدت كلمات كيواكي وكأنها تنصبّ في روحه ذاتها.

لم يسبق لإينوما من قبل قط أن رأى مثل هذا التعبير الموحي بالتسلط على محيا الشاب، الذي واصل الحديث بعظمة لا تتناسب بالمرة مع شخصيته. كان أمله الكبير، بالطبع، أن كيواكي سيتخذ وضعاً ناضجاً كهذا ذات يوم. لكنه لم يحلم أبداً بأن ذلك سيقع في ظل ظروف كهذه. وفي غمار خسارته لكل شيء أمام كيواكي على هذا النحو ـ ألم تكن شهوته هي التي أوقعت به الهزيمة. على هذا النحو راح يسائل نفسه. وبعد تردده القصير قبل لحظة، ألم يحسّ بأن انطلاقه المخجل وراء اللذة قد أصبح الآن مشتبكاً بصورة لا مجال لفصمها مع الولاء والقيام بخدمة سيده؟ ذلك كان الفخ الذي نصبه له بمثل هذا القدر من الحذق. غير أنه حتى في الأعماق الراهنة لإذلاله الذي لا مجال لاحتماله فتح له باب ذهني صغير في تحقيق صفقتها الصامتة.

بعد أن فرغ كيواكي من حديثه، راحت تاديشينا تتحدث بنغمات صوتية ناعمة، كأنها الكُرّاث الأندلسي المقشر، قائلة:

ـ الأمر على نحو ما قال السيد الشاب تماماً. إن له حكمة تتجاوز عمره كثيراً.

كان إينوما على الدوام يعتبر كيواكي على العكس من ذلك تماماً. أما الآن فقد أصغى إلى تاديشينا دون شعور بالمباغتة.

قال كيواكي، كرة أخرى:

ـ والآن، بالمقابل، يا إينوما، لا بد لك من التوقف عن إلقاء المواعظ على مسامعي والتعاون مع تاديشينا لتقديم بعض العون لي. ولئن فعلت ذلك، فإني سأقوم بالمثل بالنسبة لقصة حبك. بمقدورنا نحن الثلاثة أن تربطنا صداقة وثيقة.

- ١١ -

التقط كيـواكي، مرة أخـرى، المـذكـرات التي يسجـل فيهـا أحـلامـه، وكتب: «عـلى الرغم من أنني لم أعـرف الأمـيرين السيـاميـين لفـترة طـويلة للغاية، فقد حلمت بسيام مؤخراً. كنت أجلس على مقعـد وثير في منتصف قـاعة. وبـدا أنني محتجز هنـاك، وعاجـز عن الحركـة. وعلى امتـداد الحلم شعرت كما لـو أن صداعـاً يلم بي؛ وكان هـذا راجعاً إلى أنني اعتمـر تاجـاً ذهبياً، طويلاً، مدبباً، مرصعاً بكل أنـواع الأحجار الكـريمة. وفـوق رأسي استقـر سرب هائـل من الطواويس عـلى متاهـة من العروق الخشبيـة، دون السقف مبـاشرة. وبـين الفينـة والأخـرى، كـانت فضـلات شهبـاء اللون تتساقط على تاجي.

في الخـارج، كانت الشمس تتقـد حارقـة، تنصب أشعتها عـلى حديقة مهجورة غدت برية تماماً. كان كل شيء ساكناً، فيـما عدا الـطنين الخـافت الصادر عن الذباب، والصوت الثقيل العابر لأرجل الطواويس على العروق الخشبيـة، في أعـلى القـاعـة، أو في بعض الأحيـان الحفيف الـذي تحـدثـه أجنحتهـا. كانت الحـديقة محـاطة بسـور حجري عـال، ولكن كانت هنـاك فتحات كبيرة فيه تشبه النـوافذ، ومن خـلالها كـان بوسعي أن أرى جـذوع أشجار النخيل، ووراءها تراكمت سحب بيضاء، متألقة، لا تحير حراكاً.

ثم تطلعت إلى يدي، ورأيت أنني أضع في أحد أصابعي خاتماً تتألق فيه زمـردة. كان ذلـك هو بـالطبـع خاتم تشـاوبي. ولكنه بشكـل ما وضـع في أصبعي. من المؤكـد أن التصميم كـان هـو ذاتـه تصميم الخـاتم نفسـه،

الوجهان الجهمان للربين الحارسين، الياكشا، وقد نقشا في الذهب، على كل من جانبي الحجر.

رحت أحدِّق في الخاتم المتألق، في الشمس المنهلة من الخارج، وقد استقطب ناظري نور أبيض، صاف، مكتمل، يلتمع كأنه بلورات الثلج في قلب الزمردة. وفيما كنت عاكفاً على هذا، أدركت وجود وجه امرأة، شابة، وجميلة، تتشكل تدريجياً داخل الزمردة. التفتُّ حولي معتقداً أن ذلك انعكاس لأحد يقف ورائي، لكن لم يكن هناك أحد. الآن تحرك الوجه في الزمردة قليلاً، وتغير التعبير المرتسم عليه. وبينما كان الوجه جاداً، غدا الآن باسماً. وفي تلك اللحظة، بدأ ظهر كفي يؤلمني؛ حيث استقرت ذبابة من حشد الذباب المحوِّم حولي عليه. أخذ مني الضيق مأخذه، فهززت يدي لأتخلص منها، وعندئذ تطلعت إلى الخاتم ثانية. لكن محيا المرأة كان قد اختفى. وعندئذ ساورني شعور يستعصي على الوصف بالمرارة والخسران، فاستيقظت...».

لم يحدث أن كلَّف كيواكي نفسه قط عناء إضافة تفسير شخصي لهذه الصور، التي تتوارد في أحلامه. وقد بذل قصارى جهده ليتذكر ما وقع، على وجه الدقة، وسجَّله كاملاً بقدر الإمكان، مضمِّناً المذكرات أحلاماً سعيدة أو أحلاماً متوعدة، تماماً على نحو ما تراءت له. ربما كان عدم الاستعداد هذا للإقرار بمعانٍ خاصة في الأحلام وحرصه على إيراد الوصف الدقيق يشيران إلى بعض الهواجس العميقة التي تساور كيواكي فيما يتعلق بالحياة ذاتها. وإذا ما قورن عالم أحلامه بعدم الاستقرار الانفعالي الذي يعايشه، في يقظته، فإن ذلك العالم يبدو أكثر أصالة. وما كان بوسعه على الإطلاق التيقن من أن هذه الانفعالات اليوم هي جزء من ذاته الحقة، لكنه كان يعرف أن كيواكي أحلامه، على الأقل، كان حقيقياً. كانت هذه الانفعالات تقاوم كل محاولات التحدي والتعين، بينما كان لأحلام كيواكي

قوام وطابع يمكن إدراكهما. كما أن كيواكي لم يستخدم مذكراته ليصب جام سخطه على مضايقات العالم الذي يحيط به، فهاهنا، على العكس من ذلك، وللمرة الأولى، تطابق الواقع المباشر مع رغباته، على وجه الدقة.

أصبح إينوما، الذي سمقت مقاومته تماماً، مطيعاً طاعة عمياء لسيده. وبالاشتراك مع تاديشينا عمل كوسيط لترتيب لقاءات كيواكي وساتوكو. وقد كان هذا النوع من الاخلاص كافياً لإرضاء كيواكي، وجعله، فضلاً عن ذلك، يتساءل عما إذا كان لشيء مثل الصداقة كل تلك الأهمية حقاً. وفي الوقت نفسه ودون إدراك كامل للأمر، تباعد تدريجياً عن هوندا. وقد أحزن هذا هوندا، ولكنه يدرك على الدوام بصورة قاطعة أنه لم يكن إلا ضرورة هامشية بالنسبة لحياة كيواكي، وعلى هذا النحو كان يعلم أن صداقتهما قد افتقرت إلى عنصر حيوي للصداقة. ومن هنا فإن الوقت الذي كان من شأنه أن يمضيه متكاسلاً مع كيواكي أنفقه الآن عاكفاً على كتبه، فإلى جوار دراسته للحقوق بالألمانية والفرنسية والإنجليزية طالع باستفاضة في جوانب الأدب والفلسفة. وعلى الرغم من أنه لم يتبع الزعيم المسيحي العظيم كانزو أوتشيمورا فقد قرأ «الحائك» لكارلايل وأعجب به.

ذات صباح جليدي، وفيما كان كيواكي على وشك المغادرة إلى المدرسة، أقبل إينوما إلى مكتبه بحذر ملموس. لم يطرأ أي تغير على ملامحه ومظهره الكئيب، ولكن خنوعه الراهن جرَّده من قدرته على إثارة ضيق كيواكي.

قال إنه تلقى لتوه مكالمة هاتفية من تاديشينا. وكانت الرسالة كالتالي: أحست ساتوكو ببهجة غامرة، حيال الثلج، إلى حد أنها تود ألا يمضي كيواكي إلى المدرسة، وأن يقبل لنزهة بالريكشو معها فوق الثلج، بدلاً من ذلك».

لم يسبق لأحد أن طلب مثل هذا الطلب العابث، على نحو مدهش،

من كيواكي قط. وبعد أن كان متأهباً للذهاب إلى المدرسة، وقف مذهولاً، ممسكاً بحقيبة كتبه في يده، وراح يحدِّق في إينوما.

ـ ما هذا؟ أوقد اقترحت الآنسة ساتوكو حقاً شيئاً من هذا القبيل؟

ـ أجل، يا سيدي، سمعته مباشرة من الآنسة تاديشينا. لا مجال للخطأ في هذا.

بدا إينوما، على نحو عجيب، وهو يؤكد هذا، أقرب شبهاً بذاته المستقلة السابقة، ولاح وكأنه على استعداد لكيل المواعظ لكيواكي إذا تحدّاه فيما يتعلق بهذا الأمر.

التفت كيواكي إلى الوراء، نحو الحديقة، حيث كان الثلج يتساقط. وفي هذه المرة لم تجرح أساليب ساتوكو المفعمة بالقوة كبرياءه، بل على العكس، فقد ساوره شعور بالارتياح، كأنما استأصل مشرطها في حذق ورم الصلف الخبيث. وبما أن الجراحة قد انتهت قبل أن يدرك الأمر، فقد منحه هذا التجاوز لرغباته نوعاً من السرور المتوهج. قال محدقاً بمزيد من التفكير في الثلج الكثيف المتساقط: «سأقوم بما تريده تماماً». وعلى الرغم من أن الثلج لم يغد عميقاً، فقد حوَّل الجزيرة وتل القيقب وراءها إلى اللون الأشهب المتألق.

ـ ليكن. اتصل بالمدرسة هاتفياً نيابة عني! قل لهم إنني أصبت بالبرد، وسأتغيب اليوم! وتأكد من أنه لن يصل شيء من هذا إلى مسامع أمي أو أبي! ثم امضِ إلى موقف عربات الريكشو، واستأجر عربة كبيرة يجرها رجلان. وتأكد أنهما ممن يمكن الوثوق بهما. لسوف أمضي إلى هناك سيراً على الأقدام.

ـ في هذا الثلج؟

راح إينوما يرقب سيده، فيما محياه يتضرج حمرة. وبما أن ظهر كيواكي

كان يواجه النافذة المطلة على رحاب العاصفة، فقد غمر الظل محياه، لكن ذلك لم يقلل من وضوح احمراره. هذا الشاب الذي ساعد في تربيته لم يكن يميل على الإطلاق إلى النزعة البطولية، لكنه فوجىء بضبط نفسه متلبساً بالابتهاج للبريق الناري المتقد في عيني كيواكي، أياً ما كان غرضه. وقد أتى حين من الدهر على إينوما لم يكنّ فيه إلا الازدراء لسيده الشاب وللأساليب التي يتبعها، ولكن أيّاً ما كان كيواكي بصدده الآن، ومهما كان انغماسه في ذاته، فقد بدا أن هناك تصميماً خفياً في أعماقه لم يفصح عن ذاته من قبل قط.

- ١٢ -

كان مقر آل أياكو في أزابو دارة إقطاعية عتيقة، وعلى كل من جانبي البوابة الرئيسية الواسعة، نتأت النوافذ المغطاة بشبكة أسلاك من مقري الحرس عبر الجدار. غير أنها بعد أن أصبحت الآن دارة لا يزورها إلا القليلون، لم تبد مؤخراً إشارة تدل على وجود أحد في مقري الحراسة. لم يغط الثلج الامتدادات الرحبة لقرميد السقف، وإنما قصر نفسه بأمانة على كل آجرة لدى سقوطه.

وقف شخص غامض الملامح ممسكاً بمظلة، تاديشينا فيما يبدو، أمام الباب الصغير الواقع إلى جوار البوابة. ولكنها اختفت فجأة لدى اقتراب الريكشو التي تقل كيواكي. وفيما العربة تقترب، وكيواكي يجلس فيها أمام البوابة، راح يحدِّق عبرها، دون أن يرى شيئاً في الحديقة من خلل الثلج.

أخيراً، وتحت حماية مظلة تاديشينا نصف المفتوحة، ظهرت ساتوكو، عند البوابة، مرتدية ثوباً أرجوانياً، ضامة يديها أمام صدرها، فأخذت اللهفة بخناق كيواكي إزاء هذا التجلي المفاجىء للجمال الباهر، كأنما انتشرت سحابة مترامية من الأرجوان من قلب الباب الصغير، لتملأ رحابة الجليد المتساقط.

ساعدت تاديشينا ورجلا العربة ساتوكو على الصعود إليها، فبدا أنها تطفو لتلاقي كيواكي، فيما هو ينحني ليدفع غطاء الريكشو إلى الوراء، ولكنه عندما واجه فجأة ابتسامتها المشرقة العذبة، وندف الثلج المدومة متشبثة بشعرها وياقة ثوبها، أخذ على غرة، كما لو أن شيئاً سديمياً قد هاجمه

في خدر أحلامه. وقوّى هذا الانطباع دون شك الاهتزاز المفاجىء، الذي اعترى العربة الخفيفة، لدى ركوب ساتوكو، تماماً كما كان شأن طيات ردائها الأرجوانية المتماوجة، التي تراكمت ساكنة إلى جواره، وعطرها الفوّاح الذي بدا أن عبيره قد اجتذب ندف الثلج ذاتها، التي تماوجت دالفة إلى العربة، فجعلها تصيب خديه الباردين. وفيما دلفت ساتوكو إلى العربة مضت قوة اندفاعها بخدّها قرب خد كيواكي لمدة ثانية، وعندما ردت رأسها إلى الوراء في ارتباك، فوجىء كيواكي بالقوة اللدنة الكامنة في عنقها، وذكّره ذلك بعنق البجعة الأبيض الناعم.

تساءل كيواكي، محاولاً على نحو يائس الحفاظ على ثبات صوته:
ـ ما الذي طرأ على ذهنك فجأة على هذا النحو؟

ـ استقل أبي وأمي القطار إلى كيوتو البارحة؛ فأحد أقاربنا مريض على نحو خطر، فتركت وحدي، ورحت أحدث نفسي بمدى توقي لرؤيتك، يا كيو، وبعد أن فكرت في الأمر طوال الليل، رأيت الثلج هذا الصباح، وعندئذ أردت أكثر من أي شيء آخر في الدنيا أن أمضي للتريض عبر الثلج معك. لم يسبق لي أن قمت بأي شيء على مثل هذا الاندفاع من قبل. لسوف تسامحني. أليس كذلك يا كيو؟

هكذا، تحدثت ساتوكو بأنفاس لاهثة، وبصوت طفلة، لا يلائمها تمام الملاءمة.

كانوا قد شرعوا في التحرك بالفعل، وترددت في مسامعهما صيحات رجلي الريكشو، اللذين كان أحدهما يدفع العربة من وراء والآخر يجذبها من أمام. أنفلش الثلج في أشكال تباينت من اللون الأشهب، إلى الأصفر على نحو ما تبدد من النافذة الأمامية الصغيرة للعربة المغلقة. وفي المدخل تماوج النور في خفوت بحسب تأرجح العربة.

جلب كيواكي معه بطانية خضراء مقلمة، غطيا بها أرجلهما، ومنذ أيام الطفولة تلك التي طالها النسيان، كانت تلك هي المرة الأولى التي اقتربا أحدهما من الآخر على هذا النحو، لكن كيواكي شتته النور الشاحب المنهل من خلال الصدوع في غطاء الريكشو التي راحت تضيق وتتسع، فيما دفق من الثلج ينساب عبرها، وكذلك الثلج ذاته الذي تحول إلى ماء فوق البطانية الخضراء ووقع الثلج، وهو يترامى على غطاء العربة، كما لو كان سقط على أوراق شجرة موز جافة.

ـ امضِ حيثما تشاء! خذنا إلى أي مكان تستطيع الذهاب إليه.

قالها كيواكي، رداً على رجل عربة الريكشو. وقد علم أن المناخ النفسي، الذي سيطر على ساتوكو، هو نفسه الذي هيمن عليه.

بينما رفع الرجلان عريش العربة، تأهباً للانطلاق، استند كلاهما إلى ظهر مقعده، وقد توتر جسداهما قليلاً. وحتى ذلك الوقت لم يقدم أي منهما حتى على محاولة الإمساك بيد الآخر. غير أن الاحتكاك الحتمي بين ركبتيهما تحت البطانية كان شبيهاً بشرارة تأتلق سراً تحت الجليد.

تواصل شك كيواكي الناهش: ألم تقرأ ساتوكو رسالته حقاً؟ راح يحدث نفسه: «لقد نفت تاديشينا الأمر بشدة على نحو لا يحتمل معه أن تكون قد قرأت الرسالة. ولكن في هذه الحالة هل تعبت ساتوكو معي الآن فحسب مقتنعة بأنني مجرد تماماً من الخبرة بالنساء؟ كيف يمكن أن أتحمل مثل هذه الإهانة؟ كنت شديد الحرص على ألا تقرأ الرسالة، أما الآن فإني أود أن تكون قد قرأتها، لأنه عندئذ من شأن لقائي على مثل هذا النحو المجنون، وفي مثل هذا الصباح الجليدي، أن يعني أمراً واحداً فحسب: أنها ألقت القفاز في وجه رجل عركته الدنيا. ولسوف تكون لي مزايا أتمتع بها في ذلك

الـوضع. والمشكلة الـوحيدة هي أنني في حقيقـة الأمر رجـل لا خـبرة لـه، وأحسب أنه ما من سبيل لإخفاء هذه الحقيقة».

راحت أفكـار كيواكي تتقلب عـلى جمر الغضى، فيـما هو جـالس داخـل التخوم المحدودة والمربعة والمعتمة لعربة الريكشو المتأرجحة. وبما أنه لم يكن لينظر إلى ساتـوكو، فلم يكن أمـامه مـا يفعله إلا التحديق في الثلج، وهـو يتـألق ملتمعاً من خـلال النـافـذة الضيقـة المصنـوعـة من مـادة السليـوليـد الصفراء. غير أنه، في نهاية المطاف، وضع يده تحت البطانية، حيث كانت يد ساتوكو تنتظر، محتلة الملاذ الضيق الدافىء المتاح.

اندفعت ندفة ثلج، واستقرت على حاجب كيواكي، فدفعت ساتوكو إلى الصياح، ودونما تفكير، التفت كيواكي نحوها، فيما هو يستشعر انسياباً بارداً عـلى جفنـه. أغمضت عينيهـا فجـاة، فحـدّق كيـواكي في الـوجـه بعينيــه المغمضتـين، راح اللون القرمـزي المخفف، الذي يكسـو شفتيها، يتـوهج وسط الظلال، وبسبب تأرجح العربة، كانت ملامحها مضببة بنعومـة، مثلما زهرة تمسك بها أصابع مرتجفة.

راح فؤاد كيـواكي ينبض، بعنف بالـغ، أحسَّ كما لـو كان يختنق بفعـل الياقة العالية المحكمة لسترة زيه المدرسي. لم يـواجه من قبـل قط بشيء على مثل غموض محيا ساتوكو الأبيض، المغمض العينين، المنتظر في هدوء. تحت الـبـطانيـة أحـس بـقبـضـتـهــا تحـكم يــده. أدرك أنها تـنهـي إلـيـه شـيـئـاً ما، وهكذا، وعلى الرغم من شعوره الفظيع بتعرضه للإحبـاط، أحس بأن شيئـاً رفيقاً، لكنـه يستعصي على المقـاومة، يجتـذبـه، فضغط عـلى شفتيهـا مقبّلاً.

بعد لحظة، أوشك اهتزاز الريكشو على فض قبلتهما، لكن كيـواكي قاوم هذه الحركة، بصورة غريزية، حتى بدا أن جسمـه بكامله يتـوازن على تلك

القبلة، وخالجه شعور بأن مروحة هائلة، خفية، معطرة تفض طياتها، حيث التقت شفاههما.

في تلك اللحظة، وعلى الرغم من استغراقه على نحو كامل، كان لا يزال يدرك في حدة مظهره المتألق، جمال ساتوكو وحسنه: أدرك أن هذا التطابق البديع على وجه الدقة بين الاثنين هو الذي فك عرى كل القيود، وسمح لهما بأن ينطلقا معاً متداخلين كمقدارين من الزئبق، فقد كان كل ما هو مفرِّق ومحبط ينبع من شيء مفارق للجمال. الآن أدرك كيواكي أن الإصرار المتعصب على الاستقلال التام هو مرض، لا ينبع من اللحم والدم، وإنما من الذهن.

ما إن انحسر قلقه، وشعر على نحو متعاظم بالتيقن من الفتاة، التي كانت نبع سعادته، حتى غدت قبلتها حادة بصورة متزايدة، ومغرقة في العاطفة. راحت شفتا ساتوكو تتزايدان في طواعيتهما، وعندئذ، وفيما بدأ يخشى من أن جوهره ذاته قد يذوب، وينجذب إلى رضابها العذب، تأججت أطراف أصابعه بالرغبة في تلمس بدنها. جذب يده من تحت البطانية، ومررها حول كتفيها، ليمسك بذقنها، تلمس العظام الدقيقة الهشة، التي تميز فك المرأة، بأطراف أصابعه، وعلى هذا النحو اكتسب إدراكاً متجدداً لحضور جسماني، خارج حضوره تماماً. غير أن هذا الإدراك لم يؤد إلا إلى تكثيف الانفعال المصاحب للقبلة.

كانت ساتوكو قد شرعت في البكاء، على نحو ما أدرك عندما بللت دموعها وجنتيه. أحس بفيض من فخار لا يدين بشيء لمناخ حب الغير، الذي طرأ عليه مؤخراً، الرغبة المغتبطة في إفادة البشر التي استولت عليه. وبالطريقة ذاتها فقد أسلوب ساتوكو كل أثر لكياستها السابقة، التي تشبه إلى حد كبير طريقة أخت كبرى في الانتقاد. فيما هو يمرر يده على جسمها، متلمساً أول الأمر شحمة أذنها، ثم صدرها، أثارته اللدونة التي استشعرتها

أصابعه. فحدَّث نفسه، قائلاً إن تلك لا بد أن تكون الطبيعة الحقة للملاطفات. هكذا استقرت شهوانيته، التي أرخت العنان للانديياح، مثل غمامه تتعالى، على شيء ملموس. ولم يعد يملأ ذهنه الآن إلا متعته، وهذا بالنسبة لكيواكي كان قمة الاستسلام للرغبة.

اللحظة التي تنتهي فيها قبلة، تشبه الاستيقاظ، في تردد، من النوم، مع المجالدة على نحو غائم، في مواجهة ألق شمس الصباح، فيما هي تنهل على الجفون، وهي تتوق إلى التشبث ببقية اللاوعي التي تركت. تلك هي اللحظة التي يكون فيها النوم في أعذب مراحله.

عندما تباعدت شفاههما، بدا أن صمتاً متوعداً يحل بهما، كأنما كفت الطيور فجأة عن الشدو بأنشودتها الجذابة. أشاح كل منهما بناظريه عن الآخر، وراح يحدق مثبتاً نظرته في الفضاء. غير أن حركة الريكشو أنقذت الصمت من أن يصبح طاغياً بأكثر مما ينبغي. فكان بمقدورهما، على الأقل، أن يستشعرا جانباً من نشاط آخر.

أرخى كيواكي عينيه، وتحت أسفل البطانية الخضراء برز أصبع «تاجي» المرأة الأبيض، في خفر، شأن فار عصبي أشهب يطلّ منسلاً من جحره النجيلي. كان مغطى بطبقة خفيفة من الثلج. أحس بوجنتيه تتقدان، وهكذا مدّ يده بعفوية، مثل طفل، متلمساً وجنتها، وقد سعد باكتشاف الدفء نفسه فيها. بدا ذلك وكأنه وعد مصغر بالصيف.

- سأفتح سقف العربة.

أومأت ساتوكو موافقة، فمدَّ يده، وفك الطية الأمامية للسقف، فتهاوت طبقة الثلج، التي كانت قد تجمعت فوقها، مشكلة مربعاً مؤقتاً من البياض الأشهب، متناثرة، دون أن يندَّ عنها صوت.

انحنى رجلا العربة فجأة، وقد لاحظا الحركة تحت سقفها.

- لا. لا. واصلا السير!

صاح بهما كيواكي، فاستحثتهما رنة صوته، وانطلقا مسرعين من جديد.

ـ واصلا السير! وبأسرع ما تستطيعان!

انطلقت العربة عبر الثلج، ورجلاها يتبادلان الصياح، تشجيعاً لنفسيهما على المضي قدماً.

ـ قد يرانا أحد.

قالتها ساتوكو، متراجعة في مقعدها، غير راغبة في إظهار عينيها، اللتين كان الدمع لايزال يخضلهما.

ـ لا أهمية لذلك.

أدهشت كيواكي النبرة الحاسمة في صوته. وفجأة، أدرك جلية الأمر، كان ما أراد القيام به حقاً هو أن يتحدى العالم.

فيما هو يتطلع إلى أعلى، بدت السماء الممتدة فوقهما غضباً من بياض يغلي، راح الثلج يرتمي الآن حاداً على وجهيهما، ولو فتحا فميهما لارتمى على لسانيهما. أن يدفن المرء في مثل هذا الانديـاح... بدا شبيهاً بالفردوس.

ـ الآن، هاهنا ثلج.

قالتها ساتوكو حالمة، وقد عنت، فيما يبدو، أن الثلج ذاب متقاطراً من عنقها إلى صدرها. غير أنه لم يكن ثمة ما هو فوضوي في الثلج المنهمر، فقد تساقط في الجلال المتواصل لطقس منظم. أحس بوجنتيه تفتران، وتدريجياً أدرك أن فؤاده يتلاشى في أعماقه.

كانت عربة الريكشو قد مضت صعداً إلى قمة تل، في قطاع كاسومي الحديث من أزابو، وقد حفَّ بالمنحدر ميدان، يسمح بالرؤية الواضحة لأرض الاستعرض وثكنات فوج أزابو الثالث في الأسفل. وعلى المدى الأشهب لأرض الاستعراض لم تقع العين على جندي واحد. فجأة، ساور كيواكي

وهم، قوامه رؤية حشد هائل من الجنود، على نحو ما هو الحال في الصورة المألوفة، في الحفل التذكاري، الذي أقيم قرب معبد توكوري، تمجيداً لضحايا الحرب اليابانية - الروسية. وقف الآلاف من الجنود برؤوس منكسة في مجموعات حول نصب تذكاري من الخشب الأبيض، ومذبح كُسي بقماش أبيض، تلاعبت الريح بأطرافه. لم يكن هذا المشهد يختلف عن الصورة، إلا من حيث أن أكتاف الجنود كانت مكسوة بالثلج والأغطية الأمامية لقبعاتهم باللون الأبيض. وفي اللحظة التي رأى فيها كيواكي هذه الأشباح، أدرك أنهم جميعاً لقوا حتفهم في المعركة. لم يتجمع آلاف الجنود في الأسفل ليصلّوا من أجل زملائهم الذين سقطوا في ميدان القتال، وإنما حداداً على حياتهم هم أنفسهم.

في لحظة تبددت الأشباح. ووراء غلالة من الثلج، انداح مشهد وراء الآخر أمامهم. كانت الحبال الغليظة ذات لون القش التي تدعم أشجار الصنوبر، على الجانب المنحدر من الخندق الخارجي، تحمل وقراً خطيراً من الجليد. ووراء النوافذ المحكمة الإغلاق في الدور الصغيرة راحت المصابيح تتقد خافتة، على الرغم من أن الوقت لم يتجاوز الضحى.

قالت ساتوكو:

- أغلقها!

أغلق كيواكي الطية الأمامية، فألفيا نفسيهما، مرة أخرى في الضوء الخافت المألوف. غير أن مناخ النشوة ما كان ليستعاد بمثل هذه السهولة. وكان كيواكي، كالمعتاد، ضحية للهواجس، فراح يحدِّث نفسه، قائلاً: «ترى ماذا كان شعورها عندما قبلتها؟ ربما غضبت حيال الطريقة التي أتيت بها ذلك، إنها تعلم أنني أمضي بعيداً، وأنني كنت ملتفاً حول ذاتي، تماماً مثل طفل، وذلك صحيح، فما كان بمقدوري إلا التفكير في مدى روعة ما شعرت به.

عندئذ، انساب صوت ساتوكو إلى خواطره.

قالت، وقد تمالكت صوتها تماماً:

ـ ألا ينبغي أن نعود إلى الدار؟

حدَّث نفسه، قائلاً: «هاهي ذي تمضي قدماً، فتقودني من أنفي، مرة أخرى». ولكن حتى فيما كان يدمدم، شاكياً لنفسه، كان يعرف أنه يدع الفرصة لتغيير الأمور تنقضي، عندما تكون متاحة له. كان بمقدوره أن يقول: «كلا، دعينا لا نعد أدراجنا!». ولكن القيام بذلك كان يعني مدَّ يده والتقاط النرد. وكان حرياً بيده غير الحاذقة أن تتجمد لمجرد لمسه. لم يكن متأهباً لذلك.

- ١٣ -

مضى إلى الدار، واختلق قصة، حول مغادرته المدرسة مبكراً، بسبب إصابته بنوبة برد. فاندفعت أمه مسرعة إلى غرفته لقياس درجة حرارته. وفي قلب هذا الحراك، ظهر إينوما ليقول إن هوندا يرغب في محادثته على الهاتف. وعانى كيواكي صعوبة جمّة في إقناع أمه بعدم تلقي المكالمة بدلاً منه، وأخيراً أفلح في إقناعها، فمضى هابطاً إلى أسفل، حيث الهاتف، ملتفاً ببطانية من صوف الكشمير، بناء على إصرار أمه.

ـ الأمر كله بسيط للغاية، والقصة قوامها أنني ذهبت إلى المدرسة اليوم، ولكني عدت مبكراً، لا أحد هنا يعرف ما يخالف ذلك. نوبة بردى؟

شاعراً بعدم الارتياح من جراء الباب الزجاجي عند ظهره، واصل كيواكي الحديث بصوت خفيض مكتوم:

ـ لا تقلق حول هذا. سأجيء إلى المدرسة غداً، ويمكننا الحديث عن الأمر عندئذ. لا تبدأ في الاتصال هاتفياً لمجرد تغيبي عن المدرسة ـ إنك تبالغ في الأمر!

عندما وضع هوندا سماعة الهاتف، كان يرتجف من فرط الغضب، حيال استجابة كيواكي الشديدة البرود لتعبيراته عن قلقه عليه، ولكن الأمر كان فيه ما يزيد على نغمة حديثه غير الودية أو خشونته، فلم يكن هوندا قد وضع كيواكي قط في موضع الاضطرار إلى الافضاء به.

غير أنه عندما استعاد رباطة جأشه، بدأ يحدّث نفسه: «أن أتصل هاتفياً

لمجرد تغيبه عن المدرسة اليوم ـ لا يشبه هـذا تماماً ما درجت عليـه». وقد كان حقاً أن شيئاً يتجاوز الاهتمام الودي هو الذي حـدا به إلى الاتصال هاتفياً بمثل هـذه السرعة. فعندما اندفع، في الفسحة بين الحصص الدراسية، عبر فناء المدرسة، الذي كساه الجليد، إلى مكتب الادارة للقيام بالاتصال الهاتفي، كان ما دفعه إلى ذلك هو شعور منذر بالخطر لم يستطع قمعه.

ظل قمطر كيواكي خاوياً، طوال فترة الصباح، وعندما نظر إليه هوندا، خالجه شعور بالخوف كالذي يساور رجلاً تيقن من وقوع أسوأ مخاوفه. عكس القمطر العتيق، بخدوشه التي غطتها طبقة الطلاء الجديدة، البريق المباشر المنعكس عن الثلج، عبر النافذة، فحمله على أجنحة التفكير إلى تابوت في وضع رأسي مكسو بالقماش الأبيض، من النوع الذي كان يستخدم في دفن المحاربين القدامى في وضع التربع.

استمرت كآبته، حتى بعد عودته إلى الدار، ثم تلقى اتصالاً هاتفياً، كان من إينوما، الذي أبلغه برسالة من كيواكي قوامها الإعراب عن أسفه، حيال الطريقة التي تحدث بها إليه. لو أنه أرسل عربة ريكشو إلى دار هوندا الليلة فهل يتفضل هوندا، لطفاً، بزيارته؟ زاد رنين صوت إينوما الثقيل، الجنائزي، من اكتئابه، فرفض الدعوة، باقتضاب، قائلاً إن بمقدورهما أن يناقشا الأمور، عندما تتحسن حالة كيواكي، بما يمكنه من العودة إلى المدرسة.

عندما أبلغ إينوما كيواكي بهذه الرسالة، أحس الأخير بعدم الارتياح النابع من مرض حقيقي. وفيما بعد، استدعى إينوما إلى غرفته في وقت متأخر من تلك الليلة، ولكنه بدلاً من أن يأمره بالقيام بفعل شيء ما، أدهشه بالإفضاء إليه بما يثقل كاهله:

ـ لا تسبب ساتوكو إلا المتاعب. الحق فيما يقولونه، في هذا الصدد. أليس كذلك. إن المرأة تقضي على صداقة الرجال. لو أن ساتوكو لم تتصرف بمثل هذا العناد، صبيحة اليوم، لما أثرت غضب هوندا، على هذا النحو.

خلال الليل، كفَّ الثلج عن التساقط، وحلَّ اليوم التالي صافياً بهيجاً. تغلب كيواكي على رأي أمه وبقية أهل الدار، وانطلق إلى المدرسة، فقد اعتزم الوصول إلى هناك، قبل هوندا، وأن يبادره بتحية الصباح. ولكن فيما الشمس تعلو صاعدة في السماء، أحدثت الروعة المتألقة لهذا الصباح الشتائي تغيراً في حالته المزاجية، استشعر سعادة عميقة، غامرة، بدَّلته تبديلاً. وفي وقت لاحق، حينما أقبل هوندا إلى حجرة الدراسة، ورد ابتسامته بابتسامة لا مبالية، تخلى هوندا فجأة عن عزمه على إبلاغه بكل شيء عن الأمس.

اغتصت هوندا ابتسامة، لكنه لم يفه ببنت شفة. بعد أن وضع حقيبة كتبه على قمطره، انحنى على حافة النافذة، لحظات قلائل، وتطلع إلى الجليد، ثم بعد نظرة سريعة إلى ساعته، يفترض أنه علم منها أنه لا تزال أمامه نصف ساعة، قبل بدء الدراسة، استدار، دونما كلمة، ومضى إلى الخارج، فأحس كيواكي بأنه مضطر إلى أن يحذو حذوه.

كان عدد من أحواض الزهور ممتدّاً بشكل هندسي على جانب المدرسة، التي كانت مؤلفة من بناء خشبي من طابقين. ووسط الأحواض كانت هناك تعريشة، وغير بعيد عن حافة الأحواض انخفض مستوى الأرض بحدة، وأفضى ممر صغير عبر المنحدر إلى بحيرة تحيط بها أجمة من الأشجار. تيقن كيواكي، عقلاً، من أن هوندا لن ينحدر باتجاه البحيرة، حيث أن الثلج الذائب سيجعل السير بالغ المشقة. وتماماً على نحو ما خمن، توقف هوندا

في التعريشة، وأزاح الثلج عن أحد المقاعد الخشبية، وجلس. سار كيواكي نحوه، متابعاً طريقه عبر ركام الجليد في حوض الزهور.

- لم تتبعني؟

تساءل هوندا، مغمضاً عينيه نصف إغماضة، في مواجهة الضوء الباهر، فيما هو يرفع ناظريه.

اعتذر كيواكي برقة:

- لقد تصرفت على نحو بالغ السوء معك بالأمس.

- لا عليك! كانت نوبة بردك مجرد عذر. أليس كذلك؟

- بلى.

مقلداً هوندا، أزاح كيواكي بعض الثلج بعيداً عن المقعد، ثم جلس إلى جواره. واضطر كلاهما بسبب الوهج إلى إغماض أعينهما نصف إغماضة، على نحو مؤلم، ليتمكنا من التطلع أحدهما إلى الآخر، الأمر الذي قلل، إلى حد كبير، من الشحنة الانفعالية حولهما. احتجبت البحيرة في الأسفل عن النظر، على الرغم من أنه ما كان عليهما ليرياها إلا أن يقفا، فتتخايل أمامهما من بين الأغصان المثقلة بالثلج. أحاطهما صوت تقاطر الماء، الذي جاء برهاناً على أن ركام الثلج فوق سطح المدرسة والتعريشة وعلى الأشجار آخذ بالذوبان الآن. تداعت القشرة المتجمدة التي كست أحواض الزهور هنا وهناك، مخلفة رقائق خشنة متوالية من الثلج راحت تتألق كحجر جرانيت انفلق.

توقع هوندا من كيواكي أن يكشف النقاب عن سر هائل، ومع ذلك فلم يكن راغباً في الإقرار لنفسه بأنه يحس بفضول حيال هذا السر، الأمر الذي جعله يأمل على وجه التقريب في ألا يقول كيواكي شيئاً على الإطلاق. ومن شأن أي ثقة يشوبها حتى ولو من بعيد التنازل ستكون شيئاً ممجوجاً على نحو مرير.

ـ أتعلم أنني كنت أفكر كثيراً في الشخصية مؤخراً. خذ الأيام التي نعيشها، هذه المدرسة، وهذا المجتمع، إنني أشعر بالغربة عنها جميعها. على الأقل أود أن أعتقد أنني أشعر بهذا. والأمر نفسه يمكن أن يقال عنك.

ـ نعم، بالطبع.

رد بها كيواكي، ونغمة حديثه توحي بعدم الاهتمام وبالنأي، كعهدها، ولكن بعذوبة تناسبه كثيراً.

ـ ولكن دعني أسألك هذا السؤال: ما الذي يحدث بعد قرن من الزمان؟ دون أن يكون لنا رأي في الأمر، ستدمج كل أفكارنا معاً تحت عنوان شامل: «فكر العصر». خذ تاريخ الفن، على سبيل المثال، فهو يثبت وجهة نظري، على نحو لا سبيل إلى تفنيده، شئت أم أبيت، فلكل عصر أسلوبه الخاص، ولا يستطيع فنان يحيا في فترة محددة أن يتجاوز تماماً أسلوب هذه الفترة، مهما كان منظوره الفردي.

ـ وهل لعصرنا أسلوبه أيضاً؟

ـ أعتقد أنني أميل إلى القول بأن أسلوب عصر ميجي لا يزال يحتضر، ولكن من أين لي أن أعرف؟ إن العيش في قلب عصر ما يشتتك عن أسلوب هذا العصر. أنت وأنا ينبغي لنا، كما تعلم، أن ننغمس في أسلوب حياة أو آخر، ولكننا مثل سمكة ذهبية تدور سابحة في وعاء لأسماك الزينة، دون أن تلحظ ذلك. خذ نفسك مثالاً، إن عالمك هو عالم شعور، تبدو مختلفاً عن معظم الناس، وأنت واثق تماماً أنك لم تسمح لشخصيتك قط بأن تُحمل على مالا تريد، غير أنه ما من سبيل على الإطلاق لإثبات ذلك. فليست هناك أية قيمة على الإطلاق لشهادة معاصريك. ومن يدري؟ ربما كان عالم شعورك يمثل أسلوب هذا العصر في أنقى صوره، ولكن، مرة أخرى، ما من سبيل هناك لمعرفة جلية الأمر.

ـ طيب، إذن، من الذي يحسم الأمر؟

ـ الزمن. الزمن هو الذي يهم. فيما الزمن يمر، سيتم المضي بي وبك بلا رحمة إلى رحاب التيار الرئيسي للعصر، حتى وإن لم تدرك طبيعته. وفيما بعد، عندما يقولون إن الشبان في أوائل عهد تايشو كانوا يفكرون ويرتدون ويتحدثون بهذه الطريقة أو تلك، فسوف يتحدثون عني وعنك، لسوف ندمج معاً، إنك تستهجن تلك الحفنة من الشباب في فريق الكندو. أليس كذلك؟ تحتقرهم؟

ـ بلى.

قالها كيواكي، شاعراً على نحو لا يدعو للارتياح بأن البرد قد شرع في اختراق مقعدة سرواله، ولكنه راح يحدق على الرغم من ذلك في أوراق شجرة كاميليا خضراء، إلى جوار الإطار المحيط بالتعريشة. راحت الأوراق التي تعرَّت حديثاً من الثلج الذائب تلتمع على نحو متألق. أضاف:

ـ بلى إني لا أكتفي بألا أحمل لهم وداً، بل أزدريهم.

مضى هوندا برده الفاتر في مسيرته الموغلة، وواصل حديثه:

ـ ليكن، إذن، ما عليك إلا أن تتصور هذا إذا كان بمقدورك ذلك. خلال بضع عقود قليلة من الزمن، سينظر الناس إليك أنت وأولئك الذين تزدريهم باعتباركم شيئاً واحداً، كياناً مفرداً. وأصدقاؤك غائبو البديهة، بنزعتهم العاطفية، وضيق أفقهم الضاري، الذين يدينون أي شخص لا يشبههم باعتباره مخنثاً، ومضايقتهم لطلاب الصفوف الأدنى، وتقديسهم المتعصب لجنرال نوجي، والإطار الذهبي الذي يجعلهم يستمدون رضا يستعصي على التصديق من كنس الأرض كل صباح حول شجرة الساكاكي، التي زرعها الأمبراطور ميجي ـ أنت بكل حساسيتك سينظر إليك باعتبارك صنواً لهؤلاء الناس، عندما يتوقفون إلى جوهر عصرنا، أي أخذ القاسم المشترك الأعظم. ما أن يستقر الماء المزبد، فيغدو هادىء

السطح، حتى يصبح بمقدورك أن ترى بقعة الزيت، التي تضم ألوان قوس قزح، طافية هنالك. وعلى ذلك النحو، سيمضي الأمر. بعد أن نلقى حتفنا جميعاً، سيكون من اليسير تحليلنا وعزل عناصرنا الأساسية، ليراها الجميع. وبالطبع، فإن هذا الجوهر، الفكر الذي هو أساس عصرنا، سيعتبر بعد قرن من الزمان من الآن فكراً يكتنفه الجهل تماماً، وليس أمامي ولا أمامك سبيل للنجاة من هذا الحكم، ما من طريق يمكننا من خلاله أن نبرهن على أننا لم نكن نشارك معاصرينا وجهات نظرهم، التي زعزعت الثقة بها. وما هو المعيار الذي سيطبقه التاريخ على ذلك المنظور؟ ماذا تعتقد؟ أفكار عباقرة عصرنا؟ أفكار الرجال العظام؟ كلا، على الإطلاق؛ فأولئك الذين سيجيئون بعدنا، ويقررون ما الذي كان يدور في أذهاننا سيتبنون معياراً قوامه أنماط التفكير غير النقدية التي يتبعها أصدقاؤك في فريق الكندو. وبتعبير آخر، فإنهم سيركزون على أكثر معتقدات زماننا بدائية ورواجاً. فكما ترى تم توصيف كل عهد على الدوام استناداً إلى مثل هذه الترهات وحدها.

لم يكن كيواكي على يقين من المسار الذي سيمضي فيه حديث هوندا، ولكن فيما كان يصغي شرعت جرثومة تفكير تنمو في ذهنه. الآن لاح عدد من زملائهما في الصف، في نوافذ حجرة الدراسة المفتوحة بالطابق الثاني، كانت نوافذ الحجرات الأخرى موصدة، عاكسة وهج شمس الصباح وألق زرقة السماء. كان ذلك مشهداً صباحياً مألوفاً. عندما فكَّر في أحداث الأمس، صبيحة العاصفة، أحس كأنما اجتذب رغماً عنه من رحاب عالم مظلم، قوامه الإثارة الحسية، إلى أفنية العقل الصافية المضيئة.

قال، وقد أحرجه عدم نضج ملاحظاته، بالمقارنة بما أدلى به هوندا، ولكنه كان أخيراً يبذل جهداً لمجاراة فكر الآخر.

ـ طيب. ذلك هو التاريخ. وبتعبير آخر، فأياً كان ما نفكر فيه أو نتطلع إليه أو نشعر به ـ هذا كله ليس له أدنى تأثير على مسار التاريخ. أهذا هو ما تعنيه؟

ـ تماماً، فالأوروبيون يعتقدون أن رجلاً مثل نابوليون يمكن أن يملي إرادته على التاريخ. ونحن معشر اليابانيين نفكر على النحو ذاته فيما يتعلق برجال من أمثال جدك ومعاصريه، الذين نفذوا إصلاح ميجي. ولكن أهذا صحيح حقاً؟ هل انصاع التاريخ لإرادة البشر قط؟ إن التطلع إليك يجعلني على الدوام أفكر في ذلك السؤال. إنك لست رجلاً عظيماً، ولست بالعبقري كذلك. ومع ذلك فلديك سمة تميزك عن غيرك: فليست لديك ذرة من قوة الإرادة. وهكذا يفتنني على الدوام التفكير فيك من منظور التاريخ.

ـ أتسخر مني؟

ـ كلا، على الإطلاق. إنني أفكر بمعايير المساهمة غير الواعية في التاريخ. فعلى سبيل المثال، لنقل إنني أتمتع بقوة الإرادة...

ـ إنك تتمتع بها حقاً.

ـ لنقل إنني أرغب في تغيير مجرى التاريخ، وإنني أكرِّس كل طاقاتي ومواردي لتحقيق هذه الغاية، وأستغل كل ذرة قوة متاحة لي لإخضاع التاريخ لإرادتي، لنقل إنني أحظى بالمكانة والسلطة الضروريتين لتحقيق ذلك. إن أياً من هذا لن يضمن أن التاريخ سيمضي بحسب مشيئتي. ثم من ناحية أخرى، فربما بعد قرن أو قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان قد ينحرف التاريخ فجأة ليأخذ مساراً يتفق مع رؤيتي ومثلي العليا، وذلك دون أن يكون لي شأن على الإطلاق بذلك، لربما يتخذ المجتمع شكلاً، هو تجسيد دقيق لأحلامي قبل قرن أو قرنين. والتاريخ، إذ يستمتع بالمجد

الجديد الذي كان حلمي، سيبتسم لي بتنازل فاتر، ويسخر من طموحي. وسيقول الناس: «طيب، ذلك هو التاريخ».

تساءل كيواكي:

ـ لكن هناك شيئاً يدعى كون الوقت ملائماً لكل شيء. أليس كذلك؟ لقد حلّ أوان حلمك. هذا هو كل ما في الأمر. قد لا يستغرق الأمر للوصول إلى ذلك قرناً من الزمان، وإنما يقتضي ثلاثين أو خمسين عاماً، ذلك أمر غالباً ما يحدث، وربما بعد موتك تستخدم إرادتك كمرشد خفي، لا يحيط أحد به علماً، ذلك من شأنه المساعدة في إنجاز ما أردته طول عمرك. ربما لو لم يوجد إنسان مثلك على قيد الحياة لما شق التاريخ مثل هذا المنعطف قط، مهما طال مداه.

على الرغم من أن مثل هذه التجريدات الفاترة التي لا تناسب طبيعة كيواكي كانت بالنسبة له صراعاً، إلا أنه دفعه دفء ما، انفعال كان يعلم أن عليه أن يعزو فضله إلى هوندا. تردد في الإقرار بالشعور بالاغتباط لوروده مثل هذا النبع. ولكنه فيما كان يتطلع في أرجاء أراضي المدرسة، التي كساها الجليد، بفروع أشجارها العارية من الأوراق، التي تلقي بالظلال على أحواض الزهور، التي كساها الجليد، والصوت الصافي لتقاطر الماء ينساب في مسمعه، أدرك أنه سعيد لأن هوندا قد بدأ هذا النقاش. وعلى الرغم من أنه من المحتم أنه قد علم أنه لا يزال منغمساً في ذكرى السعادة والغبطة النابعة من الأمس، فإن هوندا قد اختار تجاهل الأمر، وهو قرار بدا أنه يناسب صفاء الثلج حولهما. وفي تلك اللحظة انزلق بعض منه، منحدراً من السقف، معرِّياً بضع أقدام مربعة من القرميد المبلل، المتألق باللون الأسود.

واصل هوندا حديثه:

ـ وهكذا، إذا غدا المجتمع على نحو ما أردته أن يكون بعد مائة عام،

فإنك تدعو ذلك إنجازاً؟

ـ لا بد أنه كذلك.

ـ إنجاز من؟

ـ إنجاز إرادتك.

ـ إنك تهزل. لسوف أكون في رحاب الموت. كما قلت لك لتوي، سيحدث هذا دون أن يكون لي أي شأن به.

ـ طيب. ألا يمكنك القول إذن بأنه إنجاز إرادة التاريخ؟

ـ «إذن فللتاريخ إرادة، هه؟ من الخطورة بمكان دائماً القيام بشخصنة التاريخ. وبالنسبة لي، فليس للتاريخ إرادة ذاتية، وفضلاً عن ذلك فإنه لا يكترث أدنى اكتراث بإرادتي كذلك. وهكذا فإذا لم تكن هناك أي إرادة ضالعة في هذه العملية فلا يمكنك الحديث عن إنجازات. وكل ما يسمى بإنجازات التاريخ يبرهن على ذلك، فما أن يتم تحقيقها حتى تشرع في التداعي منهارة. فالتاريخ هو سجل الدمار. وعلى المرء دائماً أن يفسح المجال للبلورة المقبلة التي لا تدوم إلا يوماً واحداً؛ ذلك البناء والتحطيم يعنيان الشيء نفسه بالنسبة للتاريخ.

ـ أدرك هذا تمام الإدراك. وعلى الرغم من فهمي له، إلا أنه ليس بمقدوري أن أكون مثلك، وأكف عن كوني رجل التصميم، أحسب أنها ربما كانت قوة لا تقاوم في شخصيتي، لا أحد يمكنه التيقن، لكني أقول ما يلي: إن جوهر أي إرادة هو الرغبة في التأثير في التاريخ، لست أقول بأن رغبات البشر تؤثر في التاريخ، وإنما ما أقوله هو أنها تحاول فقط التأثير فيه، ثم هناك أيضاً بعض أشكال الإرادة التي ارتبطت بالقدر، حتى على الرغم من أن هذا المفهوم هو بمثابة لعنة للإرادة. ولكن في المدى الطويل، كل إرادة بشرية مقضي عليها بالإحباط. إنها مسألة متعلقة بطبائع الأشياء

أن تصير الأمور إلى عكس مقاصدك. وما هو الاستنتاج الذي يصل إليه الإنسان الغربي من هذا؟ إنه يقول: «لقد كانت إرادتي هي القوة العقلانية الوحيدة المندرجة في الأمر، ولم يأت الفشل إلا صدفة».

- إن الحديث عن الصدفة هو سلب لأي إمكانية لأي قانون قوامه السبب والنتيجة. فالصدفة هي اللاعقلانية الأخيرة التي يمكن للإرادة الحرة القبول بها دون مفهوم الصدفة، كما لعلك تدرك، ما كان يمكن أن تقوم قائمة للفلسفة الغربية الخاصة بالإرادة الحرة، فالصدفة هي الملاذ الجوهري للإرادة، وبدونها ستكون فكرة المقامرة ذاتها شيئاً لا يخطر على البال، تماماً كما أن الإنسان الغربي ليست لديه طريقة أخرى لعقلنة الانتكاسات والاحباطات التي يتعين عليه أن يتحملها. وأعتقد أن مفهوم الصدفة هذا، المقامرة، هو جوهر إله الأوروبيين، وهكذا فإن لهم رباً تستمد سماته من ذلك المأوى البالغ الأهمية للإرادة الحرة، أي الصدفة - النوع الوحيد من الآلهة الذي يمكن أن يلهم حرية الإرادة الإنسانية.

ولكن ما الذي يحدث لو أننا أنكرنا وجود الصدفة كلية؟ ما الذي يقع إذا اضطررت - بغض النظر عن النصر أو الهزيمة - لأن تستعبد تماماً كل دور محتمل للصدفة في الأمر؟ في هذه الحالة ستقضي على كل ملاذ للإرادة الحرة. استبعد الصدفة، فتجد نفسك تقوّض الدعائم، التي يستند إليها مفهوم الإرادة. تصوّر مشهداً مثل هذا: إنه ميدان عام عند الظهيرة. والإرادة تقف هنالك وحيدة تماماً. إنها تتظاهر بأنها تظل مستقيمة الظهر، بفضل قوتها الذاتية، ومن ثم فإنها تواصل خداع ذاتها، الشمس تلهبها بسياطها، لا أشجار، لا نجيل، لا شيء على الإطلاق، في الميدان الهائل، يؤنس وحدتها، اللهم إلا ظلها. وفي تلك اللحظة، يدوي صوت راعد، متدفقاً

من السماء العارية من السحب في الأعالي: «الصدفة ماتت. ليس هناك شيء اسمه الصدفة، أصغي إليّ أيتها الإرادة، لقد فقدت نصيرك إلى الأبد». وبتلك الكلمات تشعر الإرادة بأن مادتها تتداعى، وتنحل. يتحلل لحمها، ويتهاوى. وفي لحظة يتعرى هيكلها العظمي، ينسرب سائل رقيق منه، فتفقد العظام ذاتها صلابتها، وتشرع في التحلل. لا تزال الإرادة واقفة، غارسة قدميها بثبات في الأرض، لكن هذا الجهد الأخير يمضي بلا طائل، ففي تلك اللحظة عينها تنشق السماء الساطعة المتألقة مصدرة ضجة رهيبة، ويطل إله الحتمية محدِّقاً من الصدع. لكني لا أستطيع مقاومة محاولة استحضار وجه قبيح لهذا الإله الرهيب، ويعود هذا الضعف دونما شك لميلي إلى النزعة التطوعية. ذلك أنه إذا كفت الصدفة عن الوجود فإن الإرادة ستصبح مجردة من المعنى، ولا تزيد أهميتها عن نقطة صدأ على السلسلة الهائلة للسبب والنتيجة، التي لا تلمحها إلا بين الحين والآخر فحسب. إذن فهناك طريقة واحدة للمساهمة في التاريخ، وتلك هي ألاّ تكون لنا إرادة على الإطلاق، أن نعمل فحسب. باعتبارنا ذرة متألقة جميلة، خالدة، ولا تعرف التغير. لا ينبغي لأحد أن يتطلع إلى أي معنى آخر في الوجود الإنساني. ليس من المحتمل أن تنظر إلى الأمور بهذه الطريقة. ما كنت لأتوقع أن تؤمن بمثل هذه الفلسفة ـ والأشياء الوحيدة التي لك أي إيمان بها ـ وهو إيمان لا يصاحبه الكثير من التفكير ـ هي مظهرك الحسن وحالاتك المزاجية المتقلبة وفرديتك، وليس شخصيتك الثابتة، وإنما على العكس من ذلك الافتقار إليها ذاته. أعلى حق أنا؟»[1].

---

(١) ليس هذا الطرح إلا نموذجاً آخر للاستطرادات، التي أشرنا إليها في هامش سابق. ولكن يلاحظ هنا، بصفة خاصة، أن العديد من الأفكار الواردة هنا ليست إلا تكراراً لأفكار ميشيما، الواردة في كتابه «شمس وفولاذ»، الذي يوصف بأنه سيرة =

لم يستطع كيواكي تدبر أمر رد يطرحه. ولافتقاره لأي شيء أفضل من ذلك، ابتسم، مدركاً أن هوندا لا يحاول إهانته.

ـ وذلك بالنسبة لي هو اللغز الأعظم.

قالها هوندا، متنهداً بلهفة بالغة، حتى لقد بدا الأمر فكاهياً. غدا هو نفسه سحابة ثلجية، تحوّم لثانية في هواء الصباح الصافي، ولاحت لكيواكي تجسيداً سرياً لقلق هوندا عليه. فتكثف في أعماقه شعوره بالسعادة.

قرع الجرس ليعلن بدء حصص الدراسة، فنهض الشابان واقفين. وعندئذ قبض أحدهم بعضاً من الثلج المتراكم على أطر نافذة الطابق الثاني، وألقى بكرة ثلج، فأصابت الدرب عند أقدامهما، في انبثاقة من الشظايا المتألقة.

= الحياة الروحية الذاتية لميشيما. وهذا الكتاب، الذي لا يتجاوز عدد صفحاته، في الطبعة الانجليزية، ١٠٧ صفحات، يعد من الكتب شديدة الأهمية لميشيما، والضرورية لفهمه (هـ. م).

- ١٤ -

كـان والد كيـواكي قد عهـد إليه بمفتـاح المكتبـة، التي تقـع في ركن من الجانب الشمالي للدار الـرئيسية، وهي من غـرف آل ماتسـوجاي التي تلقى اهتماماً محدوداً؛ فما كـان الأمير ليكـرس طويـل وقت للكتب، ولكن هاهنـا تجمعت الكتب الصينيـة الكلاسيكيـة، التي كانت لجـد كيـواكي، والكتب الغربية التي طلبها الأمير من ماروزين، استجابة لرغبتـه في أن يبدو مثقفـاً، وعديد غيرها تلقاها هدايا. عندما بـدأ كيواكي دراسته الثانـوية سلّمـه أبوه المفتـاح، بفخار من يعهـد بأمـانة كنـز، قـوامـه مجمـوعـة نفيسـة من كتب الحكمة. وهكذا، حظي وحده بامتياز الذهاب إلى هناك، وقتما يشاء. ومن بين أقل الكتب الموجودة في المكتبة احتمالاً لإثارة اهتمام الأمـير كانت هنـاك مجموعات عديدة من الكلاسيكيات اليابانية وكتب الأطفال. وقبل إصدارها كان كل من ناشريها قد طلب توصية موجزة من الأمير، جنبـاً إلى جنب مع صـورة له بـالزي الـرسمي، ومقابـل امتياز طبـاعة كلمات «أوصى بـه سمو الأمير ماتسوجاي» بحروف مذهبة على الغلاف الجلدي لكل كتـاب، كانـوا يهدون المجموعات إليه.

لم يكن كيواكي نفسه يميل إلى الاستخدام المتواتر للمكتبـة، حيث فضل أحلام يقظته على الكتب. أما بالنسبة لإينوما، الذي كان كيواكي يدفع إليه بالمفتاح مرة كل شهر؛ ليتمكن من تنظيف الغـرفة، فقـد كانت المكتبـة هي المكان الأكثر قداسة في الدار، وتستمد حرمتها، إن صح القول بذلك، من الكـلاسيكيات الصينيـة الأثيرة لـدى جد كيـواكي. وحينما يـرد ذكرهـا على

لسانه ما كان ليشير إليها بحسبانها المكتبة فحسب، وإنما كانت على الدوام «مكتبة سمو المرحوم»، وحينما ينطق بهذه الكلمات، يختنق صوته لفرط الانفعال.

في المساء، بعد تصالح كيواكي مع هوندا، استدعى معلمه إلى هذه الغرفة، فيما كان إينوما يوشك على الانطلاق إلى دروسه الليلية، ووضع مفتاح المكتبة في يده، دون أن تندّ عنه بنت شفة. كان هناك يوم محدد لعملية التنظيف الشهرية. فضلاً عن ذلك، فقد كانت تلك مهمة لا يقوم بها إينوما ليلاً على الإطلاق؛ فراح يتساءل عن السر في إعطائه المفتاح الآن، في يوم غير صحيح، وفي المساء، فضلاً عن ذلك. قبع المفتاح على راحة يده الثقيلة، الخشنة، فبدا أزرق اللون، معدنياً، كأنه يعسوب تمزق جناحاه.

فيما بعد، سيستعيد إينوما ذكرى هذه اللحظة، مراراً وتكراراً، لشد ما بدا المفتاح ممزقاً، وعارياً، مثل جسم انتهب انتهاباً، وهو قابع في راحة يده. وقف للحظة محاولاً تقرير معناه، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. وعندما أوضح كيواكي له جلية الأمر، في نهاية المطاف، اتقد بغضب لم يوجه إلى سيده بقدر ما كان موجهاً إلى نفسه؛ لكونه تحت رحمته.

ـ صبيحة الأمس لم أذهب إلى المدرسة، ووقفت إلى جانبي. أما الليلة فقد حان دوري لمساعدتك. اخرج كما لو كنت تغادر الدار إلى المدرسة، ثم امضِ إلى الخلف، وادخل من الباب المواجه للمكتبة. سيفتح هذا المفتاح باب الغرفة، وبمقدورك الانتظار بداخلها، ولكن لا توقد النور. وأسلم سبيل هو غلق الباب من الداخل. لقد أصدرت تاديشينا تعليمات كاملة إلى مايني. لسوف تتصل بها لتبلغها رسالة موجهة لها، تسألها فيها عن موعد الفراغ من كيس الذرور المعطر الخاص بها. ستكون تلك هي الإشارة، فمايني حاذقة في مثل هذا العمل الدقيق، والناس دائماً يطلبون

منها القيام بشيء من هذا القبيل، وقد طلبت الآنسة ساتوكو منها صنع كيس ذرور مقصَّب بالذهب. وهكذا، فإن مثل هذا الاتصال الهاتفي لن يثير أدنى ريبة. وما إن تتلقى ماريني الرسالة، حتى تنتظر الوقت الذي يفترض أنك ستغادر فيه الدار إلى المدرسة، ثم تمضي إلى المكتبة، وتطرق الباب في رفق، آملة أن تفتحه لها. وبما أن الوقت سيكون بعد تناول طعام العشاء مباشرة، حينما ينشغل الجميع، فلن يفتقدها أحد لثلاثين أو أربعين دقيقة. تعتقد تاديشينا أن لقاءكما في الخارج سيكون أمراً بالغ الخطورة، وصعب الترتيب؛ إذ سيتعين انتحال جميع أنواع الأعذار لخروج وصيفة وحدها دون أن يتقول الجميع عليها. وعلى أية حال، فقد أتحت لنفسي حرية تقرير الأمر، دون مشاورتك. ستتصل تاديشينا الليلة بمايني؛ لذا عليك بالذهاب إلى المكتبة، أما إذا لم تذهب فإن مايني ستشعر بضيق بالغ.

فيما إينوما يقف مصغياً، وكأنما هو دب وقع في ورطة، أخذت الرجفة يده بعنف بالغ، حتى كاد المفتاح يسقط منها.

* * *

كانت المكتبة باردة للغاية، وتسرب عبر الستائر الثقيلة، المقصَّبة بالذهب، قليل من الضوء، صادر عن المصابيح المضاءة في الحديقة خلف الدار، لكنه لم يكن من الوفرة بحيث يسمح للمرء بأن يتبين عناوين الكتب. حفلت الحجرة برائحة العفن الفطري، شأن الرائحة التي تجثم على ضفتي قناة مسدودة في الشتاء.

لم تشكل الظلمة عقبة بالنسبة لإينوما، فقد استظهر مكان كل كتاب على وجه التقريب في المكتبة. فاصطفت أعمال من كتابات هان فاي ـ تزو

الموسومة «شهادة سايكين» و «الحوليات الثماني عشرة» على الأرفف، بما في ذلك نسخة يابانية التجليد من كتاب «شروح على الأعمال الكلاسيكية الأربعة»، الذي فقد غلافه الذي يحميه. وكان هذا كتاباً قلّبه جد كيواكي مرات عديدة، حتى بلي جلده.

ذات يوم، وفيما إينوما يقلّب صفحات أحد الكتب التي عكف على إزالة الغبار عنها لفتت نظره قصيدة من نظم كايو هونين. كانت متضمنة في مجموعة من الأعمال اليابانية والصينية الشهيرة، واستظهر إينوما المكان بحرص. وكان العنوان هو «أنشودة فؤاد نبيل». وكان مقطع من القصيدة يبعث العزاء في قلبه، بصفة خاصة، وهو يؤدي واجباته في تنظيف المكتبة:

رغم أني عاكف على تنظيف غرفة صغيرة،
فما أنا بالذي يبقى على هذا الحال للأبد.

أيمكن لكايوشو أن تستوعب طموحي؟

أبمقدور سرب من السنونوات المشقشقة
أن تشارك النسر طريقه الموحش؟

أدرك إينوما الآن جلية الأمر. فكيواكي، الذي يعرف توفيره العميق لـ «غرفة سمو المرحوم»، تعمد اختيارها مكاناً لهذا اللقاء. لا شك في هذا. فعندما أوضح له الخطة، التي أعدَّ لها، بمزيد من التدبر، كان الاغتباط البارد، الذي ينبع من أسلوبه، برهاناً كافياً، أدرك كل عواقبه، إذ كان يريد للأمور أن تمضي في سياقها، بحيث أن إينوما نفسه هو الذي يقترف الدنس في مكان يقدسه حد العبادة.

حينما أمعن إينوما التفكير في الأمر، أدرك أن وعيداً صامتاً قد قبع في أعماق كيواكي، منذ كان طفلاً جميلاً. ابتهاج في التدنيس! وعندما يقوم إينوما على هذا النحو بتلويث ما هو غال بالنسبة له، فإن كيواكي يبتهج كما

لو كان قد انتزع قطعة من اللحم النيء، وعلقها في قلادة شنتو مقدسة[1]. وفي العصور الأسطورية، كان الرب الوحشي سوسانو، شقيق ربة الشمس، يستشعر الاغتباط بالطريقة ذاتها.

منذ سلبت امرأة من إينوما ذاته، تزايدت إلى حد كبير سلطة كيواكي عليه. فضلاً عن ذلك ـ وكان الظلم المتضمن في هذا محيِّراً بالنسبة لإينوما ـ فإن العالم يتقبل على الدوام مباهج كيواكي باعتبارها أموراً جذابة وطبيعية، بينما يدين مباهج إينوما بقسوة وصرامة، لا تعرفان حداً، باعتبارها خسيسة، إن لم نقل دنسة. وفيما هو يفكر في هذا الأمر، تفاقمت باطّراد كراهيته لنفسه.

تناهى من سقف المكتبة صوت الفئران، وهي تعدو مسرعة، وصراخها الحاد المكتوم، بين الفينة والأخرى. عندما قام بالتنظيف في الشهر الماضي، نشر الكثير من الكستناء المسموم هناك، ولكن ذلك، فيما يبدو، كان بلا طائل. فجأة أخذته الرعدة، حينما تذكر ما يرغب أشد الرغبة في نسيانه.

في كل مرة يرى محيا مايني، كانت الخاطرة الشريرة ذاتها تنتفض في ذهنه، مهما حاول قمعها. وحتى الآن، فيما جسمها الدافىء يوشك على ملاقاته، في غبش المساء، وقفت هذه الخاطرة حائلاً بينهما. كانت تدور

(١) المراد ارتكاب عمل تدنيسي بالغ من منظور طقوس الشنتو، وقد أظهر ميشيما بجلاء كبير في روايته «معبد السرادق الذهبي»، أولاً، ثم عبر «بحر الخصب»، أساساً، مدى تعمقه في فهم التقاليد والطقوس الشنتوية. ورغم أن ملاحظاته في هذا الشأن، وفي أسرار البوذية، تبدو شديدة الغموض والتعقيد للقراء، في مختلف أرجاء العالم، بما في ذلك العالم العربي، فإن ذلك لا يرجع إلى أنه يطرح أحجيات أو نظريات عسيرة، وإنما يرجع إلى الافتقار شبه الكلي تقريباً لدى القارىء لخلفية، من أي نوع، عن هذه الموضوعات. فما يطرحه ميشيما، رغم شكوى النقاد المريرة منه، في هذا الصدد، ليس إلا خطوطاً عريضة في الفكر البوذي، وخاصة في تقاليده اليابانية (هـ. م).

حول شيء ربما ألمّ به كيواكي بالفعل، ولكن إينوما، بما أنه لم يذكره له قط، لزم الصمت بشأنه. وكان هذا الأمر بـالفعل سـراً يلم به الكثـيرون، الأمر الذي جعل كرب إينوما حياله عسير الاحتمال. عذّبه أشد التعـذيب، كأنمـا حشد من الفئران يغمره بكل قذارته. فقـد كان الأمـير يضاجـع مايني، ولا يـزال يضاجعهـا بين الحـين والآخر. أطلقت الفئران في السقف، بـأعينهـا القادحة شرراً، وأبدانها الكريهة، لخياله العنان. . .

كان البرد قارصاً. وبغض النظر عن شجاعة إينوما، البادية لدى انطلاقه لأداء صلواته اليومية، فقد أخذته الرجفة الآن، عنـدما لـطم البرد ظهـره، وزحف متخللاً بدنه، حتى كسا جلده، كأنـه كمّادة ثلجيـة. لربمـا تأخـرت مايني إلى أن تتاح فرصة النهوض عن المائدة، دون لفت انتباه أحد.

فيـما هو ينتـظر، تصاعـدت رغبته حـادة وملحـة، ثم تحـالفت كتلة من المشاعر المنفرة مع الـبرد المتخلل للعظام ورائحـة التحلل لتهاجم أعصـابه، التي غدت مشدودة بالفعل. راوده شعـور بأنـه يغوص كـأنما ميـاه المجاري الراكدة ترتفع، متصاعدة على قدميه، ملطخة هـا كـامـاه الحريـرية البـديعة. راح يحدّث نفسه، قائلاً: «أهذه طريقتي في الوصول إلى اللذة؟»

ـ أهي طريقة رجل في الرابعة والعشرين من العمر، جدير بـأعظم قـدر من الشجاعة، ومؤهل لنيل أسمى آيات التكريم؟

ترددت طرقة خفيفة على الباب، استجاب لها إينوما بسرعة بالغـة، حتى أنه ارتطم على نحو مؤلم بخزانة كتب. غـير أنه، في نهايـة المطاف، أفلح في إعمال المفتاح في القفل. التفتت مايني قليـلاً، وانسلت عبر البـاب. عندمـا أوصد إينوما الباب، وأحكم إغلاق القفل وراءها، أمسك بكتفيها، ودفعها على نحو تعوزه الكياسة نحو مؤخرة المكتبة. أياً كان السبب في ذلـك، فقد تركز ذهنه على الثلج الأشهب الملطخ، الـذي رآه منقولاً ومـراكماً في أكـوام

خارج جوار المكتبة، في طريق قدومه إليها. وعلى الرغم من أنه لا وقت لديه ولا ميل للتكهن فيما يتعلق بهذا الأمر، فإنه كان مستغرقاً في احتياجه إلى ولوج مايني، عند الركن الذي كان الأقرب إلى الثلج الملطخ.

دفعته تصوراته الخيالية إلى حد الضراوة، فكان وحشياً مع الفتاة. وكلما أشفق عليها، ازداد قسوة معها. وعندما أدرك، في قلب الأمر بأسره، أن ضراوته معها كانت رغبة في الثأر لنفسه من كيواكي، غلبه شعور بالبؤس، يستعصي على الوصف. وبما أن الوقت كان محدوداً، والصمت ضرورة ملحة، فقد تركته مايني يفعل ما يعن له، دون أن تقاومه. ولكن خنوع تقبلها للأمر لم يزده إلا عذاباً على عذاب؛ ذلك أن أسلوبها الرقيق أفصح عن تفهمها لذاته باعتباره شخصاً مماثلاً لها إلى حد بعيد.

ورغم ذلك، فلم يكن هذا هو السبب الوحيد وراء إذعانها الهادىء. كانت مشوّشة على نحو مرح. وبالنسبة لها كان الارتباك التام الذي يسود طريقته ـ محاولته إخافتها، بصمته، ويديه المرتبكتين المتخبطتين ـ يبرهن على الطابع الحقيقي لرغبته. لم تحلم قط بأنه ربما كان يشفق عليها.

فجأة، أحست مايني، وهي راقدة هنالك في الظلمة، بالبرد كأنه طعنة سيف تحت كيمونوها المبسوط. تطلعت في العتمة، فلمحت الرفوف المثقلة بالكتب، وقد وضع كل منها في خزانته، وأطفأ كرّ الأيام بريق الذهب في عناوينها. بدا أنها تطبق عليها من كل الجهات. كانت السرعة أمراً ضرورياً، وقد أطلعتها تاديشينا على كل شيء، وصولاً إلى أدق التفاصيل، بحيث يكون الأمر واضحاً في كل جوانبه، وكان كل المطلوب منها، في هذه البرهة الخاطفة، أن تتصرف دونما تردد. نظرت إلى دورها باعتباره دور من هي على استعداد لتهب جسمها، دونما مقابل، لتواسي وتهدىء. وقد كان هذا كافياً بالنسبة لها. وابتهج جسمها الدقيق، الناضج، بلحمه المتماسك، وجلده الأملس الخالي من العيوب، بأن يمنح الغبطة.

ليس من قبيل المبالغة القول بأنها مولعة بإينوما. وحينما يرغب أحدهم فيها كانت تملك الموهبة العجيبة المتمثلة في اكتشاف الجوانب الطيبة فيمن يسعى وراءها. لم تشارك الخادمات الأخريات قط في سخريتهن الوضيعة من إينوما، وهكذا فإن رجولته، التي تعرضت طويلاً للمضايقة والهزؤ، تلقت أخيراً ما تستحقه في فؤادها الأنثوي.

فجأة، تراءت لها لمحة حالمة من إجازة في أحد المعابد بالمهرجان الحافل الذي يقام فيها: أضواء مصابيح الأسيتيلين بوهجها ورائحتها الحادة، والبالونات، ودواليب الهواء، والحلوى ذات الألوان المرحة...

فتحت عينيها في الظلمة.

تساءل إينوما، في ضيق:

ـ فيم تحدقين؟

كانت الفئران تنطلق مسرعة في السقف، مرة أخرى، وحركتها صامتة، على وجه التقريب، غير أنها تحمل ما ينم عن التعجل اليائس. بدا أنها تندفع في ذعر، عبر مملكتها المظلمة، في ضيق واهتياج، يلقيان بها من طرف إلى آخر.

- ١٥ -

كان كل البريد، الذي يتلقاه أهل دارة ماتسوجاي، يعالج وفق طقس ثابت، لا يتغير: فقيِّم الدار، يامادا، يتولى مسؤوليته، ويرتبه، على نحو منسق، على صحفة مطلية باللك الذهبي، نقش عليها شعار العائلة، ثم تحمل هذه الصحفة إلى حضرة الأمير والأميرة. وبما أن ساتوكو كانت على علم بهذا الإجراء، فقد لجأت إلى إجراء احترازي، حيث عهدت برسالتها الموجزة إلى تاديشينا، التي كان عليها بدورها أن تعطيها لإينوما.

وهكذا، حدث أن إينوما، في قلب استعداده لامتحاناته النهائية، وجد ما يكفي من الوقت للقاء تاديشينا أولاً، ثم سلم رسالة ساتوكو العاطفية إلى كيواكي:

«على الرغم من أن الصباح الذي أعقب تلك العاصفة الثلجية كان صافياً ومشرقاً، لم أستطع منع نفسي من التفكير فيما وقع بالأمس. بدا في فؤادي كما لو كان الثلج لم يعرف التوقف، وإنما واصل الهطول. ولاحت ندف الثلج كما لو كانت تتوحد، متخذة صورة محيا كيو. كم وددت لو كان بمقدوري أن أحيا في مكان ما يتساقط فيه الثلج، كل يوم من أيام العام، حتى لا أكفَّ أبداً عن التفكير فيك، يا كيو!

«لو أننا كنا نحيا في العصر الهاييني، لنظمت قصيدة من أجلي. أليس كذلك؟ ولتعينَّ عليّ أن أرد عليك بقصيدة من نظمي. يصدمني أنه على الرغم من أنني منذ طفولتي أتعلم نظم قصائد «الواكا»، فإنني في وقت كهذا

ليس بمقدوري نظم قصيدة واحدة، تعبيراً عن مشاعري. أيرجع هذا إلى افتقاري للموهبة؟

«لماذا تعتقد أنني على مثل هذا القدر من السعادة؟ أو قد سعدت لأنني وجدت إنساناً عطوفاً؛ بحيث لا يستشعر الضيق من جراء ما أقوله أو آتيه مهما كان تقلبهما؟ لسوف يكون هذا مساوياً للقول بأنني أحسب أنني اتمتع بمعاملتي لكيوعلى نحو ما يحلو لي ـ وما من شيء يمكن أن يسبب لي ألماً أعظم من أن أعرف بأنك تصدق هذا.

, كلا، إن ما يجعلني سعيدة حقاً هي رقتك، فقد استطعت إدراك جوهر تلك الرغبة الطارئة، التي عنّت لي بالأمس. تمكنت من أن تدرك مدى اليأس، الذي استشعرته، دونما علم من أحد، ودونما كلمة لوم واحدة، جئت معي، في تلك النزهة عبر الثلج، وحققت الحلم الذي دفنته في أعماقي، بمثل هذا الحرج. هذا هو ما أعنيه برقتك.

كيو، حتى الآن، وفيما أتذكر ما حدث، أشعر برجفة البهجة والخجل تأخذ بدني. هاهنا، في اليابان، ننظر إلى روح الثلج باعتبارها امرأة ـ جنية الثلج. ولكني أذكر أنني قرأت، في الحكايات الخرافية الغريبة، أن روح الثلج دائماً شاب أنيق. وهكذا فإنني أفكر في كيو باعتباره روح الثلج، متألق الرجولة في زيك المدرسي. أفكر فيك وأنت تتغلب عليّ، أن أحس بنفسي ذائبة في حسنك ومتجمدة حتى الموت في الثلج ـ ما من مصير يمكن أن يكون أحلى من هذا».

في نهاية الرسالة كتبت «أرجو أن تكون من اللطف بحيث لا تنسى إلقاء هذه الرسالة إلى النار».

حتى السطر الأخير، كان الأسلوب رقيقاً رشيقاً، ذلك أن ساتوكو، ما كانت لتعبر عن نفسها إلا بأسلوب رائع. ومع ذلك فقد انزعج كيواكي

حيال الجبروت الحسي، الذي راح يتوهج هنا وهناك.

بعد أن قرأ الرسالة، كان رد فعله الفوري هو أنها من نوعية الرسائل التي ينبغي أن تحلّق بالرجل إلى آفاق النشوة. غير أنه، لدى تأمله للأمر، بدت الرسالة له أقرب إلى تمرين مدرسي في فصول ساتوكو، التي تدرس فيها التأنق اللفظي. أحس بأنها رغبت في تعليمه ذلك التأنق اللفظي، حتى ولو دهست في طريقها إلى ذلك أي سؤال يتعلق بما يليق أو مالا يليق.

لئن كانا قد وقعا أحدهما في حب الآخر حقاً، في ذلك الصباح الثلجي، فكيف أمكنهما أن يدعا يوماً ينقضي دون أن يلتقيا، ولو للحظة أو للحظتين؟ من الذي يمكن أن يكون طبيعياً أكثر من هذا؟ ومع ذلك، فلم يكن بكيواكي ميل إلى اتباع أهوائه على هذا النحو. من الغرابة بمكان أن عيش المرء من أجل انفعالاته، مثل راية تميل حيثما مال النسيم، يقتضي طريقة حياة تجعل المرء يتذمّر من المسار الطبيعي للأحداث؛ لأن هذا يتضمن كون المرء خاضعاً للطبيعة كلية. فحياة الانفعالات تأبى كل الضوابط، مهما كان مصدرها، وهكذا، ويا للمفارقة، فإن هذه الحياة تكون بالفعل عرضة لتقييد شعورها الغريزي بالحرية.

أجّل كيواكي رؤية ساتوكو مرة أخرى، وإن لم يكن ذلك رغبة في ممارسة نكران الذات، إذ كانت تدفعه على نحو أقل المعرفة العميقة بدقائق العاطفة التي لا يدركها إلا من تمرسوا بالحب. جاء سلوكه نتيجة لإدراكه الذي لم يكتمل لفن اللباقة، وكان بعيداً للغاية عن النضج، موشكاً على الوصول إلى تخوم الغرور، حتى أنه حسد ساتوكو على حريتها الصافية، بل وإطلاقها العنان لنفسها، فدُفع إلى الشعور بالدونية.

وكما يعود الغدير إلى مساره العادي، بعد الفيضان، شرع ولع كيواكي بالمعاناة يعيد تأكيد ذاته، من جديد. كان بمقدور طبيعته الحالمة أن تكون

ملحاحة، بقدر ما هي متقلبة، بحيث أنه شعر بالغضب والإحباط من جراء عدم وجود عقبات تعترض حبه. وقدمت المساعدة الفضولية التي أتاحها إينوما وتاديشينا هدفاً جاهزاً للنيل منه، فأصبح يرى في مناوزاتهما أموراً ضارة بنقاء مشاعره.

جُرحت كبرياؤه عندما أدرك أن هذا هو كل ما لديه ليعتمد عليه، فيما ألم وعذاب الحب الوحشيان يتطاولان. ومثل هذا الألم يتعين أن يكون مادة ملائمة لنسج نسيج رائع التصاوير، ولكن كيواكي لم يكن لديه إلا نولٌ بيتيّ صغير ولا شيء تحت يده إلا غزلٌ أبيض خالص.

راح يتساءل: «إلى أين يمضيان بي في هذه اللحظة عينها التي أقع فيها في الحب تدريجياً وعلى نحو أصيل؟».

ولكن حتى فيما قرر أن ما يستشعره هو الحب، فإن طبيعته المعاكسة تؤكد نفسها من جديد.

بالنسبة لشاب عادي، كان حرياً بذكرى قبلة ساتوكو أن تغدو كافية لرفعه لذرى نشوة من الفرح والبهجة. أما بالنسبة لهذا الشاب، الذي كان الرضا من منظوره وضعاً مبتذلاً للغاية، فقد كانت ذكرى تسبب له ألماً أعظم، في فؤاده، مع كل يوم ينقضي.

بغض النظر عن أي شيء آخر يمكن أن يكون حقيقياً، فإن السعادة التي استشعرها في تلك اللحظة لها النار المتألقة التي تكمن في قرار جوهرة ثمينة. لم يكن هنالك شك في ذلك. فقد نقشت في ذاكرته نقشاً. في قلب صحراء جليدية مجردة من الشكل واللون، وفيما عواطفه تضطرم، ودون أن يدري كيف انطلق في هذه الرحلة أو كيف ينبغي أن تنتهي، كان الوهج الدافىء لتلك الجوهرة مثل طرف بوصلة.

تتزايد باطّراد شعوره بالتضارب بين ذكرى تلك السعادة وألم فؤاده

الـراهن، وتعمق تأثير هذا الشعـور في نفسه، فهـوى أخيراً إلى قـرار تلك الكآبة السوداء، التي كانت معروفة له تماماً من قبل. كفت هـذه القبلة عن أن تكون أي شيء آخر، يتجاوز تذكاراً آخر لسخرية ساتوكـو، التي تلحق به الهوان.

قرر أن يكتب رداً على رسالتها، يجعله بارداً، بقدر مـا يستطيـع، ومزق العديد من الأوراق، في غمار هذه المحاولة، مستهلاً عمله من جديد في كل مرة. وحينما دبج في نهاية المطاف ما ظنه الصيغة المطلقة لرسالة غرام مجـردة من المشاعر، ووضع جانباً ريشة كتابته، أدرك، فجأة، مدى إنجازه. فدون أن يقصد ذلك توصل إلى أسلوب رجـل حنّكته الـدنيا، بعـد أن استند إلى رسالة الاتهام التي سبق له أن بعث بها إليها. أمـا هذه المـرة فإن فكـرة مثل هذا الخداع الصرف ذاتها كانت مؤلمة للغاية حتى لقد استهل رسالة أخرى، وفيها، ودون أي محاولة للمواربة، نقل بهجة التقبيل للمرة الأولى. امتلأت الرسالة بعاطفـة صبيانيـة، أغمض عينيه، وهـو يضعها في مـظروف، ويمرر طرف لسانه على الجزء الخاص بـاللاصق، بـدا مذاق المـادة اللاصقـة حلواً على نحو غامض، كالدواء.

- ١٦ -

اشتهـرت ضيعة مـاتسوجـاي بتألقهـا الخريفي بـأوراق أشجار القيقب، لكن براعم كرزها كانت محط إعجاب الكثيرين كذلك، وقد تناثرت أشجار الكـرز وسط أشجار الصنـوبر، في صفـوف الأشجـار الـطويلة، التي تحيط بجانبي الطريق إلى البوابة الرئيسية، على امتداد مـا يزيـد عن نصف ميل. ويتجلى أفضل مشهـد أمام عيني المـرء، حينما يـطل من شرفة الـطابق الثاني بالدار الغربية، ويستطيع المرء، لدى وقوفه هنـاك، أن يرى بنـظرة كاسحـة كـل براعم أشجـار الكرز في الضيعـة، التي يتـألق بعضهـا عـلى الـطريق، والعديد منها بين أشجار الحنكة الهائلة في الحديقة الأمامية، والبعض يتحلق المرجة الصغيرة، التي أقيم فيها احتفال الأوتاتشيماتشي الطقـوسي لكيواكي، وقلة على تل القيقب، فيما وراء البحيرة. وقد فضّل العـديد من المشـاهدين الـذوّاقـة هـذا الـترتيب عـلى العـرض الجـارف للبراعم، متجمعـة في قلب حديقة.

في الفترة ما بين الربيع، حتى مطالع الصيف، تتمثل المناسبات الـرئيسية الثلاث، لدى دار ماتسوجاي، في مهرجان الدميـة، الذي يقـام في مـارس، ومشاهدة تبرعم الكرز، في أبريل، ومهرجان الشنتـو في مايـو. ولكن بما أن العام المقرر للحداد عقب وفاة سموه الأمبراطـوري لم ينقض بعد، فقـد تقرر أنـه في هذا العـام سيتم اقتضاب مهـرجاني مـارس وابـريـل إلى احتفـالـين عائليين على وجه الحصر، الأمر الذي خيَّب كثيراً ظن مشاعر نساء الـدار. ذلك أنه على امتداد الشتاء، وكما يحـدث كل عـام، تسربت شائعـات شتى

من دوائر كبار العاملين بالدار حول خطط تعدّ لمهرجان الدمية ومشاهدة التبرعم ـ كالرواية التي تقول إن فرقة من محترفات حفلات الترفيه سيتم جلبها إلى الدار. وقد حفلت الدار دوماً بمثل هذه الحكايات، مشكلة ذلك النوع من التكهن الذي يبعث الغبطة في نفوس البسطاء، الذين اعتادوا الاهتمام كثيراً بمقدم الربيع. وبدا أن إحباط توقعاتهم على هذا النحو إنما هو إحباط للربيع ذاته.

كان الاحتفال الكامل على طريقة كاجوشيما بمهرجان الدمية في ضيعة ماتسوجاي حدثاً مشهوداً. وبفضل الزوار الأجانب الممتنين، الذين جرت دعوتهم في السنوات الماضية، غدا هذا الاحتفال مشهوراً، في النماذج كذلك، بحيث أن عدداً كبيراً من الأميركيين والأوروبيين الموجودين في اليابان وقت الاحتفال يستخدمون كل ما يتمتعون به من نفوذ لمحاولة الحصول على دعوات لحضور الاحتفال.

تألقت الوجنات الشاحبة للدميتين العاجيتين، اللتين تمثلان الأمبراطور والأمبراطورة، في النور الربيعي الباكر، على الرغم من وهج الشموع المحيطة بهما، والانعكاس الصادر عن السجادة القرمزية تحتهما. ألبست الدمية، التي تمثل الأمبراطور، الثياب المراسيمية، الرائعة، المخصصة لكبير كهنة الشنتو، واكتست دمية الأمبراطورة ثوباً بلاطياً، بالغ الضخامة، ينتمي إلى العصر الهاييني. وعلى الرغم من كبر حجم الأردية، التي لا حصر لها، التي تكسو نصفيهما السفليين، فقد كانت الأردية التي تكسو جذعيهما تنحدر في رشاقة، عند الظهر، لتكشف عن الشفافية الشاحبة لمؤخرتي عنقيهما. وغطت السجادة القرمزية كامل امتداد الأرضية الهائلة لقاعة الاستقبال الرئيسية. وتدلت كرات خشبية بلا حصر ملتفة في قماش فخم التطريز من السقف ذي العروق الخشبية، وكست الجدران صور نافرة النقش لشتى أنواع الدمى الشعبية. أقبلت عجوز تدعى تسورد، طارت

شهرتها في إبداع هذا النوع من الصور، إلى طوكيو طوال فبراير لتكرس نفسها قلباً وقالباً للترتيبات، وتغمغم بردها المفعم تواضعاً: «كما ترغب سيدتي».

على الرغم من أن مهرجان الدمية قد غابت عنه هذا العام بهجته، إلا أن النساء سعدن لمقدم موسم مشاهدة ازدهار الكرز. لن يتم الاحتفال بهذا الموسم، على نحو حاشد، ولكن مع ذلك سيجري الاحتفال به بقدر يعتد به من المرح، يفوق ما دفعن في بداية الأمر إلى الاعتقاد به. وقد حلّق بهذا الأمل عالياً اتصال من سمو الأمير توين، تضمن الإعلان بأنه سيكبِّد نفسه عناء الحضور، على الرغم من أن ذلك سيتم بصفته الشخصية، لا الرسمية.

وقد أبهج هذا التطور الأمير ماتسوجاي، إلى أبعد الحدود؛ إذ كان يغدو في أسعد حالاته وسط آيات الترف والتفاخر، فيما كانت ضوابط المجتمع المخملي تثقل كثيراً على طبيعته المنطلقة، فإذا كان ابن عم الأمبراطور نفسه يرى أن من المناسب تبني نظرة معتدلة إلى مراعاة تقاليد الحداد، فإن أحداً لن يجرؤ على التقوُّل على إحساس الأمير ماتسوجاي بما تقتضيه الأخلاق الحميدة.

وبما أن سمو الأمير هارو هيساتوين كان الممثل الشخصي للأمبراطور في حفل تتويج راما السادس، وبالتالي كان معروفاً بشخصه للعائلة المالكة في سيام، فقد قرر الأمير ماتسوجاي أنه سيكون من اللائق توجيه الدعوة للحضور إلى الأميرين الشابين.

قبل سنوات طويلة، في باريس، وخلال أولمبياد عام ١٩٠٠، أصبح ماتسوجاي على علاقة بالغة الود مع الأمير توين، في غمار تقديمه خدمة قيمة له باعتباره دليلاً إلى حياة الليل في المدينة. وحتى الآن فإن توين مولع

باستعادة ذكرى تلك الأيام الخوالي بإشارات لا يفقه لها معنى إلا ماتسوجاي وحده. فيقول: «ماتسوجاي، أتذكر ذلك المكان ذا النبع الذي تتدفق منه الشمبانيا؟ تلك كانت ليلة لا تنسى!»

كان السادس من أبريل هو اليوم الذي تحدد للمشاهدة الرسمية لبراعم الكرز، وبمجرد انتهاء الاحتفال بمهرجان الدمية، الذي تم في حدود بالغة الضيق، ازدادت سرعة إيقاع الحياة في الدار، مع توالي الاستعدادات.

غير أن كيواكي لم يقم بشيء، على الإطلاق، خلال إجازة الربيع الخاصة به، واستحثه والداه على القيام برحلة إلى مكان ما، ولكن على الرغم من أنه لم يكن يرى ساتوكو في غالب الأوقات، فإنه لم يكن في حالة مزاجية يحبذ معها الرحيل عن طوكيو، بينما هي لا تزال فيها.

مع إقبال الربيع، وئيداً، يوماً بعد يوم، رغم البرد القارص، راح كيواكي يصارع سلسلة من الهواجس التي تثير القلق. وعندما أخذ ضيقه منه أخيراً كل مأخذ، قرر القيام بشيء لا يفعله إلا نادراً، حيث زار دار جدته في الضيعة. بدا أنها عاجزة عن تنحية عادة صحبتها طويلاً، هي معاملته وكأنه طفل وليد، وقد كان هذا إضافة إلى ولعها بتصنيف أخطاء أمه سبباً كافياً لتردده في زيارتها. ومنذ وفاة جده أدارت جدته، بكتفيها الرجوليتين ومحياها الذي لا يعرف الهزل، ظهرها إلى الدنيا تماماً، وما كانت لتتناول إلا حفنة من الأرز يومياً، كأنما هي تحيا في انتظار موت تأمل في قدومه. غير أنه فيما تبين ازدهرت صحتها على هذا النظام الغذائي.

حينما يأتي الناس من كاجوشيما لزيارتها كانت تحادثهم بلكنة موطنها، دون أن تبالي بما يدور في خاطر الآخرين، أما مع كيواكي وأمه فقد كانت تتحدث بأسلوب طوكيو، وإن كانت طريقتها في الحديث متصلبة ومرتبكة. وفضلاً عن ذلك، فبما أنها ما كانت لتتملك ناصية النغمة الأنفية لطريقة

حديث طوكيو، فإن سمة الانسياب القوي لصوتها كانت تبدو أكثر جلاء، وقد اقتنع بأنها تحافظ في حرص على لكنة كاجوشيما كإدانة ضمنية لتمكنه اليسير من تناغمات الصوت في لهجة طوكيو.

ـ إذن فالأمير تورين سيأتي لمشاهدة البراعم. هه؟

قالتها، دونما استهلال، فيما هو يلج القاعة. كانت تدفىء قدميها في «الكوتاتسو».

ـ أجل. هذا ما يقولونه.

ـ لست بذاهبة للمشاهدة. طلبت أمك مني ذلك، ولكني أفضل أن أكون هاهنا، بعيدة عن سبيل الجميع.

ثم مبدية قلقها حيال تكاسله، مضت تسائله عما إذا كان لا يشعر بالميل إلى تعلم الجودو أو اجتياز الحواجز. كانت هناك ذات يوم قاعة للتمرينات الرياضية في المزرعة، ولكنها هدمت لتفسح المجال للدار الغربية. وأدلت الجدة بتعليق ساخر على ذلك، قوامه أن هدم هذه القاعة كان علامة بدء انحدار العائلة. غير أن هذا الرأي كان متجانساً مع طريقته في التفكير، وقد أحب كلمة «انحدار».

ـ لو أن عميك كانا على قيد الحياة، لما مضى أبوك في سبيله، على ما هو الآن. وبقدر ما يعنيني الأمر، فإن هذه الألفة مع العائلة الأمبراطورية وصب المال صباً على الترفيه هو مجرد استعراض كبير. حينما أفكر في ولديّ اللذين لقيا حتفهما في الحرب دون أن يعرفا للترف معنى، أحس بأنني أرغب في ألا يكون لي شأن مع أبيك، وبقيتهم، وهم يمضون عبر الحياة طافين، دون أن يفكروا إلا في الكيمية التي يستمتعون فيها بوقتهم. أما فيما يتعلق بالمعاش الذي أتلقاه عن ولدي، فهذا هو السبب في أنني أضعه هناك

على الرف إلى جوار المذبح المنزلي دون أن أمسه. يبدو لي أن سموه الأمبراطوري يعطيني إياه لقاء ولديّ والدم الذي سفحاه بمثل هذه الجسارة. لسوف يكون من قبيل الخطأ إنفاقه.

استمتعت جدته بإلقائها لخطاب قصير من هذا النوع، ولكن الحقيقة هي أن أباه كان كريماً بلا حدود في إعطائها ما تريد، سواء أكان ملابس أو طعاماً أو إنفاقاً للمال أو خدماً. وغالباً ما تساءل كيواكي عما إذا كانت تخجل بشدة من أصولها الريفية، وبالتالي تحاول تجنب أي نوع من الحياة الاجتماعية الغربية.

ومع ذلك، فحينما يزورها، وعندئذ فحسب، كان يشعر بأنه يهرب من ذاته ومن البيئة المصطنعة التي تخنقه خنقاً. واستمتع بالتواصل مع إنسانة جد قريبة منه، لكنها في الوقت نفسه لا تزال تحتفظ بالقوة الأرضية لأجداده. كان سروراً من نوع مفارق تماماً.

كان كل ما يحيط بجدته في تناغم جسماني مع الصورة التي رسمها عن شخصيتها، فيداها كبيرتان، وأصابعها غليظة، وبدت خطوط وجهها كأنما أرستها هناك ضربات محنكة من فرشاة للكتابة، وشفتاها مطبقتان بإصرار حازم. غير أنها بين حين وآخر تبدي استعداداً للسماح لنغمة أكثر إشراقاً بالتسلل إلى أحاديثها معه. ففي الوقت الراهن، على سبيل المثال، راحت تربِّت على ركبة حفيدها تحت المنضدة الخفيفة التي تغطي مدفأة القدم، وهي تداعبه قائلة:

ـ لعلك تعلم أنك في كل مرة تجيء إلى هنا يعم الاضطراب النسوة القائمات على شؤوني، فما أعود أدري ماذا عساي أصنع بهن. وأخشى أنك، بالنسبة لي،لاتزال الصبي الصغير السائب الأنف، لكن أحسب أن هاته الفتيات ينظرن إلى الأمور بشكل مختلف.

تطلَّع كيواكي إلى صورة عميَّ الباهتة، في زييهما الرسميين، المعلقة على الجدار، بدا له أن زيَّيهما العسكريين يستبعدان أي رابطة محتملة بينهما وبينه. لقد انتهت الحرب قبل ثمانية أعوام فحسب، غير أن الهوة بينهما وبينه بـدت مستعصية على القياس.

حدَّث نفسه متباهياً، وإن لم يخـل الأمر من شعـور واهن بعدم اليقـين: «لن أسفح دماً حقيقياً قط، لن أجرح شيئاً، اللهم إلا الأفئدة».

في الخـارج تـألقت الشمس عـلى ستـار «الشـوجي»، فسبحت الغـرفـة الصـغيـرة في دفء حميم، وجعلته يشعر كـأنما هـو ملفوف في غـطاء هائـل من البياض المتألق، لا ينفذ منه شيء. وأحس كـما لو كـان مسترخيـاً، على نحو رائع، تحت سنا الشمس المباشر. شرع النعاس يداعب جفون جدته، فـأدرك، في غمار الصمت الـذي يلف الغرفـة، طنين سـاعـة هـائلة عتيقـة الطراز. انحنى رأس جدتـه إلى الأمام قليـلاً. نتـأ جبينهـا حـاداً تحت خط شعـرها القصـير، الذي كـان ملمومـاً، ومنثوراً عليـه ذرور صبغة سـوداء. لاحظ تألق جلدها بالصحة والعافية ؛ فحـدَّث نفسه بـأنه قبـل نصف قرن من الزمان كانت شمس كاجوشيما القوية تحيل بشرتها إلى اللون الخمري في كل صيف من أصياف شبابها، وبدا حتى الآن أنها قد احتفظت بتأثيره.

كان غارقاً في أحلام يقظته، وتحولت أفكاره متحركة كالبحر تـدريجياً من إيقـاع الأمواج إلى إيقـاع المرور الممتـد والوئيـد للزمن، ومن ثم إلى حتميـة الإيغـال في العمر ـ فكفَّ عن التنفس فجـأة. لم يكن قد سبق لـه أن تطلع من قبل قط إلى الحكمة وغيرها من الفـوائد التي يتبجـح بها، والتي تمنحهـا الشيخوخة. ترى هل يستطيع المـوت في ميعة الصبـا ـ وإذا كان ذلك ممكناً ـ أن يلقاه متحرراً من كل ألم؟ موت رشيق، مثل كيمونو فخم النقش، ملقى في إهمال على امتداد منضدة مصقولة ينزلق ناتئاً هابـطاً نحو ظلمـة الأرضية في الأسفل. موت موسوم بالتأنق والرفعة.

استحثته فكرة الموت على حين غرة بالرغبة في رؤية ساتوكو، ولو للحظة.

اتصل هاتفياً بتاديشينا، ثم ترك الدار مسرعاً. لم يكن هناك شك في أن ساتوكو تفيض بالحياة وبالجمال شأنه هو نفسه ـ بدت له هاتان الحقيقتان انعطافاً غريباً في مسيرة الحظ، شيئاً يتمسك به ويتشبث في وقت الخطر.

تظاهرت ساتوكو، متبعة خطة تاديشينا، بأنها في طريقها للقيام بنزهة، والتقت بكيواكي في مزار شنتو لا يبعد كثيراً عن دارها. كان أول ما قامت به هو الإعراب عن شكرها للدعوة التي وجهت إليها لحضور الاحتفال بمشاهدة براعم الكرز. فقد اعتقدت بجلاء أنه أقنع الأمير ماتسوجاي بتوجيه هذه الدعوة. وكانت تلك، في حقيقة الأمر، هي المرة الأولى التي يسمع فيها بهذا الموضوع، ولكنه بمرواغته المألوفة لم يخلصها من هذه الفكرة، وتقبل آيات شكرها، على نحو غامض، لا يلزمه بشيء.

- ١٧ -

بعـد مجالـدة امتدت طـويلاً، أفلح الأمـير ماتسـوجاي في إعـداد قائمـة بالضيوف، مقتضبة على نحـو قاس، لـدعوتهم لحضـور عيد التـبرعم. وقد اعتمد معياراً، قوامه دعوة عدد من الضيوف المقبولين والأكثر مـلاءمة لهـذه المناسبة، حيث أن المأدبة التي ستتوجها سيشرفها بحضورهمـا الجليل الأمـير الأمبراطوري وزوجته. ومن ثم فإنه إضافة إلى ساتوكو وأبويها النبيل والنبيلة أيـاكورا، لم يـدرج بـالقـائمـة إلا الأمـيرين السيـاميـين والشريف شينكـاوا وزوجتـه، اللذين كـانـا من الـزوار المعتـادين، وصـديقـين حميمـين لآل ماتسوجـاي. وكان الشريف رئيسـاً لـ «زايباتسـو»[1] شينكاوا، وقـد صيغت حياته بأسرها على غرار حياة السيد الانجليزي المهذب الكامل، الـذي كان يقلِّده باهتمام مبالغ في التدقيق بأدق التفاصيل. ومن جانبها كـانت الشريفة على علاقة حميمة مع أناس من نوعية راعية الحركة النسائية الشهيرة رايتشـو هيراتسوكو وحلقتها، وكانت كذلك راعيه لـ «نساء الغد». وهكـذا كان من الممكن الاعتماد عليها في إضافة لمسة من اللون المختلف إلى هذا التجمع.

تقرر أن يصل الأمير توين وزوجته في الساعة الثالثة من بعد الظهر، وأن يتم إطلاعها على جوانب الحـديقة، بعـد راحة قصـيرة، في إحدى قـاعات الاستقبال بالدار الرئيسية، ثم يتم الترفيه عنهما، حتى الساعة الخـامسة، في

(١) مؤسسـة صناعيـة كبرى، سـتزداد جبروتـاً وتعملقاً مـع التطور الاقتصـادي للمجتمع الياباني. والاسم خيالي، بالطبع، وإن كان المرء لا يغيب عنه الاسم الحقيقي لمؤسسة موازية في حياة وتطور اليابان الحديثة (هـ م).

حفل بالحديقة، من قبل بعض فتيات الجيشا، اللاتي سينطلقن لتقديم باقة من رقصات عيد تبرعم الكرز تعود إلى عهد جينروكو.

قبل الغروب مباشرة، سيخلد الزوجان الأمبراطوريان إلى الدار الغربية الطراز، لتناول المقبلات، وبعد المأدبة ذاتها، سيقدم فاصل ترفيهي أخير: فقد تم استقدام عارض أفلام، ليعرض فيلماً أجنبياً جديداً. هكذا كان البرنامج الذي ابتكره الأمير بمساعدة يامادا، وكيله، بعد التفكير ملياً في الأذواق المتنوعة لضيوفه.

غير أن الأمير عرف لحظات من المعاناة، في غمار محاولته الاستقرار على اختيار للأفلام؛ فقد كان هناك ذلك الفيلم من «باثيه»، الذي يضطلع ببطولته نجم فرقة الكوميدي فرانسيز الشهير، جابرييل روبان، الذي كان عملاً فذاً بلا جدال. غير أن الأمير رفضه؛ لخشيته من أنه قد يطيح بالحالة المزاجية المواكبة لمشاهدة التبرعم، والتي تم الوصول إليها بمثل هذا القدر الكبير من الاهتمام. وكان «المسرح الكهربائي» قد شرع في بداية شهر مارس في عرض أفلام، في مدينة أساكوسا، انتجت في الغرب، كان أولها وهو «الفردوس المفقود» قد أحرز رواجاً كبيراً، غير أنه لا طائل من وراء تقديم فيلم متاح بيسر، في مكان كهذا، ثم هناك فيلم آخر، هو ميلودراما ألمانية مليئة بالحركة العنيفة، ولكن هذا لا يمكن توقع إحرازه قبولاً، لدى الأميرة والسيدات الأخريات. وفي نهاية المطاف، قرر الأمير أن الخيار الذي يحتمل بصورة أكبر أن يرضي ضيوفه هو فيلم انجليزي، مؤلف من خمس بكرات، مقتبس عن رواية لديكنز. قد يكون الفيلم بالغ الكآبة، لكنه يتسم برفعة المستوى، على نحو ما، وقدرته على مخاطبة الناس هائلة، كما أن التعقيبات عليه بالانجليزية من شأنها أن تساعد كل الضيوف على استيعابه.

ولكن ماذا لو أن المطر انهمر؟ في تلك الحالة، فإن قاعة الاستقبال

الفسيحة بالدار الرئيسية لن تتيح للناظر حشداً منوعاً من البراعم، والبديل الوحيد المناسب سيكون القيام بالمشاهدة من الطابق الثاني من الدار الغربية الطراز. وفي وقت لاحق يمكن لفتيات الجيشا أن يؤدين رقصاتهن هناك، وتعقب ذلك، كما هو مقرر، المقبلات والمأدبة الرسمية.

مضت الاستعدادات قدماً، مع إقامة خشبة المسرح المؤقتة، عند بقعة قريبة من البحيرة، تحت سفح التل المعشب مباشرة، فإذا ما اتضح أن الطقس جميل، فمن المؤكد أن الأمير ومعيته سيقومون دونما شك بجولة كاملة في الضيعة، حتى لا تفوتهم مشاهدة أي من البراعم. وكانت الستائر البيضاء والحمراء التقليدية، التي لا بد من إسدالها على امتداد طريقه، أكبر بكثير من تلك التي تقتضيها مناسبات أكثر عادية. واقتضى العمل المتمثل في تجميل داخل الدار الغربية الطراز ببراعم الكرز وزخرفة مائدة المأدبة، لتوحي بمشهد ربيعي ريفي، كل ألوان الاهتمام، من جانب مجموعة كبيرة من المساعدين. وأخيراً، وفي اليوم السابق على الحفل، دُفع مصففو الشعر ومساعدوهم دفعاً إلى موجة محمومة من النشاط.

كان السادس من إبريل يوماً صافياً، على نحو يدخل السعادة على القلوب، حتى وإن تاقت النفوس إلى وهج الشمس الذي احتجب، ومضى يقبل ويدبر، بل وشابت هواء الصباح برودة جاثمة.

خصصت غرفة لا تستخدم، في الدار الرئيسية، لتكون غرفة تغيير الملابس بالنسبة لفتيات الجيشا، وحشدت فيها كل المرايا المتاحة. وإذ ثار فضول كيواكي، فقد انطلق إلى هناك ليتفقد الأمر بنفسه، لكن الوصيفة المسؤولة أبعدته مسرعة، غير أن الغرفة استقطبت خياله، وقد نظفت وكنست تأهباً لمقدم النسوة الوشيك. أسدلت الستائر، ونثرت الوسائد في كل مكان، وراحت المرايا تتألق من خلال أغطيتها الزاهية الألوان من موصلين يوزين المطبوع. في تلك اللحظة، لم يكن هناك أدنى مؤشر لعطر

مـواد التجميل في هـواء الغرفـة، ولكن في غضون مـا لا يزيـد عـلى نصف ساعة، سيقع تحول كبـير، فسوف يمتـلىء المكان بـالأصوات البـديعة، فيـما النسـوة يقمن، وقد تجمعن أمـام المرايـا، بـارتـداء وخلع ثيـابهن، بثقـة في النفس لا تعـرف التردد. وجـد كيـواكي هذا الاحتـمال فـاتنـاً، وخلب لبـه السـحر الباعث على الغواية النابع من المناسبـة، الذي لم ينبعث من الخشبـة المسرحية المقامة على عجل لتوها في الحديقة، وإنما تركز بالأحرى هاهنا، في هذه الغرفـة، بما تعد به من عبق فاتن سرعان ما يهل.

وبما أن الأميرين السياميين ما كانا ليكترثا كثيراً بمفهوم الزمن، فقد طلب منهما كيواكي القدوم بمجرد انتهاء طعام الغداء، فوصـلا في حوالي الـواحدة والنصف، ودعاهما إلى مكتبـه للحظة، وقـد أزعجه أن يـرى أنهما يرتـديان الزي الرسمي للمدرسة.

ـ أتأتي فتاتك الجميلة؟

قالها الأمير كريدسادا. متسائلاً، بصوت عالٍ، باللغة الانجليزية، قبـل أن يجتازا الباب.

بهت الأمير باتاناديد، الذي كان متحفظاً على نحو رقيق دوماً، فوبَّخ ابن عمه، لخفته التي لا ترعوي، واعتذر لكيواكي بيابانية متعثرة.

أكد لهما كيواكي أنها ستحضر، لكنه أثار نظرات مترعة بالدهشـة بطلبـه منهـما الامتنـاع عن الحـديث عنـه وعن سـاتـوكـو أمـام أي من الضيفـين الأمبراطوريين أو آل ماتسـوجا أو آل أيـاكورا. وقـد افترض الأمـيران، فيما يبدو، أن علاقتهما أمر معروف للكافة.

الآن مـا عاد الأمـيران يفصحان عن دلائـل حنينهما المـرضي السـابق إلى الوطن، ولاح أنهما قد استقرا على إيقاع الحياة في اليـابان. وخـطر لكيواكي وهو يراهما في زييهما المدرسيين أنهما على وجه التقـريب لا يمكن تمييزهمـا عن

باقي طلاب صفه. قام الأمير كريوسادا، الذي كان موهوباً في فن التقليد الصامت، بتقليد لناظر المدرسة، كان من البراعة بحيث انفجر تشاو بي وكيواكي ضاحكين.

سار تشاو بي. حتى بلغ النافذة، وأطل عبر أراضي الضيعة على مشهد مختلف تماماً عن المشهد الذي يراه المرء في الأيام العادية. فقد راحت الستائر الحمراء والبيضاء التي تخترقها ترفرف في الريح.

- من المؤكد أنه من الآن فصاعداً ستزداد حرارة الجو.

قالها ساهماً، وقد أفعم صوته بالحنين إلى شمس الصيف.

دهش كيواكي تماماً حيال لمسة الكآبة هذه، فنهض، وأوشك على المضي بنفسه إلى النافذة، ولكنه فيما هو يهم بالنهوض، أطلق تشاوبي صيحة مفاجئة، صبيانية، أثارت فضول ابن عمه ودفعته إلى مغادرة مقعده.

صاح، متنقلاً بالحديث إلى الانجليزية:

- هاهي! هاهي السيدة الجميلة التي لا ينبغي أن نأتي على ذكرها اليوم.

كانت هي ساتوكو حقاً، لامجال للخطأ بشأنها في كيمونوها الطويل الردنين، وهي تقبل عبر الممر إلى جوار البحيرة نحو الدار الرئيسية، ووالدها إلى جانبها، وحتى من بعيد كان بمقدور كيواكي أن يرى أن الكيمونو من لون أحمر وردي جميل، يعكس براعم الكرز، ونقوشه قريبة من الوفرة الخضراء الندية لمرجة ربيعية، فيما التفتت للحظة، مشيرة إلى الجزيرة النفطية لمحة من جانب وجهها، وقد حدَّد شعرها الفاحم المتألق الاستدارة الرقيقة لوجنتها.

لم تعل ستائر بيضاء وحمراء في الجزيرة. كان الوقت لايزال مبكراً على رؤية اللمسات الأولى لخضرة الربيع، ولكن الستائر التي حددت الممر الملتوي المؤدي صعدا إلى تل القيقب فيما وراء الجزيرة ألقت انعكاسات

متماوجة على سطح الماء، ذكرت ألوانها كيواكي بـالكعكات المحـلاة المجملة بالخطوط الطولية. وعلى الرغم من أن النافذة كانت موصدة، فإنه شعر بأنه بمقدوره سماع صوت ساتوكو العذب المتهلل.

سياميان شابان وياباني في ريعان العمر. . . وقفوا ثلاثتهم عند النافـذة، وقد حبس كل منهم أنفاسه. حدَّث كيواكي نفسه، بقوله: ما أغـرب هذا! عنـدما يكـون بصحبة الأمـيرين الشابـين، أتراه يجـد أن طبيعتهما العـاطفية معدية للغاية حتى ليغدو بمقدوره أن يصدق أنه على الحال ذاته ويشعـر بأنـه قادر على الافصاح عن ذلك صراحـة؟ إن بمقدوره أن يقـول لنفسه في هـذه اللحظة دونما تردد: «إنني واقع في حبها، واقع في حبها بجنون».

قبـل ست سنوات، أتيحت لـه لمحة بـالغة الإيجـاز من الصورة الجـانبية الجميلة للأميرة الأمـبراطوريـة كاسـوجا، فيـما هي تلتفت إلى الوراء لتنـظر إليـه، وقد أفعمت قلبـه بحنين يـائس لا يعرف السكـون، أمـا الآن وفيـما ساتوكو تغادر البحيرة، التفتت بوجهها نحو الدار الرئيسيـة، بحركـة رشيقة من رأسها، وعلى الرغم من أنها لم تكن تتطلع مباشرة نحو النـافذة، إلا أن كيـواكي أحس، فجأة، بـأنه قـد تحرر ممـا استحوذ عليـه سابقـاً. في لحظة واحدة عايش شيئاً تجاوز ما خلب لبه من قبل. الآن، وبعد ست سنوات، أحس بأنه أعاد الإمساك بجزئية من الزمن متألقة ومتبلِّرة، من منظور آخر. وفيـما هو يـرقب ساتـوكو، وهي تسـير في وهج الشمس الـربيعي الشـاحب والندي، ضحكت فجأة، وفيـما هي تضحك رآهـا ترفـع ذراعها في حـركة طليقة، حاجبة فمها وراء الانحناءة الرشيقة ليدها البيضاء. بدا أن جسمها الرشيق يتذبذب، كأنه آلة موسيقية وترية رائعة.

- ١٨ -

كـان الشريف شينكاوا وزوجتـه متكاملين، عـلى نحـو فـريـد، كثنـائي عائلي: فالانفصال المفعم بالشرود قد زُفّ، في هذه الحالة، بصورة حرفية، إلى الهيـاج، الذي يـرقى للجنون المؤقت. ومـا كان الشريف ليلحظ، ولـو على نحو عابر، أي شيء تقوله امرأته أو تـأتيه، بينـما كانت الشريفـة تصب دفقاً لا يتوقف من الكلمات، بغض النظر عن تأثـيرها عـلى الآخرين. وقـد كان هذا هو سلوكهما المعتاد، سواء أفي دارهما أم في الأماكن العـامة. وعـلى الرغم من أسلوب الشريف الشارد في التصرف، إلا أنه كان قديراً تمـاماً في الوقت الملائم عى أن يصرع شخصاً، دونما رحمـة، بملاحـظة واحدة بليغـة متعمقة لا يكلف نفسه قط عناء إيضاحها. ومن ناحية أخرى فـإن زوجته لم يقـدر لها أن تفلح قط في إعـادة إحياء ذلـك الشخص عينه مهـما كان فيض الكلمات المنهمر الذي تمطره به.

امتلكا سيارة من طراز رولز رويس، هي الثانية من نوعها التي اشـتريت في اليـابان، وشكلت لـوناً من ألـوان التميز، قـدَّراه باعتبـاره برهـانـاً عـلى مكانتهما الاجتماعية الرفيعة. وكان من عادة الشريف ارتداء سترة سمـوكينج حريرية، بعد العشاء، وبزيه هذا يمضي المساء متجاهلاً فيض ثرثرة زوجتـه، الذي لا يغيض له نبع.

وبدعوة من الشريفة، اعتادت حلقة رايتسو هيراتسوكـا أن تجتمع في دار شينكاوا، مرة كل شهر، حيث تطلق العضوات عـلى أنفسهن إسم «جماعـة النـار السماويـة» تيمناً بقصيـدة شهـيرة من نـظم الشـاعـرة النبيلة سـانـونـو

تشيجـامي. غير أنـه بسبب هطول المـطر في كل الأحـوال في اليـوم المحـدد للقاء، درجت الصحف على عادة طريفة، هي تسمية الجماعة بـاسم «نادي اليوم المطير». وكان أي لون من التفكير الجاد شيئاً يتجاوز خيـال الشريفة، التي أدهشتها اليقظة في صفوف النساء اليابانيات. وقد لاحـظتها بـالفضول المنفعل ذاته، الذي قد يثيره في نفسها قيام الدجاجات بـوضع بيض جـديد في شكله، يتخذ هيئة الأهرام، على سبيل المثال.

أحس الزوجان شينكاوا بالضيق والفخار معاً حيال دعوة آل ماتسوجـاي لهـما لحضور الاحتفـال بمشاهـدة البراعم. أمـا الضيق فـلأنهما أدركـا مـدى الضجر الذي سيحسان به. وأما الفخار، فلأن الدعوة ستتيح لهما الفرصـة لكي يستعرضا على رؤوس الأشياء أساليبهما الغربية عـلى نحو أصيـل. كان آل شينكاوا عائلة عريقة وثرية من التجار، وبينما كان أمراً مهـماً، بالـطبع، الاحتفاظ بالعلاقة التي تفيد الطرفين مع أبناء منطقتي سـاتسوما وتشوشـو، الـذين علت بهم الأيـام إلى مـرتبـة الصـدارة في الحكـومـة، فـإن الشريـف وزوجتـه استشعـرا في قـــرارة نفسيهـما ازدراء نحـــو هؤلاء بسبب أصـولهم الفلاحية. وكان هذا موقفاً ورثاه عن آبائهما، وكامناً في قرار ترفعهما، الذي اكتسباه، حديثاً وإن كان مكيناً لا يعرف الاهتزاز.

قال الشريـف:

ـ طيب، الآن وقد دعا مـاتسوجـاي الأمير تـوين إلى داره، ربما سينـظم فـرقة نحـاسية للترحيب بـه، فتلك العائلة تنـظر إلى زيارة أمـير من العائلة الأمبراطورية لها باعتباره نوعاً من الأحداث المسرحية.

تناهي إليه رد زوجته:

ـ ما علينا إلا الاحتفاظ بآرائنا المستنيرة لأنفسنا، فيما أخشى، واعتقد أنه من تمام الأناقة أن نظل على سجيتنا، على نحو ما نفعل دون أن يبـدو علينا ذلك. ألا تعتقد ذلك؟ في الحقيقة إنه أمر مسلٍ جداً، ألا تقـر بذلـك، أن

نختلط دونما فضول بأناس عتيقي الطراز مثلهم. فعلى سبيل المثال، أعتقد أنه أمر مسل على نحو مخيف ذلك الأسلوب الذي يبدو به ماتسوجاي بالغ الخنوع أمام الأمير تونين في لحظة، ثم يحاول التصرف وكأنهما صديقان قديمان، في اللحظة التي تليها. لكني أتساءل عما ينبغي عليَّ ارتداؤه؟ سننطلق في وقت مبكر من الأصيل، ولذا أتصور أنه ليس من المناسب تماماً الذهاب في رداء مساء رسمي، وأحسب، في نهاية المطاف، أن كيمونو سيكون الخيار الأكثر حكمة، ربما يتعين عليّ أن أسارع بالتوصية على طلبية من متجر كيتايدي في كيوتو، وإعداد شيء ما، ربما على ذلك الطراز الجميل المؤلف من البراعم وضوء النار؟ ولكن لسبب ما فإنني لا أبدو بمظهر طيب في كيمونو على طراز سوسو أبداً. لست واثقة بالمرة مما إذا كنت أنا التي تعتقد أن طراز سوسو يبدو مخيفاً وأنا أرتديه أم أن الأمر كذلك حقاً أم أن آخرين يعتقدون أيضاً أنه يبدو مخيفاً. وهكذا فلست أدري ما يتعين عليّ القيام به ـ ولكن ما الذي تعتقد أن عليّ القيام به؟

في يوم الدعوة ذاته، تلقى آل شينكاوا رسالة موجزة من آل ماتسوجاي، حيث طُلب منهما بمزيد من الإجلال أن يصلا إلى الدار في وقت سابق على وقت وصول الزوجين الإمبراطوريين. وعلى الرغم من أنهما اختارا، بتعمد فاتر، أن يظهرا على الساحة بعد الوقت المتوقع لآل توينو مايا بخمس أو ست دقائق، إلا أنه أحزنهما أن يكتشفا أنهما لايزالانمبكرين، وبدا جلياً أن ماتسوجاي قد خطّط مسبقاً لهذه المناورة. وقد تكدر الشريف حيال هذا الإفصاح عن الأخلاق الريفية.

ـ ربما أصابت نوبة قلبية جياد سموه الأمبراطوري في الطريق.

قالها الشريف، ملاحظاً، على سبيل التحية. ولكن أياً كان الطابع اللاذع لسخريته، فقد كان حديثه غمغمة، والتعبير المرتسم على وجهه لا يشي بشيء، على الطريقة الانجليزية الصرف، ولذا لم يسمع أحد ما قاله.

أعلن مبعوث من البوابة الرئيسية البعيدة ظهور العربة الأمبراطورية، فاتخذ المضيف وجمعه في التو مواقعهم، عند مدخل الدار الرئيسية؛ للترحيب بمقدم الأمير.

تبقعت عربته، هنا وهناك، بطين الربيع، فيما الجياد، التي تدافعت الحصباء تحت حوافرها، تمضي خبباً تحت شجرة الصنوبر الشامخة في الممشى أمام الدار. صهلت في ضيق، مشيحة برؤوسها. وللحظة أعادت معرفاتها المتموجة في الهواء إلى ذهن كيواكي القمة المتوهجة لموجة هائلة، توشك أن تلطم الشاطيء. وفي اللحظة عينها، غامت زهرة الاقحوان الأمبراطورية على باب العربة في دوامة من ذهب، ثم استقرت مع توقف العربة.

توازن شارب الأمير توين الرمادي البديع مع قبعة مستديرة سوداء، توازناً طيباً. وسارت الأميرة، عقب زوجها إلى المدخل عابرة العتبة إلى السجادة البيضاء التي مدت فوق أرضية الدار الرئيسية في ذلك الصباح لتفادي الاضطرار إلى انتعال مداسات خاصة بالدار. ومن الطبيعي أن الزوجين الأمبراطوريين أوماأ دونما تكلف، وفي إيجاز قبل دخولهما الدار. لكن الترحيب التقليدي تقرر أن يتم في قاعة الاستقبال.

لدى مرور الأميرة بكيواكي لفت نظره الطرفان السوداوان لنعليها، اللذان تألقا تحت قماش ثوبها الأبيض المكشكش. كانا يشبهان قرنتي عشب بحري، فيما راح يحدِّث نفسه، يطلان في دوامة مسترسلة. وقد فتنه ذلك إلى حد دفعه إلى ما يفوق التردد في رفع بصره إلى محياها، الذي بدا في الإفصاح عن مظاهر الإيغال في العمر.

في قاعة الاستقبال، قدم ماتسوجاي الضيوف الآخرين لآل تيونوما. وكان الشخص الوحيد الذي لم يسبق لهما التعرف عليه متمثلاً في ساتوكو.

وجَّه الأمير توين اللوم إلى أبيها:

ـ ما الذي دهاك، يا أياكورا فتخفي عني مثل هذه الشابة الحسناء؟

اعترت كيواكي، الذي كان يقف جانباً رجفة خفيفة، لم يفقه لها سراً. أحس أن ساتوكو قد تحوَّلت إلى عمل فني نادر يعرض للجمهور.

بما أن الأمير تونن كان على صلة وثيقة ببلاط سيام، فقد جرى تقديم الأميرين السياميين له، فور وصولهما، إلى اليابان. أما الآن فقد راح يتحدث معهما بمزيد من الألفة، سائلاً إياهما عما إذا كانا قد أحبا زملاءهما في مدرسة النبلاء من عدمه. ابتسم تشاوبي ابتسامة مشرقة وجاء رده تجسيداً لمثال رفيع للمجاملة الحافلة بالتقدير:

ـ إنهم جميعاً يساعدوننا في جعل الأمور أيسر بالنسبة لنا في كل النواحي، ويبدو الأمر كما لو كنا أصدقاء منذ سنوات بعيدة. وما من شيء ينقصنا.

وبما أن الأميرين السياميين لم يظهرا في المدرسة حتى الآن، ولم يكن لهما فيما يبدو أصدقاء هناك على الإطلاق باستثناء كيواكي نفسه، فقد وجد هذا الأخير تلك الشهادة المتحمسة شيئاً طريفاً وغريباً للغاية.

كان الشريف شينكاوا يحب النظر إلى حساسيته باعتبارها جبلت من فضة مصقولة، يتألق رونقها دون أن تشوبه شائبة في المناخ المناسب لطبيعته في داره، ولكن ما إن ينغمس في التعامل الفظ مع العالم الخارجي حتى يشرع صقالها في فقد بريقه، ومن شأن مكابدة لقاء واحد مثل هذا اللقاء أن تكسو هذا الصقال بطبقة خفيفة من الانطفاء.

بتوجيهات من ماتسوجاي مضى الضيوف، الآن، خارجين في أعقاب الأمير والأميرة لمشاهدة البراعم. ولكن بحكم كونهم يابانيين فإن الأزواج لم يسمحوا لأنفسهم بالاختلاط على هواهم، فقد ظلت كل زوجة وراء زوجها. وأصابت نوبة من الشرود، لحظها الآخرون، الشريف شينكاوا. ومع ذلك وبمجرد أن وضع هو وزوجته مسافة مناسبة بينهما وبين الضيوف الآخرين انتزع نفسه ليقول لها ملاحظاً:

ـ عندما كان ماتسوجاي يدرس في أوروبا ألف أساليب السلوك الأجنبية، أما قبل ذلك فقد كان يبقى على خليلته في الدار ذاتها، التي تقيم بها زوجته، لكنه في وقت لاحق أسكنها في دار مؤجرة خارج البوابة الأمامية مباشرة، أي على بعد حوالي نصف ميل من الدار، الأمر الذي يرقى، فلنقل، إلى نصف ميل من التطبع بعادات الغرب. إن هذا هو ما أعتقد أنه يقال له: خذ من هذا بنصيب ومن ذاك أيضاً.

ردت زوجته، منطلقة من عقالها:

ـ لكي يكون المرء مستنيراً على الإطلاق ينبغي أن يكون مستنيراً على طول الخط. أما قطع نصف الطريق فليس يجدي. ولئن أريد لدار أن تسيِّر شؤونها على الطريقة الأوروبية، فينبغي، إذن، سواء أتعلق الأمر بالرد على دعوة رسمية، أم كان خاصاً بمجرد الذهاب في نزهة مسائية قصيرة، أن يتدبره الزوج والزوجة معاً، على نحو ما نفعل، بغض النظر عما يقوله الآخرون. آه، انظر إلى هناك! شُفْ كيف انعكس التل على البحيرة مع شجرتين أو ثلاث من أشجار الكرز والستائر الحمراء والبيضاء؟ أليس ذلك جميلاً؟ وهل يعجبك الكيمونو الذي أرتديه؟ وبالنظر إلى ما ترتديه السيدات الأخريات، أقول إن كيمونوي يحظى بأكثر الطرز دقة وجرأة واستنارة هاهنا. ولذا كم يبدو رائعاً لمن يقف على الشاطىء الآخر ويراه منعكساً على سطح الماء. ألا تظن ذلك؟ آه، كم أن الأمر محبط! لم لا يسعني أن أكون على جانبي البحيرة كليهما في وقت واحد؟ المرء مقيد على نحو مخيف. أليس كذلك. ألا تظن هذا؟

كان عزل كل زوج مع زوجته عذاباً خالصاً، على نحو رفيع، احتمله الشريف برباطة جأش مرحة؛ ففي نهاية المطاف كان ذلك عذاباً يفضله، وفي حقيقة الأمر كان من الرواد، وقد نظر إليه باعتباره نوعاً من أنواع المحن التي قد تصبح ممارسة شائعة في حضارة مقبلة بعد قرن من الزمان من

الآن. ولم يكن الشريف من ذلك النوع من الرجال، الـذي يرغب في وئـام عـاطفي مع الحيـاة، وكان عـلى استعداد للترحيب بـأي شكل من أشكـال السلوك من شـأنه الحيلولـة دون هذا الـوئـام، مهـما كـان غـير محتمـل، أو مضجراً بالنسبة لرجال أقل شأناً، وتقبـل قدره بـالالتزام النبيـل النابـع من التعمق الانجليزي.

عنـدما وصـل الضيـوف، أخيـراً، إلى قمـة التـل، التي كـان مقرراً أن يشاهدوا من فوقها الفقـرات الترفيهيـة، حيتهم فتيات جيشا يـاناجيبـاشي، الـلاتي كنّ بالفعـل متنكرات في هيئـة الشخصيات التقليـديـة في رقصـات جينروكو بـراعم الكرز. هكـذا، وجدوا أنفسهم يختلطون بساموراي بـزيّه المدثر، روبن هود الأنثوي، المهرج، المغني الأعمى، بائع الزهور، النجار، الحـطاب، البطل الشاب، فتيات المـدينة والقـرية، شـاعر الهـايكو، وكـل الآخـرين. وكان الأمـير توين من رقـة الحاشيـة بحيث بدا أن ذلـك أدخل السرور إلى نفسه، تاركاً لماتسوجاي الذي كان إلى جانبه أن يرى ابتسامته، وراح الأميران السياميان يضغطان في ابتهاج على كتف كيواكي.

ترك كيواكي، الذي شغل أبوه بالترفيه عن الأمير توين وأمه عن الأميرة، وحيداً مع الشابين السياميين بشكل أو بآخر، وقد انشغل بما فيه الكفاية في إبعاد فتيات الجيشا، اللاتي تجمعن حوله، فيـما هو يـرعى شؤون الأميرين، اللذين لم يتح لهما بعد التمكن من اللغة اليابانية، ولم يتح لـه مجال لـلاهتمام بساتوكو.

قالت الجيشا العجوز، التي تنكرت في زي شاعر:

ـ أيها السيد الشاب، ألن تأتي لزيارتنا عما قـريب؟ فتيات كثـيرات وقعن صرعى حبك اليوم، أينبغي عليهن المضي دون أن تبادلهن مشاعرهن؟

كانت فتيات الجيشا الشابات، بل ومن اضـطلعن بأدوار الذكور، يضعن لمسة خفيفة من اللون الأحمر حول أعينهن، الأمر الذي خلع عـلى وجوههن

الضاحكة سمة من أوغل في الشراب. وعلى الرغم من أن لذعة البرد المتزايدة في الجو حدثت كيواكي بأن المساء يؤذن بالقدوم، فقد أحس بأنه في مأمن من الريح الليلية الحقيقية تحيط به ستارة مطوية من الحرير والتطريز والجلد الذي يعلوه الذرور الأبيض.

راح يتساءل كيف تستطيع هاته النسوة الضحك واللعب في سعادة، كأنهن يستحممن في ماء دافىء على هواهن. رصدهن عن كثب ـ الطريقة التي يومئن بها فيما هن يروين الحكايات، والنحو الذي يشرن به جميعهن بصورة متماثلة، كما لو أن لكل منهن مفصلة ذهبية بديعة الصياغة في عنقها الأبيض الرقيق، والأسلوب الذي يسمحن به لأنفسهن بأن يتعرضن للمداعبة، تاركات لغضب مصطنع أن يتوهج للحظة في أعينهن دون الكف عن الابتسام، والطريقة التي يفتعلن فيها تواً سمة الوقار ليستكملن التفاتة مفاجئة مضجرة من أحد الضيوف، والمناخ المتعجل الذي يفتعلنه وقوامه الانفصال الفاتر، فيما هن يرتبن شعرهن بلمسة يد ـ ومن بين كل هذه الحيل كانت الحيلة التي فتنته أكثر من غيرها هي الطريقة التي يدعن بها أعينهن تطوف بلا توقف. ودون أن يدرك ما يفعله، راح يقارن عادة ساتوكو المميزة المتمثلة في إلقاء نظرات جانبية بهذه الحركة التي تقوم بها فتيات الجيشا. من المؤكد أن عيون فتيات الجيشا كانت مرحة ومفعمة بالحياة، فهي تعبيرهن الوحيد عن الاستقلال، ولكن كيواكي، رغم ذلك، وجدها منفرة. لم يكن لهن خط من تناسق ساتوكو الرقيق، وهي هبة لا تأتي إلا مع الإحساس المكين بالتميز.

الآن، فيما هي تتحدث مع الأمير تَوين، راح كيواكي يرقب ملمحها الجانبي. أضاء محياها بوهج خفيف من الشمس الغاربة، وفيما راح يمعن النظر من الجانب الآخر من المجموعة طاف بذهنه تألق بلوري في البعيد، ونغمة خافتة منسابة من كوتو، وواد ناء بين الجبال، كلها دونما استثناء تحف

بها تلك الجاذبية الغريبة، التي تميز البعيد والمفارق، فلا تطاله اليد. وفضلاً عن ذلك، ففيما أخذت العتمة بأكناف الأشجار وحواشي السماء تدريجياً، غدا ملمحها الجانبي، رغم ذلك، مرتسماً بصورة أكثر تألقاً، كأنه الهيكل الذي تكتنفه العتمة لجبل فوجي وقد أمسكت الشمس الغاربة بأطرافه.

وفي غضون ذلك، راح الشريف شينكاوا والنبيل أياكورا يتبادلان الملاحظات الموجزة، دون أن تعوقهما فتيات الجيشا القائمات بالترفيه، اللاتي تقبلا خدماتهن بلا مبالاة فاترة. وتناثرت بكثافة على المرجة التي وقفا عليها البراعم، وفتن الشريف بمنظر إحدى البتلات، وقد تشبثت بالطرف الملتمع لحذاء النبيل، وهو يلتمع تحت أشعة الشمس الغاربة. كان الحذاء من الصغر بحيث يصلح لامرأة، فيما راح يحدِّث به نفسه. وفيما وقف النبيل هنالك، ممسكاً بقدح ساكي، بدت يده حقاً صغيرة وبيضاء للغاية، حتى لتشبه يد دمية. وإذ واجه الشريف مثل هذا التجلي الواضح لسلالة نبيلة، وهي تجتاز اضمحلالاً رفيعاً، استشعر لذعة غيرة، غير أنه كان مقتنعاً بأن امتزاج شروده «الانجليزي» الذي رعاه بعناية بما كان حالة طبيعية من التجرد المتألق في النبيل أياكورا شعّ بقيمة رفيعة لحوارهما ما كان يمكن لمتحدثين آخرين أن يحرزاها.

قال النبيل أياكورا، على نحو غير متوقع:

ـ أما فيما يتعلق بالحيوانات، وأياً كان ما يقوله المرء، فإنني أعتقد أن عائلة القوارض تحظى بجاذبية معينة.

ـ عائلة القوارض. . .

قالها الشريف، دون أن يدرك المراد بها على الإطلاق.

ـ الأرانب، المراميط، السناجب، وما إلى ذلك.

ـ ألديك حيوانات أليفة من هذا النوع يا سيدي؟

ـ كلا، يا سيدي، على الإطلاق، فرائحتها نفاذّة للغاية، ومن شأنها أن تنتشر في سائر أرجاء الدار.

ـ آه، فهمت، إنها جذابة للغاية، ولكنك ما كنت لتحتفظ بها في الدار، أليس كذلك؟

ـ طيب، يا سيدي، يبدو في المقام الأول أن الشعراء قد تجاهلوها. وما لا مكان له في قصيدة لا موضع له في داري. تلك هي القاعدة التي تأخذ بها عائلتي.

ـ فهمت.

ـ لا، لست احتفظ بها باعتبارها حيوانات أليفة، لكنها مخلوقات صغيرة، ذات ضوضاء وخفر، بحيث أنني لا أستطيع دفعاً للتفكير في أنه ليست هناك حيوانات أكثر جاذبية.

ـ نعم، يا سيدي النبيل، إنني أتفق معك تماماً.

ـ بالفعل، يا سيدي، فإن كل مخلوق جذاب، كائناً ما كان نوعه، له فيما يبدو رائحة قوية.

ـ نعم، حقاً، يا سيدي، أحسب أن يوسع المرء القول بذلك.

ـ يقولون لي، يا سيدي الشريف، إنك أمضيت وقتاً طويلاً في لندن.

ـ نعم، وفي لندن، وقت الشاي، تهتم ربة البيت كثيراً بسؤال الجميع: الحليب أم الشاي أولاً؟ ورغم أن الكل سيان، في نهاية المطاف، حيث يمتزج الحليب والشاي في القدح فإن الإنجليز يعلقون أهمية كبرى على تفضيل المرء لصب أيهما أولاً. والأمر بالنسبة لهم يبدو أكثر أهمية من أحدث أزمة وزارية.

ـ أمر مثير للاهتمام. أمر مثير للاهتمام حقاً، يا سيدي!

لم تُتح لفتيات الجيشا فرصة المشاركة بكلمة واحدة، كما لم يبد عليهنّ رغم ما يدور حوله اليوم، أدنى اهتمام ببراعم الكرز.

راحت الأميرة ماتسوجاي تحادث الأميرة تورين، التي كانت مولعة للغاية بالناجوتا، كما كانت تعزف على السامسين بحذق بالغ. وإلى جوارهما وقفت الجيشا العجوز، التي كانت أفضل مغنية في يانا جيباشي، تدلي بدلوها في الحديث. ومضت ماتسوجاي تحدثهما كيف أنها، منذ بعض الوقت، وفي حفل خطبة إحدى القريبات، عزفت «خضرة أشجار الصنوبر» على البيان بمصاحبة كوتو وسامسين، وهي مجموعة وجدتها الضيفات كافة جذابة. تابعت الأميرة القصة باهتمام فطن، وأعربت عن مدى شعورها بالأسف لعدم وجودها هناك، للمشاركة في العزف بنفسها.

تتابعت قهقهة الأمير ماتسوجاي، بين الفينة والأخرى، ومن ناحية أخرى أسعد الأمير تورين أن يضحك بين الحين والآخر، لكنه قام بذلك بالاعتدال الواجب، واضعاً يده على شاربه المشذب على نحو أنيق. همست الجيشا العجوز، التي قامت بدور المغني الضرير بشيء ما في أذن الأمير ماتسوجاي، فنادى في التو ضيوفه بصوته المترع بالحيوية:

ـ طيب، الآن، حان الوقت لرقصات براعم الكرز، هل تسمحون لطفاً بالدنو من خشبة المسرح!

كان هذا النوع من النداء ينتمي، في حقيقة الأمر، إلى مجال السلطة الخاص بالوكيل يامادا. وإذ صدم لانتزاع سيده لدوره دونما سابق إنذار، راح العجوز يطرف بعينيه، مسرعاً، وراء عويناته. وكان رد الفعل هذا الذي حجبه عن الجميع مألوفاً، عندما يجد أن عليه احتمال أمر غير متوقع.

ماكان يامادا ليمد يداً إلى أي شيء ينتمي للأمير ماتسوجاي قط، وقد توقع من سيده أن يبدي مراعاة له بالمقابل. فقد كانت هناك، على سبيل

المثال، حادثة وقعت في الخريف الماضي، حيث جمع أطفال الأجانب الـذين يقـطنون الـدور الواقعـة خارج البـوابة بعضـاً من جوز البلوط، فيـها كانـوا يلهـون في أراضي الضيعة. وأقبـل أبناء يـامادا ليلعبـوا معهم، ولكن حينما قـدم الأطفال الأجـانب إليهم نصيباً من جـوز البلوط رفضوه مستفـظعين، ذلـك أن أباهم قـد حذرهم بقسـوة من لمس أي شيء يملكه السيـد. وأساء الأطفال الأجانب رد فعلهم، وفيها بعد جاء والد أحدهم إلى يامادا شاكيـاً. وعندما علم، على هذا النحـو، بما وقـع، استدعى أبنـاءه الجادين، الجهمي الوجوه، بأفواههم المتقلصـة إلى أسفل، في تـوقير مـذعن دائم، وأشاد بهم كثيراً لسلوكهم هذا.

وفيها هو يفكر في هذا، اندفع قـدماً بتصميم بـائس إلى وسط الضيوف، والنصف الأسفل من الهاكـاما التي يـرتديهـا ينسدل فضفـاضاً حـول قدميـه المتقلقلتين، وراح يوجههم محموماً نحو خشبة المسرح.

في هـذه اللحظة عـلى وجه الـدقة، ومن وراء الستـار الأحمـر والأبيض، الذي امتد في شبه دائرة عنـد مؤخرة خشبـة المسرح، صدرت قـرقعة حـادة عن العصاتين المدويتين، اللتين تعلنان بدء العرض. فاندفـع هذا المؤشر في الهواء المسائي، وبـدا أنه يجعـل النشارة الحـديثة التي تنـاثرت عـلى الألواح الخشبية تتراقص للحظة.

- ١٩ -

لم تتح لكيواكي وساتوكو فرصة الانفراد بنفسيهما، إلى أن حانت فرصة استراحة قصيرة بعد الرقص، فيما كانت الظلمة تشرع أخيراً في إسدال سترها. كان هذا هو الوقت المخصص لانتقال الضيوف إلى الدار الغربية الطراز حيث ستقام المأدبة. اختلطت فتيات الجيشا مرة أخرى ليصغين إلى الإشادة الفائقة بأدائهن، فيما الجميع عاكف على الشراب بانطلاق. كانت تلك هي اللحظة الغريبة الجاثمة على أكناف المساء، حينما تنضوي المصابيح فيما لا ضرورة له، عندما يجد المرء، حتى في وسط تجمع بهيج، أن شعوراً غامضاً بالتقلقل يجثم على نفسه.

التفت كيواكي عامداً إلى الوراء، في اتجاه ساتوكو، فأدرك أنها حريصة على أن تتبعه، على مسافة تشي بالحذر. عند نقطة يتفرع فيها الطريق المفضي من التل إلى فرعين، أحدهما يصل إلى البحيرة، والآخر إلى البوابة الأمامية، كانت هناك فتحة في الستار الأحمر والأبيض. انتصبت هاهنا شجرة كرز ضخمة، يكفل جذعها السميك الحماية من العيون الفضولية المحدقة. انسل كيواكي من خلل الستار، وانتظر وراء الشجرة. غير أن ساتوكو قبل أن تتمكن من اللحاق به، أحاطت بها مجموعة من سيدات البلاط، تابعات الأميرة توين خلال إقبالهن من البحيرة في طريق عودتهن من جولة في تل القيقب. ولما كان كيواكي لا يستطيع الخروج من مكمنه في هذه اللحظة، فلم يكن هناك ما يستطيع القيام به إلا الانتظار في حمى الشجرة إلى أن تتمكن ساتوكو من الوصول إلى عذر تفلت به.

ترك كيواكي وحيداً، فمضى يتطلع إلى الشجرة التي تعلوه، وللمرة الأولى في ذلك اليوم منح بعضاً من تفكيره لبراعم الكرز التي تدلّت في تجمعات كبيرة من الخشونة السوداء للفروع كأنها كتلة من القواقع البحرية تناثرت على حيد مرجاني. جعلت الريح المسائية الستائر تنتفخ على امتداد الطريق، وعندما لمست أطراف الأغصان انثنت برشاقة في حفيف من البراعم، ثم بدأت الأغصان الكبيرة المنتشرة أنفسها في التأرجح في جلال رفيق، تحت وقرها من البياض. مست شحوب الزهور هنا وهناك التجمعات الحمراء الوردية للبراعم، وبإحكام يوشك أن يخفي عن الأنظار مس اللون الأحمر الوردي قلب كل برعم بشكله النجمي، بضربات حادة صغيرة، كأنها درزات تمسك بزر في موضعه.

أعتمت السماء، وشرعت الحافة الخارجية للسحب في التماوج، فيما هي تختلط بعتمة السماء، وبدأت البراعم ذاتها التي تحولت إلى كتلة هائلة واحدة في فقدان لونها المميز مكتسية بظل لا يمكن تمييزه على وجه التقريب عن السماء المسائية. وفيما هو يرقب هذا كله، بدا أن سواد جذع الشجرة وأغصانها يتزايد باطّراد ثقلاً وجهامة.

ومع مرور كل دقيقة، كل ثانية، راحت البراعم تمعن الغوص إلى قرار حميمية أكثر عمقاً وعتمة مع السماء التي جللها المساء، فأطيح بكيواكي إلى رحاب مشاعر حافلة بالنذر.

ظن أنه رأى بطرف عينه الستار وهو ينتفخ من جديد أمام الريح، لكن ساتوكو هي التي كانت تدفعه، فيما هي تنسل عبر الفتحة. أمسك بيدها، التي بدت باردة حين لمسها من جراء لذعة النسيم الليلي.

قاومته، وتطلعت حولها في قلق، عندما حاول تقبيلها، ولكن بما أنها كانت تحاول كذلك حماية كيمونوها من الأشنة، التي كساها التراب على جذع الشجرة، فقد تمكن من معانقتها بسهولة.

ـ هذا يكسر فؤادي، أرجوك، إليك عني، يا كيو!

أبقت ساتوكو صوتها خفيضاً، خوفاً من سماع الآخرين له، وأغضبت سيطرتها على نفسها كيواكي، فقد عقد العزم على أن يحظى بما لا يقل عن تحقق فائق مترع بالنشوة في تلك اللحظة. هنالك تحت البراعم زاده زفيف الريح الليلية المتفاقم قلقاً على قلق، فدفع في يأس دفعاً إلى الإمساك بناصية لحظة واحدة يقينية من السعادة لهما معاً بغض النظر عن كل ما عدا ذلك؛ ومن هنا جاء إحباطه حينما اكتشف أن أفكارها تعلق بجلاء في أفق آخر، كان شأنه شأن الزوج الذي استبدّت به الغيرة حدّ الإصرار على القول بأن زوجته تتراءى لها الأحلام ذاتها التي تساوره.

لم تبد ساتوكو أكثر جمالاً قط منها الآن، وقد أغمضت عينيها، وهي لاتزال تقاوم بين ذراعيه. ولكن على الرغم من أنه لم تكن هناك سمة ولا لمحة تنتقص من رقة محياها، فقد وسم بميسم مراوغ وعابر من العناد. قلب طرف شفتيها إلى أعلى قليلاً، فحاول في قلق أن يتبين ما إذا كانت تبتسم أو تبكي، لكن محياها كان يسبح بالفعل في ظلٍّ غامر، وقد خيَّم عليهما تقريباً نذير من ظلام. تطلّع إلى أذنها، نصف المختبئة في شعرها، وبلمسة اللون الأحمر الوردي فيها واستدارتها البديعة جعلته روعتها يفكر في تجويف مرجاني، قد يتراءى في حلم، محتوياً أيقونة صغيرة جميلة منحوتة لبوذا. كان ثمة ما هو غامض فيما يتعلق بتجويف أذنها، الذي راح الآن يتراجع في الظلام. أترى احتجب فؤادها هنالك، أم أنه اختفى وراء شفتيها الرفيعتين وأسنانها المتألِّقة؟

راح يتساءل بشعور بالإحباط أخذ الضيق بأكنافه كيف استطاع على الإطلاق أن يخترق دفاعات ساتوكو، ثم فجأة، وكأنها لم تعد تطيق احتمال نظرته، دفعت بوجهها نحوه، وقبّلته. التفّت إحدى ذراعيه حول خصرها، أحس بدفء يشع ذاته متخللاً أطراف أصابعه التي استقرت على عجيزتها،

والتي ذكُرته على نحو ما بالطقس العذب والمتجدد لصوبة نباتية تحتضر زهورها.

أفعم عبق الأمر خياشيمه، ومنحه شعوراً بهيجاً بالغوص في تضاعيفه. وعلى الرغم من أنها لم تفه ببنت شفه، إلا أنه كان في قبضة الصور التي رسمها خياله، واقتنع تماماً بأنه على حافة لحظة من بهاء لا نظير له.

انتزعت فمها، لكن هذا ترك شعرها الغزير ملتصقاً بصدر سترة زيّه المدرسي، راح يحدق فوق رأسها في أشجار الكرز على مبعدة، فيما وراء الستار، بينما اكتست حوافها بالفضة، دار رأسه من عذوبة عبق زيت شعرها، الذي امتزج بعرف البراعم ذاتها. وقفا في مواجهة آخر ضوء منحته الشمس، كأنه صوف أبيض، كثيف، خشن، ولكن لونها الذروري الضارب إلى اللون الفضي ـ الرمادي، ما كان بمقدوره أن يمحواللون الوردي الخفيف، حتى من منظور كيواكي المتطير. فجعله يفكر في مواد التجميل التي يستخدمها الحانوتي.

في غمار هذا، أدرك فجأة أن الدموع تتحدر على وجنتيها. وإذ ابتلي بالروح الخالصة للبحث، دفع دفعاً إلى محاولة تبين هوية هذه الدموع، وما إذا كانت دموع بهجة أو أسى، لكنها كانت أسرع منه.

انتزعت نفسها منه، ثم دون التوقف لتجفف دموعها، حدَّقت فيه، وقد تغيرت طريقة تصرفها تماماً، وانهالت عليه بكلمات لاذعة لا أثر فيها للمودة:

ـ ما أنت إلا طفل، يا كيو، طفل لا أكثر! لست تفهم شيئاً، بل ولا تحاول أن تفهم. لماذا أتمسَّك بك كثيراً؟ كم أتمنى لو كنت علمتك ما تعرفه عن الهوى. إنك تعتز بنفسك كثيراً. أليس كذلك؟ ولكن الحقيقة، يا كيو، هي أنك لا تعدو أن تكون مجرد طفل وليد. آه، لو أنني أدركت ذلك

فحسب! لو أنني حاولت بمزيد من الجد مساعدتك! الآن فات الأوان.

بعد هذا الانفجار، انسلّت مختفية، عبر الستار، تاركة الشاب، وقد سحق أي انسحاق، يضرب أخماساً في أسداس.

ماذا جرى؟ لقد انهالت عليه، بدقة لا تعرف الخطأ، هاتيك الكلمات التي أُعدت لتحدث أعمق الجراح في نفسه، كأنها سهام وجهت إلى نقاط ضعفه، وقد سقتها سمّاً مقطّراً من الشكوك الأكثر إيغالاً في مطاردته. عليه أن يقلع عن التفكير في الفعالية الغريبة لهذا السم. يتعين عليه أن يحاول التوصل على وجه الدقة إلى سبب حدوث هذا التبلور للخبث المحض.

لكن فؤاده راح ينبض مهتاجاً في صدره، ومضت يداه ترتعشان. قهره غضب مرير للغاية، حتى أوشك على البكاء. ما كان يمكن أن يصبح موضوعياً ويحلل ببرود الانفعال الذي اجتاحه. والأسوأ من ذلك أنه يتعين عليه أن يعود مجدداً إلى الضيوف. وفي وقت لاحق من المساء، لن يكون هناك مهرب، فعليه أن يتبادل حديثاً ودياً كأنما لا شيء يأخذ بخناقه. لم يستطع تخيل مهمة يشعر بأنه أقل استعداداً للاضطلاع بها.

- ٢٠ -

أما فيما يتعلق بالمأدبة فقد مضى كل شيء على نحو ما أعدَّ له، وتوجت بخاتمة ناجحة دون أن تكون هناك أية أوجه قصور ملحوظة للضيوف. وجاء تفاؤل ماتسوجاي الطبيعي برهاناً يقف ضد كل دقائق التخوف. وقد أحس هو نفسه بالاغتباط، ولم يحلم قط بأن أياً من ضيوفه سيخالجه إحساس غير ذلك. وفي مثل تلك اللحظات يدرك قيمة زوجته الباهرة، على نحو ما كشف حوارهما الذي أعقب المأدبة.

استهل ماتسوجاي الحديث بقوله:

- يبدو أن الأمير والأميرة استمتعا بوقتهما، من البدء إلى الانتهاء. أليس كذلك؟ أحسب أنهما مضيا إلى دارهما سعيدين تماماً. ألا تعتقدين ذلك؟

ردت زوجه:

- ذلك أمر مسلم به. ألم يكلف سمو الأمير نفسه عناء الإشارة إلى أنه لم يُمضِ مثل هذا اليوم البهيج منذ وفاة الأمبراطور؟

- لم تكن تلك أفضل طريقة يستطيع بها صياغة هذا المعنى. ولكني أعرف ما يقصده. ولكن مع ذلك - أن يمضي المرء الوقت من منتصف الأصيل حتى وقت متأخر من الليل - ألا تعتقدين أن ذلك ربما كان مرهقاً للغاية بالنسبة للبعض منهم؟

- كلا، كلا، على الإطلاق. فقد قمت بترتيب الأمور بحذق بالغ، وتتابعت ألوان الترفيه أحدها بعد الآخر، بحيث انساب كل شيء على نحو

طيب بصورة عجيبة. لا أعتقد أن ضيوفنا، كانت لديهم لحظة واحدة يستشعرون السأم فيها.

- ألم يغطّ أحد في النوم خلال عرض الفيلم؟

- آه، كلا. فقد كانوا جميعاً يتابعون بمزيد من الفضول، من البداية حتى النهاية، ويرصدون الأحداث بأعظم قدر من الاهتمام.

- ولكن، كما تعرفين، فإن ساتوكو تلك فتاة رقيقة القلب، إنني أعتقد أن الفيلم كان عاطفياً تماماً، ولكنها كانت الوحيدة التي بلغ بها التأثر حد البكاء.

وفي حقيقة الأمر، إن ساتوكو كانت تبكي دون أن تملك السيطرة على نفسها طوال العرض. وقد لاحظ ماتسوجاي دموعها عندما أضيئت الأنوار.

شق كيواكي طريقه إلى غرفته، وقد أخذ الإعياء منه كل مأخذ. فتح النافذة وتخيل أن السلاحف النهّاشة تتجمع معاً في تلك اللحظة، رافعة رؤوسها الخضراء ذات البريق المعدني، فوق سطح البحيرة المعتم لتطيل النظر باتجاهه. أخيراً، دق الجرس الذي يستدعي إينوما، الذي كان بالدار على الدوام منذ تخرجه من المدرسة الليلية.

لم يحتج إينوما لدى ولوجه الغرفة إلا إلى نظرة واحدة ليدرك أن الغضب والإحباط قد عقدا وجه السيد الشاب. وكان، في الأسابيع الأخيرة، قد أحرز مهارة معينة في قراءة ما يرتسم على الوجوه، وهي موهبة كانت حتى وقت قريب بعيدة تماماً عن مطاله، وأصبح حاذقاً بصفة خاصة في قراءة تعابير وجه كيواكي، الذي يحتك به يومياً، وتذكّره التعابير المرتسمة على محياه بالشظايا المدومة لكأس ملونة استقرت على نماذج متواصلة التغير في داخل منشور ضوئي.

وكنتيجة لذلك، فإن تـوجهه وهيئتـه شرعا في التغـير. فحتى وقت ليس بالبعيد، كان من شأن وجـه سيده الشـاب، إذ يكتئب على هـذا النحو من جـراء القلق والأسى، أن يفعما نفسـه بـالمقت، لما حكم عليـه بـأنـه تـراخ متكاسل من جانب كيواكي. ولكنـه الآن غدا بمقـدوره النظر إليـه باعتبـاره رهافة في المشاعر.

وفي حقيقة الأمر، فإن البهجة والتدفق بالحيوية لم ينـاسبا كيـواكي؛ فقد كان لجماله قالب مكتئب، ولذا كان يبدو أكثر جاذبية عندما يقع تحت طائلة الحنق أو الأسى، ومع هذين كانت هناك على الدوام إشارة نائية إلى الطفـل المدلل كنـوع من صورة الـظل. وفي أوقات كهذه كانت وجنتـاه الشاحبتـان تصبحان أكثر بياضاً، وتحمـر عيناه الجميلتـان، ويلتوي في تقـطيبة حـاجباه البديعا التقوّس. وتبدو روحه بأسرها وكأنها ترتجف كأنما تهشّم عالمه الداخـلي بـأسره. ويلوح أنه بحـاجة إلى مـا يتشبث به عـلى نحو يـائس. وعلى هـذا النحو فإن لمسة العذوبة تتأرجح وسط كآبتـه، كأنها صـدى أغنية يـتردد عبر أرض يباب.

لما كان كيواكي قد لـزم الصمت، فقد اقتعـد إينومـا المقعد الـذي اعتاد مؤخـراً الجلوس عليه حتى ولـو لم يدعـه كيـواكي إلى ذلـك، ثم مـدّ يـده، وشرع في قـراءة قائمـة طعام المـأدبة، التي ألقـاها كيـواكي عـلى المنضـدة. شكلت الأطباق المدرجة بالقائمة وليمة علم إينوما أنه لن يذوق لها طعماً قط مهما تطاولت السنوات التي يخدم خلالها آل ماتسوجاي.

وليمة عشاء عيد تبرعم الكرز

٦ إبريل ١٩١٣

العام الثاني من عهد تايشو

حساء

حساء السلاحف: قطع مختارة من لحم السلاحف في حساء رقيق.

حساء الدجاج: حساء رقيق مع شرائح رفيعة من الدجاج.

الأطباق الرئيسية

السلمون المرقط المهروس: معد في النبيذ الأبيض واللبن.

شرائح لحم البقر المشوية: معدة مع الفطر المنضج بالبخار.

السمان المشوي: محشو بالفطر.

شرائح لحم الغنم المشوية: مجملة بالكرفس.

أكباد الأوز المهروسة: تقدم مع تشكيلة من لحوم الطيور الباردة وشرائح الأناناس في النبيذ المثلج.

ديكة المصارعة المشوية: محشوة بالفطر.

سلطات حسب الاختيار.

الخضراوات

الهليون البازلاء الخضراء

معدة مع الجبن

الحلوى

القستر الفرنسي البتي فور

الآيس كريم: أنواع حسب الاختيار.

واصل كيواكي التحديق في إينوما، بينما كان الأخير عاكفاً على قراءة قائمة الطعام، والتعابير تتوالى واحداً وراء الآخر على وجه الأول. للحظة، بدت عيناه وقد أفعمتا بالازدراء التام، وفي اللحظة التالية، لاحتا مترعتين بنداء بائس. ضايقه أن يجلس إينوما هنالك باهتمام خلا من الحساسية منتظراً أن يبدأ هو بقطع حبل الصمت. لو أن إينوما كان قادراً فحسب على نسيان علاقة السيد بالتابع، في تلك اللحظة، ووضع يده على كتف كيواكي كأخ أكبر، ما كان أسهل البدء بالحديث عندئذ.

لم يخطر له ببال أن الشاب الجالس أمامه كان مختلفاً عن إينوما الذي

اعتاده. وكان مالم يدركه هو أن إينوما، الذي استحوذ عليه في وقت من الأوقات الكف الخشن لعواطفه، قد توصل الآن إلى نوع من الاحتمال الهادىء حياله. وعلى الرغم من افتقاره إلى التجربة، فقد خطا خطواته الحذرة الأولى إلى عالم المشاعر الدقيقة الخفية.

قال كيواكي، في نهاية المطاف:

ـ لست أتصور أن لديك أدنى فكرة عما يدور في ذهني. لقد أهانتني الآنسة ساتوكو، على نحو رهيب، حدثتني كما لو كنت مجرد طفل، بل وذهبت إلى حد القول بأنني في كل شيء تصرفت حتى الآن كطفل صغير أحمق. لا، في حقيقة الأمر قالت ذلك بكلمات عديدة للغاية، انهالت عليّ بكل ما يمكن أن يؤلمني أكثر من غيره، كأنما خططت لكل شيء بعناية. لست أفهم كيف حملت نفسها على القيام بهذا. الآن، أدرك أن تلك النزعة في ذلك الصباح الثلجي ـ وهي من بنات أفكارها ـ الآن أعرف أنني لم أكن إلا ألعوبة طاب لها أن تعبث بها.

صمت كيواكي لحظة، أضاف:

ـ ولكن ليست لديك فكرة على الإطلاق عن النحو الذي كانت عليه الأمور حقاً؟ ألم تقل لك تاديشينا على سبيل المثال أي شيء على الإطلاق بدا لك مريباً؟

أمعن إينوما التفكير للحظة، قبل أن يرد:

ـ طيب، لا، يا سيدي. لم أسمع أي شيء.

لكن صمته المرتبك تشبث بأعصاب كيواكي كأنه خل.

ـ إنك تكذب، يقيناً إنك تعرف شيئاً ما.

ـ لا، يا سيدي، لا أعرف.

غير أن إينوما، في نهاية المطاف، وتحت ضغط أسئلة كيواكي، كشف ما كان

قد عقد العزم على ألا يكشف النقاب عنه. إن القدرة على استشعار الحالة المزاجية لرجل ما هي شيء يختلف تمام الاختلاف عن تخمين رد فعله المحتمل. وهكذا لم يدرك أن كلماته ستنهال على كيواكي بقوة بلطة تنقضّ.

- «هذا ما حدَّثتني به مايني، يا سيدي، وأنا الوحيد الذي أبلغته بذلك. وقد وعدت مخلصة بألا أتفوه بكلمة واحدة لأي شخص آخر. ولكن بما أن الأمر يتعلق بالسيد الشاب، فأحسب من الأفضل أن أكشف النقاب عنه. في يوم الحفل العائلي للعام الجديد، كانت الآنسة أياكورا هاهنا في الدار. إنه اليوم الذي يخصصه والدك الأمير لدعوة كل أطفال أقاربكم إلى الدار؛ للترفيه عنهم، والتحدث معهم، والاستماع إلى مشكلاتهم، كما تعلم. وهكذا، حدث أن والدك الأمير سأل الآنسة أياكورا، على نحو ضاحك، عمَّا إذا لم تكن لديها أية مشكلات ترغب في أن تناقشها معه. وقد ردَّت، على نحو ضاحك كذلك، فيما يبدو، «بلى، في الحقيقة لديّ موضوع شديد الخطورة، أريد مناقشته معك، يا أمير ماتسوجاي، وأتساءل عما إذا كان بمقدوري الاستفسار عن وجهات نظرك فيما يتعلق بالتربية.

«عند هذا الحدّ يتعينّ أن أحدِّثك، يا سيدي، بأن هذه الواقعة بأسرها حكاها لمايني الأمير باعتبارها - طيب، ما يسمى بحكاية في الفراش».

وقد كبَّدت هذه الكلمات إينوما ألماً يستعصى على الإفصاح - وهكذا حكاها لها بالتفصيل، باعتبارها حكاية في الفراش، مغرباً في الضحك فيما هو يرويها. وهكذا حكتها لي تماماً كما قال إنها حدثت. على أية حال، فقد أثارت الآنسة أياكورا اهتمام والدك الأمير فسألها: آرائي في التربية، تقولين؟

وعندئذ قالت الآنسة أياكورا: طيب، بحسب ما سمعت من كيو فإن أباه يبدو من كبار دعاة المنهاج التجريبي. لقد قال لي إنك دعوته إلى جولة

ترشده فيها في عالم فتيات الجيشا، لكي يستطيع تعلم خير سبيل للتصرف هناك. ويبدو أن كيو سعيد للغاية بالنتائج إلى حد الشعور بأنه أصبح الآن رجلاً مكتمل الرجولة. ولكن حقاً، يا أمير ماتسوجاي، أصحيح أنك تصديت لاتباع الأسلوب التجريبي؟ حتى ولو على حساب الأخلاق؟ لقد فهمت أن الآنسة طرحت هذا السؤال المحرج بالطريقة اليسيرة، التي لا عناء فيها، والتي درجت عليها. وقد انفجر الأمير نفسه ضاحكاً، ثم ردَّ قائلاً: ياله من سؤال صعب! ذلك هو نوع الأسئلة عينه الذي تطرحه هاتيك الجماعات الاصلاحية في التماسها على البرلمان. طيب. لئن كان ما قاله كيواكي صحيحاً لكان بوسعي تدبر ما أدافع به عن نفسي. ولكن الحقيقة هي ما يلي: لقد رفض كيو نفسه تلك الفرصة التربوية عينها. وكما تعلمين فإنه ممن يزدهرون متأخرين. إنه شديد الصمود، ومن العسير تصديق أنه من صلبي. من المؤكد أنني طلبت منه القدوم معي. ولكني لم يتح لي الوقت لفتح فمي، إلا وقد اتخذ موقفاً عدائياً، وانطلق مسرعاً، في حنق بالغ. ولكن كم كان ذلك مسلياً! فعلى الرغم من أن هذا هو ما حدث بالفعل إلا أنه افتعل قصة ليجد ما يتباهى به أمامك حوله. غير أنني يؤلمني التفكير في أنني قد ربيت فتى يأتي على ذكر الحي ذي الأضواء الحمراء، أمام فتاة أرستقراطية، مهما كان مدى صداقتها. لسوف استدعيه الآن وأعرفه مدى فخري بسلوكه، فقد يقنعه ذلك بالخروج والانطلاق إلى إحدى دور الجيشا.

«ولكن الآنسة أياكورا توسلت لأبيك الأمير، وأقنعته، في نهاية المطاف، بالتخلي عن مثل هذه الفكرة المتسرعة. وجعلته كذلك يعد بنسيان ما حدثته به. وهكذا أحجم عن ذكر الأمر لأي شخص آخر وفاء بوعده. ولكنه، في النهاية، حدَّث مايني بالأمر، ضاحكاً طوال الوقت ومستمعاً بجلاء بالأمر كله، لكنه حذرها أشد التحذير من أن تقول لأحد شيئاً في

هـذا الصدد. ومـايني امرأة، بـالطبـع، وهكذا لم تستـطع إمساك نفسهـا، فأبلغتني وحدي بـالأمر أخيـراً. ولقد أدركت أن الأمـر متعلق بشرف السيد الشـاب، فهددتهـا بحزم قـائلاً إنـه إذا ذاع أمر هـذه القصة أكـثر من ذلك فسوف أقطع صلتي بها في الحال. ولقد أفزعتها الطريقة التي قلت بها هذا، إلى حد أنني لا أعتقد أن هناك خطراً من انتشار هذه الحكاية».

ازداد شحوب كيواكي، وهو يصغي إلى الصورة التي رسمها إينوما. كان مثـل رجل يتلمس مهتـاجـاً في الضبـاب الكثيف، لاطـماً رأسـه بعقبة إثـر الأخـرى، إلى أن انحسر الضباب، فجـأة، من حولـه، ليكشف عن صف من الأعمـدة المرمـرية البيضـاء. لقد اتخـذ القلق غير المتبلور الـذي غمـره شكلاً بالغ الوضوح، الآن.

لقد قرأت سـاتوكـو الرسـالة، في نهايـة الأمر، رغم انكـارها لـذلك، وبالطبع فقد أثارت إلى حد ما استياءها، ولكنها عنـدما اكتشفت من الأمـير نفسه، في الحفل العائلي للعـام الجديـد، أن الأمر ليس إلا كـذبة، أخـذتها النشوة وازدهاها الفرح حيـال «أسعد عـام جديـد» لها. الآن أدرك السر في أنها قد فتحت قلبها له بانفعال بالغ وعلى نحو مفاجىء في الاسطبل خـلال ذلك اليوم. وأخيراً واتتها الجـرأة، وقد بلغت ثقتهـا أقصاهـا، لدعـوته إلى الذهاب لتلك النزهة عبر ثلج فبراير.

لم يفسر هـذا التكشف سر دموع سـاتوكـو اليوم، ولا التقـريـع القـاسي الذي ناله منها. ولكنه كان من الـواضح بجـلاء له أنها كـانت كاذبـة، من البداية إلى النهاية، وإنها كانت تسخر منه سراً من المبتـدأ إلى المنتهى. ومهما اجتهـد المـرء في الـدفـاع عنهـا فلم يكن هنـاك سبيـل إلى إنكـار أنها قـد استشعرت لذة سادية في إلحاق الهزيمة به.

حـدَّث نفسه بمـرارة قائـلاً: إنها، من ناحيـة، تتهمني بـالتصرف كـأنني طفـل، ومن ناحيـة أخرى مـا أشد وضـوح حقيقة أنها قـد تصرفت كما لـو

كانت تريدني أن أظل على هذا الحال إلى الأبد. ما أشد دهاءها! إنها تتخذ مظهر المرأة التي تحتاج إلى من تعتمد عليه في اللحظة عينها التي تعد لإحدى مكائدها المفتقرة إلى الضمير. تتظاهر بأنها تهيم به إلى حد العبادة، ولكنها في حقيقة الأمر ترعى وليداً لم يشبّ عن الطوق.

لما كان الضيق قد أخذ منه كل مأخذ، فإنه لم يتوقف ليفكر في أن رسالته هي التي أطلقت كل شيء من عقاله، وأن كذبته هي التي حركت سلسلة الأحداث. وكل ما استطاع أن يتبيّنه هو أن بؤسه بأسره ينبع من خيانة ساتوكو.

لقد جرحت كبرياءه في مرحلة من الحياة ـ الانتقال المؤلم من الصبا إلى الرجولة ـ لم يكن هنالك فيها ما هو أغلى عنده من تلك الكبرياء. وعلى الرغم من أن الأمر في حد ذاته من شأنه أن يبدو تافهاً لمن هو في سن النضج ـ على نحو ما أظهر ضحك أبيه بجلاء ـ فقد كان تفاهة ثقلت مع ذلك على اعتداده بنفسه. ولم يكن هناك بالنسبة له، وهو في التاسعة عشرة من عمره، ما هو أشد رهافة وقابلية للتحطم من هذا الاعتداد بالذات. وسواء أكانت أدركت هذا أم لم تدركه فقد داست ذلك الاعتداد، بافتقار للحساسية، يستعصى على التصديق. خامره شعور بالغثيان من فرط الإحساس بالعار.

راح إينوما يرقب محياه الأبيض، في الصمت المتطاول، بإشفاق، ولكنه لم يدرك أي لطمة صاعقة كالها له لتوه. إن هذا الفتى الوسيم لم يدع فرصة واحدة تفلت منه لإيقاع الهزيمة به، والآن ودون أي أثر للانتقام في مقاصده هاهو قد سحق كيواكي سحقاً. فضلاً عن ذلك فإنه لم يسبق له أن شعر بأي شيء على مثل هذا القدر من العاطفة الغامرة نحوه في هذه اللحظة وهو يرقبه وقد نكس رأسه.

اتخذت أفكاره سبيلاً أكثر رقة وعاطفية: لسوف يساعد كيواكي في

النهوض والرقاد في فراشه. ولئن شرع الفتى في البكاء، فإنه سيبكي بدوره تعاطفاً. ولكن عندما رفع كيواكي رأسه، بدت ملامحه صارمة ومتصلبة، ولم يكن هناك أثر للدمع، وبددت نظرته النفاذة، الفاترة، كل التصورات الخيالية التي راودت إينوما.

قال:

- ليكن. بمقدورك الذهاب الآن، لسوف آوى إلى فراشي.

نهض واقفاً، دونما معاونة، ودفع بإينوما دفعاً نحو الباب.

- ٢١ -

في اليوم التالي، اتصلت تاديشينا هاتفياً مرات عديـدة، لكن كيواكي أبى أن يتوجه إلى الهـاتف، وعندئـذ طلبت محادثـة إينومـا، وأبلغته بـأن الأنسة ساتوكو ترغـب مـهـما كلف الأمر في التحدث مباشرة مـع السيد الشـاب، وهل لإينومـا في أن ينقل ذلـك إليه. غـير أن كيواكي أصـدر إليه تعليـمات مشددة، وهكذا لم يكن بمقدوره التصرف كوسيط. وأخيـراً، بعد عـدد من الاتصالات الهاتفية، حادثت ساتوكـو نفسها إينـوما، غـير أن النتيجة ظلت على حالها: رفضه القاطع.

تواصلت المحادثات الهاتفية طوال عدة أيام، محـدثة ضجـة يُعتدّ بهـا في صفـوف الخادمـات. ولم تتغير استجـابة كيـواكي. وأخيراً جـاءت تاديشينـا بنفسها.

استقبلها إينوما عند مـدخل جـانبي معتم. جلس على عقبيـه على عتبـة المدخل، وكل طيّة من طيات هاكاماه القطنية في موضعها، وقد عقد العـزم على ألا يدع تاديشينا تخطو خطوة واحدة داخل الدار.

ـ السيد الشاب غائب عن الدار؛ ومن هنا فليس بمقدوره استقبالك.
ـ لا أعتقد أن هذا صحيح تماماً. غير أنه إن كان كـذلك فهـلا تفضلت باستدعاء السيد يامادا!

ـ حتى وإن قابلت السيد يامادا، فـإنني أخشى أن الأمر لن يختلف، فلن يراك السيد الشاب.

ـ ليكن إذن! إذا كان هذا هو شعورك. لسوف اسمح لنفسي بـالقدوم، دونما دعوة، ومناقشة الأمر مباشرة مع السيد الشاب نفسه.

ـ أنت حرة، بالطبع، في الدخول كما تشائين، ولكنه معتكف في غرفته، وليس هناك سبيل للوصول إليه، ثم أحسب أن مهمتك ذات طبيعة سرية، فإن كشفت عنها للسيد يامـادا، فقد يثـير ذلك بعض الأقـاويل في الـدار، ويصل الأمر إلى مسامع سمو الأمير. غير أنه إذا كـان هذا الاحتـمال لا يثير انزعاجك على نحو ما ينبغي. . .

لم تفه تاديشينا ببنت شفه، وفيما هي تحدِّق بكراهية في إينـوما، لاحـظت مدى الوضـوح الذي تـبرز به بثـوره، حتى في عتمة المـدخل. وكـانت هي نفسها تقف في مواجهة النهار الربيعي المشرق، والأطراف الخضراء الشاحبة لشجـرة الصنوبـر تتألق في سنـا الشمس. ذكّره وجههـا العجوز، الـذي لم تختف تجـاعيـده تحت طبقـة الذرور الأبيض، بشبـح مصـور عـلى الـورق الكـريبي. التمع الخبث بحـدة في عينيها الغـائـرتـين في عشيهـما من الجلد المتغضن.

ـ أشكرك كثيراً. واحسب أنك على الرغم من أنك تمتثل فحسب لأوامر السيد الشاب نفسه، إلا أنك لا بد على استعداد لتحمل عـواقب محادثتـك لي على هذا النحـو. حتى الآن أعملت خدمتي لصـالحك أيضـاً، إلى درجة يعتد بها، ومن الآن فصاعداً لن يكون من الحكمة الاعتـماد على ذلـك أكثر مما ينبغي، أرجو أن تتلطف بنقل تقديري للسيد الشاب!

بعد أربعة أو خمسـة أيام، جـاءت رسالـة سميكة من سـاتوكـو. وكانت تاديشينا عـادة تعطي الـرسائـل الموجهـة لكيواكي إلى إينـوما مبـاشرة بقصد تجنب يامادا. أما هذه المرة فقد وضعت الرسالـة على صفحـة مطليـة باللك الذهبي، تحمل شعار العائلة، وأوصلها يامادا علناً إلى غرفة كيواكي.

كلف كيـواكي نفسه عنـاء استدعـاء إينومـا إلى الغـرفـة، وأطلعـه عـلى الـرسالـة، التي لم يفضها، ثم طلب منـه فتح النـافـذة ، وبحضـوره ألقى بالرسالة في نار مدفأته. راح إينوما يرقب يده البيضـاء، وهي تقلب النار في المدفأة، المحتوية على خشب البولوقينا، متجنبة السنة اللهب الصغيرة، التي اندلعت بين الفينة والأخرى، مقلباً النار حيثما هددت الرسالة بإخماد النار. ساور إينوما شعور بأن شكلاً خالصاً من أشكال الجريمة يقترف أمـام عينيه. ولو أنه ساعد في الأمـر لكان عـلى يقين من أنـه يمكن انجازه بكفـاءة أكبر، ولكنه لم يعرض تقديم يد المساعدة، خوفاً من أن يقـابل عـرضه بـالرفض، ذلك أن كيواكي قد استدعاه ليكون شاهداً.

لم يستـطع كيواكي تجنب الـدخان، الـذي ارتفع من الـورق المحـترق، فتدحرجت دمعة على خده. كان إينوما قد علّق الآمال، ذات يوم، على أن الانضبـاط الشديـد والدمـع من شأنهما مسـاعدة كيـواكي على الـوصول إلى موقف مناسب من الحياة. أما الآن فقـد جلس ناظـراً إلى الدمـوع، التي لا تعود إلى أي جهد بذله. ومضى يتساءل: ترى لماذا يساوره الشعور بالعجـز في حضور كيواكي؟

* * *

ذات يـوم، وبعد حـوالي أسبوع، وعنـدما عـاد مـاتسـوجـاي إلى الـدار مبكراً، خلافاً للمعتاد، تناول كيواكي طعام العشاء للمرة الأولى منذ أسابيع عديدة مع أبويه كليهما، في قاعة الاستقبال اليابانية في الدار الرئيسية.

قال الأمير، بمرح وحيوية:

ـ مـا أسرع ما يمضي الـوقت! في العـام المقبـل ستتلقى وسـام الـدرجـة الخامسة من طبقة الشبيبة، وبمجرد حصولك عليه سآمر الخدم بمخاطبتك بما يليق به.

كان كيواكي يخشى بلوغه سن الرشد، الذي كان في انتظاره في العام المقبل. وربما كان تأثير ساتوكو الراهن كامناً في قرار عدم اهتمامه المشوب بالضجر، وهو في التاسعة عشرة من عمره بوصوله إلى عمر النضوج. وقد خلف وراءه مرتبة الطفولة التي تجعل الصبي يحصي على أصابعه الأشهر الباقية على العام الجديد ويحترق بنفاد صبره انتظاراً لمقدم مرحلة الرجولة. وقد أصغى إلى كلمات أبيه بمزاج فاتر جهم.

مضت الوجبة، وفقاً لعرف ثابت: أمه بقناعها من الكآبة التقليدية، ورقتها التي لا تخذلها أبداً، وأبوه بوجهه المتفرج، وسخريته متعمدة المرح بالأطايب. ورغم ذلك، ونظراً للهاحيته، فإنه سرعان ما لاحظ شيئاً أثار دهشته: التقت عينا أبويه مرة، وإن لم يكن ذلك على نحو يمكن القول معه بأنهما تبادلا النظرات. لم يبد أن هناك شيئاً مطروحاً أكثر من مؤامرة الصمت المعتادة بينهما، وفيما كيواكي يتطلع إلى محيا أمه، اختلج التعبير المرتسم على ملامحها بعض الاختلاج، وتلعثمت لثانية في حديثها.

ـ الآن. . . يا كيواكي. . . هناك شيء أريد سؤالك عنه، قد لا يكون باعثاً على السرور كلّيّة، رغم أن وصفه بأنه داع للاستياء من شأنه أن يكون صنعاً لقبة من حبة، ولكني أود أن أعرف شعورك نحوه.

ـ وما هو؟

ـ طيب، الحقيقة أن الآنسة ساتوكو تقدم لها خطيب آخر، وهذه المرة الظروف معقدة ودقيقة للغاية، ولئن مضى الأمر قدماً أكثر من هذا، قد يكون هناك مجال للسماح برفض سهل ويسير. وكما هو الحال دائماً، فإن الآنسة ساتوكو لا تميل إلى إطلاع أحد على حقيقة مشاعرها، ولكني أشك في هذه المرة أنها ستميل إلى رفض صريح، على نحو ما فعلت في الماضي، ثم أن أبويها يميلان كذلك إلى القبول. فدعنا، إذن، نتحدث عنك! لقد كنت والآنسة ساتوكو مولعين أحدكما بالآخر، منذ كنتما وليدين. فهل لديك

ما تقوله ضد زواجها؟ كل ما عليك الآن هو أن تحدثنا بمشاعرك لا أكثر، ذلك أنه إذا كان لديك اعتراض، فأحسب أنه سيكون أمراً مفيداً للغاية أن يعلم أبوك السبب، على وجه الدقة.

قال كيواكي، في معرض الرد، دونما تعبير محدد يرتسم على ملامحه، وبغير تردد، بل ودون أن يكف عن إعمال عصي تناول الطعام:

- ليس لديَّ اعتراض على الإطلاق. إنه أمر لا يعنيني بأي حال من الأحوال.

أعقب ذلك صمت قصير، تحدَّث بعده الأمير، بلهجة أوحت بمدى هدوء حالته المزاجية:

- طيب، الآن، وعن الموضع الراهن لايزال التراجع ممكناً، ولو أننا افترضنا جدلاً أنك تحسب بأن الأمر يعنيك على نحو ما، ولو إلى أدنى درجة، فما هو قولك؟

- لست أشعر بأن الأمر يعنيني بحال من الأحوال.

- قلت لنفترض جدلاً. ألم أقل ذلك؟ ولكن لئن كان الأمر كذلك فلا بأس! أن هذه العائلة تطوق أعناقنا بدين قديم، ومن هنا فإنني أعتزم القيام بكل ما في وسعي للمساعدة، في إنجاز هذا الأمر، ولن أدخر جهداً في الوصول به إلى نهاية سعيدة لائقة. طيب، على أي حال هذا هو الوضع الراهن للأمور. في الشهر المقبل يحل عيد أومياساما، ولكن إذا اطّرد تقدم الأمور بالمعدل الراهن، فإنني أتصور أن ساتوكو ستجد نفسها مشغولة للغاية ولن تشارك في الاحتفال به هذا العام.

- في تلك الحالة، ربما ستكون فكرة موفقة ألا نتكبد عناء توجيه الدعوة لها.

قال الأمير، معرباً عن دهشته بضحكة عالية:

ـ طيب، هذه مفاجأة. لم تكن لديَّ فكرة عن أنكما تقفان لبعضكما بالمرصاد.

وكانت الضحكة هي نهاية المناقشة.

في نهاية المطاف، كان كيواكي بمثابة لغز لأبويه، واستجاباته العاطفية مختلفة تماماً عن استجاباتهما، وقد حاولا مرات عديدة سبر أغوار ما يفكر فيه، وعلى الدوام كان الاحباط يتوّج جهودهما، وهكذا استسلما بالفعل. وفيما يتعلق بالموضوع الحالي، وصل الأمر بهما إلى حد استشعار بعض الضيق حيال آل أياكورا لقيامهم بتعليم ولديهما، على الرغم من أنهما هما اللذان عهدا به إليهم. راحا يتساءلان عما إذا لم يكن ذلك السمو البلاطي ـ الذي طالما تاقا إليه كلاهما ـ مؤلفاً على وجه الدقة من ذلك التقلب المزاجي، الذي جعل من ولدهما شخصاً يصعب فهمه كأشد ما تكون الصعوبة. وعن بعد، كانت لهذا النبل جاذبية لا تنكر، ولكنهما عندما ووجها به في شخص ابنهما كانت النتيجة محيرة.

درج الأمير والأميرة، على الالتفاف بانفعالاتهما كأنها ثياب صبغت بالألوان البدائية الصارخة للمناطق الاستوائية، غير أن انفعالات كيواكي كانت مركبة على نحو مراوغ، كأنها طبقة فوق أخرى من الألوان في أردية سيدات البلاط، فهي ألوان تتداخل على الدوام، واللون البني الفاتح يوغل في الظل مقترباً من اللون القرمزي، والأخير ينحل فيغدو في خضرة نجيل الخيزران. وقد أصاب الانهاك والده من جراء مجرد محاولة حل لغز حالات ابنه المزاجية. أنهكته رؤية ابنه الوسيم وقد غرق في اللامبالاة الضجرة واعتصم بصمته الفاتر. وراح يفتش في حنايا ذكريات صباه، ولكنه لم يستطع استعادة ذكرى أي عذاب أدى إلى تصاعد ذلك

النوع من عدم الاستقرار الذي يحكم ابنه. كان كيواكي مثل بحيرة تكشف مياهها الصافية عن الفقاعات ذاتها في قرارها في لحظة، لتعتكر في اللحظة التالية، في انقلاب مفاجىء.

بعد لحظات قلائل، حادث الأمير مرة أخرى كيواكي:

ـ بالمناسبة، كنت أفكر في ترك إينوما يمضي لحال سبيله، في القريب.

ـ ولم ذلك؟

قالها كيواكي متسائلاً، وقد بدا مندهشاً بصورة حقيقية، للمرة الأولى في ذلك المساء. فقد كان هذا أمراً غير متوقع حقاً.

ـ لقد كان مخلصاً لك مدة طويلة، لكنك ستبلغ سن الرشد، في العام المقبل، وهو تخرج من الكلية؛ لذا أظن أن الوقت مناسب، وهناك كذلك سبب أكثر تحديداً، فقد نمت إلى علمنا شائعة تثير الاستياء إلى حد بالغ.

ـ أي نوع من الشائعات؟

ـ إن سلوكه في الدار غير منضبط. ولكي لا نجترّ الأقاويل، يبدو أنه كان على علاقة بإحدى الخادمات، وهي مايني، في سالف الأيام، كان حل الأمر يتمثل في اضطراري إلى قطع عنقه بسيفي.

فيما الأميرة تصغي إلى كلمات زوجها، كان تحفظها الهادىء جديراً بالإعجاب، ولسوف تكون الحليف المخلص لزوجها في كافة جوانب هذا الموضوع.

تساءل كيواكي ملحاً:

ـ ممن استمعت إلى هذه الشائعة يا أبي؟

ـ ذاك أمر لا أهمية له.

في التو، تراءى محيا تاديشينا أمام كيواكي.

ـ نعم، في الإيام الخوالي كان عليَّ قطع عنقه، لكن الزمان تغير، ثم إنه جاء إلى هنا بتوصية طيبة من الناس في كاجوشيما، وأنا أعرف الناظر العجوز لمدرسته الوسطى، الذي يجيء إلى هنا يهنئنا بالعام الجديد. من الأفضل تركه يمضي لحال سبيله، دون إثارة أي نوع من الضجة تلحق الأذى بفرص مستقبله. لا يتوقف الأمر على ذلك، وإنما أريد أن أعالجه بحذق، بحيث أيسر الأمور بالنسبة له، سأدع ماايني تمضي لحال سبيلها كذلك، وعندئذ إذا كانا لا يزالان يرغبان في الزواج، فلهما الحريّة، وأنا على استعداد لإيجاد عمل له. المسألة الرئيسية هي إبعاده عن الدار؛ ولذا سيكون من الأفضل أن نعالج الأمر على نحو لا يجعل لديه ما يستشعر ضغينة من أجله. هذا هو أفضل شيء. فهو في نهاية المطاف قد خدمك بإخلاص لمدة طويلة للغاية، وليس لدينا ما نشكو منه في هذا الصدد.

صاحت الأميرة، قائلة:

ـ ما أشد عطفك! وما أعظم كرمك!

مرَّ كيواكي بإينوما، في الدهليز، في تلك الليلة، لكنه لم يحدِّثه بشيء.

فيما هو راقد، وقد وضع يده على وسادته، بدا رأسه كتلة مدوِّمة من الصور. جوبه بالإدراك الصارخ لحقيقة أنه من الآن فصاعداً سيكون وحيداً. فلم يكن له صديق إلا هوندا، وهو لم يحدِّثه بشيء عن مشكلته، التي تواجهه على نحو فوري.

تراءى له حلم. وفي وسط هذا الحلم خطر له أنه لن يكون قادراً قط على تسجيله في مذكراته؛ فقد كانت الأحداث أكثر تعقيداً وإيغالاً في البعد عن العقلانية من أن تسمح له بذلك.

لاحت له كافة أنواع الوجوه. وبدت أرض الاستعراض التابعة للفوج الثالث المكسوة بالجليد ممتدة أمامه. هنالك وقف هوندا مرتدياً زي ضابط،

ثم ظن أنه رأى سرباً من الطواويس يستقر فجأة على الجليد. ورأى ساتوكو: كانت تحلي جيدها بقلادة تزينها الجواهر وعلى جانبيها وقف الأميران السياميان، يمسكان بتاج ذهبي، يوشكان أن يتوجاها به. وفي ركن آخر انهمك إينوما وتاديشينا في جدال محتوم، ثم رأى جسديهما المتشابكين يمضيان متدحرجين عبر الحافة، ويهويان إلى شق رحب فاغر الفوهة. أقبلت مايني راكبة عربة تجرها الجياد، وأقبل أبوه وأمه للقياها بابتسامات خانعة. ثم بدا أنه هو نفسه يجر على طوف مظلم، فوق محيط شاسع. حدَّث نفسه بينما كان في قلب هذا الحلم:

ـ إنني غارق بأكثر مما ينبغي في عالم أحلامي، لقد تدفقت منداحة إلى الواقع. إنها فيضان يكتسحني بعيداً.

- ٢٢ -

كان الأمير هارو نوري، الابن الثالث لسمو الأمير توين، عضو العائلة الأمبراطورية، قد احتفل مؤخراً بعيد ميلاده الخامس والعشرين، ومنح رتبة القائد العام في حرس الفرسان الأمبراطوري، وكان شهماً عالي الهمة بطبيعته، وعلّق أبوه عليه معظم آماله. ولاختيار عروس لمثل هذا الشاب المثالي لم يطلب أبوه وساطة أحد، وهكذا جُذب انتباه الشاب إلى مجموعة كبيرة من المرشحات، غير أن أياً منهن لم تنل رضاه. وعلى هذا النحو كرَّت الأعوام، وعندما أوشك الأبوان الأمبراطوريان على استنفاد ما في جعبتهما، انتهز الأمير ماتسوجاي الفرصة، ودعاهما لزيارته والاحتفال في ضيعته بتبرعم الكرز. وهناك قدمت إليهما بصورة عرضية ساتوكو أياكورا، فلفتت انتباههما تماماً، وعندما تلقى آل أياكورا في وقت لاحق طلباً ودياً بالحصول على صورة لها، سارعوا بالاستجابة وإرسال صورة لها، وهي ترتدي كيمونو رسمياً. وعندما أطلعا الأمير هارو نوري على الصورة لم يلق بتعليقاته الساخرة المعتادة، وإنما تطلع إليها لوقت طويل، فأصبح تقدم ساتوكو في العمر حتى سن الحادية والعشرين أمراً لا أهمية له.

أدرك الأمير ماتسوجاي حق الإدراك الدين الذي يطوق آل أياكورا عنقه به، لرعايتهم لكيواكي، في طفولته، وقد حرص منذ وقت طويل على القيام بما يساعدهم على استعادة جانب من العظمة، التي كانت لعائلتهم في السابق. وأفضل سبيل إلى تحقيق هذا، إن لم يكن مصاهرة العائلة الأمبراطورية مباشرة، هو إبرام زواج يربط آل أياكورا بالأمير توين،

واستبعد نسب آل أياكورا الرفيع، باعتبارهم عائلة نبيلة من عائلات أورين، أي تساؤل عما إذا كانت مكانتهم تشكل عقبة في هذا الصدد. غير أن ما كان آل أياكورا يفتقرون إليه بالفعل تمثل في الإمكانيات المالية الكفيلة بتغطية النفقات المذهلة، التي سيتكبدونها في وضعهم الجديد. وقد تراوحت هذه النفقات بين الروطة الهائلة إلى الأموال التي ستنفق بانتظام على الهدايا الموسمية التقليدية لكل أتباع البيت الأمبراطوري، وهو مبلغ يبدو طائلاً، إذا ما فكر فيه المرء. ومع ذلك، فقد كان الأمير ماتسوجاي على استعداد لتحمل النفقات بكل تفاصيلها.

برباطة جأش فاترة، راحت ساتوكو تراقب الضجيج والحراك، اللذين صاحبا هذه الأحداث، وهي تدور من حولها. لم تكن الشمس تتألق كثيراً في أبريل من ذلك العام، وفيما الأيام المعتمة يفسح أحدها السبيل إلى الأخر تحت السماء الجهمة، تراجعت لمسة الربيع الندية، لتحل محلها بوادر قدوم الصيف. تطلعت ساتوكو، عبر الحديقة الفسيحة المهملة، من نافذة ناتئة، من غرفتها المتقشفة في الدارة الأنيقة، عتيقة الطراز، التي لا تحتفظ الأن بمظاهرها التليدة، إلا في بوابتها الشامخة. أفصحت الأغصان المتشابكة والوريقات المدببة لأشجار الرمان، التي تحفل بالأشواك كذلك، عن براعم محمرة تتوق إلى التفتح. انتصبت كل البراعم الجديدة، بحيث بدت الحديقة بأسرها كما لو كانت تقف على أطراف أصابعها، وتمد قامتها لتبلغ السماء. وبدا حقاً أن كل يوم يجعلها أكثر اقتراباً من هدفها.

استشعرت تاديشينا قلقاً بالغاً، حول أن ساتوكو قد أصبحت مهمومة للغاية، وأنها غالباً ما تبدو غارقة في التفكير. ومن ناحية أخرى، كانت تصغي بانتباه لكل ما يقوله أبوها وأمها، وتلبي رغباتها بحذافيرها، مثلما يتبع غدير مجراه. راحت تتقبل كل شيء بابتسامة واهنة، ولم يعد هناك أثر

لعنادها السابق، ولكن وراء ستار الاستجابة المهذبة كانت ساتوكو تحجب لامبالاة هائلة، باتساع سماء ابريل المتّشحة بالرماد.

ذات يوم، في أوائل مايو، دُعيت ساتوكو لتناول الشاي في الدارة الصيفية لسمو الأمير والأميرة توين. عادة ما كانت دعوة من آل ماتسوجاي توجه إليها لحضور احتفال أومياساما، ولكن على الرغم من أن كل آمالها قد تمحورت حول هذه الدعوة، إلا أنها لم تصلها. وبدلاً منها، ظهر أحد مسؤولي دار الأمير توين، حاملاً الدعوة إلى الشاي، وسلمها على نحو عابر إلى وكيل آل أياكورا، وانطلق مغادراً.

بالرغم من ضآلة الأثر والسمة الطبيعية الكاملة لهذه الحادثة، وغيرها من الأحداث المماثلة، إلا أنها كانت في حقيقة الأمر معدة بعناية بالغة وفي سرية تامة، ومع أن أبويها لم يتحدثا كثيراً، إلا أنهما كانا يؤيدان المتآمرين، في محاولتهم لإيقاع ساتوكو في قبضة الرقية السحرية المعقدة، التي حيكت خطوطها حولها خلسة.

دعي النبيل والنبيلة أياكورا، بالطبع، لتناول الشاي كذلك في دارة توينومايا. وبما أن الذهاب في عربة يرسلها الأمير توين، بكل ما يحيط بها من مظاهر مناسبة، بدا أنه سيخلق مشهداً مبالغاً فيه؛ فقد قرر آل أياكورا أنه من الأفضل أن ينطلقوا في عربة يعيرهم إياها الأمير ماتسوجاي. وكانت الدارة، التي شيدت قبل سنوات قلائل، في نهاية عهد ميجي، تنتصب شامخة عند مشارف يوكوهاما. ولو أن مقصدهم كان مختلفاً، لاتسمت الرحلة بالروح المرحة المنطلقة لنزهة عائلية لا تتم كثيراً في الريف.

للمرة الأولى منذ أيام عديدة كان الجو صحواً، وهي بادرة فأل طيب، لاحظها النبيل وزوجته، على نحو تخامره البهجة. ولما كان يوم الصبية يقترب؛ فقد علقت كل الدور التي مروا بها على وجه التقريب على امتداد

الـطريق رايات ورقيـة أو قماشيـة، راية لكـل ولد، وراحت هـذه الرايـات ترفرف بقوة في النسيم الجنوبي الحاد، وتراوحت من حيث الحجم بـين راية سـوداء هائلة، إلى رايـات حمراء صغـيرة، بدت كـأنها أسـماك ذهبيـة. وإذا كانت خمس رايات أو أكثر تتدلى من عصا واحدة، فإنها تبدو متداخلة معاً، على نحو مرتبك، عاجزة عن أن ترفرف حرة في تيار الريح القوي. وعندما مرت العربة بمنزل ريفي على حافة الجبال، بدت مجموعـة الرايـات المرفـرفة على السطح من التعدد بحيث تحرك النبيل ليرفع أصبعاً أبيض ليحصيها من النافذة، فألفاها عشر رايات.

ـ يا إلهي! يا له من شخص بالغ القوة!

قالها النبيل مبتسماً. وبالنسبة لساتوكو، وشت هذه الملاحظة بمرح غليظ، لم يكن من خصال أبيها.

حملت الأشجار على امتداد الطريق بـرهان انـطلاقة ملحـوظة في رحـاب النمو بتجمعات أوراقهـا الجديـد وغصونها الممتـدة. كانت الجبـال كتلة من الخضرة، تراوحت بين ما يقارب الصفرة إلى خضرة قاتمة توشـك أن تأخـذ بـأكناف السواد، وبرزت أوراق القيقب الصغـيرة حـديثـة العهـد، بصفـة خاصة، في مواجهة التدفق العام للخضرة التي جعلت الـريف بأسره يـأتلق زاهياً.

ـ آه، قليل من الغبار. . .

قالتها النبيلة مندهشة، وهي تحدِّق في وجنة ساتوكو. ولكن ما إن مـدت منديلها لـتزيله، حتى نأت سـاتوكـو مسرعة واختفت ذرة الغبـار، وعندئـذ أدركت أمهـا أن ذرة الغبار عـلى وجنة ابنتهـا لم تكن إلا ظـلاً، ألقتـه بقعـة تعتلي النافذة على وجنتهـا. إبتسـمت سـاتـوكو ابتسـامة واهنـة، فلم تكن قد وجدت خطأ أمهـا مسلياً عـلى نحو خـاص. وكرهت أن يجـري لها تمحيص خاص اليوم، كما لو كانت ثوباً من الحرير يقدِّم هدية.

أوصدت النوافذ حتى لا يهدل النسيم شعر ساتوكو، فأصبح داخل العربة حاراً على نحو مقيت كنتيجة لذلك. وفيما العربة تهتز، دونما توقف، وخضرة الجبال تتألق في انعكاسات على حقول الأرز إلى جوار الطريق، لم تستطع ساتوكو تذكر ما تتطلع إليه بمثل هذا التوق. فمن ناحية، تركت تقلباً مندفعاً يجتاحها بجرأة مخيفة باتجاه مسار لا عودة منه. ومن ناحية أخرى، كانت بانتظار تدخل شيء ما. في الوقت الراهن، كانت لاتزال أمامها مهلة، قد يصدر خطاب عفو ـ أو هكذا كانت تأمل، ثم مرة أخرى، هي تزدري فكرة الأمل.

انتصبت دارة آل توينومايا، وهي دار قريبة من القصر، شيدت على الطراز الغربي، فوق صخرة ساحقة، تطل على البحر. أفضى درج منحوت من الرخام إلى المدخل الأمامي. وفيما تولى سائقه أمر الجياد، ترجل آل أياكورا من العربة، وتبادلوا عبارات الإعجاب بمنظر المرفأ عند السفح، الذي امتلأ بأنواع السفن كافة. قدم الشاي في شرفة رحبة، تواجه الجنوب، تطل على الماء، وقد ازدانت بعدد من النباتات الاستوائية الرائعة، وعلى كل من جانبي الباب المفضي إليها تدلى ناب فيل عملاق ملتو، هدية من بلاط سيام الملكي.

هنا رحب الأميران الأمبراطوريان بضيوفهما، وقدما لهم المقاعد بمزيد من الود. وكان الشاي معداً، بالطبع، على الطريقة الانجليزية، ومصحوباً بشطائر صغيرة، رقيقة، وببعض الحلوى والبسكويت، وقد رتب كل ذلك على نحو منسق على منضدة شاي، حفلت بأدوات لتناول الشاي، نقشت عليها زهرة الاقحوان الأمبراطورية.

أشارت الأميرة إلى مدى بهاء الاحتفال الأخير بتبرعم الكرز، في دار ماتسوجاي، ثم تدريجياً تحوّل الحديث إلى الماهجونج والناجوتا.

قال النبيل، راغباً في انقاذ ابنته الصامتة من الحرج:

ـ إننا في الدار لانزال ننظر إلى ساتوكو باعتبارها طفلة، ولم نـدعها تلعب الماهجونج بعد.

ضحكت الأميرة بلطف، قائلة:

ـ آه، لا تقـل هذا! إننـا في بعض الأحوال نمضي يـوماً بكـامله لا نلعب شيئاً آخر، عندما يتاح لنا الوقت.

لم يعد بمقدور ساتوكو أن تطرح مـوضوعـاً مثل لعبـة السوجـوركو العتيقـة الطراز وقطعها الاثنتي عشرة السوداء والبيضاء التي يلعبونها غالباً.

كان الأمير توين رائق المزاج، وبعيداً عن الطابـع الرسمي، اليـوم، وقد ارتدى حلة أوروبية، وصحب النبيل أياكورا إلى النافذة بجانبـه، وأشار إلى السفن عند السفح، واستعرض معرفته بالأمور البحريـة، كما لـو كان يعلّم صبياً: تلك فرقاطة إنجليزية، وتلك سفينة مستوية السطح، أمـا تلك فهي فرقاطة فرنسية، انظر السطح المحمي الخاص بتلك السفينة هناك، إلخ.

وإذا ما حكم المرء بالمناخ العام، فقد يصل إلى الاستنتاج بـأن الزوجـين الأمبراطوريـين يبذلان جهـوداً مشوبـة بالحـرص على التحـدث في موضـوع مطروق لضيوفهـما. ويكفي أي شيء، على الإطـلاق، يوحي بـأنه مـوضع اهتمام متبادل. غير أن النبيل أياكورا راح يتلقى مـا يطرح من مـوضوعـات بسلبية حميدة، ولكنها ممزوجة باللهفة. أما فيما يتعلق بساتـوكو فـإنها لم تكن واعية بجدوى الترفع الذي غرسه في نفسها المثال الذي ضربه لها أبوها على نحـو ما كـانت اليوم. وفي بعض الأحيـان، كانت للنبيـل أياكـورا طريقتـه الخاصة في طرح نكته، على نحو لا يفتقر للحماقة، لا علاقة لهـا بالحـديث موضـع التناول، لكنه اليوم كبح جماح نفسه، على نحو جلي.

انقضى بعض الوقت، فتطلع الأمـير توين إلى السـاعة، ولاحظ غرَضاً، كأنما خطر له خاطر في التو واللحظة:

ـ بمصادفة سعيدة، سيصل هارونوري إلى الدار في إجازة من فوجه اليوم. وعلى الرغم من أنه ابني، إلا أن مظهره يوحي بالخشونة. ولكن أرجو ألا يضايقكم ذلك، فهو رجل دمث تماماً، تحت هذا المظهر.

بعد قليل من قوله هذا، سَمع صوت الخدم وهم يهرعون عند المدخل الأمامي معلنين وصول الأمير الشاب.

بعد لحظات قلائل، سمعت قعقعة سيف وحذاء عسكري، وراح لدى الباب القوام الحربي المهيب لسمو الأمير الأمبراطوري هارونوري. حيّا أباه تحية عسكرية، وكان الانطباع الفوري الذي تركه في نفس ساتوكو هو الوقار الأجوف. ولكن ما كان أشد فخر الأب الذي استشعره الأمير توين بهذا العرض للفخامة العسكرية! وما كان أوضح اقتناع الأمير الشاب بأنه يحقق كل تفاصيل الصورة التي رسمها أبوه له! والحقيقة هي أن شقيقيه الأكبر كانا، في واقع الأمر، مختلفين عنه، وإذ لاحا مهزولين، متخنثين، فإنهما كانا مناط يأس أبيهما.

غير أنه اليوم ربما كان للمسة من الإحراج، نابعة من مواجهته لساتوكو للمرة الأولى بجمالها الخلاب، بعض الأثر على سلوك الأمير هارونوري، الذي أعقب ذلك. وعلى أية حال، فإنه لم ينظر إليها مباشرة سواء عندما قدمت إليه أو في أي وقت لاحق.

وعلى الرغم من أن الأمير الشاب، لم يكن طويل القامة، على نحو خاص، فإن تركيبه الجسدي كان لافتاً للنظر، وفي كل الأوقات كان يتحرك بشكل قاطع، موحياً بالأهمية، والحزم، اللذين خلعا عليه جدية غير مألوفة فيمن هم في مثل عمره. وقد راقب أبوه هذا كله سعيداً وراضياً، وقد ضاقت عيناه لفرط سروره. غير أن هذا الاغتباط الأبوي كان يثير انطباعاً متزايداً لدى الكثيرين بأن الأمير توين نفسه كان يخفي ضعفاً معيناً في الإرادة تحت ذلك المظهر الخارجي المهيب والمؤثر.

أما فيما يتعلق بالهوايات، فقد كان سمو الأمير الإمبراطوري هارونـوري مولعاً بمجموعة من اسطوانات الموسيقى الغربية. وقد بدا أن هذا الموضوع هو الوحيد، الذي يرى فيه آراء ترجع إليه هو وحـده. وعندمـا سألتـه أمه: «هل لك في أن تدير لنا بعض الموسيقى يـا هارونـوري؟» سارع بـالموافقـة والانتقال إلى قاعة الاستقبال، حيث الفونوجراف.

بينما هو يقوم بذلك، لم تستطع ساتوكـو مقاومـة رغبتها في رفـع عينيها، والنظر إليه، قطع المسافة إلى الباب بخطى واسعة، وحذاؤه الأسود الـلامع يتألق في الشمس، التي غمرت أشعتها الشرفة. كـان الحذاء لامعـاً إلى حد أنها استطاعت رؤية جوانب من السماء ذاتهـا متعاكسـة عليه، كـأنها شظايـا بـورسلين أزرق. أغمضت عينيهـا، وراحت تنتـظر انسيـاب المـوسيقى. استشعـرت التقلقلات الأولى لهاجس مترع بـالنذر، وتـردد صدى صـوت وضع إبرة الفونوغراف في موضعها، كأنه الرعد في أذنيها.

فيما بعد، لم يشارك الأمير الشـاب، إلا قليلاً في الحـديث العابـر، الذي أعقب الفاصل الموسيقي. ومع دنو المساء استأذن آل أياكـورا من مضيفيهم في الانصراف.

بعد أسبوع، أقبـل وكيل دار الأمـير توين إلى مقـر آل أياكـورا، وأجرى منـاقشة طـويلة ومستفيضة مـع النبيل، وكـانت الخلاصـة قراراً بـالبـدء في الإجـراءات الرسميـة للحصول عـلى إذن الامبراطـور بإتمـام الزفـاف. وقد أطلعت ساتوكو نفسها على الوثيقة التي كان نصها كالتالي:

«إلى معالي وزير الـديوان الامـبراطوري: بمقتضى هـذا الكتاب، نتقـدم بالتماس متواضع، فيما يتعلق بالمفاوضات حول زواج:

سمو الأمير الامبراطوري هارونوري توين من الآنسة ساتوكو إبنة سعادة النبيل كوريبومي أياكورا، حامل وسام الدرجة الثانية من الطبقة الصغرى، ووسام الجدارة من الطبقة الثالثة.

راجين أن يرفع التماس فيما إذا كان من الممكن المضي قدماً بما يتفق والعطف الامبراطوري إلى مقام العرش الامبراطوري.

قدم في هذا اليوم الثاني عشر من الشهر الخامس من عهد تايشو.

سابورو ياموتشي وكيل دار سمو الأمير الامبراطوري توين

وبعد ثلاثة أيام، جاء رد من وزير الديوان الإمبراطوري، نصُّه كالتالي:

إلى وكيل دار سمو الأمير الامبراطوري توين.

بالإشارة إلى الملتمس المقدم إلى مسؤولي الديوان الامبراطوري، فيما يتعلق بزواج سمو الأمير الامبراطوري هارونوري توين وساتوكو ابنة سعادة النبيل كوريبومي أياكورا، حامل وسام الدرجة الثانية من الطبقة الصغرى ووسام الجدارة من الطبقة الثالثة، يتم بمقتضى هذا الإقرار بأن هذا الالتماس الذي قصد به أن يرفع إلى العرش الامبراطوري وبناء عليه يمكن لمثل هذه المفاوضات أن تمضي قدماً مصحوبة بعطف الامبراطور .قد تمّ تقديمه على النحو المناسب واللائق.

في هذا اليوم الخامس عشر من الشهر الخامس من عهد تايشو.

وزير الديوان الامبراطوري

وهكذا، بمراعاة الإجراءات الرسمية الأولية، أمكن أن يقدم التماس، بالحصول على مباركة الامبراطور إلى سموه في أي وقت.

- ٢٣ -

كان كيواكي في السنة النهائية بمدرسة النبلاء وكان عليه البدء في دراسته الجامعية في الخريف المقبل، وشغل زملاء له بالاستعداد لدخول الامتحانات، طوال ما يزيد على عام ونصف العام، غير أن هوندا لم يفصح عن مثل هذا الاهتمام، وهي حقيقة بعثت السرور في نفس كيواكي.

بعثت روح الناظر نوجي في نظام الإقامة الداخلية للطلاب المعمول به في مدرسة النبلاء، ولكن رغم ذلك، فقد كانت قواعده الصارمة تسمح بتجاوزات لمن لا تسمح حالتهم الصحية بتلبية مقتضياته، فزود الطلاب من نوعية هوندا وكيواكي، الذين تبعدهم عائلاتهم عن مهاجع الإقامة الداخلية في المدرسة، كمسألة مبدأ، بشهادات طبية مناسبة من أطبائهم. وذكر أن مرض هوندا هو إصابة في صمام القلب. أما مرض كيواكي فذكر على أنه نزلة شعبية مزمنة. وشكلت أمراضهما الوهمية مصدراً لكثير من التسلية، حيث يتظاهر هوندا بالاختناق واللهاث لالتقاط أنفاسه، بينما يتظاهر كيواكي بأنه يعاني من سعال جاف متقطع.

لم تكن هناك حاجة حقيقية للادعاء والتظاهر؛ فما من أحد صدَّق أنهما مريضان، غير أن ضباط الصف في قسم العلوم العسكرية. وكلهم من أبطال الحرب اليابانية ـ الروسية، أطلقوا لعدائهم العنان، بالتركيز على معاملتهما باعتبارهما مريضين. وخلال فترة التدريب العسكري كان الرقباء مولعين بتضمين حديثهم لطمات غير مباشرة للمتمارضين، فيتساءلون عما

سيضطلع به هؤلاء في خدمة بلادهم ، إذا كانوا أضعف من أن يحبسوا في ظل نظام الإقامة الداخلية ، وما إلى ذلك من تساؤلات .

استشعر كيواكي تعاطفاً عميقاً مع الأميرين السياميين، عندما علم بأنهما سيقيمان بالقسم الداخلي في المدرسة. وغالباً ما كان يزورهما في سكنهما، ويحمل لهما هدايا صغيرة. وقد أحسا بالارتباط الوثيق به؛ ولذا تناويا صب مشكلاتهما صباً، وهما يعربان عن أسفهما، بشكل خاص، حيال الضوابط المفروضة على حرية حركتهما. وفضلاً عن ذلك، فإن الطلاب الآخرين، بالنظر إلى خشونتهم وافتقارهم للحساسية، لم يكونوا من النوع الذي يمكنهما مصادقته .

وعلى الرغم من أن كيواكي أهمل هوندا لفترة طويلة، إلا أن الأخير رحب به رابط الجأش عندما عاد إليه متقافزاً وجريئاً كالسنونو. بدا كما لو كان قد نسي تماماً إهماله الأخير لهوندا. ومع بدء الفصل الدراسي الجديد، بدا وكأن شخصيته قد تبدلت، وامتلأت الآن بالمرح المفتعل، أو هكذا بدا الأمر لهوندا. ومن الطبيعي أنه لم يعلق على هذا، وبالصورة الطبيعية ذاتها لم يقدم كيواكي تفسيراً.

كان بمقدور كيواكي أن يهنىء نفسه، على الأقل، على لمسة واحدة من الحكمة؛ فهو لم يطلع صديقه على دخيله نفسه قط، وقد جنّبه هذا الآن القلق حيال الإحساس بأنه ترك امرأة تتلاعب به كأنه طفل أحمق. وقد أدرك أن ذلك جعله آمناً بما يكفي للتصرف بمرح عفوي حيال هوندا، وبالنسبة له كان البرهان المطلق على صداقته يتمثل في رغبته في تجنب خيبة الأمل، التي قد يسببها لهوندا، وأن يشعر بالعفوية وعدم الاكتراث في حضوره، وينبغي أن تعوض هذه الرغبة عن لحظات تحفظه التي لا حصر لها.

وفي حقيقة الأمر، أنه استشعر المرح لأنه فاجأ حتى نفسه. وفي حولي ذلك الوقت بدأ أبواه في الحديث صراحة وكأمر واقع عن مسار المفاوضات الجارية بين آل أياكورا وآل توينومايا. وبدا أنه يسعدهما إلى حد كبير أن يرويا مرات ومرات أموراً عن كيف أنه «حتى تلك الفتاة الصلبة الرأس» أصبحت من التوتر، بحيث لم تفه ببنت شفة، في لقاء أعد بعناية مع الأمير الشاب. ولم يكن لدى كيواكي، بالطبع، سبب يدعو للتشكك في مدى الحزن، الذي سببته تلك الواقعة لساتوكو. وأولئك الذي يفتقرون إلى الخيال ليس أمامهم خيار إلا أن يبنوا استنتاجاتهم على الواقع، الذي يرونه من حولهم. ولكن من ناحية أخرى فإن أولئك الذي أوتوا القدرة على التخيل يميلون إلى تشييد قلاع محصنة، وضعوا تصميمها بأنفسهم، وأن يوصدوا كل نافذة فيها. وهكذا كان الحال مع كيواكي.

قالت أمه:

- طيب، ما إن يتم تلقى التصديق الأمبراطوري حتى يحسم كل شيء.

تأثر بكلماتها على نحو ما، وخاصة بكلمتي «التصديق الأمبراطوري»، وجعلتاه يفكر في دهليز معتم، ممتد ورحب، وفي نهايته باب موصد بقفل من الذهب الخالص، صغير الحجم ولكن لا سبيل إلى اغتصابه. وفجأة، وبضجة تشبه طحن الأسنان، ينفتح من تلقاء ذاته، فيئز صريف معدني خشن بجلاء في مسمعه.

استشعر رضاء تاماً عن نفسه لاعتصامه بمثل هذا الهدوء، فيما أمه وأبوه يناقشان أموراً كتلك؛ لقد انتصر على غضبه ويأسه، وهكذا ابتهج بشعور من عرف الخلود. مضى يحدث نفسه، مستشعراً ثقة لم يسبق له أن عرف ما يتجاوزها قط: «لم أحلم أبداً بأنني يمكن أن أكون على مثل هذا القدر من الصمود».

كان مقتنعاً بأن غلظ أبويه، المجرد من المشاعر، هو شيء غريب عنه

تماماً، أما الآن فقد أسعدته فكرة أنه لم يهرب من سطوة أصوله في نهاية المطاف، فهو لا ينتمي إلى الضحايا، وإنما إلى المنتصرين.

استمد سروراً عظيماً من الفكرة القائلة بأنه، يوماً بعد الآخر، سيتراجع وجود ساتوكو أكثر فأكثر بعيداً عن ذهنه، إلى أن ينداح في نهاية المطاف بعيداً عن نطاق التذكر. ومن يضعون مصباحاً بحيث يطفو على سطح جزر الماء، على سبيل النذر، يقضون على الشاطىء ويرقبون سناه وهو يتزايد خفوتاً على سطح الماء المعتم، فيما هم يرتلون صلاة لكي ينطلق نذرهم إلى أبعد مدى ممكن ليجلب الرحمة في حدودها القصوى للموتى، وعلى النحو نفسه راح كيواكي يتأمل ذكرى ساتوكو المتراجعة، باعتبارها البرهان اليقين على قوته.

الآن لم يعد هناك في الدنيا أحد متهم بالاطلاع على أغوار مشاعره، لم يبق عائق يحول بينه وبين إخفاء حقيقة عواطفه، لقد نحيٍّ الخدم المخلصون، الذين يقفون بين يديه على الدوام بكلماتهم المعتادة: «دع كل شيء لنا، لطفاً، فنحن نعلم حقيقة مشاعر السيد الشاب، على وجه الدقة». لم يكن سعيداً فحسب للتخلص من تلك المتآمرة الحاذقة، تاديشينا، وإنما كذلك من إينوما، الذي أصبح ولاؤه جاثماً حتى هدّده بالاختناق، لقد مضت إلى غير رجعة آخر العناصر التي تبعث الضيق في نفسه.

أما فيما يتعلق بقيام أبيه بطرد إينوما، بغض النظر عن الترفق الذي واكب هذا الطرد، فقد أضفى العقلانية على شعوره باللامبالاة حياله بالحجة القائلة بأن إينوما جلب ذلك على نفسه. وأكمل شعوره بالرضا عن نفسه بالقسم، الذي أوفى به في إخلاص، بفضل تاديشينا، بألا يذكر لأبيه ما وقع قط. وهكذا توّج كل شيء بخاتمة موفقة بفضل لماحيّته وجمود فؤاده.

حان يوم رحيل إينوما، وعندما مضى إلى غرفة كيواكي لـوداعه رسميـاً، انحرط في البكاء. لم يستـطع كيواكي تقبـل هذا البكـاء، على نحـو ما هـو عليـه، فلم تسعده فكـرة أن إينومـا يؤكد عـلى ولائه المقتصر عليـه بصـورة محمومة.

وبارتباكه المألوف، لم يستطع إينوما إلا الوقوف هنالك منخرطاً في البكاء. كـان يحاول من خـلال صمته ذاتـه أن يبلغ كيواكي شيئـاً مـا. لقـد دامت علاقتهما سبع سنوات، بدءاً من الربيع الذي بلغ فيه كيواكي الثـانية عشرة من عمـره. وبما أن ذكـريات كيـواكي وأفكاره ومشـاعـره، في تلك السن، كانت بالغة الغموض، فقد تكوَّن لديه الانطباع بأن إينومـا كان هنـالك إلى جانبه عـلى الدوام. ولـو أن لصباه وشبـابه ظـلاً لكان هـذا الظل هـو إينومـا مرتدياً كيمونوه المتعرق، ذا اللون الأزرق القاتم، والخط الزخرفي المتناثر. أثقـل دأبه في السخط وتـبرمه ومـوقفه السلبي من الحيـاة على كيـواكي، أياً كانت محاولته إدعاء الحصانة ضد هذا الشعور. غير أنه، من ناحية أخرى، أفاد النذير المعتم القابع في عيني إينوما في تحـذير كيـواكي من تلك المواقف نفسها القابعة في ذاته، على الرغم من أنها كات مألوفة بما فيه الكفاية لـدى الشباب. إن شياطين إينوما الخاصة كانت تعـذبه، بعنف جـلي، وكلما أراد من سيده الشاب أن يحـاكيه تـراجع هـذا الأخير إلى الاتجـاه المضاد، الأمـر الذي كان من الممكن التنبؤ به مسبقاً.

ربمـا كان كيـواكي قد خـطا، من الناحيـة النفسية، الخـطوة الأولى نحو فراق اليوم، عندما حطم القوة التي هيمنت عليه طويـلاً، وحوَّل إينـوما إلى كاتم أسراره، ولعل التفاهم المتبادل بينهما كان أكثر عمقاً مما ينبغي أن يكون بين سيد وتابعه.

بينما وقف إينوما أمامه خافضاً رأسه، التمع في خفوت شعر صدره المطل من عنق كيمونوه الأزرق وقد مسته أشعة من شمس الغروب. راح كيواكي

يحدِّق مكتئباً في هذا الشعر المتشابك المتلبد، وقد ضاعف من كآبته إدراكه أيّ وعاء ثقيل خشن على نحو يبعث الضيق هو بدن إينوما وكأنه تعويض عن روح الولاء المتدفقة فيه. بل إنه في الحقيقة كان إهانة بدنية مباشرة، بل إن الوهج على خدي إينوما بجلدهما الخشن وبثورهما، رغم أنه مرقش وغير صحي بدا أنه يوبخ كيواكي بإخلاص مايني، التي كانت ستغادر الدار مع إينوما، متأهبة لمشاركته مصيره. ما من شيء يمكن أن يكون مهيناً أكثر من هذا: السيد الشاب تخونه امرأة وتتركه للحزن، والتابع يؤمن بإخلاص المرأة، ويمضي منتصراً. وفضلاً عن ذلك فإن إينوما آمن في سربه تماماً حيال اعتقاده بأن وداع اليوم إنما جاء متسقاً مع أداء الواجب، وهو افتراض وجده كيواكي مثيراً للحنق.

غير أنه وصل إلى أن خير سبيل هو تطويق عنق إينوما بمنة نبيلة، فراح يحدّثه بلطف، وإن يكن باقتضاب:

ـ هكذا، إذن، أحسب أنك بمجرد استقلالك بنفسك ستتزوج من مايني؟

ـ نعم، يا سيدي، بما أن والدكم كان من الكرم بحيث يقترح ذلك، هذا هو على وجه الدقة ما سأقوم به.

ـ طيب، دعني أعرف الموعد، فينبغي أن أبعث إليك بهدية.

ـ شكراً جزيلاً يا سيدي!

ـ بمجرد أن تتخذ لك داراً دائمة، أرسل لي بطاقة بعنوانك، من يدري، فربما جئت لزيارتك ذات يوم.

ـ لست أتخيل شيئاً يمنحني السرور أكثر من زيارة من السيد الشاب، ولكنما حيثما أقيم سيكون مكاناً أصغر وأقل قيمة من أن يصلح لاستقبالكم.

ـ لا تحمل هماً لذلك!

ـ كم هو كريم منك أن تقول هذا. . . !

وشرع إينوما في البكاء من جديد. انتزع قطعة من الورق الخشن، الذي يستخدم بديلاً للمنديل من كيمونوه، وتمخط.

خلال هذا الحديث، كان كيواكي ينتقي كلماته بعناية، حريصاً على أن تكون مناسبة للمقام، قبل أن يتفوه بها. وأوضح بجلاء أنه في موقف مثل هذا فإن أكثر الكلمات خواء هي التي تثير أقوى المشاعر. لقد أعلن بأنه يحيا من أجل العاطفة وحدها، ولكن الظروف أجبرته الآن على أن يتعلم سياسة العقل. وكان هذا التعليم مما سيطبق على حياته بما يعود عليه بالفائدة، بين الحين والآخر، إنه يتعلم استخدام العاطفة كدرع واقية وكيفية صقل هذه الدرع على أفضل وجه.

أحب، وهو في التاسعة عشرة من عمره وقد تجرد من القلق والضيق والهم أن يرى نفسه في صورة الشاب البارد الأعصاب، ذي القدرة الفائقة، وأحس الآن بأنه تجاوز حداً فاصلاً في مسار حياته.

بعد انصراف إينوما، وقف عند النافذة المفتوحة، محدِّقاً إلى أسفل في الانعكاس الجميل لتل القيقب ببساطة الأخضر الجديد من الوريقات الحديثة العهد، وهو يطفو على سطح ماء البحيرة. وقريباً من النافذة ذاتها كانت خضرة أوراق شجر الزيلكوفا من الكثافة بحيث اضطر إلى الانحناء نحو الخارج، ليرى ذلك الموضع عند سفح التل، الذي ينزلق فيه ماء الشلالات التسعة إلى البحيرة. وعند حافة البحيرة من كل الجوانب اكتسى سطح الماء بحشود من بنات ترس الماء بخضرته الشاحبة. لم تزدهر بعد زنابق الماء الصفراء، ولكن في زوايا الجسر الحجري، الذي ينساب متعرجاً، متجاوزاً طريقاً، قرب قاعة الاستقبال الرئيسية، راحت السوسنات تدفع براعمها

الأرجوانية والبيضاء، ناتئة من حشود من الوريقات الخضراء المستدقة الطرف.

لفت نظره ظهر خنفساء متفزّحة اللون، كانت تقف عند حاجز النافذة، ولكنها مضت الآن تتقدم باضطّراد نحو غرفته. امتد خطان أرجوانيان على ورقتها الزيتونية المتألقة باللوني الذهبي والأخضر. ومضت الآن تلوح بقرون استشعارها في حذر، وهي تشرع وئيدة في شق طريقها على قوائمها المنشارية، التي ذكرت كيواكي بقواطع الجوهري الدقيقة. في قلب دوامة الزمن المنحلة، ما أشد عبث تواصل هذه البقعة الدقيقة من التألق المركز في عالم آمن خاص بها! فيما هو يرقبها، افتتن بها تدريجياً، وشيئاً فشيئاً واصلت الدنو ببدنها المتألق منه، كما لو كان تقدمها العبثي درساً قوامه أنه لدى عبور عالم من التدفق الذي لا ينقطع فإن الشيء الوحيد المهم هو الإشعاع بالجمال. فماذا لو أنه تعين عليه تقويم درعه التي تحميه والمتمثلة في العاطفة في ضوء هذا الدرس. أهي لافتة للأنظار على نحو طبيعي من الناحية الجمالية مثل درع هذه الخنفساء؟ وهل هي صلدة بما فيه الكفاية لتكون جيدة مثل درع الخنفساء؟

في تلك اللحظة، أقنع نفسه، على وجه التقريب، بأن كل من يحيط بهذه الخنفساء، الأشجار ذات الأوراق والسماء الزرقاء والسحب والأسقف القرميدية، إنما وجدت على نحو خالص لخدمتها، هي التي تشكل محور الكون وبؤرته ذاتها.

لم يكن مناخ مهرجان الأميا ساما مماثلاً له في العام السابق؛ ذلك أن إينوما قد رحل، وكان في كل عام، وقبل وقت طويل من يوم المهرجان يكرس نفسه لمهمة التنظيف وترتيب المذبح والكراسي، كل ذلك بمفرده. أما الآن فقد وقع هذا كله على كاهل ياماذا، وزاده نفوراً منه أنه كان أمراً

لا عهد له به، وإضافة إلى ذلك، فقد كان شيئاً يناسب على نحو أكبر شاباً في صدر عمره.

وإلى جوار هذا، لم توجه الدعوة إلى ساتوكو. هكذا، ساد الشعور بغياب أحد الأقارب، الذين يحضرون عادة، ولكن الأهم من هذا ـ ففي نهاية المطاف لم تكن ساتوكو من الأقارب على الإطلاق ـ لم تكن أي من النساء الحاضرات تقترب، ولو من بعيد، من جمالها.

بدا أن الآلهة أنفسهم ينظرون إلى هذه الظروف التي طرأ عليها التغير باستياء، ففي منتصف الاحتفال ادلهمت السماء، ودوى الرعد في البعيد. واستبد القلق بالنساء اللاتي كن يتابعن صلوات الكاهن خشية أن ينهمر المطر عليهن. غير أنه من حسن الحظ عندما حان أوان قيام الراهبات الصغيرات في هاكاماتهن القرمزية بتوزيع الهدايا المقدسة من النبيذ للجميع صفت السماء من جديد. وفيما أحنت النساء رؤوسهن، اجتذبت أشعة الشمس المشرقة على فتحات أعناق ثيابهن حبات من العرق، على الرغم من كثافة الذرور الأبيض. وفي تلك اللحظة، ألقت أفواف الوستارية على التعريشة ظلالاً عميقة ترامت مثلما البركة على الموجودين في الصفوف الخلفية.

ولو أن إينوما كان موجوداً لأغضبه مناخ مهرجان هذا العام، دونما شك، حيث أن كل عام يجلب معه توقيراً وحداداً أقل على جد كيواكي، فقد بدا الآن منتمياً إلى عصر انقضى وخاصة منذ وفاة الإمبراطور ميجي نفسه، وعلى هذا النحو غدا إلهاً نائياً، لا تربطه صلة على الإطلاق بالعالم الحديث. حقاً أن زوجته، جدة كيواكي، شاركت في الحفل، كما هو الحال بالنسبة لعدد من كبار السن، غير أن دموعهم بدا أنها جفت منذ عهد بعيد.

كل عام، وفيما الاحتفال، المتطاول على نحو مؤلم، يتواصل، يزداد ارتفاع همس النسوة باضطّراد، ولم يكلف الأمير ماتسوجاي نفسه عناء الافصاح عن عدم موافقته على هذا؛ فهو نفسه يجد الالتزام بهذا الحفل مضجراً عاماً إثر الآخر، وكان يأمل في التوصل إلى وسيلة ما لجعله أكثر مرحاً وأقل إضجاراً بالنسبة له. وخلال أداء الطقوس، انجذبت عيناه إلى كاهنة شابة كانت ملامحها الأوكيناوية البارزة أكثر قدرة على الاجتذاب، تحت طبقة الذرور الثقيلة البيضاء. وفيما هي تمسك بالوعاء الفخاري المترع بالنبيذ، افتتن بانعكاس عينيها السوداوين، الجريئتين، على سطح النبيذ، وبمجرد انتهاء الحفل اندفع نحو ابن عمه، الذي لم يكن قائداً بحرياً، فحسب وإنما ذوّاقة للخمر ذائع الصيت، وقد أدلى بملاحظة سوقية على الكاهنة، ذلك أن ضحكة القائد البحري كانت من الارتقاع والفجاجة، بحيث اجتذبت عدداً من النظرات المحدِّقة اللائمة. غير أن الأميرة ماتسوجاي، التي كانت تعلم مدى ملاءمة قناع الاكتئاب التقليدي، الذي يعلو ملامحها، للمناسبة المحتفل بها اليوم، لم تغير أدنى تغيير التعبير المرتسم على محياها.

وفي أثناء ذلك، كان كيواكي مشغولاً على نحو آخر، فقد تزاحمت نسوة الدار، بأجمعهن، والعديد منهن لم يكن يدري حتى بأسمائهن، متجمعات في الظل المترف لويستريا الربيع المتمهل. وهن يتهامسن فيما بينهن، وقد تبدد ادعاء التوقير والاجلال مع كل لحظة تنقضي، وتجردت وجوههن من التعبيرات المميزة، وخلت حتى من الحزن فيما هن يقفن متجمعات بحسب ما تلقين من تعليمات، في انتظار تمكنهن من الانصراف مجدداً، وقد هيمن عليهن تردد واهن ثقيل. ترك المناخ المتقد بالانفعال، الذي لف هاته النسوة، ذوات الوجوه البيض المسطحة، كأنها قمر في الظهيرة، أثراً عميقاً في نفس كيواكي. ودونما شك، فإن جانباً كبيراً من هذا التأثير يعود إلى

رائحتهن، التي ما من سبيل إلى فصل ساتوكو نفسها عنها. وكان ذلك شيئاً يصعب حتى على راهب الشنتو المسلح بفرع شجرة السكاكي المقدسة، بثقلها من الأوراق القـاتمة الـلامعة وسلسلتهـا من الرايـات الـورقيـة البيضـاء، أن يتخلّص منه.

- ٢٤ -

استشعـر كيـواكي راحـة مستمـدة من هـدوء البـال، الـذي يعقب الفقدان. وفي قرارة فؤاده، كان على الدوام يفضل الأمر الواقع المترتب على الخسارة على الخوف من هذه الخسارة.

لقـد فقد سـاتوكـو، وارتضى هذا؛ إذ تعلم الآن كيف يكبـح حتى جماح ضيقه اللاحق. تحكم الآن في كافة تجليـات المشاعـر باقتضـاب رائع. وإذا كانت شمعة قد احترقت متألقة، ولكنها أصبحت تقف الآن وحيدة في الظلام وقد خبا لهبهـا، فليس ثمة مـا يدعـوها إلى أن تخشى انحـلال مادتهـا لتغدو كتلة من الشمـع. وللمـرة الأولى في حيـاتـه، أدرك كيـواكي القـدرة عـلى الشفاء، التي تتمتع بها العزلة.

بدأ موسم المطر. وشرع كيواكي، شأن مريض يتماثل للشفاء لا يستطيع مقاومة تعريض صحته للخطر على الـرغم من مخاوفـه، في اختبار استقـراره العاطفي باستثارة ذكرياته عن ساتوكو عامداً، فيفتح كـراسة صـوره ليلقي نظرة على الصور القديمة، رأى نفسه وهو طفل يقف إلى جوار ساتوكو تحت شجرة الباجورة في ضيعة أيـاكورا. كـان كل منهـما قد التف بمئـزر الأطفال الأبيض المجـرد من الأكمام، لكنـه اغتبط لكونـه أطـول منهـا حتى في ذلـك العمر المبكر. وقد حرص النبيل أياكـورا، الذي كـان خطاطـاً بارعـاً، على تعليم الخط للطفلين، وفقـاً لمدرسـة معبـد تـاداميتشي فـوجـوارا هـوشـو في الكتابة. وفي بعض الأحيان، حينما ينالهما الكلل من تمريناتهـما المعتادة، يثـير

اهتمامهما بتركهما يتعاقبان على نسخ آبيات من لعبة بطاقات مائة شاعر من أوكورا في لفيفة ورق.

نسخ كيواكي مقطوعة من شعر شيجيوكي ميناموتو:
أحس بقوة الريح الهادرة،
فيما الأمواج تتكسر على الصخور،
تشفُني الوحدة،
فتتراءى لي أحلام الأيام الخالية.
وتحتها كتبت ساتوكو مقطوعة من شعر يوشينوبو أوناكاتومي:
عندما ينحسر النهار، مفسحاً الطريق لليل،
ويؤجِّج الحراس النار،
تنهل ذكريات عهود أخرى،
نابضة بالحياة في أعماقي.

بدا الطابع الطفولي لخطه جلياً من النظرة الأولى، لكن خط ساتوكو كان متدفقاً ودقيقاً، بحيث أن الفرشاة ما كان يبدو أن من أمسك بها لا يعدو أن يكون طفلة صغيرة. وفي حقيقة الأمر، أنه نادراً ما كان يفض هذه اللفيفة الورقية؛ إذ لم يكن يسعده أن يواجه بالبرهان التعس على أن ساتوكو، التي تكبره بعامين، كانت متفوقة عليه، حتى في ذلك الوقت. أما الآن وهو يفحص الكتابة بدرجة من الموضوعية فقد أحس بأن خطه يتميز بقوة صبيانية تحدث مفارقة سارة مع الجمال الصافي لخط ساتوكو الناعم المنطلق.

ولكن الأمر كان فيه ما يتجاوز ذلك، ذلك أن مجرد التفكير في نفسه، في ذلك اليوم، وهو يضع في جسارة أطراف ريشات الكتابة المثقلة بالحبر، في مواجهة ورق اللفيفة الفاخر، المرقش بالذهب، كان كافياً لاستحضار المشهد بأسره، بقوة المباشرة المترعة بالحيوية. في ذلك الوقت، كان شعر ساتوكو الطويل، الغزير، الأسود، مقصوصاً باستقامة عند الجبهة، وفيما

هي تنحني على لفيفة الورق كانت تمسك يد فرشاة الكتابة في إحكام بأصابعها الناحلة الرقيقة، مركزة بانفعال بالغ، إلى حد أنها غفلت عن كتلة الشعر التي انسابت عبر كتفيها، في شلال فاحم، مغرقة اللفيفة ذاتها على وجه التقريب، فيما أسنانها الصغيرة البيضاء تعض على شفتها السفلى. وعلى الرغم من أنها لم تكن إلا طفلة صغيرة، إلا أن أنفها كان قد تكون بالفعل على نحو بديع في ملمحها الجانبي الذي شمخ بتصميم عذب في مواجهة الشعر المتهدل. راقبها كيواكي كأنما هو في حلم، ثم كان هنالك الحبر الذي تفوح منه رائحة توحي بسواده ووقاره، والصوت الذي يحدثه طرف الريشة فيما هو ينطلق مسرعاً على سطح لفيفة الورق، كأنه الريح تصدر حفيفها بين أعشاب الخيزران. وفي نهاية المطاف كان هناك البحر ـ كانت المحبرة هي البحر وفوقها ارتفع التل ذو الاسم الغريب. تراجع هذا البحر بحدة عن شاطئه إلى حد أنه لم يلق حتى نظرة عجلى إلى قاعه السطحي. هذا البحر الأسود الساكن، الذي لا موجة فيه ولو واحدة، بحر لا يلتمع فيه إلا الذرور الذهبي الساقط من عصا تقليب الحبر، جعله على الدوام يفكر في أشعة القمر المتشظِّية على بحر الأبدية الليلي.

حدَّث نفسه في تفاخر صامت، إن بمقدوري التمتع حتى بذكريات ما منيّ، دون أن يثير ذلك ضيقي على الاطلاق.

بل إن ساتوكو لم تظهر له حتى في الحلم. وإذا ما لمح في منامه شخصاً يشبهها، فإن المرأة سرعان ما تولي الادبار، وتختفي. ولكن المشهد كان غالباً تقاطع طرق عريضاً في الظهيرة مهجوراً تماماً.

ذات يوم، في المدرسة، طلب الأمير باتاناديد معروفاً من كيواكي. هل له رجاء أن يعيد الخاتم الذي وضعه الأمير ماتسوجاي في خزانة إيداع إليه؟

سرت إشاعة مؤداها أن الأميرين لم يتركا انطباعاً محبِّذاً للغاية في المدرسة. وقد شكَّل حاجز اللغة عقبة مفهومة في طريق دراساتهما، ولكن ما

هو أكثر من هذا أنه لم يكن هناك سبيل إلى ما يقارب الحديث الودي بينهما وبين رفاقهما من الطلاب، الذين ضاقوا ذرعاً بالأميرين، وكنتيجة لهذا أبقوهما بعيدين عنهم. وفضلاً عن ذلك فإن زملاءهما في الصف الدراسي، نظراً لكونهم على درجة من البساطة والفجاجة، نفّرتهم الابتسامات التي يستجيب بها الأميران لكل المناسبات.

كانت فكرة إقامتهما في القسم الداخلي بالمدرسة راجعة إلى وزير الداخلية، وهو قرار سمع كيواكي أنه قد أثار قدراً احتد به من القلق من جانب مدير القسم الداخلي؛ حيث أنه هو الذي ستقع على كاهله مسؤولية تقرير الترتيبات المحددة، التي ستعد لهما. فقدم لهما غرفتهما المؤثثة بأفضل السرر المتاحة، على نحو يليق بأميرين ينتميان إلى عائلة مالكة، ثم بذل كل الجهود الممكنة لتنمية علاقات طيبة بينهما وبين الطلاب الآخرين، ولكن مع مرور الأيام مال الأميران إلى الاعتكاف، على نحو متزايد، في غرفتهما، أو قلعتهما الصغيرة، وغالباً ما فاتتهما أمور كثيرة مثل الاستيقاظ مع البوق الصباحي وألعاب الجمباز. وهكذا تعمّق الاغتراب بينهما وبين الآخرين.

وكان لهذا سبب وجيه؛ ذلك أن الفترة التمهيدية الممتدة لأقل من ستة أشهر بعد وصولهما لم تكن مناسبة لتعلمهما اللغة اليابانية، حتى إذا كانا قد كرّسا نفسيهما لهذا على نحو أكثر جدية مما فعلا. وحتى في دروس اللغة الانجليزية، حيث كان ينبغي لقدرتهما أن تكون لصالحهما، أربكهما تماماً نظام الترجمة من الانجليزية إلى اليابانية ومن هذه الأخيرة إلى الانجليزية.

وبما أن الأمير ماتسوجاي كان قد رتب وضع خاتم الأمير باتاناديد في خزانته الشخصية بمصرف إتسو؛ فقد عاد كيواكي إلى الدار للحصول على خاتم أبيه قبل التوجه إلى المصرف لاسترداد الخاتم. وقد حل المساء على وجه التقريب عندما رجع إلى المدرسة، ومضى إلى غرفة الأميرين.

كان يوماً جافاً نموذجياً من أيام قلب موسم المطر، تجهمت فيه السماء

وناءت الرطوبة بثقلها، فبدا يوماً يتناسب تماماً مع الاحباط الذي يستشعره الأميران، اللذان شفهما الحنين إلى الطقس الصيفي المتألق، الذي كان لايزال بعيد المطال، وإن بدا قريباً. أما القسم الداخلي نفسه، وهو مبنى من طابق واحد خشن المظهر تحيط به الأشجار، فقد بدا غارقاً في كآبة نابعة من ذاته وحده.

أشارت الصيحات، المنبعثة من اتجاه ساحة الألعاب الرياضية، إلى أن التدريب على الرجبي يمضي على قدم وساق. كان كيواكي يكره الصيحات المتعلقة بالمثالية المتصاعدة من تلك الحلوق الشابة. لم تكن علاقات زملائه في الصف الخشنة والجاهزة ونزعتهم الانسانية التي لم يعجم عودها، ونكاتهم وتلاعباتهم المستمرة بالألفاظ وإجلالهم الذي لا يعرف التراجع لموهبة رودان ولكمال سيزان، لم يكن هذا كله إلا المعادل الحديث لصيحات الكندو التقليدية العتيقة. وهكذا مضوا، بأصواتهم الخشنة، وشبابهم المتدفق مثل أوراق شجر البولونيا الخضراء، معتمرين غرورهم، مثلما كان رجال البلاط القدامى يعتمرون القبعات العالية.

كانت الحياة شاقة للغاية بالنسبة للأميرين، حيث تعين عليهما السباحة في دفق القديم والجديد معاً. وعندما فكر كيواكي في هذا، ارتفع عن مستوى انشغالاته، وغدا بمقدوره الآن، انطلاقاً من أريحية حلت به، أن يتعاطف معهما. سار عبر دهليز معتم، خشن الصقل، في القسم الداخلي، نحو غرفة الأميرين الكائنة في نهاية الدهليز، والمختارة بعناية بالغة. وقف أمام باب عتيق، بال، علق عليه مستطيل خشبي يحمل اسميهما، وطرقه بخفة.

ابتهج الأميران لرؤيته، كأنما جاء لهما مخلصاً ومنفذاً. كان قد أحس على الدوام بأنه أقرب إلى باتاناديد ـ تشاوبي. الجاد والحالم، إلى حد ما، ولكن في الشهور الأخيرة أصبح كريد سادا، الذي كان في وقت من الأوقات عابثاً

لاهياً، على شيء من التجهم والكآبة. كانا يمضيان معظم وقتهما هاهنا، في غرفتهما، يتهامسان بلغة وطنهما.

كانت الغرفة، العارية من أي زخرف، مؤثثة على نحو متقشف بفراشين قمطرين وخزانتي ثياب، والمبنى كله يوحي بمناخ الثكنات العسكرية الأثير عند الناظر الراحل نوجي. غير أن الفراغ الأبيض المصمت على الجدار فوق الخشب الذي حلى به خفف من جهامته رف صغير وضع عليه تمثال ذهبي لبوذا، كان الأميران يؤديان أمامه صلاتهما في الصباح والمساء. وخلع هذا المذبح لمسة من التجديد والغرابة على الغرفة، فيما انسدلت ستارة مجعدة رقشها المطر من قماش قطني رقيق على النافذة.

الآن، مع حلول الظلام، تألقت أسنان الأميرين الباسمين ناصعة البياض، في مفارقة لجلدهما الأسمر، الذي لوحته الشمس. قدما مقعداً لكيواكي، عند حافة أحد السريرين، ثم طلبا بشغف رؤية الخاتم.

تألقت زمردته الخضراء اللامعة، التي يحرسها رأسا الياكشا الحيوانيان، في مفارقة تامة لمناخ الغرفة.

أخذ تشاو بي. الخاتم، بتنهيدة تشي بالسعادة، ودس إصبعه الأسمر الرشيق فيه. بدا الأصبع ناحلاً ورقيقاً في يد لاح وكأنما خلقت للملاطفات، فجعل كيواكي يفكر في شعاع قمر استوائي يمد اصبعاً رشيقاً، من خلال شق في باب فيتناثر على الأرض.

قال تشاو بي. ، مصعداً تنهيدة مترعة بالكآبة:

ـ الآن عادت تشاوبي أخيراً إلى ملمسي.

في الأشهر الماضية، كان من شأن رد فعل كهذا أن يحفز الأمير كريد سادا على العبث بابن عمه، أما الآن فقد بحث في أدراج خزانة ملابسه، والتقط صورة أخته التي أخفاها بعناية بين طيات قمصانه.

قال، وقد أوشك الدمع أن يخونه:

ـ في هذه المدرسة، حتى إن قلت لهم إنها صورة أختك، فإنهم يسخرون منك، إن وضعتها على قمطرك؛ ولهذا نخفي صورة ينج تشان هنا.

سرعان ما استطاع تشاو بي. أن يوضح لكيواكي أنه لم تصل رسائل من الأميرة ينج تشان، منذ ما يزيد على الشهرين، وقد قام باستفسارات حول هذا الموضوع لدى البعثة السيامية، غير أنه لم يتلق رداً مقنعاً. وفضلاً عن ذلك، فإن الأمير كريد سادا، شقيق الأميرة، نفسه لم يتلق كلمة واحدة عنها. ولو أن شيئاً حدث لها، لو أنها مرضت لتم إخباره بشكل عادي عن طريق برقية.. استنفد تشاو بي. خياله في التفكير فيما يمكن أن تكون عائلتها قد حجبته حتى عن أخيها. ربما يكون الأمر متمثلاً في أنه يجري دفعها دفعاً نحو زواج آخر، يضمن ميزة سياسية أكبر. وكانت الفكرة ذاتها كفيلة بأن تلقي به في رحاب الاكتئاب. وراح يفكر في أن الغد قد يحمل إليه رسالة، ولكن حتى لو كانت هناك رسالة فأي تعاسة قد لا تضمها بين سطورها؟ وبمثل هذه الخواطر في ذهنه لم يكن في حالة تسمح له بالدراسة، ولما لم يكن لديه عزاء آخر فقد انحصر تفكيره في استعادة الخاتم، الذي كان هدية الوداع من الأميرة، وأصبح زخم حنينه متركزاً على زمردته المتألقة بالبريق الأخضر للأدغال عند أول إطلالة من شمس الصباح.

بدا أن تشاو بي. قد نسي أم كيواكي، فيما هو يمدّ الأصبع الذي يحمل الخاتم الزمردي، ويضعه على القمطر، إلى جانب صورة ينج تشان، التي وضعها الأمير كريد سادا هناك. لاح أنه موشك على القيام بعمل من أعمال الإرادة، ليس من شأنه فحسب أن يمحو قيود الزمان والمكان، وإنما أن يدمج عالمين في عالم واحد كذلك.

عندما أضاء الأمير كريد سادا المصباح، المتدلي من السقف، التقط

زجاج الصورة انعكاس الزمردة المستقرة على إصبع تشاو بي. وتـالق مربـع من الخضرة المتوهجة بالحيوية على بياض رداء الأميرة.

تساءل تشاو بي. متحدثاً بالانجليزية:

- أنظر إلى هذا - كيف يبدو لك؟ ألا يبدو كما لو كان قلبهـا لهباً أخضر؟ ربما كان القلب الأخضر الفاتر لثعبان أخضر صغير[1]، ينسـل من غصن إلى آخر في الأدغال، فيبدو للعيان وكأنه نبات معترش. أما ما هو أكثر من ذلك فربما عندما أعطتني الخاتم، وقد ارتسم على محياها مثـل هذا التعبـير الرقيق المفعم بالحب، أرادتني أن استخلص منه هذا المعنى ذات يوم.

قاطعه كريد سادا بحدة.

- لا، يا تشاوبي.، هذا محض هراء!

- لا تغضب، يا كري، لست أقصد للحظة إهانة أختك. كل ما أحاول القيام به هو العثور على كلمات تعبر عن غـرابة وجـود العاشق. دعني أعـبر عن الأمر على هذا النحو: على الرغم من أنها هاهنا في هذه الصورة، فـإنها تظهرها على نحو ما كـانت في لحظة معينـة في الماضي. لكني أشعـر بأنـه في هذه الزمردة التي أعطتنيهـا، عندمـا افتـرقـنا، تكمن روحها، عـلى نحو مـا عليه الآن، في هذه اللحـظة. وفي ذهني كانت الـزمردة والصـورة - جسمها وروحها - منفصلتين. أما الآن فانظر: ها قد توحدتا من جديد!

وحتى عـنـدما نكـون مع من نحب، فـإن الحمق يبلغ بنا حـد التفكير في جسمها وروحها باعتبارهما منفصلين. وعلى الرغم من أنني بعيد عنها الآن،

---

(١) الثعبان الأخضر، في الميثولوجيا اليابانية، رمز للشر المستفحل، وقد كان ميشيما مـولعاً باستخدام هذا الرمز، ليؤدي هذا المعنى، على وجه الدقة. ويـروى عنه أنـه قال، في أغسطس ١٩٧٠، أي قبل انتحاره المشهود بثلاثة أشهر: «ان المال والنزعة المادية هما السائدان، اليابان الحديثة بشعة، وهي ضحية الثعبـان الأخضر، ولن تنجو من تلك اللعنة».

(هـ. م.)

فربما أكون في وضع أفضل مما كنت عليه لتقدير البلورة الفريدة التي هي ينج تشان. إن الانفصال مؤلم، ولكن نقيضه مؤلم بالمثل. وإذا كان التلاقي يبعث البهجة، فإنه يغدو من الصحيح كذلك أن البعاد ينبغي أن يحدث التأثير نفسه بطريقته الخاصة.

ـ ما رأيك يا ماتسوجاي؟ بالنسبة لي، أردت دائماً معرفة السر الذي يمكّن الحب من مراوغة قيود الزمان والمكان كما لو كان ذلك من خلال السحر. أن تقف في حضرة من نحب لا يضاهي حب ذاتها الحقة، لأننا عرضة فحسب للنظر إلى جمالها العضوي باعتباره الشكل الذي لا غنى عنه لوجودها. وعندما يتدخل الزمان والمكان، فمن المحتمل أن يخدعانا كلاهما. ولكن من ناحية أخرى فمن المحتمل بالمثل أن يقربانا من ذاتها الحقيقية أضعافاً مضاعفة.

لم يدر كيواكي مدى العمق المقصود من تفلسف الأمير، ولكنه راح يصغي إليه في انتباه. وفي حقيقة الأمر أن العديد من كلماته قد وصلت إلى قرارة فؤاد كيواكي. ففيما يتعلق بساتوكو كان كيواكي يعتقد أنه قد اجتذب الآن بهذا القدر إلى ذاتها الحقة. ولكن ما هو دليله على هذا؟ أليس عرضة للخديعة مرة أخرى؟ أليست ساتوكو التي أحبها مرة أخرى هي ساتوكو الحقيقية في نهاية المطاف؟ هزّ رأسه قليلاً، دونما وعي على وجه التقريب. ثم فجأة تذكر الحلم، الذي ظهرت فيه فتاة حسناء، على نحو غريب، في زمردة شاو بي. فجأة. ترى من هي تلك الفتاة؟ ساتوكو؟ ينج تشان التي لم يرها قط؟ أم ربما فتاة أخرى؟

قال الأمير كريد سادا حزيناً، ومتطلعاً من النافذة، إلى الأجمة المحيطة بالقسم الداخلي:

ـ على أية حال، أيقبل الصيف يوماً؟

كان بمقدور الفتية الثلاثة رؤية المصابيح المضاءة في مباني القسم الداخلي الأخرى، فيما هي تلتمع بين الأشجار، وسمعوا كذلك صياحاً وحواراً عالياً منبعثاً من شتى الاتجاهات. حان وقت فتح قاعة الطعام لتناول العشاء. راح طالب فيما هو يشق طريقه عبر الممشى مخترقاً أجمة الأشجار يردد أغنية قديمة، وسط قهقهة رفاقه المدوية. اتسعت عيون الأميرين السياميين، كأنما من جراء الخوف من أنه في أية لحظة يمكن أن تلوح في الظلام هولات الجبال أو الأنهار.

وقد أدت إعادة كيواكي للخاتم، في هذه المناسبة، إلى حادثة لا تبعث على الشعور بالسرور.

* * *

بعد عدة أيام، اتصلت تاديشينا هاتفياً، فأبلغت الخادمة كيواكي بذلك، لكنه لم يمض إلى الهاتف، وفي الغد اتصلت مجدداً، لم يقبل بمحادثتها كذلك.

أثارت المكالمتان قلقه إلى حد ما، ولكنه اعتصم بقاعدته التي كرَّسها: أن ينحي ساتوكو عن ذهنه، ويركز على الحنق الذي أثارته وقاحة تاديشينا في نفسه. وكان كل ما عليه هو أن يفكر في العجوز الماكرة، الكاذبة، التي خدعته في صفاته، مراراً وتكراراً، وكان غضبه، الذي يعقب ذلك، من القوة بحيث يتجاوز أية هواجس قد تراوده، حول عدم ذهابه إلى الهاتف.

انقضت ثلاثة أيام. كان موسم المطر قد أوغل، فانهمر مدراراً. عندما عاد كيواكي من المدرسة، أقبل يامادا نحوه حاملاً صفحة مطلية باللك، وقدم له بمزيد من التوقير رسالة استقر وجهها على الصفحة. ألقى نظرة عليها، فأذهله أن يرى أن تاديشينا قد وضعت بجلافة اسمها عليها. كان المظروف السميك، ذو الحجم الكبير، قد ختم بعناية، وإذا ما حكم المرء بملمسه،

فقد استقرت بداخله رسالة. أحس بالخوف من أنه إذا ترك وحده فقد لا يتمكن من كبح جماح نفسه، وردعها عن فتح الرسالة. وهكذا أجبر نفسه على التصرف عمداً، فمزق الرسالة إرباً عن قصد أمام يامادا، ثم أمره بالتخلص مما بقي منها؛ إذ كان يعلم أنه لو ألقاها في سلة المهملات في غرفته، لأغراه ذلك على التقاطها وتجميع مزقها. توهجت عينا يامادا دهشة خلف عويناته، لكنه لم ينبس بكلمة واحدة.

مرت بضعة أيام. وبدأ موضوع الرسالة الممزقة يثقل كاهل كيواكي، وأخذ رد فعله صورة الغضب. كان هذا شيئاً يفوق مجرد الشعور بالضيق، حول أن رسالة يفترض أنها قليلة الشأن تمتعت بمثل هذه القدرة على إثارة قلقه. أما ما كان معذِّباً فهو الإدراك الذي يستحيل تجاهله لكونه الآن قد ندم على قراره بعدم فتح الرسالة، ففي البداية، استطاع النظر إلى اتلاف الرسالة باعتباره برهاناً على قوة إرادته، ولكنه الآن يخامره الشعور بأن الأمر على العكس من ذلك، وأنه تصرف بدافع من الجبن.

عندما مزق ذلك المظروف الأبيض، الناصع، السميك، واجهت أصابعه مقاومة صلبة، ربما كما لو كانت الرسالة قد كتبت على ورق مقوى بنسيج كتاني. ولكن لم يكن تركيب الرسالة هو المهم، فهو يدرك الآن أنه لولا انبثاقة قوة إرادته، لكان من المستحيل عليه أن يمزقها. ترى لم يتعين أن يستبد به الخوف؟ ما من رغبة تساوره في أن تكون له صلة على نحو مؤلم بساتوكو من جديد. إنه يمقت مجرد فكرة التورط مجدداً في هذه الغمامة العاطرة من القلق، التي تستطيع استحضارها حسبما تشاء، وخاصة الآن وقد حقق تملك ناصية نفسه من جديد. ولكن على الرغم من هذا كله، فإنه عندما كان يمزق ذلك المظروف السميك، ساوره شعور بأنه يمزق جرحاً بليغاً في بشرة ساتوكو بتألقها الأبيض اللدن.

في طريق عودته من المدرسة، في أصيل يوم سبت حار، خلال انقطاع

غير مألوف في الطقس المطير، لاحظ تحركاً نشطاً عند مدخل البوابة الرئيسية للدار. كان السيّاس قد أعدوا إحدى العربات، وراحوا يحمّلونها بطرد ضخم، أوضح غلافه المتخذ من الحرير القرمزي، في التو، أنه هدية. أرهفت الجياد آذانها، وانتثرت خيوط من اللعاب اللامع من أخطامها، فيما هي تحدق كاشفة عن أسنان صفراء. والتمعت معرفاتها القاتمة تحت وهج الشمس الحار، كأنما لطخها الشحم، وبرزت أوردتها المنتفخة في أعناقها، تحت معرفاتها الكثة البديعة.

فيما كان يهم بصعود الدرج إلى الدار، لاحت أمه مرتدية أثواباً رسمية، منتفخة، يزيّنها شعار العائلة.

قال:

ـ مرحباً!

ـ آه، مرحباً بك! إني في طريقي إلى آل أياكورا لتقديم التهاني.

ـ التهاني علام؟

لما كانت أمه تكره مناقشة الموضوعات ذات الأهمية أمام الخدم؛ فإنها لم تجب على الفور، وإنما اجتذبته إلى ركن معتم من أركان المدخل الفسيح، حيث مظلة قائمة، قبل أن تبدأ في الحديث بصوت خافت.

ـ صدر التصديق الأمبراطوري، في نهاية المطاف. أتود الذهاب معي؟

قبل أن يرد ولدها، لاحظت الأميرة أن كلماتها قد أثارت لمعة من السرور الخابي في مقلتيه. ومن الطبيعي أن الوقت لم يتح لها للتساؤل عن معناها. فضلاً عن ذلك، فقد كانت كلماتها التالية هناك إلى جوار المدخل برهاناً بليغاً على مدى ضآلة ما استشفته في تلك اللحظة.

قالت، وقد أسدلت على محياها قناع كآبتها:

ـ المناسبة البهيجة هي، في نهاية المطاف، مناسبة بهيجة، وهكذا، مهما

كان خلافك مع ساتوكو، فالصواب الوحيد الذي يتعين القيام به في مثل هذه المناسبة هو أن تكون مهذباً، وتقدم لها التهنئة.

ـ أرجو أن تنقلي لها تحياتي، فلن أذهب إلى هناك.

وقف في المدخل، وراقب أمه، وهي تغادر المكان. نثرت حوافر الجياد الحصى، محدثة ضجة تشبه عاصفة فجائية، وبدا أن شعار آل ماتسوجاي الذهبي على العربة يرتجف في الهواء، فيما هو يلتمع عبر أشجار الصنوبر الشامخة، عند مدخل الدار، بينما العربة تبتعد مختفية عن العيان. كان بوسع كيواكي أن يحس بتراخي الخدم، الذي أعقب انصراف سيدتهم، فقد تلاشى التوتر في عضلاتهم بهمود، كأنه تيهور جليدي صامت.

التفت نحو الدار، التي بدت خاوية، وقد غاب عنها الأمير والأميرة معاً. وقف الخدم، منكسي الرؤوس، في انتظار دخوله. وفي تلك اللحظة كان على يقين من أنه يحمل بذور مشكلة من الضخامة بحيث تكفي لملء فراغ الدار الهائل. ودونما اكتراث بالتطلع إلى الخدم، دخل، ومضى مسرعاً، عبر الدهليز، حريصاً على ألا يهدر لحظة واحدة في الوصول إلى غرفته، حيث يستطيع أن يعزل نفسه بعيداً عن الدنيا بأسرها.

كان قلبه يخفق بانفعال غريب، واستشعر حرارة لها لسع الحمى. بدت الكلمتان الوقورتان «التصديق الأمبراطوري» معلقتين أمام عينيه. لقد صدر التصديق الأمبراطوري. لا بد أن اتصال تاديشينا الهاتفيين والرسالة السميكة ـ كل ذلك شكل تحركًا أخيراً يائساً قبل مجيء التصديق. وكان الهدف منها الحصول على غفرانه للتخلص من الشعور بالذنب.

طوال ذلك اليوم، أطلق العنان لخياله، وغفل عن العالم الخارجي؛ فقد تهشمت الآن مرآة روحه الصافية الهادئة. ثارت في فؤاده عاصفة تأججت بعنفوان عاصفة استوائية، فقد هزته الآن عاطفة ضارية لا أثر فيها من

الكآبة، التي كانت جزءاً لا يتجزأ من العواطف الواهنة التي سبقتها. ولكن أي انفعال ذاك الذي يقبض على ناصيته الآن؟ لا بد أن يدعى بالبهجة، لكنها كانت بهجة مجردة من المنطق، طاغية في عنفوانها، إلى حد أنها كانت، على وجه التقريب، مفارقة لما هو أرضي.

ولو أن المرء قدر له أن يتساءل عن سبب هذا الانفعال، لكان الرد الوحيد الممكن هو أنه ينبع من الاستحالة، من الاستحالة المحض. وكما أن وتر آلة الكوتو الموسيقية، حينما يقطع بنصل حاد، يتراجع بصوت حاد مؤلم، فكذلك الحال بالنسبة للرابطة التي ضمَّته مع ساتوكو، حيث قطعها النصل اللامع للتصديق الأمبراطوري. وفي غمار تضاربه المتقلب، كان هذا شيئاً ساوره في أحلامه، وتطلع إليه سراً، منذ بدأ في مفارقة طفولته.

وبمزيد من الدقة، فقد بدأ الحلم في التشكل حينما تطلع إلى أعلى، وهو ممسك بطرف رداء الأميرة كاسوجا، ففتنه جيدها الأبيض بحسنه، الذي لا نظير له، والذي يستعصى على المنال إلى الأبد. من المؤكد أن تلك اللحظة قد ألقت بظلالها على تحقق آماله اليوم. استحالة مطلقة ـ وقد ساعد كيواكي نفسه في إحداثها من خلال التشكيل الأحادي للأحداث، في إطار ميوله كافة وكل انعطافة لمشاعره.

ولكن أي نوع من البهجة كانت هذه البهجة التي أحسها؟ لقد خلب شيء ما فيها لبه، كان ثمة شيء رهيب فيها حافل بالتهديد. لقد سبق له، منذ زمان بعيد، أن قرر الاعتراف بعواطفه وانفعالاته باعتبارها الحقيقة الوحيدة التي ترشده، وأن يعيش حياته وفقاً لذلك، حتى ولو كان معنى ذلك ضرباً متعمداً بلا هدف يجري. وقد دفعه ذلك المبدأ الآن نحو مشاعر بهجته الرهيبة، التي بدا أنها حافة دوامة متلاطمة مندفعة. وبدا أنه لم يبق شيء إلا أن يلقي نفسه في رحابها.

فكَّر من جديد في نفسه وفي ساتوكو، قبل كل هذه السنوات، وهما ينسخان الأشعار من كتاب «المائة شاعر»، خلال تمريناتهما على الكتابة. كان ينحني على اللفيفة، محاولاً استنشاق أثر من عبق ساتوكو، الذي ربما كان قد بقي منذ ذلك اليوم، قبل أربع عشرة سنة. وفيما هو عاكف على هذا اشتم رائحة بخور ليست بعيدة عن الفطر، شيء واهن، ونساء، لايزال يستحضر مثل هذا الحنين العارم الذي استشعر أنه قد عرّى مصدر انفعاله بأسره، مجرد من الهدف وفي الوقت نفسه مندفع بعنف عارم.

كانت كل قطعة من قطع حلوى الأمبراطورة، التي تعطي جائزة للفائز في لعبة السوجوروكو، قد صيغت على شكل الشعار الأمبراطوري. وحينما تقضم أسنانه الصغيرة زهرة الأقحوان الارجوانية، فإن لون بتلاتها يتكشف قبل أن تذوب، وبلمسة من لسانه فإن الخطوط المرسومة برقة لزهرة الأقحوان البيضاء الباردة اضطربت وانحلت إلى سائل حلو. عاد كل شيء إليه ـ غرف دارة أياكورا المعتمة، الستائر البلاطية المجلوبة من كيوتو، بزخرفتها من الزهور الخريفية، السكون الوقور الذي يسود الليالي، انفتاح فم ساتوكو في تثاؤب خفيف، شبه محتجب وراء انسياب شعرها الأسود ـ عاد كل شيء، تماماً كما عايشه وقتها، بكل جماله المتوحد. ولكنه أدرك أنه يقر الآن ببطء فكرة واحدة لم يسبق له أن تقبلها.

- ٢٥ -

دوي شيء ما في أعماق كيواكي، كأنه نداء نفير: إنني أحب ساتوكو. وأياً كانت رؤيته لهذا الشعور، فقد عجز عن تجريح صحته، على الرغم من أنه لم يسبق له أن عايش شيئاً يضاهيه. ثم أطلق كشف آخر العنان لفيضان رغبة، كبح جماحها طويلاً: إن الرهافة تضرب صفحاً عن الضوابط، بل عن أقسى الضوابط. كانت دوافعه الجنسية، البعيدة عن الثقة بذاتها، حتى ذلك الوقت، تفتقر على وجه الدقة إلى مثل هذا الاندفاع القوي. لقد استغرق وقتاً طويلاً واقتضى جهداً كبيراً للعثور على دوره في الحياة.

حدَّث نفسه قائلاً: «الآن، أخيراً، أجدني على يقين من أنني أحب ساتوكو». وكانت استحالة تحقق هذا الحب برهاناً كافياً على صحة اقتناعه.

لم يكن بوسعه البقاء ساكناً، فنهض من مقعده، ثم جلس من جديد. كانت خواطره على الدوام موغلة في كآبتها وقلقها، ولكن اكتسحته دفقة من حيوية الشباب. أحس أن كل شيء مرّ به كان وهماً، فقد سمح لحساسيته واكتئابه بأن يسيطرا عليه، ويكبحا جماحه.

فتح النافذة، وتنهد بعمق فيما هو يقف متأملاً البحيرة، التي التمع سطحها تحت سنا الشمس الباهر. اشتمّ عبق الزولكوفا الغض. وفي وسط السحب، التي راحت تتجمع على أحد جانبي تل القيقب، لاحظ بادرة تألق، دلته على أن الصيف قد أقبل أخيراً. توهج خداه، وتألقت عيناه، فقد أصبح شخصاً جديداً، يبلغ على الأقل التاسعة عشرة من عمره.

- ٢٦ -

أسلم نفسه لأحلام يقظة مفعمة بالعاطفة، فيما كان ينتظر بصبر نافد عودة أمه من دار آل آياكورا، فلم يكن وجودها هناك متناسباً مع خططه، على الاطلاق. لم يطق مزيداً من الانتظار، فخلع عنه زيه المدرسي، وارتدى كيمونو مزخرفاً على طريقة ساتسوما مع هاكاما، ثم استدعى أحد الخدم، وأمره بجعل عربة ريكشو تنتظره.

غادر عربة الريكشو، متبعاً خطته، في أويساما، ٦ شارع تشومي حيث المحطة النهائية للحافلات التي تمضي إلى روبونجي، ركب الحافلة حتى نهاية المسار. عند منعطف في روبونجي، حيث يلتوي الطريق الى توريزاكا، انتصبت ثلاث أشجار زيلكوفا عملاقة، هي باقي الشجرات الست التي منحت حي روبونجي اسمه. تحتها، ومثلما كان العهد قبل أن توجد الحافلات في طوكيو، ثبتت لافتة ضخمة، تحمل الكلمتين «موقف ريكشو» مكتوبتين على عجل، وتجمع في انتظار الزبائن رجال العربات معتمرين قبعات مخروطية من القش ومرتدين سترات قصيرة وسراويل زرقاء.

إستدعى كيواكي أحدهم، ونفحه على التو بعطية سخية، وأمره بأن يمضي به في الحال إلى دارة أياكورا، التي لم تكن تبعد أكثر من مسيرة بضع دقائق على الأقدام. لم تكن بوابة دارة أياكورا العتيقة لتتسع لمرور عربة آل ماتسوجاي الانجليزية، وهكذا فإذا كانت لاتزال منتظرة في الخارج والبوابة مفتوحة، فإنه سيعلم أن أمه مازالت في الداخل، أما إذا كانت قد مضت

وأوصدت البوابة، فبمقدوره الافتراض دونما مغامرة بالتعرض للخطأ بأن أمه قد أدت التزاماتها المراسيمية، ورحلت.

عندما مرت عربة الريكشو بالبوابة، ألفاها موصدة، وتعرف في الطريق خارجها الآثار التي خلفتها العربة.

أصدر تعليماته لرجل عربة الريكشو بالعودة به إلى قمة توريزاكا. وعندما وصلا إلى هناك، أرسله مترجلاً إلى تاديشينا، بينما انتظر هو مستفيداً من الغطاء الذي كفلته له الريكشو.

تبين له أن عليه الانتظار طويلاً، ومن خلال شق في جانب الريكشو راح يتأمل أشعة شمس الصيف الغاربة وهي تغمر الأوراق الجديدة المكدسة في أطراف الأغصان. بدا أنها على مهل تغمس هذه الأوراق في ألق سائل. شمخت شجرة بنية ضاربة إلى الحمرة متعملقة فوق السور الطوبي الأحمر الذي يدور مع حافة منحدر توريزاكا. ذكرته أوراقها العليا بوكر طير أبيض زينه تاج رهيف التشابك من الزهور يعلوه لون أحمر وردي. وفجأة، راح يفكر في ذلك الصباح الثلجي في شهر فبراير، ودونما سبب ظاهرة، أخذته هزة ملؤها الانفعال. ومع ذلك فلم يكن مقصده هو فرض لقاء فوري على ساتوكو، فبما أن العاطفة وجدت الآن مساراً محدداً، لم يعد عرضة للوقوع في قبضة كل اندفاعة انفعالية جديدة تعتريه.

أقبلت تاديشينا من مدخل جانبي، يتبعها سائق الريكشو. وعندما بلغت العربة، دفع كيواكي سقفها إلى الوراء، ليكشف عن وجهه، وعلى هذا النحو أخذها على غرة حتى لم يعد بوسعها إلا الوقوف هنالك وقد فغرت فاها أمامه. مدَّ يده، وأمسك يدها بقوة، وأصعدها إلى الريكشو.

ـ لديَّ ما أحدثك به. دعينا ننطلق إلى مكان نستطيع الحديث فيه آمنين.

ـ ولكن، يا سيدي . . . هذه مفاجأة كبيرة! لقد رحلت والدتك الأميرة قبل دقائق قلائل، ثم إننا نعد الليل لاحتفال غير رسمي . . . إنني مشغولة للغاية حقاً.

ـ لا عليك! هلم وأخبري الفتى بالمكان الذي يتعين عليه أن يقصده بالريكشو!

لما كان كيواكي قد واصل قبضته الحازمة على ذراعها، لم يكن أمامها من خيار إلا الإذعان.

قال لسائق الريكشو:

ـ إمض نحو كاسوميتشو! قرب الرقم ثلاثة هناك طريق يمضي منحدراً، وينعطف نحو البوابة الرئيسية لثكنات الفوج الثالث. خذنا إلى سفح المنحدر فحسب، لطفاً!

ترنحت الريكشو، وهي تنطلق إلى الأمام، وراحت تاديشينا تحدِّق أمامها بتركيز مترع باليأس، وهي تعيد إلى موضعها في عصبية شعرة نافرة من شعرها. كانت تلك هي المرة الأولى التي يجد فيها نفسه قريباً على هذا النحو من هذه العجوز بقناعها السميك الأبيض من الذرور، وكانت التجربة أبعد ما تكون عن إدخال السرور على نفسه. ومع ذلك، لم يستطع الحيلولة دون ملاحظة أنها أشد ضآلة مما كان قد تصور، بل في حقيقة الأمر توشك ألا تتجاوز كونها قزمة. وفيما الريكشو تقلقها، واصلت الغمغمة بسيل لا ينقطع من الاحتجاج يمكن بالكاد فهمه.

قالت:

ـ فات الأوان، فات الأوان . . . أياً ما كان الأمر، فقد فات الأوان.

ثم أضافت:

ـ لو أنك أرسلت لي كلمة في معرض الرد فحسب . . . قبل أن يقع هذا. آه، لماذا . . .؟

لم يحر كيواكي رداً، وهكذا قالت أخيراً شيئاً عن وجهتها قبيل الوصول إلى هناك:

- أحد أقاربي من بعيد يدير فندقاً للجنود غير بعيد عن هنا. ليس بالمكان الفخم، ولكن ملحقاً به يتاح على الدوام، وسيسمح لي هذا الملحق بالاستماع إلى ما يرغب السيد الشاب في قوله بعيداً عن الآذان.

الغد هو الأحد، وفيه يتحول روبونجي فجأة إلى حي هو بمثابة ثكنة صاخبة، وتزدحم شوارع الحي بالجنود في زيهم الكاكي، والكثيرون منهم يقومون بنزهة مع عائلاتهم. ولكن الوقت كان أصيل السبت، ولم يحدث هذا التحول بعد. وفيما الريكشو تحمله عبر الشوارع نحو مقصد تاديشينا، ساوره شعور بأنه في ذلك الصباح الثلجي كذلك اجتاز مع ساتوكو أولاً هذه البقعة، ثم بقعة أخرى. وفيما وصل إلى الاقتناع بأنه قد تذكر المنحدر الذي هبطاه، أمرت تاديشينا الرجل بالتوقف.

كانوا أمام فندق عند سفح المنحدر، يرتفع جناحه الرئيسي ليبلغ الطابقين، وعلى الرغم من أنه لم يكن له بوابة أو دهليز للمدخل فقد أحاطت به حديقة رحبة يلفها سور عريض.

وقفت تاديشينا خارج السور، وتطلعت إلى الطابق الثاني من المبنى الخشبي الخشن. لم تكن هناك أية معالم للحياة فيه. وكانت الأبواب الزجاجية الستة التي تواجه المدخل موصدة، ولم يلح شيء مما بداخل الفندق للعيان، وعكست الألواح الزجاجية ذات النوعية المتواضعة في الباب المزخرف بالأشكال الخشبية السماء التي جللها المساء بطريقتها الخاصة الملتوية، بل وانعكس عليها نجار يعكف على العمل فوق سطح مجاور، وشوهت صورته، كأنها تنعكس على صفحة ماء. وبدت السماء هناك مضببة مكسوة بكآبة بحيرة غشاها المساء.

ـ سيكون الأمر محرجاً لو أن الجنود كانوا قد عادوا، لكن الضباط وحدهم يحصلون على غرف هنا.

قالتها تاديشينا، فيما هي تدفع باباً متقارب الزخارف الخشبية، علقت عليه أيقونة ربة الأطفال، ثم نادت معلنة حضورهما.

ظهر رجل طويل القامة، أشيب الشعر، كان على حافة الشيخوخة.
ـ آه، الآنسة تاديشينا! أقبلي لطفاً!

قالها الرجل، بصوت يشبه الصرير، على نحو ما.
ـ هل الملحق خال؟
ـ نعم، نعم، بالطبع.

مضى ثلاثتهم، عبر الدهليز الخلفي، إلى مؤخرة الفندق، وولجوا غرفة صغيرة، ربما لا تتجاوز مساحتها عشرة أقدام مربعة، من النوع الذي يستخدم غالباً في اللقاءات الغرامية المختلسة.
قالت تاديشينا:

ـ ليس بوسعي البقاء وقتاً طويلاً للغاية. وفضلاً عن ذلك، ولكوني وحيدة على هذا النحو مع شاب وسيم، هكذا، لست أدري ما عسى أن يتقوله الناس.

هكذا، تحدثت فجأة، على نحو عرضي، متغنج، مخاطبة كيواكي والفندقي العجوز.

كانت الغرفة مرتبة، على نحو مريب. تدلت لفافة صغيرة تناسب حفل شاي، في ركن صغير، بل وكان هناك ستار منزلق، يحمل صورة من حكاية

جينجي[1]. كان المناخ مختلفاً تماماً عما يتوقعه المرء من المظهر الخارجي، وهو مظهر نزل رخيص يرتاده رجال الجيش.

ـ ما الذي ترغب إذن في قوله لي؟

تساءلت تاديشينا، بمجرد انسحاب الفندقي. وعندما لم يحر كيواكي رداً، كررت سؤالها، دون أن تبذل مزيداً من الجهد لإخفاء ضيقها.

ـ ما هي جلية الأمر؟ ولم اخترت هذا اليوم من بين الأيام جميعاً. . .؟

ـ لأن الأمر مناسب هكذا. أريدك أن ترتبي لقاء بيني وبين ساتوكو.

ـ ماذا تقصد أيها السيد الشاب؟ لقد فات الأوان. وبعدما حدث كيف يمكن أن تطلب شيئاً كهذا؟ من الآن فصاعداً ليس هناك ما يمكن القيام به. ينبغي أن يتم كل شيء، حسبما يروق للأمبراطور. والآن تطرح هذا ـ بعد كل تلك المكالمات الهاتفية والرسالة التي بعثت بها إليك! لم تر من المناسب أن تدلي بأي رد، كائناً ما كان. واليوم تطلب شيئاً كهذا! ليس الأمر بالهزل.

ـ ما عليك إلا أن تتذكري هذا: كل ما وقع كان بسبب غلطتك.

---

(1) حكاية جينجي: أول رواية يابانية كاملة لا تزال بين أيدينا، مؤلفتها هي شيكاريبو مورا ساكي (٩٧٨ ـ ١٠١٤ تقريباً) وهي سليلة عشيرة فوجيوارا القوية، عملت بالبلاط الهايني، بعد وفاة زوجها. ويعد العمل، الذي يقع في طبعة «بنجوين» الانجليزية فيما يتجاوز خمسمائة صفحة، من الروائع الكلاسيكية للأدب الياباني، ويصور حياة هيكارو جينجي، الأمير الوسيم، اللامع، الذي لا مثيل له، ويسجل غرامياته، وكذلك سقوطه من عليائه في نهاية عمره. وفي سمت العمل، يصبح جوهره هو الصراع بين العواطف الانسانية والبحث عن الحقيقة. ونحن نجد في عدم ترجمة هذا العمل الى اللغة العربية، حتى الآن نموذجاً آخر لقصور وعدم تكامل واختلال حصيلة المترجمات الى اللغة العربية من الأعمال الكلاسيكية في الآداب الشرقية.

(هـ. م.)

قالها كيواكي، بأقصى ما يستطيع من كبرياء، محدقاً في الأوردة، التي لاحت تدر تحت الذرور الذي يكسو جبين تاديشينا. اتهمها غاضباً بأنها بعد السماح لساتوكو بقراءة رسالته كذبت عليه، في وقاحة، حول هذا الأمر، وبأنها بثّت تخرصات خبيثة، أفقدته تابعه المخلص إينوما. وأخيراً احتالت تاديشينا لنفسها بالانفجار باكية، وراحت تعتذر في خنوع جاثية على ركبتيها.

انتزعت منديلاً ورقياً، من ردن الكيمونو، الذي ترتديه، وشرعت في تجفيف عينيها، مزيلة الذرور الأبيض حولهما، ليتكشف دفق التجعدات الحمراء فوق عظمتي وجنتيها، وهو البرهان الذي لا تخطئه العين لدنو الموت. لم يكن هناك على وجه التقريب أي فارق في التركيب بين ذلك الجلد المجعد والمنديل الورقي المنثني، الذي لطخه أحمر الشفاه. وفي نهاية المطاف، شرعت في الحديث، وهي تحدق في الفراغ:

ـ صحيح. الأمر كله يعود إلى غلطتي. اعلم أنه ما من قدر من الاعتذار يمكن أن يعوّض عما أتيته، لكني ينبغي أن أعتذر لسيدتي أكثر مما اعتذر لك؛ فقد كان خطأ تاديشينا المحزن هو أنها لم تنقل للسيد الشاب، على وجه الدقة، طبيعة مشاعر ساتوكو، وكل ما أعددت له بعناية بالغة، متدبرة الأمر على أفضل أوجهه، أصابه الفشل على نحو ذريع. أرجو أيها السيد الشاب أن تتفضل بالتذرع بالصبر معي للحظة. تخيّل حزن الآنسة ساتوكو عندما قرأت رسالتك، وفكر في ذلك القدر من الشجاعة الذي اقتضاه الأمر منها لتحجب أي مؤشر لذلك الحزن عندما قابلتك، ثم بعد أن قررت العمل بنصيحتي وتوجيه سؤال مباشر إلى سمو الأمير أبيك، تصوّر مدى عمق ارتياحها عندما علمت بالحقيقة منه في حفل العام الجديد العائلي. وبعد ذلك لم تكن تفكر صباحاً ومساء في شيء إلا في السيد الشاب، إلى أن مضت أخيراً إلى حد توجيه تلك الدعوة إلى القيام بنزهة

عبر الجليد في ذاك الصباح، مهما كان قدر الاحراج، الذي قد يكلفها ذلك بحسبانها امرأة. ولبعض الوقت، عقب ذلك، سادها الشعور بالسعادة طوال اليوم، بل وراحت تهمس باسمك في منامها. لكنها أدركت أنها من خلال عطف سمو الأمير عليها ستخطب لأحد أبناء العائلة الأمبراطورية ذاتها، وعلى الرغم من أنها كانت تعلق الآمال على قرار شجاع منك، وتعتمد عليه كل الاعتماد، فإنك لم تفه بكلمة واحدة، أيها السيد الشاب.، وتركت الأمور تجري في أعنتها. أصبح قلق الآنسة ساتوكو وعذابها مما يتجاوز القدرة على الإفصاح. وأخيراً، عندما غدا إصدار التصديق الأمبراطوري وشيكاً، قالت إنها كأمل أخير ترغب في أن تبلغك بحقيقة شعورها، وعلى الرغم من كل توسلاتي، قررت أن تكتب رسالة تحت اسمي. ولكن هذا الأمل أيضاً لفظ أنفاسه الأخيرة، وكانت الآنسة ساتوكو على وشك اعتبار الأمر كله شيئاً ينتمي إلى الماضي. وهكذا، فإن طلبك اليوم هو تجسيد للقسوة. وكما تعلم، فقد ربيت سيدتي منذ الطفولة على توفير رغبات سمو الأمبراطور، وليس بمقدورنا أن نتوقع تراجعها الآن، فقد فات الأوان... ببساطة فات الأوان. إذا كان غضبك لم يخمد، فاضرب تاديشينا، الطمها، قم بما هو ضروري لتهدئة قلبك. ولكن ما من حل هناك، لقد فات الأوان.

فيما هو يصغي إلى حديث تاديشينا، اخترمته زجفة بهجة، كأنها السكين، غير أنه أحس في الوقت نفسه، على نحو ما، بأنه يعرف كل ذلك بالفعل، وأنه يسمع أشياء تكرر، كانت جلية في فؤاده. الآن ألفى نفسه وقد تملكت ناصيته حكمة جارفة ما كان ليعتقد بوجودها من قبل قط. وإذ تقلد أسلحته على هذا النحو، أحس بأنه من القوة بحيث يتغلب على كل ما تطرحه الدنيا من عقبات. امتلأت عيناه بوهج الشباب، وراح يحدِّث نفسه: «قرأت الرسالة التي توسلت إليها لتحرقها، لم لا أعيد إلى الحياة رسالتها التي مزقتها إرباً؟»

حدَّق، صامتاً، وبتركيز بالغ، في العجوز الضئيلة، ذات الوجه المكسو بالذرور. مرة أخرى رفعت منديلها الورقي نحو عينيها المحمرتين. كانت الغرفة تزداد إعتاماً، مع هبوط المساء. بدا كتفاها المتهدلتان هزيلتين للغاية، حتى لقد استشعر يقيناً بأنه إذا أمسك بهما فجأة فإن العظام ستتداعى محدثة قرقعة جوفاء.

ـ لم يفت الأوان بعد.

ـ لكنه فات وانقضى.

ـ لا، لم ينقض. أتساءل عما سيحدث إذا ما أطلعت عائلة الأمير الأمبراطوري على رسالة ساتوكو الأخيرة؟ وخاصة عندما يأخذ المرء في الاعتبار أنها كتبت بعد الطلب الرسمي المقدم للحصول على التصديق الأمبراطوري.

عند سماع هذه الكلمات، غاض الدم، فجأة، من وجه تاديشينا.

لم يفه أحدهما بحرف، لوقت طويل. لم يعد ما يضيء النوافذ متمثلاً في أشعة الشمس الغاربة، وإنما الأضواء الصادرة عن غرف الطابق الثاني من المبنى الرئيسي، فقد أخذ النزلاء في العودة. وبين الفينة والأخرى يلتمع زي كاكي عند هذه النافذة أو تلك. خارج السور، راح بائع فاصوليا ينفخ في بوقه. اتشح هواء المساء بالدفء المعتدل، شأن الدفء النابع من ملابس صوفية، الذي يميز أيام الصيف القليلة، التي تسبق نهاية موسم المطر.

بين لحظة وأخرى، كانت تاديشينا تهمس لنفسها بشيء لم يسمع كيواكي إلا مقاطع عابرة منه: «لهذا السبب حاولت منعها... لهذا السبب قلت لها ألا تفعل ذلك». بدا جلياً أنها تغمغم بكلمات حول معارضتها لقيام ساتوكو بكتابة تلك الرسالة الأخيرة.

احتفظ بصمته، بثقة متزايدة بأنه يمسك الورقة الرابحة بيده. بدا أن وحشاً برياً راح يطل برأسه تدريجياً وإن كان على نحو ظاهر بداخله.

قالت تاديشينا :

ـ طيب، إذن، سأرتب لقاء واحداً فحسب. والآن كلي ثقة في أن السيد الشاب سيتعطف بإعادة الرسالة.

رد كيواكي :

ـ رائع. ولكن اللقاء في ذاته ليس كافيـاً. أريد أن نلتقي بمفـردنا، دون أن تكوني هناك. أما فيما يتعلق بالرسالة فسوف أعيدها فيما بعد.

- ٢٧ -

انقضت ثلاثة أيام. لم يكف المطر عن الهطول. بعد انتهاء اليوم الدراسي، مضى كيواكي إلى ذلك النزل في كاسو ميتشو، مخفياً زيه المدرسي تحت معطف واقٍ من المطر. كان قد تلقى رسالة من تاديشينا تشير إلى أن اليوم ستتاح فرصة ساتوكو الوحيدة لكي تنسل من الدار حيث سيتغيب أبواها.

أحس كيواكي بالتردد في نزع المعطف الواقي من المطر، حتى بعد أن مضى به الفندقي إلى الملحق. وقد لاحظ صاحب المنزل هذا، فيما هو يصب له شاي، فقال له مؤكداً:

- أرجو أن تحس بالراحة التامة، يا سيدي، فليس هناك ما يدعو إلى القلق مع وجود شخص مثلي تخلى على الدنيا وشؤونها.

غادره صاحب النزل، فتطلع في أرجاء الغرفة، ولاحظ أن المصراع المصنوع من الخيزران منسدل الآن على النافذة، التي كان قد تطلع خلالها في المرة الماضية إلى الطابق الثاني من الجناح الرئيسي. أوصدت النوافذ لإبعاد المطر، فملأت الغرفة حرارة رطبة قاهرة. عندما فتح في تكاسل علبة مطلية باللك، موضوعة على القمطر، ألفى داخلها مكسواً بقطرات من الرطوبة.

علم أن ساتوكو قد وصلت حينما سمع حفيف ثياب وصوت همسات تتناهى من الناحية الأخرى للباب المنزلق.

فتح لوح الباب، وانحنت له تاديشينا انحناءة عميقة دون التفوه بكلمة، وتركت ساتوكو تلج الغرفة، وأسرعت بإغلاق لوح الباب مجدداً. وقبل أن تدفع الباب لينزلق إلى موضعه تألقت عيناها المرفوعتان للحظة ببياضهما، في عتمة الظهيرة المتقدة، في الدهليز، كأنهما عينا سبيدج.

جلست ساتوكو على الأرض، المكسوة بالحصير أمام كيواكي، وقد ضمت ركبتيها في احتشام. أحنت رأسها، وأخفت وجهها بمنديل، تاركة اليد الأخرى تستقر على الأرض. كان جسمها منتحياً جانباً، بحيث تألقت فتحة عنقها بالبياض، كأنها بحيرة صغيرة، مما قد يصادفه المرء في الجبال.

جلس أمامها في صمت، وقد داخله شعور بأنهما يغمرهما كليهما المطر المنهمر على السقف. لم يستطع إلا بالكاد تصديق أن اللحظة قد حانت في آخر الأمر.

خانت الكلمات ساتوكو، وكان هو الذي وصل بها إلى هذا. كان أشد آماله توهجاً أن يراها وقد انحدرت إلى هذا الوضع، وتجردت من القوة، التي منحها لها كونها أكبر منه سناً، على إمطار بهذه العظات الصغيرة التي كانت مولعة بها أشد الولع، فغدت عاجزة إلا عن سفح الدمع الصامت. وفي هذه اللحظة، كمنت فيها جاذبية لا تقاوم، بالنسبة له، وهي في كيمونوها، الذي يحمل لون الويستريا البيضاء، ولكنها لم تكن جاذبية جائزة قيمة استقرت في قبضته أخيراً فحسب، وإنما كانت أيضاً سحر ما هو محرم، وما لا سبيل إلى نواله على الاطلاق، والمحظور. أرادها على هذا النحو دون سواه. ومن ناحية أخرى، كانت هي نفسها على الدوام التي أرادت الاخلال بتوازنه من خلال الايغال في التلاعبات. لشد ما تغيرت الأمور الآن! كان بمقدورها أن تتخذ هذا الوضع الجميل والمقدس والمعصوم، ولكنها فضلت على الدوام الدور الزائف للأخت الكبرى، مغرقة إياه بذلك التلطف الذي يمقته أشد المقت.

أدرك الآن السر في اعتراضه، بمثل هذه القوة، على اقتراح أبيه أن يعرفه بالمسرات التي تمنحها نساء يوشيوارا. فتماماً كما يستطيع المرء رصد تحركات الخادرة داخل شرنقة، كان قد استشرف دائماً التقطر التدريجي لجوهر مقدس على نحو لا سبيل لانتهاكه بالحديث مع ساتوكو. وما كان بمقدوره أن يمنح براءته إلا لذلك الجوهر وحده. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً سيشرع فجر من تألق لا سبيل إلى تخيله من غمر عالم الكآبة السوداء البدائية الذي سجن نفسه فيه.

أصبحت الرهافة، التي امتصها منذ طفولته تحت إشراف النبيل أياكورا، الآن، خيطاً حريرياً في يديه، أنشوطة لبراءته ولعصمة ساتوكو. الآن، وجد أخيراً استخداماً مناسباً للحبل المتألق، الذي حيَّره الغرض منه طويلاً.

كان على يقين من أنه يهوى ساتوكو. وهكذا تقدم على ركبتيه، وأمسك كتفيها بقوة، فأحس بهما تتوتران، وهما تقاومان قبضته. أبهجه هذا الصد الحازم. كانت تلك مقاومة على مستوى شامخ، طقوس مقاومة ذات مغزى كوني. كانت الكتفان اللدنتان اللتان أثارتا مثل هذه الرغبة في أعماقه تقاومانه بقوة، تستند إلى ثقل التصديق الأمبراطوري، ولهذا السبب عينه كانت لهذه المقاومة القدرة المتميزة على إثارة جنونه، وجعلت أطراف أصابعه تنبض بوجع الرغبة المحمومة. كان لشعرها الفاحم، الضائع بالعطر، والمصفف بعناية، والمراكم بخفة فوق جبينها، لمعان كامل التجسد. وإذ لمحه لفترة وجيزة على مثل هذا القرب ذكّره بفقدان الطريق في غابة ذات ليلة مقمرة.

دنا بوجهه من وجنة ندَّاها الدمع، هربت من حماية منديلها. شرعت، وهي لاتزال على صمتها، تهز رأسها، في محاولة لإبعاده، ولكن تملصاتها كانت آلية تماماً حتى لقد عرف أنها ما كانت نابعة من قلبها، وإنما مفروضة

من الخارج. نحّى المنديل جانباً، وحاول تقبيلها، ولكن فيما كانت شفتاهـا راغبتين في ذلك الصباح الجليدي من شهـر فبرايـر، قاومتـاه الآن بضراوة، وفي النهاية أحنت رأسها، ومثل عصفور وليد غاف جمّدت ذقنهـا مدفـونة في عنق كيمونوها.

ارتفـع صوت انهمار المـطر. واصل الإمسـاك بها، وتـوقف لتقـديـر قـوة دفاعاتها. كان كيمونوها، الذي زخرفت يـاقته بتصميم يـأخذ شكـل أشواك الصيف، مضموماً عـلى نحو يـوحي بالعفـة عند العنق، كـاشفاً عن مثلث ضئيـل من الجلد. كان زنـارها العـريض الملفـوف بـإحكـام بـارداً وصلب الملمس، كأنه الباب يحول دون ولـوج قدس أقـداس. وفي الوسط هنـالك تألق مشبك ذهبي كأنه رأس مسمار مزخرف في عمود من أعمدة فناء معبد. ورغم ذلك فقد ضـاع جسمها بـالعبق الحار للحم الانثـوي، وانسل ذلـك العبق من فتحات الردن الـداخلية عنـد كتفيها خـارجاً من ردني الكيمـونو الواسعين، فبدا مثل نسيم دافىء يمس وجنته.

أبعد إحدى يديه عن ظهرها، وأمسك ذقنها في إحكام، استقرت هنالك في نعومة كأنها قطعة شطرنج صغيرة، مستديرة، عاجية. بلل الدمع أنفها، واختلجت فتحـة أنفهـا. وعـلى هـذا النحـو قبلهـا كـما ينبغي للتقبيـل أن يكون.

بدت، فجأة، كما لو التهمتها نار غامضة، تماماً كـاللهب المتقد في مـوقد يتوهج بمزيد من الضراوة حينما يفتح البـاب، الآن تحررت يـداها كلتـاهما، فضغـطت بهما عـلى وجنتي كيـواكي، دافعـة بقـوة، لكن شفتيهـا ظلّتـا عـلى شفتيـه على الـرغم من انها حـاولت إبعـاده، غـير أنها، نتيجـة لمقـاومتهـا، واصلت شفتاها بليونة سائلة تستعصى على التصـديق فوصلت به إلى حـواف الثمل، الأنثناء مـرة في هذا الاتجـاه وأخرى في الاتجـاه المقابـل حيال شفتيـه.

راحت الحافة الصلبة لتصميمها تمعن في الذوبان مثل قطعة من السكر في شاي ساخن، والآن بدأ ذوبان رائع العذوبة في الانديا ح.

لم تكن لديه أية فكرة، على الاطلاق، عن الكيفية التي يحل بها زنار امرأة. تحدى قوس الزنار المثبت في إحكام، والمتسع باتجاه الخارج عند ظهرها، جهود أصابعه، ولكن، فيما هو يتلمس على نحو عشوائي محاولاً فكه عنوة، مدت يدها وراءها، وفيما هي تبدي كل إمارات محاولتها في يأس كبح جماح محاولاته المتعثرة، قادت أصابعه على نحو مراوغ في اتجاه أكثر جدوى. تشابكت أصابعها للحظات، قابعة في طيات الزنار، ثم فيما مشبكه يتهاوى فجأة، تداعى فاقداً طياته، في حفيف حريري، متساقطاً عن جسمها، كأنما دبت فيه حياة خاصة به، كان ذلك بداية اهتياج مضطرب من الحركات، التي لا سبيل إلى السيطرة عليها. تماوج كيمونوها بكامله، متمرداً، فيما هو يجذب الطيات الحريرية، التي تلف ثدييها، فتصده عند كل خطوة شبكة كاملة من المشدات، التي تزداد إحكاماً، فيما تتهاوى غيرها. ولكن عندئذ وأمام عينيه مباشرة رأى المثلث الضئيل المحمي جيداً، المؤلف من البياض دون عنقها ينتشر متحولاً إلى مدى وافر وضائع بالعطر من البشرة.

لم تنبس بكلمة اعتراض واحدة بالفعل. لم يكن هناك ما يبرهن على ما إذا كان ذلك مقاومة صامتة أم إغواء ساكناً. بدا أنها تجتذبه إليها، في الوقت نفسه الذي تنافحه عن نفسها، غير أنه أحسّ بأن القوة الكامنة في قرار هجومه على عصمتها القدسية لم تكن قوته هو وحده بصورة تامة.

فماذا كان مصدرها إذن؟ فيما هو يتطلع إلى وجهها، فاض تدريجياً باللون الارجواني، ولم يكن هناك مجال للخطأ فيما يتعلق برغبتها. وضع يده خلف ظهره لتستند إليه، وأحس بها ترتكز عليها بمزيد من القوة، وإن كان

ذلك في مراوغة يوشيها الخفر، إلى أن تهاوت على الأرض. وكأنما فقدت كل أمل في المقاومة.

باعد ما بين أطراف كيمونوها السفلية، وشرع ينحّي جانباً حرير يوزين المطبوع، الذي حيكت منه ملابسها الداخلية، في تشابك متألق من الزخارف المتداخلة وطيور العنقاء المتألقة، المحلقة عالياً، فوق تكوينات مؤسلبة للسحاب، اجتذبته رؤية ناتية لفخذيها، وقد التفا في طية وراء الأخرى من الحرير، فيما هو يشق طريقه بعناء خلال المزيد والمزيد من طبقات السحب. كان خيط سري خفي يبقي على نحو ماكر، على تماسك تلك الأردية المعقدة، التي راح يضطرب معالجاً إياها، وظل المفتاح المؤدي إلى هذا الخيط يراوغه، فيما تنفسه يزداد خشونة واضطراباً.

غير أنه، في نهاية المطاف راح يقترب أكثر فأكثر من جسدها مدلياً نفسه في بطء بين فخذيها اللذين كان لهما الألق الخافق الذي يميز أفقاً شاحباً مسّته يد الفجر، وعندها رفعت يديها، وراحت تساعده في رفعه. قضت هذه الرقة المقصودة على اللحظة، ففي تلك الثانية عندما توحد مع الفجر، سواء أكان قد مسها أم لم يمسها، انتهى كل شيء فجأة.

رقدا أحدهما إلى جانب الآخر، على الأرض المكسوة بالحصير، وهما يحدقان في السقف. إنهمر المطر مدراراً من جديد، ومضى يلطم السقف، لم يكد خفق فؤاديهما يعرف التراجع. استشعر كيواكي صفاء لم يتجاوز شعوره المؤقت بالإجهاد فحسب، وإنما كذلك إدراكه أن شيئاً قد انتهى. غير أن شعوراً متأرجحاً بالندم المشترك كان لا يزال يخيم عليهما، جلياً كأنه الظلال التي شرعت في التشكل تدريجياً، في الغرفة الآخذة في الإعتام. ظن أنه سمع صوت عجوز تتنحنح، على الجانب الآخر من لوح الباب، غير أنه فيما كان يهم بالنهوض، مدت ساتوكو يدها لتوقفه بقبضة رقيقة على كتفه.

وعندئذ، دون أن تنبس ببنت شفة، بددت كل أثر من آثار النوم،

فأسعده أن يحذو حذوها. ومنذ تلك اللحظة، لم يبق شيء ليس بوسعه أن يغتفره لها.

كان في شرخ الشباب، وسرعان ما بعثت رغبته من مرقدها، وفي هذه المرة كانت أكثر استجابة، ومضى كل شيء في رقة وسلاسة. وبارشادها الأنثوي المتمكن أحس للمرة الأولى بأن كل العقبات قد زالت، وأنه قد ألفى نفسه في عالم جديد مترف. وفي غمار حرّ الغرفة، نزع آخر قطعة من ملابسه، وأحس الآن بحميمية اللحم على اللحم، متماسكاً ومعطاء رغم ذلك، مع المقاومة التي يبديها الماء والنباتات المائية لمقدمة الزورق الموغل فيه. رأى أن ليس في محياها أدنى أثر للأسى، بل وراحت تبتسم قليلاً، لكن ذلك لم يفعم نفسه بالهواجس الآن، فقد امتلأ قلبه بالطمأنينة.

في وقت لاحق، احتضنها، وقد تشعث شعرها، بين ذراعيه، وضغط وجنته على وجنتها، مستشعراً نداوة الدمع المنهل لتوّه. كان يعلم أن تلك هي دموع البهجة، ومع ذلك ما كان لشيء آخر أن ينقل على نحو أفضل وفي صمت وعيهما المتبادل بأنهما ارتكبا خطيئة لا مجال لاغتفارها أكثر من دموعها المنهلة على وجنته ووجنتها. أما بالنسبة لكيواكي فإن هذا الشعور بالخطيئة زاد من شجاعته، التي راح مدها يعلو.

قالت، ملتقطة قميصه:

ـ هاك! فلن يفيدك أن يصيبك البرد.

فيما كان يوشك على انتزاعه في خشونة منها، راحت تتفحصه للحظة، وضمته إلى وجهها، وهي تتنفس بعمق. وعندما أسلمته له كان مبللاً بالدموع.

حينما ارتدى زيه المدرسي، وانتهى من أمر ملابسه، أزعجه صوت

تصفيقها بيديها، ثم بعد برهة من السكون، إنزلق الباب قليلاً جانباً، وأطلّ رأس تاديشينا.

ـ أناديتني يا آنسة ساتوكو؟

أومأت ساتوكو بالإيجاب، وبنظرة سريعة أشارت الى زنارها، الذي ارتمى على الأرض ملتفاً حولها. أوصدت تاديشينا الباب وراءها ودنت عبر الأرض المكسوة بالحصير من ساتوكو، دون أن تنظر باتجاه كيواكي. وساعدتها في ارتداء ثيابها وتثبيت زنارها، ثم جلبت المرآة من ركن الغرفة، وشرعت ترجِّل شعر ساتوكو. وفي غضون ذلك، ساور كيواكي شعور حاد بالحرج، وحار فيما ينبغي أن يفعله، وهكذا فيما المرأتان تعكفان على مهمتها الممتدة التي تقارب الطقوس، أحس بأنه لا حاجة له تماماً.

عندما جرى ترتيب كل شيء أخيراً، جلست ساتوكو، وهي أكثر جمالاً من أي وقت مضى، منكسة الرأس.

شرعت العجوز في الحديث:

ـ أخشى، أيها السيد الشاب، أن علينا الذهاب الآن، لقد وفيت بما وعدت، ومن الآن فصاعداً أتوسل اليك، رجاء أن تحاول نسيان الآنسة ساتوكو. والآن إذا تكرمت هل لك في أن تعيد الرسالة، لطفاً كما وعدت؟

اقتعد كيواكي الأرض، متربعاً، ولم يحر جواباً.

سألته تاديشينا، مجدداً:

ـ كما وعدت هل لك، لطفاً، في أن تعيد الرسالة؟

ظل كيواكي على صمته، كأنما به صمم. راح يحدِّق في ساتوكو، التي جلست هادئة، دون أن تتشعث شعرة واحدة في رأسها، وقد استعاد كيمونوها الجميل هندامه التام. رفعت عينيها، فجأة، فالتقت بعيني

كيـواكي. انتقل بينهـما بريق متـألق، يخترق الشغـاف، وفي تلك، اللحـظة عرف حقيقة شعورها، على وجه الدقة.

قال، معتمداً على شجاعته التي اعتصم بها حديثاً:

ـ لن أعيد الرسالة. أريد مقابلتها من جديد، على هذا النحو تماماً.

لم تبذل تاديشينا جهداً في إخفاء حنقها:

ـ أيها السيد الشاب! ما الذي تظن أنه سيحدث؟ من شـأن طفل مـدلل فحسب أن يقول شيئاً كهذا! إنك تعرف ماهية الأمور الرهيبة، التي ستقـع. أليـس كذلك؟ لن يحيق الدمار بتاديشينا وحدها.

عندئذ، أوقفتها ساتوكو، وصوتها متماسك النبرات، وموحٍ بأنه قـادم من عالم آخر، حتى أنه بعث الرعدة في عظام كيواكي:

ـ لا بأس يا تـاديشينا! الى أن يـرغب السيد كيـواكي في إعادة الـرسالـة ليس هناك ما يمكننا القيام به إلا الموافقـة على مـواصلة الالتقاء بـه. ليست هناك وسيلة أخرى لانقاذكما كليكما وانقاذ نفسي، هـذا إن كنت ترغبـين في إنقاذي بدوري.

كانت زيارة كيواكي لدار هوندا لتبادل الحديث الحميم معه بتفصيل بالغ حدثاً نادراً الى حد دفعه لا الى أن يطلب من أمه دعوة ضيفه الى البقاء لتناول طعام العشاء فحسب، وإنما مضى الى حد التغافل عن عمله في الاستعداد لامتحانات القبول بالجامعة، التي كانت تشغله عادة في المساء، فقد شحن مجرد احتمال وصول كيواكي مناخ المنزل الرصين بالتوقع على نحو ما.

تألقت الشمس، التي خفَّتها سحابة، طوال اليوم، كأنها ذهب أبيض، أما الآن في المساء فإن الحر الستقر، الذي خلفته وراءها، لم تخف حدته على نحو يمكن تقديره. فيما جلس الشابان يتبادلان الحديث كانا يرتديان كيمونوين صيفيين خفيفين زخرفا على طريقة كاسوري.

ساور هوندا هاجس ما حول زيارة كيواكي، لكن ذلك لم يؤهله بحال لما هو آت. وما إن شرع كيواكي في الحديث، حتى بوغت هوندا بأن الشاب الجالس الى جواره على الأريكة الجلدية، العتيقة، الممتدة الى جوار جدار غرفة الاستقبال، مختلف بصورة شديدة، عن كيواكي، الذي عرفه من قبل. لم يسبق له أن رأى عينين تتألقان بمثل هذا الوضوح، كانتا على نحو لا تخطئه عين تنتميان الى شاب يافع ينتمي الى هذا العالم، ولكنه شعر بالأسى يخالجه حيال العينين المنكستين اللتين اعتادهما في صديقه.

غير أنه رغم هذا ابتهج؛ لأن كيواكي قد اختار أن يفضي إليه، بدون

بحفظ، بما هو سر على جانب كبير من خطورة العواقب. وكان يأمل في إيماءة من هذا النوع، منذ وقت طويل، وقد جاءت دون أدنى ضغط من جانبه. ولدى تأمله في الأمر، أدرك أن كيواكي قد حجب أسراره حتى عن صديقه، طالما أنها لا تتعلق بشيء إلا بصراعاته الداخلية، أما الآن وقد أصبحت هذه الأسرار أمراً يتعلق بالسمعة واقتراف الخطأ، فقد صبها صباً، في دفق لا ينقطع من الكلمات. وفي ضوء خطورة الاعتراف، والثقة غير المحدودة المتضمنة فيه، ما كان بمقدور كيواكي أن يمنحه سبباً أعظم للشعور بالسعادة. وفيما هو يتفحص صديقه، ألفاه قد نضج نضجاً ملحوظاً، وتبدد من ملامحه جانب من الحسن الذي ينتمي الى محيا الفتى الناعم المترف. فقد تألقت هذه الملامح بتصميم عاشق شاب غارق في العشق، وخلت كلماته وإيماءاته من أي لمحة تردد أو افتقار للثقة.

كان كيواكي تجسيداً لشاب ازدهاه الفخر بفوزه. وفيما هو يسرد حكايته على هوندا، خضّب اللون وجنتيه، وتألقت أسنانه، وتردد صوته حازماً وصافياً، على الرغم من أنه توقف خجلاً، في عدد من المرات، وبدت جرأة جديدة عليه متجلية حتى في عقدة حاجبيه. لم يبد أن هناك شيئاً غريباً عنه أكثر من الاستبطان، أو هكذا بدا الأمر لهوندا، سواء أكان ذلك راجعاً الى أن الحكاية انتهت نهاية مفاجئة، أو الى عدم تماسك دفقات إفضائه.

قال هوندا:

ـ فيما كنت أصغى إليك، خطر ببالي أغرب الأمور. لم؟ لست أدري. ذات يوم وفيما كنا نتجاذب أطراف الحديث، لست على يقين متى كان ذلك، سألتني عما إذا كنت أتذكر أي شيء عن الحرب اليابانية ـ الروسية، وفي وقت لاحق، عندما كنا في دارك، أطلعتني على مجموعة من صور الحرب. وأتذكر أنك حدثتني بأن الصورة الأثيرة لديك كتب تحتها «حرم معبد توكوري: صلاة على أرواح الموتى في الحرب» ـ صورة غريبة، يبدو

كل الجنود فيها كأنما جرى تجميعهم كالممثلين في مهرجان مسرحي هائل. في ذلك الوقت بدا لي تفضيلك لهذه الصورة غريباً بالنسبة لك، حيث أنك لا تميل الى أي شيء يوحي بالقرب من الحياة العسكرية. ولكن، على أية حال، فيما كنت أصغي إليك تواً، خطرت ببالي ذكرى ذلك السهل المترب، وبدا أنها تتداخل على نحو ما مع قصة حبك الجميلة.

كان هوندا قد أفلح في أن يفاجيء نفسه، فقد بوغت لا بغموض ما قاله والانفعال الذي قاله به فحسب، وإنما كذلك بالإعجاب الذي استشعره حيال مخالفة كيواكي الشهوانية لوصية مقدسة ومبدأ أخلاقي، إعجاب من جانبه هو، هوندا، الذي قرر منذ وقت طويل أن يصبح من رجال القانون!

ولجت خادمتان الغرفة بمائدتين صغيرتين، وضع عليهما طعام عشائهما، وقد رتبت أمه الأمور على هذا النحو حتى يتمكنا من تناول الطعام وتبادل الحديث كصديقين دون أية قيود. انتصبت زجاجة ساكي على كل من المائدتين، وقدم له هوندا بعضاً منه.

قال، محولاً دفة الحديث الى شيء أكثر عادية:

- شغل الأمر أمي كثيراً، فلم تكن تدري مدى ترحيبك بالطعام الذي نقدمه، في ضوء تعودك للأطايب من المأكولات.

أسعده أن يشرع كيواكي في تناول الطعام، وكأنه، في حقيقة الأمر، قد راق له. وهكذا، كف الشابان بعض الوقت عن الحديث وكرسا نفسيهما لمباهج الطعام الصحية.

في غمار استمتاعه بالصمت الإضافي الذي يعقب عادة وجبة طيبة، راح هوندا يسائل نفسه عن السر في أنه بعد استماعه الى اعتراف زميله بهذه الانطلاقة البالغة الرومانسية، أحس بالسعادة حيالها، دون أن تخالجه لسعة

غيرة أو حسد، فقد أنعشه هذا الاعتراف، مثلما تخضّر على نحو لا ترقى إليه الحواس حديقة، على ضفاف بحيرة خلال موسم المطر.

قطع الصمت، وسأل كيواكي:

ـ طيب، إذن، ما الذي تعتزم عمله؟

ـ ليست لديّ أدنى فكرة. إنني أبدأ متأخراً، ولكن ما إن أشرع في الانطلاق حتى يبين أنني لست من النوع الذي يتوقف في منتصف الطريق.

حدّق فيه هوندا، بعينين اتسعتا دهشة، فلم يحلم قط بأنه سيسمع كيواكي يقول شيئاً من هذا القبيل.

ـ أتقصد أنك ترغب في الزواج من الآنسة ساتوكو؟

ـ ذلك ليس وارداً، فقد صدر التصديق الامبراطوري بالفعل.

ـ لكنك أتيت شيئاً منكراً. لم لا يمكنك الزواج منها إذن؟ ألا تستطيعان الهرب معاً ـ تمضيان الى الخارج وتتزوجان هناك؟

ـ إنك لا تتفهم الأمر فحسب.

رد بها كيواكي. ثم غاص في قرار الصمت. وللمرة الأولى، في ذلك اليوم، لاحظ هوندا أثراً من الكآبة القديمة في الخطوط التي برزت فجأة بين حاجبيه.

ربما كان يتوقع مثل رد الفعل هذا، ولكنه الآن بعد أن رآه رأى العين، أحس بعدم إرتياح ضئيل يلقى ظله على الابتهاج الذي يحسه. فيما هو يجلس متأملاً الملمح الجانبي الأنيق لصديقه، الذي من شأن خطوطه أن تحبط الفنانين جميعاً، اللهم إلا أشدهم براعة، راح يتساءل عما ينشده كيواكي من الحياة على وجه الدقة. وأحس برعدة تخترم جسمه.

التقط كيواكي ثمار الفراولة الخاصة به، ونهض من الأريكة، وجلس أمام القمطر المرتب في عناية حيث يعمل هوندا. دفع بكوعيه على سطح

القمطر الخشن، وشرع يؤرجح المقعد الدوّار من جانب الى آخر. فيما هو يفعل ذلك، ارتكز بثقله على كوعيه، وأراح وضع رأسه وجذعه، مستشعراً القلق، فيما ظهر صدره العاري من عنق كتيمونوه الواسع، ثم بعد أن سلّح نفسه بعود لتنظيف الأسنان، شرع في خفة يدسّه في ثمار الفراولة واحدة إثر الأخرى ويلقى بها في فمه. كان ذلك تجلياً للتراضي الهنيء في الالتزام بقواعد السلوك، أظهر مدى سعادته في الهرب من الالتزام الصارم بهذه القواعد في بيته. سكب بعض السكر السائل، فسقط على صدره ذى الجلد شديد الحساسية، ولكنه أزاله، دون أن تبدو عليه علامات الحرج.

ـ لسوف تجتذب النمال.

قالها هوندا، ضاحكاً بفم مليء بثمار الفراولة.

خضّب اللون الآن جفون كيواكي الرقيقة، الشاحبة عادة، بفضل الساكي الذي احتساه. وفيما واصل أرجحة الكرسي الدوار من هذا الجانب الى ذاك، وساعداه العاريان المضرجان لا يزالان على ارتكازهما على القمطر، تصادف أنه تحرك أكثر مما ينبغي في أحد الاتجاهين، فانثنى جسمه على نحو غريب. بدا الأمر كما لو كان قد اخترقه فجأة ألم غامض لم يكن هو نفسه مدركاً له.

لم يكن هناك مجال للخطأ، فيما يتعلق بهذه النظرة الشاردة، المرتسمة في هاتين العينين تحت حاجبيهما الرشيقين، لكن هوندا كان يدرك حق الإدراك أن نظرتها المتألقة ليست موجهة نحو المستقبل. وخلافاً لما درج عليه ساورته رغبة قاسية في إلحاق شعوره المتفاقم بعدم الارتياح بصديقه ـ دافع ملحّ إلى التظاهر برفع يده للقضاء على شعور كيواكي البالغ الحداثة بالسعادة.

ـ طيب، ما الذي ستفعله؟ هل فكرت فيما سيصير إليه هذا الأمر؟

رفع كيواكي عينيه، وحدق فيه بنظرة ثابتة. لم يسبق لهوندا أن رأى من

قبل قط مثل هذه النظرة، التي تجمع بين اللهفة الحارقة، على هـذا النحو، وفي الوقت نفسه مثل هذه الكآبة.

ـ ولم يتعين عليَّ التفكير في الأمر؟

ـ لأن جميع من حولك يتحركون وتيداً، ولكن بـشكـل لا يـرحم، نحو نهاية لهذا الوضع المعقد. لعلك لا تعتقد أنكما بمقدوركـما التحليق في الهواء كالحباحب غارقين في العشق؟

ـ أعرف أن ذلك ليس بمقدورنا.

هكذا رد كيواكي، منهياً الجدال، وناظراً عـلى نحو عـرضي باتجـاه آخر. أسلم نفسـه لتمحيص الظلال في الـزوايا والأركـان المختلفة للغـرفة، مثـل الزخارف المتداخلة تحت أرفف الكتب، وتلك الموجودة أسفل سلة المهملات المجـدولة من الأمـاليـد ـ تلك الـظلال الصغـيرة المـراوغـة التي انسلت الى مكتب هـونـدا البسيط والعمـلي ليلة إثـر أخـرى، محتجبـة كـأنها عـواطف بشرية، لتجثم حيثما وجدت ملاذاً لها.

بينما كان هوندا يتطلع إليه، لفت نـظره بروز حـاجبيه الـرشيقين، كـانا كالظلال نفسها وقد استـدارت فغدت قـوسين بـديعين. لاحـا كأنهما تجسيـد لعـاطفة، ومـع ذلك كـانت لهـما من القـوة ما يكبحـان بـه التعبـير عن هـذه العاطفة. تخيّلهما وهما يحرسان العينين السوداوين الحالمتين تحتهما، متبعين في ولاء نظرة سيدهما، حيثما مضت مثل خادمـين حريصـين، تدربـا تدريبـاً لا تشوبه شائبة.

قـرر أن يـطرح بصـورة مبـاشرة شيئـاً، راح يتكـون، في ركن قصي من ذهنه.

شرع يقول:

ـ سبق لي أن قلت قبـل قليل شيئـاً بالـغ الغرابـة. أقصـد مـا قلتـه عن

التفكير في الصورة التي تعود الى الحرب اليابانية ـ الروسية، بينما كنت تحدثني بأمرك مع الآنسة ساتوكو. وتساءلت عن السبب في أن ذلك خطر لي، والآن، بعد أن فكرت في الأمر قليلاً لديّ رد على هذا التساؤل. لقد انتهى عصر الحروب المجيدة مع نهاية عهد ميجي. أما اليوم فقد غاصت كل قصص الحروب الماضية الى مستوى تلك الصور الإيضاحية التي نسمعها من الكهول الذين لم يخوضوا غمار القتال في إدارة العلوم العسكرية أو تباهي الفلاحين، وهم يتحلقون موقداً يمجّ دفئاً. لم تعد هناك فرص كثيرة الآن للموت في ساحة المعركة..

«ولكن الآن، وبعد أن انتهت تلك الحروب القديمة، بدأ لتوّه نوع جديد من الحروب، فذلك هو عصر الحرب العاطفية. إنها نوعية من الحروب لا يراها أحد، وإنما بمقدوره أن يحسها، وبالتالي فهي حرب لن يقدّر للبليد والمفتقر للحساسية حتى أن يلحظ مجرد وجودها. ولكنها بدأت سريعة، والشباب الذين تم اختيارهم لخوض غمارها شرعوا بالفعل يتقاتلون، وأنت واحد منهم ـ لا شك في ذلك.

«وكما في الحروب القديمة تماماً، سيقع ضحايا في حرب العاطفة، فيما أظن، إنه مصير عصرنا ـ وأنت واحد ممن يمثلوننا. وماذا في الأمر إذن؟ إنك عاقد العزم كلية على الموت في هذه الحرب الجديدة.

ـ ألست على صواب؟

كان رد كيواكي الوحيد هو ابتسامة متوهجة. في تلك اللحظة، انسل نسيم قوي، مثقل بنداوة المطر، عبر النافذة، وفي غمار مروره مسَّ بنداه جبينيها، اللذين كساهما عرق خفيف. أثار صمت كيواكي حيرة هوندا.

أكان رده من الوضوح بحيث لم تعد الاجابة ضرورية؟ أم ترى أن كلماته قد عرفت على وتر رنان في أعماق صديقه، فيما كانت طريقته في طرح هذه الكلمات مسرفة، بحيث أنه لم يعد أمامه من سبيل للرد صراحة؟ حدَّث نفسه بأن الأمر إما هذا أو ذاك.

- ٢٩ -

بعد ثلاثة أيام، وعندما أتاحت حصتان دراسيتان ملغيتان لهوندا فرصة قضاء أصيل بلا مشاغل، مضى لشهود جلسة تعقدها محكمة جزائية، وذلك بصحبة طالب حقوق، كان من الفتية الذين يعملون بدار العائلة. وكان المطر قد ظل ينهمر بلا إنقطاع منذ الصباح.

كان والد هوندا أحد قضاة المحكمة العليا، وحتى في إطار عائلته كان ملتزماً التزاماً صارماً بالمبادىء، وقد أسعدته الى حد كبير نجابة ولده ذي الأعوام التسعة عشر، الذي كرَّس نفسه للقانون حتى قبل التحاقه بكلية الحقوق. وهكذا أحس بقدر من الثقة يكفي لاستنتاج أن ابنه سيحتل مقعد القضاء من بعده. وحتى ذلك العام كان منصب القاضي منصباً يشغله صاحبه مدى الحياة، ولكن في ابريل الماضي أدخل إصلاح واسع النطاق على النظام القضائي؛ وكنتيجة لذلك أحيل أكثر من مائتي قاضٍ الى التقاعد، أو طلب منهم أن يتقدموا باستقالاتهم. وإذ رغب القاضي هوندا في إظهار تضامنه مع زملائه القدامى تاعسي الحظ، فقد عرض تقديم استقالته، ولكنها لم يتم قبولها.

غير أن هذه التجربة شكلت، فيما يبدو، نقطة تحول بالنسبة لوجهات نظره في الحياة، التي أثرت بدورها فيما كان علاقة رسمية للغاية مع ابنه، فمنذ ذلك الوقت حمل الى رحاب هذه العلاقة دفء أريحية تحاكي العاطفة التي يظهرها مسؤول كبير نحو مرؤوسه الذي اختاره ليخلفه في

منصبه. وقد صمم هوندا نفسه على العمل بدأب أكبر في دراساته ليكون جديراً بهذا العطف، الذي لم يسبق له مثيل.

وكان من نتائج تغير وجهات نظر أبيه السماح له بحضور جلسات المحاكم، على الرغم من أنه لم يبلغ سن الرشد بعد. ولم يمض بالطبع الى حد السماح له بالتردد على محكمته، ولكنه سمح له بمتابعة أي من القضايا المدنية أو الجنائية التي تروق له، طالما أنه بصحبة التابع الشاب، الذي كان يدرس الحقوق كذلك.

أوضح له أبوه أن كل معرفته بالقانون تأتي من الكتب وبالتالي سيكون مجاله فائدة جمة أن يتصل اتصالاً مباشراً بالعملية القضائية في اليابان وأن يعايشها على مستوى عملي. غير أن القاضي هوندا كان يستهدف أكثر من ذلك، ففي حقيقة الأمر أن مناط اهتمامه الرئيسي كان تعريض ابنه ذي الأعوام التسعة عشر، والذي لا يزال على حساسيته لكلّ عناصر الوجود الانساني تلك، التي تنتشل بكل واقعيتها الجهمة على نحو يبعث على الشعور بالصدمة في ساحة القضاء الجنائي. أراد أن يتأكد من أن ابنه قادر على الاستفادة من مثل هذه التجربة.

كان ذلك نوعاً خطيراً من التعليم. ومع ذلك، فحينما وضع القاضي موضع الاعتبار الخطر الأكبر المتمثل في السماح لشاب بأن يكون شخصيته من الاستيعاب من السلوك العام اللامبالي، ووسائل الترفيه الرخيصة، وما الى ذلك من العناصر، التي قد تجتذب أو تخاطب ذوقه، الذي لم ينضج بعد، أحس بالثقة بمزايا هذه التجربة التعليمية. كانت هناك فرصة طيبة على الأقل لكي تجعل هذه التجربة ولده يدرك على نحو حاد عين القانون الراصدة التي لا تغفر. لسوف يرى كل النثار غير المنتظم، والمضبب، والقذر لعواطف البشر، وهو يمضي هنالك وفقاً للاجراءات القانونية المجردة

من الطابع الشخصي. ومن شأن الوقوف في مثل هذا المطبخ أن يعلمه الكثير حول الأسلوب الفني.

مضى هوندا مسرعاً عبر الدهاليز المعتمة، في دار القضاء، في طريقه الى المحكمة الجزئية الثامنة، وهو درب لم ينره إلا ضوء خافت، ينفذ عبر المطر الذي أغرق العشب البائس في الساحة المحاطة بالأبنية. امتص المناخ الطاغي لهذا المبنى الجوهر الخشن للروح الإجرامية. بدا له المكان باعتباره بأسره مكاناً أكثر فساداً من أن يكون قصراً للمنطق كما يفترض فيه.

ظل الاكتئاب مطبقاً عليه، بعد أن اتخذ وزميله مقعديهما، في قاعة المحكمة. ألقى نظرة عجلى على طالب الحقوق المتوتر، الى حد بعيد، والذي صاحبه الى هنا باستعجاب مشوب بالقلق، والذي غرق الآن في ملف القضية الذي أحضره معه، كأنما نسي تماماً كل ما يتعلق بابن القاضي، ثم التفت بالنظرة القلقة ذاتها الى منصة القاضي التي لا تزال خاوية، والى قمطر نائب المدعي العام، والى منصة الشهود، وقمطر المحامي، وما الى ذلك. بدا له هذا الخواء الهائل معبراً عن حالته الروحية، في هذا الأصيل الرطب المطير.

لشد ما بدا يافعاً ولا مبالياً! كأنما ولد يجلس ويحدق على هذا النحو. فقد أفضى كيواكي الى شيجيكوني، الذي كان ذكياً وواثقاً من نفسه، على نحو ما يليق بشاب قدير، بسره. طرأ تغير عليه، أو بالأحرى مرت الصداقة التي تربطه بكيواكي بتحول غريب، فعلى امتداد سنوات، حرص كل منهما حرصاً بالغاً على ألا يتدخل بأي شكل من الأشكال في حياة الآخر. أما الآن، ومنذ ثلاثة أيام، فقد جاءه كيواكي، ومثل مريض عوفي حديثاً من مرضه ينقل عدوى هذا المرض الى شخص آخر، نقل الى صديقه فيروس الاستبطان، وقد سيطر عليه عن طواعية الى حد أن

استعداد هوندا للإصابة بـه بدا أفضـل كثيراً من استعداد كيواكي. وكـان العرض الأول البارز للمرض هو شعور غامض بالخشية، والترقب.

راح يتسـاءل عما يتعـين على كيـواكي القيام بـه. أمن الصواب ألا يحـير حراكاً. باعتباره صديقاً لكيـواكي، خلافـاً للعقود في تكـاسل وتـرك الأمور تجري في أعنتها؟

فيما كان ينتظر بدء جلسة المحكمة في الواحدة والنصف، جلس غارقاً في التأمل الذي أثاره قلقه، وقد حلّق ذهنه بعيداً عن وقائع الجلسة، التي جاء لشهودها.

مضى يحدث نفسه، قائلاً:

ـ لو أنني كان من شأني التصرف باعتباري صديقاً حقيقياً ألن يكـون من الأفضـل إقناعـه بمحاولـة نسيان الآنسـة ساتـوكو؟ ظننت حتى الآن أن من الأفضل لي بحسباني صديقه أن أتظاهر بعدم ملاحـظة الأمر، حتى ولـو كان يعاني من آلام الاحتضار. ولكن الآن، وقد أفضى الي بكل شيء، على هذا النحـو، قبل أيـام، ألا ينبغي عليّ التـدخل مثلما يحق لي في إطـار صـداقـة عادية، وأن أبذل قصارى جهدي لإنقاذه من الخطر المجلى الذي يتربص به الـدوائر؟ وفضـلاً عن ذلـك، فـإنني ينبغي ألا أحجم عن هـذا، حتى ولـو جعله ذلـك يضيق ذرعاً بي، الى حـد إنهاء صـداقتنـا. في غضـون عقـد أو عقدين من الزمان. سيتفهم السر في قيامي بـذلك، وحتى اذا لم يفقـه الأمر قط، فلا ينبغي ألا يؤثر فيَّ ذلك.

ليس هناك شك في أنـه يتجه مبـاشرة نحو مـأساة. سيكـون ذلك شيئـاً جميلاً، بالطبع، ولكن هل يتعين عليه أن يطيح بحياته بأسرهـا تقدمـة لمثل هذا الجمال العابر، كأنه طائر محلق تلمحه العين من نافذة؟

إنني أعرف ما يتعـين عليَّ القيـام به، فمن الآن فصـاعداً، سـأنحّي كل

اعتبارات اللياقة، وسأتصرف كصديق يفتقر الى الحساسية، واللباحية. وسواء أطاب له ذلك أم لم يطب، يتعين عليَّ القيام بشيء يصب ماء بارداً على عاطفته المتقدة تلك، ينبغي عليّ استغلال كل ذرة في قوتي لمنعه من الانصياع لقدره.

جعل هذا الاندفاع المحموم للأفكار رأس هوندا ينبض ألماً من جراء المجهود الذي اقتضاه. لم يعد يشعر بأنه قادر على الجلوس هناك صابراً وانتظار بدء وقائع الجلسة، التي فقد كل اهتمام بها، أراد أن يغادر القاعة في الحال، ويندفع الى دار كيواكي ويصب كل ما في جعبته من حجج لإقناعه بتغيير رأيه. سبب له الإحباط الناجم عن إدراك أن هذا مستحيل فيضاً من القلق زاد في توتره.

التفت حوله، ولاحظ أن كل المقاعد قد امتلأت. الآن أدرك لماذا أحضره الفتى، الذي يعمل في دار العائلة، مبكراً على هذا النحو. وبين الحاضرين كان هناك شبان لاحوا من طلاب الحقوق ونساء ورجال في أواسط العمر، غلبت عليهم الكآبة، وصحافيون وضعوا أربطة أذرعة لحماية سواعدهم، ومضوا جيئة وذهاباً، وقد بدا عليهم التعجل. راح يتطلع، فيما أولئك الذين لم يجتذبهم إلا الفضول الوضيع يخفون اهتمامهم وراء أقنعة من الوقار الجهم، وهم يمسون شواربهم، ويقتلون الوقت بتحريك متكلف لمراوحهم، أو يستخدمون الأظافر الطويلة لأصبعهم الأصغر في استخراج إفرازات كبريتية اللون من آذانهم. كان مشهداً منوِّراً للبصيرة، مشهداً فتح عينيه أكثر من أي شيء شهده قبلاً على القبح الأخلاقي للاعتقاد بأن: «آه، لست معرضاً على الإطلاق لاقتراف خطيئة». وقد عقد العزم، أياً كان ما يحمله المستقبل له، على ألا يقع فريسة لذلك النوع من المواقف.

أوصدت النوافذ في وجه المطر، فسمحت بتسلل ضوء كئيب مسطح،

ارتمى على الجمهور بأسره دونما مبالاة، كأنه طبقة من غبار رمادي، واستثنيت منه حافات قبعات الحراس السوداء المتألقة وحدها.

أثار دخول المتهمة فيضاً من التعليقات، فقد شقت طريقها الى قفص الاتهام، وعلى جانبيها حارسان، وقد ارتدت الزي الرسمي الأزرق الخاص بالسجن. حاول أن يلقي عليها نظرة، فيما هي تمر، ولكن كان هناك قدر كبير من الحراك وامتداد الأعناق من جانب الجمهور، بحيث لم يتح له إلا أن يلمح خدين بيضاوين لحيمين وغمازتين ملحوظتين، ثم بعد أن ولجت قفص الاتهام كان كل ما استطاع أن يلمحه هو أن شعرها كان ملموماً على شكل العقصة الدائرية التي تميز السجينات. وعلى الرغم من أنها انحنت إجلالاً، إلا أنه لاحظ أن هناك مؤشراً طفيفاً الى التوتر العصبي، تمثل في الطريقة التي ثُبتت بها كتفاها اللحميتان تحت زيها الرسمي.

كان المحامي قد ولج القاعة بالفعل، وراح الجميع ينتظرون مقدم نائب المدعي العام والقاضي نفسه.

قال الطالب الشاب، هامساً في أذنه:

ـ ألق نظرة عليها فحسب، أيها السيد الشاب، أتعتقد أنها قاتلة؟ صحيح ما يقولونه من أن المرء لا يستطيع قراءة الكتاب من غلافه.

بدأت إجراءات المحاكمة بقيام القاضي المضطلع بنظر القضية بتوجيه الأسئلة المألوفة للمتهمة، عن اسمها وعنوانها وعمرها وحالتها الاجتماعية. وساد صمت بالغ قاعة المحكمة، الى حد أن هوندا تخيل أن بمقدوره سماع حفيف ريشة مسجل وقائع الجلسة، وهو عاكف على أداء عمله.

ـ اثنان ـ خمسة، سجن نيهو نباشي، بمدينة طوكيو، من العامة، تومي ماسودا.

على هذا النحو ردت المرأة، بصوت واضح ومتماسك، ولكنه بالغ الانخفاض، الى حد أن الجمهور أرهف آذانه، وانحنى الى الأمام، على قلب رجل واحد، خوفاً من أن يفوته شيء، عندما تبلغ الإفادة القضايا الحيوية. تناهت الاجابات بقدر كاف من المرونة الى أن بلغت المتهمة عمرها، وهنالك ترددت سواء أعن عمد من عدمه، ثم بعد أن استحثها محاميها على الرد، استجمعت قواها، بصوت أعلى قالت:

- إنني في الحادية والثلاثين من عمري.

في تلك اللحظة التفتت برأسها نحو محاميها، فلمح هوندا صورتها الجانبية، حيث بدت عيناها نجلاوين وصافيتين، ومست شعرات نافرة خدها.

راح الجمهور يحدق في تلك المرأة، التي لم تؤت بسطة في البدن، مفتوناً، كأنما يمكن أن يكون لها الجسم نصف الشفاف، الذي تتبدى به دودة قز، أفرزت على نحو ما خيطاً على قدر من التعقد والشر لا يخطر على بال أحد. وجعلت أدنى حركة منها أفراد الجمهور يتخيلون علامات التعرق عند ابطي زيها الرسمي، وحلمتيها اللتين عقدهما الخوف وخط عجيزتها البالغة الامتلاء والجهامة والفاترة قليلاً. لقد غزل هذا الجسم خيوطاً بلا حصر الى أن لفتها هذه الخيوط في نهاية المطاف في شرنقة قبيحة. ومن منظور الجمهور كان يتعين أن يكون هناك تطابق ما بين جسمها وجريمتها، ولن يرضيه أقل من هذا. وبالنسبة للإنسان العادي، الذي تدفعه في واقع الأمر تصوراته الخيالية المتوهجة، ليس هناك، على وجه التقريب ما هو أكثر دغدغة للحواس على نحو بديع من أن يتأمل، من بعد يكفل له الأمان، الشر وقد طرح في إطار علاقة سببية. ولو أن المرأة كانت نحيلة لجسّد نحولها ذاته هذا للجمهور. ولكن بما أنها كانت ممتلئة الجسم؛ فإن هذا الامتلاء أدى الغرض ذاته. وهكذا، إذ اغتبط أفراد الجمهور بأنها ليست إلا الشر وقد

تجسد، فقد راحوا يمارسون قوى خيالهم غير المؤذية، وقد أخذتهم البهجة حيال كل التفاصيل، وصولاً الى حبات العرق التي كانوا على يقين من أنها تكسو نهديها.

حالت وساوس هوندا دون تتبعه لأفكار الجمهور، على الرغم من أن هذه الأفكار كانت جلية للغاية أمامه، مع أنه لم يوغل في العمر، ركز انتباهه بكامله على إفادة المتهمة، وهي ترد على أسئلة القاضي. كانت الصورة التي رسمتها تدنو الآن من لب الموضوع.

كانت طريقتها في سرد الأمور مضجرة، ومختلطة، ولكن بدا من الواضح بما فيه الكفاية أن سلسلة الأحداث المفضية الى هذه الجريمة العاطفية قد انداحت، بلا هوادة، على نحو كان من المحتم أن يفضي الى وقوع مأساة.

- متى بدأت في الإقامة مع ماتسوكيتشي هيجيكاتا؟

- إنني... كان ذلك في العام الماضي، يا سعادة القاضي، أتذكر الموعد جيداً. كان في الخامس من يوليو.

جعلت ذاكرتها القوية أفراد الجمهور يضحكون، لكن الحراس حملوهم على التزام الهدوء تواً.

كانت تومي ماسودا ساقية وقعت في غرام طاه، يدعى ماتسوكيتشي هيجيكاتا، يعمل في المطعم نفسه. كان الرجل أرمل، فقد زوجته منذ وقت قصير، دفعتها العاطفة الى أن ترعى شؤونه، وفي العام السابق، شرعا في السكن معاً، غير أن هجيكاتا لم يشر الى عزمه إضفاء الطابع الرسمي على هذا الترتيب، بل وفي حقيقة الأمر بعد أن أقاما في مسكن واحد، أصبح أكثر نشاطاً في مطاردته للنساء الأخريات، ثم في حوالي نهاية العام السابق ارتبط بخادمة، تعمل في خان يدعى كيشيموتو، في حي هاما نفسه. وعلى الرغم من أن هايدي، الخادمة، لم يكن عمرها يتجاوز

العشرين عاماً، إلا أنها كانت محنكة، فيما يتعلق بالخبرة بالرجال. وكنتيجة لذلك تتابعت الليالي التي يمضيها هيجيكاتا خارج الدار. وأخيراً، في الربيع الحالي، مضت تومي لمواجهة هايدي والتوسل اليها لكي تدع رجلها وشأنه، وقد عاملتها هايدي بازدراء، فعجزت تومي عن كبح جماح حنقها، وقتلتها.

باختصار، كانت قصة عن الثلاثي الشهير، انتهت على نحو عنيف، قصة مألوفة في الشوارع، لا تميزها سمة خاصة. غير أنه في ضوء التمحيص الدقيق خلال جلسة المحكمة ظهرت للفور عناصر أصيلة، دونما شك، وتستعصى على إمكانية التنبؤ بها تماماً.

كانت المرأة قد وجدت نفسها مع طفل يتيم الأب، كان في الثامنة من عمره، ترك في رعاية بعض الأقارب في قريتها، لكنها طلبت منهم إرساله الى طوكيو، ليستفيد من مزايا نظام دراسي أفضل. ولكن على الرغم من أنها كانت تأمل في أن تستخدم الطفل كعنصر دفع لهيجيكاتا للاستقرار، فإنها باعتبارها أماً قد خطت على المسار الذي سيجبرها على أن تصبح قاتلة.

والآن بلغت إفادتها أحداث تلك الليلة.

- لا، يا سعادة القاضي، فلو أن هايدي لم تكن هناك في تلك الليلة، لسار كل شيء على ما يرام، أعرف أن هذا الأمر بأسره ما كان ليحدث. لو أنها كانت مصابة بنوبة برد، أو شيء من هذا القبيل في تلك الليلة، واعتكفت في فراشها، عندما مضيت الى نزل كيتيمولو لمقابلتها، لسار كل شيء على ما يرام أيضاً.

كانت السكين التي استخدمتها هي السكين التي يستخدمها ماتسوكيتشي في تقطيع «الساشمي». إنه رجل من النوع الذي يفخر بعمله، ولديه جميع

أنواع السكاكين الجيدة، كان يقول لي باستمرار، هذه السكاكين بالنسبة لي كالسيوف بالنسبة للساموراى، ولم يكن يـدع أياً من النسـاء يلمسنها، وإنما كان يشحذها بنفسه، بمزيد من العناية، ولكن في حوالي الوقت الـذي بدأت أحس فيـه بالغـيرة من هايـدي، أخفاهـا جميعها، في مكـان مـا، لاعتقـاده بخطورتها.

حينما أدركت الكيفية التي يفكر بها، جعلني ذلك أحس بالغضب، وبعد ذلك اعتدت إلقاء النكات، فيما يتعلق بهذا الأمر، متظاهـرة بأنني أهـدده. كنت أقـول له: لست بحـاجة الى أي من سكـاكينـك، فهنـاك الكثـير من السكـاكين الأخـرى يمكنني إستخدامهـا، كما تعلم. ثم في يـوم من الأيام، وبعد تغيب ماتسوكيتشي فترة طويلة عن الدار، كنت أنظف العليّة، وفجـأة صادفت لفة تضم السكاكين كافة، في مكان لا يمكن أن تتوقعه قط. أما ما أدهشني أكـثر من أي شيء آخر، يـا سعادة القـاضي، فهو أن الصـدأ كـان يعلوهـا جـميعها، تقـريباً. عنـدما رأيت هـذا الصدأ عـرفت، عـلى وجـه الـدقة، مـدى عمـق تورطـه مـع هـايـدي وأخـذتنـي رجفـة، فيمـا كنت أمسـك بـإحـدى السكـاكيـن. ولكن في ذلـك الـوقت، تـمـامـاً، عــاد ولـدي الى الدار، قـادماً من المـدرسة، فـاستعدت سكينتي، تـدريجيـاً، ثم حدثت نفسي بأني ربما إذا أخذت سكينـه المفضلة، التي يستخدمهـا في قطع «الساشامي»، لكي يتم شحـذها، فسـوف يقدر لي حسن صنيعي ـ محـاولة جعل نفسي أعتقد بأنني زوجة حقيقية. نفعتها في قطعة قماش، ثم فيما كنت على وشك الخروج سألني ولدي عن مقصدي فقلت له أن عـليّ الذهـاب. في مهمـة صغيرة وسـأعود تـواً، وعليه أن يكـون فتى طيباً، ويـرعى شؤون الدار، وعندئذ قال: «لست أكترث إذا لم تعودي قط، عندئذ يمكنني العودة إلى مـدرستي في القريـة.» صدمني هـذا بشدة، وعنـدما تـوقفت لأسالـه عـما يقصده، اكتشفت أن الأطفال في الحي كانوا يسخرون منه، قـائلين: «أبوك

لا يمكنه الصمود أمام توبيخ أمك، ولذا فقد هـرب منها». وربما كان هـذا شيئاً مما التقطه الأطفال من سماع ثرثـرة آبائهم حـولنا. والآن هـوذا ولدي يرغب في الهرب من أم حوّلته الى أضحوكـة، والعودة الى أبـويه بـالتبني في الريف. فجأة استبـد بي غضب بالـغ، قبل أن أدرك لـلأمر كنهـاً، فلطمته على وجهه، وفيما كنت أندفع خارجة من الدار، تناهى إليَّ صوت بكائه من ورائي.

بحسب مـا جاء فيـها أعقب ذلـك من الإفـادة، لم تكن تـومي تفكـر في هايدي في هذه اللحظة، وإنما انطلقت مسرعة، عبر الـطرقات، وفي ذهنهـا شيء واحـد: أن تشحذ السكـين لعل حـالتها تتحسن. كـان لـدى القـائم بشحـذ السكـاكـين عمـل كثير آخـر يتعـين عليـه إنجـازه، ولكنهـا أبت الانصراف. وبعد انتظار دام ما يزيد على الساعة، شحـذ السكين لهـا، في نهاية المطاف. وعندما غادرت الحانوت، لم تساورها على الاطلاق الرغبة في العـودة الى الـدار، وأخيراً مضت وكـأنمـا دونمـا إرادة منهـا في اتجاه نــزل كيشيموتو.

قبل وقت قصير من ذلك، كانت هايدي قد عادت الى كيشيموتو بعد أن أمضت ليلة من النشوة الحارقة مع ماتسوكيتشي، فـأوسعتها زوجـة صاحب المنزل تأنيباً لتركها للعمل. كانت قد مضت الى المرآة، واعتذرت لهـا باكيـة، عـلى نحو مـا قال لهـا ماتسـوكيتشي. بعد لحـظات قلائـل من انتهاء هـذا، وصلت تـومي الى المنزل، وطلبت الحـديث مـع هـايـدي للحـظة، خـارج المنزل. خرجت هايدي لمقابلتها، وبدت ودودة على نحو مدهش، كانت قد غيرت ملابسها لتوها، وارتدت كيمونو للعمل، وفيما مضت مـع تومي عـبر الطريق، راح حذاؤها الخشبي يلطم الأرض، على نحو فاتر، بالطريقة التي تصطنعها العاهرات.

قـالت: «لقد وعـدت صاحبـة العمل الآن تـواً. من الآن فصاعـداً لن يكون لي شأن بالرجال، هكذا قلت لها».

بذلت تومي جهداً كبيراً في السيطرة على نفسها، ثم عرضت عليها مشروباً، في حانوت قريب لـ «السوشي»[1] على ضفة نهر سوميدا.

وعندما شرعت في تناول الشراب، بذلت تومي قصارى جهدها للحديث معها، كأنها تخاطب أختها الكبرى، ولكن هايدي رفضت أن تجتذب الى هذا، وكان رد فعلها الوحيد هو ابتسامة هازئة. في نهاية المطاف، وعندما دفع الساكي تومي الى الحدود القصوى للميلودراما، أحنت رأسها في ضراعة، ولكن المرأة الأصغر سناً أشاحت عنها، في ازدراء فظ. كانتا، حتى ذلك الوقت قد مكثتا حوالي الساعة، وأسدل الليل سدوله في الخارج. نهضت هايدي، قائلة إن المديرة ستغضب منها، مرة أخرى، إن لم تعد للعمل على الفور.

بعدما تركت حانوت «السوشي»، زعمت تومي أنها لا تدري السر في أنهما تحولتا الى بقعة خالية سيئة الإضاءة في حي هاما تقع الى جوار النهر. قالت إنها ربما عندما تعلقت بكيمونو هايدي محاولة حملها على البقاء والحديث، بدأت هايدي السير في هذا الاتجاه وهي تنتزع نفسها منها. على أية حال، أنكرت تومي أنها قصدت الى اقتيادها بعيداً لقتلها.

عقب السير لوقت قصير، شرعت تومي في المجادلة من جديد، ولكن هايدي اكتفت بالضحك فحسب. وفيما هي تضحك، تألقت أسنانها

---

(١) السوشي: إحدى أشهر الأكلات اليابانية، وهي تتألف من الأرز ومكونات أخرى، في مقدمتها شرائح الكائنات البحرية المختلفة. وفي مطاعم السوشي، يقوم الطاهي بعصر الأرز المطبوخ والمبتل بالخل المصنوع من الأرز المخمر، ويجعله على شكل كرات صغيرة، ويضع شرائح من برغوث البحر أو بيض سمك السلمون أو «الساشيمي»، والأخير عبارة عن شرائح غير مطهية لأنواع مختلفة من الأسماك مثل التونة أو الشبوط أو سمك موسى أو الأسقمري، ويوضع بين كرات الأرز وهذه الشرائح بعض «الواسابي» وهو نوع خاص من الخردل. (هـ. م.)

المنتظمة، على الرغم من أنه لم يكن هناك إلا بصيص من الضوء على سطح نهر سوميدا، يخفف من الظلام، الذي أطبق عليهما.

ردت هايدي قائلة، أخيراً:

- لا فائدة من مواصلة الحديث على هذا النحو. لا عجب أن ماتسوكيتشي قد ضاق بك ذرعاً.

قالت تومي إن تلك كانت القشة، التي قصمت ظهر البعير، فيما هي تصف ردود أفعالها.

- عندما سمعت هذا، اندفع الدم إلى رأسي. لست أدري كيف أصفه على وجه الدقة... شعرت، عند ذلك، بأنني طفل يبكي في الظلام، يائساً، ملوِّحاً بذراعيه ويديه؛ لأنه لا يستطيع القول بأنه يريد شيئاً ما، أو لأن موضعاً ما من جسمه يؤلمه، ثم بدأت في أرجحة يديَّ حولي، وبشكل ما فكتا اللفافة القماشية، وأمسكتا بالسكين، وبينما كانتا لا تزال تلوحان بها، اصطدم جسم هايدي بها في الظلام - ذلك هو النحو الوحيد الذي يمكنني أن أرى الأمور عليه.

كانت كلماتها من التوتر بحيث أن أفراد الجمهور في القاعة، ومعهم هوندا، كان بمقدورهم أن يروا بوضوح شبح الطفل الصغير، وهو يلوح بيديه، وقدميه، يائساً.

بعد انتهاء تومي ماسودا من إفادتها، غطت وجهها بكفيها، وانخرطت في البكاء. وبدت كتفاها تحت زي السجن الذي ترتديه أكثر إثارة للإشفاق بسبب ترهلهما. وبدا المناخ النفسي للحاضرين في الانتقال تدريجياً من الفضول الصريح الى شيء آخر.

كان المطر لا يزال ينهمر خارج النوافذ ويلقى على قاعة المحكمة نقاباً من ضوء خافت معتم بدا أنه يتركز على تومي ماسودا. وقفت هناك كأنها

الممثل الوحيد لكل عواطف الانسان المعقدة: الحياة، التنفس، الحزن، والصراخ ألماً. وحدها وهبت ميزة الانفعال. حتى لحظات قلائل، لم يكن أفراد الجمهور يرون إلا امرأة في الحادية والثلاثين، بدينة، متعرِّقة. أما الآن فإنهم بأنفاس مبهورة وأعين محدِّقة راحوا يتطلعون الى كائن بشري حطمته مشاعره، يضطرب، كأنه سمكة تمزق حية لتقدم على مائدة عشاء.

لم يكن لها ما يحميها على الاطلاق من نظرتهم. فالجريمة التي اقترفتها يوماً في الظلام تملكت الآن ناصيتها لتكشف عن ذاتها أمام عيونهم جميعاً. فقد كان الطابع المتدفق بالحياة للجريمة ذاتها، وليس أي اعتبار آخر متعلق بحسن النوايا أو الفساد الأخلاقي، هو الذي فرضته بمثل هذه القوة البالغة على أفراد الجمهور. وتجاوز كشفها النقاب عن نفسها أي إنجاز يمكن أن تحققه حتى أمهر الممثلات، اللاتي لن يكشفن، في نهاية المطاف، عما قصدته هي. ارتقى الأمر الى حد مواجهة العالم بأسره، وتحويله الى جمهور واحد عملاق. بدا محاميها، الذي وقف الى جانبها، أشد بؤساً من أن تكون لديه القدرة على تقديم يد المساعدة لها.

وقفت هنالك في هيئة قصيرة، بدينة، بلا شيء يخفف من بؤسها، لا مشط في شعرها، لا حلى، لا كيمونو أنيق يجتذب نظر رجل ـ لكن حقيقة كونها مجرمة كانت كافية لأن ينظروا إليها باعتبارها امرأة.

قال طالب الحقوق، هامساً في أذن هوندا:

ـ لو كان نظام المحلفين معمولاً به في اليابان، لكانت تلك نوعية القضية التي يدع المحلفون المتهمة تفلت بجريرتها. ما الذي يمكنك أن تفعله مع امرأة ذربة اللسان كهذه؟

جلس هوندا ممعناً التفكير. ما إن تنطلق العاطفة، بحسب قوانينها، حتى تغدو شيئاً لا سبيل الى مقاومته. تلك كانت نظرية لن يقبلها القانون

الحديث، الذي يعتبر أنه أمر جلي بذاته أن الضمير والعقل يحكمان الانسان.

ثم تحولت خواطره باتجاه أكثر اتساماً بالطابع الشخصي، فعلى الرغم من أنه جاء لمتابعة هذه القضية باعتباره مشاهداً غير معني بها على الاطلاق، إلا أنه افتتن بها الآن، غير أنها في الوقت نفسه جعلته يدرك شيئاً آخر: إنه لن ينغمس أبداً في نوعية العاطفة القاهرة الغلاّبة التي انطلقت مندفعة من تومي ماسودا.

في الخارج، كانت السماء الجهمة قد صفا محياها قليلاً، وتراجع المطر الى زخات قصيرة متقطعة. وتألقت على نحو مخيف قطرات الماء التي تكسو النافذة تحت سنا الشمس.

علق الآمال على أن عقله سيكون على الدوام مثل سنا الشمس ذاك. ولكن جانباً منه اجتذب على نحو لا سبيل الى مقاومته الى ظلام العاطفة البشرية. وكان هذا السواد افتتاناً لا أكثر. وبدوره كان كيواكي افتتاناً بدا أنه يقبل طاغياً ليهز نسيج الحياة ذاته، ولكنه بدلاً من أن يكون مانحاً للحياة، حمل معه بذور نهاية فاجعة.

في هذا المناخ النفسي، إذن، قرر هوندا ألا يتدخل في شؤون كيواكي، في الوقت الراهن.

- ٣٠ -

وقع حادث عكر صفو أجواء مدرسة النبلاء، مع دنو موعد الاجازة الصيفية، حيث فقد الأمير باتاناديد خاتمه الزمردي، وغدت المسألة بالغة الخطورة، عندما أصبح معروفاً، بصفة عامة، أن الأمير كريد سادا قد أصبح غاضباً بأن الخاتم قد تعرض للسرقة. أراد الأمير باتاناديد أكثر من أي شيء آخر تسوية الأمر، بأقصى قدر ممكن من الهدوء، ووبّخ ابن عمه لفظاظته. ورغم ذلك، بدا جلياً أنه في قرارة نفسه كان يعتقد، بدوره، أن الخاتم قد سُرق.

أثار اتهام الأمير كريد سادا الغاضب استجابة، ليس من العسير التنبؤ بها، من جانب ادارة المدرسة، فقد قالت إن شيئاً من قبيل السرقة هو أمر غير متصور حدوثه، في مدرسة النبلاء. وكان من شأن الاضطراب، الذي أعقب ذلك، أن يتخذ أبعاداً هائلة يقرر معها الأميران اللذان تفاقم شعورهما بالحنين الى الوطن أنهما يرغبان في العودة الى سيام. وقد بدأت سلسلة الأحداث التي ستضعهما موضع الصدام مع المدرسة، عندما طلب منهما المشرف على القسم الداخلي، في غمار محاولته تقديم يد المساعدة بقدر الامكان، أن يسرد عليهما الأحداث التي سبقت بصورة مباشرة اختفاء الخاتم.

فيما واصل طرح الأسئلة عليهما، بدأت رواية كل منهما تختلف عن الآخر، فقد أجمعا على أنهما انطلقا في نزهة في حرم المدرسة في صدر المساء، وعادا الى القسم الداخلي لتناول طعام العشاء، ثم اكتشفا فقدان الخاتم،

عندما عادا الى غرفتهما عقب ذلك. وذهب الأمير كريد سادا الى أن ابن عمه كان يضع الخاتم في أصبعه خلال النزهة، ثم تركه في الغرفة، قبل العشاء، ومن هنا فإنه يشير الى أن الخاتم لا بد قد تعرض للسرقة خلال تناولهما العشاء. ولكن الأمير باتانادبد نفسه لم يكن على يقين فيما يتعلق بهذه النقطة، كما بدا جلياً من شهادته المتسمة بالغموض. كان متأكداً من أنه كان يتحلى بالخاتم عندما مضى للتريض، ولكنه اعترف بأنه ليس بوسعه أن يتذكر ما إذا كان قد ترك الخاتم في غرفته، خلال وجبة العشاء من عدمه.

كان هذا الأمر شديد الأهمية، بالطبع، فيما يتعلق بتقرير ما إذا كان الخاتم قد سرق من عدمه، ثم عندما سأل المشرف عن الموضع الذي تنزها فيه اكتشف أن الأميرين، وقد اجتذبهما المساء البهيج، قد عبرا السور الذي يحيط بتلة الاستعراض، ورقدا بعض الوقت فوق النجيل عند القمة، وهي فعلة تحظرها القواعد المعمول بها في المدرسة. ولم يسمع المشرف حكايتهما لما حدث إلا في اليوم التالي، في أصيل غائم تخللته زخات من المطر. ورغم ذلك فقد قرر أن هناك شيئاً واحداً يتعين القيام به، وطلب من الأميرين القدوم معه في الحال، بحيث يتمكنون ثلاثتهم من القيام بتفتيش دقيق لقمة التلة.

كانت تلّة الاستعراض، شامخة في أحد أركان ميدان التدريب ورغم أنها كانت تلة صغيرة لا تتميز عن غيرها، فإن الأمبراطور ميجي كبُّد نفسه ذات مرة عناء استعراض مسيرة الطلاب من قمتها المعشبة، المسطحة. وهكذا، حولت فيما بعد الى نصب تذكاري لهذه الواقعة، حيث زرع العديد من أشجار الساكاكي، المقدسة في الشنتوية، على قمتها، وقام الامبراطور نفسه بغرس إحداها. واعتبرت المكان الأكثر توقيراً في مدرسة النبلاء، لا يسبقها إلا الحرم المقدس، الذي غرس فيه الإمبراطور شجرة ساكاكي.

اجتاز الأميران السور ثانية بصحبة المشرف، وهذه المرة في وضح النهار،

وتسلقا التلة حتى بلغا القمة. كان النجيل مخضرّاً من جراء زخات المطر، وبدا بوضوح أن المهمة التي تنتظرهم، وقوامها تفتيش حوالي مائتي متر من سطح التلة، ليست بالمهمة السهلة. وبما أنه لم يبد من المناسب البحث في البقعة، التي رقدا فيها فحسب، فقد قرر المشرف أن عليهم تقسيم المساحة الى ثلاث مساحات، حيث يقوم كل منهم بالبحث في إحداها. وهكذا ومع هطول المطر الذي تزايد الآن على ظهورهم، مضوا يفتشون العشب نبتة فأخرى.

لم يبذل الأمير كريد سادا كبير جهد في إخفاء تردده، وقام بمهمته بقدر من التذمر. غير أن الأمير باتاناديد، وفي ضوء طبيعته السمحة، بدأ تفتيشه عن طواعية، مدركاً أن البحث يدور، في نهاية المطاف عن خاتمه. شرع في البحث عند السفح في القطاع الخاص به وشق طريقه الى القمة باحثاً بدقة بالغة.

لم يسبق له من قبل قط أن أبدى مثل هذا الاهتمام الوثيق بكل نبتة في العشب، ذلك أنه ما كان يجري إلا أشد الاهتمام في البحث؛ لأنه على الرغم من إطار الخاتم الذهبي فإن زمردته الكبيرة كانت شبه خفية في العشب تحولت زخة المطر الى تقاطر على قفاه، وانزلقت القطرات أخيراً تحت ياقته المحكمة، وتحددت على ظهره، مثيرة لديه شعوراً بالحنين الى رياح المونسون الدافئة في سيام. كان اللون الأخضر الفاتح عند جذور العشب يخلق وهماً، قوامه أن أشعة شمس قد نفذت عبر الجذور، لكن السماء بقيت على تجهمها. هناك وهناك تناثرت أزهار برية بيضاء صغيرة في العشب، وقد انحنت تويجاتها تحت وقر المطر، ولكن البياض الذروري الذي يميز بتلاتها ظل على حاله من النصاعة. ولفتت نظر الأمير باتاناديد بقعة متألقة على نحو ناصع تحت ورقة مشرشرة الحافة لنبتة عالية. من المؤكد أن خاتمه ما كان يمكن أن يستقر هنالك، ومع ذلك فقد قلب

الـورقة، فـوجد خنفسـاء صغيرة ملونـة بألـوان براقـة وقد تشبثت بـالجانب السفلي، في محاولة لتجنب المطر.

ذكّره التحديق عن مثل هذا المدى القريب في العشب الـذي جعله يبدو كبيـراً بأدغـال بلاده في مـوسم المطر. وإذ ثبت عينيـه على هـذا النحو عـلى العشب، استـطاع أن يتخيل السحب القـزعية، المتجمعـة، المتألقـة بحـدة يوشيها البياض، والسماء في لون اللازورد القـاتم، في أحد الجـوانب، وإن كانت مظلمة وحبلى بالنذيـر، في جانب آخـر، بل كـان بمقدوره أن يسمـع صوت اصطفاق الرعد المدوي.

لم يكن الخاتم هو حقاً الذي جعله على استعداد لبذل هذا الجهـد المؤلم. فقد تحامل على نفسـه في البحث عبر العشب الـذي تحدى جهـوده من أجل استرداد صورة الأميرة تشان.

مهما كان الأمـل في النجاح ضئيـلاً، كان يقف عنـد حافـة الانخراط في البكاء.

مرت مجموعة من الطلاب، في طريقها الى قاعة التمـرينات الـرياضيـة، حاملة المظلات، وملقية بالسترات الواقية من المطر على أكتاف زي التدريب الرياضي الخاص بها. ولدى مشاهدة النشاط الجاري فوق التلة تـوقف أفراد المجموعة.

كانت شائعـة تدور حـول الخاتم المفقـود قد انتشرت بـالفعل في أرجـاء المـدرسة، ولكن بمـا أن الطلاب كـانـوا يعتـبرون أن من قبيـل التخنث أن يتحلى رجل بخاتم، لم يكن هناك إلا القلائل ممن يستشعرون أقل قـدر من التعـاطف، أو الاهتمام بفقـده، أو البحث المحموم عنـه. وبالـطبع أدركـوا الغرض من الأمر بمجرد رؤيتهم للأميرين، وهما يشقان طريقهما عبر العشب المبلل جاثيين على أربع. كـان من الواضـح أن الاتهام الـذي وجهه الأمـير

كريد سادا بأن الخاتم قد سرق قد بلغ مسامعهم، فانتهزوا الفرصة الآن للإعراب عن ضيقهم، بأن كالا لهما تعليقات اللاذعة. ولكنهم عندما لمحوا المشرف، ينتصب واقفاً، لينظر باتجاههم، تراجعوا مذهولين. وعندما طلب منهم في هدوء المشاركة في البحث، لفهم الصمت، وولوا الادبار، وتفرقوا أيدي سبأ.

أوشك الأميران والمشرف، وكل منهم يعمل من اتجاه مختلف على الوصول الى مركز التلة، وهكذا لم يعد هناك مفرّ من إدراك أن كل جهودهم يحتمل ألا تسفر عن شيء. لم تعد زخات المطر تنهمر الآن، وأطلت أشعة شمس أواخر الأصيل عبر السحب. راح العشب الندي يتألق فيما هو يلتقط الأشعة المنخفضة الميل، وشكلت الظلال التي ألقتها الأوراق زخارف مركبة على سطحه.

ظن الأمير باتاناديد أنه رأى البريق الذي لا تخطئه عين، والذي يميز الزمردة في كتلة متجمعة من العشب، ولكن عندما دس يديه الندتين في كتلة العشب، لم يجد إلا بريقاً واهناً، متقطعاً، تشوبه اللطخ، ولا يعدو أن يكون ناجماً عن تشابك العشب المبلل، وقد توهج بريق الذهب عند الجذور، دون أن يربطه أدنى شبه بالخاتم.

تناهت قصة البحث الفاشل، فيما بعد، الى سمع كيواكي. ومن المؤكد أن المشرف قدم الدليل على حسن النية بالمساعدة بقدر ما في إمكانه، ولكن لم يكن هناك سبيل الى إنكار أن البحث كان إذلالاً بلا داع للأميرين. وليس مما يثير كبير دهشة أنهما إختارا أن يحولا الى قضية مثارة، وهكذا أتاحا لنفسيهما عذراً طيباً لحزم أمتعتهما والانتقال الى فندق «الأمبريال». وقد اعترفا لكيواكي بأنهما قررا العودة الى سيام في أقرب وقت ممكن.

أحس الأمير ماتسوجاي بأسى بالغ، عندما علم بهذا النبأ من ابنه،

وأدرك أن السماح للأميرين بالعودة الى وطنهما، وهما في حالتهما المزاجية والنفسية الراهنة، سيعني تركهما مجروحين الى الأبد، وطوال حياتيهما سيظل موقفهما من اليابان مقترناً بذكرياتهما المريرة عنها. حاول في البداية تخفيف حدة العداء القائم بينهما وبين المدرسة، ولكنه وجد أن موقف الأميرين قد بلغ من التصلب الحد الذي لم يعد معه هناك كبير أمل في القيام بوساطة ناجحة، في الوقت الحالي. ومن هنا فقد وفّر على نفسه إهدار الوقت حالياً، بعد أن وصل الى أن أول شيء ينبغي القيام به هو إقناع الأميرين بعدم التوجه الى بلادهما، ثم بعد ذلك التوصل الى أفضل خطة للتخفيف من حدة عدائهما.

وفي غضون ذلك، كانت العطلة الصيفية قد دهمتهم، وبعد التشاور مع كيواكي قرر الأمير دعوة الأميرين الى دارة العائلة المطلة على البحر بمجرد بدء العطلة، على أن يذهب كيواكي معهما الى هناك.

كان الأمير ماتسوجاى قد سمح لكيواكي بدعوة هوندا للقدوم الى الدارة. وهكذا، في اليوم الأول، الذي أعقب انتهاء الدراسة، استقل الشبان الأربعة قطاراً في محطة طوكيو.

حينما كان الأمير ماتسوجاى نفسه يتوجه الى الدارة، القائمة في كاماكورا، كان يتعين أن يستقبله وفد حاشد، على رأسه عمدة المدينة وقائد الشرطة فيها، لدى وصوله إلى المحطة، لتحيته بما يليق من ألوان التكريم. وفضلاً عن ذلك، فقد كانت الرمال البيضاء تنقل من الشاطىء، وتنثر على امتداد الطريق من محطة كاماكورا الى الدارة القائمة في منطقة هاسي. غير أنه بما أن الأمير قد أبلغ مجلس البلدة بأنه يرغب في أن يعامل الشبان الأربعة باعتبارهم طلاباً فحسب، دون أي لجنة ترحيب، من أي نوع، رغم مكانة الأميرين السياميين، فقد تمكنوا من أن يستقلوا عربات ريكشو في المحطة، وأن يستمتعوا بالمسيرة الى الدار، دون إزعاج من أحد.

كان الطريق الضيق، الذي تلعب فيه الرياح، مكسواً بالأغصان المتدلية، المثقلة، بالخضرة. ولدى اقترابهم من قمة تل منحدر، رأوا البوابة الحجرية للدار تظهر أمامهم، وقد حفر اسمها بحروف صينية، على العمود الأيمن. وكان يطلق عليها اسم دارة شونج ـ نان، وهو اسم مستوحى من عنوان قصيدة للشاعر، المنتمي الى عصر التانج، وانج وي.

امتدت المزرعة الملحقة بهذه الشونج ـ نان اليابانية على مساحة ثمانية أفدنة، تشمل وادياً ضيقاً بكامله، ينفتح ممتداً الى شاطىء البحر. وكان

جد كيواكي قد بنى ذات يوم كوخاً مسقوفاً بالقصب هناك، ولكن بعد أن أتى عليه حريق، قبل سنوات، انتهز أبوه الفرصة، في الحال لتشييد دارة صيفية، فسيحة، تضم اثنتي عشرة غرفة للضيوف، تجمع بين الطرازين الغربي والياباني في التصميم. غير أن الحديقة الممتدة من الشرفة، على الجانب الشرقي للدار، قد صممت مناظرها الطبيعية على الطراز الغربي، بصورة كاملة. ومن هذه الشرفة عينها كان بمقدور المرء أن يرى جزيرة أوشيما، ويتألق بركانها في الليل كأنه نار مخيم بعيد. وكان من شأن مسيرة لا تتجاوز خمس أو ست دقائق عبر الحديقة أن تصل بالمرء إلى شاطىء يويجهاما. وفي حقيقة الأمر أن الأمير ماتسوجاى كان بمقدوره بالاستعانة بنظارة ميدان أن يجلس في الشرفة ويرقب الأميرة وهي تمرح في الأمواج المتكسرة على الشاطىء، وهو ترفيه كان يبعث سروراً عظيماً في نفسه. غير أنه كان هناك حقل مزروع بالخضر بين الحديقة والشاطىء، ولإخفاء هذا العنصر من عناصر عدم التوازن غرس صف من أشجار الصنوبر على امتداد الحافة الجنوبية للحديقة. وما إن تنمو أشجار الصنوبر هذه الى أقصى مراحل نموها، حتى تعوق امتداد الرؤية من الشرفة الى البحر، ولن يعود بمقدور الأمير تسلية نفسه بالاستعانة بنظارة ميدانه.

يصل جمال موقع الدارة الى قمته في أيام الصيف الصافية، حيث يمتد الوادي الضيِّق كأنه مروحة والدارة عند قمة المروحة وطرفاها يتاخمان الحديقة على كل من الجانبين، حيث ينتهي الطرف الأيمن بنتوء يطلق عليه اسم رأس اينامورا جازاكي، ويشير الطرف الأيسر الى جزيرة إيجيما.

لم يكن هناك ما يعوق المشهد الممتد، الذي يجعل المرء يشعر بأن كل ما يضمه المشهد ـ السماء، والأرض، البحر الذي يعانقه الرأسان ـ هو جزء من عالم ماتسوجاى. وما من صورة تطفلت على سيادة هذا العالم، اللهم إلا السحب المنتشرة، على نحو رائع، والطيور العابرة، والسفن المارة من

بعيد. وفي الصيف، عندما تكون تكوينات السحب في قمتها، يبدو المكان كله كأنما تحول الى مسرح هائل، حيث يشغل النظارة الدارة، ويصبح الامتداد الرهيف للخليج الخشبة الهائلة، التي تؤدي السحب رقصات الباليه المترفة الخاصة بها فوقها.

كانت أرضية الشرفة الخارجية مكسوّة بخشب الساج الثقيل، الذي جعل على هيئة مربعات. وقد اعترض المهندس المعماري على تعريض أرضية خشبية لعوادي الطقس، ولكنه أذعن عندما ذكّره الأمير في حدة بأن أسطح السفن تصنع من الخشب. ومن النقطة البارزة، المتمثلة في هذه الشرفة، أمضى كيواكي أياماً بكاملها خلال الشهر الماضي وهو يفحص بدقة كل الفروق الدقيقة المراوغة في السحب المتقلبة، من حال الى حال. وغدا سنا الشمس مذهلاً، فيما هو يتألق على السحب القزعية، التي تتوج عرض البحر مثل كتل هائلة من الزبد المخفوق، ويتغلغل الى تجاويفها العميقة المقوسة. وبينما تقاوم المساحات الغارقة في الظلال الشمس الفاحصة فإن أشعتها الباهرة تلقى قوتها الصارمة النابعة من حوافها البارزة فيما يوشك أن يكون نحتاً بارزاً. وفي خياله اختلفت الأجزاء المعزولة عن الضوء المباشر كلية في طابعها عن تلك التي تعرضت له على نحو باهر، فقد هجعت في سكون، بينما بالمقابل قامت مثيلتها المضيئة بأداء دراما، ذات أبعاد مأساوية، تتوالى أحداثها بلا هوادة. ولكن لم يكن هناك مجال للعنصر البشري، وهكذا فإن الهجوع والتراجيديا معاً انحدار الى شيء واحد، هو لعبة كسول في أفضل الأحوال.

وإذا أمعن النظر في ثبات نحو السحب، فإنه لا يلحظ تغييراً، أما إذا تطلع الى البعيد لحظة، فإنه سيجد أنها قد تبدلت من حال الى حال. ودون إدراك من جانبه للأمر، غدت معرفتها البطولية متشابكة كأنها شعر شعّثه

الرقاد، وطالما هو يمعن النظر، فإن هذا الاضطراب يدوم بالطريقة الوئيدة في حركتها ذاتها.

ما الذي تحلل؟ في لحظة تسيطر أشكالها الشهباء اللامعة على السماء، وفي اللحظة التالية تنحل، فتغدو شيئاً تافهاً، كياناً عرضياً أصابه الوهن. غير أن تحللها هو لون من التحرر، ذلك أنه فيما يرقبها تعود بقاياها المتناثرة تدريجياً إلى التشكل، وفيما هي عاكفة على هذا تلقي ظلالاً غريبة على الحديقة، كأنما جيش يحشد قواته في أعالي السماء. يطغى جبروتها أولاً على الشاطىء وحقل الخضر، ثم يتحرك نحو الدارة، فيكتسح الحد الجنوبي للحديقة. تتألق الألوان المنعمة بالحيوية للأوراق والأزهار، التي تكسو منحدر الحديقة المرتبة في تقليد لقصر شوجاكوين، كأنها الفسيفساء في سنا الشمس المتألق - أشجار القيقب، الساكاكي، شجيرات الشاى، شجيرات الأرز القزمة، أشجار الغار، الأضاليا، الكاميليا، الصنوبر، شجيرات البقس، وأشجار الصنوبر الصينية السوداء، وكل الأشجار الأخرى - ثم فجأة يهيمن الظل على كل شيء، ويسود الصمت حتى أنشودة الصرّار، كأنما من قبيل الحداد.

كانت مشاهد الغروب جميلة، على نحو خاص. وقد تخيل كيواكي أنه مع دنو كل غروب كانت كل سحابة تعرف مسبقاً ما هو اللون الذي ستتشح به - الارجواني، القرمزي، البرتقالي، الأخضر الفاتح، أو شيء آخر - ثم تحت وقر اللحظة تشحب السحابة، قبل أن تنتقل الى ظلها الجديد.

قال تشاوبي. وقد تألقت عيناه:

- يا لها من حديقة جميلة! لم يدر بخلدي أن الصيف في اليابان يمكن أن يكون على مثل هذا القدر من البهاء.

فيما وقف الأميران، ذا البشرة الداكنة، في الشرفة السابحة في سنا الشمس، ما كان بوسع كيواكي أن يتخيل أحداً غيرهما وقد بدا في مكانه وموضعه هنالك على هذا النحو. واليوم بدا بوضوح أن مناخهما النفسي المكهفر قد صفا.

وعلى الرغم من أنه وكيواكي قد اعتقدا أن أشعة الشمس أكثر إبهاراً مما يناسب ذوقيهما، فإنها بالنسبة للأميرين السياميين لم تكن إلا دفئاً بهيجاً، على نحو ما تمنيا بالضبط. ووقفا في الشرفة غارقين فيها، كأنما لم يكن بمقدورهما الحصول على ما يكفي من حرارتها.

قال كيواكي لهما:

ـ بعد أن تغتسلا، تستريحا قليلاً، سأقوم بجولة معكما؛ لأطلعكما على معالم الحديقة.

رد كريد سادا:

ـ ولم الاهتمام بالراحة؟ ألسنا أربعتنا من الشبان وعلى قدر كبير من من النشاط؟

حدّث كيواكي نفسه، قائلاً بأنه أكثر من أي شيء آخر، أكثر من الأميرة تشان، الخاتم الزمردي، أصدقائها، ومدرستها، ربما كان ما يحتاجه الأميران هو الشمس المتألقة. وقد بدا أن الصيف لديه القدرة على شفائهما من كل ألوان الاحباط، التي أصيبا بها، وأن يخفف من حزنهما كله، ويستعيد لهما سعادتهما المفقودة.

فيما كان يفكر على هذا النحو في حرارة سيام المتقدة، التي لم يجربها قط، لاحظ في نفسه بدوره افتتاناً معيناً بالصيف، الذي تدفق معلناً حضوره بينهم فجأة. سمع أصوات حشرات الصرّار، وهي تتردد في الحديقة، كانت برودة المنطق قد تبخرت، كأنها عرق بارد على جبينه.

هبط أربعتهم من الشرفة، وتحلقوا حول المزولة العتيقة، التي امتدت في منتصف الرواق الفسيح المحيط بها.

كان النقش «١٧١٦ ظلا عابراً» محفوراً باللغة الانجليزية على واجهة المزولة، وكانت إبرتها البرونزية المستدقة عربة بديعة على هيئة طائر وعنقه الممتد يشير مباشرة الى رقم اثني عشر بالأرقام الرومانية، بين العلامتين اللتين تشيران الى الشمالي الغربي والشمال الشرقي تماماً، وراح الظل الذي ألقته يقترب من علامة الساعة الثالثة.

فيما راح هوندا يحك بأصبعه الحرف «ظ» في النقش فكر في سؤال الأميرين عن الاتجاه الذي تقع فيه بلادهما، ولكنه قرر ألا يندفع في مخاطرة لا ضرورة لها بإثارة حنينهما الى الوطن ثانية. وفي الوقت نفسه، ودون أن يتعمد ذلك، غير وضعه قليلاً، فحجب الشمس بحيث أن ظله غطى الظل الذي كان يوشك على أن يشير الى الساعة الثالثة.

قال تشاوبي. عندما رأى ما فعله هوندا:

ـ هذا هو المقصود. ذلك هو السر. لو أنك قمت بهذا، طوال اليوم، فإن الزمن سيضطر للوقوف. عندما أعود الى الوطن، سأقيم مزولة في الحديقة، ثم في الأيام التي أشعر فيها بسعادة بالغة، سآمر خادماً بالوقوف الى جوارها، من الصباح حتى الليل، ويغطيها بظله. سأوقف مرور الزمن.

قال هوندا، متنحياً جانباً، ليدع سنا الشمس اللاهبة يسترد الساعة الى المزولة:

ـ لكنه سيلقى حتفه من جراء ضربة شمس.

رد كريد سادا:

ـ لا، لا، إن خدمنا يمكنهم الوقوف في الشمس طوال النهار، دون أن

يؤثر ذلك فيهم على الإطلاق. والشمس في الوطن أقوى بثلاثة أمثال منها هنا.

استقطب جلد الأميرين الخمري الدافىء، تحت سنا الشمس، خيال كيواكي، وأحس بأن مثل هذا الجلد يحتفظ في داخله بظلمة باردة، تنعش على الدوام هذين الشابين، كأنها ظل شجرة باذخة.

ما كان عليه إلا أن يشير إشارة عابرة الى متعة التنزه في الطرقات الجبلية الواقعة خلف الدارة، وفي الحال لم يعد هناك جدوى من أي شيء إلا انطلاق أربعتهم في الحال لاستكشاف هذه الطرقات، قبل أن يتمكن هوندا من تجفيف عرقه، الذي تحَدَّر من جراء حر الحديقة. وفضلاً عن ذلك، فقد دهش هوندا لمرأى كيواكي، الذي كان غارقاً في كسله، وهو يتصدى لقيادة هذا المشروع بمثل هذه الطاقة.

غير أنهم، على الرغم من هواجسه، شقوا طريقهم حتى الهضبة، وهب عليهم نسيم البحر البارد على نحو بهيج، منساباً عبر غابة الصنوبر الظليلة، الأمر الذي جعلهم ينسون عرق التسلق، فيما هم يستمتعون بإطلالة رحبة على شاطىء يويجاهاما.

قادهم كيواكي على امتداد الطريق الضيق، الذي يتبع خط الهضبة، وفيما هم يسيرون، بمزيد من النشاط، على أوراق العام الماضي الساقطة على الأرض، ويندفعون عبر نجيل السرخس والخيزران، الذي اعترض مجرى الطريق، على وجه التقريب، استشعروا طاقة الشباب تتوهج بداخلهم، ثم على حين غرة توقف كيواكي، وأشار باتجاه الشمال الغربي.

هتف بهم كيواكي:

ـ أنظروا! هذا هو المكان الوحيد الذي يمكنكم منه أن تروه.

كانت مجموعة من الدور المتهالكة، التي يصعب وصفها، منتصبة في

الوادي الذي امتد أسفلهم، ولكنهم لمحوا تمثال بوذا كاماكور العظيم يطل شامخاً ونائياً.

كان كل شيء في تمثال بوذا هذا، من كتفيه المستديرين، حتى طيات ردائه ذاتها، هائل الحجم. لمحوا من الوجه صورته الجانبية، وكان الصدر واضحاً بصورة جزئية، فيما هو يبدو ناتئاً، الى حد ما، فيما وراء خطوط الردن الرشيقة، التي تنساب بنعومة متحدرة من الكتف، وانهل سنا الشمس المتألق على البرونز الوهاج للكتف المستديرة وارتد أنواراً آلاقة من الصدر البرونزي العريض. كان الغروب يدنو، ووقعت الأشعة على الحلزونات البرونزية الملتفة، كالشعر على رأس بوذا، وبرز كل منها نافراً. وبدت شحمة الأذن متدلية، كأنها ثمرة جافة على شجرة استوائية.

فاجأ الأميران السياميان هوندا وكيواكي بجثوهما، فور مشاهدتهما للتمثال. ودونما تفكير من سراويلهما الكتانية البيضاء الحديثة الكي، ركعا دونما تردد على الأوراق المبللة المتحللة، التي تكسو الطريق، فيما راحات أيديهما منبسطة في توقير باتجاه التمثال البعيد السابح في أشعة الشمس الصيفية.

كان الشابّان الآخران من الافتقار الى التوقير بحيث تبادلا نظرة عجلى. كان التدين المنتمي الى هذا النوع بعيداً للغاية عن تجربتهما، الى حد أنه لم يخطر لهما على بال قط أنهما سيصادفانه في حياتيهما. لم يكن الأمر متمثلاً في أنهما شعرا بأدنى ميل الى السخرية من إخلاص الأميرين السياميين المثالي، وإنما أحسا بأن هذين الشابين، اللذين درجا على اعتبارهما مثلهما، قد حلّقا فجأة، مبتعدين الى رحاب عالم تعد مثله العليا ودينه أموراً غريبة بالنسبة لهما تماماً.

- ٣٢ -

أعقبت جولة شاملة في الحديقة النزهة في الجبال الواقعة وراء الدار، فامتص هذا الجهد طاقتهم، بحيث أن أربعتهم أحسوا، أخيراً، بالسعادة لنيل قسط من الراحة، في غرفة المعيشة بالدارة. وهناك استمتعوا بنسيم البحر من الشرفة، فيما هم يرتشفون عصير الليمون، المجلوب من يوكوهاما، والمبرَّد في بئر الدارة. وسرعان ما استعدوا للانطلاق مجدداً. وفي هذه المرة استسلموا للدافع الذي حداهم للعوم في البحر قليلاً، قبل الغروب، وأسرعوا الى غرفهم لارتداء ملابس مناسبة، بحسب ذوق كل منهم. فارتدى كل من كيواكي وهوندا مئزرين، من النوع المستخدم للسباحة في مدرسة النبلاء، وفوقهما ارتديا رداءين ضافيين من القطن، تحليهما الزخرفة التي تأخذ شكل ريشة واللذين يكملان الزى الرسمي، ثم اعتمرا قبعتين من القش، وأوشكا على شق طريقهما الى الشاطىء، لو لم يعطلهما الأميران السياميان. وعندما ظهر هذان الأخيران، كانا يرتديان طاقمي استحمام انجليزيين مخططين يكشفان عن أكتافهما الخمرية، على نحو يضفي عليهما جاذبية.

امتدت صداقة كيواكي وهوندا طويلاً، ولكن كيواكي لم يوجه إليه الدعوة من قبل قط لزيارة دارة العائلة خلال الصيف، وإن كان قد جاء مرة في الخريف لجمع حبات الكستناء. ومن هنا كانت تلك هي المرة الأولى التي يمضي فيها للسباحة مع كيواكي، منذ كانا صبيين في دارة المدرسة، الواقعة على شاطىء كاتاسي، عندما لم تكن علاقتهما الحميمة الحالية قد بدأت بعد.

اندفع أربعتهم، على نحو طائش، عبر منحدر الحديقة، واجتازوا حاجز أشجار الصنوبر الصغيرة، واندفعوا عبر حقل الخضراوات الضيق الى شاطىء البحر.

هنا، توقف هوندا وكيواكي، ليؤديا تمارين الجمباز، التي ينصح بها قبل السباحة، وهو إجراء شكلي جعل الأميرين السياميين ينفجران ضاحكين. وربما كان هذا نوعاً مخففاً من الرد على اليابانيين، لعدم مشاركتهما لهما في الركوع لتمثال بوذا العظيم النائي. ومن منظور الأميرين، كانت هذه العقوبة الذاتية الحديثة، المتمحورة حول الذات كلية، هي أكثر الأمور طرافة في الدنيا.

غير أن طبيعة ضحكهما ذاتها، أوضحت أنهما يشعران بالارتياح أكثر من ذي قبل، فلم يسبق لهما منذ وقت طويل أن لاحا على مثل هذا القدر من المرح، وبعد أن استمتعوا بالسباحة حسبما طاب لهم، أحس كيواكي بأن بمقدوره أن ينسى الاضطلاع بدور المضيف لبعض الوقت، وابتعد الأميران السياميان ليتحدثا بلغتهما الوطنية، وراح كيواكي وهوندا يتحدثان باليابانية، الى أن لف النعاس أربعتهم على الشاطىء.

شاب صفاء الشمس الغاربة غشاء خفيف من السحب، كانت قد فقدت الكثير من حرارتها السابقة، ولكن هذا الوقت كان من الأوقات البهيجة التي يحلو فيها الرقاد تحت أشعتها الغاربة، وخاصة بالنسبة لشخص بشرته بيضاء مثل كيواكي، الذي قام، وهو لا يرتدي إلا مئزره الأحمر، بالارتماء على الرمال، ووجهه الى أعلى، وعيناه مغمضتان.

الى يساره جلس هوندا، متربعاً، على الرمال، محدِّقاً في مياه الخليج. وعلى الرغم من أن البحر كان هادئاً فإن أمواجه المتهادية قد فتنته. وفيما هو يتطلع بدا سطح البحر في مستوى ناظريه. حدَّث نفسه قائلاً بأنه كم يكون غريباً لو أن البحر انتهى فجأة واستسلم للبر أمام ناظريه.

واصل صب الرمل من راحة يد الى أخرى، وعندما نثر جانباً كبيراً منه، في غمار هذه العملية، مدّ يده، وبدأ فيها من جديد تلقائياً، بملء قبضة جديدة من الرمل، وقد ملأ البحر خاطره تماماً.

كان البحر ينتهي على بعد أقدام قليلة من مجلسه. كان البحر الرحب، الشاسع، بكل قوته الهائلة ينتهي هنالك أمام ناظريه. ليس هناك شيء يثير الرهبة مثل الحد النهائي، سواء أكان حداً في رحاب الزمان أو المكان. بدا له أن وجوده في هذا الموضع مع رفاقه الثلاثة، عند هذا الحد العجيب بين البر والبحر، شبيهاً للغاية بكون المرء يحيا فيها عصر ينتهي ويبدأ عصر آخر، بكونه جزءاً من لحظة عظيمة في التاريخ، ثم إن مدّ العهد الذي يحيا فيه وكيواكي لا بد أن يأتي عليه حين من الدهر ينحسر فيه، وأن يكون له شاطىء ينكسر عليه، وحاجز لا يملك تجاوزه.

انتهى البحر هناك أمام ناظريه، وفيما هو يرقب الاندفاعة الأخيرة لكل موجة، بينما هي تنداح في الرمل، الانطلاقة النهائية لقوة هائلة تهاوت عبر قرون لا حصر لها، أذهله ما يأخذ بمجامع القلب في الأمر كله. عند تلك النقطة ذاتها، أخفق مخطط هائل لعموم المحيط شمل العالم بأسره، وانتهى في رحاب العدم.

مضت الأمواج، التي تبدا على مسافة بعيدة في عرض البحر، عند موضع تستدق فيه رؤوسها الشهباء، خلال أربع أو خمس مراحل، تبدو كل منها للعيان في اللحظة ذاتها، الاندفاع، الوصول الى القمة، الانكسار، انحلال قوتها، والانحسار، في عملية دائبة التكرار.

يصدر عن الموجة المنكسرة زئير غاضب، فيما هي تكشف عن بطنها الناعم، القاتم الخضرة، ويتطاول الزئير، متحولاً إلى صيحة، والصيحة إلى همسة. تراجع صف الجياد الشهباء المهاجمة، مفسحاً الطريق لصف من

جياد أصغر، الى أن اختفت الجياد الغاضبة تدريجياً بصفة كاملة، دون أن تخلف وراءها إلا الآثار الأخيرة لحوافرها الصاكة على الشاطىء.

اصطدم بخشونة أثران منداحان من اليسار الى اليمين مثل مروحة، وغاصاً في مرآة سطح الرمل البراقة. وفي تلك اللحظة، دبت الحياة فيما انعكس على المرآة، التي التقطت الموجة التالية ذات القمة الشهباء، فيما هي توشك على أن تهوى منداحة، صورة رأسية حادة تألقت مثل صف من الدلاءات الجليدية.

وفيما وراء الانحسار، حيث واصلت أمواج أخرى التقدم واحدة إثر الأخرى، لم تتكون لأي منها قمم شهباء ناعمة، ومراراً وتكراراً تندفع مهاجمة، مترصدة هدفها بعزم. ولكن عندما تطلع هوندا نحو البعيد في البحر، لم يستطع الهرب من الشعور بأن القوة البادية لهذه الأمواج، التي تلطم الشاطىء، لا تعدو أن تكون تبدداً نهائياً، واهناً، مخففاً.

وكلما نظر المرء الى مدى أبعد، ازداد قتام اللون الذي يلف الماء، الى أن يصبح في نهاية المطاف لوناً قاتماً يجمع بين الزرقة والخضرة. بدا الأمر كما لو أن المكونات غير الضارة للمياه القريبة من الشاطىء تزداد تكثفاً من خلال الضغط المتزايد للماء فيما هو يزداد عمقاً، وتتكثف خضرته مراراً وتكراراً لتفرز مادة خالدة تجمع بين الخضرة والزرقة، مادة خالصة لا سبيل الى اختراقها كاليشب البديع، تمتد حتى الأفق. وعلى الرغم من أن البحر قد يبدو شاسعاً وعميقاً، فإن هذه المادة هي لحمة المحيط وسداه. شيء يتبلور متحولاً الى الزرقة فيما وراء تصخاب الأمواج السطحى العابث ـ ذلك هو البحر.

راح يحدق في البعيد، وأخيراً غدت أفكاره من الكثافة والتشابك بما يكفي لإرهاق مقلتيه وذهنه، فالتفت ليلقي نظرة على كيواكي، الذي راح

يغط الآن في نومه بمزيد من الاطمئنان. بدت بشرة جسمه الرشيق أشد بياضاً بالمقارنة بالمئزر الأحمر الذي كان هو كل ما يستتر به. فوق المئزر. وعلى بطنه الشاحب الذي راح يصعد ويهبط بخفة في غمار تنفسه، استقر بعض الرمل، وقد جف الآن وشظايا صغيرة من قوقعة بحرية. ولما كان قد رفع ذراعه اليسرى، ليضعها وراء رأسه، فقد بدا جانبه الأيمن، المغطى عادة، مكشوفاً لهوندا، ووراء الحلمة اليسرى التي ذكّرته ببرعم كرز صغير لفتت نظره مجموعة مؤلفة من ثلاث شامات. أحس بأن هناك شيئاً غريباً فيما يتعلق بهذه الشامات الثلاث. لماذا يتعين أن يحمل لحم كيواكي علامة من هذا القبيل؟ وعلى الرغم من أن الصداقة جمعتهما منذ وقت طويل، فإنه لم يرها من قبل قط، والآن أحرجه كثيراً أن يواصل التطلع إليها، كأنما اعترف كيواكي له فجأة بسر كان من الخير أن يترك طي الكتمان. ولكنه عندما أغمض عينيه رأى الشامات السوداء وكأنما تركزت عليها بؤرة نظره تحت جفنيه، فبدت واضحة كأنها أشكال ثلاثة طيور بعيدة تحلق عبر السماء التي كساها المساء، وقد أنارتها الشمس الغاربة على نحو بالغ التألق. وفي خياله رأى الشامات الثلاث تستحيل طيوراً مصطفقة الأجنحة، ثم تمر فوق رأسه.

عندما فتح عينيه من جديد، كان صوت واهن يتناهى من أنف كيواكي البديع التكوين، وأسنانه تتألق ندية وصافية البياض من خلال شفتيه المنفرجتين قليلاً. ورغماً عن إرادة هوندا وقعت عيناه على الشامات التي تعلو جانب كيواكي من جديد. وفي هذه المرة حدث نفسه بأنها تبدو مثل بعض حبات الرمل التي غرست نفسها في بشرته البيضاء.

انتهت المنطقة الجافة من الشاطىء عند أقدامهما مباشرة، وهنا وهناك تلاطمت الأمواج فيما وراء حدها المعتاد وتركت أشكالاً متداخلة من الرمل المبلل خلفهما، نوعاً من النحت البارز الذي حفظ أثر الموج. انغرس ها

هنا ايضا احجار وقواقع وأوراق أشجار ذاوية، كأنها حفريات قديمة، ودعم كل حصاة بالغة الضآلة من بينها جدولها الخاص المؤلف من الرمل المبلل، ليبرهن على كيفية محاربته للموج المرتد.

وكان هناك ما يزيد على الحصى والقواقع والأوراق الذاوية، فقد طوَّح البحر بتشابكات من الأشنة البنية والشظايا الخشبية وجزئيات القش، بل وقشور ثمار البرتقال، فثبتت في الرمال. وحدَّث نفسه بأن من الممكن أن يشق بعض الحبوب المبللة طريقه الى البشرة البيضاء التي امتدت مشدودة على جنب كيواكي.

وبما أنه وجد هذه الفكرة مثيرة للانزعاج للغاية، فقد حاول التفكير في طريقة ما لإبعاد الحبوب دون إيقاظ كيواكي، ولكن فيما استمر في النظر أدرك أن العلامات السوداء التي تتحرك على نحو طليق وطبيعي مع ارتفاع وانخفاض صدر كيواكي لا يمكن أن تكون مادة غريبة عن صديقه، وإنما كانت جزءاً منه، وبالتالي لا يمكن أن تكون إلا الشامات السوداء، على نحو ما ظنها في أول الأمر.

أحس بأن هذه الشامات هي بمثابة نوع من الخيانة لكمال كيواكي الجسدي.

وربما أحس كيواكي بنفاذ النظرة، لأنه فتح عينيه فجأة، فلمح تحديق هوندا، على نحو مباشر، ثم رفع رأسه وبدأ في الحديث فجأة، كأنما ليمنع صديقه المحرج من الهرب منه.

ـ أتفعل شيئاً من أجلي؟

ـ أجل.

ـ لم آت إلى هنا، حقيقة، لأقوم بدور الممرضة للأميرين، ذلك عذر

جيد، لكني أريد بـالفعل أن أثـير في نفس الجميع الانـطباع بـأنني لست في طوكيو. أتفهم ما أرمي إليه؟

ـ لقد ضمنت أنك تفكر في شيء من هذا القبيل.

ـ ما أريد القيام به هو تركـك والأميرين هنـا في بعض الأوقات والعـودة الى هناك، دون أن يدري أحد من الأمر شيئـاً، فليس بمقدوري قضـاء مدة تصل الى ثلاثة أيام بدونها، وهكذا سيقع على كاهلك أن تتدبـر الأمور مـع الأميرين خلال غيبتي، وأن تعد حبكة مقنعة في حالة إذا تصادف أن اتصـل أحدٌ هاتفياً من طوكيو. الليلة سأمضي في عربة الدرجة الثالثة بـالقطار الأخـير المتجه الى طوكيـو، وسأعـود بأول قـطار في الصباح. فهـل تقوم بـذلك من أجلي؟

قال هوندا مؤكداً:

ـ سأقوم بذلك.

ابتهج كيواكي بمـوافقة صـديقه الحـازمة، ومـدَّ يده ليصـافحه، قبـل أن يستأنف الحديث.

ـ أحسب أن أباك سيشهد جنازة الأمير أريسو جاوا الرسمية.

ـ نعم أعتقد ذلك.

ـ كان شيئاً طيباً من الأمير أن يلقى حتفه في هذا التـوقيت، وكما سمعت بالأمس، سيضطر آل تـوينامـايا، راغمين، إلى تأجيل حفل الخـطبة لبعض الوقت.

ذكَّرت هذه الملاحظة هوندا بأن حب كيواكي لساتوكو مختلط، على نحـو لا فكاك منه، مع مصالح الأمة بأسرها، فأخذته الرعـدة حيال مـا في الأمر من خطر.

هنا قاطع الأميران، اللذان أقبلا عدوا في سرعة يشوبها حماس بـالغ حتى لقد أوشكا أن يتعثرا فيقع أحدهما فوق الآخر، حديث الصديقـين. وتحدث كريد سادا أولاً، مجاهداً ليلتقط، في وقت واحد، أنفـاسه وليعـبر عما يـريد بلغته اليابانية التي لم يتمالك نصها تماماً.

تساءل:

ـ أتعرفان فيم كنا نتحدث تشاوبي وأنا؟ كنا نناقش تناسخ الأرواح.

عندما سمع الشابان اليابانيان هذا نظرا، بعفوية، أحدهما الى الآخر، وهو رد فعل غريزي فاتت دلالته على كريد سادا، الذي كان من النوع المندفع، لا يميل الى قراءة التعبيرات، التي ترتسم على ملامح السامعين. أما تشاوبي فقد تعلم الكثير من فترة الأشهر الستة، بما حفلت به من تعامل مع ضروب التوتر، التي تثيرها الإقامة في بيئة أجنبية. والآن وعلى الرغم من أن بشرته كانت أشد سمرة من أن تفصح عن شيء جلي، مثل التضرج بالحمرة، فقد تردد بوضوح في مواصلة مثل هذا الحوار. ورغم ذلك فقد استمر فيه مستخدماً انجليزيته الطليقة؛ ربما لأنه أراد أن يبدو حديثه بعيداً عن السذاجة:

ـ عندما كنت وكرى طفلين، اعتدنا أن نسمع أقاصيص شتى من «جاتاكا سوترا». وكانت مربياتنا تحكي لنا كيف أن بوذا اجتاز عمليات بعث عديدة، بينما كان لا يزال بوذيساتق[1] في صورة تم ذهبي، طائر

(١) بوذيساتق: سبق لنا أن فصّلنا القول، فيما يتعلق بالبوذيساتق، في شروحنا على هوامش كتاب أنطوني يو، الموسوم «مقدمة الهس ـ يوتشي». ولا سبيل لفهم هذا المفهوم الدقيق في الفكر البوذي، إلا من خلال ما يسمى بـ «المثال الأعلى للبوذيساتق». وبأبسط المعاني، يمكن القول بأن المقدمة الجوهرية لهذا المثال هي ضرورة أن تتم، في نفس المرء، عملية توليد لفكرة الاستنارة، وحتمية الوفاء بالتعهد، بأن يغدو المرء هو نفسه بوذا، متخلياً عن الدخول الى النيرڤانا، ليظل في العالم، طالما أن هناك مخلوقات يتعين إنقاذها من المعاناة. وبهذا يبدأ السائر في =

سمان، قرد، أيل كبير، وما الى ذلك. هكذا رحنا نخمن قبل قليل ما كان يمكن أن نكون عليه، في حيواتنا السابقة. غير أنني أخشى أننا لم نتفق على الاطلاق؛ فقد ذهب الى القول بأنه كان غزالاً، وأنني كنت قرداً، وأصررت أنا على أن الأمر كان على العكس من ذلك تماماً، فقد كان هو قرداً، بينما كنت أنا غزالاً. ولكن ما قولكما في هذا؟ سنترك الحكم لكما.

أياً كانت الطريقة التي سيردان بها، فإنهما يخاطران بمضايقة أحدهما، ولذا اكتفيا بالابتسام، آملين في أن يكون ذلك بمثابة رد كاف. ثم قال كيواكي، في ضوء رغبته في تغيير الحديث باتجاه آخر، إنه لا يعرف شيئاً عن «جاتاكا سوترا»، وتساءل عما إذا كان بمقدور الأميرين التكرم بسرد إحدى أقاصيصها عليه وهوندا.

قال تشاوبي.

ـ سيسعدنا ذلك، وهناك قصة تدور حول التم الذهبي، على سبيل المثال. وقد وقعت هذه القصة عندما كان جوتاما لا يزال بوذيساتق، خلال بعثه الثاني. وكما تعلم، فإن البوذيساتق هو شخص يسلك مختاراً طريق الزهد والمعاناة، قبل أن يلج رحاب الاستنارة الكاملة لكونه بوذا. وفي وجوده السابق كان جوتاما نفسه بوذيساتق. وضروب التقشف التي يعيشونها هي أعمال الـ «باراميتا»، أي الأعمال الطيبة، التي يقوم بها المرء حيال الآخرين، والتي من خلالها يعبر المرء من هذا المجتلى الى مجتلى الاستنارة الكاملة. ويقال إن بوذا، عندما كان بوذيساتق، قد أفاض بآلائه على

= الطريق مسيرة البوذيساتق، التي تشمل عشر مراحل أو مستويات روحية، وتطهره من خلال ممارسة عشرة ضروب للكمال، واجتياز هذه المسيرة ليسمو بالبوذيساتق الى وضعية البوذا. لاحظ أن تفسير ميشيما لهذا المفهوم، بعد سطور، مغرق في التبسيط. (هـ. م.).

البشر، وقد بعث في أشكال عديدة، وهناك أقاصيص شتى عن الأعمال الخيرة التي قام بها.

فعلى سبيل المثال، ولد بوذا، في سالف العصر والأوان، لعائلة من البراهمة، وتزوج من امرأة، تنتمي الى عائلة أخرى من البراهمة، وبعد أن أنجب منها ثلاث بنات، مات، الأمر الذي أجبر أرملته وبناته على السكن مع غرباء عنهن.

ولكن بعد موته، باعتباره من البراهمة، بعث البوذيساتق في جوف تم ذهبي، وحمل معه المعرفة التي ستجعله في وقت لاحق على تمام الوعي بوجوده السابق. وهكذا كبر البوذيساتق، فغدا تماً كبيراً، يكسوه الريش الذهبي ولا مثيل له في بهائه. وعندما كان ينساب في الماء كان يلتمع كالبدر في تمامه، وحينما يحلق عبر الغابة كانت أوراق الأشجار التي يمسها تبدو مثل سلة ذهبية، وحين يجثم على غصن كان يبدو كما لو أن الشجرة طرحت ثمرة ذهبية رائعة.

أدرك التم أنه كان في حياته السابقة رجلاً، وكذلك أن زوجته وبناته اضطررن للسكن مع غرباء، متبلغات بما يحصلن عليه من قوت، لقاء ما يستطعن العثور عليه من عمل.

قال التم لنفسه ذات يوم: إن أياً من ريشاتي يمكن أن تُطرق، فتتحول الى سبيكة من ذهب، وتباع. وهكذا سأعطي، من حين لآخر، ريشة لقريباتي، البائسات، اللاتي تركتهن يعشن مثل هذه الحياة القاسية في دنيا الرجال.

وهكذا، ظهر التم عند نافذة الدار، التي تسكنها زوجته وبناته، وعندما رأى مدى بؤس حالهن، غلبه الإشفاق.

وفي غضون ذلك، ذهلت زوجته وبناته لمرأى التم المتألق، على حافة

نافذتهن. صحن: يا له من طائر جميل! من أين قدمت؟

ـ كنت يوماً زوجاً لأمكن وأباً لكن، وبعد مماتي بعثت في جوف تم ذهبي. والآن ها قد جئت لأبدِّل حياتكن البائسة، وأحيلها الى حياة تفيض بالسعادة والوفرة.

قال التم هذا، وأسقط إحدى ريشاته، وحلّق بعيداً، وفيما بعد جاء إليهن، في فترات منتظمة، وترك ريشة على النحو ذاته، وسرعان ما تحسنت حياة الأم وبناتها الثلاث كثيراً.

غير أنه في يوم من الأيام حدَّثت الأم البنات.

قالت لهن: ليس بمقدورنا الوثوق بالتم، حتى ولو كان والدكن حقاً. من يدري، ألا يمكن أن يكف عن المجيء ذات يوم؟ لذا فحينما يجيء في المرة المقبلة سننزع ريشه بأسره.

قالت البنات، معترضات على هذا أشد الاعتراض: أماه، ما أشد هذه القسوة!

ورغم ذلك، ففي المرة التالية، التي ظهر فيها التم في النافذة انقضت عليه المرأة الطمّاعة وأمسكته بكلتا يديها، وانتزعت ريشه بأسره، ولكن كل ريشة ذهبية تحولت، ويا للغرابة، الى ريشة بيضاء، كأنها ريشة مالك الحزين، فيما هي تنتزعها. ودون أن ترعوى الزوجة السابقة، أمسكت بالتم العاجز، ودفعت به الى قفص كبير، فارغ، فيما هي تنتظر، في استخذاء، نمو الريش الذهبي، من جديد. ولكن عندما ظهر الريش كان ريشاً أبيض عادياً، وعندما اكتمل نمو ريشه حلّق مبتعداً، وتضاءل شبحه أكثر فأكثر في صفحة السماء، الى أن غدا نقطة بيضاء ضائعة في السحب، لا تقع عليها العين. تلك كانت إحدى أقاصيص الـ «جاتاكا سوترا» التي اعتادت مربياتنا سردها على مسامعنا.

دهش هوندا وكيواكي إذ وجدا أن العديد من الحكايات الخرافية، التي رويت لهما، تماثل الى حد كبير القصة التي رواها الأمير، ثم انعطف الحوار الى التناسخ ذاته وما إذا كان معقولاً كمذهب من عدمه.

ولما كان كيواكي وهوندا لم يسبق لهما من قبل قط الحديث عن أمر كهذا، فمن الطبيعي أنهما أحسا بالحيرة والاضطراب. تطلع كيواكي الى هوندا وفي عينيه نظرة مفعمة بالتساؤل. فعلى الرغم من عناده، إلا أنه يبدأ على الدوام في الشرود، عندما تجري مناقشات مجردة. وقد استحثت نظرته الآن هوندا على القيام بشيء ما، كأنما كان يخزه بمناخس فضية في خفة.

شرع هوندا في الحديث، وقد شف صوته عن شغف مؤكد:

ـ لو كان هناك شيء من قبيل التناسخ لحبّذته الى أبعد حد، إذا كان من النوع الموجود في قصتك، حيث الرجل نفسه يدرك وجوده السابق، ولكن لو أن الأمر كان أمر انقطاع شخصية إنسان وضياع وعيه بذاته، بحيث لا يعود هناك أثر لهما في حياته المقبلة، ولو أن شخصية جديدة تماماً ووعياً مختلفاً كلية بالذات قد وجدا، في تلك الحالة، أعتقد أن عمليات التناسخ المختلفة الممتدة عبر فترة من الزمن ليست مرتبطة إحداها بالأخرى بشكل له مغزاه أكثر من حيوات كل الأفراد، الذين يتصادف وجودهم على قيد الحياة، في اللحظة عينها. وبتعبير آخر، فإنني أحس بأنه في مثل هذه الحالة فإن مفهوم التناسخ سيكون بلا معنى، على الصعيد العملي. ينبغي أن يكون هناك شيء يجري تمريره في غمار عملية التناسخ، ولكني لا أفهم كيف يمكننا أن نأخذ أي عدد من الحيوات المنفصلة والمتميزة والتي لكل منها وعيها بذاتها ونصنفها معاً باعتبارها حياة واحدة، زاعمين أن وعياً واحداً يوحدها. ونحن حالياً لا يتذكر كل منا حتى حياة واحدة سابقة. وهكذا، من الواضح أنه سيكون من العبث أن نحاول تقديم أي دليل على التناسخ. وهناك طريقة واحدة يمكن من خلالها البرهنة عليه: وهي أن

تتمتـع بوعي ذاتي بـالغ الاستقـلال الى حد أن هـذا الوعي يمكنـه أن يقف مستقلاً عن كل من هذه الحياة والحيـوات السابقـة، وينظر إليهـا على نحـو موضوعي. ولكن الحال هو أن وعي كل إنسان قاصر على ماضٍ أو حاضر أو مستقبـل تلك الحياة الـواحدة. وفي غـمار عجاج التـاريخ، يبني كـل منا مـلاذه الخـاص الصغـير المؤلف من الـوعي الـذاتي، ولا نستـطيـع قط أن نفارقه. ويبدو أن البوذية تشق طريقـاً وسطاً، لكن الشكـوك تخالجني: هـل هذا الطريق الوسط مفهوم عضوي يملك الانسان إدراكه؟

«ولكن لنعد إلى الوراء قليلاً... لو أننا سلمنا بأن كل المفاهيم الإنسانيـة هي محض أوهام، فإنك لكي تميز بين الأوهام المختلفة الناجمـة عن عمليات بعث سابقة والأوهام الخاصة بالبعث الحالي لتلك الحياة ذاتها، يتعين عليك أن تكون قادراً على مراقبتهـا جميعها، من منـطلق مستقل تمـام الاستقلال، فعندما يتنحى المرء جانباً، على هذا النحو فحسب، تتجلى حقيقة التناسخ. ولكن عندما يكـون المرء نفسـه في غمار وجـود بعث حياً، فـإن الأمر بـأسره سيـظل حتماً لغـزاً أبديـاً. فضلاً عن ذلـك، فبما أن هـذا المنـطلق المستقـل يحتمل أنه ما يدعي بالاستنارة الكاملة، فوحدة الانسان الـذي تجاوز البعث يمكنه إدراك حقيقته. ألا يعني هذا إذن أننا سنكون بإزاء حـالة قـوامها فهم الأمـر في نهاية المـطاف في وقت لم تعد لهـذا الفهم جدوى؟ هنـاك وفرة من المـوت في حيواتنـا. ونحن لا نفتقر قط الى مـا يذكـرنـا بهـذا: الجنـازات، المقابر، باقات الأزهـار التذكـارية الـذابلة، الذكـريات عن المـوتى، وفيات الأصـدقاء، ثم تـوقع مـوتنا. من يـدري؟ ربما كـان المـوتى عـلى طـريقتهم الخاصة يهتمون بالحياة كثيراً. ربما يتطلعون على الدوام باتجـاهنا من أرضهم ـ الى كل منا نحن الذين عدنا واحداً إثر الآخر من رحـاب الموت الى أرض الأحياء.

«ما أريد قوله هو أن التناسخ ربما لا يعدو أن يكون مفهوماً يقلب الـطريقة

التي عادة ما ننظر بها نحن معشر الأحياء الى الموت، مفهوم يعبر عن الحياة منظوراً إليها من وجهة نظر الموتى. أتفهمون ما أعني؟

رد تشاوبي. ، في هدوء:

- ولكن كيف يتأتى أن أفكاراً ومثلاً معينة تنقل الى الدنيا بعد موت إنسان ما؟

- تلك مشكلة أخرى مختلفة عن التناسخ!

قالها هوندا مؤكداً، وقد وشّى صوته بمسحة من نفاد صبر، عادة ما يتعرض له الشباب من ذوي الألمعية.

تساءل تشاوبي. ، بالصوت الرقيق ذاته:

- لماذا تختلف؟ يبدو أنك على استعداد للإقرار بأن المعنى عينه للوعي الذاتي قد يتلبس أجساماً مختلفة، بصورة متوالية، على امتداد فترة من الزمن. فلماذا تعترض إذن بمثل هذه القوة على المعاني المختلفة للوعي الذاتي إذ تتلبس الجسم ذاته على امتداد الفترة نفسها؟

- الجسم نفسه لقط ولكائن بشري، وفقاً لما سبق لك أن قلته، فالمسألة تتعلق بالصيرورة إلى إنسان، ثم، سمان، غزال، وهلمّ جرّا.

- نعم، الجسم نفسه، بحسب مبدأ التناسخ، حتى على الرغم من أن اللحم نفسه قد يختلف، وطالما أن الوهم نفسه مستمر، فليست هناك صعوبة في أن نطلق عليه الجسم نفسه. غير أنه، بدلاً من القيام بذلك، ربما كان من الأفضل أن نسميه بالتيار الحيوي عينه.

«لقد فقدت خاتمي الزمردي ذلك، الذي كان كنزاً من الذكريات بالنسبة لي. لم يكن شيئاً حياً بالطبع، وبالتالي فلن يولد من جديد. ولكن مع ذلك، فإن فقدان شيء ما هو أمر له أهميته ومغزاه، وأعتقد أن الفقدان هو المصدر

الضروري لتجلّ جديد. وربما أرى، ذات ليلة، خاتمي نجمة خضراء تأتلق، في موضع ما من السماء.

فجأة، تخلى الأمير عن مناقشة هذه المسألة، وقد غلبه الحزن، على ما يبدو.

رد كريد سادا، بسذاجة بالغة:

- تشاوبي.، ربما كان الخاتم شيئاً حياً بالفعل، تعرَّض لتحول خفي، ثم انطلق عدواً على قدميه.

قال تشاوبي.، وقد بدا الآن مستغرقاً تماماً في التفكير في حبيبته:

- ثم، في تحول جديد كامل قد يبعث في هيئة مخلوق جميل، مثل الأميرة تشان. إنهم يواصلون القول لي في رسائلهم بأنها على ما يرام. ولكن لم لا تكتب لي هي بنفسها؟ ربما كانوا جميعاً يحاولون حمايتي من شيء ما.

في غضون ذلك، تجاهل هوندا كلمات الأمير الأخيرة، حيث غرق تماماً في التفكر في اللغز الذي طرحه هذا الأخير، قبل دقائق قلائل. من المؤكد أن بمقدور المرء التفكير في الانسان لا باعتباره جسماً، وإنما بحسبانه تياراً حيوياً واحداً. ومن شأن هذا أن يسمح للمرء بإدراك مفهوم الوجود باعتباره شيئاً حركياً ومستمراً أكثر منه شيئاً جامداً وساكناً. وعلى نحو ما قال تماماً فليس هناك فارق بين وعي مفرد، له تيارات حيوية مختلفة، على التوالي، وبين تيار حيوي مفرد، يحرك ضروباً مختلفة من الوعي، بالتتابع. ذلك أن الحياة والوعي الذاتي سيندمجان في كل واحد. ولو أن المرء قدَّر استقرائياً هذه النظرية الخاصة بوحدة الحياة والوعي الذاتي، فإن بحر الحياة بأسره بلا نهائية تياراته - عملية تناسخ الأرواح الهالة التي تدعى في السنسكريتية

بـ «السمسارة»[1] ـ سيمتلك ناصيتها وعي واحد.

بينما هوندا يرتب أفكاره، ازداد الظلام المخيم على الشاطىء، واستغرق كيواكي في بناء معبد من الرمال، مع كريد سادا. لم تستجب الرمال لعملية إقامة الأبراج العالية مستدقة الأطراف، وأركان الأسقف الملتوية الى أعلى التي تميز المعابد السيامية. ومع ذلك فقد أضاف كريد سادا بمهارة الرمال المبللة بالماء وأقام منها قمماً رشيقة، وبنى في حذق أطراف السقف، كأنما هو يعكف على اجتذاب أصابع امرأة خمرية، دقيقة، من ردنها. وللحظة تنثني، في الهواء، ثم بمجرد أن تجف تلتوي الأصابع الرملية السمراء، في تشنج، تتداعى، وتنهار.

توقف هوندا وتشاوبي. عن الحديث، ليرقبا الآخرين، وهما يلهوان بالرمل، في مرح كمرح الأطفال. كان معبدهما بحاجة الى المصابيح. وراحت سدى كل العناية، التي كرّساها للتفاصيل البديعة للواجهة وللنوافذ السامقة، فقد أحال الظلام المعبد بالفعل الى شكل خارجي مظلم في مواجهة الزبد الأبيض، الذي يتوج هامات الأمواج المتكسرة على الشاطىء، الأمر الذي بدا أنه يعكس ما بقي من ضوء متذبذب، تماماً مثلما تتبدى التألقات الأخيرة للحياة في عيني انسان يحتضر.

---

(١) السمسارة: وفقاً لكتاب «الأوباساد» البوذي، فإن السمسارة معناها الحرفي عودة الروح، فبعد أن تنال الروح نصيبها من النار، أو من النعيم، لا تستقر هناك، وإنما تولد من جديد، وتظل كذلك مراراً، حتى تعرف حقيقتها، فتنفرد بذاتها لإلهها، وتتخلص من مسؤولياتها الدنيوية، وتعود الى ربها، في عالم البهجة والسعادة. وسبق لنا أن أشرنا في المقدمة، فإن هذا الحوار بين الزملاء الأربعة ليس مجرد استطراد آخر من استطرادات ميشيما العديدة. وإنما تلك هي المناسبة الأولى، في المتن، التي يشير فيها ميشيما الى صلب الإطار الفكري والمفاهيمي، الذي قامت عليه رباعية «بحر الخصب» بأسرها. (هـ. م.).

امتلأت السماء، التي تظلهم، دون أن يلاحظوا ذلك، بالنجوم التي هيمن عليها ألق درب التبانة. لم يكن هوندا يعرف الكثير عن النجوم، ولكن حتى هو كان بمقدوره تمييز «العذراء النساجة» وحبيبها «الفتى الراعي» اللذين يفصلهما المسار العريض لدرب التبانة، وكذلك «صليب الشمال» و «مجموعة التم» التي مدت جناحيها الهائلين محلقة خلال وساطتها بين الحبيبين.

بدا أن هدير الأمواج قد زاد عتواً، عما كان عليه خلال النهار. كان كل من الشاطىء والماء جزءاً من عالمه الخاص، خلال النهار. أما الآن فقد بدا أنهما امتزجا تحت جنح الظلام. وفتن التناثر الذي لا يصدق للنجوم، في الأعالي، الشبان الأربعة، فأن تحيط بهم مثل هذه القوة الهائلة الجليلة كان مثل عزلهم في «كوتو»[1] هائل الحجم.

حقاً، كان الأمر كذلك، على وجه الدقة. كانوا مثل أربع حبات من الرمال، شقت طريقها على نحو ما الى قاعدة الكوتو، عالم هائل من الظلمة، وفي الخارج غمر النور كل شيء. وفوقهم شُدَّ ثلاثة عشرة وتراً من طرف الى آخر، وراحت أصابع من بياض، تسمو فوق الكلمات تمس الأوتار، جاعلة الحياة تدب في الكوتو فيصدر موسيقى شامخة وقوراً نابعة من الأمراء، وتهز تموجاته حبات الرمل الأربع القابعة في داخله.

هبّ نسيم من البحر، الذي كساه الليل. جعل عبق المدى الملحي ورائحة أعشاب البحر الملقاة على الشاطىء أجسامهم تختلج بالانفعال، وقد تعرضت متجردة من معظم الثياب لهواء الليل البارد. التفَّ نسيم البحر،

---

(١) كوتو: من أبرز الآلات الموسيقية اليابانية، الوترية، الكلاسيكية، ويجد القارىء وصفاً تفصيلياً له في مجلد «التاريخ السري لأمير موساشي» لجو نتشيرو تانيزاكي، من ترجمتنا، وإصدار دار «الآداب»، أيضاً. (هـ. م.).

المثقل برائحة الملح، على لحمهم العاري، ولكنه جعلهم يتوقدون، بدلاً من أن يبعث الرعدة في أجسامهم.

قال كيواكي، فجأة:

ـ طيب، حان وقت العودة.

كان المقصود بذلك، بالطبع، تذكيرهم بأن وقت الاستعداد لتناول طعام العشاء قد حان. غير أن هوندا كان يعرف أن ذهن كيواكي إنما تركز على رحيل القطار الأخير الى طوكيو.

- ٣٤ -

قام كيواكي برحلات سرية مرة، على الأقل، كل ثلاثة أيام. ولدى عودته، كان يفضي الى هوندا بكل تفاصيل ما وقع. فقد أجَّل آل توينومايا حفل الخطبة، ولكن هذا لم يعن بحال وجود أي عقبة يقيّد بها، تقف في طريق زواج الأمير الشاب من ساتوكو. وفي حقيقة الأمر، أنها غالباً ما كانت تُدعى لزيارةدارهم، وبدأ والد الأمير، سموه الامبراطوري بذاته، في معاملتها بمزيد من الود.

لم يرض كيواكي بالمرة عن الوضع الراهن. والآن مضى يفكر في إحضار ساتوكو الى كاماكورا لقضاء الليل في الدارة، وسأل هوندا عما إذا كانت لديه أية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها تنفيذ مثل هذه الخطة الخطرة. ولكن أكثر ألوان التفكير سطحية في الأمر طرح صعوبة خطرة وراء الأخرى.

ذات ليلة حارة، متقدة، وفيما كيواكي مسلم نفسه لنوم أتاه طوعاً، بدأ حلم يتراءى له. كان مخالفاً لتجاربه السابقة تماماً. فإذا تقدم المرء متعثراً في المياه الضحلة للحلم، متموضعاً حيث الماء فاتر ومليء بكل أنواع الحطام الطافي، الذي أقبل من مياه أكثر عمقاً ليتراكم مع حطام البر، في كومة متشابكة، فإن المرء يغدو عرضة لأن تصاب قدمه.

كان كيواكي يقف، في منتصف طريق، يشق حقولاً مترامية. ولسبب ما كان يرتدي كيمونو أبيض، من القطن، وهاكاما تتناسب معه، رداء لم

يسبق له أن ارتداه من قبل قط، وكان مسلحاً ببندقية صيد. كانت الأرض من حوله ريفاً ممتداً، لكنها لم تكن أرضاً مهجورة. وكان بمقدوره أن يلمح مجموعة من الدور الريفية أمامه، ومرَّ به شخص يستقل دراجة منطلقاً على الطريق. تخلل ضوء كاب المشهد بكامله، لم تزد الاضاءة عما تتيحه اللمسات الأخيرة من ضوء النهار، وبدت منتشرة للغاية حتى ليمكن في يسر أن تكون قد نبعت من الأرض، وليس من السماء؛ فقد كان العشب في الحقول المترامية يصدر وهج أخضر عن جذوره ذاتها، ويحمم الدراجة في ألق فضي شاحب فيما هي تحتجب في البعيد. تطلَّع الى الأرض، فرأى أنه سيرى نعليه وعروق قدميه، العاريتين تبرز بوضوح متألق بالغ الغرابة.

في تلك اللحظة، إحتجب الضوء، ولاح رف هائل من الطيور في السماء، وعندما بلغت الطيور نقطة فوق رأسه مفعمة الهواء بصيحات صاكة، صوَّب بندقيته الى أعلى، وضغط على الزناد. لم يطلق النهار عمداً، وإنما كان الأمر بالأحرى أن غضباً لا يسبر له غور تملَّك ناصيته، ممزوجاً بالأسى، فأطلق النار، مستهدفاً عين السماء الزرقاء الهائلة ذاتها، لا الطيور.

هوى رف الطيور بأسره نحو الأرض كتلة واحدة، إعصاراً من الصرخات والدم، وصل السماء بالأرض، هوى عدد لا حصر له من الطيور الصارخة، ودمها يشخب، في دفق لا ينتهي، وتجمع في عمود واحد، غليظ شكَّل قمع الإعصار، ولم يتراخ شلال الدم والحنق قط.

فيما هو يرقب هذا المشهد، تجمدت الدوامة، فجأة، أمام عينيه، وغدت شجرة عملاقة، تمتد الى عنان السماء. كان لونها في لون الصدأ الموحش، وقد تجرّد من الأوراق أو الأغصان. وبمجرد تشكّل هذه الشجرة الساحقة وانتهاء الصراخ، انتشر الضوء الكابي عينه، الذي كان ينير الحقول، قبل

هبوب العاصفة، فوقها من جديد. وظهرت على الطريق دراجة فضية جديدة، دونما راكب، وشقت طريقها، على نحو مضطرب نحوه.

ساوره شعور بالفخر؛ لكونه من أزال العقبة التي كانت تعترض سبيل ضياء الشمس.

ولكنه رأى، عندئذ، في البعيد، جمعاً في الطريق يدنو منه، وقد ارتدى الجميع فيه ملابس بيضاء، مثله تماماً. ومضوا في تقدمهم الوقور المحسوب على بعد أمتار منهم، فرأى أن كلًّا منهم يحمل غصناً من أغصان الساكاكي، في يده.

أشاروا بأغصانهم تجاهه، فبدأ يلوِّح لهم، على نحو ما هو متبع في أداء طقس الطهارة، وتردد في مسامعه بوضوح حفيف أوراق الأغصان. وفيما هم يقومون بذلك، بوغت بالتعرف على محيا تابعه السابق إينوما، في وسطهم. وتحدث إينوما بنفسه إليه:

ـ أنت مهمل وعنيد. وقد برهنت على ذلك بما يتجاوز كل تساؤل.

أحنى رأسه، متطلعاً الى صدره، عندما تحدث إينوما. كانت قلادة من أحجار على شكل هلال كستنائية، قاتمة، وأرجوانية اللون، تتدلى من رقبته. كانت الأحجار باردة، وفيما لامست جلده، بعثت الرعدة في جسمه بأسره، أحس بصدره كما لو كان صخرة مسطحة، ثقيلة.

ثم أشار الجمع المكتسي بالبياض الى الشجرة، وعندما تطلع إليها، رأى أن الجذع الهائل، المؤلف من الطيور الميتة، قد غطته الفروع الآن، وكلها مكسوة بأوراق خضراء لامعة. كانت الشجرة بأسرها خضرة تضج بالحيوية، وصولاً الى أدنى فروعها من الأرض.

وعندئذ، استيقظ من منامه.

لما كان الحلم بالغ الغرابة؛ فقد مدَّ يده ليفتح مذكرات أحلامه، التي

كان قد أهملها منذ بعض الوقت. وشرع في الكتابة، محاولاً تسجيل الوقائع، بأقصى ما يمكن من الدقة والموضوعية. غير أنه حتى الآن وبعد أن استيقظ مزَّقته ضراوة الحلم ونزعته العدائية. وأحس كما لو كان قد عاد لتوه من معركة.

تمثلت المعضلة، التي واجهت كيواكي، في الكيفية التي يمكنه بها إحضار ساتوكو من طوكيو، في قلب الليل، وإعادتها الى بيتها، عند الفجر، مرة أخرى. لم تكن العربة التي تجرها الجياد لتجدي نفعاً، والشيء عينه ينطبق على القطار. ولا موضع للحديث عن استخدام عربة ريكشو. كان عليه بشكل ما أن يستخدم سيارة ذات محرك.

من الجلي أنها لا يمكن أن تكون سيارة يملكها أحد ممن يعرفون آل ماتسوجاي. والأهم من ذلك أنه ينبغي استبعاد جميع من يدورون في فلك آل أياكورا. وينبغي أن يقود السيارة شخص يجهل تمام الجهل الموقف، ومن هم ضالعون فيه.

كانت مساحة الدارة كبيرة بما فيه الكفاية، ولكن لا يزال من المتعين اتخاذ الترتيبات الاحترازية لتجنب لقاء بالمصادفة بين ساتوكو والأميرين السياميين. فلم تكن لدى كيواكي وهوندا فكرة عما إذا كان الأميران يدركان ظروف خطبة ساتوكو من عدمها، وحتى إذا لم يدركا هذه الظروف، فإن اللقاء من شأنه ألا يفضي إلا الى كارثة.

ودون أدنى تجربة في هذا اللون من الأمور، كان على هوندا أن يشق طريقه، خلال الصعوبات على نحو ما؛ ذلك أنه وعد كيواكي بأن ساتوكو ستتمكن من ترك طوكيو والعودة إليها بسلام.

عندما شرع في تقدير جوانب المعضلة، فكَّر في صديق من أصدقائه، يدعى إتسوي، هو الابن الأكبر لعائلة تجارية ثرية. ولما كان إتسوي هو

الوحيد في صفه الدراسي في مدرسة النبلاء الذي يمتلك عربة خاصة به، يستخدمها كما يشاء ويهوى، فإن هوندا لم يجد أمامه خياراً إلا المضي إلى طوكيو لزيارته في كوجيماتشي، ومطالبته بإعارته السيارة الفورد، والسائق لليلة واحدة.

ذهل إتسوي، الذي كان يتمتع بمستوى معيش رفيع، وواصلت مسيرته الدراسية في مدرسة النبلاء الاندفاع نحو الأراضي الضحلة المياه حيث حطام السفن؛ إذ يجيء إليه عبقري الصف الدراسي الذي كان معروفاً باعتداله وانضباطه، فضلاً عن ذلك، طالباً مثل هذا الطلب! غير أنه عندما تمالك نفسه قليلاً، قرر أن يحقق أقصى استفادة من هذه الفرصة، وهكذا قال بصلف، لا يتجاوز ما يليق بالمقام، إنه إذا حدَّثه هوندا بأمانة عما يريد السيارة من أجله، فإنه قد يكون على استعداد لإعارته إياها.

لدى سماعه ذلك، بدأ هوندا في الحديث متلعثماً في إدلائه بالاعتراف الذي اختلقه ليبتلعه إتسوى الجلف، وفيما هو يقوم بذلك، ساوره شعور سار وغير مألوف. وقد أثار هذا الشعور فيه ما رآه مرتسماً على ملامح إتسوى من تعبير منتش يحمل التصديق التام، ومن الواضح أنه حمل تعثر هوندا في الحديث لا على أنه مؤشر الى أن ما يقوله كذب صراح، وإنما على أنه شهادة ناطقة بشعور زميله الحاد بالخجل.

ربما يكون من الصعب إقناع رجل ما، عن طريق الحجة المنطقية، بينما يسهل استدراجه بإبداء العاطفة، وقد شعر هوندا بأنه إزاء أمر مسل، لكن شعوره هذا شابه إحساس بالتقزز. وراح يتساءل عما إذا لم يكن كيواكي قد استغله على النحو ذاته الذي يستغل هو به إتسوى.

ـ طيب، لقد تبين أنك من طراز يختلف تماماً عما تخيلته. لم يخطر لي قط

على بال أنني سأرى هذا الجانب منك. لكنك لا تزال كتوماً. ألا تـذكر لي اسمها على الأقل؟

ـ فوساكو.

قالها هوندا بعفوية، طارحاً إسم ابنة عمه الثانية التي لم يرها منذ أشهر.

قال إتسوى محنياً رأسه في إجلال ساخر قصد به مقصد الجد مع ذلك:

ـ فهمت. سيقدم ماتسوجاى المكان لقضاء الليلة، وعليَّ تقديم السيارة. وبالمقابـل، عندمـا يحين أوان الامتحـانات ستتـذكر إتسـوى العنيد. أليس كذلك؟

التمع بريق المودة في عينيه. على الرغم من عبقرية هوندا الذهنية، فـإن إتسوى يحس الآن بأنه يقف على قدم المساواة معه في العديـد من الجوانب، بدت له وجهة نظره المفتقرة للخيال في الطبيعة الانسانية مبررة تماماً.

ـ الناس، في نهاية المطاف، سواسية.

قالها إتسوى، مختصراً الأمر، وصوته يعبر عن حقيقة شعوره بالتوحد مع الدنيا، وهو على وجه الدقة ما يمثـل الحالـة الذهنيـة التي التزم هـوندا منـذ البداية دفعه إليها.

وهكـذا، وبفضل كيـواكي، أمكن لهونـدا أن يتوقـع، في القـريب، أن يتمتع بسمعة رومانسية يحسده عليها أي شاب في التاسعة عشرة من عمره. وخلاصة القول إن الصفقة سيستفيد منها جميعهم: وكيواكي وهوندا وإتسوى كذلك.

كانت سيارة إتسوى من طراز فورد ١٩١٢، أي أحدث طراز. وهي من السيـارات القلائـل المـزودة ببـادىء تشغيـل تلقـائي، أي ذلـك الاخـتراع الحـديث، الذي أزاح المضـايقـة المتمثلة في اضـطرار من يقـود السيـارة الى

الترجل منها في كل مرة تتوقف فيها. كانت من الطراز الذي يحمل الحرف «تي»، لها ناقل سرعات مزدوج، مطلية باللون الأسود معه خط قرمزي حول الأبواب. وكان مقعد السائق مفتوحاً، والمقعد الخلفي مغلقاً، وهو وضع بدا أنه يحتفظ بجانب من أجواء العربة التي تجرها الجياد. وكان أنبوب لنقل التعليمات يمتد من المقعد الخلفي الى جهاز يشبه النفير قرب مقعد السائق. وثبت حامل في السقف ليحتوي الأمتعة الى جوار دولاب احتياطي. وبدا أن السيارة قادرة على القيام برحلة طويلة.

كان السائق، موري، حوذي عربة آل إتسوى التي تجرها الجياد، وقد تعلم حرفته الجديدة على يد معلم حاذق. وقد رتب مصاحبة الرجل له الى مخفر الشرطة للحصول على رخصة قيادته. وفي كل مرة كان موري يواجه سؤالاً عسيراً في الامتحان التحريري كان يمضي إلى البهو لاستشارة معلمه ويعود الى غرفة الامتحان لمواصلة مهمته.

مضى هوندا الى دار آل إتسوى، في وقت متأخر من إحدى الليالي، لاستعارة السيارة. ولإخفاء كل ما يتعلق بساتوكو عن موري بقدر الامكان، جعله يتوقف بالسيارة قرب نزل الضباط حيث انتظرا الى أن لاحت ساتوكو وتاديشينا وفقاً للخطة الموضوعة، حيث وصلتا في عربة ريكشو دون أن يلحظهما أحد. كان كيواكي يأمل في ألا تقوم تاديشينا بالرحلة إلى كاماكور، ولكنها لم يكن بمقدورها الحضور حتى ولو رغبت في ذلك، فقد كان عليها البقاء في الدار والتظاهر بأن ساتوكو أمضت الليلة غارقة في النوم بغرفتها، وهي مهمة لها أولوية قصوى. نمت ملامحها عن شعورها بالقلق. وراحت تحذر ساتوكو مطولاً، قبل أن تعهد بها أخيراً الى هوندا.

همس في أذنها:

ـ سأدعوك، أمام السائق، باسم فوساكو.

أدار موري السيارة الفورد بصوت صاخب، بدد صمت منتصف الليل، في الحي السكني.

أدهش هدوء ساتوكو ورباطة جأشها هوندا، وكانت ترتدي ملابس غربية، ويبدا أن الرداء الأبيض الذي اختارته، يضفي المزيد على هالة الحزم الهادىء التي تلفّها.

كان السفر في جوف الليل، على هذا النحو، بصحبة امرأة تمت الى صديق، تجربة غريبة بالنسبة لهوندا. جلس في السيارة ساكناً فيما هي تمضي متقافزة على الطريق الوعر، وقد تجسدت الصداقة في شخصه، فيما لفه شذى عطر ساتوكو في الليل الصيفي.

إنها تنتمي الى رجل آخر، وفضلاً عن ذلك، فإن أنوثتها ذاتها بدت وكأنها تسخر منه، وجعلته الثقة التي لم يسبق لها مثيل التي محضه كيواكي إياها يدرك على نحو أكثر حدة من قبل السم الفاتر، المراوغ، الذي يتخلل علاقتهما. كان ازدراء صديقه وثقته مرتبطين على نحو وثيق كأنهما قفاز جلدي بديع واليد التي دست فيه. ولكن كيواكي أحاطت به هالة جعلت هوندا يسامحه.

الطريقة الوحيدة للتصدي لازدراء من هذا النوع هي التشبث بالايمان بنبله، وهذا هو ما اجترحه باعتدال، وليس بالنزعة التقليدية العمياء التي يتمسك بها العديد من الشبان. وقد عنى ذلك أنه لن يحرن أن ينظر الى نفسه باعتباره كائناً قبيحاً وبشعاً، مثلما حدث لإينوما، ذلك أنه لو حدث هذا لما كان أمامه بديل إلا أن يغدو عبداً لكيواكي.

وعلى الرغم من أن النسيم، الذي يهب عبر النافذة، قد هدّل شعر ساتوكو، على نحو طبيعي، فقد ظلت محتفظة باتزانها ورباطة جأشها طوال

الرحلة. وكان اسم كيواكي قد أصبح نوعاً من الكلمـة المحرمـة بينهما، من تلقاء ذاته، وتحول اسم فوساكو الى إسم خيالي للتدليل.

كانت رحلة العودة مختلفة تماماً، فقد قالت، بعد أن غادرا الدارة:

ـ آه، هناك شيء نسيت إبلاغه لكيو.

ولكنهما إن عادا أدراجهما، فلن يكون هناك أمل في بلوغهما الدارة، قبـل انبلاج فجر الصيف المبكر.

تساءل هوندا:

ـ هل أستطيع إبلاغه به نيابة عنك؟

ترددت ساتوكو، ثم بدا أنها حزمت أمرها، وأبلغته بالرسالة.

ـ طيب. أبلغـه بهذا، لـطفاً: تحـدثت تاديشينـا مع يـامادا، وكيـل آل مـاتسوجـاي، منـذ بعض الـوقت، واكتشفت أن كيـو كـان يكـذب، فقـد اكتشفت أنه مزق بالفعل الرسالة التي تظاهر بأنها لا تزال لديه. ولكن... أبلغـه بألا يقلق حيـال ذلك، فقـد استسلمت تاديشينـا حيـال كـل شيء، وقالت إنها ستغض الطرف. هل لك رجاء في إبلاغ كيو بذلك؟

استـظهر هـوندا الـرسالـة فيما هي تتحـدث، ولم يطرح أيـة أسئلة حول معناها المحتجب. ومنـذ تلك اللحظة فصـاعداً، وربمـا بعد أن أثـرت فيها أخلاقه الطيبة، انحلت عقدة لسانها.

ـ قمت بهذا كله لأجل خاطره. أليس كذلك يا سيد هوندا؟ ينبغي عـلى كيو أن ينظر الى نفسه باعتباره أكثر الرجال حظاً في العالم؛ إذ يحظى بصديق مثلك. إننا معشر النساء لا أصدقاء حقيقيين لنا على الاطلاق.

كـانت عينا سـاتوكـو لا تزالان عـلى اتّقادهمـا، بتـأثـير العـاطفـة، لكن تسريحتها كانت دقيقة الاتساق، دون أن تنفـر شعرة واحـدة من موضعهـا.

وعندما لم يحر رداً، أحنت رأسها، وبعد قليل تحدثت بصوت مهموس:

ـ ولكن، يا سيد هوندا... إنني أعرف ما لا بد أنك تفكر فيه بشأني... ماذا عساي أكون إلا فاسقة؟

ـ لا تتحدثي على هذا النحو!

رد هوندا بقوة ملحوظة بهذه الكلمات. من المؤكد أنه لم يكن يفكر فيها بمثل هذا الاحتقار، ولكن، على الرغم من ذلك، فقد أصابت كلماتها منه وتراً حساساً بمحض الصدفة.

كان قد أمضى الليل دون أن يغمض له جفن ليكون موالياً لصديقه وليؤدي الواجب الذي عهد به إليه والمتمثل في إحضار ساتوكو من طوكيو وتوصيلها الى كيواكي، وها هو الآن يتولى مسؤولية إعادتها الى طوكيو. ولكن مصدر شعوره بالفخر كان يكمن في إبقائه لنفسه بعيداً عن التورط على الصعيد الانفعالي. وما كان يمكن لشيء طيب أن ينجم عن هذا الأمر. كان موقفاً خطراً، تولى المسؤولية عنه بقدر كاف بالفعل.

عندما وقف يرقب كيواكي، وهو يمسك بيد ساتوكو، ويمضي مسرعاً عبر الظلال المتناثرة في الحديقة التي أنارها سنا القمر ماضياً باتجاه الشاطىء، أحس بأنه بدوره يقترف خطيئة بمساعدتها. ولكن لئن كان ذلك خطيئة، فإنه كان أيضاً شيئاً جميلاً، صورة من الحسن لا تفتأ تعاوده، تهرب منه، وتحتجب.

قالت ساتوكو:

ـ أصبت. لا ينبغي لي الحديث على هذا النحو على الاطلاق، فليس بمقدوري التفكير فيما أتيته باعتباره شيئاً مقيتاً. لم ذاك؟ لقد اقترفت وكيواكي خطيئة رهيبة، ولكني، مع ذلك، لا أشعر بأنني تلوثت، بأي شكل من الأشكال، بل في حقيقة الأمر فإنني أشعر بأنني تطهرت. عندما

رأيت أشجار الصنوبر تلك الليلة، عرفت أنني لن أراهـا ثانيـة، مهما طـال عمـري. ولكن كل لحـظة أمضيتها هنـاك أحسست فيها بـالنقـاء البـالـغ، بحيث أنني الآن لا يساورني أي شعور بالندم حول أي شيء على الاطلاق.

حاولت، فيما هي تتحدث أن تنقل شيئاً الى هونـدا، جوهـر ما لكـل ما حدث بينها وبين حبيبـها خلال لقاءاتهما، التي أحسا بأن كلا منها هو اللقـاء الأخير. تاقت الى أن تلقى بـالحذر جـانباً وأن تحـاول جعـل هـونـدا يفهم الأمر، بإخباره كيف أنه في هذه الليلة الأخيرة، وفي رحاب مثل هذا الهدوء وفي كنف الطبيعة، حلقت مـع كيواكي الى ذرى متـألقـة، شـارفت أن تثـير الرعب. ولكن تلك التجربة كانت من نوعية التجارب التي يكاد يكون من المستحيل نقلها الى الآخـرين، شأن الموت، ومثل وهـج جوهـر، وكبهاء الغروب.

تجوّل كيواكي وساتوكو على الشـاطىء، محاولـين تجنب سنا القمـر المتألق على نحو لا يثير الارتياح. الآن، وقد انتصف الليل، لم يكن هناك أثر لحياة بشريـة على امتـداد الشاطىء المهجـور، اللهم إلا قارب صيـد جـاثم عـلى الشاطىء، ألقت مقدمته العالية ظلاً أسود على الرمل. وبسبب سنـا القمر المتألق في كافة الأرجاء بدا أن هذا الظل يتيح ظلمة باعثة على الـطمأنينـة. مست أشعة القمر سطح القارب، جاعلة ألواحه الخشبية تتألق كأنها عـظام مبيضة. وعندما أسند كيواكي كفه على جانبه، بدا أن جلده قد غدا شفـافاً في ضوء القمر.

تعانقاً، في الحال، في ظل القارب، فيما نسيم البحـر يلفهما، لم تكن قـد ارتدت الثياب الغـربية من قبـل قط، وساورهـا الآن شعور بكـراهية الألق الأبيض، الصادر عن ثوبها، وإذ نسيت بياض بشرتها، لم يعد يدور بذهنهـا إلا خاطر واحد: أن تمزق ثوبها بـأسرع ما يمكن، وتخبىء نفسهـا في رحاب الظلام.

لم يكن من المحتمل أن يراهما أحد، ولكن أشعة القمر المتشظية بلا انتهاء فوق سطح البحر كانت تحاكي ملايين العيون. مضت ساتوكو تحدق في السحب المعلقة في السماء والنجوم التي بدا أنها تأخذ بنواحي أطراف السحب. كان بمقدورها الشعور بحلمتي كيواكي الصغيرتين، الصلبتين، وهما تمسان حلمتيها، وتحتكان بهما في لهو عابث، ثم تضغطان عليهما، في آخر الأمر، مندفعتين، هبوطاً في وفرة ثدييها الناهدين.

كانت تلك لمسة أكثر حميمية من قبلة، شيئاً يشبه المداعبة العابثة التي يقوم بها حيوان في عنفوانه. حامت عذوبة حادة عند حافة وعيها. جعلتها الإلفة غير المتوقعة عندما تحتك الأطراف ذاتها، النهايات، من جسميهما بعضها بالبعض الآخر تنصرف بتفكيرها الى النجوم المتلألئة وسط السحب، على الرغم من أن عينيها كانتا مغمضتين.

من هناك، استقام الطريق مباشرة نحو نشوة في عمق البحر. ولكن حتى وهي تحس بنفسها تنحل تدريجياً لتذوب في الظلمة، شعرت بالخوف من ألا يكون هذا إلا ظلاً يستند بدوره الى قارب الصيد القابع وراءهما. لم يضطجعا في حمى بناء ركين أو هضبة صخرية، وإنما شيء وجد اتفاقاً، قد يغدو في غمار سويعات منطلقاً في عرض البحر. ألم يتصادف وجود القارب على الشاطىء في تلك اللحظة، وكان يمكن ألا يكون ظله العميق إلا شبحاً. خافت من أن قارب الصيد الهائل، العتيق هذا قد يشرع في الانزلاق في سكون عبر الرمل، ربما الآن توا، وينزلق في الماء، ويبحر نحو البعيد. ولكن تتبع ظله، لكي تظل الى الأبد في رحاب ذلك الظل ينبغي عليها، هي نفسها، أن تصبح البحر، وفي تلك اللحظة، وباندفاعة واحدة هائلة، اجترحت ذلك.

حمل كل ما يحيط بهما نذير الدمار ـ السماء التي ينيرها القمر، الماء المتألق، النسيم الذي يهب على الشاطىء الرملي ليصدر الحفيف في أشجار

الصنوبر عند حافته. وفيما وراء أدنى وهج من الزمن دوى زئير الراعد موحشا. حمل حفيف الصنوبرات رسالته. أحست ساتوكو أنها وكيواكي تحاصرهما وتراقبهما وتحرسهما روح لا تسامح ولا تصفح، تماماً كما أن قطرة البلسان التي سقطت في وعاء ماء ليس لها ما يبقي عليها إلا الماء ذاته. هذا الماء أسود، شاسع، صامت، وقطرة البلسان الوحيدة راحت تطفو في عالم من عزلة مطلقة.

تلك الـ «لا!» كانت شاملة. أتراها كانت من مخلوقات الليل أم الفجر الآخذ في الدنو؟ بدت بالنسبة لهما شيئاً يستعصي على الفهم. ولكن على الرغم من أنها حوّمت فوقهما مهددة، من لحظة الى أخرى، فإنها لم توجه ضربتها إليهما مباشرة.

جلسا منتصبين معاً، وقد نتأ رأساهما الآن من الظل وتلألأ القمر الغارق في البحر مباشرة في وجهيهما. أحست بأنه كان على نحو ما رمزاً لخطيئتهما، قبع هنالك ألآقاً ومتكاملاً، وملموساً في السماء.

كان الشاطىء لا يزال مهجوراً. نهضا ليجلبا ثيابهما، التي وضعاها في جوف القارب. راح كل منهما يحدق في الآخر، في ثمالة الظلمة التي كانت المساحة السوداء التي تلف ما دون خاصرتيهما البيضاوين اللتين أضاءهما القمر على نحو مشعّ. وعلى الرغم من أن ذلك لم يدم إلا لحظة فقد حدّقا بتركيز حاد.

عندما ارتديا ملابسهما، جلس كيواكي مدلياً بقدميه، من فوق حافة القارب.

قال:

ـ لعلك تعلمين، أننا لو نلنا مباركة الجميع، ربما ما جرؤنا قط على القيام بما أتيناه.

ـ إنك فظيع، يا كيو، هذا هو ما أردته حقاً!

ردت بها كيواكي في هجوم مدعى عليه. كانت ثرثرتهما على قدر كاف من الحميمية، لكنها كان لها مذاق مرير، على نحو لا يمكن تحديده. ساورها شعور بأن النهاية التي لا مجال لردها لسعادتها ليست بعيدة. كانت لا تزال جالسة على الرمال، محتجبة في ظل القارب. تدلت قدمه، متألقة في سنا القمر، في الهواء أمامها، فمدت يدها، وأمسكتها، وقبّلت أصابعها.

ـ أحسب أنه مما لا يستدعيه المقام أن أفضي إليك بهذا كله. ولكن ليس هناك أمر آخر بمقدوري أن أفكر، مجرد تفكير، في إخبارك به.

«إنني أعرف أنني أقوم بشيء فظيع. ولكن أرجوك لا تقل شيئاً ضده، لأنني أدرك أنه سينتهي في وقت ما. ولكن حتى ذلك الحين، فإنني أريد أن أعيش كل يوم مع إقباله، لأنه ما من شيء آخر يمكن القيام به.

تساءل هوندا، وقد عجز صوته عن إخفاء الاشفاق العميق الذي يشعر به:

ـ إذن فأنت على استعداد تام لكل ما قد يأتي؟

ـ أجل، أنا على تمام الاستعداد.

ـ أحسب أن ماتسوجاي على استعداد كذلك.

ـ ذلك هو السبب في أنه ما كان ينبغي له أن يورطك بمثل هذا العمق في مشكلاتنا.

ساورت هوندا، فجأة، رغبة لا يمكن تفسيرها في فهم هذه المرأة. كان ذلك شكله الخاص المراوغ من أشكال الانتقام، فإذا كانت تريد أن تعهد إليه بدور الصديق المتفهم للموقف حقاً، وليس بدور المؤيد المتعاطف

فحسب، إذن فلا بد من أن يكون له الحق في أن يعرف كل شيء. ولكنه كان من قبيل التحدي الهائل أن يحاول فهمها ـ هذه المرأة الرشيقة، المتدفقة حباً، التي كانت تجلس الى جانبه، وقلبها في موضع آخر. ومع ذلك، فإن إصراره على التمحيص المنطقي شرع يغلب على كل ما عداه.

ارتجت العربة كثيراً، ومالت الى إلقائهما معاً، ولكنها حمت نفسها في حذق بالغ الى حد أن ركبها لم تحتك ببعضها مجرد احتكاك، وهو إفصاح عن اليقظة ذكّره بسنجاب مستأنس، يجعل عجلة تدريبه تصدر أزيزاً، وقد ضايقه ذلك قليلاً، وحدّث نفسه بأنه لو كان كيواكي الى جوارها لما كانت على مثل هذه الدرجة من الحرص والتنبه.

تساءل، دون أن ينظر إليها:

ـ قلت لتوك إنك على استعداد لمجابهة أي شيء. أليس كذلك؟ طيب، إذن، إني لأتساءل عن الكيفية التي يتّسق بها هذا التقبل للنتائج، مع إدراك أن الأمر سينتهي يوماً ما. وعندما ينتهي ألن يكون الأوان قد فات لاتخاذ قرار فيما يتعلق بالنتائج؟ أو، إذا شئنا التعبير بشكل آخر، ألن يؤدي تقبلك للنتائج بشكل ما الى إنهاء الأمر من تلقاء ذاته؟ إنني أعرف أني أطرح عليك سؤالاً قاسياً.

ردت في هدوء:

ـ أسعدني أنك سألت.

رغماً عنه، تطلع إليها جاداً، كانت صورتها الجانبية بديعة التكوين، ولم يبد عليها ما ينم عن الشعور بالأسى. فيما كان يتطلع إليها، أغمضت عينيها فجأة، وألقت الأهداب الوطفاء لعينها اليسرى ظلاً أطول على وجنتها في الضوء الكابي المنبعث من مصباح سقف السيارة. انداحت

الأشجـار والشجيرات مسرعـة نحو البعيـد في ظلمة مـا قبـل الفجـر كـأنها سحب سوداء تموج حول السيارة.

ولآهما موري ظهره وقد انغمس تماماً في قيادة السيارة. وكـان الزجـاج الغليظ المنـزلق وراءه مـوصـداً. ومـا لم يتعمـدا تقـريب فميهـما من أنبـوب المخاطبة، لـم تكن هناك فرصة أمامه لاستراق السمع.

ـ تقول إنني من ينبغي عليها إنهاء الأمر يوماً ما، وبما أنك أقرب أصدقاء كيـو فلك الحق في أن تقـول ذلـك. إذا لم أستـطع إنهاءه والبقـاء عـلى قيـد الحياة، فليكن الموت إذن. . .

ربما أرادت أن تباغت هوندا، فتدفعه الى مقاطعتها، آمـراً إياهـا بالكف عن قـول مثل هـذه الأشياء، ولكنـه واصل صمتـه مذعنـاً، وانتظر أن تتم حديثها.

ـ . . . ولكن الأوان سيحين يوماً ما، وليس هـذا اليوم ببعيـد. وعندمـا يحين الأوان، فبمقدوري أن أعدك الآن تواً بأنني لن أتراجـع. لقد عـرفت السعادة القصوى، ولست من الشراهة بحيث أرغب في أن يستمر مـا لديّ الى الأبد. فلكل حلم نهاية. ألن يكون من الحماقة، والمرء يعلم أنه مـا من شيء يـدوم الى الأبد، أن يصر عـلى أن له الحق في القيـام بشيء يدوم أبـد الدهر؟ ليس هناك ما يـربطني بهـاته «النسـوة الجديدات». ولكن. . . لئن كان للخلود وجود فهو هذه اللحظة. وربما يقـدر لك، يـا سيد هـوندا، أن تعود فتنظر الى الأمر على هذا النحو، يوماً ما.

أخيراً، بدأ هوندا يفهم السر في أن كيواكي كانت سـاتوكـو تثير شعـوره بالرهبة، ذات يوم، على نحو فظيع.

ـ قلت إنه ليس من الصواب أن يـورطني ماتسـوجاي، في مشكـلاتكما، فلم لا؟

ـ أنت شاب كرَّس نفسه لتحقيق أهداف رفيعة الشأن، ومن الخطأ أن تتورط معنا. ليس لكيو الحق في القيام بذلك على الاطلاق.

ـ أتمنى ألا تنظري إليّ باعتبار أن لي كل هذه القداسة. من المحتمل ألا تعثري على عائلة أشد صرامة على الصعيد الأخلاقي من عائلتي، وعلى الرغم من ذلك، فقد قمت بالفعل بشيء يجعلني متواطئاً في اقتراف خطيئة.

قاطعته غاضبة:

ـ لا تقل ذلك! هذه خطيئتنا، خطيئتي وكيو. . . وليس لغيرنا شأن بها.

لقد قصدت، بالطبع، أن تبلغه بأنها تريد حمايته لا غير، لكن كلماتها اتسمت بألق فاتر، فخور، ما كان ليحتمل إقحام طرف ثالث. ففي ذهنها صاغت خطيئتهما محولة إياها الى قصر صغير، بلوري، متألق، بوسعها أن تحيا فيه معه كيواكي، متحررين من العالم المحيط بهما، قصر بلوري يبلغ من الصغر حداً يتوازن معه على راحة كف المرء، بالغ الصغر بحيث أنه ما من أحد آخر غيرهما يمكن أن يلجه. وإذ تحول للحظة قصيرة على نحو منعتق من الزمن تمكنت وكيواكي من ولوجه، والآن راحا يمضيان آخر لحظاتهما القلائل هنالك، يرقبهما بكل تفاصيلهما الدقيقة شخص يقف في الخارج مباشرة.

انحنت الى الأمام، فجأة، برأس منكس، فمدَّ يده ليسندها، فاحتكت بشعرها.

قالت، معتذرة:

ـ عفواً، لكني أحسب أنني شعرت لتوى ببعض الرمل في حذائي، رغم التزامي، الحرص. إن تاديشينا لا تقوم على الاهتمام بأمر أحذيتي، وهكذا

إذا نزعت حذائي في الدار والرمل فيه، دون أن الحظه، فإنني أخشى ما يمكن أن تردده خادمة حين تفاجأ بوجوده.

لم تكن لديه فكرة عن الطريقة، التي يتعين عليه التصرف بها، فيما امرأة تتفقد حذاءها، وهكذا أشاح بناظريه، وشرع في الإطلال من النافذة، بتركيز بالغ.

كانوا قد بلغوا مشارف طوكيو بالفعل، وتحولت السماء الليلية الى زرقة قاتمة مترعة بالحيوية. أظهر الفجر السحب المتناثرة منخفضة فوق أسطح الدور. وعلى الرغم من أنه أراد توصيلها الى الدار بأسرع ما يمكن، إلا أنه مع ذلك أحس بالأسى؛ لأن ضياء الصبح سينهي ما كان أغرب ليلة في حياته. وخلفه سمع الصوت ـ الخافت للغاية في البداية، حتى أنه حسب أنه من وحي خياله ـ الناجم عن قيام ساتوكو بإلقاء الرمل من الحذاء الذي نزعته. وبالنسبة له تردد هذا الصوت كأنه أكثر الساعات الرملية سحراً في الدنيا.

استمتع الأميران السياميان تماماً بوقتهما في دارة تشونج تان. ذات ليلة، قبيل تناول طعام العشاء، أمر الشبان الأربعة بجلب مقاعد من الأسل الهندي خارجاً، ووضعت في المرجة، ليتمتعوا بنسيم المساء البليل قبل العكوف على عشائهم. راح الأميران يثرثران بلغتهما الوطنية، فيما غرق كيواكي في خواطره، وفتح هوندا كتاباً وضعه في حجره.

ـ أتحبان أن «تعفرا» قليلاً؟

قالها كريد سارا، متسائلاً باليابانية، وقد دنا من هوندا وكيواكي، ممسكاً بعلبة من سجائر وستمنستر مذهبة الأطراف. وكان الأميران قد سارعا في التقاط «التعفير»، وهي اللفظ الذي يستخدم بدلالته العامية، في مدرسة النبلاء، للإشارة الى السجائر. وقد حظرت القواعد المعمول بها في المدرسة التدخين، لكن السلطات سمحت لطلاب الصفوف العليا بدرجة من الاسترخاء، شريطة ألا تصل الأمور بهم الى حد التدخين علناً. وهكذا، أصبحت غرفة المرجل الواقعة في الدور الأرضي ملاذاً للمدخنين، وعرفت باسم «غرفة التعفير».

وحتى الآن، وأربعتهم ينفثون دخان سجائرهم، تحت السماء الممتدة، دونما خوف من أن يرصدهم أحد، ساورهم الشعور بالمتعة المختلسة المتأرجحة، التي تلازم التدخين في «غرفة التعفير». الآن، أثرت النكهة الغنية للسجائر الانجليزية رائحة تراب الفحم، التي تملأ غرفة المرجل، والعيون التي يأتلق بياضها في العتمة، فيما زملاء صفهم الدراسي يواصلون

مراقبتهم الحذرة، والأنفاس العميقة الممتعة المترعة بالدخان، والوهج المتواتر المفعم بالقلق النابع من الأطراف الحمراء للسجائر، وهي تتوهج، وغيرها كثير من الانطباعات.

أشاح كيواكي عن الآخرين، وفيما هو يرقب الدخان ينداح بعيداً نحو السماء، رأى كيف أن تكوينات السحب المهيمنة فوق المحيط قد شرعت تنحل، وقد غامت أطرافها الواضحة واكتست بلون ذهبي شاحب. فكّر في الحال في ساتوكو، اختلطت صورتها وعرفها بالعديد من الأشياء، غير أنه لم يكن هناك تحول في الطبيعة، مهما كان ضئيلاً، لا يعيدها ملء خاطره. فإذا ما سكن النسيم فجأة وأطبق عليه طقس الصيف المسائي الحار، فإنه يحس باحتكاك عري ساتوكو بعريه. وحتى الظل الآخذ في التعمق تدريجياً الذي تلقيه على المرجة الخضرة العميقة لشجرة كان يوحي بإيماءة منها.

أما فيما يتعلق بهوندا، فإنه ما كان يمكن له قط أن يشعر بالارتياح ما لم تكن هناك كتب في متناول يده. وبين الكتب التي كانت بقربه كتاب أعاره له سراً أحد الطلاب الذين يعملون بدار عائلته، كتاب حظرت الحكومة تداوله. كان عنوانه «النزعة الطبيعية والاشتراكية الأصيلة»، وهو من تأليف شاب يدعى تيرو جيرو كينتا، كان ينظر إليه، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، باعتباره أوتو فاينينجر اليابان. غير أن الكتاب كان مبهرجاً، أكثر مما ينبغي، في طرحه لموقف متطرف، الأمر الذي أثار حذراً في ذهن هوندا الهادىء والمنطقي. لم يكن الأمر راجعاً الى أنه يكنُّ كراهية خاصة للفكر السياسي المتطرف. ولكنه إذ لم يسبق له أن أحس بالحنق هو نفسه بصورة حقيقة، فقد مال إلى النظر للغضب العنيف، عند الآخرين، باعتباره مرضاً رهيباً، معدياً. وكانت مصادفته في كتبهم شيئاً مثيراً، على الصعيد الذهني، لكن هذا النوع من اللذة كان يتركه مثقل الضمير.

ولكي يتأهب لأي مناقشات أخرى، تجري مع الأميرين السياميين،

حول التناسخ، توقف في داره، في ذلك الصباح، بعـد مرافقـة ساتـوكو في طريق العودة الى طوكيو، واستعار كتاباً من مكتبة أبيـه، هو كتـاب «موجـز الفكر البوذي» لمؤلفه تادا نوبو سايتو. وهنا للمرة الأولى صادف صورة فـاتنة للأصول المتنوعة لمبدأ الكارما[1]، وذكّر بقانون مـانو الـذي استغرق تفكـيره للغـاية في صدر الشتاء. ولكن في ذلـك الوقت كـانت طموحـاته الخـاصـة بالامتحان قد أجبرته على تأجيل المزيد من الدراسة التفصيلية لكتاب سـايتو.

وقد وضع هذا الكتاب والعديد من الكتب الأخرى مفتوحـة على ذراعي مقعـده المصنوع من الأسل الهندي، وبعـد إلقاء نـظرة على كتـاب أو آخـر منها، أطل أخيراً من رحاب الكتاب الذي كـان مفتوحـاً على حجـره، وقد ضاقت عيناه، القصـيرتا النـظر قليلاً. التفت ليلقي نـظرة على المنحـدر الحاد الذي يشكل الحد الغربي للحديقة. وعلى الرغم من أن السماء كانت لا تـزال منـيرة، فقد غـرق المنحدر في ظـل عميق وانتصبت مسـودة اجمات الشجـر والشجيرات على الهضبة في مواجهـة وهج السـماء الأشهب، غير أن الضـوء راح ينسل هنا وهناك كأنـه خيط فضي نسج في حـذق في سجادة كـان يمكن لـولاه أن تكون قـاتمة اللون. وخلف الأشجـار، بدت سـماء الغـرب كـأنها شريط من المـايكا. كـان النهـار الصيفي المتـألق لفيفة مبهـرجـة انتهت الى مساحة خالية من أي لون.

استمتع الشبان بالايماءة العذبة من الشعـور بالـذنب، التي تضفي نكهة خـاصة عـلى سجائـرهم، فيما تجمّع من البعوض ينهض متعملقـاً في أحـد أركان الحديقة التي لفها الغروب. أحسوا بالتحليق السماوي الـذهبي الذي

---

(١) مبدأ الكارما: يشير مفهوم هذا المبدأ، في أبسط معانيه، الى العاقبة الأخلاقيـة الكاملة لأعمال المرء، في طور من أطوار الوجود، بوصفها العـامل الـذي يقرر قـدر المرء، في طور تناسخي تال، وذلك بحسب التصور البوذي.

(هـ. م.)

ينبع من يوم من الاستحمام، وجلدهم لا يزال دافئاً من شمس الظهيرة. . . وعلى الرغم من أن هوندا جلس هنالك في صمت، فقد أحس بأن هذا اليوم سيُعدّ أسعد أيام شبابهم.

بدا أن الأميرين السياميين يشعران بالاغتباط، على نحو مماثل. كان من الجلي أنهما يتظاهران بأنهما لم يلحظا مغامرات كيواكي العاطفية. ومن ناحية أخرى، اختار كل من كيواكي وهوندا تجاهل انقضاضات الأميرين العابثة وسط بنات الصيادين، على امتداد الشاطىء، على الرغم من أن كيواكي حرص على أن يتبعها بمبالغ مناسبة، تدفع على سبيل التعويض لآباء الفتيات. وهكذا، انقضى الصيف في جمال متراخ، تحت العين الحارسة لبوذا الهائل، الذي صلى له الأميران كل صباح فوق قمة الهضبة.

كان كريد سادا أول من لاحظ الخادم الذي انحدر الى المرجة من الشرفة حاملاً رسالة على صفحة فضية متألقة أنفق دونما شك معظم وقت فراغه في تلميعها، مستشعراً الحزن في غضون ذلك إذ لا تتاح له إلا مناسبات قليلة لاستخدامها في الدارة بالمقارنة بالدار القائمة في شيبويا.

وثب كريد سادا للقائه، والتقط الرسالة منه، ثم عندما أدرك أنها رسالة شخصية الى تشاوبي. من أمه الملكة دواجر، مضى الى حيث كان تشاوبي. جالساً، وقدمها له مبتهجاً، وقد بدا ممتلئاً بالحيوية، التي أثارها فيه اهتمامه بالأمر.

لاحظ كيواكي وهوندا بالطبع هذا الفاصل التمثيلي الثانوي، لكنهما كبحا جماح فضولهما، وانتظرا قدوم الأميرين إليهما في إندفاعة عارمة من السعادة الممزوجة بالحنين. وفيما استلم تشاوبي. الرسالة السميكة من غلافها، سمعا خشخشة الورق، وتألقت الورقة البيضاء كأنها التماعة ريش سهم ينطلق في الظلام. وقفا، فجأة، محدقين في تشاوبي. الذي صدرت عنه صيحة مترعة بالمعاناة، وانهار مغشياً عليه.

وقف كريد سادا محدقاً لأسفل نحو ابن عمه، والدهشة مرتسمة على محياه، فيما اندفع كيواكي وهوندا لتقديم يد العون، ثم انحنى والتقط الرسالة التي هوت على العشب، وشرع لتوه في قراءتها، وانخرط في البكاء، ملقياً بنفسه الى الأرض. لم يستطع الشابان اليابانيان فهم شيء مما راح كريد سادا يغمغم به باكياً في اندفاعة من الحديث باللغة السيامية، ولما كانت الرسالة مكتوبة باللغة ذاتها فإنها لم تقدم أية مفاتيح لفهم الموقف لهوندا الذي التقطها، اللهم إلا الخاتم الذهبي المتألق للعائلة المالكة في سيام الذي علاها، بتصميمه المتداخل من المعابد والوحوش الاسطورية والورود والسيوف والصولجانات، وغيرها من الأشكال، التي التفّت حول ثلاثة فيلة بيضاء.

استرد تشاوبي. وعيه، خلال نقله الى غرفة نومه من قبل الخدم، ولكنه بدا مشوشاً، على نحو واضح، وتلاه كريد سادا وهو لا يزال يتأوه.

وعلى الرغم من جهل كيواكي وهوندا بالحقائق، فقد بدا واضحاً لهما أن أخباراً رهيبة قد وصلت الأميرين السياميين. رقد تشاوبي. صامتاً، ورأسه على الوسادة، وعيناه غائمتان كأنهما لؤلؤتان، وراح يحدق في السقف. ازداد التعبير المرتسم على وجهه الداكن البشرة غموضاً، مع انقضاء كل لحظة، فيما تكاثفت عتمة الغرفة بسرعة. بعد بعض الوقت كان كريد سادا هو الذي تمكن في نهاية المطاف من إيضاح الموقف باللغة الانجليزية.

ـ ماتت الأميرة تشان. محبوبة تشاوبي. ، أختي. . لو أني أبلغت بالأمر أولاً، لتحينت فرصة لإبلاغه بالأمر، على نحو يوفر عليه مثل هذه الصدمة، ولكني أحسب أن أمه، الملكة دواجر، خشيت على نحو أكبر مضايقتي؛ ولذا كتبت الى تشاوبي. ولئن كان الأمر كذلك فقد جافاها حسن التقدير. ولكن ربما كانت قد حرصت على أمر أكثر عمقاً. . . أن تدعم شجاعته بجعله يواجه حزنه وجهاً لوجه.

كان هذا القول أكثر حكمة وسداداً من أي شيء آخر مما كانا يسمعانه عادة من كريد سادا. أثر حزن الأميرين البالغ، والقوي كأنه مطر إستوائي بعمق في نفس كيواكي وهوندا. ولكنهما أحسا أنه بعد الرعد والبرق والمطر، فإن حزنهما سيغدو دغلاً مبتلاً ومتألقاً يسترد ازدهاره سريعاً وعلى نحو مترف.

حمل طعام العشاء في ذلك المساء الى غرفة الأميرين، لكنهما لم يمدا إليه يداً. غير أنه في وقت لاحق، تذكر كريد سادا بوضوح قواعد السلوك اللائق الذي ينبغي أن يتبعه المرء نحو مضيفه، واستدعى كيواكي وهوندا الى غرفتيهما؛ ليترجم لهما الرسالة بأسرها الى اللغة الانجليزية.

كانت الأميرة تشان، في حقيقة الأمر، قد مرضت في الربيع، وعلى الرغم من أنها كانت أضعف من أن تكتب رسالة، فقد ابتهلت الى الجميع ألا يبلغوا أخاها وابن عمها بمرضها. وازدادت يدها البيضاء الجميلة نحولاً، حتى لم تعد تستطيع تحريكها، وجثمت في موضعها باردة وساكنة، كأنها شعاع وحيد من أشعة القمر ينسل من النافذة.

جرَّب الطبيب الانجليزي المسؤول كل ما يعرفه، لكنه لم يستطع الحيلولة دون انتشار الشلل الضاري في جسمها بأسره. وأخيراً، أصبح حتى الحديث يشكل عبئاً كبيراً عليها. ولكن ربما لكي تدع تشاوبي. وفي ذهنه صورتها في كمال صحتها، على نحو ما كانت عليه، عندما افترقا، فقد أصرَّت مراراً وتكراراً على ألا يقول الجميع شيئاً عن مرضها، الأمر الذي حملهم الى آفاق الدمع.

عادتها الملكة دواجر كثيراً، ولم تستطع كبح جماح دمعها لدى رؤية الأميرة الشابة. وعندما أبلغت جلالتها بموت تشان، أمرت الجميع بأن يرفعوا أيديهم عن الموضوع، قائلة في الحال: «سأبلغ باتاناديد بالأمر بنفسي».

استهلت الرسالة على هذا النحو:

«ما يتعين عليّ إبلاغك به محزن للغاية؛ فأرجو أن تحتمله بشجاعة بقدر ما في وسعك. لقد ماتت محبوبتك تشانترابا. سأحدثك فيما بعد كيف أن أفكارها كانت تحوم حولك حتى النهاية. وبحسباني أمك فإن ما أريد قوله لك أكثر من أي شيء آخر في التو واللحظة هو أنك ينبغي أن تواثم نفسك مع هذا كله باعتباره مشيئة بوذا. وإني لأصلي من أنك ستضع موضع الاعتبار دائماً مكانتك كأمير وتتقبل بقبول حسن هذه الأنباء المأساوية. ما أشد معرفتي بما ستكون عليه مشاعرك لدى علمك بهذا النبأ في أرض أجنبية، ولكم آسف لأنني لست الى جوارك لأخفف عنك الملك مثلما ينبغي على الأم أن تفعل. ولكن الآن فيما يتعلق بكريد سادا، فإنني أرجو أن تتصرف باعتبارك أخاً أكبر له، وأن تبلغه بموت أخته بأعظم قدر من العناية. لقد أبلغتك بالأنباء المأساوية، على هذا النحو، دونما سابق إنذار، لا لشيء إلا لعلمي بأن لديك القدر الكافي من الصمود، بحيث لا تستسلم للحزن. وليكن مما يبعث العزاء في نفسك، رجاء، أن تعلم على الأقل بأن الأميرة كانت تفكر فيك وحدك، حتى لفظت آخر أنفاسها، ولكن عليك أن تبذل قصارى جهدك لتقدر كيف أنها أرادت أن تحفظ للأبد في فؤادك الصورة التي حملتها عنها بحسبانها فتاة في ميعة الصبا. . .

رقد تشاوبي. مصغياً بانتباه الى أن ترجم كريد سادا آخر كلمة في الرسالة، ثم اقتعد سريره، والتفت إلى كيواكي وشرع يقول:

ـ إني محرج للغاية، فقد اهملت ما أوصتني به أمي، ولم أتمالك نفسي من الانهيار، ولكني أرجو أن تحاول فهم الموقف! لم يكن ما أصارعه خلال السويعات الماضية هو لغز موت الأميرة تشان. في الفترة التي بدأت بمرضها وامتدت حتى موتها ـ لا، بل التي امتدت في هذه الأيام الاثني عشر، منذ

لحظة موتها. كنت بالطبع أحيا في قلق دائم. ولكن رغم ذلك، وإذ لم أحط علماً بالحقيقة، فقد عشت في هدوء، في رحاب عالم زائف، طوال ذلك الوقت. ذلك هو اللغز.

«من الواضح أنني رأيت البحر المتألق والشاطىء المتوهج على نحو ما هما عليه فحسب. لماذا لم أستطع رؤية التغير المراوغ الذي وقع عميقاً في جوهر الكون؟ كان العالم يتغير، على نحو مستمر، ومستعص على الفهم، تماماً مثل النبيذ في القنينة، وأنا مثل الرجل الذي لا يرى أبعد من السائل الأحمر، القاتم، المتوهج بدفء داخل القنينة. لماذا لم يخطر لي على بال قط أن أتذوقه ولو مرة في اليوم وأحاول تبين ما إذا كان تغير محدود، نسيم الصبح الرقيق، حفيف أوراق الأشجار، صوت أجنحة العصافير وهي ترف محلقة، وشقشقاتها - كل هذه الأشياء كانت ملء سمعي وبصري، ولكني حملتها جميعها فحسب على أنها تجسيد لبهجة الحياة، الجوهر الجميل للحياة ذاتها. لم يخطر لي قط على بال أن هناك تحت السطح ما يتغير يوماً فآخر. لو أنني توقفت ذات صباح لأتذوق الدنيا، وهكذا اكتشفت أنها قد تغير مذاقها على لساني على نحو مراوغ. . . آه، لو أنني قمت بذلك فحسب، لما فاتني أن أدرك أن هذه الدنيا قد أصبحت فجأة بغير الأميرة تشان.»

فيما هو يقول هذا، اختنق صوته تدريجياً، وحبست العبرات كلماته.

تركاه ليعنى به كريد سادا، وعادا الى غرفتهما، غير أنهما لم يجدا بنفسيهما ميلاً الى الرقاد.

قال هوندا بمجرد انفرادهما بنفسيهما:

- سيرغب الأميران في العودة الى سيام بأقصى سرعة ممكنة. وأياً كان ما قد يقوله الآخرون، فمن المؤكد أنهما لن يرغبا في مواصلة الدراسة هنا.

ـ نعم، إني على يقين من أنهما سيعودان الى وطنهما.

ردّ كيواكي، مكتئباً، فقد ترك حزن الأمير على نحو واضح أثراً عميقاً في نفسه، وغاص في قرارة حالة من التوجس الغامض.

أضاف:

ـ وبعد ذهابهما، لن يكون هناك سبب وجيه يدعونا للبقاء هنا بمفردنا.

واصل حديثه، وكأنما يحدث نفسه:

ـ أو ربما سيأتي أبي وأمي الى هنا، وعندئذ، سيصبح الأمر قضاء الصيف معهما. أياً كان ما يحدث، فقد انتهى صيفنا السعيد.

وعلى الرغم من أن هوندا كان على إدراك بأن العاشق لا مجال في فؤاده لشيء إلا لمشاعره، وأنه يفقد حتى قدرته على التعاطف مع أحزان الآخرين، فإنه لم يستطع تخيل فؤاد يتناسب على نحو طبيعي أكثر من فؤاد كيواكي مع كونه مثل هذا الوعاء للعاطفة المحض، وعاء بارد وخشن كالزجاج المسقى.

بعد ذلك بأسبوع، بدأ الأميران السياميان رحلة عودتهما الى الوطن على متن سفينة إنجليزية، ومضى كيواكي وهوندا الى يوكوهاما ليكونا في وداعهما. وبما أن الوقت كان في منتصف الإجازة الصيفية، فلم يكن هناك مجال للاتصال بزملاء آخرين في صف الأميرين الدراسي: غير أن الأمير توين، في ضوء علاقاته الوثيقة مع سيام، بعث بوكيله ليمثله في وداعهما. وحيا كيواكي الرجل في فتور، دون أن يتبادل معه إلا كلمة أو كلمتين.

وفيما راحت السفينة الهائلة التي تقل الركاب والبضائع، تبتعد عن الرصيف، تبدد تثار الزبد الذي خلفته وراءها وحملته الريح بعيداً. وقف الأميران على الذيل المروحي الى جانب العلم البريطاني، يستافان النسيم، وراحا يلوحان بمنديليهما دونما توقف.

بعد وقت طويل من انطلاق السفينة الى القناة الملاحية وانصراف جميع المودعين الآخرين، ظل كيواكي في مكانه رغم حرارة شمس الأصيل الخانقة التي انصبت على الرصيف، حتى لم يعد بمقدور هوندا إلا أن يستحثه على الانصراف. لم يكن كيواكي يودع الأميرين السياميين الراحلين، وإنما بالأحرى أحس بأن شبابه، أو الجانب الأكثر تمجداً منه، كان يوشك على الاختفاء، تحت الأفق.

حين أقبل الخـريف، بدأت الـدراسة، من جـديد، وأصبحت لقـاءات كيواكي وساتوكو مقيّدة، على نحو أكبر، واضطرت تاديشينـا الى اتخاذ أشـد الاحتياطات تحـرزاً لتمكينها من مـواصلة التنزه معـاً، في صدر المسـاء، دون التعرض للانكشاف.

تعين عليهما الحرص، حتى على تجنب موقدي المصابيح، الذين كانـوا لا يزالون يجوبون ذلك الجانب من حي توريزاكا. دأب موقدو المصابيح أولئك بزيهم الرسمي ذي الياقة المحكمـة على حمـل أعمدة طـويلة يدفعـونها تحت الغطاء الواقي لكل مصباح في الطريق لتصل الى مخرج الغاز الموجود أسفـل الغطاء. ولدى اكتـمال هذا الـطقس الذي يؤدى عـلى عجل كـل يوم عنـد الغسق تخلو الطرقات من المارة. ومن هنا كان ذلك هـو الوقت الـذي يمكن فيـه لكيواكي وسـاتوكـو التنزه في الحـوارى الخلفية الملتفـة، وهمـا يشعـران بالأمان بصورة نسبية. كـان صرير الحشرات يعلو، في ذلـك الوقت، ولكن الأضواء في النوافذ لم تكن باهرة، على نحو غير منـاسب. ولم يكن للعديـد من الـدور من البوابـات ما يفصلهـا عن الطريق. بـل كـان في وسعهـما أن يسمعا وقع أقدام زوج عائد الى داره ثم ضجيج الباب وهو يوصد.

قالت ساتوكو، باعتدال بالغ، وكأنها تتحدث عن شخص آخر:

ـ سينتهي كـل شيء في غضـون شهـر أو شهـرين. ومن المؤكـد أن آل توينومايا لن يرغبوا في تأجيل حفـل الخطبـة أكثر من ذلـك، وكل ليلة عنـدما

آوى الى فراشي أحدث نفسي بأن الأمر سينتهى في الغد، سيقع في الغد شيء لا سبيل الى رده، ثم من الغريب أنني أغفو في سلام. ذلك هو ما نفعله الآن، شيء لا سبيل الى نقضه.

ـ طيب، افترضي أنه حتى بعد حفل الخطبة...

ـ ما الذي تقوله يا كيو؟ لو أننا زدنا خطايانا عما نفعله الآن، فإن روحك الرقيقة ستسحق سحقاً. وبدلاً من التفكير في أمور كهذه، فاني أوثر التفكير في عدد المرات التي سيكون بوسعي لقياك فيها.

ـ لقد اتخذت قرارك؟ أليس كذلك؟ في وقت لاحق، ستمسين كل شيء. أليس هذا صحيحاً؟

ـ بلى، وان كنت لا أدري على وجه الدقة كيف سأجترح هذا. ان الدرب الذي نسير فيه يا كيو ليس بطريق، وانما هو رصيف ميناء، وهو ينتهي في موضع ما يبدأ فيه البحر، ولا مفر من ذلك.

كانت تلك حقاً هي المرة الأولى التي تحدثا فيها عن النهاية. واذ واجهاها، لم يستشعرا مسؤولية تتجاوز ما يحس به طفلان، لم تكن لديهما خطط يركنان اليها، ولا حل، ولا مسار للعمل ـ وأحسا بأن هذا كله يقف شاهداً على نقاء نواياهما. ومع ذلك فبمجرد أن أتيا على ذكر الانفصال النهائي التصقت الفكرة بذهنيهما كأنها الصدأ.

هل انغمسا في كل هذا دونما تفكير في النهاية؟ أم أنهما شرعا في علاقتهما على وجه الدقة لأنهما فكرا في نهايتها؟ لم يدر كيواكي بجلية الأمر. حدث نفسه بأنهما لو انقضت عليهما صاعقة فحولتهما إلى رماد فلا بأس. ولكن ماذا يفعل إذا لم يحل عقاب صارم من السماء وبقيت الأمور على ما هي عليه؟ جعله ذلك يحس بالاضطراب، فتساءل في قرارة نفسه: «لو أن الأمر كان كذلك ترى هل أواصل حب ساتوكو بلهفة كما أفعل الآن؟».

تلك كانت المرة الأولى التي يساوره فيها قلق من هذا النوع. فدفعه الى الإمساك بيد ساتوكو. ولكن عندما شبكت أصابعها بأصابعه في معرض الرد، أحس بالضيق، وأحكم قبضته بقوة تكاد تشل يدها. لم تندّ عنها أدنى صيحة ألم. واصل قبضته بالقوة عينها، وعندما أظهر له ضوء شعاع منسلّ من نافذة نائية بطابق ثان من مبنى أثراً للدموع في مقلتيها أحس باغتباط أسود يداخله.

أدرك أن هذا كان دليلاً آخر على الجوهر الخفي والوحشي المحتجب للحساسية التي غرست في نفسه طويلاً. من المؤكد أن أبسط حل بالنسبة لهما هو أن يموتا معاً، ولكنه أحس بأن الأمر يقتضي شيئاً أكثر مدعاة للشعور بالعذاب. فتنه ذلك المحرّم المحظور الذي كانا ينتهكانه حتى في هذا الوقت مع كل لحظة تنقضي عجلي من هذا اللقاء السري، ومضى يدفعه قدماً، كأنه جلجلة جرس ذهبي ناءٍ لا سبيل للأبد الى بلوغه. وكلما أوغل في الخطيئة راوغه الشعور بها. وماذا عن النهاية؟ راح يحدث نفسه وقد أخذته رجفة: كيف يمكن أن تنتهي الأمور إلا بخديعة هائلة؟

قالت، بصوتها الصافي المعتاد، الذي لا يربكه شيء:

- يبدو أنك لا تستمتع كثيراً بالتنزه معي، على هذا النحو، انني أرتشف كل لحظة تمضي من السعادة، ولكن... يبدو لي أنك نلت كفايتك منها.

- كل ما في الأمر أني أحبك كثيراً، والسعادة هي شيء خلفته ورائي.

قالها كيواكي جاداً، وحتى وهو يتفوه بهذا الطرح العقلاني أدرك أنه لم يعد بحاجة الى تجشم عناء القلق فيما يتعلق بأي أثر للطفولية في طريقة حديثه.

كانت الحارة التي يسلكانها تفضي الآن الى روبونجي بحوانيتها المتجاورة في تقارب بعضها من بعض الآخر. كانت لافتة حائلة اللون، تتدلّى حاملة

الرسم الدال على الثلج، أمام متجر لبيع الثلج مغلق المصاريع، وهو مشهد بائس في هذا الشارع الذي يـردد صرير حـرير الحشرات. عنـدما تجـاوزاه قليلاً صادف نافذة ينسلّ منها الضوء الى الطريق. كان هذا الحـانـوت لتـاجر أدوات موسيقية، يـدعى تابي، تشـير لافتة حـانوتـه بأنـه يعمل مـع الفرقـة الموسيقية التابعة لفوج أزابو. وبـدا يعمل حتى وقت متـأخر لإنجـاز تكليف ما.

دارا حول دائرة الضوء، ومع ذلـك، فقد بهـر نظريهـا، للحظة، بـريق متألق، صادر عن آلات موسيقية نحاسية. وتدلى هنالـك صف من الأبواق الجـديدة، التمعت بـألق يليق بـأرض الاستعـراض، في منتصف الصيف، تحت فيض من الأضواء المترفة. ومن داخل الحانوت تناهى إليهما نغم البوق المفاجىء، الكئيب، في نغمة واحدة تجريبيـة، توقفت بمجـرد سماعهـما لها. بدت لأذني كيواكي كأنها مقدمة لطي صفحة الكون.

ـ عد أدراجك، رجاء، فهناك أناس كثيرون أمامكما!

قالتها تاديشينا همساً لكيواكي، فيما هيَ تنزلق خلفهما، دون أن يلحظهـا أحد.

لم يقم آل تويتومايا بأي محاولة للتطفل على حياة ساتـوكو. فقد كان الأمير هارو نوري مشغولاً بواجبـاته العسكـرية، ولم يكلف أحـد غيره ممن يعنيهم الأمر نفسه عناء ترتيب لقاء آخر بينه وبين ساتوكو، كما أنه هو نفســه لم يشر الى رغبته في عقد مثل هذا اللقاء. غير أن كل ذلك لم يكن ليعني بحـال أن آل تويتومايا يعاملونها بفتور. وبمعايير اضطّراد تقدّم مثـل هذه الخـطبة، كـان كل شيء يمضي قدماً على خـير ما يـرام. وقد اعتقـد من يحيطون بـالأمير أن اللقـاءات المتعددة بـين الشابـين، اللذين كان زواجهـما أمـراً مسلماً بـه، لا يمكن أن يأتي من ورائها ما يفيد، بل قد تؤذن بورطة ما.

وفي غضون ذلك، كانت هناك تلك المنجزات المتوقعة من شابـة توشـك أن تصبـح أميرة. ولـو أنها كانت سليلة عـائلة يدور أدنى شـك حول رفعـة شأنها، لتعين عليها أن تخوض غمار مسافات تدريب متنوعة، لا تأخذ بعـين الاعتبار الا قليلاً التعليم السابق. ولكن تقاليد التربية الرفيعـة، التي دأبت عائلة النبيل أياكورا على التمسّك بها، كانت من القـوة بحيث أن ابنته كـان بمقدورها أن ترقى في يسر الى مرتبة الأميرة. وقد أصبح هذا الاقتدار جـزءاً من ساتوكو لا يتجزأ، بحيث كان بمقدورها، وقتما تشـاء، أن تنظم قصـائد تليق بأميرة، تكتب بخط يليق بأميرة، وتـرتب الزهـور، مثلما يجدر بـأميرة. وما كانت لتقوم قائمة لعقبة في وجه تحولها الى مرتبة الأميرات، منـذ بلوغها عامها الثاني عشر.

غـير أن النبيل أيـاكورا وزوجتـه استشعرا كـلاهما القلق، حيـال ثـلاثـة

منجزات، لم تنل مكانتها في تعليم ساتوكو حتى الآن. هكذا، حرصا على أن تتمكن من ناحية هذه المنجزات بأسرع ما يمكن، وهذه المنجزات كانت غناء «الناجوتا» ولعب الماهيمونج، التي كان الأمير تووين مولعاً للغاية بها، والاستماع الى التسجيلات الموسيقية الأوروبية، وهي وسيلة إزجاء الوقت الأثيرة عند الأمير هارو نوري نفسه. وبعد أن أوضح النبيل أياكورا الموقف للأمير ماتسوجاى، وعلى الفور رتب هذا الأخير لحضور أحد أساتذة الناجوتا، لإعطاء دروس لساتوكو، ولتسليم جراموفون الماني الصنع لآل أياكورا مع كل التسجيلات المتاحة. غير أن العثور على مدرب لشيء من قبيل لعبة الماهيمونج فقد شكل مهمة أكثر صعوبة. وعلى الرغم من أنه هو نفسه كان لاعباً نشطاً للبلياردو على الطريقة الانجليزية إلا أنه رغم ذلك إنزعج حيال كون عائلة نبيلة على مثل هذه الدرجة من رفعة الشأن تستمع بلعبة شعبية مثل الماهيمونج.

وقد تصادف أن مالكة دار الجيشا في يانا جيباسي وكبرى فتيات الجيشا لديها كانت من لاعبات الماهيمونج البارزات. وهكذا، رتب الأمير قيامهما بزيارات متتابعة لدار أياكورا وتأليفهما مع تاديشينا فريقاً رباعياً، يعرِّف ساتوكو باللعبة. وقد دفع هو نفسه الأتعاب الاضافية الخاصة بقيامه بهذه الزيارات.

حرى بالمرء أن يتوقع أن من شأن هذا الرباعي، الذي يشمل لاعبتين محترفتين، أن يجلب مناخاً غير مألوف من المرح الى عالم دار آل أياكورا المتشدد. غير أن تاديشينا أصرت على معارضتها لذلك، وزعمت أن الأمر يحمل لطمة لكبريائها، ولكنها، في حقيقة الأمر، أفزعها احتمال أن تكتشف عيون هاتين المرأتين، اللتين حنكتهما الدنيا، سر ساتوكو. وحتى لو أن هذا لم يحدث، فان ألعاب الماهيمونج تلك ستتيح رغم ذلك للأمير ماتسوجاى أن يزرع جاسوستين مدفوعتين الأجر في دار أياكورا.

لم تهدر مالكة الدار وكبرى فتيات الجيشا وقتاً في تفسير تصلب تاديشينا وصلفها، الذي لا يتراجع للحظة، على أنه إهانة متعمدة لهما، ولم يتطلب رد فعلها إلا ثلاثة أيام للوصول الى مسامع الأمير ماتسوجاى، فانتظر فرصة ملائمة، وفي أول مناسبة مواتية، وجه اللوم بهدوء الى النبيل أياكورا:

- حقاً إنه لأمر يدعو الى الاعجاب البالغ أن خادماً عجوزاً مخلصة من خادماتك تقدر كل هذا التقدير مكانة عائلتك، ولكن من المؤكد في هذه الحالة أن الهدف كله هو إدخال السرور في نفوس عائلة الأمير، ولذا فقد يقتضي الأمر بعض التحمل، ثم إن هاتين المرأتين من يانا جيباشي تنظران الى هذا باعتباره فرصة مجيدة لهما لتقدما خدمة ما، وهكذا، ورغم أنهما مشغولتان، فقد أبدتا إستعدادهما للقدوم الى الدار.

نقل النبيل كل هذا الى تاديشينا، الأمر الذي وضعها في موقف بالغ الحرج.

وفي حقيقة الأمر أن ساتوكو سبق لها اللقاء بهاتين المرأتين. ففي يوم حفل تبرعم الكرز الذي أقيم في الحديقة كانت مالكة دار الجيشا تتولى تقاليد الأمور الكوليس، بينما اضطلعت فتاة الجيشا العجوز بدور شاعر الهايكو. وعندما جاءت لأول تدريب على لعبة الماهيمونج، ألقت مالكة دار الجيشا خطاب تهنئة للنبيل والنبيلة بمناسبة الخطبة، وأحضرت أيضاً هدية رائعة:

- ما أجمل ابنتكما! وإذ تتملك ناصية الكبرياء الرائع لأميرة على سجيتها فلا بد أنكما قد سعدتما لدى هذه الخطبة! إن ذكرى سماحكما لنا بأن تكون لنا صلة بالأمر ستظل في خاطرنا الى الأبد، ولسوف ننقلها من جيل الى جيل معتصمتين بأقصى قدر من السرية بالطبع.

غير أنهما بعد هذا التعبير المبالغ في الأطناب عن تقديرهما، لم تكونا على

تمام الاستعداد لمواصلة الاحتفاظ بهذا المظهر الخارجي المناسب، عندما انسحبتا الى غرفة أخرى، وجلستا الى مائدة الماهيمونج مع تاديشينا وساتوكو. فقد كانت العيون الدامعة بالاخلاص لساتوكو يجف دمعها بين الفينة والأخرى، كاشفة عن جفاف الانتقاد لها. وكانت تاديشينا مدركة، في استياء، للنظرة ذاتها، وهي تلفها وتلف معها مشبك زنارها الفضي العتيق الطراز. ولكن حادثة وقعت منذ البداية ذاتها كانت أشد مدعاة للشعور بالقلق.

قالت فتاة الجيشا العجوز، على نحو عرضي، وهي تخلط رقائق الماهيمونج:

ـ ترى كيف حال نجل الأمير ماتسوجاى؟ لا أصدق أنني رأيت شاباً أفضل مظهراً منه.

عند ذلك، وبحذق ملحوظ، حولت مالكة دار الجيشا دفة الحديث الى أمور أخرى. ولربما لم تقم بذلك إلا تقريعاً لرفيقتها لطرحها موضوعاً لا يليق الحديث عنه، لكن الحوار أثقل على أعصاب تاديشينا.

وفقاً لنصيحة تاديشينا، حاولت ساتوكو الاقتصار على أقل قدر ممكن من الحديث، ولكن المبالغة في التركيز على حماية خواطرها الدفينة أمام هاتين المرأتين، اللتين لم يكن لهما نظير في مهارتهما فيما يتعلق بتفسير دقائق سلوك المرأة أثار خطراً آخر. فلو أنها أظهرت نفسها باعتبارها متكتمة أكثر مما ينبغي، فقد يطلق هذا شائعة تنذر بفضيحة، حول أنها تبدو تعيسة حيال زواجها الوشيك. وإخفاء مشاعرها كان يعني المخاطرة بأن يخونها سلوكها، والتبسط في السلوك كان يعني المخاطر بكشف مشاعرها.

وكنتيجة لهذا، اضطرت تاديشينا الى الاعتماد على قدرتها الفائقة على

الاحتيال للأمور، لإنهاء جلسات التدريب على لعبة الماهيمونج تلك على نحو باتر.

قالت للنبيل أياكورا:

- إنني مذهولة حقاً؛ إذ يكلف سمو الأمير ماتسوجاى نفسه عناء قبول تخرصات هاتين المرأتين، باعتبارها أموراً مسلماً بها. إنهما تقولان إنني الملومة على عدم تحمس الآنسة ساتوكو. ولئن لم تقولا ذلك لكانت هما الملومتين لعدم تحمسها. إني واثقة من أن هذا هو السبب في أنهما قالتا إني أتشامخ عليهما. وبغض النظر عن مدى توافق ذلك من رغبات سمو الأمير ماتسوجاى، فإن مجيء وذهاب امرأتين تمتهنان هذه المهنة الى دار مولاي ها هنا هو بمثابة فضيحة. فضلاً عن ذلك فقد تعلمت الآنسة ساتوكو بالفعل أوليات لعبة الماهيمونج. وهكذا فإنها إذا كانت ستلعبها بعد زواجها لمسايرة الحياة الاجتماعية، وإذا ما خسرت على الدوام فإن ذلك سيجعلها جذابة للغاية، ومن هنا فإنني سأعارض بشدة إعطاءها المزيد من الدروس. أما إذا أصرّ الأمير ماتسوجاى، فإنني سأطلب إعفائي من مواصلة خدمة مولاي.

لم يجد النبيل أياكورا أمامه مفراً من الانصياع لمثل هذا الإنذار النهائي، الذي صدر بهذه القوة.

كانت تاديشينا، في اللحظة التي علمت فيها من الوكيل يامادا بأن كيواكي لم يصدقها القول فيما يتعلق برسالة ساتوكو، قد وجدت نفسها عند مفترق طريق. وكان أمامها الخيار إما بأن تصبح عدوة لكيواكي وإما بالقيام بكل ما يريده هو وساتوكو، في إدراك كامل لعواقب ما تأتيه. وقد اختارت السبيل الأخير.

وعلى الرغم من أن دافعها الرئيسي للقيام بهذا قد تمثل في عاطفة أصيلة نحو ساتوكو، فإنها في الوقت نفسه كانت تخشى أن التفريق بين العاشقين

يمكن أن يدفع ساتوكو الى الإقدام على الانتحار، فوصلت الى أن خير سبيل تسلكه هو أن تحفظ سرهما، وتتركهما يفعلان ما يحلو لهما، في انتظار أن تنتهي قصة الحب، من تلقاء ذاتها. وفي الوقت نفسه ستبذل قصارى ما في وسعها لإسدال ستار من السرية البالغة على الأمر.

كانت تفخر بأنها على تمام الإلمام بكل أسرار مسارات العاطفة. وإذ كانت من المدافعين المتشددين عن الفلسفة القائلة بأن المجهول لا وجود له، فإنها لم تنظر الى نفسها باعتبارها امرأة تخون الثقة التي محضها إياها النبيل أياكورا أو آل توينومايا أو أي شخص على الاطلاق. كان بوسعها أن تساعد في دفع قصة الحب هذه قدماً وأن تكون حليفة العاشقين تماماً كما لو كانت تجري تجربة كيميائية، وفي الوقت نفسه كان بمقدورها إنكار وجودها بتغطية كل التفاصيل التي قد تنم عنها. وكانت تعرف حق المعرفة أنها قد سارت في درب خطر، ولكنها آمنت بأنها ولدت في هذه الدنيا لتقوم بدور المخلِّص من كل موقف دقيق. وهكذا، كان بمقدورها أن تلقي بالعديد من الالتزامات على كاهل الآخرين، مما يجبرهم بالفعل بدورهم على القيام بما تنشده، على وجه الدقة.

حرصت على جعل اللقاءات متعددة بقدر الامكان، للتعجيل بتراجع حميا العاطفة، لكنها فشلت في إدراك أن عواطفها هي قد اندرجت في غمار الأمر. لم تكن لهذا علاقة بالانتقام من كيواكي لسلوكه القاسي. حقاً إنها كانت تنتظر مقدم اليوم الذي يبلغها فيه برغبته في هجر ساتوكو، ويطلب منها أن تودعها نيابة عنه. وعندما يحدث هذا فإنها ستذكره، في عنفوان، بمدى ما كانت عليه رغباته التي فترت اليوم من احتدام، في السابق، لكنها لم تكن تصدق هذا الحلم، إلا على نحو جزئي. ولئن تحقق فكم سيكون معذِّباً لساتوكو!

لماذا حدث أن هذه المرأة العجوز الرابطة الجأش التي كان ينبغي أن تتبع

فلسفتها القائلة بأنه ما من شيء آمن في هذه الدنيا بوضع الحفاظ على نفسها في المقام الأول قد تركت نفسها تندفع بدلاً من ذلك نحو الإطاحة بكل الأفكار المتعلقة بالسلامة والأمان؟ وكيف أمكن أن تدفع نفسها الى استخدام هذه الفلسفة ذاتها كذريعة للمغامرة؟ في حقيقة الأمر أنها في لحظة لم تأخذ فيها الحوار لنفسها قد خضعت لنشوة تتحدى كل تحليل عقلاني. فمن أجل أن تكون وسيلة لجمع شابين على مثل هذا القدر من الجمال، ومن أجل مشاهدة حبهما اليائس وهو يزداد احتراقاً وإيغالاً في عاطفيته استسلمت شيئاً فشيئاً لعذاب بهجة تجاهلت كل المخاطر.

وإذ تملكتها هذه المشاعر، ساورها إحساس بأن هناك شيئاً بالغ القداسة فيما يتعلق بالاتحاد الجسدي لشابين جميلين حتى أن الأمر لا يمكن الحكم عليه إلا بمعيار غير عادي. الطريقة التي تتوهج بها عيونهما عندما يلتقيان، الكيفية التي يخفق بها فؤاد كل منهما وهما يدنوان أحدهما من الآخر ـ تلك كانت ناراً تدفىء قلب تاديشينا المتجمد بالصقيع. من أجل ذاتها أرادت أن تبقي على وهج هذه النار وتحفظها من الموات. في كل مرة قبل أن يلتقيا كانت وجناتهما تبدو شاحبة وغائرة من فرط الاكتئاب، ولكن ما إن يقع بصر أحدهما على الآخر حتى يشرع محياهما في التألق بتوهج مثلما رؤوس الشعير الصقيلة في حقل خلال شهر يونيو. وبالنسبة لتاديشينا كانت تلك اللحظة معجزة لا تقل عن سير المقعد أو استرداد الأعمى لبصره.

كان دورها الفعلي هو، بالطبع، حماية ساتوكو من كل سوء. ولكن شيئاً يتوهج على هذا النحو ليس بسوء، فما يتحول الى شعر ليس بسوء. من المؤكد أن هذه العقيدة قد تخللت على نحو مراوغ تقاليد الحساسية العريقة في عائلة أياكورا!

ومع ذلك، راحت تاديشينا، صابرة، تنتظر وقوع شيء ما. فمن بعض الجوانب كانت تحاكي امرأة أطلقت سراح عصفورها الأليف، وراحت

تنتظر فرصة الامساك به من جديد، وإعادته الى قفصه. لكنه كان هناك شيء ما في ذلك التوقع يشي برائحة الدم ووقع الفجيعة. وكل يوم كانت تضع بمزيد من التدقيق طبقة الذرور البيضاء التي كانت تؤثرها سيدات البلاط منذ زمن بعيد على وجهها، وتخض أوكار التجاعيد الكامنة تحت عينيها بالذرور الأبيض ومثيلاتها المحيطة بشفتيها بلون حمرة كيوتو المفعم بالحيوية. وفيما هي تقوم بهذا تتجنب فحص محياها في المرآة، وتحدق، بدلاً من ذلك وبجدية وعلى نحو متسائل، في الفضاء. بدا أن ألق السماء الخريفية السامقة يتكثف متحولاً الى قطرات صافية متألقة في عينيها، ولكن في أغوارهما كان بمقدور المرء أن يلمح ظمأ يائساً للمستقبل، ثم لكي تتفقد زينتها بشكل عام تلتقط عوينات عتيقة الطراز، تتجنب عادة وضعها على عينيها، وتضعها في مكانها معلقة الذراعين المعدنيين الناحلين على أذنيها. وفيما هي تقوم بذلك يرفع الذراعان شحمتي أذنيها، اللتين كساهما الذرور، فتتقدان.

في بداية أكتوبر، بعث آل توينومايا بالإخطار التقليدي، وفيه أن حفل الخطبة سيقام في ديسمبر، وأرفقوا به قائمة غير رسمية بالهدايا: خمس بكرات من قماش الملابس. برميلان من الساكي الفاخر، صندوق من سمك الشبوط. وكان البندان الأخيران بالطبع متاحين في يسر، أما قماش الملابس فقد تولى الأمير ماتسوجاي ترتيب أمره، فبعث ببرقية ضافية الى مكتب لندن، التابع لمؤسسة إتسوى، لكي يأمروا بتقديم أفخر قماش إنجليزي خصيصاً، ويرسلوه في الحال.

عندما مضت تاديشينا، ذات صباح، لإيقاظ ساتوكو، لاحظت أن محياها انخطف لونه، حالما أيقظتها، ثم نحّت ساتوكو يدها جانباً، ونهضت من الفراش، واندفعت الى الدهليز، ووصلت بالكاد الى الحمام، فتقيأت،

ولـوّثت ردن منامتهـا قليلاً. سـاعدتهـا تاديشينـا عـلى العـودة الى المخـدع، وحرصت على التأكد من أن الباب موصد.

كانوا يحتفـظون في الفناء الخلفي بحـوالي عشر دجاجـات أو أكثر، وقـد اخترقت قوقأتها وصياحها أستار الشوجي وهي تنطلق كل صباح معلنة بداية يوم جديد لآل أياكـور، كما أن هـذه الجوقة ما كـانت لتكف عن إنشادهـا عندما تعلو الشمس كبد السماء. وفي قلب الصباح أراحت ساتـوكو وجههـا على الوسادة، وأغمضت عينيها.

قالت تاديشينا، وقد دنت بفمها من أذني ساتوكو:

ـ أصغي إليَّ رجاء! لا ينبغي إطلاع أحد على هذا. لا تعطى منـامتك، لـطفاً، للخـادمة لتغسلهـا، في أي ظرف من الـظروف، سأعنى بهـا بنفسي، حتى لا يعلم أحد. ومن الآن فصاعـداً سأتخـذ كل الـترتيبات، فيـما يتعلق بطعامك، وسأحرص على ألا تتناولي إلا ما يـوافقك، حتى لا تشـك الخادمـة في شيء. ما أقوله لك هو لصالحك فحسب، لذا عليك القيام بما أقوله على وجه الدقة.

وافقت سـاتوكـو، دونما تيقن، فيـما دمعـة وحيـدة تنحـدر عـلى خـدهـا الأسيل.

امتلأت نفس تاديشينا حبوراً؛ فقد كانت الوحيدة التي تلقت هذا المؤشر الأولي، ثم في اللحظة التي حدث فيها ذلك، تبين لها شيء: لقد كان هـذا على وجه الدقة ما تنتظره. فالآن أصبحت ساتوكو في قبضتي يديها!

إذا أخذ كل شيء بعين الاعتبار، فإن تاديشينـا كانت أكثر إلماماً فيما يتعلق بذلك الجانب من جوانب الحياة، الذي مثلته حالة ساتـوكو الـراهنة، منهـا فيما يتعلق بدنيا العاطفة. وكما سبق أن عاجلت برصد ونصح سـاتوكـو قبل سنوات عندما بدأت تحيض، فقد أظهرت الآن نفسهـا باعتبـارها اخصـائية

حاذقة في كل ما يتعلق بالأمور الجسديّة. وبالمقابل، فإن النبيلة أياكورا، التي كانت تكتفي بالإيماء موافقة، فيما يتعلق بأمور الحياة اليومية، علمت بأن ابنتها بدأت تحيض، بعد حدوث ذلك بعامين، ومن تاديشينا نفسها.

زادت تاديشينا، التي لم تخفق قط في ملاحظة كافة مؤشرات حالة ساتوكو الصحية، من يقظتها، بعد ذلك المرض الصباحي الأول، وما إن تعرفت العلامات الدالة واحدة إثر الأخرى ـ طريقة ساتوكو في التزين، الأسلوب الذي تقطب به وجهها كأنها تنتظر مقدم نوبة أخرى من الغثيان تتناهى من بعيد، شهيتها الشرهة، الثقل الغامض في حركاتها ـ حتى اتخذت قرارها دونما تردد.

قالت لساتوكو:

ـ ليس شيئاً صحياً أن تبقي في الدار طوال الوقت على هذا النحو، فلنمضِ لنتريض!

كان هذا القول، عادة، إيماءة إلى أن لقاء قد تم ترتيبه مع كيواكي، ولكن لما كانت السماء لا تزال الشمس في كبدها، فقد تحيرت ساتوكو قليلاً ونظرت إليها متسائلة. كان التعبير المألوف على ملامح تاديشينا قد احتجب وحل محله تحفظ صارم، فقد أدركت تمام الإدراك أنها تمسك بيديها ناصية مسألة تتعلق بالشرف ذات أهمية قومية.

فيما خرجتا عبر الفناء الخلفي، وقفت النبيلة أياكورا هنالك، وقد عقدت ذراعيها على صدرها، وهي ترقب خادمة، فيما هي تطعم الدجاج. وقعت شمس الخريف المتألقة على الريف المتألق للدجاجات المتكأكئة، وانعكست على الغسيل المنشور ليجف، محوِّلة إياه ليغدو موكباً من البياض، وفيما مضت ساتوكو قدماً الى الأمام، تاركة لتاديشينا مهمة إفساح طريق لها وسط الدجاج، أومأت في تأدب محيّية أمها، ولاحظت القوائم المتبخترة

والتي تبرز فجأة من قلب الريش. وللمرة الأولى في حياتها فكرت في هذه الكائنات بحسبانها كائنات معادية ـ عداء طبيعياً ولو من نزعة الخصومة بين الأنواع. كان شعوراً رهيباً. طفت في الهواء متجهة نحو الأرض ريشات سائبة بيضاء. حيّت تاديشينا أم ساتوكو.

ـ إني أصحب الآنسة ساتوكو في نزهة سيراً على الأقدام.

ـ نزهة؟ طيب. شكراً على تجشم عناء ذلك.

قالتها النبيلة أياكورا، في معرض الرد. ولكن بما أن زفاف ابنتها كان يقترب موعده مع كل يوم، فقد بدا، على نحو طبيعي، أنها تشعر بعصبية بالغة. ومن ناحية أخرى فقد غدت أكثر تهذيباً وتحفظاً حيال ابنتها. وكما هو معتاد في عائلات نبلاء البلاد فلم تتفوه قط بكلمة انتقاد واحدة لها؛ حيث أنها كانت بالفعل بمثابة عضو في العائلة الامبراطورية.

اجتازتا شوارع رايودو، الى أن بلغتا مزاراً صغيراً، يحيطه سور جرانيتي، مكرّس لربة الشمس. ولجتا فناءه الضيق، المهجور الآن بعد إنتهاء أعياد الخريف. وبعد الانحناء أمام المزار الداخلي، الذي أسدلت عليه الستر الأرجوانية، تقدمتها تاديشينا الى مؤخرة القبة، المستخدمة للرقصات المقدسة.

ـ أيأتي كيواكي الى هنا؟

تساءلت ساتوكو، مترددة، ولسبب ما أحست بأن أسلوب تاديشينا يحملها على الشعور بالفزع اليوم.

ـ كلا، لن يأتي. هناك اليوم شيء أريد أن أطلبه منك، يا آنسة ساتوكو، وهذا هو السبب في مجيئنا الى هنا، ما من شيء يدعونا الى الشعور بالقلق، حول استراق أحد السمع.

كانت ثلاث أو أربع صخور، موضوعة عند أحد جوانب القبة، ليستخدمها من يريد الجلوس، ومتابعة الرقصات الطقوسية. وقد نزعت تاديشينا «الهاوري» الخاص بها، وطوته ووضعته على سطح إحدى الصخور والذي كسته الأشنة.

ـ هاك! الآن لن تصابي بالبرد.

قالتها تاديشينا، فيما ساتوكو تقتعد الصخرة.

أضافت على نحو رسمي:

ـ طيب، الآن، يا سيدتي الشابة، أعلم أنه ما من حاجة تدعوني الى أن أذكرك، ولكنك بالطبع تدركين حق الادراك أن الولاء للامبراطور ينبغي أن تكون له الأولوية المطلقة. إنها خطبة توشيها الحماقة تلك التي يتعين على مخلوقة مثل تاديشينا أن تلقيها على مسامع الآنسة ساتوكو أياكورا التي بوركت عائلتها عبر القرون بالعطف الأمبراطوري طوال خمسة وعشرين جيلاً. ولكن حتى إذا نحَّينا كل ذلك جانباً، فإنه ما إن يقترح زواج ويحظى بالتصديق الأمبراطوري، حتى لا يعود هناك مجال للتراجع، ورفضه إنما يعني رفض هبة من جلالة الأمبراطور، وليس هناك في الدنيا بأسرها خطيئة أشد فظاعة من هذه الخطيئة.

انطلقت تاديشينا في إيضاح تفصيلي. وعلى الرغم مما تعين عليها قوله، فلم تكن بمعرض توجيه اللوم لها على أي شيء وقع بالفعل، فقد كانت هي نفسها مذنبة بالدرجة ذاتها. وفضلاً عن ذلك، فإن ما لا يلحظه الكافة لا يتعين على المرء أن يعذِّب نفسه من جرائه، ويعتبره بمثابة خطيئة. إلا أنها شدَّدت على أنه ينبغي أن يكون هناك حد يتم التوقف عنده، والآن وقد حملت ساتوكو، فقد حان أوان وضع نهاية للأمر. لقد كانت حتى الآن مراقباً صامتاً، أما وقد وصلت الأمور الى حالتها الراهنة، فقد أحست بأنه لا

معنى لترك الأمور تجري في أعنتها والسماح لعلاقة الحب تلك بأن تتواصل. وهكذا فقد حان أوان تملكها لناصية عزمها، وينبغي عليها أن توضح لكيواكي أن عليهما أن يفترقا. ولا بد لها من القيام بكل شيء وفقاً لتعليمات تاديشينا. وهكذا، قالت ما يتعين عليها قوله موضحة المعاني التي قصدتها في سياقها الصحيح.

واعتقاداً من تاديشينا بأن في هذا الكفاية لإقناع ساتوكو، اختصرت محاضرتها، وراحت بمنديل طوى بعناية تجفف في خفة العرق الذي بلّل جبينها.

والى جانب عقلانية منطقها، فقد تحدثت وتعبير حزين متعاطف يعلو ملامحها، فيما وشى صوتها بمطالع الدموع. لقد كانت هذه الفتاة أعز عليها من ابنة لها، ولكنها كانت تدرك أن حزنها ليس أصيلاً وحقيقياً، وتدرك وجود حاجز بين حزنها وحبها. ولما كان إعزازها لساتوكو بالغاً، فقد راودها أمل في أن تلك الفتاة ستشركها معها في النشوة المخيفة والتي لا يسبر لها غور التي قبعت في قرار حسمها الرهيب للأمر. فلكي ينتزع المرء نفسه فيطهرها من خطيئة يداخلها التدنيس عليه أن يقترف خطيئة أخرى. وفي النهاية، تلغى الخطيئتان إحداهما الأخرى كأنما لم توجدا قط. على المرء أن يمزج شكلاً من أشكال الظلام بآخر، ثم ينتظر أن يوشي اللون الوردي لفجر قدري مقبل أطراف الظلام. ولا بد له في المقام الأول من إسدال ستار السرية على كل شيء.

لما كانت ساتوكو لا تزال على صمتها، فقد بدأت تاديشينا في الشعور بعدم الارتياح، وتساءلت:

ـ ستقومين بكل شيء، على نحو ما أقوله، أليس كذلك؟ ما هو شعورك حيال هذا؟

لم تنمّ ملامح ساتوكو عن شيء. ولم يندّ عنها ما يشير الى أن كلمات

تـاديشينا قـد أفزعتهـا. والحق أن ملاحـظاتها المـطنبـة لم يكن لهـا أي معنى بالنسبة لها على الاطلاق.

ردت قائلة:

ـ ولكن ما الذي يتعين عليّ القيام به؟ ينبغي أن يكون حديثك محدداً!

تطلعت تاديشينا حولها، قبل أن ترد، مقنعة نفسها بأن الصـوت الخافت الذي صدر عن الجرس المعلق أمام المزار صادر عن هبة ريح قـوية، وليس عن زوار متبتليـن على الاطلاق.

ـ لا بد لك من التخلص من الجنين بأسرع ما يمكن!

أمسكت ساتوكو أنفاسها.

ـ ماذا تعنين؟ لسوف يودعونني السجن.

ـ لا تتحدثي على هذا النحو! وحتى لو تسرب الأمر فـرضاً عـلى نحو مـا فسوف يستحيل على الشرطة أن تلحق العقـاب بي أو بك عـلى حد سـواء؛ فقد تم ترتيب زفـافك بـالفعل، ومـا إن يتم تقديم هـدية الخـطبة في شهـر ديسمبر حتى تغدو الأمور أكثر أمناً، لأن الشرطة تبدي تفهماً حيـال أمور من هذا القبيل. غير أن هذا، يا آنسة سـاتوكـو، هو مـا أريد منـك فهمه: إذا تلكـأت في الأمر وبـدا للجميع أنـك حامـل، فلن يكـون بمقـدور جـلالـة الأمـبراطور والـدنيا بـأسرها اغتفـار ذلك لـك، وسيتم إنهاء الخطبـة دونمـا تـأخير، وسيتعـين على أبيـك أن يخفي نفسه عن عيـون العالم، كـما سيجـد السيد كيواكي نفسه في موقف رهيب. وبصراحة فإن آمال المستقبل بالنسبه له ولآل ماتسوجاى كـذلك ستتعـرض لتهديـد بالـغ، بحيث أنه لن يكـون أمامهم من سبيل إلا الادعاء بأنـه لا علاقـة له بـالأمر من قـريب أو بعيد، وهكذا فسوف يكون الضياع مآل كل ما يتعلق بك. أترغبين في أن يحـدث ذلك؟ ليس بمقدورك الآن إلا القيام بشيء واحد.

ـ ولـو أن الأمر ظهـر عـلى نحـو مـا، حتى بفـرض أن الشرطـة الـتزمت الصمت، ربمـا يترامى شيء الى مسـامع آل تـوينومـايـا. ثم كيف سيمكنني الظهور في حفـل الزفـاف؟ وفيما بعـد كيف سأجـرؤ على وضـع نفسي تحت تصرف الأمير؟ حدثيني بـذلـك!

ـ ما من شيء على الإطـلاق يـدعـو الى الاكـتراث بمـا لا يتجـاوز مجـرد شائعة. أما فيما يتعلق بما سيظنه آل توينومايا، فإن ذلك سيتوقف بـالكامـل عليك. وهكذا، فإذا ما تصرفت طوال الوقت كأميرة عفيفـة جميلة فإنهم لن يقولوا عنك إلا أنك كذلك. أما بالنسبـة للشائعـات وما إليهـا فسرعان مـا يطويها النسيان.

ـ إذن فمبقدورك أن تؤكدي لي أنـه ليس هناك سبيـل الى معاقبتي أو الى ايداعي السجن؟

ـ دعيني أحاول توضيح الأمر على هذا النحـو بحيث تفهمينه. فـالشرطة أولاً تحمل كل الاجـلال لطبقـة النبلاء؛ ومن هنـا فليس هناك أدنى احتـمال لسماحها لأمر كهذا بأن يغدو معـروفاً للكـافة. وإذا كنت لا تـزالين تحسـين بالقلق فإن بمقدورنا أن نطلب من الأمير ماتسوجـاى كريم عـونه، ولسمـوه نفوذ كبير، وبـوسعه تحقيق أي شيء. ففي نهايـة المطاف سيكـون ذلك من قبيل تغطية موقف السيد الشاب.

صاحت ساتوكو، بحدة:

ـ لا! ليس لك أن تقومي بهذا. هذا ما لن أسمح به. لن تطلبي العون تحت أي ظرف من الظروف لا من الأمير ماتسـوجاى ولا من كيـو، لسوف أحس بالهوان تماماً لو أنك فعلت ذلك.

ـ طيب. . لقد ذكرت ذلك كمجرد احتمال فحسب. ولكن ثانيـاً، وحتى بالمعايير القانونية الدقيقة، فإنني مصممة عـلى حمايتـك. لسوف نجعـل قوام

الأمر أنك فعلت ما قلته لك دون أن يخطر لك ببال ما أدبره، حيث شممت مادة مخدرة دون إدراك لكنهها، وهكذا أصبحت بلا حول ولا قوة. ولئن فعلنا ذلك، وبغض النظر عن مدى ذيوع الأمر، فسوف ينتهي بأن يحل العقاب بي وحدي.

ـ هكذا فإنك تقولين إنه مهما كان ما سيحدث فلن أودع في السجن.

ـ يمكنك الاطمئنان الى ذلك.

غير أن ردها لم يعد نظرة الارتياح الى ساتوكو، التي قالت:

ـ إنني لا أريد الذهاب الى السجن.

انفكّت عرى توتر تاديشينا، وهي تنفجر ضاحكة:

ـ تبدين كطفلة صغيرة. لم تقولين ذلك؟

ـ ترى ما الذي ترتديه السجينات؟ وماذا عساه يفعل كيو إن رآني على ذلك النحو... أيستمر على حبي أم لا؟ لكم أود أن أعرف!

فيما هي تلقى بهذه العبارة العبثية، تألقت عيناها، البعيدتان عن الدمع أشد البعد، باغتباط وحشي بالغ، ارتعدت تاديشينا حياله.

أياً كان الفارق بين هاتين المرأتين، في المكانة الاجتماعية، فلم يكن هناك سبيل الى إنكار أن القوة والشجاعة ذاتيهما كانتا تجمعانهما. وسواء للخديعة أم من أجل وجه الحقيقة لم تكن الحاجة ماسة قدرها الآن لشجاعتهما المشتركة.

أحست تاديشينا بأنها وساتوكو كانتا مثل زورق يتقدم ضد التيار، والتيار ذاته، يتناسبان على نحو بالغ، بحيث أن الزورق يقف ساكناً، لبعض الوقت، ملتصقاً بالماء بين لحظة وأخرى في حميمية نافذة الصبر. وفضلاً عن ذلك، فإنه في هذه اللحظة أحست كلتاهما بالبهجة ذاتها. كان لها صوت

اصطفاق أجنحة سرب من الطيور، يلوذ بالهرب فوق الرؤوس، مفسحاً الطريق لعاصفة مقبلة. كان انفعالها الجامح، رغم أنه يضم شيئاً من الحزن، الخوف، الرهبة، مختلفاً عن كل هذه الانفعالات، ولا يمكن أن يدعى باسم آخر إلا بالنشوة.

تساءلت تاديشينا، وهي ترقب وجنتي ساتوكو الشاحبتين، فيما هما تحمران، تحت شمس الخريف:

ـ طيب، على أية حال ستفعلين ما أقوله لك. أليس كذلك؟

ردت ساتوكو:

ـ لا أريدك أن تحدثي كيو بشيء من هذا على الإطلاق، أقصد ما يتعلق بحالتي. أما فيما يتعلق بما إذا كنت سأفعل ما تقولينه من عدمه فلا تقلقي! دون إشراك أحد آخر في الأمر، سأناقش كل شيء معك، وسأقرر بالفعل خير سبيل للتصرف.

كانت كلماتها تحمل بالفعل كبرياء أميرة.

- ٣٨ -

فيما كان كيواكي يتناول طعام عشائه مع أبيه وأمه في أوائل أكتوبر، علم أن حفل الخطبة سيقام، أخيراً، في ديسمبر. وأبدى أبواه أعظم قدر من الاهتمام بقواعد السلوك الخاصة بهذه المناسبة، وتنافسا أحدهما مع الآخر في إظهار مدى معرفتها بقواعد وأعراف البلاط القديمة.

قالت أمه:

ـ سيتعين على النبيل أياكورا أن يعد قاعة رسمية عند قدوم وكيل الأميرة، ترى أي غرفة ستستخدم لهذا في اعتقادك؟

ـ طيب، بما أن الجميع سيشهدون الحفل، ستكون قاعة كبرى غربية الطراز مناسبة، إذا كانت لديهم قاعة من هذا النوع. سيتعين عليهم أن يكسوا بقماش خاص أرضية غرفة الاستقبال وكذلك أرضية الدهليز المفضي إليها من المدخل لاستقبال الوكيل. سيجيء في عربة تجرها الجياد مع تابعين، وسيتعين على أياكورا أن يكون متأهباً ومعه خطاب القبول مكتوباً على ورق بديع، سميك موضوع في مغلف من الورق نفسه، ومربوط بخيطين مجدولين ومعقودين معاً. وسيرتدي الوكيل الثياب الرسمية للاحتفال، وكذلك حينما يلقي النبيل خطابه، فسيتعين عليه بدوره أن يكون مرتدياً الزي المناسب لدرجته في سلم طبقة النبلاء، ولكنه خبير محنك، فيما يتعلق بكل هذه التفاصيل، فما من حاجة الى قول أي شيء له في هذا الصدد. عندما تصبح النقود مشكلة، هنا فحسب يمكنني تقديم يد المساعدة.

بوغت كيواكي بالأمر بشدة، وأمضى ليلة مسهّدة، تخيل أن بمقدوره أن يسمع القرقعة الكئيبة الصادرة عن الأغلال، وهي تجر على الأرض، دانية شيئاً فشيئاً، لتطبق على حبه. لم يشعر بشيء من الطاقة المنطلقة، التي أحرقته عندما صدر التصديق الأمبراطوري.

كان ما أثاره في ذلك الوقت، أي فكرة الاستحالة المطلقة، قد بدا له كأنه قطعة بديعة من الخزف الأبيض. أما الآن فقد اكتست هذه القطعة بشبكة من التشققات الدقيقة. وهكذا فإنه بدلاً من النشوة الضارية التي تدفقت من شعوره بالتصميم في ذلك الوقت، فقد أحس الآن بالحزن الذي يساور رجلاً يرقب موسياً يحتضر.

راح يسائل نفسه عما إذا كان قد استسلم إذن. لا، لم يستسلم. ولكنه رغم ذلك أحس بأن قوة التصديق الأمبراطوري قد عملت على أن تلقي به وبساتوكو أحدهما في حضن الآخر بضراوة بالغة، بينما هذا الإعلان الرسمي لحفل الخطبة يفرقهما، على الرغم من أنه لم يكن إلا امتداداً للتصديق الأمبراطوري. لقد كانت معالجة هذا التصديق بالغة البساطة: فما كان عليه إلا أن يتبع ما تمليه عليه رغباته. ولكن كيف السبيل الى التعامل مع هذه القوة الجديدة؟ لم تكن لديه أدنى فكرة عن ذلك.

في اليوم التالي، قام، في إطار استخدام الطريقة المعتادة في الاتصال بتاديشينا، بإجراء مكالمة هاتفية مع صاحب نزل الضباط، وقال له إن عليه إبلاغ تاديشينا برغبته في رؤية ساتوكو، في أقرب وقت ممكن. ولما لم يكن بمقدوره أن يتوقع تلقي أي رد قبل حلول المساء، فقد مضى في إذعان الى المدرسة، ولكن الدروس التي تلقاها في ذلك اليوم لم تترك أدنى أثر في نفسه. وبعد انتهاء اليوم الدراسي، نقل صاحب النزل رد تاديشينا: في ضوء الموقف الراهن، لا بد أن كيواكي يدرك أنه في الوقت الحاضر لا يبدو أن هناك إمكانية لترتيب لقاء على الأقل في غضون عشرة أيام. غير أنه

بمجرد أن تتاح فرصة فستخبره تاديشينا بذلك في الحال. فهل له في الانتظار رجاء الى ذلك الحين؟

انقضت تلك الأيام العشرة في عذاب؛ من جراء نفاد الصبر. أحس بأنه يعاني الآن عواقب سلوكه، في الماضي، وبخاصة ذلك الوقت الذي أبدى فيه فتوراً حيال ساتوكو.

غدا الخريف أشد تجلياً ووضوحاً. كان الوقت لا يزال مبكراً بالنسبة لبلوغ ألوان أشجار القيقب سمت اكتمالها، رغم أن أوراق أشجار الكرز قد تحولت الى لون أرجواني منطفىء، وشرعت في التساقط. لم يكن كيواكي في حالة نفسية تسمح له بالسعي بصحبة أصدقائه، ولكن قضاء أيامه وحده كان مجهداً. وكانت أيام الآحاد بصفة خاصة عسيرة، فيما راح يحدث نفسه به، وهو واقف يطل على البحيرة التي عكس سطحها السحب المتحركة. ثم مضى يحدق بنظرة خاوية في الشلال البعيد ويتساءل عن السبب في أن الماء الذي يتدفق عبر مستوياته التسعة لم يجف قط. ما أغرب ألا تنقطع هذه الاستمرارية الناعمة أبداً! أحس بأن هذا المشهد يشبه صورة لمشاعره.

طغت عليه حالة مزاجية، قوامها شعور بالإحباط الأجوف، جعلته يحس بأنه محموم ومرتجف برداً، في وقت واحد. بدا الأمر كما لو كان مصاباً بمرض جعل حركاته ثقيلة وانية، وجعله في الوقت نفسه يشعر بالقلق. انطلق يضرب وحيداً في أرجاء الضيعة، فسلك درباً يفضي عبر أجمات أشجار السرو اليابانية الى مؤخرة الدار. مر بالبستاني العجوز الكادح الذي عكف على استخراج البطاطا البرية ذات الأوراق المصفرة.

لاحت السماء الزرقاء من خلال أغصان السرو، وسقطت قطرة من مطر الأمس على جبينه، فساوره فجأة شعور بأنه قد تلقى رسالة رائعة النقاء،

كما لو كانت قطرة المطر تلك تحفر تجعيدة على جبينه، أنقذته من القلق الذي ظنّ أنه قد خلفه نسياً منسياً. لم يستطع إلا الانتظار، دون أن يقع شيء. بدا كما لو كان يقف عند منعطف طريق تمضي فيه شكوكه وهواجسه مستعرضة ذاتها على الايقاع الأجوف لحشد من وقع الأقدام. بلغ به التوتر حد نسيان حسنه وجماله.

إنقضت الأيام العشرة، ووفت تاديشينا بوعدها، ولكن اللقاء كان محاطاً بالعديد من الضوابط الى حد أنه مزق فؤاده تمزيقاً.

كانت ساتوكو في طريقها إلى متجر ميتسوكوشي لشراء مجموعة من الكيمونو للزفاف. وكان من المقرر أن تذهب أمها معها الى هناك؛ ولكن بما أنها اعتكفت في الفراش لإصابتها بنوبة برد عارضة فإن تاديشينا ستصحب وحدها ساتوكو. سيلتقون في المتجر، ولكن ليس تحت أنظار الباعة، الأمر الذي لا طائل وراءه، وهكذا فإن كيواكي سينتظر عند المدخل المزين بتمثال الأسد، في الساعة الثالثة، وعندما تخرج ساتوكو وتاديشينا، فإن عليه التظاهر بتجاهلهما وإن تبعهما عن بعد. وفي نهاية المطاف عندما تلجان مطعماً غير بعيد، يقدم حساء الفاصوليا، حيث لا يحتمل أن يراهم أحد، فإن بمقدوره اللحاق بهما وتجاذب أطراف الحديث مع ساتوكو، لفترة قصيرة. وفي غضون ذلك، فإن رجل عربة الريكشو، التي تستقلانها، والمنتظر أمام المدخل الأمامي لمتجر ميتسوكوشي سيظن أنهما لا زالتا داخل المتجر.

غادر المدرسة مبكراً، وفي الساعة الثالثة كان في الانتظار، وسط حشد المتسوقين، أمام متجر ميتسوكوشي، مرتدياً معطفاً واقياً من المطر فوق زيه المدرسي حتى يخفي الشارة المميزة على ياقته ذاتها. وكان قد وضع قبعة في داخل حقيبته. خرجت ساتوكو، وألقت عليه نظرة تعسة ولكنها متقدة،

ومضت في الطريق مع تاديشينا. ووفقاً للتعليمات التي تلقاها، تبعهما، وجلس معهما في ركن من أركان المطعم شبه المهجور.

بدا أن ساتوكو وتاديشينا قد ضاقت إحداهما ذرعاً بالأخرى. ولاحظ أن زينة ساتوكو ليست في تمام كمالها كالمعتاد، وأدرك أنها تستخدمها لتجعل نفسها تبدو في حالة صحية طيبة، مهما كلفها ذلك. وفضلاً عن ذلك، فقد بدا صوتها مكتئباً وفقد شعرها بريقه. ساوره شعور بأنه يتطلع الى لوحة بديعة راحت ألوانها التي كانت متألقة ذات يوم تذوي على نحو فظيع أمام ناظريه. كان ما أمضى عشرة أيام ضارعاً لكي يراه في غمار عذاب التوقع والانتظار قد تعرض لتغير مراوغ.

ـ أيمكننا الالتقاء الليلة؟

قالها كيواكي في صبر نافد، ولكن حتى وهو يطرح هذا السؤال كان يحس بأن الرد سيكون سلباً.

ـ لا تكن على مثل هذا القدر من الافتقار للمنطق!

ـ ولماذا أبدو مفتقراً للمنطق؟

حملت كلماته قدراً كافياً من العدوانية، لكن فؤاده كان خاوياً. كان رأسها منكساً، وامتلأت عيناها الآن بالدموع. التقطت تاديشينا التي خشيت أن يلاحظ الرواد الآخرون الأمر منديلاً أبيض وهزت كتف ساتوكو. بدت حركتها تلك لكيواكي فظة فحدق فيها غاضباً.

دمدمت، وقد حفلت كلماتها بالافتقار الى التهذيب والانضباط:

ـ لماذا تحدق فيَّ على هذا النحو؟ ألا تدرك أيها السيد الشاب أنني حمَّلت نفسي فوق الطاقة من أجلك ومن أجل الآنسة ساتوكو؟ والأمر لا يقتصر عليك وحدك، أيها السيد الشاب، وإنما كذلك الآنسة ساتوكو، إنك لا

تفهمين بدورك ما تحملته. خير للكهول من أمثالي أن يكونوا قد رحلوا بالفعل عن هذه الأرض.

كان نادل شاب قد وضع أمامهم، على المنضدة، ثلاثة أطباق من حساء الفاصوليا الأحمر، لكن أحداً لم يمد لها يداً. وعلقت قطعة صغيرة من عجين الفاصوليا الحار بحافة الغطاء الصغير، المطلي باللك، الخاص بأحدها كأنها قطعة جص من طينة بطيئة التصلب.

لم يكن الوقت المتاح لهم معاً طويلاً، فافترقوا على وعد غامض باللقاء، في غضون عشرة أيام.

في تلك الليلة انطلق عذابه الذهني متحرراً من كل عقاب. راح يتساءل عما إذا كانت ساتوكو ستوافق على لقائه ليلاً من جديد، وأحس أن العالم كله يلفظه. لم يعد بوسعه الشك في حبه لها بعد أن أُلقي به في غياهب اليأس.

عندما رأى دموعها اليوم، أدرك أنها تنتمي إليه، قلباً وقالباً، ولكنه فهم في الوقت نفسه أن الوئام وحده لا يملك قوة حملها على أجنحته.

كان ما يعايشه الآن عاطفة أصيلة. وعندما قارنها بمشاعر الحب التي شغلت خياله يوماً ما علم أن عاطفته هذه شيء خشن وصارم، عنيف ورهيب، عاطفة هي أبعد ما تكون عن الحساسية والرهافة والتألق. لم تكن بالمادة التي تصاغ منها القصائد. وللمرة الأولى في حياته تقبل القبح الفظ باعتباره جانباً منه حقاً.

بعد ليلة قضاها مسهداً، مضى في اليوم التالي الى المدرسة بوجه الشاحب المجهد. لاحظ هوندا ذلك في الحال، وسأله عن جلية الأمر، امتلأت عيناه بالدمع، رداً على رقة القلب الخجول التي أبداها صديقه.

ـ هذا هو ما في الأمر: أحسب أن ساتوكو لن ترقد معي بعد الآن.

احمر وجه هوندا، من جراء انقباض من لا خبرة له بمثل هذه الأمور.

ـ ماذا تعني؟

ـ ذلك يرجع إلى أن حفل الخطبة حُدد له موعد في ديسمبر المقبل.

ـ وهكذا، فإنها تحس أن ليس بمقدورها بعد الآن. . . ؟

ـ هذا هو ما يبدو الأمر عليه تماماً.

لم يستطع هوندا التفكير في شيء يقوله ليبعث العزاء في نفس صديقه؛ فقد كان هذا الموقف مما يقع خارج نطاق خبرته، وأحزنه اعتقاده أنه ليس لديه ما يطرحه ما عدا تعميماته المألوفة. وحتى لو كان ما يقوله لا طائل وراءه فإنه يضع نفسه موضع صديقه ويدرس ما يراه من علة، ثم يطرح تحليلاً نفسياً.

ـ في تلك المرة، عندما كانت معك في كاماكورا، ألم تقل إن شعوراً يساورك بأنك قد تسأمها ذات يوم؟

ـ لكن ذلك دام لحظة واحدة فحسب.

ـ ربما كانت تبعدك على هذا النحو لأنها تريدك أن تحبها بضراوة وعمق أكبر.

غير أنه في هذه المرة أساء هوندا التقدير في محاولته استغلال توهجات خيلاء كيواكي كوسيلة لبعث العزاء في نفسه، فلم يعد يهتم أدنى اهتمام بجاذبيته، ولا حتى بحب ساتوكو له.

كان كل ما يعنيه هو متى وأين يمكنهما أن يلتقيا، دونما شعور بالرهبة، وعلى هواهما كيفما يطيب لهما، وبغض النظر عن أي إنسان آخر. وساورته خشية من أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا في مكان ما يتجاوز هذا العالم، وعندما يحل الهلاك بهذه الدنيا. ولم تكن القضية الجوهرية هي الشعور،

وإنما الظروف. وفي عينيه المرهقتين، اليائستين، المحمرّتين، امتدت رؤية للعالم وقد حلت به الفوضى من أجلهما.

ـ آه لو وقع زلـزال هائـل فحسب! لو أن الأمـر كان كـذلك لاستطعت، والأمر عينه إن نشبت حرب كبرى. لـو أنها اندلعت، ماذا عساي لا أفعله عندئذ!... ولكن لا. إن ما أسعى إليه هو شيء يهز البلاد بأسرها وصولاً الى قواعدها.

ـ ومن ذا الذي سيحدث وقائعك الكبرى هذه؟

قـالها هـوندا، متـطلعاً الى هـذا الشاب الشديد الحسـاسيـة وقـد ارتسم الإشفاق في عينيه. كان يعرف أن التهكم وقليـلاً من السخريـة هما أفضـل سبيل لشد أزر صديقه. أضاف:

ـ لم لا تفكر في أن تجرب القيام بذلك بنفسك؟

لم يبـذل كيواكي جهـداً لإخفاء بؤسـه، فالشـاب الـذي يستحـوذ عليـه العشق ليس لـديه وقت لمثـل هذه الأمـور. ولكن التعبير الـذي ارتسم على ملامحه كـان يعكس ما يفـوق هذا. أحس هـوندا بـافتتان تخـالجـه رجفـة، عندما لمح لبرهة وجيزة تألقاً مـدمراً، يلتمـع في مقلتي كيواكي، وقـد أجّجه توبيخه الساخر له.

بدا الأمر كـما لو أن زمـرة من الذئـاب انطلقت هـادرة، عبر ظـلام فناء مقـدس، غير أن الغـل لم يصـل الى حـد التجسـد، وإنمـا غـاب حتى عن كيواكي نفسه؛ فقد ولد وهلك في عينيه ـ لكنهما للحظة تألقتا بصورة المدمر الوحشي.

دمدم كيواكي، كأنما يحادث نفسه:

ـ كيف لي أن أنطلق من أغلالي، هل تنجز السلطة هذا؟ أو المال؟

ظن هوندا أنه أكثر من مثير للسخرية أن يتحدث نجل الأمير ماتسوجاي على هذا النحو.

تساءل ببرود:

ـ طيب، فيما يتعلق بالسلطة ما هي نواياك؟

ـ سأقوم بكل ما في وسعي لأحرز شيئاً منها. ولكن مع ذلك فإن هذا يستغرق وقتاً.

ـ لم تكن هناك قط أدنى فرصة لأن تجدي السلطة أو النقود نفعاً. إنك لم تنس جلية الأمر. أليس كذلك؟ منذ البداية ذاتها سحرتك الاستحالة ـ شيء خارج مجال السلطة والمال. اجتذبتك على وجه الدقة لأن الأمر كله كان مستحيلاً. أمخطىء أنا؟ ولئن كان الأمر ممكناً الآن فهل تكون له قيمة بالنسبة لك؟

ـ لكنه كان ممكناً ذات يوم.

ـ لقد رأيت وهم الامكانية. شاهدت قوس قزح. ما الذي تريده الآن أيضاً؟

ـ ماذا أيضاً. . . ؟

تلعثم كيواكي، وتجمدت كلماته. ووراء هذا التوقف امتد خواء عظيم، هائل، ما من سبيل أمام هوندا لكي يسبر غوره، فأخذته الرعدة.

راح يحدِّث نفسه: هذه الكلمات التي تبادلناها، إنها تشبه كتلة من المباني السكنية، تقبع متناثرة في موقع للإعمار في قلب الليل. ومع امتداد السماء الرحبة المرقشة بالنجوم حولها وضغط صمتها الفظيع، ما الذي يمكنك أن تتوقعه منها إلا أن تلتزم سكوناً أخرس؟

كانا يتجاذبان أطراف الحديث في نهاية المرحلة الأولى من اليوم

الدراسي، وهما يسيران على امتداد الدرب المؤدي عبر الأجمة المحيطة ببحيرة تشياراى، ولما كانت المرحلة الثانية قد شارفت على البدء، فقد عادا الآن أدراجهما. كانت أشياء عديدة قد ارتمت على الطريق تحت الأقدام وهو يمتد عبر الغابات الخريفية. أكوام متشابكة من أوراق الأشجار البنية المخضلة، وقد بدا هيكلها بارزاً، جوزات بلوط، حبات كستناء خضراء، أعقاب سجائر تمزقت أوراقها وتحللت. ثم في وسط هذا كله، لمح هوندا شيئاً جعله يتوقف ويحدق في الأرض. كان هذا الشيء كتلة مبيضة مجعدة من الفراء، الذي حال لونه. وفي الوقت الذي تعرف هذه الكتلة باعتبارها جثة خلد صغير نافق، كان كيواكي قد توقف بدوره، وأقعى ليفحصها، في صمت، وهي مرتمية تحت أشعة الشمس، المتسربة من بين الأغصان، فوق الرؤوس. ارتمى الخلد النافق على ظهره، وكان البياض الذي لفت نظر هوندا هو فراء بطنه، أما باقي جسمه فكان أسود قطيفياً أملس. كان الطين قد تخلل الخطوط الخاصة بمخالبه الصغيرة البيضاء المتداخلة، ليقف برهاناً على الحفر الدائب. وفيما هو مرتمٍ على ظهره، كان بوسعهما رؤية فمه المدبب كأنه قمة، كشفت فتحة فمه الناجمة عن موته عن الداخل الرقيق الأحمر لخطمه وراء قاطعيه الدقيقين.

فكر الشابان، في اللحظة عينها، في الكلب الأسود، الذي تدلت جثته من حافة الشلال، في ضيعة ماتسوجاى، الى أن أرسلت في طريقها في جنازة غير متوقعة الجلال.

التقط كيواكي الخلد الصغير من ذيله المجرد تقريباً، من الشعر، ووضعه برفق في راحته. كان قد ذوى بالفعل للغاية، ومن ثم لم يكن فيه ما يثير التقزز. غير أن ما أثار الانزعاج هو أن هذا المخلوق الصغير التعس قد حكم عليه بأن يكدح في عماء ودونما هدف. كانت العناية والدقة اللتان شكلت بهما مخالبه شيئاً رهيباً.

التقط كيواكي الخلد من ذيله مجدداً، فيما هو ينهض واقفاً. كان الـدرب عنـد هذا المـوضـع يـدنـو من البحـيرة، فـالتفت عـلى نحـو عـرضي وألقى بالمخلوق في الماء.

ـ لم فعلت ذلك؟

سـأله هـوندا ملحفـاً، وقد تجهم محيـاه، حيال عـدم اكتراث صـديقـه، وسمح له هذا السلوك الخشن، الذي يعـد سلوكاً نمـطياً من جـانب طالب بأن يدرك، في لمحة، مدى عمق حزن صديقه وشعوره بالوحدة.

انقضى أسبوع، ثم يوم ثامن، ولكن ما من خبر من تاديشينا. وبعد عشرة أيام، اتصل كيواكي بصاحب النزل، في رويونجي، فقيل له إن تاديشينا مريضة، فيما يبدو، ومعتكفة في فراشها. وانصرم المزيد من الأيام، ثم حينما قال له صاحب النزل إنها لا تزال مريضة، ثارت شكوكه.

حلَّ به قنوط وحشي، فمضى الى أزابو وحيداً، ذات ليلة، ومضى يذرع الطرقات دونما هدف، حول دار أياكورا. وعندما مر تحت ضوء المصابيح الغازية في توريزاكا، مدَّ يديه، فبوغت بمدى شحوب ظاهريهما؛ ذلك أنه تذكر أنه سمع بأن المرضى الذين يدنون من حتفهم يتطلعون الى ظاهر أيديهم على الدوام.

كانت بوابة دار أياكورا الأمامية محكمة الاغلاق. ولم يكن الضوء الخافت فوقها كافياً حتى لقراءة حروف لافتة الاسم التي طمسها الطقس والتي أطلت من رحاب الظلام. لقد كانت هذه الدار على الدوام سيئة الاضاءة، وكان يعلم أن ما من سبيل لرؤية ضوء يلتمع في غرفة ساتوكو من الشارع.

تطلع الى النوافذ، التي تعلوها الأعمدة المتقاطعة، في المقرين الخاويين، على جانبي البوابة، وتذكَّر كيف كان يتسلل مع ساتوكو الى هناك، في طفولتهما، فتخيفهما الكآبة ورائحة التراب، في الغرف الخاوية. وإذ يساورهما، في الداخل، الحنين الى ضياء الشمس المنهل، في الخارج، كانا يندفعان الى النوافذ، ويمسكان بالأعمدة المتقاطعة، التي يكسوها التراب.

كـانت طبقة الـتراب ذاتها لا تـزال هناك. وكـانت أوراق الأشجار المحيـطة بالدار المقابلة من النعومـة والخضرة بحيث أن ذلك لا بـد قد وقـع في شهر مايو. ورغم تقارب ما بـين أعمدة الشبـاك، فإن ذلـك لم يحجب الخضرة، ربما لأن الوجهين الصغيرين المـطلين عبرهـا كانـا بالغي الصغـر والضآلـة. وحينذاك كان بائع للشتلات يمر قريباً منهما، فيتضاحك الاثنان، ويقلدانـه، وهما يتصارعان، آخذين بمد المقاطع، على نحـو هزلي: «نجـمات الصباح، الباذنجان!».

لقد تعلم الكثير في هذه الدار. وبالنسبة له كانت هناك ارتباطـات كئيبة تعلق مع رائحة الحبر المستخدم في الكتابة. وفي حقيقـة الأمر، فـإن الكآبـة كانت مرتبطة على تحول لا سبيل إلى فصم عـراه مع الحسـاسية، إلى حـد أنها أصبحت جزءاً منها، فكل الأشياء الجميلة التي أطلعه النبيل أياكورا عليها ـ التراتيل المنسوخة بـالذهب عـلى لفيفات أرجـوانية، حـواجز تحمـل تصميم زهرة الخريف،الأثير في القصور الأمبراطوريـة في كيوتـو ـ أصبح يـدرك الآن أنها قد انبعثت منها أشعة رغبة حسية، ولكن في دار أياكو تثقل رائحة الحبر والتراب على كل شيء. أما الآن، ففي داخل هذه الأسوار التي تبقيه بعيـداً الليلة، عادت تلك الحساسيـة وذلك التـألق المترع بـالاغواء الى الحيـاة من جـديد، بعـد انقضاء العـديد من الأعـوام، ولم يكن هناك سبيـل لوصـوله اليها.

لمع ضوء خافت، في الطابق الثاني للدار، كان مـرئياً عـلى نحو جـلي من الشارع. ربما آوى النبيل والنبيلة أياكور الى فراشهما، فقد كان النبيل يمضي الى فراشه مبكـراً على الـدوام. وربما كـانت ساتـوكو تـرقد مسهدة، ولكن نـورها لا سبيـل الى مشاهـدته. سـار على امتـداد السور الى أن وصـل الى البوابة الخلفية، وهناك، ودونما تفكير، مـدَّ يده ليضغط عـلى جرس البـاب المصغر الذي نالت منه الشروخ، لكنه سحب يده.

وإذ باغته شعور بالعار، حيال جبنه، انكفأ عائداً ومضى الى الدار.

انقضى المزيد من الأيام، فترة رهيبة من هدوء كالموات، أعقبها مرور المزيد، كان يمضي الى المدرسة، ولكن كوسيلة لقضاء اليوم على نحو ما، وعندما يعود الى الدار لا يأبه لدراساته.

كان كل ما حوله يذكره على نحو دائب بأن الكثيرين من طلاب صفه، ومن بينهم هوندا، استغرقوا تماماً في الاستعدادات للتقدم لامتحان دخول الجامعة، في الربيع المقبل. ولم يكن من المتعذر التعرف على سلوك الطلاب الذين يعتزمون سلوك الطريق الأكثر يسراً والمتمثل في دخول الكليات التي لا تقتضي متطلبات معينة للالتحاق بها، فقد كان هؤلاء الطلاب منصرفين في حماس الى رياضاتهم الأثيرة. ولما لم يكن هناك ما يربطه بأي من المعسكرين فقد تفاقم شعوره بالوحدة، وإذا ما حدثه أحد فإنه لا يحير رداً، وهكذا بدا أصدقاؤه في التزام موقف بعيد عن الود منه.

ذات يوم، عندما عاد الى الدار من المدرسة، وجد الوكيل يامادا في انتظاره بالدهليز.

بادره يامادا بقوله:

ـ عاد سمو الأمير الى الدار مبكراً اليوم، وأعرب عن رغبته في لعب البليارد مع السيد الشاب، وهو في انتظاركم الآن في قاعة البليارد.

أحس كيواكي بدقات قلبه تتسارع، فيما هو يصغي الى هذا الاستدعاء، غير المألوف بالمرة. حقاً إن الأمير كانت في بعض الأحيان تواتيه رغبة في أن يشاركه كيواكي في لعبة بليارد، ولكن ذلك كان يقتصر عادة على فترة الخمول، التي تعقب العشاء، عندما يكون الأمير تحت تأثير النبيذ، الذي عكف عليه.

حدَّث كيواكي نفسه بأنه إذا كانت مثل هذه الحالة المزاجية قد سيطرت

علي أبيه، فلا بد أنه إما في حالة جيدة، على نحو استثنائي، أو سيئة، بصورة غير عادية، ما دام الوقت لم يتجاوز منتصف الأصيل بعد.

نادراً ما كان يلج قاعة البليارد نهاراً. دفع الباب الثقيل، ففتحه، ودخل القاعة. كانت الشمس تتألق في الخارج منسلة من النوافذ الغربية، وقد شوَّه الزجاج أشعتها قليلاً. عندما رأى كيف تأتلق عوارض البلوط على الحائط، في ضوء الشمس، ساوره شعور بأن تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها هذه القاعة.

كان الأمير، وقد أمسك بعصاه، ودنا بوجهه قريباً من سطح مائدة البليارد، في وضع التصويب على الكرة البيضاء، ذكّرت أصابع يده اليسرى التي أمسكت بطرف عصاه كيواكي بجسر شُدّ عليه وتر، في آلة الكوتو الموسيقية.

ـ أغلق الباب!

قالها الأمير لكيواكي، الذي توقف بالكاد داخل القاعة التي ظل بابها موارباً، وهو لا يزال يرتدي زيه المدرسي. علقت بملامح وجه أبيه انعكاسات من السطح الأخضر لمائدة البليارد، القريب من الوجه، بحيث وجد كيواكي أن من العسير الحكم على التعبير الذي ارتسم على محياه.

ـ إقرأ هذه! إنها رسالة وداعية من تاديشينا.

قالها الأمير، وقد انتصب واقفاً، أخيراً، مستخدماً طرف عصاه للإشارة الى مظروف، وضع على مائدة صغيرة، الى جوار النافذة.

تساءل كيواكي، مستشعراً رجفة تعم يده، فيما هو يلتقط المظروف:

ـ أو قد ماتت؟

ـ كلا، لم تمت، إنها تسترد عافيتها. لم تمت ـ الأمر الذي يجعل المسألة بأسرها أشد بشاعة.

فيما كان الأمير يدلي برده، بدا أنه يبذل جهده لمنع نفسه من السير الى حيث يقف ولده.

تردد كيواكي.

ـ هلم، اقرأه!

للمرة الأولى تردد صوت الأمير حاداً، قاطعاً.

فضّ كيواكي الورقة المستطيلة، التي سطرت فيها تاديشينا ما أريد له أن يكون خطاباً وداعياً، وشرع في القراءة، وهو لا يزال واقفاً أمام النافذة:

عندما يحين الأوان لتتجشّم سموكم عناء شمول هذه الرسالة بكريم اهتمامكم، فإنني أتوسل إليكم أن تنظروا الى تاديشينا، التي سطرتها، باعتبارها مخلوقاً رحل بالفعل عن هذا العالم. ولكن قبل أن أقطع الخيط الواهي الذي يربط هذه المخلوقة التعسة بالدنيا ـ وهو الجزاء العادل على ما أعترف نادمة بأنه أعمالي البشعة، الخاطئة، أكتب لكم هذه الرسالة في تعجل يشوبه القلق؛ من أجل أن أعترف بخطورة خطاياي، وكذلك لأقدم ضراعتي، في لحظة الاحتضار لسموكم.

حقيقة الأمر هي أنه غدا جلياً في الآونة الأخيرة، بسبب إهمال تاديشينا لواجباتها التي أنيطت بها، أن الآنسة ساتوكو حامل. ولما كان الفزع قد ألم بي حينما علمت بذلك، فقد عكفت على إقناعها بأنه لا بد من القيام في الحال بشيء، فيما يتعلق بحالتها، ولكن كلماتي ذهبت سدى، رغم تكرار محاولاتي. وإدراكاً مني لحقيقة أن الأمر سيغدو أشد حرجاً، مع مرور الوقت، مضيت الى النبيل أياكورا، بمبادرة مني، وأبلغته بكل شيء بالتفصيل، ولكن سيدي لم يحر إلا القول: «ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟». ولم يكلف نفسه عناء إبداء أي مؤشر لاعتزامه القيام بعمل محدد. وفي نهاية المطاف، وفي ضوء معرفتي الكاملة بأنه ستصعب معالجة هذا الأمر مع

إنقضاء كل شهر جديد، وأنه قد يصبح أمراً خطيراً من أمور الدولة، بدا واضحاً أن تاديشينا، التي كان عدم ولائها مصدر كل هذا الازعاج، ليس أمامها الآن من سبيل، إلا أن تضحي بنفسها، وأن تلقى بنفسها ضارعة، عند قدمي سموكم.

أخشى أن يغضب هذا سموكم، ولكن بما أن موضوع حمل الآنسة ساتوكو هذا قد يكون شيئاً يمكن وصفه بأنه «في إطار العائلة» فإني أرجوكم، أناشدكم، سموكم أن تضعوه في إطار اهتمامكم وحكمتكم وحرصكم. أرجوكم أن تأخذكم الشفقة بامرأة عجوز، تمضي مسرعة نحو الموت، وأن تكلفوا نفسكم عناء التدخل في وضع سيدتي هذا. ألتمس هذا منكم من قلب ظل القبر.

«مع عظيم الاجلال».

عندما فرغ كيواكي من قراءة الرسالة، قمع الاندفاعة الوجيزة للارتياح المشوب بالجبن، حيال عدم ذكر اسمه، في الرسالة، وعلّق الآمال على أن مظهره لن يوحي لأبيه بإنكار مجرد من الشرف. ورغم ذلك لاحظ أن شفتيه كانتا جافتين، وأن صدغيه ينبضان على نحو محموم.

تساءل الأمير:

ـ هل قرأتها؟ أطالعت الجزء الذي يقول إنها تطلب حكمتي وحرصي؛ لأن هذا موضوع «في إطار العائلة»؟ مهما كانت صلتنا وثيقة بآل أياكورا، فإن المرء لا يصف شيئاً بيننا بأنه «في إطار العائلة». لكن تاديشينا جرؤت على تسجيل هذا كتابة. إذا كان بمقدورك الدفاع عن نفسك، فامضِ قدماً وقم بذلك! قله أمام صورة جدك، ها هنا مباشرة! أما إذا تصادف أنني جانبت الصواب، فسوف أعتذر. إنّ لديّ كل أسباب الدنيا التي لا تدعوني الى عدم القيام بمثل هذه التخمينات. ودون أي شك فهذا شيء كريه جداً، تخمين مقيت.

لم يسبق قط للأمير ماتسوجاى اللعوب، القائل بمذهب اللذة، أن أفلح في إثارة مثل هذا الشعور بالرهبة، في نفس كيواكي، كما أنه لم يبد أبداً قادراً على تملك ناصية هذه الكبرياء. وقف محاطاً من جانب بصورة أبيه، ومن الجانب الآخر بلوحة معركة تسوشيما، وراح بغضب قابل للتهيج والاشتعال يلطم راحة إحدى يديه بعصا البليارد. كان نصف اللوحة الهائلة للمعركة المصورة بالألوان الزيتية، والتي تظهر طليعة الأسطول الياباني منتشرة أمام الروس، في بحر اليابان، تشغله أمواج المحيط المتلاطمة الهائلة الامتداد، ذات اللون الأخضر القاتم. وقد اعتاد كيواكي رؤيتها في الليل فحسب، وحال ضوء المصباح الشحيح دون تقديره للتفاصيل الدقيقة للأمواج، التي تداخلت ليلاً، متحولة الى كيان متداخل في الظلال غير المنتظمة التي تكسو الجوار. أما الآن، في النهار، فقد رأى كيف أن لون الأمواج الأزرق القاتم يعلو في المقدمة بقوة شديدة العنفوان، بينما في البعيد يتسلل لون أخضر فاتح، لينير الماء القاتم، وهنا وهناك اعتلت قامات من الزبد الأبيض كاهل الأمواج، ثم انتشر الماء المندفع وراء القطع البحرية، التي تقوم بالمناورة بعدم انتظام لين على سطح هذا البحر الشمالي الغائر بتأثير رهيب. وتم تصوير خط الأسطول الياباني الرئيسي، المتجه بعيداً، في رحاب البحر، على نحو أفقي، على قماش اللوحة، وتموجات دخانها تنداح يميناً، في مواجهة سماء احتوت زرقتها المتجمدة لمسة من اللون الأخضر الشاحب، على نحو ما يليق بمايو في الشمال.

وبالمقابل، اكتست لوحة جد كيواكي في زيه الرسمي بدفء إنساني، على الرغم من جهامته البادية. وحتى الآن لم يبد أنه يقرع كيواكي، وإنما بالأحرى يعاتبه وينصحه بكبرياء وحب. أحس أن بمقدوره الاعتراف بأي شيء على وجه الإطلاق للوحة جده تلك. هنا، أمام جده، الوجه بجفنيه الثقيلين، والوجنتان بما فيهما من ثآليل، الشفة السفلى الغليظة ـ ساوره

شعـور متسام بـأن افتقاره للحسم تتم معـالجته، وإن كـان ذلك عـلى نحـو مؤقت فحسب.

قال، ناطقاً كلماته، حتى دون أن ينكس عينيه:

ـ ليس أمامي ما أقوله. الأمر كما تحسب، فالجنين طفلي.

رغم وقفة الأمير المهدِّدة، كانت حالته النفسية الفعلية، حينما ألفى نفسه واقعاً في مثل هذا الموقف، حالة قوامها الحيرة اليائسة. فمعـالجـة مثل هـذه الأمور لم تكن قط نقطة القوة فيه. هكذا، وعلى الـرغم من أن المشهد بـدا الآن معداً للمضي قدماً بتوبيخ صاعق من جانبه، إلا أنه شرع يدمدم محدِّثاً نفسه.

دمدم قائلاً:

ـ لم تكف مرة واحدة تاديشينا. وإنما تعين أن تحمل لي سراً صغيراً ثانياً. لا بـأس بالنسبـة للمرة الأولى ـ لا شيء إلا فتى شقـي بالـدار. أما هـذه المرة فالأمـر لا يتعلق بأقـل من ابن أمير. ومـع ذلك، فـإنها حتى لم تستطع إحراز نجاح في الانتحار. يا للكلبة العجوز المخاتلة!

كان الأمير قد راوغ على الدوام مشكلات الحياة الأكثر تعقيداً، بانفجـار في الضحك، نابع من القلب، أما الآن فقد ظهرت هـذه المشكلة، فلم تثر إلا الحنق الشديد. حار في أمره، فلم يدر ما عساه يصنع. كان هذا الرجل اللحيم، المحمر الوجه، يختلف عن أبيه على نحو مذهل، من حيث أنـه كان عبثياً بما فيه الكفاية لدفعه الى محاولة عدم الظهور بمظهر الخشـونة والافتقـار الى المشاعر أمام الآخرين، بمن فيهم ولده. هكذا كان حريصاً على الحيلولة دون ظهـور سـورة غضبـه بحسبـانها سخـطاً عتيق الـطراز، ولكن حـيرتـه اللاحقة جعلته يشعر بأن قوة التجـرد من المنطق التي تـدعمه يجف نبعهـا.

وفي الـوقت نفسـه، كـانت في الغضب ميـزة، هي عجــزه عن التفكـير في الأمر.

منحه تردد أبيه، الوجيـز، الشجاعـة. وشأن مـاء صاف ينبـع من قلب صخرة، تدفقت الكلمات من فم هـذا الشاب بـاعتبارهـا أكثر الكلمات التي قدر له أن ينطقها عفوية وطبيعية:

ـ أياً ما كان الأمر، فإن ساتوكو لي.

ـ أتقول لك؟ قل ذلك ثانية! هل لك في هذا؟ أقلت إنها لك؟

قالها الأميرملحّاً،وقد أسعده أن يرى ابنه يعفيه من مهمة تفجير غضبه. أمـا الآن وقد استقـر فؤاده في سلام، فقـد غدا بمقـدوره إطـلاق العنـان، في عماء، لغضبه. أضاف:

ـ كيف تجرؤ على الحديث هكذا الآن! حينما غدا من المحتمـل لأول مرة أن تخطب للأمـير تورين، ألم أحـاول التأكـد من أنك لا اعـتراض لك عـلى ذلك؟ ألم أقل لك: في هذه المرحلة يمكن العودة بـالأمور الى حيث كـانت، إذا كانت لمشاعرك صلة بالأمر على الاطلاق، قل لي؟

حـاول الأمير أن يـراوح بين السخـرية والمصـالحة، ولكنـه في غمار تميـزه غضباً أفسد هذه المحاولـة. تحرك عـلى امتداد حـافة مـائدة البليـارد. فدنـا للغاية من كيـواكي، بحيث استطاع الأمـير رؤية يـده، وهي ترتجف حـول العصا التي أطبقت عليها. وللمرة الأولى، أحس بلمسة خوف.

ـ ومـاذا قلت عند ذاك؟ هـه؟ ماذا قلت؟ ـ لا عـلاقة لي بـالأمـر، عـلى الاطلاق ـ هكذا أجبتني. تلك بالتأكيد كانت كلمـة رجل. أليس كـذلك؟ ولكني أتساءل: أأنت رجل؟ لقـد ندمت عـلى تربيتـك بهذا الشكـل الناعم اليسـير، لكني لم أدرك قط أنك ستصبـح على هـذه الشاكلة. تحـل لنفسك امرأة مخطوبة لأمير من العائلة الامبراطورية، بعد أن صدّق الأمبراطور نفسه

على الزواج! وتمضي الى حد أنها تحمل منك! تلطخ شرف عائلتك! تلقي بالوحل على وجه أبيك! أيمكن أن يكون هناك خروج على واجبات البنوة وشق لعصا الطاعة أسوأ من ذلك؟ لو أن ذلك وقع في الأيام الخوالي لاضطررت، بحسباني أباك، الى بقر بطني والانتحار إعلاناً بتوبتي لدى الإمبراطور. لقد تصرفت مثل بهيمة، أتيت شيئاً منكراً. أتسمعني؟ ما الذي لديك لتقوله في معرض الدفاع عن نفسك يا كيواكي؟ ألا ترد عليّ؟ أتواصل تحديك لي؟ أتواصله؟

في اللحظة التي أدرك فيها كيواكي الاندفاع اللاهث في كلمات أبيه، تنحى جانباً ليتجنب عصا البليارد، التي هوت عليه، لكنه رغم ذلك تلقى ضربة حادة على ظهره. أتبعها أبوه في الحال بأخرى، شلت ذراعه التي حاول أن يحمي بها ظهره. وفيما هو يسعى مضطرباً للوصول الى ملاذه الوحيد، أي باب المكتبة، هوت ضربة ثالثة، قصد بها أن تنال من رأسه، فأخطأت هدفها، وأصابت مستعرضة أرنبة أنفه. في هذا الموضع ارتطم كيواكي بمقعد كان يعترض طريقه، وهوى الى الأرض، متشبثاً بذراع المقعد، فيما هو يسعى للتخفيف من حدة سقوطه. وعندما بدأ الدم يشخب من أنفه، أقلع أبوه عن مواصلة الضرب بعصاه.

لا بد أن كل ضربة قد انتزعت صرخة حادة من كيواكي، وانفتح الآن باب المكتبة لتطل جدته وأمه في الدهليز. وقفت الأميرة ترتجف الى جوار حماتها، فيما تصلب زوجها، الذي كان لا يزال يمسك بعصاه، ويلهث بشدة.

سألت جدته:

ـ ما هذا؟

لدى ذلك، بدا أن الأمير قد لاحظ وجود أمه، للمرة الأولى، على

الرغم من آن التعبير المرتسم على ملامحه قد كشف عن أنه يجد من المتعذر عليه أن يصدق أنها تقف في الدهليز بالفعل. وكان أكثر عجزاً عن تخمين كيفية وصولها الى هناك: أنه ربما حين أدركت زوجته مسار الأحداث، مضت لإحضارها. لم يكن وضع أمه لقدمها خارج الدار، التي اعتكفت فيها، بالحدث الذي يقع كل يوم.

ـ جلب علينا كيواكي العار. ستفهمين جلية الأمر، إذا قرأت رسالة تاديشينا الوداعية الموضوعة على المنضدة، هناك.

ـ هل انتحرت تاديشينا؟

ـ جاءت الرسالة بالبريد، ثم اتصلت هاتفياً بآل أياكورا للاستفسار. . .

ـ وماذا وجدت؟

قالتها أمه، وقد اقتعدت كرسياً، الى جوار المائدة الصغيرة، فيما راحت تنتزع ببطء من زنارها الكيس المخملي الأسود، الذي يضم عويناتها، التي تضعها لتقوية بصرها المتخاذل، فتحت الكيس، الذي يشبه حافظة نقود، بعناية.

فيما وقفت الأميرة ترقب حماتها، أدركت فجأة السر في أن هذه الأخيرة لم تلق حتى مجرد نظرة على حفيدها. كان ذلك مؤشراً الى إصرارها على معالجة أمر الأمير بمفردها. وإذ أحست الأميرة بذلك، اندفعت في ارتياح الى جوار ولدها. كان قد أخرج بالفعل منديله، وأمسكه واضعاً إياه على أنفه الدامي، ولم يبد أن الجرح خطير.

كررت أم الأمير قولها، وهي تفض اللفيفة:

ـ وماذا وجدت؟

أحس ابنها بأن شيئاً في داخله يتقوّض متداعياً.

ـ اتصلت هاتفياً، واستفسرت عن تاديشينا. لقد أمسكوا بها في الوقت المناسب، وهي تتماثل للشفاء. وسألني النبيل متشككاً كيف اتفق أنني علمت بالأمر. فلم يكن يدري، فيما يبدو، بأمر رسالتها. لقد تناولت جرعة زائدة من أقراص منومة، وحذّرت النبيل مؤكدة أن عليه بمنع تسرب كلمة واحدة عن الأمر، الى خارج الدار. ولكن بما أن ابني هو المخطىء، إذا ما أخذنا بكل شيء في الاعتبار، فليس بمقدوري إلقاء كل اللوم على النبيل أياكورا. هكذا، أصبح الحوار بكامله أمراً لا طائل وراءه، فعلينا أن نلتقي لنحسم الأمر، فيما بيننا، هكذا قلت له، ولكن... على أية حال، هناك شيء واحد على الأقل واضح: ما لم أصل بنفسي الى قرار، فلن يتم إنجاز شيء.

ـ أصبت، أصبت تماماً.

قالتها السيدة العجوز، بذهن شارد، فيما هي تمر ببصرها عبر السطور.

من الغريب حقاً أن قوتها الريفية البسيطة ـ الجبين الثقيل المتألق بالصحة، الخطوط القوية الصريحة للوحة، البشرة التي لا تزال ضاربة الى الحمرة، من جراء الشمس اللاهبة لجيل خلا، الشعر المرفوع المصبوغ بلون أسود بسيط لامع ـ سيماها تناسقت تمام التناسق مع المشهد الفيكتوري العام الذي يسود قاعة البليارد.

ـ طيب، لا يبدو أن اسم كيواكي مذكور في أي موضع. أليس كذلك؟

ـ رجاء، ذلك الجزء الذي يتحدث عن «في إطار العائلة». إن نظرة واحدة ينبغي أن تكون كافية لإبلاغك بأنها غمزة مقصودة. ولكن بغض النظر عن أي شيء آخر، فقد سمعت بالأمر من بين شفتيه، واعترف بأن الجنين طفله. وبتعبير آخر، فأنت في الطريق الى أن تصبحي جدة كبرى، يا أماه، ولوليد سفاح كذلك.

ـ ربما كان كيواكي يحمي أحداً، واعترافه زائف.

ـ لسوف تقولين أي شيء على الاطلاق يا أماه. أليس كذلك؟ أرجو أن تمضي قدماً، وتسألي كيواكي بنفسك!

أخيراً، التفتت الى كيواكي، وحادثته بحب، كأنما هو طفل لم يتجاوز الخامسة أو السادسة من عمره.

ـ أصغ يا كيوكي! أنظر اليّ مباشرة. انظر الى عيني جدتك مباشرة وأجب على سؤالي، وعندئذ لن يكون بمقدورك التفوه بأكاذيب مختلقة. الآن ما قاله أبوك هل هو صحيح؟

التفت إليها كيواكي، مسيطراً على الألم، الذي لا يزال يستشعره في ظهره، وممسكاً بمنديله، الذي لطخه الدم، فوق أنفه، الذي كان الدم لا يزال ينزف منه. وبالدموع في عينيه، ولطخ الدم التي تعلو أنفه، المتورم، بدا حدثاً على نحو مثير للرثاء كأنه جرو سائب الأنف.

ـ صحيح.

قالها كيواكي مسرعاً بصوت حاد، ممسكاً في التو بمنديل جديد قدمته له أمه، ووضعه على أنفه.

عندئذ ألقت جدته خطاباً، بدا أنه يردد أصداء وقع حوافر الجياد، وهي تنطلق حرة، خطاب مزق في بلاغة المجاملات التقليدية إرباً.

ـ إيداع جنين في رحم خطيبة أمير من العائلة الأمبراطورية! الآن ها نحن بين يدي انجاز. كم من الفتية ذوي الابتسامات المتكلفة يستطيع القيام بأي شيء من هذا القبيل؟ لا شك في الأمر ـ إن كيواكي هو الحفيد الحق الذي إنحدر من صلب زوجي. لن تندم على ذلك حتى ولو أودعوك السجن عقاباً عليه. من المؤكد على الأقل أنهم لن يعدموك.

ستكون هذه الزيارة طبيعية تماماً. وكانت رئيسة الدير مولعة بها، منذ كانت صبية صغيرة. وهكـذا، فإنها ستـذهب الى أوساكـا لتحظى بـرعايـة دكتور موري لها، ثم تخلد الى الراحة يوماً أو يـومين. ثم تمضي الى نـارا. سيكون هذا خير سبيل. وأحسب أن أمها ينبغي أن تذهب معها. . .

قالت العجوز، متجهمة:

ـ ليست أمهـا فحسب، فلن يكفي هـذا؛ إذ لا يمكن تـوقـع أن تضـع النبيلة أيـاكورا مصـالحنا نصب عينيهـا. ينبغي على أحـد من هنـا أن يمضي بصحبتهـما، ويرعى الفتـاة قبل وبعـد علاج دكتـور موري لهـا. وينبغي أن يكون هذا الشخص امرأة. وهكذا. . .

فكرت في الأمر قليلاً، ثم التفتت الى أم كيواكي، وقالت:

ـ تسوجيكو، امضي معها!

ـ طيب.

ـ ويتعين أن تفتحي عينيك، طوال الوقت. لست مضـطرة الى الذهـاب الى نارا معها. ولكن ما إن تري الأمر الجوهري قد تم، فعليك بالعـودة الى طوكيو، بأسرع ما يمكنك، لاطلاعنا على تفاصيل الأمر كله.

ـ مفهوم.

قال الأمير:

ـ أمي محقة. قومي بـأداء ما قـالته! سـأحدِّث النبيـل أياكـورا في الأمر، وسنقرر اليوم الذي تغادر فيـه طوكيـو، سيتعين القيـام بكل شيء بحيث لا يصل أحد الى أدنى لمحة مما يجري.

ساور كيواكي شعور بأنه أصبح جزءاً من خلفية الأحـداث، وأن حياتـه وحبه لساتوكو يجري التعامل معهما كأمور انتهت بـالفعل. وأمـام عينيه بـدا

أبوه وأمه وجدته وكأنهم يعدون في عناية للجنـازة، دون أن يعنيهم في شيء أن بمقدور الجثة سماع كل كلمة تقال. وحتى قبل جنازته بدا أن شيئاً ما قـد دفن. وهكذا كان من ناحية جثة يجري الاعتناء بأمـرها ومن نـاحية أخـرى طفلاً ليس له من يلوذ به يجري تعنيفه بقسوة.

هكذا، كان كل شيء يمضي قدماً في يسر نحو نهايـة مرضيـة تمامـاً، على الرغم من أن الشخص الذي يمسه الأمر بأعظم قدر من الحميمية لم يكن له دور فيه، كما جرى تجاهل رغبات آل أيـاكورا أنفسهم. وحتى جـدته، التي كـانت منـذ لحـظة واحـدة فحسب تتحـدث بجـرأة بـالغـة، بـدا الآن أنها مستغرقة في مباهج معالجة أزمة عائليـة. كانت شخصيتهـا مختلفة عـلى نحو جوهري عن شخصيتـه بما في هـذه الأخيرة من هشـاشة، وبينـما أوتيت من الذكاء ما أدركت معه النبل الضاري القـابع في قـرار سلوكه غـير المشرف، إلا أنه ما إن يتعرض شرف العائلة للخـطر، حتى يمكنها هـذا الذكـاء عينه من أن تنحّي إعجابها جانباً، وأن تخفي عـلى نحو ينـاسب مقتضى الحال أيـاً من مثل هذه التخيلات. وبمقدور المرء أن يفترض دون أن يجـانبه الصـواب أن هــذه السمـة تعــود لــديهــا لا الى شمس الصيف التي ألهبت خليــج كاجوشيما، وإنما الى ما تعلمته من زوجها، جد كيواكي.

نظر الأمير الى كيواكي مباشرة، للمرة الأولى، منذ أن وجه عصا البليارد إليه.

ـ من الآن فصـاعداً، ستعتكـف في هـذه الدار، وستضـطلع بواجبـاتـك باعتبارك طالباً، وستنفق طاقتك بأسرها في الدراسة، تـأهباً لـلامتحانـات. أتدرك هذا حق الادراك؟ لن أتحدث عن هذا الأمر أكثر من ذلك. هذا هو مفترق الطرق، فإما أن تصبـح رجلاً أو لا تصبح. أما فيـما يتعلق بساتـوكو فلست بحاجة الى القول بأنك لن تراها، بعد الآن، مرة أخرى.

قالت جدتــه:

قالتها الجدة، وقد بدا واضحاً أنها تستمتع بالموقف، الآن تلاشت الخطوط الصارمة حول فمها، وبدا أنها تتوهج باغتباط مترعٍ بالحياة، كأنما تحت عفهها نحّتْ عنها عشرات السنوات من الكآبة الخانقة، نافضة بضربة واحدة الحجاب المطبق على الأعصاب الذي كسا الدار منذ أصبح الأمير الحالي سيداً لها. كما أنها لم تكن تلقي اللوم على ولدها وحده، وإنما كانت تتحدث الآن انتقاماً أيضاً من كل أولئك الآخرين، الذين أحاطوا بها في شيخوختها والذين كانت تحس بقوتهم الخؤون تطبق عليها لتسحقها. تردد صوتها مرح الأصداء، مقبلاً من عصر آخر، عصر حافل بضروب الجيشان، عصر عنيف نسيه هذا الجيل، لم يكن السجن ولا الموت يقمعان أحداً فيه، عهد كان التهديد فيه بالأمرين كليهما جزءاً من نسيج الحياة اليومية. كانت تنتمي الى جيل من النساء لا يكترث بغسل أطباق طعام العشاء في نهر تطفو فيه الجثث، منداحة الى البعيد. تلك كانت الحياة! أما الآن فكم هو أمر جدير بالاهتمام أن هذا الحفيد، الذي يبدو للوهلة الأولى عاجزاً للغاية، قد أحيا أمام ناظريها روح ذلك العهد.

راحت السيدة العجوز تحدِّق في الفراغ، وفي عينيها نظرة مخمور، على وجه التقريب. موَّج الأمير والأميرة وجهها في صمت مترع بالصدمة ـ وجه عجوز بالغ الجهامة، حافل بالحسن الريفي الخشن، بحيث لا يجمل تقديمها للكافة بحسبانها سيدة دار الأمير.

قال الأمير بصوت واهن، وقد نفض عن نفسه هذه الغيبوبة، أخيراً:

ـ أماه، ماذا تقولين. إن هذا يمكن أن يعني هلاك آل ماتسوجاى، كما أنه أيضاً إهانة بالغة لأبي.

ردت في الحال:

ـ ذلك صحيح تماماً، وهكذا فإن ما ينبغي عليك التفكير فيه ليس إنزال

العقاب بكيواكي وإنما ما هو خير سبيل لحماية آل ماتسوجاى. الأمة مهمة، بالطبع، ولكن علينا أن نفكر في أمر العائلة كذلك. فنحن، في نهاية المطاف، لسنا مثل آل أياكورا، الذين تمتعوا بالعطف الأمبراطوري لما يزيد على سبعة وعشرين جيلاً. أنشبههم الآن؟ هكذا فلا بد من القيام بما تفكر فيه.

- طيب، ليس أمامنا خيار إلا أن نمضي في الأمر، كأنما لم يحدث شيء، وصولاً الى الخطبة فالزفاف.

- هذا واضح وجميل، لكنه لا بد من القيام بشيء، فيما يتعلق بجنين ساتوكو، بأسرع ما يمكن. ولو تم ذلك في أي مكان قرب طوكيو، واكتشفته الصحف، فسوف تجد نفسك في ورطة بديعة. أليس لديك شيء عملي تقترحه؟

رد الأمير، بعد لحظة من التفكير:

- أوساكا هي المكان المناسب. وسيقوم دكتور موري بإجراء العملية، لأجل خاطرنا، في سرية تامة، وسأجزل له العطاء، بالمقابل. ولكن ساتوكو سيتعين أن يكون لديها سبب مقنع للذهاب الى أوساكا.

- لآل أياكورا العديد من الأقارب. وهكذا، ألن تكون فرصة سانحة أن نرسل ساتوكو لزيارتهم وإبلاغهم بنفسها بنبأ خطبتها؟

- ولكن إذا تعين أن تزور عدداً من الأقارب، ولاحظوا حالتها... فإن ذلك لن يكون مجدياً على الاطلاق. ولكن مهلاً، فلديَّ الفكرة! ماذا عن إرسالها الى معبد جيشو، في نارا، للإعراب لمرة أخيرة عن تقديرها لرئيسة الكاهنات قبل زواجها؟ ألن يكون ذلك خياراً أفضل؟ إنه معبد كان على الدوام وثيق الصلة بالعائلة الأمبراطورية، وهكذا سيكون من المناسب تشريف رئيسة الكاهنات على هذا النحو. وإذا أخذنا كل شيء في الاعتبار

ـ في الأيـام الخوالي كـانوا يـدعون ذلـك بتحديـد الإقـامـة. إذا سئمت دراستك مرة، فتعال لزيارة جدتك!

وعندئذ، وضح لكيواكي أنن أباه ليس بمقدوره الآن أن يتخلـى عنـه أبداً ـ فقد كان أكثر خوفاً مما ستتقوله الدنيا.

كان النبيل أياكورا يستحيل الى مخلوق رعديد، لا أمل يرجى منه، إذا ما واجه أموراً من نوعية الإصابة بجرح أو مرض أو حالة وفاة. وقد ساد اضطراب تام في ذلك الصباح الذي لم تنهض فيه تاديشينا من مرقدها. جلبت الكلمة، التي تفيد بانتحارها، والتي تركت على وسادتها الى النبيلة أياكورا، في الحال، وعندما سلمتها بدورها الى زوجها، فتحها بأطراف أصابعه، كأنها مليئة بالجراثيم، وتبين أنها لا تعدو أن تكون رسالة وداعية تعتذر فيها عن ألوان القصور العديدة، التي شابت خدمتها للنبيل والنبيلة وساتوكو، وتعرب عن شكرها لهم لكرمهم السابق، أي تلك النوعية من الرسائل، التي يمكن أن تقع في أية يد، دون أن تثير التشكك.

بعث النبيل في استقدام الطبيب من فوره. ولم يمض بنفسه، بالطبع، لرؤية ما وقع، وإنما قنع بتلقي تقرير كامل من زوجته، في وقت لاحق.

ـ لقد إبتلعت مائة وعشرين قرصاً منوِّماً. لم تسترد وعيها بعد، لكن الطبيب حدثني بما أقدمت عليه. يا الهي! ترامى ذراعاها وساقاها، وتقلّص جسمها كأنه قوس ـ يا لها من فوضى! لم يدر أحد من أين لهذه العجوز بمثل هذه القوة. ولكننا جميعاً أمسكنا بها، وأعقب الحقن ذلك، ثم أفرغ الطبيب ما في معدتها ـ كان ذلك مشهداً مخيفاً، حاولت إبعاد ناظري عنه. وفي نهاية المطاف، أكّد لي الطبيب أنها ستحيا. ما أعجب أن يصادف المرء هذه التجربة! قبل أن يتلفظ بشيء، تشمم الطبيب نفسها، وقال: «آه، رائحة ثوم. لا بد أنها حبوب الكالموتين». عرف ذلك في التو.

ـ أقال كم يلزمها لكي تتعافى؟

ـ أجل، فقد تلطف بإبلاغي بأنها ينبغي أن تلزم الراحة، لمدة عشرة أيام، على الأقل.

ـ تأكدي من أنه ما من شيء من هذا سيتسرب الى خارج الدار. سيتعين عليك تحذير النسوة بأن عليهن التزام الصمت، وسوف نتحدث مع الطبيب كذلك. ما تأثير هذا على ساتوكو؟

ـ لقد اعتكفت في غرفتها، ورفضت حتى مجرد رؤية تاديشينا. وفي حالتها الراهنة، أحسب أنه لن يكون مناسباً لها أن تزورها عاجلاً، ثم إنها لم تفه بحرف منذ طرحت تاديشينا علينا ذلك الموضوع، ولذا فربما لا تحس بالميل الى الاندفاع لرؤيتها. وأفضل ما يمكن القيام به هو أن ندعها وشأنها.

قبل خمسة أيام، وعندما حارت تاديشينا في أمرها، أنهت نبأ حمل ساتوكو الى النبيل والنبيلة أياكورا، ولكن النبيل بدلاً من أن يسيطر عليه غضب عارم، ويمطرها بالسيل العرم المتوقع من التوبيخ، استجاب للأمر بفتور همة بالغ، الى حد دفعها، في غمار يأسها، الى كتابه الرسالة للأمير ماتسوجاي، ثم الى تناول جرعة زائدة من الأقراص المنومة.

كانت ساتوكو قد أصرت على رفضها لنصيحة تاديشينا. وعلى الرغم من أن حدة الخطر كانت تتفاقم مع انقضاء كل يوم جديد، فإنها لم تأمر تاديشينا بألا تفوه بكلمة لأحد عن الموضوع فحسب، وإنما لم تشر أدنى إشارة الى أنها ستتوصل الى قرار في هذا الشأن بنفسها. وهكذا، وإذ عجزت تاديشينا عن تحمل وقر الأمر أكثر من هذا، خانت سيدتها بإفشاء سرها الى أمها وأبيها. ولكن النبيل والنبيلة ـ ربما لأن النبأ كان ضربة صاعقة ـ لم يظهرا قلقاً يفوق ما يمكن أن يظهراه في حالة ما إذا كان النبأ هو هرب قطة بإحدى الدجاجات في الفناء الخلفي.

تصادف، في اليوم الذي أبلغت فيه تاديشينا النبيل بالنبأ، وفي اليوم الذي تلاه كذلك، أنها قابلته، ولكنه لم يشر إلى اكتراثه بالمشكلة. وفي حقيقة الأمر، فإن المشكلة هزته بعمق، ولكن بما أنها كانت أكثر تشعباً من أن يعالجها وحده، وأكثر إثارة للحرج من أن يناقشها مع الآخرين، فقد بذل قصارى جهده لإبعادها عن ذهنه.

اتفق مع زوجته على ألا يحدثا ساتوكو في الأمر، إلا بعد أن يتأهب لاتخاذ تحرك ما. غير أن ساتوكو، التي كانت الآن في أشد حالاتها الماحية، أخضعت تاديشينا لتحقيق صارم، وهكذا، اكتشفت ما وقع. ولدى توصلها الى هذا اعتكفت في غرفتها، ورفضت أن يكون لها بها أي اتصال، وساد الدار صمت رهيب. كفت تاديشينا عن تلقي أي اتصالات من خارج الدار، قائلة للخدم إنها مريضة.

تجنب النبيل تناول المشكلة حتى مع زوجته. كان يدرك تمام الادراك الطبيعة المخيفة للظروف الراهنة، وضرورة اتخاذ تصرف فوري حيالها، ولكنه مع ذلك واصل التسويف في الأمر. غير أن ذلك لم يعن أيضاً أنه يؤمن بالمعجزات.

تميز شلل النبيل أياكورا بمصاحبته لنوع من التفكير الدقيق. فعلى الرغم من أنه لم يكن بمقدور المرء إنكار أن افتقاره المزمن للحسم تضمن نزعة معينة للتشكك، فيما يتعلق بقيمة أي قرار على الاطلاق، إلا أنه لم يكن متشككاً بالمعنى العادي للكلمة، وعلى الرغم من أنه غرق في التأمل من الصباح الى المساء، فقد كره أشد الكره أن يوجه احتياطياته الانفعالية الهائلة نحو استنتاج واحد. كان هناك الكثير من الروابط المشتركة بين التأمل وبين «الكيماري»، الرياضة التقليدية لآل أياكورا. فمهما علت الكرة عندما يضربها المرء، فمن الواضح أنها ستسقط الى الأرض ثانية. وحتى إذا كان بمقدور سلفه المجيد، نامبامونيتاتي، أن ينتزع صيحات الاعجاب لدى

التقاطه الكرة البيضاء المصنوعة من جلد الغزال من سيورها الجلدية الأرجوانية وقذفها الى ارتفاعات لا يمكن تصديقها حتى لتتجاوز سقف القصر الأمبراطوري ذاته الذي يزيد ارتفاعه على تسعين قدماً، فلا بد لها حتماً من أن تسقط ثانية في الحديقة.

ولما كانت كل الحلول تترك شيئاً مرغوباً فيها يتعلق بالذوق الرفيع، فقد كان من الأفضل انتظار شخص آخر ليتخذ القرار الكريه، كان يتعين أن تمتد قدم شخص آخر لتعترض الكرة الساقطة. وحتى إذا سدد المرء الكرة بنفسه، فمن المحتمل تماماً أن تمسك بها نزوة غير متوقعة، من تلقاء ذاتها، فيما هي تبلغ قمة قوسها، وتقبل مندفعة الى أسفل، في انحراف جديد، لا يمكن التنبؤ به.

لم يطرح احتمال الدمار قط أمام النبيل أياكورا. وإذا لم تكن أزمة خطيرة تحمل خطيبة أمير من العائلة الإمبراطورية، صدر تصديق من الإمبراطور نفسه على خطبتها، بجنين رجل آخر في رحمها، فإن الدنيا لن تعرف قط أزمة خطيرة. ومع ذلك فإن الكرة الهاوية لن تكون كرته التي يتعين عليه تسديدها، ومن المؤكد أنه سيحل دور رجلٍ آخر لمعالجة الموقف. ولم يكن النبيل بالرجل الذي تثير الهموم ضيقه طويلاً، وكنتيجة حتمية لذلك، فإن همومه انتهى بها المطاف، دائماً، إلى أن تثير ضيق آخرين.

ثم تصادف أنه في اليوم الذي أعقب ضجة محاولة تاديشينا الانتحار أن اتصل به الأمير ماتسوجاى هاتفياً.

كان أمراً يستعصي على التصديق، بالنسبة للنبيل أياكورا، أن يعرف الأمير ماتسوجاى بما وقع، على الرغم من كل الجهود التي بذلت لتكتمه. وما كان ليدهش لو علم بأن هناك مرشداً في داره. ولكن بما أن المشتبه الأول لديه، أي تاديشينا نفسها، كان في حالة غيبوبة طوال اليوم السابق، فإن أكثر تكهناته احتمالاً تركت بأسرها، وقد سحبت الأرض من تحتها.

بعـد أن علم النبيل من زوجتـه بأن تـاديشينا تتعـافى بمعـدل طيب، وأن بمقدورها الحديث، بل وقـد استردت شهيتهـا، استجمع أطـراف شجاعتـه وقرر زيارة غرفة المريضة بنفسه.

قال لزوجته:

ـ ما من حاجة تدعـوك الى القدوم معي، سـأمضي بنفسي لرؤيتهـا، ربما تكون المرأة أكثر ميلاً على ذلك النحو للإفضاء بالحقيقة.

ـ لكن الغرفة في حالة فظيعة، وإذا ما زرتها دون سـابق إنذار فـإن ذلك سيكون مدعاة ضيق لها، سأمضي وأبلغها بـالأمر أولاً، وأسـاعدهـا على أن تعد نفسها للزيارة.

ـ كما تشائين

تعين على النبيل إحتمال ساعتين من الانتـظار، فعندمـا سمعت المريضـة النبأ من النبيلة شرعت على الفور في أخذ زينتها.

كانت قد منحت ميزة استثنائيـة بشغل غـرفة في الـدار الرئيسيـة، ولكن إتساعها لم يتجاوز عرض أربع حصر ونصف حصيرة، ولا تدخلها الشمس قط. وعندما رُتّب فراشها شغل أرضية الغرفة بكاملها على وجه التقـريب. ولم يسبق للنبيل أن ولجها من قبل.

أخيراً، أقبلت خادم لاصطحابه الى الغرفة. وضع مقعد له على الأرضية المكسـوة بالحصـير، نحيت أغطية فراش تـاديشينا. ارتـدت رداء سابغاً ذا كمين طويلين، وأسندت مرفقيها الى كومة من الوسـائد وضعت في حجرها، انحنت في توقير حينما دخل السيد الغرفـة. وفيما هي تقـوم بذلـك، بدا أن جبينها يضغط على الوسائد الموضـوعة أمـامها، ولكنـه لاحظ أنه رغم كـمال انحنائها، فـإنها تغلبت على ضعفهـا بقدر كـان يتيح لهـا فرجـة خفيفة بـين جبينها والوسـائد، فقـد كانت تخشى من اضـطراب زينتها، ذلـك الامتـداد

الناعم من البياض الغليظ المتجمّد، الذي يصل حتى خط شعرها المرفوع الى أعلى بمزيد من التدقيق.

استهل النبيل الحديث، عقب الجلوس:

ـ طيب، مررت بمحنة حقاً، لكنك اجتزتها، وهذا هو الأمر المهم. ما كان يجب أن تثيري قلقنا على هذا النحو!

على الرغم من أنه وجد أن ليس هناك ما يثير الارتباك في النظر اليها من علٍ، من مكانه في المقعد، فقد ساوره شعور بأنه لسبب ما لا يصل صوته ولا ما يقصده اليها.

ـ ما أقل جدارتي بتلقي زيارة سعادتكم! اني لفي قرار مكين من شعور بالخوف، وليس بمقدوري أن أعبر لكم على نحو مناسب عن الشعور بالعار الذي يستبد بي...

كان رأسها لا يزال منكساً، وبدا أنها تجفف عينيها بمنديل ورقي استلّته من ردن ردائها، ولكنه أدرك أنها في قيامها بذلك كانت تحرص مجدداً على الحفاظ على زينتها.

ـ يقول الطبيب إن عشرة أيام من الراحة ستكون كافية للعودة الى ما كنت عليه من قبل ثانية، فما عليك إلا الاسترخاء ونيل نصيب طيب من الراحة الممتدة.

ـ رآه، شكراً لك يا مولاي، لقد جللني العار، بعد أن أخفقت على نحو بائس في محاولة الانتحار.

فيما النبيل يطل من علٍ على العجوز الملتفة بسترة منامة خمرية اللون مزينة بزهور الاقحوان، ويحسّ بالرائحة الطاغية التي تحيط بمن مضى في طريق الموت، لا لشيء إلا ليعود من رحابه، اشتم الرائحة الكريهة، التي علقت بكل شيء، في الغرفة الصغيرة، وحتى بالخزانة والأدراج، فتفاقم شعوره

بعدم الارتياح. لم تؤد العناية والمهارة التي تجلت في وضع الزينة البيضاء السائلة على مؤخر العنق، الذي كان لا يزال مرئياً، فيما هي تحني رأسها، والتي رتبت تسريحة شعرها بحيث أنه ما من شعرة واحدة نفرت من موضعها، إلا الى مفاقمة شعوره، الذي يستعصي مصدره على التحديد، بالخوف.

قال، طارحاً السؤال على نحو عرضي، بقدر ما يستطيع:

ـ أدهشني أن أتلقى بالفعل مكالمة هاتفية من الأمير ماتسوجاى اليوم. إنه يعرف بالفعل ما وقع، وهكذا فكرت في سؤالك عما إذا لم يكن لديك تفسير لهذا الأمر.

ولكن هناك أسئلة ترد على نفسها بمجرد صياغتها، فلم تكد الكلمات تندُّ عن شفتيه، حتى عنّت له الاجابة باندفاعة مفاجئة مروِّعة، في اللحظة ذاتها التي رفعت فيها رأسها.

كانت الزينة العتيقة، ذات الطراز البلاطي، التي تكسو وجهها، أكثر غلظاً من ذي قبل، وقد طلت شفتيها بلون أحمر فاتح غطى حدهما الخارجي، ولما لم تكن قد اكتفت بحجب التجاعيد بالزينة، فقد وضعت طبقة فوق أخرى من البياض للتوصل الى سطح ناعم لم يتماسك، رغم ذلك، مع بشرتها، التي أخشوشنت من جراء المحنة الأخيرة، التي تعرضت لها. وبدا التأثير النهائي كما لو أن طبقة الزينة، إذ تتشبث بجلدها، تحاكي خطراً أبيض أفرزته المسام. أشاح النبيل بناظريه، على نحو ماكر، قبل أن يشرع في الحديث ثانية.

ـ لقد كتبت للأمير مسبقاً. أليس كذلك؟

ـ بلى، يا مولاى!

ردت بها تاديشينا، ولا يزال رأسها مرفوعاً، فيما صوتها ثابت تماماً، وأضافت:

ـ لقد قصدت الانتحار حقاً؛ ولذا كتبت إليه متوسلة ليقوم بما هو ضروري بعد رحيلي.

ـ أحدّثه بكل شيء في تلك الرسالة؟

ـ كلا، يا مولاى!

ـ أهناك أمور أغفلتها؟

ـ أجل، يا مولاى، هناك أمور عديدة أغفلتها.

قالتها، وقد بدا عليها المرح الآن.

- ٤١ -

على الرغم من أن النبيل أياكورا لم تكن لديه فكرة واضحة تمام الوضوح عن أي شيء قد يرغب في حجبه عن الأمير ماتسوجاى، إلا أنه ما إن سمع تاديشينا تأتي على ذكر ما حذفته، حتى شعر فجأة بعدم الارتياح.

ـ والأمور التي أغفلتها ـ ما هي؟

ـ ما الذي يقصده مولاى؟ لقد رددت عليكم على نحو ما فعلت لأنه سركم سؤالي عما إذا كنت قد حدثت الأمير بكل شيء في الرسالة. ولا بد أن هناك شيئاً في ذهن مولاى يدفعه الى طرح مثل هذا السؤال.

ـ ليس هذا بوقت الحديث في الأحاجي، لقد جئت هنا، وحيداً على هذا النحو لأنني حسبت أن بمقدورنا الحديث بحرية، ودونما اعتبار للآخرين. ولذا سيكون من المناسب أن تقولي بوضوح ما عنيته.

ـ هناك أمور كثيرة، كثيرة، لم أناقشها في تلك الرسالة. ومن بينها الموضوع الذي طاب لمولاي أن يسرّ به إليّ، قبل ثماني سنوات، في دار كيتازاكي. وقد تقصدت الانتحار حاملة ذلك السر في فؤادي.

ـ دار كيتازاكي؟

أخذت أياكورا رجفة، وهو يسمع ذلك الاسم، الذي تردد في مسامعه كأنه ضربات القدر. الآن فهم ما كانت تاديشينا تلمح إليه، وفيما اتضح له الأمر ازداد قلقه عمقاً. استشعر دافعاً يحدوه لاقتلاع أي ذرة من الشك في الأمر.

ـ وماذا قلت في دار كيتازاكي؟

ـ كان ذلك في إحدى أمسيات موسم المطر. لا يمكن لمولاى أن يكون قد نسي. كانت الآنسة ساتوكـو، رغم أنها لم تتجاوز الثـالثة عشرة من عمـرها بعد، تكبر على مهل لتغدو سيدة شابة. وأقبل الأمير ماتسوجـاى الى هنا في ذلك اليوم للقيام بإحدى زياراته النادرة. وعندما أوشك على مغادرة الدار، لم تكن حالة مولاي المزاجية على مـا ينبغي أن تكون عليـه؛ ولذا فقـد مضى إلى كيتازاكي من أجل قليل من الترفيه، وفي تلك الليلة طاب لـه إبلاغي بشيء.

أدرك أياكورا تمام الادراك ما يرمي إليه حديث تاديشينـا. فقد تقصَّـدت صنع سلاح من كلماته في تلك الليلة، وجعل قصـورها مسؤوليـة تلقى على كاهلة كلية. وفجأة ساوره شك في أنها قصدت الانتحار حقاً.

راحت عيناها تـرمقانـه، من محياهـا المكسو في ثقـل بالذرور، من فوق كومة الوسائد، كأنهما فتحتا رمي في أسوار قلعة بيضاء اللون. كـان الظلام القابع وراء ذلك السور يعـج بأشيـاء من رحاب المـاضي، ومن قلبها يمكن أن يندفع سهم نحوه، فيما هو يقف معرضاً في الضوء البراق في الخارج.

ـ لمـاذا تـطرحـين ذلـك الآن؟ لقـد كـان شيئاً قلتـه عـلى سبيـل المـزاح.

ـ أكان كذلك حقاً؟

فجأة، بدت هاتان العينـان، اللتان تشبهـان فتحتي رمي، تضيقان عـلى نحو أكبر. وساوره شعور بأن الظلمة نفسها، بكل كثافتهـا، كانت مصـوبة نحوه، ثم استطردت، بصوت مثقل، قائلة:

ـ ولكن، مع ذلك. . . تلك الليلة في دار كيتازاكي. . .

كيتازاكي، كيتازاكي، راح ذلـك الاسم الملتف بالـذكريـات، التي كان أيـاكورا يحـاول نسيانها، يتـواتر، مـراراً وتكراراً، بـين شفتي هذه العجـوز

الخبيثة. وعلى الرغم من أن ثماني سنوات قد انصرمت، منذ وطئت قدمه تلك الدار، فقد قفزت كل تفاصيلها الآن، مترعة بالحيوية، في ذهنه من جديد. كان النزل ينتصب عند سفح منحدر، وعلى الرغم من أنه لم تكن له بوابة أو دهليز، يستحقان الذكر، فقد كانت تحيط به حديقة لها سور خشبي. حفلت القاعة الأمامية، الرطبة، الكئيبة، وهي بقعة يؤثرها الكسالى والمتبطلون، بأربعة أو خمسة أزواج من الأحذية العسكرية السوداء، وحتى بطاناتها الجلدية، الملطخة، ذات اللون البني المصفر، الملوثة، والمتسخة بالعرق، راحت تلتمع أمام عينيه، شأن زوائد الاسم العريضة المخططة التي تدلت منها. في تلك الليلة، تلقاه ضجيج الغناء الخشن المعربد عند الباب الأمامي، فقد كانت الحرب اليابانية ـ الروسية في أوجها، وكان إيواء الجنود مصدراً محترماً ومؤكداً للحصول على الدخل. وقد خلع ذلك على النزل مظهراً له شهرته، جنباً الى جنب مع رائحة الاسطبل. وفيما جرى المضي به الى غرفة في مؤخرة النزل، سار في الممر كأنه يمر في عنبر حجر صحي، خائفاً حتى من أن كمه قد يمس عموداً في الطريق. فقد كانّ يكن نفوراً بالغاً للعرق البشري، وكل ما له صلة به.

في تلك الليلة من موسم الأمطار، قبل ثماني سنوات، عجز النبيل عن استعادة رباطة جأشه المعتادة بعد وداعه لضيفه الأمير ماتسوجاى. وكانت تلك هي اللحظة التي اختارتها تاديشينا للحديث، بعد أن خمنت في براعة الحالة المزاجية، التي سيطرت عليه، من خلال التعبير المرتسم على محياه.

ـ يحدثني كيتازاكي بأنه قد وصله شيء طريف للغاية، وأنه لا يسعى الى خير من تقديمه لمولاى مرضاة له. ألا ينظر مولاى في أمر الذهاب الى هناك الليلة من أجل قليل من الترفيه فحسب؟

ولما كانت حرة في القيام بأمور من قبيل «زيارة أقاربها»، بعد أن تأوى

ساتوكو الى فراشها، فلم يكن هناك ما يعرقل خروجها، ثم لقاءها للنبيل أياكورا، في مكان يحدد مسبقاً.

استقبل كيتازاكي، بخضوعٍ بالغ، النبيل، وقدّم له شراب الساكي، ثم غادر الغرفة، ليعود إليها حاملاً لفيفة عتيقة، وضعها بمزيد من التوقير على المائدة.

قال معتذراً:

ـ المكان صاخب الليلة حقاً، فأحدهم على وشك الرحيل الى الجبهة، ويقيم حفل وداع. الجو حار على نحو فظيع، ولكن ربما يكون من المناسب، يا مولاى، إغلاق مصاريع المطر.

قصد كيتازاكي أنه بالقيام بإغلاق المصاريع يمكن، إلى حد ما، تقليل أصداء الضجة المنبعثة من الطابق الثاني بالمبنى الرئيسي في النزل. غير أن المطر المنهمر بدا في التو وكأنه يلطم الغرفة بمزيد من الاصرار من جميع الجوانب، محولاً إياها الى قفص يحتويه. خلع عليها اللون المتألق لباب جينجي المنزلق نوعاً من الشهوانية الخانقة اللاهثة، كأن الغرفة ذاتها صورة ملفوفة في لفيفة محظورة.

مدّ كيتازاكي، الذي جلس أمام النبيل، في مزيد من التوقير، يديه الكهلتين المجعدتين، وإن كان مظهرهما لا يوحي بالخبث، الى المائدة، وفك الخيط الأرجواني الذي يربط اللفيفة، ثم شرع في فضها أمام النبيل، كاشفاً، في أول الأمر، عن نقش حافل بالادعاء يعلو اللفيفة. كان استهلالاً خاصاً:

«مضى تشاو تشو، ذات يوم، الى إحدى الكاهنات ليقول لها: «أتأخذينه؟ أتأخذينه؟». وعندما لوحت الكاهنة بدورها بقبضتيها في وجهه

غاضبة، مضى لطيته في الحال، صائحاً: «الماء الضحل لا يجيد استقبال السفن».

يا لحر تلك الليلة الخانق! لم تزدد الرطوبة الجاثمة إلا تفاقماً من جراء الهواء الذي راحت تاديشينا تحركه وراءه بمروحتها. وبدت له معادلة لما يخرج عن وعاء أرز يتصاعد منه البخار. كان الساكي قد بدأ يحدث مفعوله، فتناهى إليه وقع المطر في الخارج، كأنه يلطم مؤخرة جمجمته، ضاع العالم الخارجي في الخواطر البريئة عن الانتصار في الحرب. هكذا جلس النبيل يتطلع الى اللفيفة الخلاعية. فجأة، اندفعت يدا كيتازاكي كالبرق في الهواء، لتلطما معاً بعوضة. اعتذر في الحال لما سببته الضجة من إزعاج، ولمح النبيل اللطمة السوداء الصغيرة المتمثلة في البعوضة الصغيرة، في راحة يده البيضاء الجافة، جنباً الى جنب مع بقعة دم حمراء، وهي صورة قذرة، أثارت اضطرابه. لماذا لم تلسعه البعوضة؟ أكان حقاً محمياً على نحو جيد من كل شيء؟

كانت الصورة الأولى في اللفيفة هي صورة كبير كهنة يرتدي رداء بني اللون وأرملة شابة يجلسان متقابلين، أمام ستار مسدل. كان الأسلوب المستخدم في الرسم هو أسلوب الصور الإيضاحية لقصائد الهايكو، وقد نفذ بلمسة خفيفة فكهة. وصوّر وجه كبير الكهنة على نحو هزلي بحيث يبدو مثل قضيب جسيم.

في الصورة التالية، يثب كبير الكهنة على الأرملة الشابة، دونما سابق إنذار، وقد عقد العزم على اغتصابها، وعلى الرغم من أنها تقاوم، إلا أن كيمونوها يبدو وقد فقد ترتيبه وهندامه. وفي الصورة التي تعقبها ينغمسان في عناق عار، ويبدو التعبير المرتسم على محيا المرأة الآن متراخياً، كأنما مسته يد رحيمة. وبدا قضيب كبير الكهنة كأنه الجذر الملتوي لشجرة صنوبر عملاقة، وبرز لسانه البني، في ابتهاج عارم. ووفقاً لهذا التقليد الفني،

صورت قدماً الأرملة وأصابـع قدميهـا باللون الأبيض الصيني وقـد تقوست القـدمان بشـدة، وتغلغلت الاختلاجـات، سـاريـة عـلى امتـداد فخـذيهـا الأبيضين، المتشنجين، لتصـل في نهاية المطاف الى أصابـع قدميهـا، كأنمـا التـوتر الكـامن هناك يجسـد جهدهـا الـدائب للتشبث بـدفق النشـوة، التي توشك أن تنـدلع الى الأبـد. حدَّث النبيـل نفسه بـأن جهود المـرأة جديـرة بالاعجاب.

وفي غضـون ذلـك، عـلى الجـانب الآخـر من الستـار، اعتـلى عـدد من الرهبان المستجدين طبلاً خشبياً وقمطراً، ومضـوا يتدافعـون بالأكتـاف، في يأس، في غمار حرص كل منهم على أن يشاهد ما يجـري وراء الستار، بينـما انغمسـوا، في الـوقت نفسـه، في كفـاح فكه، لخفض تلك الأعضـاء من أجسـامهم، التي انتفخت بالفعـل، فـاكتسبت أبعـاداً جسيمـة. وفي نهايـة المطاف يتهاوى الستـار، وفيها المـرأة العاريـة تحاول تغـطية نفسهـا، واللواذ بالهرب، وكبير الكهنة يـرتمي أرضاً من فـرط الاجهاد، دون أن يبقى لـديه من القـوة ما يـوبخ بـه الرهبـان الجـدد، يشرع في التكشف مشهـد قـوامـه الفوضى المطلقة.

رسمت قضبـان الرهبـان بحيث تبـدو في طـول أجسـامهم، عـلى وجـه التقريب؛ حيث أن النسب المعتادة ما كانت لتبدو معقولة للفنان، من حيث قـدرتها عـلى الإيحاء بعـظم الوقر، الذي تثقـل بـه شهـوتهم عليهم. وفيـما هم ينتفضون على المرأة، يتراءى وجه كل منهم دراسة فكهة في انفعال يتجاوز الوصـف، ويتعثرون تحت ثقل أعضائهم المنتصبة.

بعـد هذا الكـدح، الذي يعـد بمثابـة عقاب، يكتسي جسم المـرأة بلون شاحب شحوب الموت، وتلقى حتفها. تنسرب روحها من جسدها، وتتخذ لهـا مأوى بـين أغصان شجـرة حور، تهب عليهـا الريـاح. وهنالـك تصبح شبحاً مترعاً بروح الانتقام، وقد صوِّر وجهها على هيئة الفرج.

عند هذا الموضع، فقدت اللفيفة ما كان يتخللها من مرح، وكستها كآبة رهيبة. لم يهاجم شبح واحد الرجال، وإنما العديد من الأشباح، وقد تشابهوا فيما بينهم، فشعرهم تأخذ الريح به، على نحو وحشي، وتنفتح شفاههم القرمزية. وإذ يهرب الرجال، وقد أخذ منهم الذعر كل مأخذ، لا يجدون أنفسهم أنداداً للأشباح، التي اندفعت تهاجمهم بمجموعها مدوّمة، وراحت تمزق قضبانهم وكذلك قضيب كبير الكهنة بفكوكها القوية.

صور المشهد الأخير على شاطىء البحر، حيث يرقد الرجال المشوهون عراة على الشاطىء، وهم يصرخون في يأس، بينما زورق مثقل بقضبانهم الممزقة ينطلق رافعاً شراعه، في رحاب بحر مظلم. تجمعت الأشباح على سطح الزورق، والريح تأخذ بشعرها، وأيديها الشاحبة تلوِّح مودعة، على نحو ساخر، ووجوهها، المصورة على هيئة فروج النساء، تسخر من الصرخات التعسة، الصادرة عن ضحاياها على الشاطىء. ونحتت مقدمة الزورق كذلك على هيئة فرج، وفيما هو يندفع نحو المياه العميقة، يتشبث شعر كشعر العانة به، ونسيم البحر يداعبه.

عندما رفع أياكورا رأسه، أخيراً، عن اللفيفة، أحس بكآبة، تستعصي على التفسير. كان الساكي أبعد ما يكون عن بعث الشعور بالسكينة في نفسه، ولم يؤد إلا إلى تفاقم شعوره بالضيق، لكنه أمر كيتازاكي بجلب المزيد منه، وعكف عليه في صمت. كان ذهنه لا تزال تملؤه صورة المرأة المرسومة في اللفيفة، وقد تشنجت أصابع قدميها متقوسة الى الداخل، وواصل التألق أمام عينيه البياض الشهواني لقدميها اللتين أبدعهما الفنان.

أما ما أتاه، عقب ذلك، فلا يمكن إلا أن يكون عائداً إلى الحر الخانق، في تلك الليلة من ليالي الموسم المطير، وإلى شعوره بالتقزز. قبل أربعة عشر عاماً، وعندما كانت زوجته حبلى بساتوكو، كان قد آثر تاديشينا باهتماماته. وبما أنها كانت في ذلك الحين قد تجاوزت الأربعين من العمر، فقد

كانت تلك نزوة غريبة، ولم تدم طويلاً. وبعد ذلك بأربعة عشرة عاماً، وتاديشينا موغلة في الخمسينات من عمرها لم يدر بخاطره قط أن شيئاً من هذا القبيل سيقع ثانية. على أية حال، وبسبب ما وقع هذه المرة، فإن قدمه لم تجتز مرة أخرى عتبة نزل كيتازاكي.

الأحداث والظروف ـ زيارة الأمير، الضربة الساحقة التي أصابت كبرياءه، الليلة الماطرة، قاعة المؤخرة المنعزلة في دار كيتازاكي، شراب الساكي، التصوير الخلاعي المشؤوم ـ كل هذا أطبق على النبيل أياكورا، ففاقم من حالته المزاجية، التي يسودها الضيق (أما كان الأمر يمكن أن يتجه على نحو يخالف ذلك)، وأشعل فيه نيران الرغبة في تحقير ذاته، الأمر الذي دفعه إلى إتيان ما قام به. وأتمت استجابة تاديشينا، المجردة من أي لوم، مشاعر كراهيته لذاته.

حدّث نفسه، قائلاً: «هذه المرأة ستنتظر أربعة عشر عاماً أو عشرين عاماً أو قرناً من الزمان ـ لا فرق بالنسبة لها. وبغض النظر عن وقت سماعها لصوت سيدها، فإنها أبداً لا يتناهى الصوت إليها دون أن تكون مدركة له».

عبر الظروف، التي لم يكن أي منها من صنع يديه، دفعه دفعاً ضيقه المتقد لأن يلقي بنفسه في غابة مظلمة، حيث كان ذلك الشبح الناهض من اللفيفة الخلاعية يقبع في انتظاره. فضلاً عن ذلك، فإن قوام تاديشينا الذي لم يعرف الترهل، وغزلها له المترع بالتوقير، والفخر الجلي الذي كانت تستشعره، حيال معرفتها الثرة. بفن الهوى، كل ذلك أثر فيه، على نحو بالغ، تماماً كما كان الحال قبل أربعة عشر عاماً.

ربما كان هناك بعض التواطؤ بينها وبين كيتازاكي، الذي غادر الغرفة، ولم يعد. إليها فيما بعد، وفي الظلام الذي أطبق طياته وقع حبات المطر

المنتشر، لم يفه أي منهما ببنت شفـه. ثم تناهت أصـوات الجنود من بعيـد، كرة أخرى، وفي هذه المرة سمع النبيل بوضوح كلمات أغنيتهم:

إلى ساحة القتال
الممزقة بالحديد والنار؛
فمصـير الـدفـاع عن الأمـة
يقع على كاهلكم.
إلى الأمام أيها الرفاق الصناديد!
إلى الأمام أيها الجيش الإمبراطوري!

فجأة، عاد النبيل طفلاً من جديد، استشعـر حاجـة ماسـة إلى التخفف من وقر الغضب، الذي راح ينهشه، فقدم لتاديشينا صـورة مفصلة، تنتمي إلى مجال نُحّي الخدم بعيداً عنه: ذلـك أنه أحس بـأن غضبه ليس نـابعاً منـه وحده، وإنما هو بالأحرى انفعال يصب فيه غيظ أسلافه.

كان الأمير ماتسوجاي قد زاره في ذلك اليوم. وعنـدما أقبلت سـاتوكـو إلى القاعة، لتحية الضيـف، راح الأمير يـداعب شعرهـا، المقصوص عـلى نحو يجعله قصيـراً، ثم ربما بتـأثير السـاكي، الذي احتسـاه، تحدث فجـأة أمام الطفلة: «أي أميرة صغيرة جميلة غدوت! حينما تكبرين ستكـونين من الجـمال بحيث أنـه ما من أحـد سيجد من الكلمات مـا يصفك بـه. أما فيـما يتعلق بالعثور على زوج وسيم، فدعي ذلك لعمك، ولا تـدعي شيئاً يثـير قلقك! إذا كنت تثقين بعمك تمـاماً فسـوف أختار لـك عريسـاً لا نظير لـه، في أي مكان في الدنيا. لن يكون لـدى أبيك مـا يقلق بشأنـه، سأقدم لك جهـاز عرس، فوق قماش طيلساني ذهبي، عنـدما تصبحـين عروسـاً. كم سيكون موكباً ممتداً! من النوع الذي لم تقع عليه عين في كل أجيال آل أياكورا».

كانت مسحة بالغة الضآلة من الجهامة قـد علت محيا النبيلة أيـاكورا، في تلك اللحظة، أما النبيل فاكتفى بالابتسام. كان حرياً بأسـلافه، بـدلاً من الابتسام في مواجهة الإذلال، أن يكشفوا عن قدر كافٍ من حضور البديهة،

ويـردوا الضـربة بمثلهـا. ولكن في هذه الأيـام ـ حينما أصبحت لعبـة الكيماري التقليـدية الأثـيرة عند الأسـلاف، على سبيـل المثال، مجـرد ذكرى ـ لم يكن هناك من سبيل لإبهار أنفاس هذا الرجل الغوغائي. وعندما يقوم رجال من أمثال هذا الدعي، الذي يفيض بحسن النية، والبريء من أي نيـة لتجريـح نبيل أصيل في رفعة شأنه، بطرح إهاناتهم غير المقصودة، فما من شيء يمكن القيام به، إلا الضحك على نحو ملتبس. ومع ذلك، فقد كان هناك عنصر غـامض قليـلاً، يتـأرجـح في الابتسـامـة، التي علت شفتي ذلـك الـرجـل المتحضر، عندما واجهه علو الشأن الجديد المستند إلى المال والجاه.

لـزم النبيـل الصمت، بعض الـوقت، عقب إفضـائـه بهـذا كله إلى تاديشينا. راح يفكر في أنه إذا كان للحساسية أن تثأر لنفسها فكيف يتحقق انتقامها؟ ألم يكن هنـاك انتقام ممـا يليق بنبلاء البـلاط، من نوعيـة الانتقام الذي في إطاره يدسّ البخـور فـي ردن سابـغ لرداء بـلاطي ويسمح لـه بأن يحترق في بطء متحولاً إلى رمـاد دون أن يظهـر أي أثر من آثـار اللهب؟ انتقام مثل هذا يدع سماً خفياً عطراً يتخلل المادة بحيث أن فعاليته تظل على كمالها عبر السنين؟

أخيراً، التفت النبيل إلى تاديشينا، وقال:

ـ سـأطلب منك القيـام بشيء ما، قبـل وقت طـويـل من حلول أوانـه. عنـدما تكبـر سـاتوكـو، فإننـي أخشى أن كـل شيء سيمضـي وفقاً لـرغبـة ماتسوجاي، وهكذا فإنه سيكون الشخص الذي سيرتب أمر زواجهـا. ولكن حينـما يكون قـد قام بـذلك، وقبـل إتمام الـزواج، أريدك أن تمضي بهـا إلى فـراش رجل يـروق لها، رجـل يعـرف كيف يلزم الصمت. لست أكـترث بمكانته الاجتماعية ـ طالما أنها مولعة به. لست أعتزم تسليم سـاتوكـو عذراء عفيفة لأي عريس يتعـين عليّ شكـر ماتسـوجاي عـلى إحسانـه لجلبه إيـاه. وهكـذا، سأجعـل أنف ماتسـوجاي راغـماً دون أن يدري عن الأمـر شيئاً.

ولكن مـا من أحد سيعلم شيئاً عن هـذا، ولا تراجعيني فيـما يتعلق بهـذا الأمر. إنه شيء ينبغي عليك القيام بـه كأنـه خطيئـة اقترفتهـا بمبادرة منـك وحدك. وهناك جانب آخر في الأمر: بما أنك تعادلين خبيرة ،في كـل الأمور الجنسية، فليس بالأمر الجلل بالنسبة لك أن تلقني ساتوكو بدقة بالغة تحقيق إنجازين مختلفين للغاية. أليس كذلك؟ الأول أن تجعـل الرجـل يعتقد أنـه يفترع عذ راء بينما هو ليس كذلك. والثاني، على العكس من ذلك، أن تجعل الرجل يعتقد أنها قد فقدت عذريتها، بينما هي في حقيقة الأمر لم تفقدها.

ردت تـاديشينـا، دون أن يشى صـوتها بـالتردد أو الاستياء: ـ يكفيني أن تقول هذا يا مولاي! هنـاك أساليب فعـالة فيـما يتعلق بالأمـرين معاً بحيث ينتفي خـطر إثارة الشكـوك حتى من جانب أكـثر الـرجـال حنكـة وتهتكـاً. وهكذا، فسوف أتجشم عناء تلقين ذلك للآنسة ساتوكو. غير أني أتساءل عـما إذا كان يسمح لي بالاستفسار عما بذهن مولاي فيما يتعلق بـالأمر الثـاني من هذين الشيئين.

ـ المقصود هو ألا يزدهي الفخار، بأكثر ممـا ينبغي، الشخص الذي يلج عروس آخر، قبل الزفـاف، حول هـذا الأمر، فلو أنـه علم بأنها عـذراء، فقد يأخذه الغرور حول ما أقدم عليه، وذلك ما لا طائل وراءه. وهكـذا، فإنني أعهد إليك بذلك أيضاً.

أجابت تاديشينـا: «كل شيء فهم تمـاماً»، وذلـك بدلاً من أن تـرد قائلة ببساطة: «ما يشاء مولاي»، فقد تلقت المهمـة التي أسندت إليهـا بجديـة، وبقبول رسمي.

كانت تاديشينا تلمّح الآن إلى ما وقع في تلك الليلة، قبـل ثماني سنـوات. وقد أدرك أياكورا. حق الإدراك ما أرادت قوله. ولكنـه كان في الـوقت نفسه واثقاً تماماً من أن مغزى مجرى الأحداث الذي ما كان هناك من سبيل للتنبؤ به مسبقاً والـذي تفتحت آفاقـه بعد قبـولها للمهمـة التي كلفت بها مـا كان

يمكن أن يغيب عن امرأة تحظى بلماحية تاديشينا. فقد تبين أن العريس المنتظر هو أمير من العائلة الإمبراطورية، وعلى الرغم من أن الفضل يعود إلى الأمير ماتسوجاي، فإن زواجاً موفقاً مثل هذا سيعني بروز آل أياكورا من جديد. وباختصار، فإن الظروف كانت مختلفة للغاية عن تلك التي تصورها قبل ثماني سنوات، عندما أصدر تعليماته لتاديشينا، في غمار غضب عارم. ولئن كانت، بالرغم من هذا كله قد نفذت مهمتها في اتّساق تام مع ذلك الوعد القديم، فلا بد أن السبب في ذلك يكمن في رغبتها في القيام بذلك. وفضلاً عن هذا فقد تسرب السر إلى الأمير ماتسوجاي.

أمن المحتمل أنها قد استهدفت آل ماتسوجاي انطلاقاً من مخطط هائل من نوع ما، قاصدة جلب كارثة عليهم، تحقق الانتقام الذي وضعه جبن أياكورا وقلة حيلته بعيداً عن مطاله؟ أم ترى أن انتقامها لم يكن موجهاً إلا إلى النبيل أياكورا نفسه؟ أياً كان ما يفعله فإن كفته مرجوحة ـ إذ ليس بمقدوره أن يدعها تحكي للأمير قصة الفراش تلك التي تعود إلى ثماني سنوات.

ساوره شعور بأن خير سبيل هو أن يلزم الصمت. فما كان وقع وانتهى الأمر. أما فيما يتعلق بمعرفة الأمير بجلية الأمر فإن عليه أن يعد نفسه للوم قاس بشكل أو بآخر من جراء ذلك. ومع هذا فقد فكّر في أن الأمير سيستخدم نفوذه الهائل في الوصول إلى حيلة للخروج من الموقف. لقد حان الآن أوان ترك الأمر بأسره لشخص آخر.

غير أنه كان على تمام اليقين، فيما يتعلق بشيء واحد، هو حالة تاديشينا الذهنية. فمهما كان إدعاؤها بأن الذنب ذنبها، فإنها في حقيقة الأمر، لم تكن على استعداد لطلب الصفح عما أتته. جلست هنالك، تلك المرأة التي حاولت التفوق على نفسها، وهي لا تزال على عدم اكتراثها بعفوه، على كتفيها استقر الوشاح الحمري، وتشبث الطلاء الأبيض بوجهها كثيفاً، كأنها

كرة كريكيت سقطت في علبة ذرور. ورغم ضآلة جرمها، فقد بدت على نحو ما كأنها تملأ الدنيا بأسرها بالكآبة.

لاحظ، فجأة، أن هذه الغرفة كانت من حيث السعة تماماً مثل الغرفة الواقعة في مؤخرة نزل كيتازاكي. وفي الحال، غدا بمقدوره سماع دمدمة المطر، وفي غير موسمه لطم الحر الخانق، الجالب للتحلل، وجنتيه، تماماً مثلما حدث في تلك الليلة.

رفعت وجهها المبيض، مرة أخرى، لتقول شيئاً. انفرجت شفتاها الجافتان، المجعدتان، قليلاً، والتمع باطن فمها الأحمر المبتل، في ضوء المصباح الكهربائي، زاهياً مثل اللون القرمزي القاتم لأحمر شفتيها البلاطي.

كان بمقدوره أن يخمِّن ما أوشكت على قوله. أليس ما قامت به ناجماً على نحو ما قالت هي نفسها عن أحداث تلك الليلة قبل ثماني سنوات؟ ألم تقم به لا لشيء إلا لتمنح النبيل ما يذكره في جبروت بما وقع في تلك الليلة حيث أنه لم يظهر ثانية قط أدنى اهتمام بها؟

فجأة، استشعر دافعاً لسؤالها ذلك النوع الذي لا يرحم من الأسئلة، والذي لا يجدر إلا بطفل طرحه:

ـ طيب، لقد تم إنقاذك على نحو يبعث على السعادة... ولكن هل قصدت الانتحار حقاً؟

اعتقد أنها إما أن يعتريها الغضب أو تنخرط في البكاء، ولكنها بدلاً من ذلك ضحكت في احتشام.

ـ طيب، لو أن مولاي كلف نفسه عناء أن يقول لي اقتلي نفسك! لربما القيت نفسي في حالة تدفعني نحو الموت. ولئن أمرني بذلك الآن لحاولت الإنتحار مجدداً. ولكن بعد ثماني سنوات من الآن فمن الطبيعي أن يكون مولاي قد نسي مجدداً ما قاله.

بوغت الأمير ماتسوجاي، عندما التقى بالنبيل أياكـورا، برؤيـة مدى قلة الاكتراث، الذي يبـديه الأخـير حيال تـطور الأحداث. ولكن عنـدما وافق النبيل مرحباً على الاقتراح الذي طـرحه الأمـير بقوة، عـادت المعنويـات إلى الإرتفاع. فقد أكّد له النبيل أن كل شيء سيتم القيام به على نحو ما يشاء، بل إنه شجعه في التو أن يسمـع بأن الأمـيرة ماتسـوجاي نفسهـا ستصاحب ساتوكو إلى أوساكا. أما فيمـا يتعلق بالمقدرة على تكليف دكتور موري بكـل شيء، على نحو متكتم تماماً، فقد كان ذلـك توفيقـاً لم يدر ببـال أحد قط. سينفـذ كل شيء حسب تعليـمات الأمـير، ومن ثم فقـد رجـاه أن يتكـرم، فيواصل جهـوده الحميدة، نيـابة عن آل أيـاكورا. تلك كـانت النغمة التي سادت رده.

لم يكن لآل أياكـورا إلا مطلـب واحد، شديد التواضع، لم يستطع الأمـير الإعتراض على تلبيتـه، وهو أن يسمـح لساتـوكو وكيـواكي برؤيـة أحدهمـا الآخر، قبيل مغادرتها طـوكيو إلى أوسـاكا. لم يكن هنـاك مجال، بـالطبـع، للسماح لهما بـالالتقاء منفـردين. ولكن إذا كان بمقـدورهما أن يلتقيـا وجهـاً لوجه، لبرهة قصـيرة، بحضور والـدتيهما، فـإن ذلك سيكـون مرضيـاً لآل أياكورا. وإذا تمت الموافقة على هذا الطلب، فإن آل أياكورا سيقدمون كـل التأكيدات بعدم السماح لسـاتوكـو قط برؤيـة كيواكي مـرة أخرى. وكـانت ساتوكو نفسها هي مصدر هذا الـطلب، ولكن، كما أوضـح النبيل في شيء من الحـرج، فقد أحس هـو وزوجته بـأنـه قـد يكـون من الأفضـل أن تتم الموافقة على هذا المطلب.

الآن، أمكن استخدام ظرف مصاحبة الأميرة لساتوكو إلى أوساكا، من أجل إضفاء مظهر غير مفتعل على اللقاء مع كيواكي. فلا شيء يمكن أن يكون طبيعياً أكثر من مجيء ابن إلى المحطة لوداع أمه، وفي وقت لا يتاح فيه أي سبب ينظر أحد شزراً، إذا ما تبادل كيواكي كلمة أو كلمتين مع ساتوكو.

ومع حسم الأمور على هذا النحو، قام الأمير، بناء على اقتراح من زوجته، باستدعاء دكتور موري سراً إلى طوكيو، على الرغم من انشغاله التام بعمله في أوساكا. وقد نزل الطبيب بدار ماتسوجاي لمدة أسبوع قبل رحيل ساتوكو عن طوكيو في ١٤ نوفمبر، وهو على أهبة الاستعداد لتلبية أي استدعاء في حالة احتياجها له. وقد كان خطر سقوط الجنين الذي راح يطل برأسه من لحظة لأخرى هو الذي جعل هذه الاستعدادات ضرورية. ولو أن شيئاً من هذا القبيل وقع لتعين على دكتور موري التصدي له على نحو لا تتسرب معه نأمة عن الموضوع. وإضافة إلى ذلك فإنه سيكون على مقربة خلال الرحلة الطويلة والخطرة للغاية بالقطار إلى أوساكا، حيث سيسافر دون أن يلحظه أحد في عربة أخرى بالقطار.

هكذا، أسلم أخصائي شهير في طب التوليد حريته، ووضع نفسه تحت إمرة آل ماتسوجاي وآل أياكورا، وهو شيء كان بمقدور أموال الأمير وحدها تحقيقه، وإذا سارت الأمور على نحو ما هو مأمول، فإن الرحلة إلى أوساكا ذاتها ستسهم إلى حد كبير في حجب الحقيقة عن عيون الدنيا؛ فمنذا الذي سيتخيل أن امرأة حبلى تتجشم عناء المخاطرة بالقيام بمثل هذه الرحلة بالقطار؟

على الرغم من أن ثياب دكتور موري كانت تجري حياكتها في إنجلترا، وتعد النموذج الحديث لما يرتديه السيد المهذب الغربي، فإنه كان رجلاً قصيراً بديناً، ويذكِّر محياه المرء، على نحو ما، بكاتب في إحدى الهيئات

الحكومية. وقبل فحصه لكل مريضة من مرضاه، كان ينشر ما يشبه الغطاء من الورق الثمين، على الوسادة، لكي تسترخى عليـه. ثم يلملمه، ويلقي بـه بعيداً، فيـما بعد، دونما اكـتراث، وهـو الأمـر الـذي سـاهم في تـوسيـع نطاق شهرته. وكان دمثاً، على نحـو لا تشوبـه شائبـة، لا تعرف ابتسـامته الانحسار، وتنتمى مريضاته الكثيرات إلى الطبقـة العليا، في أغلبيتهن، ولم يكن هناك من يجاريه في حذقـه،ثم أن فمه مطبق كأنه محارة.

كان دكتور موري يجد متعة في الحديث عن الطقس. أما خلافاً لهذا فقد بدا أنه ليس هناك موضوع آخر يمكن أن يستأثر باهتمامه. غير أنه كان قادراً على اجتذاب مرضاه بمجـرد الإشارة إلى مـدى فظاعـة الحر اليـوم أو إلى أن الطقس يزداد دفئاً بعد كل مرة ينهمر فيها المـطر. وكان بـارعاً في نـظم الشعر الصيني، وعبّر عن انطباعاتـه عن لندن في عشرين قصيـدة سباعيـة صينية، أصدرها على نفقته، في ديوان بعنوان «لندنيات». وكـان يتحلى بخـاتم ذي ماسة ضخمة، زنتها ثلاثة قراريط، وقبل فحص المريضة، كان يوتر ملامحه في تصلب، وينزع الخاتم بصعوبة جلية، ملقياً إياه في حدة على أي منضدة قريبة، غير أنه ما من أحد لاحظه في غمار نسيانه لالتقاط الخاتم ثانية. وتميز شاربه المتصلب، بالبريق المكتوم، الذي يحظى به السرخس غب المطر.

تحتم على آل أياكورا صحبة ساتوكو. إلى دار آل توينومايـا؛ لتتمكن من تحيتهم قبل رحيلها إلى أوساكا. ولما كان التوجه إلى هناك بعربة تجرها الجياد من شأنه أن يزيد المخاطر، فـإن الأمير مـاتسوجـاي حرص عـلى تزويـدهم بسيـارة، وإضافـة إلى ذلك فقـد صحبهم دكتور مـوري متنكراً في هيئـة كبير الخـدم، حيث جلس إلى جـانب السـائق، مـرتـديـا حلة من حلل يـامـارا العتيقـة. وبضربة من ضربـات الحظ تصادف أن الأمـير الشاب نفسـه كان بعيـداً عن الدار مشغـولاً بمناوراتـه العسكريـة، فتمكنت ساتـوكو من تحيـة الأميرة توين داخل الدهليـز مباشرة، ثم بـادرت إلى الاستئذان منصرفـة. وهكذا تم إكمال المهمة الخطرة، دون مشكلات.

وعلى الرغم من أن آل تورينومايا قد اعتزموا إرسال أحد مسؤولي الدار إلى المحطة ليكون في وداع ساتوكو في ١٤ نوفمبر، فإن آل أياكورا اعتذروا في دماثة عن تلقي هذا الجميل، ومضى كل شيء وفقاً لخطة الأمير ماتسوجاي، فسوف يلتقي آل أياكورا بالأميرة وولدها في محطة شيمباشي. وعلى دكتور موري أن يستقل عربة من عربات الدرجة الثالثة بالقطار دون أن يلقي ولو نظرة واحدة باتجاههم. ولما كان الغرض من الرحلة هو الهدف المحتمل تماماً والمتمثل في القيام بزيارة وداعية لرئيسة كاهنات دير جيشو، فإن الأمير لم يتردد في حجز عربة المشاهدة بأسرها، بنوافذها العريضة التي تتيح الاستمتاع بالمشاهد، التي يمر بها القطار. وكانت هذه العربة جزءاً من قطار سريع خاص متجه إلى شيمونو سيكي، يغادر محطة شيمباش في التاسعة والنصف صباحاً، ويصل إلى أوساكا بعد إحدى عشرة ساعة وخمسين دقيقة.

كانت محطة شيمباش، التي صممها مهندس معماري أميركي، قد شيّدت في عام ١٨٧٢، في بداية عهد ميجي، وقد زودت بإطار من الخشب، ولكن جدرانها كانت من حجر أسود مرقط جلب من محاجر شبه جزيرة إيزو. والآن، في هذا الصباح المشرق المضيء من صباحات شهر نوفمبر، راح سنا الشمس يلتهم بحدة الظلال التي ألقاها الأفريز البارز على أسطحها العارية من الزينة. وصلت الأميرة ماتسوجاي، وقد احتدم توترها حيال توقع الانطلاق في رحلة عليها أن تعود منها بمفردها، إلى المحطة دون أن تحادث في الطريق ولو بكلمة واحدة أياً من يامادا، الذي كان يحمل أمتعتها بالاحترام المعهود، أوكيواكي. وقد ارتقى ثلاثتهم الدرج الحجري الممتد الذي يفضي إلى الرصيف.

لم يكن القطار قد وصل بعد. انهلت أشعة الشمس المائلة على الرصيف الفسيح وعلى القضبان الممتدة على جانبيه، وانداحت في الهواء المتألق

ذرات من الغبار. وقد اعترت حالة من القلق البالـغ الأميرة من جـراء الرحلة التي تواجهها إلى حد أنها راحت تصعد التنهدات بين الفينة والأخرى.

ـ لست أرى لهم أثراً بعد، ترى هل وقع شيء؟

هكـذا، مضت تقول بـين وقت وآخر، ولكنهـا لم تستطع انـتزاع رد من يامادا. وكل ما ند عنه «آه!» ممتزجة بالتوقير ومجردة من المعنى. وعلى الرغم من أنها كانت تعرف مـا يمكن توقعـه إلا أنها لم تستطع الإحجـام عن طرح سؤالها.

أدرك كيواكي مدى اضطراب أمه، ولكن بما أنه لم يكن في حـالة نفسيـة تسمح له بالتخفيف عنها، فقد وقف على مبعدة، أحس بالضعف، وكانت وقفته المتصلبة معبرة عن الجهد الذي راح يبذله للسيطرة على نفسه. بدا كما لو أنه يمكن أن يتهاوى، وما زال على تصلبه، كأنه تمثـال، صـب في قالب واحد، لكنه يفتقر للقوة الضرورية للإمساك به. كـان الهواء عـلى الرصيف شديد البرودة، لكنه دفع بصدره إلى الأمام تحت سترة زيه المدرسي المزركشة بشرائط مجدولة. بدا أن المحنة البائسة اللمتمثلة في الانتظار قد جمّـدته حتى النخاع.

انهمـر المطر عـلى المحطة في كـبريـاء شـامخـة، بينـما انسلت الشمس إلى أسقف عربات القطار بشرائط متألقة، وبرقت من الحاجز عند مؤخرة عـربة المشاهدة. وفي هذه اللحظة عينها، لمحت الأميرة دكتور موري، حيث لفت نظرها شاربه المشذب بعناية، وسط جمع ينتـظر على مبعـدة على الـرصيف. أحست ببعض الارتياح. وقد تم الاتفاق على أنه باستثناء وقوع حالة طارئة فإن الطبيب سيظل بعيداً بمفرده. على إمتداد الرحلة إلى أوساكا.

صعد ثلاثتهم إلى عربة المشاهدة، وقـد حمل يـامادا أمتعـة الأميرة. وفيـما راحت تصـدر ليامـادا المزيـد من التعليمات، مضى كيـواكي يحدق مـطلاً من النافذة في الرصيف، وعكف على التطلع إلى النبيلة أياكـورا وساتـوكو وهمـا

تقتربان وسط الجمع. كانت ساتوكو تلتف بشال يجمع ألوان قوس قزح على كتفيها. وعندما بلغت فيض ضياء الشمس المنهل من حافة سقف الرصيف بدا محياها المجرد من أيّ تعبير في بياض الحليب المتخثر.

تردد وجيب قلبه، في جنون، من جراء الأسى والفرح معاً. وفيما هو يرقبها وأمها إلى جانبها، وهما تتقدمان باطّراد، وإن كانتا تتحركان على مهل، وبخطى محسوبة، بوغت بتصوره للحظة أنه العريس يقف هنالك في انتظار عروسه. وأثارت المسيرة الجادة الاحتفالية، كأنها إعياء يتراكم على كاهله شيئاً فشيئاً، في نفسه بهجة. حادة على نحو مؤلم تركته متوتر الأعصاب..

صعدت النبيلة أياكورا إلى العربة، وتركت الخادم يحمل متاع ساتوكو، وأبدت للأميرة اعتذارها لتأخرهما. ومن الطبيعي أن أم كيواكي حيتها بأعظم قدر من المجاملة، ولكن تعقدا معينا كان لا يزال جلياً في جبينها عبر على نحو مناسب عن الاستياء المتشامخ الذي تستشعره.

حجبت ساتوكو فمها بشالها المتألق بألوان قوس قزح، وأبقت نفسها مختفية خلف أمها. وتبادلت عبارة التحية المعتادة مع كيواكي، وفي ضوء دعوة الأميرة لها، جلست على نحو عاجل في أحد المقاعد، ذات اللون الأرجواني القاتم، التي انتشرت في العربة.

عندئذ أدرك كيواكي السر في وصولها متأخرة، على هذا النحو، فلا بد أنها قد أخرت وصولها إلى المحطة، لا شيء إلا لتقلل، ولو بمقدار ثانية، طول الوقت الذي سيستغرقه وداعهما. ففي ضياء هذا الصباح من صباحات نوفمبر الصافي كأنه دواء مر، لن يتاح لهما الوقت لكي يقولا أي شيء أحدهما للآخر. وفيما انهمكت الوالدتان في الحديث راح يتطلع إليها وقد جلست منكسة الرأس. وفي غمار قيامه بهذا، بدأ يستشعر القلق حيال الاحترام المتصاعد للعاطفة الذي من المحقق أنه سيبدو جلياً في نظرته.

لقد احتوت نظرته قلبه بأسره، ولكنه خشي من أن نظرته، شأن أشعة شمس قوية، قد تحرق بشرة ساتوكو الهشة المتقعة. كان ينبغي للقوى التي تعتمر بداخله، العاطفة التي أراد توصيلها، أن تتسم بالليونة والرقة، وقد أدرك إلى أي مدى خلع اندفاعه إهاباً فجاً عليها. ساوره الآن شعور بشيء لم يسبق له أن لمسه من قبل قط، وأراد أن يسألها الصفح عنه.

أما فيما يتعلق بجسمها، الذي يكسوه كيمونوها الآن، فقد كان يعرف كل ما يمكن أن يعرفه عنه، حتى أدق تفاصيله. عرف أين يحمر لحمها الأبيض أولاً بتأثير الحرج، أين يمنح ذاته، أين ينبض كأنما باصطفاق جناحي تمّ غاضب، عرف أين يفصح هذا الجسم عن النشوة وأين يعبر عن الحزن. ولأنه عرف بكليته، فقد بدا أنه يصدر عنه وهج خافت يمكن إدراكه حتى من خلال كيمونوها. ولكن شيئاً ما لم يتعرفه في أعماق ذلك الجسم، عميقاً في قرار فؤادها، والذي بدا أنها تقيه بردوني كيمونوها الضافيين راح يشق طريقه نحو الحياة. لم يستطع خياله، الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة، أن يتعامل مع ظاهرة كظاهرة الطفل، شيء على الرغم من ارتباطه الحميم بالدم المعتم الحار واللحم فقد بدا متجاوزاً للطبيعة إلى ما وراءها تماماً.

ومع ذلك، فإن الشيء الوحيد منه الذي ولج ساتوكو وغدا جزءاً منها تعيّن أن يكون طفلاً. غير أن هذا الجزء سرعان ما ينتزع منها، وينفصل لحماهما عن بعضهما من جديد. وبما أنه لم يكن أمامه من سبيل أيا كان لمنع هذا؛ فلم يكن هناك ما يفعله إلا الوقوف جانباً وترك الأمور تجري في أعنتها. وعلى نحو ما، كان الطفل الذي يتعلق به الأمر هو كيواكي نفسه؛ لأنه كان يفتقر إلى القدرة على العمل على نحو مستقل. ارتجف بالوحدة المحرومة وبالإحباط المحرور الذي يستشعره طفل أجبر على البقاء في الدار عقاباً له على سوء تصرفه بينما مضى باقي العائلة بعيدين في رحلة خلوية.

رفعت عينيها، وحدقت شاردة عبر النافذة في الجانب من القطار المطل على الرصيف. بدا أنها مستغرقة تماماً في رؤية لما سينبذ منها، وكان على تمام الثقة من أن صورته لن تقع على مقلتيها مرة أخرى أبداً.

دوى تحذير؛ عبر صفير صاكّ، فنهضت واقفة، بدا له أن عملها هذا كان جهداً حاسماً، اقتضى حشد كل قوتها، دنت أمها القلقة، وأمسكت بذراعها.

- يوشك القطار على الانطلاق، سيتعين عليك أن تترجل منه.

قالتها ساتوكو له، وتردد صوتها مرحاً، على وجه التقريب، لكنه كان تهدّجاً واهناً.

وعلى نحو حتمي، دار حوار عاجل بينه وبين أمه، تألف من التوجيهات والتمنيات الطيبة التي يتبادلها ابن مع أمه قبل انطلاقها تاركة إياه. أدهشته المهارة التي حشدها لدعم دوره في هذه التمثيلية القصيرة.

عندما حرر نفسه أخيراً من أمه، التفت إلى النبيلة أياكورا، واجتاز مسرعاً الأشكال الصحيحة لوداعها، ثم وكأنما لا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر طبيعية من هذا، قال لساتوكو: «طيب، الآن، عليك بالاهتمام بنفسك». في تلك اللحظة، أحس أن بمقدوره أن يضفي الخفة على كلماته، وقد انعكس هذا في دافع دعاه إلى أن يمد يده ويضعها على كتفها. ولكن في اللحظة التالية بدا أن ذراعه قد ضربها فالج، فتدلت بلا جدوى إلى جانبه، حيث التقت عيناه بعينيها المحدقتين فيه بكامل زخم اللقاء.

من المؤكد أن الدموع ندّت عينيها الجميلتين النجلاوين، ولكنها دموع تختلف تمام الاختلاف عن تلك الدموع التي كان يخشاها حتى الآن. كانت شيئاً حياً يجري تمزيقه إلى أشلاء. حملت عيناها النظرة الرهيبة التي تلتمع

في عيني إنسان غريق، وما كان بوسعه احتمال هذه النظرة. وقد انتشرت أهدابها الوطفاء الجميلة، كأنها نبته تزهر.

ـ وأنت أيضاً، ياكيو، وداعاً!

قالتها في نفس واحد، وبنغمة الصوت اللائقة.

لاذ بالهرب من القطار، كأنما يطارده مطاردون يجدّون في أثره، في الوقت نفسه الذي رفع فيه ناظر المحطة، الذي يتمنطق بسيف قصير تحت سترته السوداء ذات الأزرار الخمسة، يده مشيراً بانطلاق القطار. ومرة أخرى أطلق سائق القطار صفيراً تحذيرياً. وعلى الرغم من أن وجود يامادا إلى جانب كيواكي قد كبح جماح هذا الأخير، فقد هتف باسمها في فؤاده مراراً وتكراراً. ارتج خط العربات ارتجاجة يسيرة، ثم شأن خيط ينتزع من كرة صوفية شرع في التحرك. وفي لحظات قصار، ابتعدت عربة المشاهدة وحاجزها الخلفي، ولم تظهر ساتوكو ولا أي من الوالدتين نفسها. وانداح الدخان، الذي انساب على الرصيف، شاهداً على القوة التي أطلق سراحها في رحيل القطار.

وأفعمت رائحته اللاذعة الظلمة، التي حلت في غير أوانها، والتي خلفها وراءه.

في الصباح، بعد يومين، غادرت الأميرة ماتسوجاي المنزل الذي حلت به، ومضت إلى أقرب مكتب بريد، حيث بعثت ببرقية شخصية. وكان زوجها قد أصدر لها تعليمات صارمة بألا تفوض القيام بهذه المهمة إلى أحد غيرها. ولما كانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تلج فيها مكتب بريد، فقد أحست بإرتباك بالغ، على الرغم من أنها في غمار اضطرابها تصادف أنها على نحو ما تذكرت أميرة توفيت حديثاً كانت مقتنعة بأن النقود شيء دنس وأمضت حياتها دون أن تمسها. ولكنها بشكل أو بآخر أرسلت برقية تحمل الصيغة المتفق عليها مع زوجها: «الزيارة تمت بنجاح».

أحست بدفق من الارتياح العارم، يسري في دمها، كأنما أزيح عبء ثقيل عن كاهلها. عادت إلى النزل، حيث دفعت قيمة فاتورة حسابها، ثم مضت إلى محطة أوساكا، حيث كانت النبيلة أياكورا تنتظر لوداعها، وهي منطلقة في رحلتها بمفردها عائدة إلى طوكيو. ولأداء واجب التحية هذا انسلت النبيلة، على نحو عاجل، من جوار فراش ساتوكو في المستشفى.

كانت ساتوكو قد دخلت عيادة دكتور موري الخاصة، تحت اسم مستعار، بناء على إصرار الطبيب على أن ترتاح راحة تامة لمدة يومين أو ثلاثة أيام. كانت النبيلة إلى جوارها على الدوام، ولكن على الرغم من أن حالتها الجسميّة كانت ممتازة، فإنها لم تفه بكلمة واحدة لأمها منذ إجراء العملية لها، وهو موقف كان مؤلماً بعمق بالنسبة للنبيلة.

وبما أن المكوث المريح في المستشفى تمّت التوصية به كمجرد إجراء

احترازي فحسب، فقد كانت عندما أصدر الدكتور موري إذناً لها بالمغـادرة في حالة صحية طيبة تماماً، تسمح لها بالتحرك، وكأنها في تمام صحتهـا.

الآن، وقد أصبح إعياؤها الصباحي شيئاً ينتمي إلى الماضي، كان يتعـين عليها أن تفيض بالحيوية جسمياً وذهنياً، ولكنها لزمت الصمت في عناد.

كان عليهما، بحسب الخطة المعدة لهما، أن تنطلقـا إلى معبد جيشـو لكي تقوم ساتـوكو بـزيارتهـا الوداعيـة لكبيرة الكـاهنات. وستمكثـان هناك ليلة وتعودان إلى طوكيو في صباح اليوم التالي.

ترجلتا كلتاهما، إذن، في منتصف يوم الثامن عشر من نـوفمبر من قـطار على خط ساكـوراي في محطة أوبيتـوكي. كان أصيـلاً خريفيـاً جميلاً دافئـاً، وعـلى الرغم من عـدم شعور النبيلة أيـاكورا بـالارتياح حيـال التزام ابنتهـا الصمت فقد أحست بمزيد من الطمأنينة.

وبمـا أنها لم ترغب في أن تسبب أي إزعـاج للراهبات العجـائز، فـإنها لم تبلغ الدير بموعد وصولهما. غـير أنها الآن، وعلى الـرغم من أنها طلبت من أحد القائمين على المحـطة أن يستدعي عـربتي ريكشو لهـما، إلا أنَّ العربتـين لم يبد لهما أثـر. وفيـما همـا تنتـظران، مضت النبيلة، التي كـانت مـولعـة باستكشاف الأماكن غير المألوفة، للقيام بجولة في المنطقة المجاورة للمحطة، تاركة ابنتهـا لتأمـلاتها في قـاعة الانتـظار الخاصـة بركـاب الدرجـة الأولى. وخـارج المحطة مبـاشرة صادفتهـا لافتة تـوجـه الـزوار إلى معبـد أوبيتـوكي القريب:

يحظى البوذيساتش أوبيتوكي كوياسوجيزو بالتوقير هنا، ويعد هذا المعبد أقدم أماكن العبادة وأقدسها في اليابان لنيل البركة للأطفال وميلادهم بـأمان. وقـد بـاركته صلوات الإمـبراطورين مـونتوكـو وسياوا والإمـبراطور سـوميدونـو.

أحست بالارتياح لأن ناظري ساتوكو لم يقعا على هـذه الكلمات. ولكي تضيق من نـطاق فرصة رؤية ابنتهـا لهـذه اللافتة، سيتعـين عليهـا جلب الريكشو إلى تحت سقف المحـطة ومساعـدة ابنتها عـلى ركوبهـا. بدا لهـا أن هـذه الكلمات هي قطرات دم غـير متوقعـة تلطخ هذه المشـاهـد الـطبيعيـة الجميلة المترامية تحت سماء نوفمبر البالغة التألق.

كانت لمحطة أوبيتوكي بئر مجـاورة لها وجـدران بيضاء يعلوهـا سقف من القـرميد، وقبالتها انتصبت دار عتيقـة الطراز يحيط بهـا سور لـه سقف طين ومخزن فسيح في المؤخرة. وعلى الرغم من أن المخزن الأبيض والسور الطينيّ جعلا سنا الشمس المتألق يتراقص، إلا أن صمتـاً مخيفاً خيم عـلى المشهد. كان سطح الطريق رمادياً يكسوه الطين المحـروق، ويلتمع بـآثار جليـد مما جعل المسيرة صعبة. غير أن عينيها اجتذبهما دفق من اللون الأصفر الجذاب في البعيد. كان ذلك قرب جسر صغير يمتد فـوق خط السكة الحـديديـة في بقعة تنتهي عندها الأشجار العارية السامقة التي تأخذ بأكناف الطريق، على الرغم من أنها كانت تبدو مصطفة إلى ما لا نهاية. وهكذا، لملمت أطـراف ثيابها، وشرعت في الانطلاق، عبر منحدر لطيف الميل، باتجـاه هذه البقعـة المغايرة لما حولها.

وتبين أن المنطقة القريبـة من الجسـر قد زينت بـآنية زهـور تحتوي أزهـار أقحوان منتشرة، وحشد عـدد كبير منهـا، كيفما اتفق، في حمى شجـرة حور انتصبت إلى جـوار الـطريق المفضي إلى الجسـر. وعـلى الـرغم من أن الجسـر كان يؤدي مهمته كممر علوي فقد كان هيكلاً بسيـطاً مصنوعـاً من الخشب ويـدا أنه لا يتجـاور في حجمه مـرتفعاً يصـل بـين قمتـين، وتـدلت بعض الألحفة المزخرفة بألوان متقابلة في الهواء من سيـاجه، وهي تمتص الشمس، وتتثنى متأرجحة مـع النسيم. وفي فناء دار قـريبة علقت منـاشف لتجف في الشمس، وتـدلى قـماش أحمـر طـويـل مثبت بـالمشـابـك. كـانت أشجـار

البرسيمون لا تزال تتمتع ببريق يحاكي وهجاً يلمع في الشمس الغاربة. ولم يبد أحد في المكان بأسره.

لمحت بعيداً على الطريق، مشهد السقفين المتأرجحين الأسودين لعربتي الريكشو وهما تقبلان باتجاهها، فسارعت عائدة إلى المحطة لتبلغ ساتوكو.

ولأن الطقس كان جميلاً للغاية؛ فقد جعلت الرجلين ينزلان غطاءي عربتي الريكشو. خلفتا البلدة وخاناتها الثلاثه وراءهما، وانطلقتا راحلتين، لبعض الوقت، على امتداد الطريق، الذي تحف به حقول الأرز. ولو أن المرء أمعن النظر في الجبال لتبدى له معبد جيشو، في قلبها.

وعلى مبعدة، حفّت بالطريق أشجار البرسيمون، التي أثقلت الثمار أغصانها، على الرغم من تجردها على وجه التقريب من الأوراق. وبدت حقول الأرز متألقة كلها، وقد امتلأت أرجاؤها بمتاهة لا نهاية لها من الحزم الآخذة في الجفاف.

مضت النبيلة أياكورا، التي تستقل العربة الأولى، تلتفت من حين لآخر لتطل على ابنتها. وكانت ساتوكو قد طوت شالها، ووضعته على حجرها. وعندما رأت أمها أنها تتطلع حولها، كأنها تستمتع بمعالم الطبيعة، أحست بالارتياح.

فيما أخترق الطريق الجبال، تراجعت السرعة التي ينطلق بها رجلا عربتي الريكشو؛ فقد كان كلاهما كهلين، وبدا واضحاً أن أقدامهما ليست كعهدها من الشدة والبأس. غير أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى العجلة، وحدثت النبيلة نفسها بأن الأمر على العكس من ذلك تماماً، فمن حسن طالعها وساتوكو أن تتمكنا من الاستمتاع بهذا التأمل على مهل للريف.

دنتا من البوابة الحجرية الخارجية لمعبد جيشو، وما أن عبرتاها حتى اقتصرت المعالم الطبيعية على الطريق الخفيف الانحدار ذاته، ومدى عريض

من السماء الشاحبة الزرقة التي يحجب جانباً منها النجيل الأبيض الأطراف على امتداد الطريق، ونطاق خفيض من الجبال الممتدة في البعيد.

أخيراً، توقف رجلا عربتي الريكشو لينالا قسطاً من الراحة، وفيما راحا يتبادلان الحديث، ويجففان عرقهما، رفعت النبيلة صوتها ليعلو على صوتيهما ونادت هاتفة بساتوكو.

- خير لك أن تستمتعي إلى أقصى حد بالمشاهد الطبيعية الممتدة من هنا حتى الدير؛ فالناس من أمثالي بمقدورهم المجيء في أي وقت إلى هنا، لكنك سرعان ما ستكونين في وضع لن تتمكني معه من الخروج للتنزه بسهولة.

لم ترد عليها ابنتها، وإنما ابتسمت ابتسامة بطيئة، وأومأت برأسها إيماءة خفيفة.

تحركت عربتا الريكشو من جديد، وإستمر الطريق في التصاعد، الأمر الذي قلل من سرعة الانطلاق على نحو أكبر. غير أنهم بعد أن دخلوا أراضي الدير أصبحت الأشجار أكثر كثافة على جانبي الطريق، الأمر الذي خفف من وقر حرارة الشمس.

راحت تتردد في مسامع النبيلة أصداء طنين الحشرات في الأصيل الخريفي الذي كانت تصغي إليه فيما رجلا الريكشو يلتقطان أنفاسهما خلال توقفهما للاستراحة. ولكن عندئذ لفتت نظرها أشجار البرسيمون التي شرعت في الظهور على الجانب الأيسر من الطريق فأبهجتها بثمارها الصافية المتوهجة. تألق بعض ثمار البرسيمون الذي ناءت به الأغصان، متوهجاً في سنا الشمس وألقى بظلال تشبه طلاء اللك على البعض الآخر. بدت إحدى الأشجار ثرية بثمرة برتقالية اللون، كانت على العكس من الزهور تقاوم الريح، فما تتحرك إلا الأوراق الجافة وحدها. هكذا تجلت كتلة

ثمارها الناضجة في مواجهة السماء كأنما ثبتت بقوة في مواجهة حقل من الزرقة.

ـ لست أرى أية أوراق قيقب على الإطلاق. لست أدري السر في هذا!

هتفت بساتوكو، صارخة تقريباً، من جراء الجهد الذي بذلته، ولكنها لم تحظ بأي رد.

حتى أشجار القيقب الخفيضة كانت نادرة على إمتداد الطريق. ولم يكن هناك ما يجتذب النظر الآن إلا خضرة الحقول المزروعة بالفجل إلى اليسار وأجمات الخيزران إلى الشرق. اكتست حقول الفجل بأوراق كثيفة تخللها سنا الشمس في نماذج معقدة من الأشكال على نحو مراوغ، ثم أفسحت هذه الحقول المجال لصف من شجيرات الشاي، يفصلها مستنقع عن الطريق، غطت أجمات من المجفولية الحمراء حاجز شجيرات الشاي هذا، وفيما وراءها لاحت المياه الساكنة لمستنقع أكبر. وغير بعيد من هذه البقعة أظلم الطريق فجأة، فيما عربتا الريكشو تمران في رحاب ظل أشجار أرز عتيقة. انسربت الشمس أسفل هذه الأشجار في صورة بقاع من الضوء على النجيل تحت الأشجار، وتألق غصن طويل معزول بزخم منفرد.

أحست النبيلة أياكورا بلذعة برد مفاجئة في الهواء، فالتفتت مجدداً وراءها، وقلدت في صمت حركات إسدال الشال على كتفيها. وعلى الرغم من أنها لم تجرؤ على أن تعقد الآمال على استجابة من ابنتها، إلا أنها غندما التفتت إلى الوراء بعد لحظات قلائل لمحت بطرف عينيها الألوان المتألقة بشال ساتوكو وهي ترفرف مع النسيم. وكان بمقدور النبيلة على الرغم من أن ابنتها لا تزال تميل إلى عدم الحديث أن تعزِّي نفسها على الأقل بأنها تطيعها.

ما إن اجتازت عربتا الريكشو بوابة مطلية باللون الأسود، حتى اتخذت

معالم الطبيعة حولها الطابع الأكثر رسمية الخاص بحديقة، على ما يمكن توقعه من المناطق المحيطة مباشرة بالدير. بوغتت النبيلة أياكورا بأوراق القيقب التي كانت أول أوراق تلمحها على امتداد الطريق، فلهثت من فرط الإعجاب.

لم يكن هناك شيء جذاب على نحو مبهرج في ألوان أشجار القيقب هذه هنا، داخل البوابة السوداء، فقد كان لونها الأرجواني القاتم ظلاً يمتزج في أعماق الجبال، وهو لون بدا أنه يتحدث إلى النبيلة عن خطايا لم يتم تطهيرها بعد. فجأة، أحست بجوٍّ بارد من القلق يحز أعماقها، وفكرت في ساتوكو الجالسة في عربة الريكشو خلفها.

لم يكن نطاق أشجار الصنوبر والأرز الرشيقة، الذي شكّل خلفية لأشجار القيقب من الضخامة بحيث يحجب الامتداد العريض المشرق من السماء. غمرهم تألقها، منداحاً على أشجار القيقب من خلفها، ومحولاً أغصانها الممتدة، ذات الأوراق الحمراء، إلى سحب متناثرة غارقة في وهج الشمس. وفيما هي تتطلع عالياً نحو الشمس من تحت الأغصان، أخذها الإعجاب بالنحو الرقيق في مراوغته، الذي تداخلت به الأوراق، تخيلت أنها ترى عينين، من خلال انديباح من الأرجوان القاتم.

أخيراً، توقفت عربتا الريكشو، وترجلت النبيلة وساتوكو، أمام بوابة توحي بمعمار عهد التانج، امتد وراءها طريق ممهد بالأحجار، ولاح المدخل الرئيسي لدير جيشو.

- ٤٤ -

كان عام كامل قد انقضى، منذ حيّت ساتوكو وأمها رئيسة الدير لآخر مرة، بمناسبة زيارتها لطوكيو. والآن، وفيما هما تنتظران في قاعة استقبال فسيحة، أكدت لهما الراهبة الأقدم أن رئيسة الدير قد ابتهجت بنبأ هذه الزيارة. وكانت لا تزال تتحدث عندما أقبلت رئيسة الدير ذاتها، وقد أمسكت صغرى الراهبات بيدها.

بعد أن أبلغتها النبيلة أياكورا بنبأ خطبة ساتوكو، هنأتها قائلة:

- في المرة المقبلة التي تتكرمان فيها بتشريفنا بزيارة، فلن يكون من المناسب إلا أن تنزلا في الجناح الخاص.

وكان الجناح الخاص دارة تقع في أراضي الدير، خصصت لأعضاء العائلة الإمبراطورية.

الآن، وقد أصبحت ساتوكو ها هنا في جيشو، لم يعد بمقدورها مواصلة الصمت، وقد بادرت بالرد، وإن يكن في إيجاز، لدى مخاطبة الآخرين لها. وربما حمل تحفظها على محمل الحياء. ولما كانت رئيسة الدير امرأة على جانب كبير من الفطنة والكياسة، فإنها لم تشر إلى أنها لاحظت شيئاً غير عادي.

قالت رئيسة الدير، رداً على إشارة النبيلة المستفيضة بزهور الأقحوان الموضوعة في الآنية التي صفت في الفناء:

- هناك رجل في القرية يزرعها وهو يجلب بعضاً منها كل عام، ويحدثنا عنها حديثاً مستفيضاً.

ثم جعلت الكاهنة الأقدم تكرر إيضاحات ذلك الرجل المتحمس لزهور الأقحوان فتلك زهرة أقحوان قرمزية أحادية الطية، غرست بحيث تزهر في شكل خطوط متوازية، وتلك زهرة أقحوان صفراء أنبوبية الشكل، غرست بالطريقة ذاتها، وهلمجرا. وأخيراً تفضلت رئيسة الدير نفسها بالمضي بساتوكو وأمها إلى قاعة الاستقبال الداخلية.

ـ يبدو أن أشجار قيقبنا قد تأخرت هذا العام في تبديل لونها.

قالتها بعد أن جذبت الكاهنة الأقدم الباب المنزلق ففتحته ليكشف عن جمال الحديقة الداخلية، بجبالها المقلدة ونجيلها الذي راح الآن يذوي. وقد احتوت العديد من أشجار القيقب الهائلة التي توجت باللون الأحمر، ولكن فيما يتطلع المرء إلى الأغصان السفلى فإنه يجد أنها تشحب مستحيلة إلى لون برتقالي يفسح الطريق إلى لون أصفر يمتزج في نهاية المطاف بالأخضر الفاتح. كان اللون الأحمر عند القمة ذاتها قاتماً مكتسباً نوعية توحي بالدم المتجلط، وقد بدأت الساسنكوا تبرعم بالفعل، وفي أحد أركان الحديقة أضاف الانحناء اللين لفرع جاف من شجيرة اللاجرسترمية الهندية لمسة جميلة من التألق.

عدن إلى البهو الخارجي، وفيما كانت نيافتها والنبيلة أياكورا منهمكتين في حوار حافل بالمجاملة، أوشك اليوم الخريفي القصير على الانتهاء.

كان العشاء مأدبة حافلة، أكتملت بالأرز والفاصوليا الحمراء، التي لا تقدم إلا في أيام العطلات، وبذلت الكاهنتان قصارى جهدهما لبعث الحرارة في اللقاء، ولكنه بدا أنه ما من شيء يمكن أن يجعل المناخ النفسي الذي خيم على الأمسية أكثر انشراحاً.

ـ هذا هو يوم إضرام النار داخل القصر الأمبراطوري.

قالتها رئيسة الدير. كان إضرام النار من العادات المتبعة في البلاط،

وتدور حول إذكاء لهب هائل في «هيباتشي» بينما تقف إحدى سيدات البلاط أمامه مرددة رقية. وقد أنشدت الراهبة الأقدم، التي شهدت هـذا الأحتفال خلال سنوات خدمتها في القصر، الرقية من الذاكرة.

كان ذلك الحفل التقليدي من الطقوس التي تؤدي في حضور الامبراطور في الثامن عشر من نوفمبر. وبعد انـدلاع اللهب في الهيباتشي، وارتفـاعه حتى السقف، على وجه التقريب، تبدأ إحـدى سيدات البـلاط، وهي ترفـل في ثيـاب بيضاء احتفـالية، فـي تـرتيل الكلمات: «عـالياً! عـاليـاً! دع اللهب المقـدس يتـأجـج! إن كـانت ثـمار اليـوسفي وحلوى المـانجـو هـذه تحـظى برضاك. . .»، ثم تدس ثمار اليوسفي وحلوى الزلابيـة في النار، وتسخن، وتقدم للإمبراطور.

يمكن للمرء أن يحس بأن قيـام الراهبـة بإعـادة تمثيل مثـل هذا الـطقس الـوقور يـوشك أن يبلغ حـدود التـدنيس والانتهـاك، ولكن رئيسـة الـديـر أدركت أن الهدف الوحيد، الذي رمت إليـه العجوز، هـو تقديم لـون من ألوان المرح، الذي تمس الحاجة إليه بشدة، فلم تفه بكلمة لوم واحدة.

أقبـل الليل مبكـراً في جيشو. وبحلول السـاعة الخـامسة مسـاء، كانت البـوابة الأمـامية قـد أوصدت بـالفعل. وبعـد وقت قصير من تنـاول طعام العشـاء عادت الكـاهنات إلى مهـاجعهن، وتم اصطحـاب النبيلة أيـاكـورا وابنتها إلى غرفتهما. وكان من المقرر أن تمكثا حتى أصيل اليوم التالي، الأمر الذي يتيح الوقت لوداع على مهل، ثم تستقلا قطاراً ليلياً في تلك الليلة إلى طوكيو.

كانت النبيلة قد اعتزمت لوم ساتوكـو لدى انفـرادهما في غـرفتهما لـتركها حزنها يؤثر على تهذيبها خلال اليـوم. ولكنها بعـد بعض التأمـل في حالتهـا الذهنية إثر تجربة أوساكا، قررت الإحجام عن ذلك، ودلفت إلى الفراش، دون توجيه كلمة إلى ابنتها.

حتى في ظلام الليل المدلهم، بدا الورق، الذي يكسو الباب المنزلق، أبيض ومترعاً بروح الحداد بلا هوادة، في جناح الضيوف في جيشو. لاح الأمر كما لو أن الهواء المتجمد في ليل نوفمبر البارد قد اخترق بشرة الورق الرفيعة. كان بمقدور النبيلة أن تميز في يسر بين عناصر زخرفة الورق، المؤلفة من زهور الأقحوان ذات البتلات الست عشرة والسحب البيضاء، ومقابض الباب. عالياً، باتجاه السقف الذي حفته الظلمة، تجمعت حليات معمارية معدنية على شكل زهور تتألف من ست زهور أقحوان ملتفة حول براعم الكيكيو التي كانت غطاء مقنعاً للأوتاد، ترقش الظلمة المحيطة بها. في الخارج، سكتت الريح تماماً، دون أدنى صوت يتناهى للأسماع ولا حتى صوت النسيم، إذ يتخلل أشجار الصنوبر. ومع ذلك، فقد كان المرء يدرك إمتداد الغابة والجبل.

عمّ النبيلة شعور بالارتياح؛ فأياً كان الثمن كانت هي وابنتها قد اضطلعتا بالواجب المؤلم الذي قدر لهما، والآن، أحست بأن الهدوء والسكون سيعمان كل شيء. وهكذا، على الرغم من إدراكها أن ابنتها تضطرب وتتقلب في نومها، إلى جوارها، فإنها سرعان ما غفت.

عندما فتحت عينيها، لم تكن ساتوكو إلى جوارها. مدت يدها في ظلمة ما قبل الفجر، فبلغت منامة ابنتها وقد طويت بعناية فوق الغطاء. اخترمها شعور بالقلق، ولكنها حدثت نفسها بأن ساتوكو قد مضت إلى الحمام فحسب، فقررت ألا تحير حراكاً لعدة دقائق. ولكن على الرغم من أنها حاولت الانتظار، فقد ضاق صدرها ببرودة كئيبة، ونهضت للتحقق من الأمر. كان الحمام خاوياً. ولم يكن ثمة أثر لأحد آخر. الآن، شابت السماء زرقة مترددة بين الإقدام والإحجام.

عندئذ، سمعت صوت حركة تتناهى من المطبخ. وبعد لحظات،

ركعت عند قدميها خادم استيقظت مبكرة وأفزعها ظهور النبيلة المفاجىء.

- هل رأيت ساتوكو؟

سألتها، لكن الخادم تملكها الفزع، وما كان بمقدورها إلا أن تهز رأسها نافية، في ارتباك، كما أنها لم تتحرك مقدار بوصة واحدة للمساعدة في البحث.

غير أنه عقب ذلك، وفيما كانت النبيلة تذرع دهاليز الدير، في يأس لا طائل وراءه، تصادف أن التقت بالكاهنة الأصغر. وقد روعت الراهبة لسماع أخبارها، وشرعت في الحال ترشدها في بحثها.

في الطرف الأقصى من دهليز فرعي، لاح وهج الشموع المتقدة من القاعة الرئيسية للصلاة. لم يكن من المحتمل أن راهبة يمكن أن تنهمك في صلواتها، في تلك الساعة من الصباح.

كانت شمعتان متقدتان تحيط بهما زخرفة، تجمع بين شكلي الزهرة والعجلة تنيران أيقونة بوذا، التي جثت ساتوكو تحتها. لم تتعرف النبيلة ابنتها عندما رأتها من الخلف، للحظات قصار؛ ذلك أن ساتوكو قد قصت شعرها، فغدا قصيراً، ووضعت الجدائل المجزوزة على منصة النصوص المقدسة، كأنها تقدمة، وأمسكت بمسبحة في يدها وانغمست في الصلاة.

تمثل رد الفعل الأول، من جانب أمها، في الشعور بالارتياح لعثورها على ابنتها على قيد الحياة، وعندئذ أدركت أنها كانت حتى تلك اللحظة على يقين من أن ساتوكو قد ماتت.

صاحت، وهي تعانقها:

- لقد قصصت شعرك!

- نعم، يا أماه، ليس هناك ما يمكن القيام به غير ذلك.

ردت ساتوكو، أخيراً، وهي تحدق في عيني أمها مباشرة. تألقت السنة لهب الشموع الصغيرة المتراقصة في بؤبؤيها، ولكن بياض عينيها كان يحمل بالفعل ألق الفجر. لم يسبق للنبيلة أن رأت بزوغ فجر مخيف للغاية، كالذي رأته الآن في نظرة ابنتها. والتمع الألق الأبيض نفسه، متزايداً في جبروته كل لحظة في كل حبة من حبات المسبحة الملتفة حول أصابعها. وشأن قوة إرادة يصل بها زخم القوة إلى حد تجاوز مجرد الإرادة، بدا أن نور الفجر يتدفق بقوة معادلة من كل بلورة من البلورات الباردة.

مضت الكاهنة الأصغر لتحمل النبأ إلى الكاهنة الأقدم، وبعد أن قامت بذلك، انسحبت تاركة لهذه الأخيرة أن تمضي بالنبيلة أياكورا وابنتها إلى رئيسة الدير.

نادت، من خارج باب غرفة رئيسة الدير:

- هل أستيقظتم نيافتكم؟

- نعم.

- أرجو أن تغتفروا لنا إزعاجكم!

ثم أزاحت الكاهنة الباب، لتبدو رئيسة الدير، وقد اقتعدت حشيتها المغطاة بالألحفة. شرعت النبيلة في الحديث متعثرة:

- ما حدث، نيافتكم، هو أن ساتوكو قصّت الآن تواً شعرها، في قاعة الصلاة.

حدقت رئيسة الدير باتجاه الدهليز، فيما عيناها تستوعبان التغير الذي أحدثته ساتوكو في نفسها. لكن ملامحها لم تنم عن أدنى أثر للدهشة.

- طيب، طيب. كنت أتساءل عما إذا لم تكن الأمور بسبيلها إلى التحول على هذا النحو.

قالتها رئيسة الدير. وبعد فترة صمت، وكأنما خطر لها خاطر جديد، مضت قائلة بما أن الظروف تبدو متدخلة للغاية في الأمر، فإنها تعتقد أن

من الأفضل أن تتكرم النبيلة بترك ابنتها وحدها معها لتتمكنا معاً من تبادل حديث، من القلب إلى القلب. فأذعنت النبيلة والكاهنة الأقدم، وانسحبتا.

بذلت الكاهنة، التي تركت وحدها مع النبيلة أياكورا، قصارى ما في وسعها للتسرية عنها، ولكن النبيلة كانت مضطربة للغاية، حتى عجزت عن تناول لقمة واحدة من طعام الإفطار. وكان بمقدور الكاهنة تصور شعورها بالأسى. وعجزت عن التوصل إلى موضوع للحوار قد يجتذبها. انقضى وقت طويل، قبل أن ترسل رئيسة الدير في طلبها. وهناك، في غرفة رئيسة الدير، وبحضور ساتوكو، أبلغت رئيسة الدير النبيلة أياكورا بنبأ صاعق الدلالة: بما أنه ليس هناك موضع للخطأ في أصالة رغبة ساتوكو في هجران العالم، فإن معبد جيشو سيستقبلها باعتبارها كاهنة مستجدة.

طوال معظم الصباح، وحتى الآن، استغرق ذهن النبيلة تماماً في تصور العديد من الإجراءات البديلة. لم يكن لديها شك في أن قرارا ساتوكو كان قراراً حازماً؛ ومن ثم فإن الأمر سوف يقتضي بعض الأشهر أو حتى نصف عام لكي يعود شعر ابنتها إلى ما كان عليه، ولكن لو أنه أمكن فحسب إقناعها بعدم البدء بإجراءات دخول سلك الكهنوت، وأولها إزالة شعر الرأس كلية، فإن هذه الأشهر يمكن تبريرها باعتبارها فترة نقاهة من مرض ألم بها خلال الرحلة. وهكذا يمكن لآل أياكورا الحصول على تأجيل لحفل الخطبة، وعندئذ يمكن لقوى الإقناع التي يتمتع بها أبوها والأمير ماتسوجاي أن تؤتى أكلها، فيما يتعلق بالتأثير عليها في غضون ذلك، وربما يمكن دفعها إلى تغيير رأيها.

والآن، وهي تستمع إلى كلمات رئيسة الدير، فإن عزمها الذي كان أبعد ما يكون عن التخاذل قد أصبح أشد مضاء. كان الإجراء المعتاد عندما يجري قبول كاهنة جديدة أن تمر بعام من الانضباط التنسكي، قبل أن

يتخذ إجراء جز شعرها بكامله في حفل الانضمام الرسمي. وأياً كان الأمر، فإن إعادة شعر ساتوكو، الذي أصابه ما أصابه إلى حالته الأولى، أمر له الأولوية القصوى. ثم في حالة ما إذا أمكن إقناعها بسرعة معقولة بالتخلي عن عزمها على دخول سلك الكهنوت... أفعم ذهن النبيلة بالأحابيل العجيبة. ولو أن الأحداث اتخذت مساراً مواتياً، فربما أمكن أن تجتاز ساتوكو حفل الخطبة بأمان، بمساعدة شعر مستعار معدّ بعناية بالغة.

وصلت النبيلة أياكورا إلى قرارها: في الوقت الراهن، فإن السبيل الوحيد أمامها هو ترك ساتوكو هنا والعودة إلى طوكيو بأسرع ما يمكن؛ لوضع خطة للتحرك.

قالت، رداً على رئيسة الدير:

- إنني أقدر المشاعر التي أعربتم عنها نيافتكم. غير أن هذا الأمر لم يحدث فجأة في غضون رحلة، وإنما هو كذلك أمر يتضمن إقلاقاً للعائلة الإمبراطورية؛ ومن هنا فإنني أعتقد أنه من الأفضل أن أستأذنكم في العودة مؤقتاً إلى طوكيو، لمشاورة زوجي، قبل العودة إلى هنا. وفي غضون ذلك، سأعهد بساتوكو إلى عنايتكم.

أصغت ساتوكو إلى أمها، دون أن تند عنها نأمة. الآن، أحست النبيلة أياكورا بالخوف، حتى من الحديث مع ابنتها.

- ٤٥ -

عندما علم النبيل أياكورا بهذا التطور المدهش، لدى عودة زوجته، ترك أسبوعاً بكامله يمضي دون القيام بأي شيء على الإطلاق، وهو تسويف قُدِّر له أن يثير سخط الأمير ماتسوجاي.

قبع آل ماتسوجاي آمنين في سربهم، مفترضين أن ساتوكو قد عادت بالفعل إلى طوكيو، وأن إخطاراً مناسباً بهذا قد نقل إلى عائلة الأمير توين. وكان خطأ في التقدير من هذا النوع مما لا يتفق مع الأمير ماتسوجاي. ولكن عندماعادت زوجته من أوساكا، وأبلغته بأن تخطيطه المرهق قد نفذ حرفياً، غلب الرضا عن النفس على كل شيء، وأحس بالتيقن من الخاتمة الناجمة للأمر برمته.

تواصل تجريد النبيل أياكورا؛ فقد كان يعتقد أن العقلية المتسمة بالجلافة وحدها هي التي يمكن أن تقر باستحالة وقوع كارثة، ويحس بأن الاستمتاع بأوقات القيلولة أكثر فائدة من مواجهة الكوارث. ومهما كان المستقبل يبدو مفضياً إلى هاوية، فقد تعلم من لعبة الكيماري أنه لا بد للكرة من أن تسقط من جديد. لم يكن هنا ما يدعو للتوتر والاضطراب. فالحزن والحنق، جنباً إلى جنب مع الاندلاعات الأخرى للعاطفة، لا تعدو أن تكون أخطاء يرتكبها، في يسر، العقل الذي يفتقر إلى الحساسية والصفاء. ومن المؤكد أن النبيل أياكورا ما كان بالرجل الذي يفتقر إلى الحساسية والصفاء.

دع الأمور تجري في أعنتها! لشد ما هو أفضل أن تتقبل السقوط العذب

لقطرة العسل التي هي الزمن عن أن تنحني للغوغائية الكامنة في كـل قرار. ومهما كانت خطورة الأمر المطروح، فإن المرء إذا ما أهمله وقتاً طويلاً بما فيـه الكفـاية، فـإن فعل الإهمـال نفسه سيبـدأ في التـأثـير في المـوقف، وسيـبرز شخص آخر باعتبـاره حليفاً. تلك كـانت صياغـة النبيل أيـاكورا للنـظرية السياسية.

ما إن عادت النبيلة إلى كنف مثـل هذا الـزوج، حتى أصبحت. بصورة يومية، أقل اكتراثاً بالقلق الذي اعتراها في جيشو. وفي الـظروف الراهنـة، فمن حسن الطالع أن تاديشينا بعيدة وعاجـزة عن التحرك، في عـماء، تحت تأثير إحدى اندفـاعاتهـا الرعنـاء؛ فقد كـان النبيل من رقـة الحاشيـة بحيث أرسلها لتقضي فترة نقاهة في منطقة الينابيع الحارة في يوجاوارا.

غير أنه بعد أسبوع، جاءت مكالمة هاتفية من الأمير ماتسوجاي، ولم يعد حتى بمقدور النبيل أياكورا أن يبقى الأمر طي الكتمان. صعق الأمير عندمـا أبلغه النبيل بأن ساتوكو، في حقيقة الأمر، لم تعـد، واستشعر تقلقـل كافـة أنواع الهواجس الكريهة.

لم يهدر الأمير وزوجته وقتاً في القيام بزيـارة إلى آل أياكـورا. وفي البدايـة، طرح النبيل رداً غامضاً بعد الآخر، فيما جرى التدقيق معه، عـبر فيض من الأسئلة. ثم عندما ظهرت الحقيقة، أخيراً، بلغ الحنق من الأمير حـداً لطم معه المنضـدة الموضوعة أمامه بقبضته.

وعلى هذا النحـو، حدث أن هـذه القاعـة، التي تمتد عـبر عشر حصر، والتي أعيـد تصميمها عـلى نحو مرتبك، لتصبـح، الغرفة الوحيـدة الغـربية الطراز في الدارة، أصبحت ساحة لأول مناسبة، في معرفتهما الممتدة، واجه الاثنان فيهما أحدهما الآخر وقد تجردا من كـل المجامـلات. أشاحت المـرأتان بعيداً، وراحتا، بـين الفينـة والأخـرى، تختلسان النـظر كل إلى زوجهـا. وعلى الرغم من أن الرجلين واجه أحدهما الآخـر، فإن النبيـل أياكـورا كان

يميل إلى تنكيس رأسه. وكانت يداه، المستندتان إلى المائدة، صغيرتين وبيضاوين، كأنهما يدا عروس، في مسرحية للعرائس. وبالمقابل، ورغم ضعف الأمير الجوهري، فإن ملامحه الخشنة المتوردة كان يمكن أن تكون قناعاً من الأقنعة المستخدمة في مسرح النو[1]، من قبل شيطان غاضب، بحاجبين مقطبين على نحو ضار. وحتى في عين الزوجتين لم تكن أمام النبيل فرصة للتفوق.

اكتسح غضب الأمير كل شيء أمامه، لبعض الوقت. ولكن حتى وهو يطلق لسخطه العنان، بدأ في الشعور بقليل من الحرج إزاء إفصاحه هذا عن اعتقاده بأنه هو الوحيد الذي يلازمه الصواب؛ ذلك أنه في نهاية المطاف كان وضعه في أمان، من البداية إلى النهاية، في هذا الأمر. وفضلاً عن ذلك، ما كان يمكن وضعه موضع المواجهة مع خصم أكثر ضعفاً ولا إثارة الإشفاق من الخصم الذي يواجهه الآن. كان لون النبيل يوحي بالمرض. وفيما جلس هنالك، ملتزماً الصمت، ارتسم على وجهه تعبير يجمع بين الأسى والاستياء، فيما بدا محياه وكأنه نُحت من عاج أصفر، حددت الملامح على نحو رقيق وشكلت بصورة متماسكة. أكدت الجفون المجعدة الانكسار للعينين المنكستين عادة، وكذلك الكآبة التي تلفهما. ساور الأمير ماتسوجاي شعور، سبق له أن راوده من قبل، بأنهما عينا امرأة.

---

(١) مسرح النو: أرقى أشكال المسرح التقليدي الياباني وأقدمها، على الإطلاق، ويرجع تكامله إلى اندراج الطقوس والرقصات الدينية القديمة تدريجياً في أطر درامية مؤسلبة، راقية، ووصل هذا التطور إلى مرحلة التكامل الحقيقي في أواخر القرن الرابع عشر، على يد عملاقيْ هذا المسرح، وهما كانامي وزيامي. ونلاحظ أن بعض كتاب المسرح اليابانيين المحدثين حاولوا استغلال هذا المسرح التقليدي؛ لإبداع أعمال مسرحية، تستلهم تراثه القديم. ولعل أبرز هذه المسرحيات هي ما يضمه كتاب «خمس مسرحيات نوحديثة» لميشيما نفسه.

(هـ.م.)

أفصح تكتم النبيل أياكورا الفاتر، وطريقته في الاسترخاء في مقعده، بوضوح، عن التألق الرشيق لتقاليد عريقة ـ وهي شيء لا وجود له في أصول الأمير ماتسوجاي ـ تبدت الآن في أوضح صورها، وقد أصابها جرح عميق. كان لها جانب مما يصيب القوادم الملوثة لطائر نافق، مخلوق كان يصرخ على نحو جميل يوماً، ولكن لحمه لا طعم له؛ وبالتالي فهو ليس مما يؤكل.

ـ أمر لا يصدق! أمر ما أتعس أن يقع. أي اعتذارات يمكن أن تقدم إلى الإمبراطور وإلى الأمة بأسرها؟

مضى الأمير يتحدث، على نحو خطابي، بلا اكتراث، وقد عقد العزم على أن يدع غضبه ينسرب، في دفق من المقاطع الطنانة، ولكن مع إدراك أن خط دعمه قد ينقطع في أية لحظة. لم تكن للغضب جدوى، في مواجهة النبيل أياكورا، الذي لم يكن على معرفة بالمنطق، ولا يميل من بعيد للانطلاق في أي مسار للتحرك. والأمر الأسوأ من ذلك هو أن الأمير قد أدرك أنه كلما ازداد غضباً تفاقم انقلاب قوة انفعاله بلا هوادة على ذاتها.

لم يستطع تصديق أن النبيل قد تآمر للوصول إلى هذه النتيجة، من البداية ذاتها. ولكنه مع ذلك رأى بوضوح مؤلم أن النبيل قد استطاع استخدام كسله المتوطن لطرح موقف على هذا النحو من الارتفاع فوق النقد، بحيث أنه مهما كانت جسامة الكارثة، فإن المسؤولية عنها لن تلقى على كاهله وإنما على كاهل حليفه.

في نهاية المطاف، كان الأمير هو الذي طلب من النبيل أن يربي ابنه تربية تكفل له أن يتشرب بالحساسية. ولا شك في أن رغبات البدن عند كيواكي هي التي جلبت هذه المحنة، وبوسع المرء أن يذهب إلى القول بأن هذا كان نتيجة للسم المراوغ، الذي بدأ في نقل عدواه إلى روحه، بعد وصوله إلى دار آل أياكورا، وهو لا يزال طفلاً. ولكن المحرض المطلق على هذا لم يكن

إلا الأمير نفسه. وإضافة إلى ذلك، ففي هذا المنعطف الأخير من الأزمة، كان الأمير هو الذي أصرّ على إرسال ساتوكو إلى أوساكا، دون تبصر لإمكانية وقوع شيء من هذا القبيل. هكذا، فقد تآمر كل شيء لكي يكفل إنقلاب قوة غضب الأمير عليه هو نفسه.

وفي النهاية، أمسك الأمير عليه لسانه، بعد أن أخذت منه جهوده كل مأخذ، ونال قلقه المتفاقم من أعصابه. امتد الصمت، الذي أعقب ذلك، وازداد عمقاً، حتى بدا أن أربعتهم قد اجتمعوا في هذه القاعة لممارسة التأمل الجماعي. تناهت قوقأة الدجاج، المعتادة في الظهيرة، من الفناء الخلفي للدار. وفي كل مرة هبت فيها رياح صدر الشتاء عبر الأشجار في الخارج، مضت تتألق أطراف أشجار الصنوبر، التي حركتها الريح، لدى أدنى لمسة منها. لم يند صوت عن أية حركة بشرية من أي مكان آخر في الدار. وبدا أن الصمت يساير المناخ الرهيب، الذي ساد قاعة الاستقبال.

وإذن، فقد أطاحت النبيلة أياكورا بالرقية السحرية.

- لقد كان إهمالي هو الذي تسبب في هذا. وما من سبيل أمامي لكي أعتذر بما يكفي لك، أيها الأمير ماتسوجاي، ولكن في ضوء الوضع الراهن للأمور، أليس من الأفضل أن نحاول جعل ساتوكو تغير رأيها في أقرب وقت ممكن، ونجعل حفل الخطبة يقام على نحو ما هو مخطط له؟

دمدم الأمير، على الفور:

- ولكن ماذا عن شعرها؟

- طيب، فيما يتعلق بذلك، إذا سارعنا، ورتبنا صنع شعر مستعار، فسوف يضلل ذلك عين الكافة لبعض الوقت...

هتف الأمير دهشاً، مقاطعاً النبيلة، قبل أن تنهي حديثها، وقد وشى صوته بتهدّج الابتهاج:

ـ شعر مستعار! لم أفكر في ذلك قط.
قالت زوجته مقاطعة في الحال:
ـ نعم، بالطبع، لم نفكر في ذلك قط.

ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، وفيما انتقلت عدوى حماس الأمير إلى الآخرى، أصبح الشعر المستعار هو كل ما يمكنهم الحديث عنه. وللمرة الأولى تردد الضحك في القاعة، فيما أربعتهم يتنافسون في الانقضاض أولاً على هذه الفكرة النيرة، كأنما هي شريحة لحم.

غير أنهم لم يتساووا في درجة إيمانهم بفكرة النبيلة الجديدة. فلم يكن النبيل، من ناحيته، يثق بمدى فعاليتها، ولربما شاركه الأمير في نزعة تشككه هذه، ولكنه كان قادراً على ادعاء الإيمان بالفكرة بمزيد من الكبرياء. وقد سارع النبيل إلى الاستفادة من المثل الذي ضربه له.

قال الأمير، وقد خفض صوته إلى مستوى الهمس المغتصب، فيما هو منخرط في الضحك:
ـ وحتى إذا تشكك الأمير الشاب في أمر شعر ساتوكو قليلاً، فمن المؤكد أنه لن يمسه ليتحقق من الأمر بنفسه.

تخلل الغرفة مناخ من المودة، بغض النظر عن هشاشة الفكرة الخيالية التي يستند إليها، ذلك أن هذه الفكرة أمدتهم بعنصر ملموس بالغ الأهمية في هذه اللحظة. لم يضع أحد موضع الاعتبار روح ساتوكو، فقد كان شعرها وحده هو الذي يرتبط بالصالح القومي.

كان والد الأمير قد كرَّس كل قوته وعواطفه الضارية لقضية الإصلاح الإمبراطوري. وكان من شأن جرح مشاعره أن يكون مريراً، لو أنه علم أن المجد الذي جلبه لاسم عائلته سيعتمد، ذات يوم، على شعر مستعار لامرأة. ولم يكن هذا النوع من المناورة المركبة والغامضة هو مكمن القوة

عند آل ماتسوجاي، وإنما كان في حقيقة الأمر أكثر اتساقاً مع آل أياكورا. ولكن الأمير الحالي، بدلاً من ترك ألوان الخديعة المحكمة الأعداد لآل أياكورا افتتن بها، وهكذا اضطر آل ماتسوجاي إلى المشاركة في احتمال عبء لم يألفوه.

وحقيقة الأمر أن هذا الشعر المستعار لم يوجد، حتى ذلك الوقت، إلا في خيالهم، وكان بلا قيمة على الإطلاق في ضوء نوايا ساتوكو. غير أنهم تصوروا أنهم ما إن يضعوها في قلب ذلك الشعر المستعار حتى يتمكنوا من إقامة صرح صورة، لا تشوبها شائبة، من جزئيات قطع من لغز، يعتمد على التجميع المراوغ. هكذا، بدا أن كل شيء يعتمد على الشعر المستعار، وأسلم الأمير نفسه لهذا المشروع بحماس.

ساهم كل من أعضاء الفريق الرباعي في قاعة الاستقبال بكل طاقته في مناقشة الشعر المستعار، الذي لا وجود له. سيتعين على ساتوكو أن تضع شعراً مستعاراً مصففاً في تسريحة طويلة ممتدة، تناسب حفل الخطبة، ولكن بالنسبة للاستخدام اليومي فمن الضروري الاستعانة بشعر مستعار مصفف على الطريقة الغربية. وبما أنه لا يمكن تخمين متى يمكن لنظر أحد أن يقع عليها بدونه فلا بد ألا تخلعه إلا حينما تستحم. وشرع كل منهم يستخدم خياله أو خيالها في تصوير هذا الشعر المستعار الذي قرروا بالفعل أن يتوجوها به: غزير، أسحم، أكثر لمعاناً من شعرها الطبيعي. لسوف تتاح لها هذه القوة السيادية على الرغم منها، عظمة تصفيف يشذب فيه الشعر برشاقة، ويتكلل عالياً كأنه التاج، ويشع بفتنه قائمة فوق هذا تطغى على ألق الضحى بشيء من جوهر الليل. وكان كل من الأربعة يدرك حق الإدراك أن تحقيق ذلك لن يكون بالأمر السهل، وأنه تحت هذا الشعر المستعار، الذي لا نظير له، سيكون هناك وجه يتألق بالسعادة، ولكن ما من أحد كان على إستعداد للتركيز طويلاً على هذا الجانب من المشكلة.

ـ في هذه المرة، سأقدر ذلك أعظم التقدير إذا قمت بنفسك يا سيدي النبيل بالذهاب لتقنع ابنتك بمدى إصرارك على المضي قدماً في الأمر. أما أنت يا سيدتي النبيلة فيؤسفني إصرارك على تجشيم نفسك عناء القيام برحلة ثانية، ولكني سأرتب قيام زوجتي بمصاحبتك من جديد. وبالطبع، يتعين عليّ بدوري الذهاب، غير أنه...

هنا تعثر الأمر، الذي كان حساساً فيما يتعلق بالمظهر، وأضاف قائلاً:

ـ إذا تعين عليَّ الذهاب فإن ذلك قد يجعل الناس يتساءلون؛ ولذا فسوف أبقى هاهنا. وأود إنجاز الرحلة بأسرها في سرية تامة هذه المرة. أما فيما يتعلق بغياب زوجتي، فإن بمقدورنا إشاعة نبأ مرضها. وفي غضون ذلك، هاهنا في طوكيو، دعوني أبحث الأمر وأكلف أشد الصناع مهارة لإعداد شعر مستعار بديع لنا، دون أن يدري أحد عن الأمر شيئاً. وإذا ما اشتم أحد محرري الأخبار في صحيفة شيئاً، فسوف نكون في موقف لا نحسد عليه. ولكن ما عليكم إلا أن تدعوا تلك المسألة لي!

دهش كيواكي لرؤية أمه تستعد مرة أخرى للقيام برحلة، غير أنها رفضت إبلاغه عن الجهة التي ستنطلق إليها، أو الغرض من رحلتها، مكتفية بالقول إن عليه ألا يذكر شيئاً عنها لأحد من خارج الدار. وقد ساوره شعور بأن شيئاً يدعو للانزعاج قد وقع، وأنه له علاقة بساتوكو. ولكن مع ملازمة ياmادا بإستمرار له بغرض مراقبته، لم يكن هناك سبيل أمامه لمعرفة المزيد.

عندما بلغ آل أياكورا والأميرة ماتسوجاي معبد جيشو، قوبلوا بوضع مذهل. فقد أقيم الاحتفال لساتوكو بجز شعرها كاملاً كأول خطوة لها على طريق الكهنوت.

كانت الظروف التي أفضت إلى تخليها عن العالم على النحو التالي. عندما سمعت رئيسة الدير بالقصة كاملة من ساتوكو، في ذلك الصباح الأول، علمت، في الحال، بأن عليها أن تسمح للفتاة بأن تصبح كاهنة. كانت تدرك حق الإدراك أن من سبقنها إلى رئاسة دير جيشو كن أميرات من العائلة الإمبراطورية، فأحست بأنها ملزمة بإجلال الإمبراطور فوق الجميع. وهكذا، وصلت إلى قرار بأن عليها السماح لساتوكو بدخول سلك الكاهنات، حتى ولو كان ذلك يعني مجافاة مؤقتة للإرادة الإمبراطورية. وكانت قد وصلت إلى أنه في ضوء الظروف الراهنة ليس من سبيل آخر للوفاء بمقتضيات ولائها للإمبراطور، فقد تصادف أنها كشفت النقاب عن مؤامرة موجهة ضده، وما كان بمقدورها أن تدع هذه المؤامرة

تمضي، دون القضاء عليها، فلم تكن بالتي تسمح بالتخلي عن مبدأ الولاء، مهما كانت جاذبية الإطار الخارجي المخادع الذي يغلف هذا التخلي.

هكذا، فإن رئيسة دير جيشو المهذبة، والحذرة عادة، حسمت أمرها، وصممت على عدم التراجع، سواء أفي مواجهة قوة السلطة، أو التهديد بالإجبار. وحتى لو اجتمع العالم ضدها، وإن اضطرت إلى تجاهل مرسوم إمبراطوري بعينه، فسوف تصر على ما أضطرت للقيام به ـ أن تكون حارسة صامته لشخص جلالته المقدس.

كان لتصميمها تأثير عميق على ساتوكو، التي أصبحت أشد إصراراً على التنكر للدنيا. لم تكن قد توقعت أن تلبي رئيسة الدير طلبها، عن طواعية، على هذا النحو. واجهت بوذا، وفي الفور صدت رئيسة الدير، بعينها الحادة كأنها عين تم، صلابة القرار الذي اتخذته الفتاة.

على الرغم من أنه كان من المألوف، بالنسبة لكاهنة مستجدة، أن تمضي عاماً من الانضباط النسكي الصارم، قبل الإعلان الرسمي عن التحاقها بالسلك الكهنوتي، فإن كلا من رئيسة الدير وساتوكو شعرتا بأنه، في ضوء الظروف الراهنة، ينبغي الاستغناء عن هذه الفترة. ولكن رئيسة الدير لم تستطع إجبار نفسها على تجاهل آل أياكورا كلية، بحيث تسمح لساتوكو بأداء طقس جز الشّعر، قبل عودة النبيلة أياكورا من طوكيو. وعلاوة على ذلك، فقد كان هناك موضوع كيواكي. وحدثت نفسها قائلة: ألن يكون من الحكمة السماح له ولساتوكو بأن يودعا أحدهما الآخر وداعاً مطولاً قبل أن تضحي بما بقي لها من شعر حتى الآن؟

لم يكن بمقدور ساتوكو احتمال هذا التأخير. فقد جاءت إلى رئيسة الدير كل يوم، شأن طفلة تثقل على أمها لتعطيها قطعة من الحلوى، وراحت تلحف في الرجاء بأن تؤدي طقس التضحية بما بقي من شعرها. وفي نهاية

المطاف، ألفت رئيسة الدير نفسها على استعداد للاستسلام لهذا الإلحاف.

سألت ساتوكو، قائلة لها:

- إذا سمحت لك بأداء هذا الطقس، فلن يؤذن لك قط برؤية كيواكي ثانية. ألن يثير ذلك ضيقك؟

- كلا.

- طيب، ما إن تتخذي القرار بعدم رؤيته ثانية أبداً في هذا العالم، وتتقدمي على هذا النحو إلى مرحلة دخول الكهنوت حتى يغدو أي شعور لاحق بالندم مريراً حقاً.

- لن يساورني الشعور بالندم. ولن تقع عيني عليه ثانية قط، في هذا العالم. أما فيما يتعلق بالفراق فقد نلنا ما يكفي من الوداع. لذا أرجوك...

كان صوتها، وهي ترد، صافياً وحازماً.

أجابت رئيسة الدير، سامحة بمهلة مدتها يوم آخر:

- طيب، غداً صباحاً، إذن، سأتولى الرئاسة في حفل جز الشعر.

لم تعد النبيلة أياكورا، خلال هذه المهلة.

منذ ذلك الصباح الأول، في جيشو، ألفت ساتوكو بنفسها، من تلقاء ذاتها في المسيرة الصارمة لحياة الدير. كانت الخاصية المميزة لبوذية هوسو تكمن في التركيز الأكبر على تربية الذهن، بالمقارنة بممارسة ألوان التقشف والزهد الدينية. فضلاً عن ذلك، فإن معبد جيشو كان مكرّساً تقليدياً للصلاة من أجل رخاء الأمة بأسرها، ولم تكن هناك عائلات مسجلة فيه باعتبارها تابعة دينياً لمنطقته. وفي بعض الأحيان كانت رئيسة الدير تقول ملاحظة بمرح رقيق إن «صلاة الدموع» شيء لا يصادفه المرء في بوذية هوسو، وهكذا تؤكد المفارقة مع مذهب أميدا الأحداث في الظهور المنبثق عن بوذية الأرض النقية بتركيزه الكبير على صلوات العرفان المترعة بالنشوة الروحية.

وليس هناك بالمثل في البوذية المهايانية [1]، بشكل عام، وصايا متعلقة بالقواعد السلوكية، يمكن الحديث عنها. ولكن فيما يتعلق بحياتها الكهنوتية فغالباً ما تتم استعارة قواعد البوذية المهايانية. غير أنه في أديرة، مثل دير جيشو، كانت القاعدة هي «وصايا البوذيساتفا» المتضمنة في «براهما جالا سوترا». وتبدأ نواهيها الثماني والأربعون بالأحكام العشرة الكبرى، التي تحظر خطايا من نوعية القتل والسرقة والإسراف من أي نوع والكذب، وتنتهي بالنهى عن القضاء على تعاليم بوذا.

غير أن التدريب الكهنوتي كان أقسى بكثير من أي وصية، ففي الوقت القصير، الذي أمضته ساتوكو في جيشو، استظهرت كلا من «سوترا الفؤاد المستنير[2] والأبيات الثلاثين» التي تتضمن مبدأ «يويشيكي». وفي كل صباح

---

(١) البوذية المهايانية: بحسب القارىء أن يتذكر الحقيقة البسيطة، القائلة بأن البوذية قد تفرعت، أساساً، إلى ثلاث مدارس رئيسية: هي الثيرافادا، أو مذهب الكبار أو الأسلاف، وهي الصورة الباقية حتى اليوم لما يدعي بالهينايانا، أو وسيط النقل الأقل، والمهايانا، أو أداة النقل العظيمة، والفجرياما، أو أداة النقل الماسية. وتشيع المدرسة الأولى في سيلان وبورما وجنوب شرقي آسيا، بينما تنتشر الثانية في الصين وكوريا واليابان، أما الثالثة فمعقلها التبيت، ومن أجلي أن المتن يشير إلى المدرسة الثانية.

(هـ.م.)

(٢) سوترا الفؤاد المستنير: كلمة سوترا Sutra هي كلمة سنسكريتية، يرجع استخدامها في اللغة الإنجليزية إلى عام ١٨٠١، وهي تعني، أصلاً، الخيط أو القاعدة. وقد انصرفت، في الأدب السنسكريتي، إلى قاعدة موجزة من قواعد اللغة، أو القانون، أو الفلسفة، تقتضي تفصيل القول فيها، من خلال التعقيب عليها. وتشير دائرة المعارف البريطانية إلى أن السوترا هي مرحلة التطوير، وفق المدارس المختلفة لنص الفيدا، وهي تعني كذلك حكمة تلخص جانباً من التعاليم الدينية الهندوسية، أو مجموعة حكم، أو محاورة من محاورات بوذا. وربما كان النص المشار إليه في المتن من

تنهض لتكنس وتزيل الغبار عن قاعة الصلاة الكبرى قبل أن تجيء رئيسة الدير لترتيل صلواتها الصباحية، وفي غضون ذلك تتاح لها فرصة التدرب على إنشاد السوترا. لم تعد تعامل باعتبارها ضيفة. وغدت الكاهنة الأقدم التي جعلتها رئيسة الدير مسؤولة عنها امرأة أخرى مختلفة تتميز بقسوة أسلوبها.

في صبحية الاحتفال بأنخراطها في السلك الكهنوتي. قامت بمزيد من العناية بالاغتسال على النحو المفروض، قبل أن ترتدي مسوح الكاهنات الأسود. وفي قاعة الصلاة، جثت، وقد التفت مسبحتها حول كفيها، اللتين وضعتهما متشابكتين أمامها. بعد أن أمسكت رئيسة الدير نفسها بالموسى، وشرعت في جز شعرها، تولت الراهبة العجوز المسؤولة عنها باقي هذه المهمة. وفيما هي تجز الشعر بيد محنكة، شرعت رئيسة الدير ترتل «سوترا الفؤاد المستنير» تصاحبها الراهبة الأصغر.

عندما اجترحت أعمال الكمال،
أصبحت الكليات الخمس للكائن البشري مثلما
الأشياء باطلة أمام عيني شريعة البوذيساتفا،
ورفع عن كاهلها نير العذاب البشري.

شرعت ساتوكو بدورها في الترتيل، وقد أغمضت عينيها. وفيما هي تقوم بذلك، أصبح جسمها مثل زورق، يتخفف تدريجياً من كل أحماله،

= أهم النصوص البوذية. والمرجع التقليدي في دراسة هذا النص هو، بالطبع، كتاب لوبيز الموسوم «شرح سوترا الفؤاد» وللراغب، من المتخصصين في الدراسات الشرقية الكلاسيكية، في الأطلاع عليه، نورد بياناته الأساسية هنا:

Lopez· D.S.Jr. - The Heart Sutra Explained: Indian and Tibetan Commentaries - State University of New York press - 1988 - N.Y - ISBN O - 88706 - 589 - 9 (هـ. م.).

ويتحـرر من مرسـاته، وأحست بنفسهـا وهي تنطلق مـع الموجـة العميقة، المنـداحة، التي تصنعهـا الأصوات المـرتلة.

واصلت إغماض عينيها. تخلل قاعة الصلاة الرئيسية برد يخـترم العظام، كـذلك الـذي يحفل بـه بيت من جليـد. وهكذا، وعـلى الرغم من أنها هي نفسهـا كانت تـطفو مـطلقة السراح، فقـد تخيلت امتداداً رحبـاً من الجليد يطبق على الدنيا بأسرها، من حولها. فجأة تناهت صيحة طائر الدغنـاش، مقبلة من الحـديقة في الخـارج، واندلـع صدع عـبر هذا السهـل الجليدي، بسرعة لسان مندلع من البرق، لكن الصدع التم ثـانية في الحـال، وأصبح الجليد كلاًّ متماسكاً، مرة أخرى.

أحست بـالموسى تشق طـريقها بعنـاية بـالغة عـبر فـروة شعـرهـا. تخيلت أحيـانـاً القضم المهتـاج من القـوارض البيضـاء الصغـيرة لفـأرة، وأحيـانــاً أخرى الطحن الهادىء من أضراس حصان أو بقرة.

فيـما راحت خصلة وراء الأخـرى تتسـاقط، أحست بفـروة رأسهـا وقـد شرعت تتلقى وخـزاً خفيفاً من بـرودة منعشـة، كـانت جديـدة بالنسبـة لهـا تماماً. راحت الموسى تزيل كل أثـر للشعر الأسـود، الذي فصلهـا عن العالم طويلاً، المتقد، والثقيل بوقره المؤسف من الرغبة. ولكن فروة رأسها كـانت الآن تعـرى لعالم من النقـاء لم تنتهك يـدا أي رجل غرويته البـاردة. وفيما مـدى الجـزء المحلوق من رأسهـا يتسـع، شرعت تحس بـالجلد يغـدو أكـثر حياة، على نحو متزايد، تماماً كما لو أن محلولاًبارداً، قوامه المنتول، كان ينشر عليه.

تخيلت أن الـبرودة لا بد أنها تشبـه سطـح القمـر، من حيث أنه معـرض مبـاشرة لرحـابة الكـون. كان العالم الذي عـرفته يتـداعى مع كـل خصلة تهوى، وفيما ذلك يحدث، غدت بعيدة بلا انتهاء عنه.

بدا، بأحد المعاني، كأنما شعرها يجري حصاده. تكومت كتل سوداء، مجزوزة، لا تزال متشبعة بالتألق الخانق النابع من شمس الصيف، على الأرض من حولها. لكنه كان حصاداً لا قيمة له، ذلك أنه في اللحظة عينها التي كفت فيها كومات الشعر السوداء الرائعة عن أن تكون منتمية لها، انسرب منها جمال الحياة، دون أن يترك إلا بقية بشعة. الآن يلقى جانباً بلا هوادة بشيء كان، ذات يوم، جزءاً حميماً منها، عنصراً جمالياً من كيانها الأكثر جوّانية. كان يجري قطع الروابط التي ربطتها بعالم الزوال، على نحو لا عودة فيه، مثل بتر عضو من الأعضاء.

عندما تألقت فروة رأسها أخيراً بلمعة مزرقة، خاطبتها رئيسة الدير، برقة:

ـ إن الهجران الأكثر أهمية للعالم يأتي بعد التخلي الرسمي عنه. ولديَّ مطلق الثقة من تصميمك الراهن. من هذا اليوم فصاعداً، إن سعيت بدأب وراء نقاء فؤادك، في الزهد في الحياة، فلا شك لديَّ في أنك ذات يوم ستغدين موضع فخار سلك كهنوتنا.

تلك كانت الكيفية التي تم بها الاحتفال برسامة ساتوكو. غير أنه لا النبيلة أياكورا ولا الأميرة ماتسوجاي كانتا على استعداد للاستسلام، بغض النظر عن مدى ما سببه تحول ساتوكو لهما من تمزق وانسحاق. ففي نهاية المطاف، لا زال هناك الشعر المستعار، السلاح الكامن، الذي لا يزال يحتفظ به احتياطياً.

احتفظ النبيل أياكورا وحده، من بين الزوار الثلاثة بمظهر لطف المعشر، من البداية إلى النهاية. وانهمك مع رئيسة الدير وساتوكو في حديث عرضي ومتمهل، حول الدنيا بشكل عام، ولم تند عنه، في أية لحظة، أدنى إيماءة إلى أنه ربما يرغب في أن تعدل ساتوكو عما عقدت العزم عليه.

كانت برقية تصل يومياً من الأمير ماتسوجاي، يطالب فيها بتقرير عن الموقف، حتى تلك اللحظة. وأخيراً، انهارت النبيلة أياكورا، وانخرطت في البكاء، وهي تتوسل لابنتها، لكن ذلك كان بلا طائل. وهكذا، في اليوم الثالث لوصولهم، غادرت النبيلة والأميرة إلى طوكيو، واضعتين كل ثقتهما في النبيل الذي بقي في جيشو. وكان الارهاق قد أخذ كل مأخذ من النبيلة حتى أنها آوت إلى فراشها، بمجرد عودتها إلى الدار.

أما النبيل فقد أمضى أسبوعاً في جيشو، دون القيام بشيء على الاطلاق؛ فقد كان يخشى العودة إلى طوكيو. ولما كان قد أحجم عن القيام بأية محاولة كائنة ما كانت لإقناع ساتوكو بالعودة إلى الحياة العادية، فقد خففت رئيسة الدير من يقظتها الصارمة، ومنحته وابنته الفرصة للانفراد أحدهما بالأخر. غير أن الكاهنة الأقدم واصلت رصدهما، على نحو عابر، من بعيد.

جلسا كلاهما، أحدهما قبالة الآخر، وقد التزما الصمت، في إحدى الشرفات، التي تحظى بنصيب من أشعة الشمس الشتوية. وفيما وراء أشجار الأغصان الجافة، أبرزت سحب متناثرة زرقة السماء. أصدر صائد

الذباب صوته على استحياء من شجرة اللاجر سترمية الهندية. كانا جالسين دونما كلمة واحدة لوقت طويل. وفي نهاية المطاف، تحدث النبيل أياكورا، وقد وسمت ملامحه تباشير ابتسامة مجاملة:

ـ من الآن فصاعداً، لن يكون بمقدوري، بسببك، الاختلاط كثيراً بالمجتمع.

ردت ساتوكو بهدوء، ودون أي أثر للانفعال:

ـ أرجو أن تسامحني!

قال، بعد لحظات قلائل:

ـ عجباً! إن لديكم كافة أنواع الطيور هنا في هذه الحديقة. أليس كذلك؟

ـ بلى، لدينا كافة أنواعها.

ـ قمت بنزهة قصيرة صباح اليوم. في الوقت الذي تنضج فيه ثمار البرسيمون هنا، بحيث تسقط، يبدو أن الطيور قد انقضت عليها بالفعل. ويلوح أنه ما من أحد يقوم بجمعها.

ـ نعم، هذا هو، بالضبط، ما يحدث.

ـ أحسب أن المزيد من الجليد سيهمي، عما قريب.

قالها، دون أن يتلقى رداً. هكذا، جلسا، في صمت، يطلان على الحديقة.

في صباح اليوم التالي، غادر النبيل أياكورا جيشو أخيراً. وعندما واجه الأمير ماتسوجاي، في طوكيو، بعد أن أخفق تماماً في مهمته، وجد أن الأمير لم يعد غاضباً.

كان اليوم هو الرابع من ديسمبر، وهو ما يعني أن حفل الخطبة لم يبق على إقامته إلا أسبوع. وقد استدعى الأمير سراً إلى داره المفتش العام

لشرطة العاصمة. وكانت خطته هي اللجوء إلى سلطة الشرطة للقيام بنقل ساتوكو من الدير بالقوة.

بعث المفتش العام بأمر سري إلى شرطة نارا. غير أنه لما كان هذا الأمر متعلقاً باقتحام دير، كانت رئيسته تقليدياً أميرة من العائلة الامبراطورية، فقد خشيت شرطة نار أن تثير سخط وزير الديوان الامبراطوري. فطالما أن المعبد يتلقى مساعدة من الأرصدة الامبراطورية. وحتى ولو كانت لا تتجاوز ألف ين في العام الواحد، فإن أدنى انتهاك لاستقلاله الذاتي يعدّ أمراً لا يخطر لأحد على بال؛ ومن ثم فقد مضى المفتش العام سراً إلى نارا مصحوباً بأحد مرؤوسية الموثوق بهم، في ملابسه المدنية. ولم تظهر رئيسة الدير أدنى بادرة انزعاج، عندما أطلعتها الكاهنة الأقدم على بطاقة زيارته.

بعد أن أمضى ساعة يتجاذب أطراف الحديث، ويتناول أقداح الشاي مع رئيسة الدير، اضطر في نهاية الأمر إلى الانسحاب، مستسلماً لقوة جلالها الهائلة.

كان الأمير قد لعب الورقة الأخيرة، التي بقيت في يده، ووصل إلى إدراك أنه ليس هناك شيء آخر يمكن القيام به، إلا التقدم لآل توينومايا بطلب قبول انسحاب ساتوكو من الزواج المقترح. وكان الأمير توين قد بعث، في الأسابيع الأخيرة، بأحد المسؤولين إلى دار آل أياكورا مرات عديدة، وقد داخله القلق من جراء سلوكهم الغريب.

استدعى الأمير ماتسوجاي النبيل أياكورا إلى داره، وأبلغه بأنه لم يعد أمامهما من خيار إلا قبول الموقف، ثم حدَّد له معالم الاستراتيجية التي سيتبعانها. فهما سيقدمان إلى آل توينومايا شهادة موقعة من طبيب شهير يشهد فيها بأن ساتوكو قد أصيبت بانهيار عصبي قاس. ومن شأن المسؤولية الخاصة بتحمل وقر الحفاظ على هذا السر أن توحد آل توينومايا وآل أياكورا وآل ماتسوجاي، في إطار من الثقة المتبادلة، وقد يخفف هذا من

غضب الأمير توين. أما فيما يتعلق بالجمهور فكل ما ستمس الحاجة إليه هو نشر الشائعة القائلة بأن آل توينومايا قد أصدروا بياناً مقتضباً غامضاً، قالوا فيه إنه تم فض الخطبة وأن ساتوكو قد أدارت ظهرها للدنيا وهربت إلى أحد الأديرة. وكنتيجة لهذا القلب للسبب والنتيجة رأساً على عقب فإن آل توينومايا، على الرغم من اضطرارهم إلى حد ما للقيام بدور الشرير، سيحتفظون بماء وجههم وبمكانتهم. أما آل أياكورا فعلى الرغم من أن بعض العار سيطالهم، إلا أنهم سيستفيدون من تعاطف الرأي العام معهم.

غير أنه لن يكون مجدياً، على الاطلاق، ترك الأمور تجري في أعنتها. ولو أن ذلك وقع، فإن آل أياكورا سيحظون بقدر أكثر مما ينبغي من التعاطف، وإذ يواجه آل توينومايا بتقلقلات عداء غير مبرر، فإنهم سيضطرون إلى إيضاح الأمور، ومن ثم إلى إبراز شهادة حالة ساتوكو الصحية إلى العلن. كان من الأمور الجوهرية تقديم القصة إلى الصحافيين، دون التركيز كثيراً على عنصر السبب والنتيجة، فيما يتعلق بقيام آل توينومايا بفض الخطبة، ودخول ساتوكو سلك الكهنوت، فالأمران ينبغي تقديمهما باعتبارهما حديثين منفصلين، ولكن سياقهما الزمني يتعين أن يتم قلبه. غير أن الصحافيين أنفسهم لن يقتنعوا بمثل هذا الإيضاح. ولو أن الأمر غدا كذلك، فإنه سيتم الايماء إلى أنه كانت هناك بالفعل علاقة عاطفية عابرة، ولكن العائلات المعنية تطلب منهم الاحجام عن كشف النقاب عن هذا.

بمجرد حصول الأمير ماتسوجاي على موافقة النبيل أياكورا على هذه الخطة، قام، على الفور، بزيارة دكتور أوزو، مدير عيادة أوزو للأمراض العقلية، وطلب حضوره إلى دار ماتسوجاي تواً، لإجراء فحص لمريض، مع التزام أقصى درجات السرية. وكانت هذه العيادة تتمتع بسمعة ممتازة،

فيما يتعلق بحماية خصوصيات المرضى من علية القوم، عندما تحدث حالة طارئة، من هذا النوع. وقد استغرق وصول دكتور أوزو وقتاً طويلاً، وفي غضون ذلك، لم يعد بمقدور الأمير ماتسوجاي إخفاء شعوره بالضيق عن أياكورا، الذي اضطر لانتظار قدوم الطبيب معه. ولكن لما كان من غير المناسب مع الظروف الراهنة إرسال سيارة من دار ماتسوجاي لجلب الطبيب، فما كان بوسع الأمير إلا أن يكظم غيظه.

عندما وصل الطبيب، تم اصطحابه إلى قاعة الاستقبال الصغيرة، في الطابق الثاني من الدار الغربية الطراز، حيث كانت النار تأتلق متأججة في المدفأة. قدَّم الأمير نفسه والنبيل أياكورا على التوالي، وعرض سيجاراً على الطبيب.

ـ وأين ترغبان في أن أفحص المريضة؟

قالها الطبيب، متسائلاً، فتبادل الأمير والنبيل النظرات.

رد الأمير:

ـ طيب، في الحقيقة إن المريضة ليست هنا، في الوقت الحالي.

ما إن علم الطبيب بأن المطلوب منه هو أن يوقع، في التو واللحظة، شهادة طبية باسم مريضة لم تقع عينه عليها، حتى احمر وجهه غضباً. وتمثل ما استفزه، على نحو خاص، في النظرة التي كان على يقين من أنه لمحها في عيني الأمير: تألق قوامه افتراض مسبق بأنه توقيعه في الطريق حقاً.

قال، مشدداً على كلماته:

ـ ما معنى هذا الطلب المنافي للعقل؟ أتحسبانني من أطباء الاجتماعيات الذين يمكن شراؤهم وابتياع ضمائرهم؟

رد الأمير:

ـ صدقني. أيها الطبيب، لم يحدث قط أن ظنناك على هذه الشاكلة.

انتزع سيجاره من فمه، وشرع يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم محدقاً

عبرها في الطبيب، وملاحظاً كيف أن خديه المحمرين المكتنزين كانا يتميزان غيظاً حتى لتأخذهما الرجفة، خاطبه بصوت عميق، وقور:

- بالنسبة لهذه الشهادة الطبية، فهي شيء ضروري لاستمرار سكينة جلالة الامبراطور المقدس.

عندما وضع الأمير ماتسوجاي يده على الشهادة الطبية الموقعة، طلب في الحال لقاء الأمير توين، في أقرب وقت يناسبه، ومضى في الليلة التالية إلى قصر إقامة الأمير.

من حسن الطالع أن الأمير الشاب كان، مرة أخرى، بعيداً عن الدار للمشاركة في مناورات عسكرية. وبما أن ماتسوجاي طلب بصفة خاصة لقاء الأمير هاروهيسا، فإن الأميرة لم تكن إلى جانب زوجها، عندما حيّا ماتسوجاي.

بدا الأمير توين في حالة مزاجية مرحة، فيما هو يقدم لضيفه نبيذاً فرنسياً فاخراً، ويتحدث في هذا الموضوع وتلك المسألة، دون أن ينسى مرة أخرى الإعراب عن مدى ابتهاجه بروعة الترفيه الذي ساد يوم تبرعم الكرز في الربيع الماضي. وكانت مدة طويلة قد انقضت منذ أتيح لهما الحديث على هذا النحو معاً. ومن جديد، استعاد ماتسوجاي التجارب التي اشتركا فيها، خلال أوليمبياد باريس عام ١٩٠٠، ومضى في حديثه ليطرف الأمير توين بطرائف منوعة عن ملهاهما، الذي يتذاكرانه عندنا فورة الشمبانيا. بدا كما لو أنه ليس لدى أي منهما شيء إخر يكترث به في الدنيا.

ورغم ذلك، فقد كان ماتسوجاي يدرك حق الادراك أنه تحت تماسك الأمير توين الممزوج بالكبرياء، والذي لم يعتوره وهن، كان ينتظر بقلق وتوجس أن يسمع ما يتعين عليه إبلاغه به. لم يكن الأمير توين قد تفوه بكلمة عن حفل الخطبة، الذي لم تبق عليه إلا أيام قلائل. وشأن سنا شمس ينهل على أجمة، كشف ضوء المصباح الساقط على الشارب الأنيق

تعبيراً عن عدم الارتياح، سرعان ما ينجاب، يؤدي بين الفينة والأخرى إلى توتر الفم أسفله.

قال ماتسوجاي، مقترباً من الموضوع الجوهري بنغمة لاهية، متعمدة، سريعاً ويقظاً كأنه عصفور ينطلق مباشرة إلى عشه، بعد التحليق حوله لبعض الوقت، في يسر مفعم باللامبالاة:

ـ طيب، فيما يتعلق بتطفلي عليكم الليلة هاهنا، فأمامي مهمة بغيضة، متمثلة في ابلاغكم ببعض الأخبار المؤسفة، التي لا يسهل التعبير عنها. لقد جنّت إبنة أياكورا.

اتسعت عين الأمير تورين، بتأثير الصدمة، وهو يقول:

ـ ماذا؟

ـ لقد أبقى أياكورا، وهو من تعرفون، النبأ محتجباً تماماً. ودون أن يلجأ حتى إلى استشارتي، أودع ساتوكو أحد الأديرة، آملاً في تجنب فضيحة، ومع ذلك، فإنه حتى الآن لم يستطع استجماع أطراف شجاعته لإبلاغ سموكم بما وقع.

ـ هذا أمر لا يصدق! الانتظار حتى الآن!

أطبق الأمير شفتيه بإحكام. وغاص طرفا شاربه إلى أسفل. راح يحدق للحظات في طرفي حذائه الملتمعين في الضوء، الذي ألقته نار المدفأة.

ـ هذه شهادة طبية موقعة من دكتور أوزو. حقاً، إنها كما ترى، مؤرخة قبل شهر، لكن أياكورا لم يطلعني عليها. هذا كله راجع لإخفاق في متابعة كل شيء بدقة. وليس هناك من سبيل أمامي لأعرب على نحو مناسب عن أسفي...

ـ إذا كانت مريضة، فليكن، فذلك أمر لا سبيل إلى دفعه. ولكن لماذا لم يبلغني بالأمر قبلاً؟ هذا إذن ما كان وراء الرحلة إلى كانساي! الآن وقد

اتيت على ذكر الأمر، عندما أقبلوا إلى هنا لتقديم واجب التحية قبل الرحيل، لم يكن لونها طيباً على الاطلاق، وقد أثار ذلك قلق الأميرة توين.

ـ لم يكن ذهنها على ما يرام، منذ سبتمبر الماضي، ويقولون إنها كانت تأتي بأفانين من الغرائب، إلى أن لفت سلوكها نظري، في نهاية المطاف.

قال الأمير توين:

ـ طيب، هذا هو الوضع الآن، وليس من الممكن القيام بشيء حياله. سأمضي إلى القصر، في وقت مبكر من صباح الغد؛ لأقدم أيات اعتذاري للامبراطور. ترى كيف سيتلقى جلالته الأمر؟ لسوف تترك لي هذه الشهادة، إذن، أليس كذلك؟ سيتعين عليَّ إطلاعه عليها.

تجلت التربية الرفيعة، التي تلقاها الأمير توين، في أنه لم يقل كلمة واحدة، عن الأمير الشاب هارونوري. أما عن ماتسوجاي فقد ركَّز عينيه الحاذقتين، على امتداد اللقاء، على كل تغير في التعبير المرتسم على محيا الأمير توين. وقد رأى فيه موجات تهديدية مظلمة تعلو، وتهبط، وتعلو من جديد. وبعد أن راقب هذه العملية، لبعض الوقت، أحس بأن قلقه ينحسر، فقد انقضت لحظة أعظم الأخطار.

استدعى الأمير توين زوجته، وبعد أن أوغل ثلاثتهم في الليل ساهرين، عاكفين على مناقشة أفضل خطة ينبغي اتباعها، استأذن الأمير ماتسوجاي في الانصراف.

تصادف، صباح اليوم التالي، أن عاد الأمير هارونوري من المناورات، في اللحظة الحافلة بالارتباك عينها التي كان أبوه يوشك فيها على المغادرة إلى القصر الامبراطوري. انتحى الأمير توين بابنه جانباً، وأنهى إليه النبأ. لم يبد مؤشر واحد على الانفعال في وجه الفتى، القوي، وهو يرد قائلاً بأنه سيتصرف في الأمر حسبما يشاء والده. وهكذا بدا أنه أبعد ما يكون عن

الضيق، ولم يظهر حتى ما ينم عن القلق حبال المسار الذي سلكته الأحداث.

لما كان متعباً، من جراء المناورات التي استغرقت الليل بأسره؛ فقد مضى إلى فراشه بمجرد توديعه لأبيه. غير أن أمه جاءت إلى غرفته؛ وقد ساورها الشعور بأن النوم لن يجد إلى جفنيه سبيلاً.

عندما رفع ناظريه إليها، لاحظت أن عينيه محمرتان قليلاً؛ من جراء السهر، لكن نظرته كانت مباشرة وصريحة كعهدها.

قال لها:

ـ هكذا، فالبارحة فحسب أقبل الأمير ماتسوجاي ليبلغنا بهذا الأمر؟

ـ نعم، البارحة فحسب.

ـ أماه، تصادف أنني فكرت لتوي في شيء، وقع منذ زمن بعيد، عندما كنت ملازماً في القصر. حدثتك بالأمر في حينه. أليس كذلك؟ على أية حال، كنت في طريقي لمقابلة الامبراطور وتصادف أنني التقيت بالمارشال ياماجاتا، في الدهليز. لن أنسى هذا الأمر قط، يا أماه، كان الدهليز هو ذلك الواقع على امتداد جانب قاعة الاستقبال الأمامية. كان المارشال قادماً لتوه من لقاء مع الامبراطور، فيما اعتقد. وكالمعتاد، كان يرتدي معطف الزي الرسمي ذاك ذا الطيات الواسعة عند الصدر، ومقدمة قبعته العسكرية تمتد فوق عينيه، وقد دس يديه في جيبيه. كأنه لا يكترث بأحد. كان مقبلاً نحوي في ذلك الدهليز المعتم، وهو يوشك أن يجرجر سيفه إلى جانبه. تنحيت جانباً تواً، ووقفت وقفة الانتباه، وأديت التحية العسكرية له. نظر إليَّ مسرعاً من تحت مقدمة قبعته بهاتين العينين، اللتين لا تلوح فيهما ابتسامة أبداً. من المؤكد أن المارشال ياماجاتا قد عرف هويتي، يا أماه، لكنه أشاح برأسه، في حدة وقد بدا عليه الضيق، وألقى بكتفيه إلى الوراء في ذلك المعطف، في اللحظة عينها، ومضى متعثراً في الدهليز، دون

حتى أن يرد تحيتي العسكرية. الآن، يا أماه، لماذا تعتقدين أنني تصادف أن تذكرت ذلك الآن؟

أخطر مقال في صحيفة اليوم التالي الجمهور بأنه سيحرم من المهرجانات والاحتفالات، التي كان يتوقعها، بمزيد من السرور، فلن يقام حفل الخطبة، ذلك أن الخطبة تم فضها «بسبب ظروف في عائلة سمو الأمير الامبراطوري هارونوري». وهكذا، في نهاية المطاف، علم كيواكي، الذي لم يتم إبلاغه بشيء على الإطلاق عن الأحداث الأخيرة، بما وقع من صحيفة.

بعد أن أصبح فض الخطبة أمراً معروفاً، أحكمت العائلة على نحو أكبر الرقابة التي تفرضها على كيواكي، بل وصحبه الوكيل ياما دا إلى المدرسة. ولم يدر زملاؤه الذين لم يكن لهم علم بالظروف المتعلقة بالأمر ماذا عساهم يفعلون حيال مثل هذه العناية المفرطة، التي لا يحاط بها عادة إلا أصغر طلاب المدرسة سناً. فضلاً عن ذلك، فإن أباه وأمه التزما الصمت التام فيما يتعلق بالموضوع في وجوده، وتصرف كل من عداهما بالدار وكأن شيئاً لم يقع.

غير أن المجتمع كان يفيض بالفضول. وقد دهش كيواكي عندما وجد أنه حتى أبناء أبرز العائلات في مدرسة النبلاء لا يدرون عن الأمر شيئاً إلى حد أن بعضهم سأله، هو من بين كل الناس، عن رأيه في الموضوع.

قال أحد الطلاب ملحّاً:

- الكل متعاطف مع آل أياكورا. ولكن أتعرفون ما الذي أظنه؟ أظن أن هذا الأمر سيقوِّض توقير الناس للعائلة الامبراطورية. ألا يقول الجميع إنهم قد اكتشفوا، في وقت لاحق، أن الآنسة أياكورا ليست في حالة عقلية سليمة؟ ولكني أريد أن أعرف لماذا لم يظهر ذلك إلا الآن.

بينما كان كيواكي يتساءل عن أفضل كيفية للرد، تدخل هوندا الذي كان واقفاً على مقربة:

- حتى إذا كان هناك شخص يشكو من مرض، فليس هناك من سبيل

لمعرفة ذلك إلا بعد ظهور الأعراض. أليس كذلك؟ لماذا لا تكف عن الثرثرة حول الأمر كأنك تلميذة.

ولكن هذا النوع من مناشدة الرجولة لم يكن مجدياً في مدرسة النبلاء، فلم تكن لعائلة هوندا، ابتداء، المكانة التي تؤهله كشخص مطلع على بواطن الأمور يمكنه وضع نهاية محتملة لهذا النوع من الحوار. ولكي يتأهل المرء كشخص عليم، ينبغي عليه أن يقول شيئاً من نوعية: «إنها ابنة عمي» أو ربما «إنه ابن خليلة عمي». وفتى مثل هذا يتعين عليه أن يظهر أنه فخور بأن تربطه روابط دم بعيدة بالجريمة والفضيحة، ومع ذلك يظهر لا مبالاته المتسمة بالنبل. وهكذا، وإذ يقلب شفته قليلاً استهانة بالأمر يلمح من طرف خفي إلى أنه على العكس من ركام الشائعات السارية فإنه على علم بمعلومات حجبت عن الكافة. ففي هذه المدرسة، كان بمقدور فتية، لا يتجاوز عمرهم الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، المبالغة في التظاهر والقول: «لقد سبب الأمر صداعاً لوزير الداخلية. وقد زارنا في وقت متأخر البارحة ليتحدث مع أبي حول الأمر» أو يقول مرة أخرى: «الجميع يعتقد أن وزير الداخلية مصاب بنوبة برد جعلته يعتكف في فراشه، ولكن الحقيقة هي أنه كان يتعجل لقاء الامبراطور، حتى أنه أغفل وضع قدمه على درج عربته فالتوى كاحله».

ومن الغريب أنه بدا أن تكتم كيواكي قد خدمه في هذا الأمر. ذلك أنه باستثناء هوندا لم تكن لدى أحد من زملائه أدنى فكرة عن علاقته بساتوكو، كما لم يدر أحد بدور الأمير ماتسوجاي في الأمر. غير أنه كان هناك ابن إحدى عائلات البلاط العريقة تربطه قرابة بآل أياكورا راح يؤكد بشدة أن فتاة في جمال وموهبة ساتوكو لا يمكن أن تكون قد جنت، ولكن كل ما أثاره هو ابتسامات ساخرة من جانب زملائه الذين ظنوا أنه حريص فقط على الدفاع عن أقاربه.

سبب هذا كله ألماً مستمراً لكيواكي. غير أنه بالمقارنة بما لقيته ساتوكو من إذلال، على يد الرأي العام، فإنه لم تكن أمامه إشارة استخفاف واحدة يتعين عليه التعامل معها. ومهما كانت حدة معاناته فإنها في نهاية المطاف كانت العذاب الذي يكابده الجبان.

عندما يطرح زملاؤه هذا الموضوع أو يسمع اسم ساتوكو على السنتهم، فإنه يتطلع من النافذة الواقعة في الفصل بالطابق الثاني وكأنه مستغرق في تأمل منظر الجبال البعيدة، التي وقعت الآن تماماً في قبضة الشتاء، وتألقت منحدراتها المكسوة بالجليد، في هواء الصبح الصافي. كان يتخيل ساتوكو نفسها التي غدت الآن نائية ولا سبيل إلى الوصول إليها طارحة نقاء ماثلاً على الدنيا بأسرها دون أن تتفوه بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسها. كان الألق، النائي والمثير للألم على وجه التقريب، بادياً لكيواكي وحده. نفذ كماله إلى القلب. كانت قد تحللت من ذنبها بقبول كل شيء: الخطيئة، العار، نسبة الجنون إليها. ولكن ماذا عنه؟

جاءت عليه أوقات أراد فيها الصراخ بأعلى صوته، مقراً بذنبه. ولكن عندئذ ستغدو تضحيتها الرهيبة بنفسها بلا طائل. أيكون من قبيل الشجاعة حقاً إهدار هذه التضحية لإراحة ضميره؟ أم ترى أن الشجاعة الحقة تقتضي أن يتحمل في صمت وجوده الراهن باعتباره سجيناً بالفعل؟ كان هذا التقويم أكثر تعقيداً مما ينبغي بالنسبة له. ولكن، على أية حال، كان الاستمرار على ما هو عليه، رغم الألم المتفاقم، وبتعبير آخر الخضوع لمشيئة أبويه والدار بأسرها، يعني الاستمرار في مسيرة غدت متفاقمة الصعوبة.

كان قد حل وقت بدا فيه الكسل والكآبة العنصرين الجوهريين في الحياة على نحو ما يريدها أن تكون. كيف اتفق أنه فقد قدرته على مثل هذا الاستمتاع وطاقته على التنعم فيها دون أن يصيبه ضجر؟ مضى ذلك

العهد دون أن يلحظه أحد كأنه مظلة نسيت في دار أحدهم.

الآن مست حاجته إلى شيء يأمل فيه إذا كان له أن يحتمل الكسل والكآبة. ولما لم يكن هناك شيء مشجع، ولو من بعيد، فيما يتعلق بموقفه، فقد شرع في إقامة صرح أمل خاص به.

راح يحدث نفسه، قائلاً: «إن الشائعة التي تتحدث عن جنونها عصية على التصديق، بحيث أنها غير جديرة بالمناقشة. لست أصدقها. ولذا فلماذا لا يكون صحيحاً أن ابتعادها عن الدنيا وتحولها إلى كاهنة ليسا إلا حيلة فحسب؟ ربما أدت هذه الملهاة لا لشيء إلا لتكسب وقتاً وتنأى عن ذلك الزواج، أو بتعبر آخر لأجل خاطري. ولئن كان ذلك صحيحاً، فعلينا أن نتحد من أجل التزام الصمت التام على الرغم من أن مثل هذه المسافة تفصلنا أحدنا عن الآخر. ذلك يبرر عدم قيامها ولو حتى بكتابة أسطر قلائل لي. الأمر واضح! ماذا غير ذلك يمكن أن يكون معنى صمتها؟

لو أنه كان قد فهم شخصيتها حقاً، لعرف على الفور أن رؤيته الخيالية تلك هي المستحيل بعينه. ففي نهاية المطاف ألم تكن صورة ساتوكو باعتبارها مخلوقة متسلطة وهما خرج من تحت معطف احتقاره للجرأة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فربما لم تكن ساتوكو أكثر تجسداً من قطعة ثلج ذابت بين ذراعيه. لقد تركزت عيناه على جانب واحد من جوانب الحقيقة، بحيث أنه آمن بالصحة الخالدة للادعاء الذي عثرت هه الحقيقة في ظله على وجودها المتقلقل. هكذا فإن أمله جعله ضحية لخداع الذات.

كان أملاً تأخذ الوضاعة بأكتافه. فلو أنه كان قد استسلم حقاً لرؤيا جمالها، لما ترك مجالاً للأمل. ودون أن يلاحظ الأمر، شرع قلبه المتألق في برود يذوب إشفاقاً وتحناناً، كالثلج تحت أشعة الشمس الغاربة. أحسّ بدافع يحدوه إلى أن يكون رقيقاً مع الناس، وشرع يلقي نظرة عن كثب على الدنيا من حوله.

كان هناك طالب في مدرسة النبلاء، هو سليل عائلة شديدة العراقة أطلق عليه لقب «المسخ». وقد سرت شائعة تفيد بأنه مصاب بالجذام. ولكن لما كان مما لا يخطر على بال أحد بأن مجذوماً يسمح له بالالتحاق بالمدرسة، فربما كان الأمر لا يعدو أنه مصاب بمرض آخر، غير معد. كان نصف شعره قد تساقط، وبدت بشرته رمادية اللون وجلده حائلاً. كان أحدب، ولا أحد يدري كيف تبدو عيناه لأنه كان يغطيهما على نحو محكم بحافة قبعته المدرسية، التي حصل على تصريح خاص بأن يعتمرها، حتى داخل قاعة الدرس. كان سائب الأنف على الدوام. ويحدث صوتاً يشبه صوت الماء لدى بدء غليانه. ولما كان لا يحادث أحداً قط، فقد كان يحمل كتاباً خلال أوقات الراحة، ويمضي حتى الحافة القصوى للمرجة الممتدة أمام المدرسة، قبل أن يجلس ليعكف على القراءة.

لم يسبق، بالطبع، أن كان لكيواكي شأن قط بهذا الطالب، الذي كان إضافة إلى أي شيء آخر في فرع دراسي آخر. وعلى الرغم من أن أبويهما كانا على درجة واحدة من مراتب النبالة، فقد بدا أن كيواكي يمثل على نحو مجسد الجمال، أكثر من أي فتى آخر في المدرسة، بينما كان الآخر يشبه المبعوث المختار للقبح والظل الرهيب.

وعلى الرغم من أن النجيل الجاف في ذلك الركن من المرجة الذي كان البقعة الاثيرة لدى «المسخ» قد حظي بأكثر من نصيب عادل من الشمس، في ذلك اليوم من أيام صدر الشتاء بالتحديد، فقد تجنبها الجميع. وعندما أقبل كيواكي وجلس إلى جانب المسخ، طوى الأخير كتابه، واعتراه توتر بالغ وهو يتأهب للهرب، على نحو ما كان يفعل عادة. ولم يقطع الصمت إلا الصوت المكتوم لأنفه السائب، الذي تردد كأنه السحب المتواصل لسلسلة خفيفة.

تساءل الابن الجميل للأمير:

ـ ما هذا الذي تقرأه على الدوام؟

ـ لا شيء.

قالها الابن القبيح للأمير، ووضع الكتاب وراء ظهره، ولكن بعد أن لمح كيواكي اسم ليوباردي(١) على كعب الكتاب. انعكست الحروف المذهبة انعكاساً خفيفاً، التمع على العشب الجاف، وتبدد.

لما لم يكن المسخ على استعداد للحديث، فقد ابتعد كيواكي عنه قليلاً دون أن ينهض واقفاً، ثم مد ساقيه ورقد على جنبه، مستنداً إلى كوعه، متجاهلاً أطراف العشب الجافة العديدة التي تشبثت الآن بزيه المدرسي الصوفي. جلس المسخ، وهو لا يزال قبالته مباشرة متكوماً على نفسه في كرب واضح، طاوياً الكتاب الذي انفتح أمامه مرة أخرى. أحس كيواكي بأنه ينظر إلى صورة هزلية لبؤسه الخاص، وبدأت رقته تفسح الطريق للغضب. وفيما واصلت الشمس الدافئة على غير ما هو مألوف في هذا الموسم ارتحالها رغم كل شيء رأى كيواكي الشخص القبيح لإبن الأمير

---

(١) ليوباردي: جياكومو (١٧٩٨ ـ ١٨٣٨): أعظم الشعراء الرومانتيكيين الايطاليين، نظمت قصائده الغنائية الموحية، في الفترة من ١٨١٦ إلى ١٨٣٧. في عام ١٨٢٤، حوّل انتباهه إلى النثر الفلسفي، وبصفة خاصّة المحاورات الساخرة، وأبرز أعماله في هذا الصدد كتاب «حكايات أخلاقية» الصادر في ١٨٢٧. تعزى نزعة التشاؤم الكوني لديه إلى مرض مزمن أصيب به (ومن هنا مغزى الاشارة إلى كتابه، في المتن، باعتباره الكتاب الذي كان المسخ ممسكاً به). في مراحله الفكرية الأولى، المستندة إلى فيكو والأعمال الكلاسيكية، كان يرى أن مهمة الشعر هي استعادة طزاجة الاستجابة الاغريقية للطبيعة، غير أنه، فيما بعد، نظر إلى الطبيعة باعتبارها كياناً لا غاية له، ولا مبالياً، بل وقاسياً. يلاحظ أن كلا من إزرا باوند ود. لويل نظما معارضات لقصائد ليوباردي، بهذا القدر أو ذاك من التوفيق.

(هـ.م.)

يتعرض لتحول تدريجي، فقد امتدت ساقاه المجعدتان في حذر فيما هو يرقد على العشب ويتكىء على كوعه قبالة كيواكي. أصبح قوامه يشبه قوام كيواكي حتى الزاوية التي تصنعها عنقه مع كتفيه. أصبحا مثل تمثالين، يجمعان بين أعضاء الأسد والكلب، يحرسان بوابة معبد. وتحت الحافة الخفيضة لقبعته، على الرغم من أن شفتيه لم تفترا عن ابتسامة على وجه الدقة، فإنهما وشتا بأن صاحبهما كان في حالة مزاجية مرحة.

وهكذا جلس أبناء الأميرين، أحدهما جميل، والآخر قبيح. تعامل المسخ مع نزعة كيواكي المفاجئة إلى الاشفاق والاهتمام به دون إظهار اعتراف بالجميل أو رفض، وإنما باللجوء إلى وعيه العميق بنفسه، وبتقليد كيواكي كما لو كان صورة له ارتسمت على صقال مرآة، وبالتصرف على هذا النحو، اكتسب بشكل ما هيئة مشابهة لهيئة كيواكي. وإذا تجاهل المرء محياهما، فقد مثلا اتساقاً ملحوظاً. فوق العشب الجاف الدافىء، من الجديلة التي توشي سترتيهما حتى طيات سرواليهما.

ما كان يمكن لمحاولة كيواكي اختراق تحفظ الآخر أن تصد على نحو أكثر اكتمالاً، وإن كانت برقة أعظم. وأحس بأنه مستغرق في الدفء والرقة، اللذين صحباه.

تناهى من ميدان الرماية بالأقواس والأسهم القريب صوت انطلاق الأوتار مهتزة بعد كل رمية، وهو صوت ذكّره بلذع رياح الشتاء البارد، يعقبه صوت ارتكام كئيب، ناجم عن اصطدام السهم بهدفه، كأنما الهدف طبلة مرتخية الجلد.

بدا له فؤاده كأنه سهم تجرد من الريشات البيضاء المتألقة، التي توضح اتجاهه.

- ٤٩ -

عنـدمـا انتهى الفصـل الـدراسي، وبـدأت الاجـازة الشتـويـة، كـرَّس المجتهدون من زملاء كيـواكي أنفسهم للدراسة، استعداداً لامتحانـات ما قبـل إنهاء الدراسـة بالمـدرسة، ولكن مجـرد احتمال فتـح كتاب كـان يفعمه بـالرعب. اعـتزم ما لا يـزيد عن ثلث صفه الـدراسي، بمن في ذلك هـوندا، دخول امتحانات الالتحاق بالجامعة التي تعقد في الصيف، وذلـك بعد انهاء دراستهم في المدرسة في الربيع. أمـا معظمهم فقـد اعتزم استغـلال الامتياز المخول لهم باعتبارهم خريجيـن من مدرسة النبلاء للحصـول على إعفـاء من امتحـانات الالتحـاق بالجـامعة، وإمـا أن يتقدمـوا بطلبـات التحـاق بتلك الكليات في جامعـة طوكيـو الامبراطـورية، التي لا تحـظى بإقبـال كبير عـلى الدوام، أو الالتحاق بإحدى الجامعات الامبراطورية، مثل جامعة كيـوتو أو جـامعة تـوهوكـو. وبغض النظر عـما قد يعتقـده الأمير مـاتسوجـاي، فـإن كيواكي ربما كـان سيعمد إلى المضي في الـطريق الأقل وعـورة. ولئن التحق بجامعة كيوتو فإن ذلك سيعني أنه قد اقترب بهذا القدر من دير ساتوكو.

وبناء على هذا، فقد كان حراً، في الـوقت الحالي، في المضي كيفـما طاب له غارقاً في كسل متميز. انهمر الجليد مـدراراً في ديسمبر، لكن كيـواكي لم يكن في حـالة مـزاجية تسمـح له بـاستشعار البهجـة الطفـولية لـدى مرأى الأراضي التي كساها الجليد والتي تبدت له ذات صباح. أزاح ستارة النافذة القـريبة من فـراشه، وتـطلع دونما مبـالاة إلى المشهد الشتـوي، وقد غـدت الجزيرة الآن بقعة من البياض المتـألق وسط البحيرة. لم يتحـرك من فراشـه

لعدة ساعات. في أوقات أخرى كان حرياً بأن تخطر على باله أفكار فستلتمع عيناه حيال فكرة التخلص من يامادا، الذي كان يشرف عليه حتى خلال تجواله في الضيعة. وقد اختار ليلة كانت ريح الشمال الباردة تهب فيها على نحو خاص عنيفة ومندفعة، ومضى للقيام بتسلق حاد لتل القيقب. واضطر يامادا الذي أمسك بمصباحه الكهربائي النقال في إحدى يديه، ودفن عنقه في ياقة معطفه، إلى الانطلاق بخطى عملاقة وراءه، على الرغم من ضعفه. وأفعم كل شيء، من قرقعة الأغصان إلى نعيب البوم والدرب الزلق تحت قدميه، نفس كيواكي بالبهجة، فيما هو يحس بنفسه ينطلق قدماً صاعداً، على نحو لا يقاوم، كأنه لهب يلتهم ما أمامه. ومع كل خطوة يخطوها، تصوَّر نفسه يسحق تحت كعبه الظلمة، كأنها شيء لين تدب فيه الحياة. وعند قمة التل، امتدت رحبةً السماء الشتوية المترعة بالنجوم.

قبيل نهاية العام، جاء أحد السادة إلى دار ماتسوجاي؛ ليلفت نظر الأمير إلى مقال، في إحدى الصحف، كتبه إينوما، فاستشعر الأمير غضباً كبيراً، حيال هذا الدليل على افتقاره إلى الولاء للعائلة.

كانت الصحيفة ذات توزيع محدود، وهي الناطق بلسان حال مجموعة يمينية. واحتج الأمير بالقول إنها نوع من الاصدارات الباحثة عن الفضائح التي رأبت على النشر من أجل انتزاع المال من علية القوم عن طريق تهديدهم بنشر تفاصيل فضيحة أو أخرى. وكان حرياً بالأمر أن يتخذ بعداً آخر لو أن إينوما، قد تدنى بنفسه إلى حد المجيء طلباً للمال قبل نشر المقال، أما المضي قدماً وكتابة شيء من هذا القبيل حتى قبل محاولة القيام بهذا، فلم يكن بأقل من انتهاك واضح واستفزازي لالتزاماته حيال آل ماتسوجاي.

تحت عنوان يحمل نكهة وطنية طاغية، هو «أمير مجرد من الولاء واحترام

حقوق الأسلاف»، كان ثقل الاتهام كـالآتي: في حقيقة الأمـر، إن الرجـل المتورط، على نحو حميم، وراء الستار، في المسـألة الـراهنة، المتعلقـة بفض الخطبة هو الأمير ماتسوجاي. وأي زواج يدخـل طرفـاً فيه عضـو في العائلة الامـبراطوريـة يتعين أن يخضـع لتمحيص دقيق، وفقاً لمـواد قانـون العـائلة الامـبراطوريـة؛ لأن مثل هـذا الزواج، وبغض النـظر عن مدى بعـد هـذا الاحتـمال، قد يؤثر في السلالـة الامبراطـورية. تلك، إذن، هي الـظروف الخطيرة التي في ظلها أخذ الأمير ماتسوجاي على عاتقه أن يرعى ابنة إحدى العـائلات العـريقة، وهي فتـاة يزعم أن اختـلالهـا العقـلي لم يكن بـالأمـر المعـروف له، ويمضي إلى حـد الحصـول عـلى تصـديق إمـبراطـوري لإتمـام زواجها، لا لشيء إلا لتنهار خططه قبيل حفـل الخطبـة. غير أنـه رغم هذا كله، فإن الأمير ماتسوجاي من خلال كونه عـلى قدر كـاف من الحظ سمح له بالإفلاح في إبعاد اسمه عن الأمر، يمضي اليوم في هدوء آمنـاً في سربـه، وهكذا فإنه لا يكتفي بإظهار عدم ولاء حيواني لجلالة الامبراطـور فحسب، وإنما يفصح كذلك عن افتقار للتوقيـر نحو أبيـه، الذي يعـد من الأعمدة، التي رفعت عالياً سقف إصلاحات عهد ميجي.

إذا كان هذا المقـال قد استفـز الأمير إلى حـد الاتقاد غيـظاً، فـإنـه أثـار هـواجس وشكوك ابنـه؛ فقد لاحظ في الحـال أن إينومـا حرص عـلى إبراز اسمه وعنوانه مرفقين بالمقـال، وأنه عـلى الرغم من إدراكـه حق الادراك لما وقـع بين كيـواكي وساتـوكو، فقـد كتب مقالـه كما لـو كان يعتقـد حقـاً أن سـاتـوكـو قـد تعـرضت لانهيـار عصبي. وحتى ذلـك الـوقت لم تكن لـدى كيواكي أية فكرة عن مقر إقامة إينوما. أما الآن فقد خطر له أن اينـوما قـد كتب هذا وهو يعلم أنـه سيجلب عليه وصمـة العار التي تسم من افتقـر لكل شعـور بالـولاء والالتزام؛ لأنـه أراد أن يقرأه كيـواكي بـأي ثمن، ويعـرف عنوانه، دون أن يبدو أنه قد أبلغه به على نحو مباشر. وعلى أية حال، فقد

كان على يقين من أن المقال يتضمن رسالة خفية موجهة له وحده:

لا تكن مثل أبيك!

ساوره، فجأة، شعور بدفق من الحنين حينما فكَّر في إينوما. لم يكن بوسعه أن يفكر في شيء يثير ابتهاجه وهو في حالته المزاجية الراهنة أكثر من استرداد ولائه المرتبك مرة أخرى والسخرية منه على نحو عابث. غير أن محاولة مقابلته الآن، بينما غضب أبيه في ذروته، لن يكون من شأنها إلا اجتذاب المزيد من الضربات الانتقامية، ولم يكن شعوره بالحنين من القوة بحيث يجعله راغباً في ركوب هذه المخاطرة.

وكان، من ناحية أخرى، يعلم أن ترتيب لقاء مع تاديشينا سيكون أمراً أقل خطر بكثير. غير أنه منذ فشل محاولة العجوز للانتحار لم يستطع التفكير فيها إلا باشمئزاز يفوق الوصف. وقد اقتنع، من خلال الحكم بوشايتها به لأبيه في خطابها الوداعي، بأن ارتكاساً ما في شخصيتها قد جعلها تستمد لذة شاذة، من خلال خيانة كل من جمعتهم معاً، دونما استثناء. ووصل إلى ادراك أنها كانت مثل أولئك الذي يرعون حدائقهم بدقة شديدة لا لشيء إلا للذة تمزيق الزهور شر ممزق، ما إن تصل إلى قمة تفتحها.

لم يكن أبوه يتبادل معه الحديث، على الاطلاق، تقريباً، وحاولت أمه أن تدع ابنها وشأنه، حتى لا تغضب زوجها.

كان القلق والخوف هما الحقيقة المستقرة في قرارة غضب أبيه. وقد عمد إلى استخدام تحرٍّ خاص لحراسة البوابة الخارجية للدار. وأمر بمرابطة اثنين في مؤخرة الدار. غير أن العام انتهى، دونما تهديد خاص أو بروز عداء من الرأي العام، ضد آل ماتسوجاي. وقد أخفق ما كشف إينوما النقاب عنه، فيما يبدو، في إطلاق عقال أي عواقب في الدوائر الرسمية.

اعتادت العائلتان الاجنبيتان اللتان تستأجران دارين من آل ماتسوجاي أن ترسلا بدعوتين لحضور عيد الميلاد. ولكن لما كان إرضاء إحدى العائلتين يعني تخييب أمل العائلة الأخرى، فقد درج الأمير على الاعتذار عن تلبية الدعوتين كلتيهما، والاكتفاء بإرسال هدايا إلى أطفال العائلتين. غير أن كيواكي إزاء شعوره بأنه قد يجد ما يرفه عنه في المناخ المرح لعيد تحتفل به عائلة أجنبية، طلب هذا العام من أمه أن تتدخل لدى أبيه لتركه يلبي إحدى الدعوتين، إلا أن الأمير رفض الاصغاء لما تقوله حول هذا الموضوع.

ولم يكن السبب الذي أبداه هو السبب المألوف، المتمثل في عدم استعداده تخييب رجاء إحدى العائلتين، وإنما قال إنه لا يليق بمكانة أحد أبناء النبلاء قبول دعوة عائلة تستأجر داراً من أملاكه. وكانت إحدى المسلمات الضمنية في هذا القول واضحة بما فيه الكفاية، بالنسبة لكيواكي: إن أباه لا يزال بعيداً عن الثقة بقدرة ابنه على الحفاظ على مكانته.

ضجت دار ماتسوجاي يفيض من النشاط خلال الأيام الأخيرة في العام حيث أن عملية تنظيف الدار الهائلة لا يمكن أن تتم بين عشية وضحاها قبل حلول أعياد العام الجديد. ولم يكن لدى كيواكي ما يفعله. وكان الشعور بأن العام بسبيله إلى الانتهاء خنجراً في قلبه ـ هذا العام من بين كل الأعوام ـ ذلك أنه لن يعود ثانية أبداً. وفي هذه الأيام الأخيرة الراحلة، وصل إلى إدراك أن هذا العام قد شهد ذروة عمره.

غادر الدار، وخلَّف ضجيجها وراءه، ومضى وحيداً باتجاه البحيرة، وقد عزم على المضي للتجديف. أقبل يامادا مسرعاً وراءه عارضاً عليه مرافقته، وهو العرض الذي رُفض، في غلظة.

فيما اندفعت مقدمة الزورق، عبر الاعشاب الجافة والبقايا المتكسرة لأوراق اللوتس، رفَّ سرب من البط البري منطلقاً نحو السماء. وفي غمار

رفرفة الطيور المضطربة، رأى بطونها الصغيرة المسطحة لثانية واحدة في هواء الشتاء الصافي، دون أن تشوب قطرة ماء البريق الحريري الصادر عن أجنحتها. تسابق وهج منعكس منحنياً، عبر الأعشاب المتداخلة.

تطلع كيواكي إلى الصورة الفاترة المنعكسة على سطح الماء للسحب والسماء الزرقاء، وعجب للدوائر الواهنة، التي أثارها مجدافاه. فيما الانعكاس يهتز، بدا أن الماء العكر الموحل يخبره بشيء ما مفارق تماماً للسحب البلورية والسماء الشتوية.

أرخى مجدافيه، وتطلع ناحية غرفة الاستقبال الرئيسية في الدار، متابعاً الخادمات وهن عاكفات على العمل، كما لو كن ممثلات ينطلقن مسرعات على خشبة مسرح نائية. لم يكن الشلال قد تجمد، لكن صوته تردد مكتوماً وغير منتظم. اعترضت الجزيرة نظرته إلى سفوحه الدنيا، ولكن عالياً، على الجانب الشمالي لتل القيقب كشفت أشجار الأغصان العادية من أوراقها عن البقايا الشهباء للجليد من على ضفتي الغدير.

أخيراً، دفع بزورقه إلى المرسى الصغير في الجزيرة، وثبته في عمود خشبي، وشق طريقه إلى أشجار الصنوبر الخضراء الباهته التي توجت الهضبة الصغيرة المدورة. فيما هو يتطلع إلى طيور التم المعدنية الثلاثة، بدا أن منقاري الطائرين ذوي الرقبتين الممتدتين يشبهان سهمين كليلين موجهين إلى السماء الديسمبرية.

ألقى بنفسه تواً على العشب الجاف، البنيّ اللون، الذي نال الدفء من حرارة الشمس، ورقد هنالك، على ظهره، مدركاً أنه وحده تماماً، بعيد عن كل العيون، ثم فيما هو يستشعر تلك البرودة الزاحفة الراجعة إلى التجديف في أصابعه، التي أراح عليها رأسه، غلبه فجأة شعور عارم بالبؤس لم يملك له دفعاً إلا في حضور الآخرين.

صاح محدثاً نفسه:

- هـذا العام عـامي، وها هـو قـد انقضى، انتهى! تمـامـاً كـأنـه سحـابـة انحلت عراها.

اندفعت الكلمات، صادرة عنه قاسية، دون أن يكبح شيء جماحها، منهالة عليه بسياطها، ومفاقمة عذابه.

- فسد كل شيء، لن تحملني الفرحة محلقـة بي ثانيـة أبداً. هنـاك صفاء رهيب يسود كل شيء، كأنما العـالم جُبل من بلور، فـما عليك إلا أن تـزيل شظية منـه بظفـرك، حتى تسري فيه كله رعدة واهنة... ثم تـأتي الوحـدة، إنها شيء يتقد، كأنها حساء حار ثقيل لا يمكنك وضعـه في فمك، إلا بعـد أن تنفـخ فيه مـراراً وتكراراً، وهي هنـالك، مـاثلة على الـدوام أمامي، في وعـائهـا الثقيـل الأبيض من الخـزف الصيني الغليظ، أشهب وكئيب كـأنـه وسادة عتيقة. منذا الذي يواصل فرض هذه الوحدة عليّ؟

تركت وحدي تماماً، أحـترق بالـرغبة. وإني لأمقت مـا وقع لي، ضللت طـريقي، ولست أدري إلى أين أمضي. وما يـريـده فؤادي لا يستـطيـع أن يناله... مباهجي الخاصة الصغيرة. طـروحاتي المنـطقية، عمليـات خداعي لذاتي - كل ذلـك انقضى! ولم يبق لي إلا لهب التوق إلى عهـود مضت، إلى ما فقدته. يعلو بي العمر للاشيء، لخواء رهيب تُركتُ. مـاذا عساها تقدمه لي الحيـاة إلا المـرارة؟ وحيـداً في غـرفتي... وحيـداً عـلى امتـداد الليـالي بأسرها... معزولاً عن الدنيا وعن جميع من فيهـا بحاجـز من يأسي. ولئن صرخت فمنذا هنالك ليسمعني؟ وفي غضون هـذا كله، فإن ذاتي الـظاهرة للعيان تبدو رشيقة كعهدها. نبالة جوفاء - هذا هو ما بقي مني.

جثم سرب هائل من الغربان في فروع أشجار القيقب، عـلى التل. راح يصغي لنعيبهـا النشـاز، وإلى خفق أجنحتهـا، فيـما هي تحلق فـوق رأسـه ماضية نحو التل الخفيض حيث مزار أو مياساما.

درج العرف على أن يقام، في وقت مبكر من كل عام يهل، الحفل الامبراطوري الشعري في القصر. ومنذ كان كيواكي في الخامسة عشرة من عمره، اعتاد النبيل أياكورا أن يرسل له دعوة، كل عام بلا استثناء، كنوع من رموز التثبيت للتدريب، الذي تلقاه كيواكي على يد النبيل. وفي هذا العام أيضاً وصلت دعوة كالمعتاد عن طريق وزارة الديوان الامبراطوري، وإن كان من شأن عدم وصولها ألا يثير الدهشة. فقد كان النبيل بسببه إلى الاضطلاع بدوره باعتباره قارىء شعر الامبراطور من جديد، دون أن تعوقه التقولات، ومن الجلي أنه رتب إرسال دعوة إلى كيواكي.

عندما أطلع كيواكي أباه على الدعوة، قطّب الأمير لمرأى توقيع النبيل أياكورا، بين توقيعات قارئي الشعر الامبراطوري الأربعة، فقد كان يرى الترفع في ضوء جديد: ها هوذا يواجهه بعناء وصفاقة.

أخيراً، قال:

- بما أنه احتفال منتظم، فخير لك أن تشهده، وإذا لم تشهده هذا العام فقد يشرع الناس في الحديث عن بعض الخلاف بين آل أياكورا وبيننا. ولا يفترض أصلاً أن تكون لنا صلة بهم فيما يتعلق بذلك الموضوع.

عاماً وراء عام، تزايدت أهمية هذا اللقاء الشعري، بالنسبة لكيواكي، وقد وصل إلى تقديره أعظم تقدير، فليس هناك وقت آخر تتجلى فيه مكانة النبيل أياكورا على نحو يفوق ما يحدث في هذه المناسبات. كما لم يكن بمقدور كيواكي تخيل دور يليق به أكثر من هذا الدور. ومن شأن مرأى

النبيل الآن، بالطبع، أن يكون مؤلماً، ولكنه على الرغم من هذا شعر بأنه يريد أن يراه. أحس بالرغبة في أن يتطلع بنظرة فاحصة إلى الشظايا المهشّمة لقصيدة، كانت ذات يوم تتدفق حياة بداخله أيضاً، إلى أن يكل بصره. وحدَّث نفسه بأنه إن شهد الحفل فإن صورة ساتوكو ستملأ ذهنه.

لم يعد كيواكي يعتقد أنه مجرد شوكة من الترفع انغرست في أصابع آل ماتسوجاي القوية، ولكنه كذلك لم يتغير إلى حد يعتقد معه أنه أحد هذه الأصابع. وكل ما حدث أن الترفع الذي كان جزءاً واعياً منه قد ذوى، وأصبح فؤاده مجرباً. لم يستطع العثور في أي موضع من نفسه على ذلك النوع من الأسى الشفيف، الذي يلهم القصائسد. كان خاوياً الآن، وقد غدت روحه صحراء، تعصف بها الرياح الحارقة، لم يحدث من قبل قط أن شعر بأنه أكثر اغتراباً عن الترفع، وعن الجمال كذلك.

ومع ذلك، فربما كان هذا كله ضرورياً لإحرازه للجمال الحق ـ هذا الخواء الداخلي، هذا الفقدان لكل بهجة، حتى هذا العجز الكامل عن الاعتقاد بأن الوقر الطاغي لكل لحظة هو شيء حقيقي، بأن ألمه، على الأقل، هو شيء ينتمي إليه، ذلك أن الأعراض التي تظهر على رجل أصابته محنة الجمال الحقيقي تشبه كثيراً أعراض الجذام.

لما كان قد كف عن النظر في المرآة، لم يكن أمامه من سبيل إلى أن يعرف أن الشكل الحزين والمرهق الذي اتخذته ملامحه قد تطور إلى التعبير التقليدي عن الشاب الذي يأخذ النحول بخناقه من جراء الحب.

ذات مساء، عندما كان يتناول طعام العشاء، على مائدة أعدت له وحده، وضعت الخادم كأس نبيذ، إلى جوار صحفته، تتميز بجوانبها الزجاجية المشطوفة، التي غدا لونها قاتماً بسبب السائل القاني الذي احتوته. ودون أن يكترث بسؤال الخادم، افترض أن السائل هو نبيذ، وأفرغ الكأس

في جوفه، دونما تردد. ولكن، عندئذ، أحس بشعور غريب، وبمـذاق ثقيل زلق على لسانه عقب ذلك.

ـ ماذا كان هذا الشراب؟

رد الخادم:

ـ دم سلحفاة نهّاشة، يا سيدي! وقد أُمرت بـألا أخبرك بـذلك، إلا إذا سألت عما في الكأس. كان الطاهي، يا سيـدي، هو الـذي أمرني بـذلك. قال إنه يريد جعل السيد الشاب في تمام لياقته وصحتـه، من جديـد؛ ولهذا اصطاد سـلحفاة من البحيرة، وأعدها لك.

فيـما هو يحس بـالسائـل الزلق، عـلى نحو لا يبعث عـلى السرور، وهـو ينحدر في حلقه، تذكر قصة كثيراً ما استخدمها الخدم لإخافته، عنـدما كـان طفلاً. ومن جديد تراءت له الصورة الباعثة على القلق التي رسمها لنفسه، في ذلك الوقت، وفيها ترفـع سلحفاة نهّاشـة رأسها كـأنها شبح رهيب من قلب مياه البحيرة الكدرة، وقد ثبتت عينيها عليه، وهي مخلوق يـرقد عـادة في طـين القاع الدافىء، ولكنها لا تفتـأ من وقت إلى آخر تشق طـريقها إلى سـطح الماء، مختـرقة الأعشـاب المعاديـة في الحلم التي قهرت الـزمن لتثبت عينيهـا عليه، في كـل مـرحلة من مـراحـل عمـره. ولكن، الآن، فجـأة، تبددت الرقية. لقد أطاح الموت بالسحلفاة، وقد شرب لتوّه دمها، دون أن يدري ذلك. وبذلك بدا أن مرحلة بأسرهاقد انتهت، على حين غـرة. وفي أعـماقه، تحـول الرعب عـلى نحو لـين إلى طاقـة غير مـألوفـة، راحت تشق طريقها بداخله بقوة لم يستطع إدراك كنهها.

كـان النـظام المـراسمي، المتبـع كـل عـام، في الملتقي الـشعـري الامبراطوري، يقضي بقراءة مختارات من الشعـر، بحسـب مكانـة ناظمـه، ابتـداء بقصائـد من نظم من هم في مـرتبة أدنى. وفي حـالة هـذه القصائـد الأولى، فإن القارىءيبدأبقراءة كلمات التقديم الموجزة من الشاعـر ثم يعلن

عمله ومرتبته. غير أنه في حالة القصائد التي تعقب ذلك، يبدأ القارىء بإعلان العمل والمرتبة، ثم يشرع على الفور في قراءة القصيدة ذاتها.

ومن بين من يعملون بقراءة الشعر الامبراطوري، كان النبيل أياكورا حائزاً على شرف كونه القارىء الرئيسي. ومن جديد شرفه جلالة الامبراطور والامبراطورة وسمو الأمير ولي العهد بابداء اهتمامهم، فيما صوته الصافي النبرات، الجميل النغم، يتردد عبر القاعة.

لم تشب اختلاجة شعور بالذنب صفاء صوته. بل الأمر على العكس من ذلك، فقد تردد صوته بالغ التألق حتى ليثير مكامن الشجن في أفئدة سامعيه. وفيما هو يقرأ كل قصيدة، اتخذ الايقاع الوئيد لكلماته تمهل قدمي أحد كهنة الشنتو المدسوسين في نعليهما الاسودين وهما ترقيان، إحداهما إثر الأخرى درج المعبد الحجري المستحم في الدفء الغريب المنبعث من الشمس الشتوية. كان صوتاً لا تتردد نغمته ذكورية ولا أنثوية.

لم تقطع سعلة واحدة صمت الجمهور. ولكن على الرغم من أن صوته كان فائقاً، في قاعة القصر، فإنه لم يتردد قط على نحو حسي، أو يجتذب الاهتمام إلى ذاته، على حساب القصيدة نفسها. كان ما ينهل من زوره هو جوهر الترفع ذاته، لا سبيل إلى الخجل للنفاذ إليه، وانساب مزيجه المحير من البهجة والأسى، متدفقاً عبر القاعة، كأنه الغمامة السادرة في لفيفة تصاوير.

حتى الآن، كررت كل قصيدة مرة واحدة فحسب. ولكن عندما اختتم النبيل أياكورا قصيدة ولي العهد، بالصيغة التالية «تلك كانت المنظومة الأرفع قدراً، التي نظمها سمو وارث العرش الإمبراطوري» مضى فقرأها مرتين.

قرئت قصيدة الأمبراطورة ثلاث مرات. وقرأ النبيل البيت الأول، ثم ابتداء من البيت الثاني فصاعداً راح القراء الأربعة يتلون القصيدة وقد

توحدت أصواتهم، وتناسقت. وباستثناء الامبراطور نفسه، وقف باقي أفراد العائلة الامبراطورية، بمن فيهم ولي العهد، وبالطبع كافة الحاضرين يصغون إلى القصيدة.

نظم جلالة الامبراطور، هذا العام، قصيدة تميزت برهافة ونبل استثنائيين. وفيما وقف كيواكي مصغياً إليها، اختلس نظرة إلى النبيل أياكورا، الذي كان يقف على مبعدة منه، ولاحظ كيف تستقر الورقة التي سطرت عليها القصيدة، مطوية، في يد النبيل الصغيرة، التي تشبه إلى حد بعيد يد امرأة. كان لون الورق البديع برقوقياً فاتحاً.

على الرغم من أن قضية كان النبيل طرفاً فيها، وهزت البلاد بأسرها قد انتهت بالكاد، فإن كيواكي لم يدهش، عندما لم يسمع أي أثر لاختلاجة عصبية في صوته، دع جانباً الأسى العميق الذي يستشعره أب احتجبت ابنته عن الدنيا. تواصل الصوت نقياً، جميلاً، دون أن ترتفع نغمته إلى مستوى الحدة، مؤدياً على وجه الدقة ما عهد به إليه. دع ألف سنة تنقضي، ورغم ذلك سيظل النبيل يخدم امبراطوره، على نحو ما يفعل الآن، مثل أندر الطيور المغردة.

أخيراً، وصل الملتقى الشعري الامبراطوري إلى ذروته؛ فقد حان وقت قراءة قصيدة جلالة الامبراطور ذاته.

شق النبيل أياكورا طريقه في وقار حتى وصل إلى قرب الامبراطور مباشرة، وبجدية بالغة أخذ القصيدة الامبراطورية التي كانت موضوعة على غطاء حقيبة سوداء قاتمة بالطريقة التقليدية، ورفعها إلى مستوى جبينه، ثم قرأها خمس مرات.

فيما هو يطالع القصيدة، غدا نقاء صوته أكثر جلاء، إلى أن وصل أخيراً إلى نهاية القراءة الخامسة، واختتم بهذه الكلمات: «تلك كانت القصيدة الأكثر بهاء لجلالة الامبراطور المقدس».

في غضـون ذلك، تـطلع كيواكي في وجـل إلى محيـا الامـبراطـور، وقـد استحثت خياله ذكرى تربيت الامبراطور الراحل على رأسه حينما كان صبيـاً صغيراً. بدا جـلالته بـالغ النحـول بالمقـارنة مـع ما كـان عليه أبـوه، وعلى الرغم من أنه كان يصغي إلى قراءة قصيـدته، فـإن محياه لم يفصـح عن أي مؤشر للمشـاركة، وإنمـا احتفظ بتماسكـه الجليـدي. فجـأة، أخـذت رعـدة خوف بخناق كيواكي، حيال الفكرة غير الممكنة، على الاطلاق، المتمثلة في أن جلالة الامـبراطور كـان، في حقيقة الأمـر، يكبح جمـاح غضب منصب عليه.

ـ لقد جرؤت عـلى خيانـة جلالتـه، ليس ثمة مـا يمكن القيام بـه إلا أن ألقى حتفي.

تشبث، في عنـاء، بتلك الخاطـرة، وهو يقف هنـاك، والهواء من حـوله مثقل بعبق البخور الثري، وقد سـاوره شعور بـأنه قـد ينهار في أيـة لحظة. أخـذته رعـدة، ولكنه لم يستـطع القول بمـا إذا كـانت من جـراء النشـوة أو الخشية.

حـل شهـر فـبرايـر، واستغـرق كـل زمـلاء كيـواكي في عملهم، حيث تنتظرهم امتحانات ما قبل إنهاء الدراسة، أما هو، بلا مبالاته بأي شيء من هذا القبيل، فقد ازداد عزلة عن ذي قبل. ومن المؤكد أن هونـدا كان عـلى استعداد لمساعدته في الاستعداد لاجتياز اختباراته، ولكنه أحجم عن ذلك، شاعراً بأن كيواكي لن يقبل بذلـك؛ فقد كـان يعرف حق المعـرفة كيف أن كيواكي يشعر بأعظم قدر من الاستياء حيال أي ابداء مفرط للصداقة.

في ذلك الوقت، طرح الأمير ذات يوم على ولـده، فجأة، فكـرة دخولـه كلية ميرتـون بجامعـة أكسفورد. وكـان من الممكن ترتيب دخـوله الكليـة، دونما صعوبة تذكر، خاصة وأن الأمير كان على صلة طيبة بعميد هذه الكلية الشهـيرة، التي أسست في القرن الثـالث عشر، ولكن لكي يتأهـل كيواكي للالتحاق بها فإن عليه، في الأقل، أن يجتاز الامتحانات النهائيـة في مدرسـة النبلاء. وفي حقيقة الأمر فإن الأمير كان يدرك بمزيد من الألم أن كيواكي قد أصبح أكثر شحوباً وارهاقاً وأن ذلـك يتفاقم مـع انقضاء كـل يوم جـديد، فابتكر أخيراً هذه الـوسيلة لإنقاذ ولـده، الذي أوشـك على أن ينـال مرتبـة بلاطية من الدرجة الخـامسـة طبقة الشبـاب، على الأقـل. ولما كـانت خطة الانقاذ غير متوقعة بالمرة، فقد ثار اهتمام كيواكي بها يقيناً؛ ومن هنا فقد قرر إبداء كل مظاهر الابتهاج، حيال اقتراح أبيه، في الوقت الراهن.

كـان في السابق يكنُّ رغبـة معتـدلـة في أن يـرى بعض معـالم الحيـاة في الغرب. ولكن الآن، وقد تركز وجوده بأسره حول موضوع واحد، هو جزء

صغير جميل من اليابان، فإن بمقدوره أن ينظر إلى خارطة العالم المنتشرة أمامه، فتقرع نفسه بشعور بالفجاجة لا من قبل الحشد الكبير من البلاد الأجنبية، وإنما كذلك من قبل الصورة الملونة باللون الاحمر لبلاده، وقد التفت كأنها القريدس، في مواجهة جناح قارة آسيا. كانت اليابان الخاصة به خضراء اللون، بلاداً لا شكل لها مليئة بما يملأ القلب حنواً، ومنتشرة كأنها غمامة تعلو.

جلب أبوه خارطة جديدة هائلة، وأمر بها فعلقت، على جدار قاعة البليارد، ومن الجلي أن قصده كان إثارة أفكار كبار في ذهن كيواكي. غير أن بحارها المسطحة المجردة من الحياة لم تثر اهتمامه. وبدلاً من ذلك فإن ما خطر بباله تمثل في ذكرى بحر يكسوه الليل يشبه وحشاً أسود هائلاً تدب الحياة في دفئه، وله نبضه الخاص، ودم يصرخ ـ البحر في كاماكورا، الذي عذبته دمدمته الرهيبة حتى أقصى حدود الاحتمال ذات ليلة من ليالي الصيف.

وعلى الرغم من أنه لم يحدث أحداً بالأمر، فقد أطبقت عليه مؤخراً نوبات صداع متوالية وحالات دوار متتابعة، وتناقص نومه كل ليلة. وفيما هو راقد في الفراش كان يحدث نفسه بأن اليوم التالي سيجلب معه، يقيناً، رسالة من ساتوكو، ستحدد مكاناً وموعداً يلتقيان فيهما ليهربا معاً. سيجدها في بلدة صغيرة غير مألوفة، ربما في ركن أمام متجر عتيق الطراز تم تحويله إلى مصرف. ستأتي عدواً إليه، وسيتلقاها في أحضانه، ويتشبث بها على النحو الذي طالما تاق إليه. تصوَّر المشهد مراراً وتكراراً، حتى أدق تفاصيله. ولكن الصورة التي باتت أثيرة لديه، على هذا النحو، تشكلت في مرآة دعمت برقاقة معدنية مفضضة يسهل تمزيقها فلا تكشف إلا عن سواد مقيت. بللت دموعه وسادته، وهتف باسمها مراراً وتكراراً طوال الليل في إحباط مترع بالعجز.

في غمار قيامه بذلك، أتت عليه لحظات كانت صورتها تتبدى فجأة هنالك إلى جواره، في موضع ما بين الحلم والواقع. كفت أحلامه عن سرد أقاصيص تتسم بموضوعية تكفي لقيامه بتسجيلها في مذكراته. الآن، أقبل الأمل واليأس، والحلم والواقع، معاً، ليلغي أحدها الآخر، وقد غدا الحد الفاصل بينهما غامضاً، كأنه خط الماء عند الساحل، الذي تتكسر عليه الأمواج، المندفعة دونما توقف. هنالك، رأى للحظة، على سطح الماء الذي راح يترامى على الرمل الناعم، انعكاس محياها. لم تبد من قبل قط أكثر جمالاً وحزناً منها حينذاك. وعندما وضع شفتيه قرب هذا المحيا، الذي مضى يلتمع كأنه نجم المساء، تبدد، واختفى.

تزايدت، كل يوم، الرغبة المضطربة في الانعتاق من محنته. وعلى الرغم من أن كل شيء كان يحمل إليه رسالة واحدة ـ سواء أكان هذا الشيء كل ساعة، كل صباح، كل ظهيرة، وكل ليلة أو السماء، الاشجار، السحب، والريح، وكلها تحدِّثه بأن عليه أن يدع ساتوكو وشأنها ـ فقد كان الافتقار لليقين لا يزال يعذبه. استشعر احتياجاً يائساً إلى أن يضع يديه على شيء واحد، في الأقل، مؤكد ويقيني، أن يسمع ما لا يزيد عن كلمة واحدة من شفتيها، إن كان بمقدوره أن يعلم بأنها كلمة حقيقية. وإن كانت كلمة تعد أكثر مما ينبغي أن يطلب، فإنه سيقنع بنظرة عجلى يلقيها على محياها. لم يعد بمقدوره تحمل وقر قلقه الجائح.

في غضون ذلك، انجابت سريعاً عاصفة الشائعات. فلم يستغرق الناس وقتاً طويلاً لينسوا موضوعاً، لم يسبق له مثيل، ولم يطرح له تفسير، مثل فض خطبة، صدر مرسوم امبراطوري بالتصديق عليها، وذلك في عشية حفل الخطبة، خاصة وأن فضيحة رشوة في سلاح البحرية قد ظهرت لتستقطب شعورهم بالغضب.

قرّ عزمه على ترك الدار. غير أنه لما كان أبواه قد احتاطا للأمر، فإنهما

كفًا عن تزويده بالمال؛ وبالتالي فلم يكن لديه حتى «سين» واحد.

بوغت هوندا، عندما طلب منه كيواكي مبلغاً من المال. ووفقاً لأفكار أبيه، كان قد فُتح له حساب مصرفي خاص به، كان حراً في التصرف به، كيفما طاب له. فقام بسحب المبلغ المودع فيه بكامله، وأعطاه لكيواكي، دونما سؤال واحد عما يعتزم إنفاقه فيه.

في صباح الحادي والعشرين من فبراير، جلب هوندا المال إلى المدرسة، واعطاه إياه. بدت السماء صافية ومتألقة، لكن هواء الصباح كان بارداً على نحو مرير.

قال كيواكي، بعد أخذه المال، وقد شاب صوته شيء من الحياء:

ـ أمامك ثلث الساعة قبل بدء الدراسة، ألا تأتي وتودعني؟

تساءل هوندا، الذي غمره الذهول، إذ كان يعرف أن يامادا يربض، عند البوابة الامامية.

ـ إلى أين تمضي؟

رد كيواكي، مبتسماً، ومشيراً باتجاه الغابات.

ـ في ذلك الطريق.

سُرَّ هوندا لرؤيته صديقه، وقد بدت عليه علامات النشاط، للمرة الأولى خلال شهور طويلة، لكن توهج الصحة لم يعد إلى محياه، بل الأمر على العكس، فقد بدت ملامحه الهزيلة شاحبة ومتوترة، وذكّرت هوندا بسطح هش من الجليد في صدر الربيع.

ـ أتشعر بأنك على ما يرام؟

رد كيواكي، متقدماً صاحبه في مرح على الطريق الذي يخترق الغابات:

ـ أحسب أنني أعاني من نوبة برد، أما بخلاف ذلك فإنني في خير حال.

كان قد مرّ وقت طويل، منذ أن رآه هوندا يسير متوفزاً على هذا النحو.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان لديه فكرة طيبة عن الموضع الذي تقوده إليه خطاه، لكنه لزم الصمت. اجتازا مستنقعاً، رقشت سطحه أشكال متداخلة من قطع الخشب المتجمدة وقد عكست على نحو كئيب أشعة شمس الصباح المائلة، وعندئذ خلفا الغابة وطيورها الصاخبة وراءها، وبلغا الحافة الغربية للأراضي التابعة للمدرسة.

وقفا الآن فوق قمة تل منحدر، امتد قبالته في البعيد صف من المصانع. مدت هنا وهناك دونما عناية لفات من سلك الأسيجة الشائك كبديل لسياج فعلي، وغالباً ما كان أبناء الحي يتسللون عبرها إلى حرم المدرسة. وفيما وراء السلك الشائك، امتد التل المعشب مع امتداد الطريق، حيث رفع سياج خشبي فوق سور مجرى خفيض.

توقفا عند هذا الموضع. بعيداً، إلى اليمين، كان هناك خط ترام، وإلى الوراء منه مباشرة تألقت الشمس من بين أسقف المصانع الاردوازية الخشنة، فيما الأخيرة تتلقى عنفوان أشعتها الصباحية.

دارت مجموعة الآلات المتنافرة المجتمعة تحت هذه الاسقف بكل قوتها وأطلقت هديراً كئيباً كالبحر. امتدت المداخن الكئيبة عالية نحو السماء، وترك الدخان الذي اندفع منها ظلاً راح يزحف فوق قمم المصانع، ويحجب الشمس عن الغسيل المنشور إلى جوار صف من الأكواخ. ولكن كان هناك أيضاً بعض الدور، لها أرفف نقالة مدلاة من السقف يعرض فيها عدد من شجيرات البونسية. وهنا وهناك كان المرء يرى التماعات مستمرة من الضوء. فمرة يأتي الالتماع كانعكاس للضوء على زوج من الزرديات، استقر على ردف كهربائي، يتسلق عموداً، ومرة أخرى كان الالتماع هو التألق المخيف للهب، يتبدى من خلال نوافذ مصنع للمواد الكيماوية. وفي أحد المصانع، عندما توقف هدير الآلات، علا الدوي المتواصل للمطارق، وهي تنهال على مسحوب من الصلب.

في البعيد، لاحت شمس صافية، وفي الأسفل، امتد طريق، محاصراً أراضي المدرسة، كان هو الذي يوشك كيواكي على سلوكه في هربه. ارتمت ظلال الدور الصغير المصطفة بحذائه على سطحه الأبيض المترب. انطلق رجل بدراجة كئيبة صدئة، متجاوزاً مجموعة من الأطفال انهمكوا في تقاذف حجر بأقدامهم.

قال كيواكي.

ـ طيب. سأراك فيما بعد.

تلك كانت، بجلاء، كلمات وداع. وقد نقشت في ذهن هوندا نقشاً، ذلك أنه ولو لمرة واحدة تفوه كيواكي بتعبير مرح يليق بشاب في مثل عمره.

كان كيواكي قد ترك حقيبته المدرسية، في قاعة الدراسة. وكل ما يرتديه هو زيه المدرسي ومعطفه الذي يجمله صفان من الأزرار النحاسية والشارة المميزة، المتمثلة في زهرة الكرز المبرعمة، التي تمتد على صدره. وكان قد فتح ياقته، على نحو متأنق، كاشفاً عن ياقة سترته المحكمة على طريقة البحرية مع الشريحة البيضاء من مادة السيلولايد بداخلها، والتي ضغطت على عنقه الفتي الآن، وهو يبتسم لهوندا، فيما ألقت مقدمة قبعته بظلها على وجهه، ثم التفت وهو لا يزال على ابتسامة، ولوى بعض الأسلاك الشائكة مباعداً ما بينها بيديه المقفزتين، وتسلق مخترقاً الحاجز.

تم، على الفور، إبلاغ نبأ اختفائه لأبويه، اللذين أخذ الضيق منهما كل مأخذ. غير أن حزم جدته هو الذي أعاد النظام من جديد.

ـ ألا ترون الأمر على وجهه الصحيح؟ إنه سعيد لذهابه للدراسة في انجلترا، وبما أنه يعتزم الذهاب، فإنه يرغب أولاً في رؤية ساتوكو ووداعها. ولكن بما أنكم ما كنتم لتَدَعوه يقوم بذلك إن أبلغكم بالأمر أولاً، فقد مضى إلى هناك دون أن يبلغكم بشيء. هل هناك تفسير محتمل آخر؟

ـ ولكن من المؤكد أن ساتوكو لن تراه.

ـ لئن وقـع ذلك، فـإن اليأس سيسـاوره، ويعود إلى الـدار فهـو رجـل في صدر العمر. عليكم بتركه وشأنه، إلى أن يبعـد هذا الأمـر من ذهنه. لقـد كان ينبغي أن يحدث هذا النوع من الأمـور؛ لأنكم حاولتم تضييق الخنـاق عليه.

ـ ولكن، يا أماه، بعـد ما حـدث، من الطبيعي تـوقع هـذه الاجراءات الاحتياطية.

ـ ليكن، وهذا أمر من الطبيعي توقعه أيضاً.

ـ لتأخذ المسألة مـداها، ولكن الأمـر سيكون رهيبـاً، إذا ما تسرب نبـأه. سـأتصـل بالمفتـش العـام، في الحـال، وأوعـز لـه ببـدء البحث عنـه سـراً.

ـ بحث! ولم البحث؟ إنك تعلم إلى أين يمضي.

ـ ولكن ما لم يتم الامساك به وإرجاعه. . .

صاحت العجوز، وعيناها تتقدان غضباً:

ـ ستندم على ذلك! فقد يقوم بشيء فظيع، هذه المرة. لا بأس من أجل اعتبـارات الأمان السعي في سبيل متابعـة الشرطة لـلأمر في هـدوء. ولئن تركونا نعلم مكانه بمجرد اكتشافهم له، فإن ذلك سيكون مفيـداً، ولكن لما كنـا نعلم تمـام العلم إلى أين يمضي والسبب في ذلـك، فعليهم أن يبتعـدوا عنه، وينبغي ألا يدعوه يتشكك في شيء. الآن تـواً ينبغي ترك الفتى وشـأنه ليمضي حراً تمامـاً، دون تدخـل فيما يقـوم به. بتعـين القيام بكـل شيء في هدوء، علينا أن ننتهي من هـذا الأمر، دون أن نحـوله إلى مـأساة كـبرى. هـذا هـو المهـم. فلو وقـع أي خـطـأ فـادح الآن، فـإن النتـائـج يمكـن أن تكون في حجم الكارثة. ذلك هو ما أردتك أن تدركه.

في ليلة الحادي والعشرين من فبراير، نزل كيـواكي في فندق بـأوساكـا، وصباح اليوم التالي دفع قيمة حسابه، واستقل قطاراً على خط ساكوراي إلى أوبيتوكي، حيث استأجر غرفة في نزل لأحد التجار يدعى نزل كـوزونويـا.

وما أن قام بهذا، حتى استأجر عربة ريكشو للذهاب إلى جيشو. واستحث رجل العربة للمضي عبر بوابة المعبد والانطلاق صعداً لاجتياز التل المفضي إلى المدخل الأمامي العائد إلى عهد تانج، حيث ترجل من العربة. وإذ ألقى نفسه إزاء امتداد مصمت لباب منزلق محكم الاغلاق، صاح منادياً. أطل بواب المعبد، وسأله عن اسمه وغرضه، ثم تركه واقفاً هنالك، وبعد انتظار قصير، كانت الراهبة الأقدم هي أول من أطل، ودون أن تسمح له حتى بأن يخطو خطوة واحدة إلى الدهليز الأمامي، صدّته بقولها في استياء لم تكترث بإحكام إخفائه إن نيافة رئيسة الدير لن تقابله، وفضلاً عن ذلك فإنه أمر لا يخطر على بال أحد أن يسمح لكاهنة مبتدئة بمقابلته. وبما أنه كان يتوقع، بشكل أو بآخر، هذا الاستقبال فلم يلح كثيراً، وإنما غادر المكان من توه، وعاد إلى النزل.

أرجأ تحقيق آماله إلى الغد، وعندما فكر في عزلته في فشله الأول، وصل إلى استنتاج أنه يرجع إلى وقاحته المتمثلة في ركوبه عربة الريكشو حتى مدخل الدير ذاته، وقد دفعه إلى القيام بذلك حرصه وتعجله بالطبع، ولكن بما أن رؤية ساتوكو مرة أخرى كانت نوعاً من الضراعة، فقد وصل إلى أنه كان يتعين عليه الترجل عند البوابة والسير على قدميه من هناك سواء ألاحظت الكاهنات ذلك أم غفلن عنه. من الخير له أن يقوم بأداء ما يعد تعبيراً عن الندم.

كانت غرفته بالنزل قذرة، والطعام لا طعم له، والليل متوشحاً برداً. لكن فكرة قرب ساتوكو منه منحته الآن شعوراً عميقاً بالاغتباط. وفي تلك الليلة، غط في نومه لأول مرة منذ شهور.

كان اليوم التالي هو الثالث والعشرون من فبراير، وقد أحس بأنه أكثر نشاطاً، ومضى إلى الدير مرتين ـ إحداهما في الصباح والأخرى في الاصيل ـ تاركاً عربة الريكشو عند البوابة، وصاعداً التل الممتد، على نحو يليق

بحاج. غير أن الاستقبال الذي لقيه لم يكن أكثر حرارة منه في الأمس. وفي طريق العودة، بدأ في السعال، واستشعر ألماً خفيفاً، في أعماق صدره. وقرر ألا يستخدم الحمام الساخن في النزل.

تبين أن عشاءه في تلك الليلة ينتمي إلى نوعية غير متوقعة بالمرة في نزل ريفي من هذا النوع. وفضلاً عن ذلك فلم يتحسن سلوك الجميع حياله فحسب على نحو ملحوظ، وإنما نقل على الرغم من احتجاجاته إلى أفضل غرفة يمكن أن يقدمها النزل. وعندما طلب تفسيراً لهذا من الخادمة، حاولت مراوغته في الاجابة. غير أنه حينما غضب منها، انحل اللغز، فقد أبلغته بأنه فيما كان بالخارج ذلك اليوم جاء رجل شرطة محلي وسأل صاحب النزل بمزيد من التدقيق عنه، ثم قال ذلك الشرطي إن كيواكي من عائلة رفيعة الشأن للغاية، وبالتالي يتعين أن يعامل بأعظم قدر من التوقير، ولكنه لا ينبغي بحال أن يعرف بأمر زيارة رجل الشرطة للنزل. وفضلاً عن ذلك فإنه إذا ما غادر الفندق يتعين إبلاغ الشرطة على الفور. داخل كيواكي شعور عارم بالخوف، وأدرك أنه ليس أمامه وقت يهدره.

عندما نهض في صباح اليوم التالي، الرابع والعشرين من فبراير، أحس بأنه ليس على ما يرام، ورأسه مثقل، وهمته فاترة. ورغم ذلك فقد عقد العزم على المضي، وإذا ما كان له أن يرى ساتوكو ثانية، فعليه أن يكرس قوته بأسرها للتوبة التي سيخوض غمارها، كائنة ما كانت المشقة التي سيتكبدها من جراء ذلك. وبهذه الحالة المزاجية انطلق من النزل، ودون أن يستأجر عربة الريكشو مضى لقطع المسيرة التي تزيد على ميلين إلى جيشو. ومن حسن الحظ أنه كان صباحاً جميلاً، غير أن الطريق نفسه لم يكن بالدرب الممهد. وفضلاً عن ذلك فقد تفاقم سعاله خلال سيره وأحس في صدره كأن غباراً معدنياً يتهاوى. سيطرت عليه نوبة سعال ضارية عند مدخل جيشو ذاته. وظل التعبير المرتسم على وجه الكاهنة الأقدم التي قابلته

دونما تغيير وهي ترفض طلبه بالكلمات ذاتها.

في اليوم التالي، الخامس والعشرين من فبراير، بدأت نوبات رعدة وحمى تأخذ بخناقه. وعلى الرغم من أنه أدرك أن الخروج مما يجافي الحكمة، فإنه استأجر عربة ريكشو مرة أخرى، ومضى إلى الدير، لا لشيء إلا ليتم صده كذى قبل تماماً. أخيراً شرع أمله في التهاوي، ورغم أنه قد أعاقته الحمى التي ترامت سحبها على ذهنه، فقد حاول تقويم الموقف، لكنه لم يخطر له سبيل عملي للتحرك. وفي نهاية المطاف، أبلغ كاتب النزل بأن يرسل برقية فحواها: «أرجو أن تأتي في الحال. إنني في نزل كوزونويا في أوبتيوكي على طريق ساكوراي. لا كلمة لوالديَّ. كيواكي ماتسوجاي».

وإذ تم القيام بذلك، أمضى ليلة بعيدة عن الراحة، قبل أن يستيقظ مترنحاً، في صبيحة السادس والعشرين من نوفمبر.

- ٥٢ -

كان الصباح يضرب أطنابه، عندما تراقصت رقائق هشة من الثلج في الريح الصرصر، التي راحت تكتسح سهل ياماتو. وقد بدت بالغة الهشاشة حتى بالنسبة لثلج الربيع، ولكنها أكثر شبهاً بسرب من حشرات الصيف. وعندما ظلت السماء مكفهرة اختفت الرقائق في مواجهة السحب. وعندما تبرز الشمس مطلة بين السحب فحسب يدرك المرء الثلج الذروري المدوِّم. وكان البرد في الهواء أسوأ منه في يوم يهمي فيه الجليد ثقيلاً مندفعاً.

فيما أراح رأسه على الوسادة، راح يتأمل في الكيفية التي يمكنه بها أن يبرهن على إخلاصه المطلق لساتوكو. كان قد قرر البارحة، في نهاية المطاف أن يناشد هوندا مساعدته، وكان على يقين من أن صديقه سيجيء اليوم لا محالة. وبوجود هوندا لمساعدته على التماسك، ربما يتمكن من تليين موقف رئيسة الدير، الذي لا يعرف اللين سبيلاً اليه. ولكن ثمة أمراً قبل ذلك يتعين القيام به، عليه أن يحاوله. وحيداً، ودون مساعدة من أحد، عليه أن يظهر نقاء إخلاصه. عندما تأمل ما مضى، أدرك أنه حتى الآن لم تتح له ولو فرصة واحدة لكي يبرهن على إخلاصه لساتوكو. وحدَّث نفسه بأنه ربما جعله جبنه يهرب من مواجهة أي فرصة من هذا النوع حتى الآن.

أما اليوم فهناك شيء واحد يمكنه القيام به، فأن يمضي خارجاً، رغم مرضه، ليخاطر بالتعرض لمرض أسوأ يعني تعبيراً أعظم مغزى عن توبته. والاخلاص البالغ على هذا النحو قد يثير استجابة من ساتوكو أو قد لا

يحدث ذلك مجدداً. وأياً كانت النتيجة، وحتى إن لم يكن هناك أدنى أمل في تأثرها، فقد وصل الآن الى حالة ذهنية لن يقر معها له قرار، ما لم يقم بهذا العمل، ما لم يجترحه كتعبير عن التوبة يقتضيه من نفسه. كان قد بدأ رحلته وقد استحوذت خاطرة واحدة عليه تماماً: أن يرى محياها، ولو في لمحة خاطفة. غير أنه في غضون ذلك اتخذ فؤاده قراراً من صنعه هو: أن يتجاوز مقاصده ورغباته.

كان جسمه هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تتصدى لهذا الدافع التجاوزي في فؤاده، فقد سقط في قبضة حمى موجعة، وامتد خيط ذهبي ثقيل عبر كل جزء منها مزيناً لحمه الحي بالألم والحرارة. انسابت القوة منه، وإذا رفع ذراعه فإن الجلد الشاحب يزرقّ في التو ويغدو بارداً، ويصبح الذراع نفسه ثقيلاً كأنه بئر في دلو. وبدا أن سعاله يصدر عن بعد أكثر غوراً على نحو متفاقم في صدره، شأن الدوي الداثب لرعد بعيد، في أفق مظلم. وتمرد جسمه على مطالبه، حيث ناله الاعياء والتوتر حتى أطراف الأصابع تحت وطأة الحمى الحارقة، التي اندلعت فيه.

راح يهتف باسم ساتوكو بمزيد من اليأس، وتتابعت الساعات الجوفاء متطاولة. وقد أدرك الخدم في هذا الصباح للمرة الأولى في النزل أنه مريض، فعمدوا الى تدفئة غرفته، وانطلقوا في قلق يقومون بكل ما في وسعهم لضمان راحته، لكنه رفض في عناد أن يسمح لهم سواء بعلاجه بأنفسهم أو باستدعاء طبيب له.

أخيراً، في الأصيل، طلب من الخادمة أن تستأجر له عربة ريكشو، فترددت، ومضت لإبلاغ صاحب النزل بالأمر. وعندما أقبل الرجل الى غرفته، وحاول إقناعه بالبقاء في النزل، تجلد لكي يقف على قدميه، وارتدى زيه المدرسي، وتدثر بمعطفه دون مساعدة من أحد، لكي يوضح أنه متمتع بصحة طيبة. أقبل رجل عربة الريكشو. وانطلق كيواكي بها،

وساقاه ملفوفتان في بطانية دفعتها خادمات النزل إليه. ورغم ما كفلته له من حماية فقد إنقض عليه البرد بجبروته.

أطبق على عينيه دفق رقائق الثلج المدوّمة، منسلاً من خلال الفتحات التي بقيت في عطاء الريكشو المصنوع من القماش الأسود. فجأة، عاودته الذكرى المتوهجة لتلك النزهة عبر الثلج مع ساتوكو، قبل عام على وجه التحديد، وانقبض صدره من فرط الانفعال والألم الخانق.

لم يعد بمقدوره أن يقبع وسط العتمة داخل عربة الريكشو المتأرجحة، دون أن يقوم بشيء، إلا محاولة تحمل الألم الناشب في رأسه، أرخى الطية الأمامية لسقف العربة، ثم جذب لفاعته فوق فمه وأنفه، وراح يتطلع الى المعالم الطبيعية التي يمر بها، وعيناه تدمعان بتأثير الحمى. أراد أن يخلص ذهنه من أي صورة تدفع أفكاره باتجاه الألم، الذي يسحقه سحقاً.

كانت عربة الريكشو قد اجتازت بالفعل أحياء أوبيتوكي الضيقة. همى ثلج ذروري على الحقول ومسطحات الأرز، على جانبي الطريق المسطح، الذي يفضي مباشرة الى حيث ينتصب دير جيشو وسط الجبال التي كستها السحب، تساقط على أكداس حزم الأرز التي تركت في المسطحات، وعلى أوراق التوت الذاوية، وعلى الخضرة المرتجفة لوريقات أشجار الباكشوى، التي تفصل مسطحات الأرز عن بساتين التوت، على الأعشاب ذات اللون الصدىء، وعلى البرديات في المستنقعات، واصل التساقط دونما صوت، لكنه لم يكن كافياً ليكسو الأرض. وحتى الرقائق التي سقطت على بطانية كيواكي تبددت دون أن تترك قطرات واضحة للعيان من البلل.

شاهد بياض السماء المسطح ينمو تدريجياً في الإشراق، الى أن سطعت شمس شاحبة، في نهاية المطاف، من بين السحب. تزايد امتزاج الثلج المتساقط بهذا الإشراق الجديد الى أن بدا مثل رماد أبيض يطفو في الهواء.

على امتداد الطريق، راح العشب الطويل، الجاف، يتأرجح في مهب

الريح الخفيفة، وقد تألقت أطرافه الريشية ألقاً فضياً خفيفاً في سنا الشمس الفاترة. وفيما وراء الحقول، اكتست سفوح التلال باللون الرمادي، ولكن في البعيد كان هناك ركن من السماء الزرقاء الصافية والجبال التي تتوج الجليد هاماتها ببياض يخطف الأبصار.

فيما راح كيواكي يحدق في معالم الطبيعة من حوله، وأذناه تطنان من جراء الحمى، ساوره شعور بأنه حقاً على اتصال بواقع خارجي، للمرة الأولى خلال شهور طويلة. كان العالم من خوله ساكناً تماماً. ربما أدى تأرجح العربة وثقل مقلتيه الى اختلاط جزئيات ما رآه، ولكن أياً كان التشوه العرضي في الرؤية، فقد كانت تلك مواجهة على قدر كاف من الوضوح. وبما أنه كان يضطرب، لوقت بالغ الامتداد، في ظلمة عشوائية من الحزن والقلق، فقد لطمته التجربة بكل عنفوان الجديد، وفضلاً عن ذلك لم يكن هناك أثر للحياة البشرية.

كانت عربة الريكشو تدنو بالفعل من الخيزران الكثيف الذي يكسو جانب الجبل، ويحيط بدير جيشو ذاته. وفي الأعالي، أمامه انتصبت أشجار الصنوبر التي تحف بالطريق لدى بدء إنطلاقه صعداً داخل البوابة. عندما رأى جانبي البوابة الحجريَّة الخشنة، في نهاية امتداد الطريق الذي تكتسحه الرياح، تشنج من جراء انقباضة من الخوف المؤلم.

حدَّث نفسه قائلاً: «لئن اجتزت البوابة في عربة الريكشو ثم قطعت الأمتار الأربعمائة أو نحوها حتى الباب الخارجي، لئن مضيت راكباً طوال الطريق، فإن شعوراً يساورني بأنهن لن يدعنني أرى ساتوكو اليوم أيضاً. ربما تغيرت الأمور قليلاً منذ المرة الأخيرة. ربما انضمت الكاهنة العجوز الى صفي في حديثها مع رئيسة الدير، فلانت الآن قليلاً، ولئن رأيين أنني جئت صعداً على الأقدام عبر الثلج، فربما تركتني رئيسة الدير أرى ساتوكو، ولو للحظة واحدة. ولكن إذا مضيت الطريق كله بالعربة،

فقد يترك ذلك انطباعاً سيئاً لديهن، ويثير رد فعل غريزي لديهن ضدي، وعندئذ قد تقرر رئيسة الدير ألا تدعني أرى ساتوكو قط. لا بد أن كل جهودي قد أحدثت بعض التغيير في قلوبهن. الأمر يشبه مروحة مؤلفة من مئات الألواح الرفيعة الرقيقة، التي يضمها معاً مسمار واحد. ولو أني كنت مهملاً على الاطلاق لانفك المسمار، وتداعت المروحة بأسرها. وإذن، فلو أنني مضيت راكباً العربة على امتداد الطريق بأسره حتى الباب الخارجي، ولم أتمكن من رؤية ساتوكو، فإنني سأشعر بأن الخطأ جنته يداى، وسأحدث نفسي بأن ذلك يرجع الى عدم إخلاصي، وسأعلم في قرارة فؤادي بأنني لو ترجلت من عربة الريكشو وسرت على قدمي مهما كان شعوري بالضعف، فإن مثل هذا الاخلاص ـ حتى وإن لم تدركه ـ سيؤثر فيها وستراني. هكذا الأمر، إذن. ليس هناك سبب لمشاعر الندم هذه، ليس أمامي من خيار إلا المخاطرة بحياتي إذا أردت رؤيتها. إنها بالنسبة لي جوهر الجمال.

وهذا وحده هو الذي جلبني حتى هذا المدى».

لم يعد هو نفسه يدري ما إذا كان تفكيره منتظماً، أم أن الحمى قد جعلته يضطرب. أمر رجل عربة الريكشو بالوقوف عند البوابة، وبعد أن ترجل من العربة أبلغه بأن عليه الانتظار هنالك، وشرع يرقى التل. أطلت الشمس عبر السحب من جديد، وتراقصت رقائق الثلج في أشعتها الشاحبة. ومن أجمات الخيزران على جانبيه سمع تغريداً، كأنه شقشقة قُبّرة. كانت أشنة خضراء تعلو جذوع أشجار الكرز العارية، التي تناثرت بين أشجار الصنوبر، على امتداد الطريق. ازدهرت شجرة برقوق واحدة متألقة البياض وسط الخيزران.

بعد أن سلك هذا الطريق ست مرات، خلال الأيام الخمسة الماضية، سيبدو أنه لم يعد هناك ما لم يلق عليه نظرة. ولكن فيما بدأ في شق طريقه صاعداً من حيث غادر عربة الريكشو، بساقين بعيدتين عن الثبات وقدمين

متعثرتين، راح يتطلع حوله، واكتسى العالم بصفاء يحمل سمة الحداد في عينيه المحمومتين. اكتسبت معالم الطبيعة التي أصبحت مألوفة لديه في الأيام الأخيرة طابعاً جديداً غريباً. الآن أوشك على توتير أعصابه. وفي كل لحظة إندلعت أسهم فضّيّة حادة النصال من البرد مخترقة عموده الفقري. السرخسيات على امتداد الطريق،الزهريات الحمراء المدببة الأطراف وإبر الصنوبر، التي تصدر الريح زفيفها، إذ تخترقها، وأشجار الخيزران بجذوعها الخضراء وأوراقها المصفرة والعشب الجاف الوفير ـ كل شيء تابعته عينا كيواكي، الى أن بلغت الظل الأسود، الذي ارتمى عبر الطريق أمامه، فيما الأخير يترامى عبر أجمة أرز. هو ذا عالم يحفه صمت، لا تقطعه نأمة، ولا تشوب صفاءه المطلق أية شائبة، من أي نوع. وكان يعلم أنه في قلب هذا العالم، وعلى نحو مؤلم يستعصي على الافصاح، وفي قراره المكين كانت هنالك ساتوكو ذاتها، وشخصها هادىء وساكن كأنه تمثال بديع من الذهب. ولكن أيمكن لمثل هذا العالم الساكن والكامل، الذي يتجنب كل ألوان الحميمة أن تكون له حقاً أيّ علاقة بالعالم المألوف الذي عرفه؟

ازداد تنفسه صعوبة، فيما هو يسير. توقف ليلتقط أنفاسه، واقتعد صخرة ضخمة الى جوار الطريق، ليلطمه حتى العظام في التو بردها الحاد، كأنما ليس بمقدور طبقات ملابسه أن تفعل شيئاً لإعاقته. سعل سعالاً عميقاً، وفي غمار ذلك، رأى أن المنديل الذي أطبقه على فمه قد كساه بلغم صدىء اللون.

بعد تراجع نوبته تدريجياً، تطلع، وقد أخذ منه الدوار، الى قمم الجبال النائية التي كساها الجليد، والتي شمخت فيها وراء كثافة الأشجار الهشة. ولما كانت عيناه مليئتين بالدموع، من جراء نوبة سعاله، فقد بدا أن رؤيته المضطربة تزيد من تألق الجليد. وفي هذه اللحظة، عاودته ذكرى عيد ميلاده الثالث عشر، ومرة أخرى كان وصيفاً أمبراطورياً يتطلع الى الأميرة

كاسوجا أمامه، فيما هو يمسك بطرف ردائها. كانت القمم الجليدية المترامية أمام ناظريه اليوم هي نفسها صورة البياض عينها التي فتنته في ذلك اليوم ـ اللون الصافي لمؤخرة العنق، تحت سواد شعرها الملتمع. تلك كانت اللحظة في حياته، التي دفع فيها الجمال الأنثوي القدسي به لأول مرة الى محراب عبادته.

احتجبت الشمس من جديد، وهمى الثلج تدريجياً بمزيد من الثقل، نزع قفازه، وأمسك ببعض الرقائق في إحدى يديه. كانت راحته تتوهج بتأثير الحمى، فذابت الرقائق أمام ناظريه بمجرد لمسه لها، راح يفكر في مدى اعتنائه بيده الجميلة التكوين، لم تتسخ قط، لم تعرف فرحة أبداً. لقد استخدمها، ولكن في مجال العاطفة فحسب.

نهض، أخيراً، وشرع في السير من جديد، متسائلاً عما إذا كان سيستطيع الخوض في الثلج والوصول الى المعبد. وفي الوقت الذي ارتقى فيه الى أجمة الأرز تفاقم هبوب الريح، وطنَّ زفيفها في أذنيه. خفت كثافة أشجار الأرز لتكشف عن بحيرة صغيرة، كان سطحها المتجمد تموجات ساكنة تحت سماء الشتاء ذات اللون الرصاصي. ما إن تجاوز البحيرة حتى أطبقت عليه الظلمة الجهمة لأشجار الأرز العجوز الكثيفة من جديد، وقد حجبت أغصانها جبروت الثلج المتساقط في مضاء وعزم.

في ذلك الوقت، لم يعد له إلا هدف واحد: أن يواصل وضع قدم أمام الأخرى. تداعت كل تذكارات ماضيه، وأصبح الآن يعلم أن المستقبل لن يكشف عن نفسه إلا بهذه السرعة، قدماً وراء آخر، متراً فآخر، فيما هو يجالد على نحو مؤلم شاقاً طريقه الى الأمام.

اجتاز البوابة السوداء دون أن يدرك ذلك، وعندما تطلع أمامه ألفى بوابة التانج ذاتها قبالته. تشبث الثلج بصف القرميد الاقحواني الذي شكل طنفها.

إنهار أمام الباب المنزلق، وانخرط في نوبة سعال بالغة العنف، حتى لم تعد به حاجة الى أن يهتف منادياً.

فتحت الكاهنة الأقدم الباب على الفور، وشرعت تدلك ظهره لتخفيف أزمته. وفي نوع من الغيبوبة ساوره شعور تستعصي قداسته على الوصف بأن ساتوكو قد جاءت وأن يديها تدلكانه الآن.

لم تبادر الكاهنة الأقدم الى رفضه اليوم، في التو، على نحو ما فعلت من قبل. وبدلاً من ذلك، تركته هنالك، بعد لحظات قلائل، وعادت الى الداخل مجدداً. انتظر طويلاً، شاعراً باللحظات تتطاول، دونما انتهاء. وفيما هو ينتظر بدا أن سحابة تغشى ناظره. انحل الم وأمله البهيج تدريجياً معاً ليتحولا الى حالة واحدة غامضة من حالات الوعي.

سمع أصوات نساء، تتردد في حوار متدفق، ثم ساد الصمت من جديد. عندما فتح الباب المنزلق مرة أخرى كانت الكاهنة الأقدم وحدها.

ـ آسفة، فلا يمكن تلبية طلبك اللقاء. كائناً ما كان عدد المرات التي تجيء فيها الى هنا، يا سيدي، سأضطر الى الرد عليك بالاجابة نفسها، وسأرتب أمر اصطحاب خدم الدير لك؛ ولذا أرجو أن ترحل لطفاً!

عاونه البواب، الذي كان رجلاً قوياً، لحسن الحظ، فانكفأ على الطريق، عائداً الى حيث كانت عربة الريكشو تنتظر.

- ٥٣ -

وصل هوندا الى النزل في أوبيتوكي، في وقت متأخر من ليل السادس والعشرين من فبراير. وما إن رأى مدى خطورة حالة كيواكي، حتى انصرف همه الى اصطحابه الى طوكيو في الحال، ولكن صديقه رفض ذلك رفضاً مطلقاً. واكتشف أن الطبيب المحلي، الذي استدعي في وقت سابق في المساء، قد قال إن الأعراض تشير الى إصابته بالسل.

توسل إليه كيواكي في يأس، فهو يريد أن يمضي صديقه الى جيشو، في اليوم التالي، ليحادث رئيسة الدير، ويبذل كل جهده لتليين موقفها. ولما كان هوندا ليس طرفاً في الأمر، فإن كلماته ربما يكون لها بعض التأثير على نيافتها. وإن لان جانبها فإنه يريد أن يصحبه هوندا الى المعبد.

قاوم هوندا لبعض الوقت، ولكنه استسلم، في نهاية المطاف، موافقاً على تأخير رحيلهما يوماً واحداً، وسيحاول مهما كبّده الأمر مقابلة رئيسة الدير، في الغد، وبذل كله ما في وسعه من أجل كيواكي، لكنه جعل صديقه يعد مخلصاً بأنه إذا ظلت على رفضها فإنه سيعود الى طوكيو معه في التو. ومكث هوندا يقظان طوال الليل، عاكفاً على تغيير قطع القماش المبتلة على صدر كيواكي. وعلى ضوء المصباح الكابي في الغرفة، رأى أن جلده، رغم بياضه، قد اكتسب حمرة خفيفة، من القماش الطبي الذي يغطيه.

لم يكن قد بقي على الامتحانات النهائية الا ثلاثة أيام. وتوافرت لدى هوندا كل الأسباب التي تدعو والديه الى معارضة قيامه بهذه الرحلة، على الاطلاق، الآن. ولكنه عندما اطلع أباه على برقية كيواكي، أدهشه أنه قال

له بأن يمضي في الأمر قدماً، دون أن يسأله عن المزيد من التفاصيل. وقد وافقت أمه تماماً. لقد كان القاضي هوندا على استعداد، ذات يوم، للتضحية بحياته العملية، من أجل زملائه القدامى، الذين أرغموا على التقاعد؛ لأنه تم إلغاء نظام شغل المنصب طوال العمر. والآن عزم على أن يعلم ابنه قيمة الصداقة. وعكف هوندا خلال الرحلة بالقطار الى أوساكا على العمل منكباً، وحتى الآن، وهو الى جوار فراش كيواكي، كان يمسك بكراسة المنطق الخاصة به مفتوحة الى جواره.

في دائرة واحدة من الضوء الأصفر الشاحب، التقط المصباح فوقهما الرموز المطلقة للعالمين المتعارضين رأساً، اللذين وهب هذان الشابان نفسيهما لهما. فأحدهما يرقد مصاباً بمرض خطير من أجل الحب، والآخر يعد نفسه لمتطلبات الواقع الجسام.

كان كيواكي، وهو شبه غاف، يسبح في بحر لجي من العاطفة، وقد أطبقت الأعشاب على ساقيه. أما هوندا فكان يحلم بالعالم باعتباره يستند مستقراً على أساس من النظام والمنطق. وهكذا، على امتداد ليلة مريرة في الربيع الباكر، في غرفة بنزل ريفي عتيق، تقارب رأسا هذين الشابين تحت الضوء، أحدهما عقلانيّ على نحو بارد، والآخر يتقد بالحمى، وكل منهما في نهاية المطاف ترتبط بإيقاع عالمه الخاص.

على امتداد صداقتهما، لم يكن هوندا أكثر إدراكاً منه الآن للاستحالة المطلقة لاستكناه حقيقة أفكار كيواكي. كان يرقد أمامه، ولكن روحه كانت نائية، تحوِّم في مكان آخر. في بعض الأحيان كان يهتف هاذياً باسم ساتوكو، ويفيض خداه بالحمرة. فقد وجهه طابعه المرهق وبدا أكثر صحة من المألوف، وتوهج جلده كأنه عاج بديع داخله نار. ولكن هوندا كان يعلم أنه ما من سبيل أمامه للوصول الى هذا الجوهر. راح يحدِّث نفسه بأنه ها هنا أمامه مثلت العاطفة بأصدق معانيها. ذلك النوع من العاطفة الذي

لن يسيطر عليه أبداً، وفكّر في أنه أكثر من هذا أليس صحيحاً أنه ما من عاطفة، كائنة ما كانت، ستفلح في اكتساحه والتغلب عليه؟ ذلك أنه أدرك أن طبيعته تفتقر فيما يبدو، الى شيء ما هنالك. لماذا يصب كل طاقاته على نحو غريزي في الحفاظ على مظهر داخلي وخارجي مناسب؟ لماذا عجز - على العكس من كيواكي - عن فتح روحه للعناصر الأربعة الكبرى البدائية: النار، الريح، الماء، والتراب؟

عادت عيناه الى الكراسة المفتوحة أمامه، وقرأ مكتوباً بخطه الأنيق الدقيق:

«سيطر منطق أرسطو الشكلي على التفكير الأوروبي، حتى نهاية العصور الوسطى، على وجه التقريب. ويقسم هذا الى عهدين، يسمى أولهما «المنطق القديم» والأعمال التي طرحت كانت «العبارات الجدلية» و«المقولات» من الأورجانون. وأما القسم الثاني فيسمى «المنطق الجديد». وقد يقال إن هذا العهد تلقى قوة دفعه الأولية من الترجمة اللاتينية الكاملة للأورجانون، التي تم الفراغ منها في منتصف القرن الثاني عشر...».

لم يستطع الحيلولة دون تفكيره في أن هذه الكلمات، شأن نقوش حفرت في حجر معرض لتقلبات الطقس، ستسقط من ذهنه، كالرقائق، إحداها وراء الأخرى.

- ٥٤ -

كان هوندا قد سمع بأن يوم الدير يبدأ مبكراً؛ ولذا فقد انتزع نفسه من إغفاءة قصيرة، وقت بزوغ الفجر تماماً. وبعد إفطار سريع، طلب من الخادم أن تستأجر له عربة ريكشو، وتأهب للانطلاق.

تطلع إليه كيواكي من فراشه، وقد امتلأت عيناه بالدموع. وكل ما ملكه هو نظرة ضراعة، فيما هو يسند رأسه الى وسادته، لكن النظرة اخترقت هوندا كالخنجر. كان قد اعتزم حتى هذه اللحظة القيام بزيارة، يعوزها الحماس، الى جيشو، ثم الذهاب بصديقه، الذي اشتد به المرض الى طوكيو، بأسرع ما يستطيع. ولكنه ما إن رأى النظرة المرتسمة في عيني كيواكي، حتى عرف أنه أياً كان ما سيتكبده، فعليه ببذل كل جهوده لتدبير لقاء بين صديقه وساتوكو.

ومن حسن الطالع أن الصباح كان يضوع بالدفء، وربما كان ذلك بشير خير. دنت الريكشو التي يستقلها من مدخل الدير، فلاحظ أن رجلاً عكف على الكنس هناك قد اختلس نظرة إليه من بعيد، ووضع مكنسته أرضاً على حين غرة، واندفع الى الداخل، فحدَّث نفسه بأن الزي المدرسي الذي يرتديه والمطابق لزي كيواكي قد جعل الرجل يلزم الحذر، ويسرع لتحذير من بالداخل. ظهرت الكاهنة بالباب، وعلى ملامحها تعبير يوحي بتصميم رادع، حتى قبل أن يتمكن من الإفصاح عن هويته.

ـ عفواً، أيتها الأخت. اسمي هوندا، ويؤسفني أن أتطفل عليكن، ولكني جئت من طوكيو بسبب هذا الموضوع، المتعلق بكيواكي ماتسوجاى.

سأكون ممتناً أشد الامتنان، إذا وافقت نيافة رئيسة الدير على لقائي.

ردت الكاهنة:

ـ انتظر للحظات قلائل، لطفاً!

وقف هنالك، وقتاً متطاولاً، على العتبة الأمامية، ثم فيما هو عاكف على التفكير في الحجج المضادة المختلفة لاستخدامها في حالة الرفض، أدهشته الكاهنة ذاتها بالمجيء والمضي به الى قاعة استقبال في الداخل. بدأ الأمل، وإن كان ضئيلاً، في التحرك في أعماقه.

ترك وحيداً من جديد في قاعة الاستقبال. تناهت شقشقة الطيور المغردة من الحديقة الداخلية، على الرغم من أن الباب المنزلق كان موصداً تماماً، ولا سبيل أمامه لرؤية الحديقة. استطاع وسط الظلال بالكاد تبين التصميم الورقي الزخرفي المؤلف من السحابة وزهرة الاقحوان على مقبض كل باب. هوى ترتيب الزهور في ركن «التوكونوما»[1] أزاهير اللفت وبراعم الخوخ. بدت الزهور الصفراء المتألقة نابضة بقوة الريف الربيعي، وحمل اللحاء الكابي والوريقات الخضراء الشاحبة على غصن الخوخ جمال براعمه المتفتحة. كانت الأبواب المنزلقة بيضاء اللون، ولكنه لاحظ ستاراً مطوياً الى جوار الحائط بدا أنه شيء ثمين، فمضى إليه.

مضى يتفحصه بالتفصيل. كان ستاراً يصوِّر مشاهد كل من شهور العام الاثني عشر، نُفِّذ في الجزء الأكبر منه بأسلوب مدرسة كانو، وإن كانت قد أثرته الألوان النابضة بالحيوية، التي تنتمي تقليدياً الى ياماتو.

---

(١) التوكونوما: هو ذلك التجويف في غرف الدار اليابانية الذي يستخدم تقليدياً لحفظ المقتنيات الثمينة والأشياء التي تحظى بالتوقير أو التقديس أو التي تعد ذخراً أو تراثاً عائلياً. (هـ. م.)

بدأ فيض المواسم، على الستار، بالربيع عند الحافة اليمنى، وراح رجال البلاط يستمتعون في الحدائق تحت أشجار الصنوبر والبرقوق البيضاء، كست كتلة من السحاب الذهبي سرادقاً يحيط به سور من أشجار السرو، عدا حيّز بالغ الضيق أفلت من السحاب. والى اليسار قليلاً، راحت مُهُر تتقافز بألوانها العديدة. وتحولت البحيرة، في الحديقة، عند أحد المواضع الى مسطح لزراعة الأرز، وهنا عكفت فتيات في مقتبل العمر على العمل في غرس شتلات الأرز. وانهل شلال صغير من السحاب الذهبي، وتساقط على مرحلتين إلى بحيرة أخرى. أفصح الظل الأخضر للعشب عند حافة الماء عن مقدم الصيف. علق رجال البلاط رايات ورقية بيضاء، من أجل التطهر، مع مقدم الصيف على الأشجار والشجيرات، حول البحيرة، بحضور صغار المسؤولين والخدم الذين يرتدون الثياب القرمزية. راحت الغزلان ترعى هانئة في حديقة مزار، واقتيد جواد أشهب الى خارج بوابة مقنطرة. وانهمك الحراس الأمبراطوريون، وقد تسلحوا بالأقواس والسهام في الاستعداد لموكب احتفالي، وعكست أوراق أشجار القيقب المترامية في البحيرة لذعة برد الشتاء الوشيك القدوم الذي سرعان ما سيفرض حضوره، وبعد ذلك بقليل انطلق المزيد من رجال البلاط في الصيد بالبزاة، على جليد مذهب. وكانت السماء بدورها ذهبية تتألق عبر الأغصان المثقلة بالثلج لأجمة خيزران. وانهمك كلب أشهب في مطاردة مليئة بالنباح لطائر حجل، ذي لمسة حمراء عند عنقه، اندفع عبر الأعشاب الجافة كأنه سهم وأفلت الى رحاب السماء الشتوية، ووصلت الصقور المستقرة على أرسفة رجال البلاط بعيون مليئة بالصلف الى الحجل الهارب.

عاد الى موضعه، بعد أن تفحص على مهل ستار التسوكينامي. ولكن لم يظهر أي أثر لمقدم رئيسة الدير.

عادت الكاهنة، وانحنت محيية، وقدمت له الشاي والكعك، وأبلغته

بأن رئيسة الدير ستصل، في غضون لحظات قلائـل، وطلبت منه أن يـأخذ راحته خلال انتظاره لها.

إستقرت علبة صغيرة مزينة بصورة من النقش البارز، على المائدة. لا بد أنها كانت من منتجات الدير، وفضلاً عن ذلك فقد كانت توحي بافتقار الى الحنكة في الابداع اليـدوي جعله يتساءل عـما إذا كانت يـد ساتـوكو التي لم تصقلها التجربـة هي التي تقف وراءها. كـان الورق الملصق عـلى الجوانب والصورة المبطنة المركبة على الغـطاء غارقـين في الألوان كليهـما، وفقاً للذوق السائد في البلاط الأمبراطوري، فتبدت الألـوان مسرفة ومبهـرجة عـلى نحو طاغ. في الصورة، كان صبي يطارد فراشة، وفيما هو ينـدفع وراء الحشرة، التي تجمـع أجنحتها بـين اللونين الأحمـر والأرجواني، أوحى وجهـه وبشرته الحريرية البيضاء وعريه الريان بجمال حسي، لا تتمتع بـه إلا دمية من دمى البلاط. بعد مسيرة هوندا، عبر الظلام والحقول التي تـوجها صـدر الربيـع وصعد الجبل مخـترقاً الغـابات التي لا تـزال على عـزلتها، أحس أنـه عايش، ها هنا في قاعة الاستقبال الحافلة بـالظلال، تلك العـذوبة الثقيلة اللزجـة، التي هي جوهر الأنوثة.

سمع حفيف ثياب، ثم ولجت نيافة رئيسة الديـر بنفسها البـاب، قادمـة من الدهليز، متكئة على ذراع الكاهنة الأقدم. انتصب هونـدا واقفاً، لكنـه لم يستطع التحكم في خفقان قلبه.

من المؤكد أن رئيسة الدير قد أوغلت في العمر، ولكن الملامح الـدقيقة، في الوجه الصـافي البشرة، الذي يعلو الـرداء الأرجواني الخش، بـدت كما لـو كانت قد نحتت من خشب البقس الأصفر البديع، ولم تفصح عما يدل على العمر. ارتسم تعبير دافىء عليها، فيما صاحبتها تجلس قبالته الآن. اقتعدت الكاهنة الأقدم كرسياً على أحد الجوانب.

ـ هكذا، إنهن يقلن لي إنك قدمت من طوكيو؟

ـ نعم، نيافتك.

قالها هوندا، مستشعراً صعوبة في نطق كلماته أمامها.

قالت الكاهنة الأقدم، على سبيل المشاركة في الحديث:

ـ يقول هذا السيد إنه زميل في الدراسة للسيد ماتسوجاى.

قالت رئيسة الدير:

ـ آه، نعم لقد كنا، في حقيقة الأمر، نشعر بالأسف لابن الأمير، غير أنه . . .

أخيراً، أحس هوندا بأنه قادر على الحديث بحرية:

ـ أصابت حمى رهيبة ماتسوجاى، وهو معتكف في الفراش بالنزل، وقد تلقيت برقية منه فجئت الى هنا مسرعاً، بقدر ما وسعني ذلك. واليوم جئت ها هنا بدلاً منه لأتقدم بالطلب، الذي رجاني أن أطرحه.

حدَّث نفسه بأن هذا هو على الأرجح الشعور الذي يساور المحامي الشاب، لدى وقوفه أمام المحكمة. وبغض النظر عن الحالة المزاجية للقضاة عليه أن يمضي في الأمر قدماً، حريصاً الحرص كله على دفاعه، دون أن يكترث بشيء إلا بإنقاذ موكله.

أبلغ رئيسة الدير بالصداقة، التي ربطته بكيواكي، ووصف المرض الذي ألم به، وأوضح لها أن كيواكي يخاطر بحياته حتى ولو من أجل أقصر اللقاءات مع ساتوكو. ولم يتردد في القول بأنه إذا ما انتهى هذا كله نهاية مأساوية، فإن ديرجيشو لن يخلو مما يدعوه الى الندم. وازداد انفعالاً، فيما كلماته المحمومة تتقاطر. وعلى الرغم من أن الغرفة كانت شديدة البرد، فقد أحس باتقاد أذنيه وجبينه.

وكما يمكن توقعه، فقد أثر ما قاله في رئيسة الدير والكاهنة الأقدم ولكنهما لزمتا الصمت.

ـ وأود أن تكـونا من الكـرم بحيث تحاولان فهم مـوقفي. لقد أقـرضت صديقي المال؛ لأنه أبلغني بحاجته إليه، وهذا المال هو ما استخدمه للقدوم الى هنا. أما الآن فقد سقط مريضاً، وإني لأشعر بالمسؤولية أمـام أبويـه عن هذا. وفضلاً عن ذلك، وكما لا بـد أنكما تحسبـان، فإن التصرف السليم، بالنسبة لي، هو بوضوح العودة به الى طوكيـو بأسرع مـا يمكن. وإني لأدرك كذلك أن هذا هو الحل الوحيد المعقول، لكني لم أنفذه، وإنما جئت اليكما، على هذا النحو، دون أن أجرؤ حتى على التفكير في مدى غضب أبويه مني، لأتوسل إليكما أن تلبيا طلب مـاتسوجـاي. أقوم بهـذا لأنني، بعد أن رأيت نظرة الأمل اليائس في عينيه، لا أشعر بأن أمـامي خياراً آخـر. ولو أنـه كان بمقدور نيافتك رؤية هذه النظرة فحسب، فإنني على يقين من أنك ستتأثرين بـدورك. أما عني فـإنني لا أملك إلا الاعتقاد بـأنه أكـثر أهميـة الآن أن تتم تلبية طلبه من القلق على حالته الصحية. إنه أمر رهيب أن تأتي على ذكره، لكني أشعر على نحو ما بأنه لن يبل من مرضـه أبداً، ولـذا فإنني أقـدم لكما طلبه على فراش الاحتضار. أترى يمكن أن يكون تركه يرى ساتوكو للحظة أو لحظتين خارجاً تماماً عن نطاق رحمة بوذا؟ ألا تسمحان له؟

واصلت نيافتها التزام الصمت. وعلى الرغم من أنه كـان منفعلاً تمـاماً، فقد توقف عند ذلك الحد، خشية أن كلماتـه، إذا ما واصـل الحديث، قـد تجعل رئيسة الدير تغير رأيها. ساد الصمت الغرفـة، التي لفها الـبرد. وذكّر الضـوء الذي انسـل من الأبواب الـورقية البيضـاء المزخـرفة هـوندا بغـمامة خفيفة.

حسب في تلك اللحـظة أنه سمـع شيئاً مـا، لم يكن بحال قـريباً بحيث يحتمل أن يتناهى من الغـرفة المجـاورة، لكنه كـان قريبـاً بما يكفي، وربمـا صدر عن ركن من أركان الدهليز أو عن الغرفة التي تعقب الغـرفة التـالية. تردد كأنه ضحكة مكتومة، خافتاً كأنه تفتح برعم برقوق. ولكن عنـدئذ،

وبعد تأمل دام لحظة، تيقن من أنه ما لم تكن أذناه قد خدعتاه، فإن الصوت الذي تناهى إليه عبر طقس الدير البارد في ذلك الصباح الربيعي لم يكن ضحكة مكتومة، كما حسب، وإنما النحيب المكتوم الصادر عن امرأة شابة. لم يكن يتّسم بثقل مجالدة امرأة لدموعها. كان ما تناهى الى سمعه كابياً وواهناً كأنه صوت رمية سهم هو الصدى الممتد لنحيب خفي. ولكنه عندئذ شرع في التساؤل عما إذا لم يكن الأمر مجرد انعطاف حاد مؤقت أصاب خياله.

قالت رئيسة الدير، منتهكة الصمت، أخيراً.

ـ آه! لا شك في أنك تحسبني قاسية على نحو لا يناسب المقام، وقد يساورك شعور بأنني من تستخدم كل السبل للتفريق بين هذين الاثنين. غير أنه من المؤكد أن وسيطاً يفوق البشر هو الذي يحدث تأثيره هنا. لقد بدأ الأمر عندما أدت ساتوكو نفسها القسم أمام بوذا، وحلفت ألا تلتقي هذا الرجل ثانية قط في هذا العالم. ومن هنا فإنني أعتقد أن بوذا حريص على التيقن بحكمته من أنها ستفي بقسمها. ولكن بالنسبة للسيد الشاب فيا لها من مأساة!

ـ رغم كل شيء لن تسمحي نيافتك باللقاء؟

ـ لا.

تردد صوتها مضخّماً بكبرياء تستعصى على الوصف، وأحس هوندا بالعجز عن الرد عليها. وبدت كلمة «لا» البسيطة متمتعة بقدر من القوة يكفي تمزيق السماء ذاتها، كأنها حرير رقيق.

بعد ذلك،وإذ رأت رئيسة الدير أساه العميق، راح صوتها الجميل يوجه إليه حديثاً متسامياً. وعلى الرغم من أنه لم يكن متلهفاً على مغادرة الدير والاضطرار لمواجهة اكتئاب كيواكي، فقد منعه حزنه الشديد من إبداء ما يتجاوز اهتماماً، يفتقر الى الحماس لما كانت تقوله.

أشارت رئيسة الدير الى شبكة إندرا. وكان إندرا رباً هندياً، ما إن يلقي شبكته، حتى يعلق فيها كل إنسان وكل كائن حي، دونما استثناء، وعلى نحو لا خلاص منه. وهكذا فإنها أحاطت بكل مخلوقات الوجود على نحو لا مجال معه للهرب.

كانت شبكة إندرا ترمز لسلسلة التسبب أو باللغة السنسكريتية «براتيتيا ـ ساموتبادا يويشيكي» (فيجنبتيما ترتا أو الوعي) كان المبدأ الجوهري لمذهب هوسو، الذي ينتمي إليه دير جيشو قد لقي اهتماماً كبيراً في «القصائد الثلاثين لليويشيكي»، وهو النص المعتمد الذي ينسب الى فوسوباندو، الذي ينظر أنصار المذهب إليه باعتباره المؤسس. وبحسب هذا النص، فإن «ألايا» هو أصل سلسلة التسبب. وتلك كلمة سنسكريتية تومىء الى «مستودع». ذلك أنه في داخل الـ «ألايا» تتضمن «البذور» الكارمية، التي تحمل التأثيرات التراتبية لكل الأفعال، الطيب منها والشرير معاً.

وأكثر عمقاً في غور الانسان من الأشكال الستة للوعي ـ البصر، السمع، الشم، الذوق، اللمس، التفكير، التي منحت لكل الكائنات الواعية ـ كان هناك شكل سابع يدعى «مانا» أو الوعي الذاتي. ولكن مع ذلك يمتد الـ «ألايا»، أو الشكل المطلق للوعي على بعد أعمق.

وكما عبر هذا النص عن الأمر: «شأن وابل عنيف، يتدفق أبداً، ويتغير دوماً» فإن هذا الشكل الثامن من أشكال الوعي، مثل نهر مندفع، يتغير بلا توقف، دون أن يكف أبداً عن التدفق إلى الأمام. وفي دفق دائب، فإن الـ «ألايا» هو مصدر كل الكائنات الواعية وجُماع كل التأثيرات فيها.

وقد مضى أسانجا، المؤسس المشارك مع فوسوباندو لمدرسة اليويشيكي، في عمل مذهبي عنوانه «عناية الوسيط الأعظم»، ففصَّل القول على أساس الطبيعة المتحولة على نحو خالد لـ «ألايا»، واضعاً نظرية فريدة في سلسلة التسبب من حيث البعد الزمني. وتعالج هذه النظرية تفاعل وعي

الـ «ألايا» وقانون التدنيس الذي أدى الى وصفه بأنه «دائرة العود الأبدي لانقطاع وتجدد السببية». وبحسب مبدأ اليويشيكي «الوعي وحده» فإن كلا من الدراما[1] المتعددة التي لا تعدو بالفعل أن تكون الوعي، وهي بعيدة عن التمتع بالدوام توجد على نحو خالص في اللحظة الراهنة. وما إن تنقضي هذه اللحظة حتى يلحقها الانقطاع أو العدم. وفي اللحظة الراهنة فإن وعي الـ «ألايا» وقانون التدنيس يوجدان على نحو متزامن ويؤدي تفاعلهما الى سببية اللحظة الراهنة. وما إن تنقضي اللحظة الراهنة حتى يلحق الانقطاع أو العدم بكل من الـ «ألايا» وقانون التدنيس. ولكن مع مقدم اللحظة التالية فإنهما يبعثان معاً، ومعاً يتفاعلان من جديد ليستنهضا سببية جديدة. هكذا فإن الكائنات الموجودة يلحقها الانقطاع أو العدم من لحظة لأخرى، الأمر الذي ينشأ مع الزمن. والتطور الذي بمقتضاه يتولد الزمن من هذا الانقطاع بين لحظة وأخرى يمكن تشبيهه بصف من النقاط وخط.

مع كر اللحظات وانقضائها، ألفى هوندا نفسه ينجذب تدريجياً لإيضاح رئيسة الدير المذهبي العميق. ولكن ظروفه الراهنة حالت دون أي تحرك لروح البحث العقلاني الغريزية لديه. وغرَّبه الاندفاع المفاجىء لفيض الاصطلاحات البوذية المركبة، ثم كانت هناك نقاط صعبة عديدة كانت له شكوك حيالها، وقد حدَّث نفسه بأن الكارما ينبغي أن يعمل على نحو خالد، وأن يكون عملية لا بداية لها، تتضمن بحكم طبيعتها في داخل ذاتها عناصر الوقت. وبدا له أمراً متناقضاً أن الزمن، على العكس من ذلك، قد تعين فهمه باعتباره ينشأ من انحلال وتوالد سببية كل لحظة راهنة.

---

(١) الدارما: كلمة سنسكريتية، تعني، في أبسط معانيها، في التقاليد الهندوسية والبوذية، الشريعة الدينية، أو العمل بأحكامها، أو الدين، أو القانون، أو الفضيلة، أو صفة جوهرية. (هـ. م.)

هكذا، فإن شكوكه العديدة حالت بينه وبين إبداء انتباه مليء بالاجلال من كل قلبه لطرح نياقتها الغزير المعرفة. كذلك ضايقته الكاهنة الأقدم بتدخلاتها. فعلى فترات مناسبة كانت تقاطع الحديث قائلة: «ما أصدق هذا!»... «الأمر كذلك حقاً!»... «كيف يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك؟» وما إلى هذه الأقوال. هكذا، فقد اكتفى بتذكر العنوانين «القصائد الثلاثين» و«عناية الوسيط الأعظم»، وحدّث نفسه بأن بمقدوره أن يبحث عنهما عندما يتاح له الفراغ، ثم يعود الى هنا ليطرح الأسئلة، ثم إنه في حالته المزاجية الراهنة لم يدرك من أي منظور وبأى قدر من الوضوح كانت كلمات رئيسة الدير تلقي الضوء على قدر كيواكي وقدره هو، على الرغم من أنها ظاهرياً كانت بعيدة عن الموضوع ولا أهمية لها. كان الأمر تماماً على نحو ما ينير القمر في قمة اكتماله المياه العكرة، في بحيرة، بشكل مراوغ.

غمغم بكلمة اعتذار مهذبة واستأذن مغادراً جيشو بأسرع ما يستطيع.

- ٥٥ -

خلال رحلة العودة بالقطار الى طوكيو، كان ألم كيواكي البالغ الوضوح مصدراً لحزن هوندا الشديد. نحى كتبه جانباً كلية، وغدا همه الوحيد الآن أن يمضي عائداً بصديقه الى الدار بأسرع ما يستطيع. فيما هو يتطلع الى كيواكي إذ يرقد وقد ألم به مرضه الخطير في مضجعه بالقطار، محمولاً الى طوكيو دون أن يحقق اللقاء الذي تاق إليه، أحس بالندم يلتهم فؤاده، وراح يتساءل عما إذا كان إقراضه تلك النقود عملاً أتاه صديق حقاً.

أخذت كيواكي سنة من النوم. وبالمقابل كان هوندا أكثر تنبهاً من أي وقت مضى، على الرغم من أنه لم ينم منذ وقت طويل. سمح لحشد من الخواطر بأن يقبل ويمضي دون أن يكبح له جماحاً. وبين هذه الخواطر انهلت عليه ذكرى عظات رئيسة الدير في مناسبتين، كل مناسبة منهما لها تأثير مخالف تماماً للمناسبة الأخرى. كان قد سمع في خريف العام الماضي عظته الأولى منها، الحكاية الرمزية التي تتحدث عن شرب الماء من جمجمة، وقد التقط ذلك المبدأ ونسج حكاية رمزية من إبداع خياله، حكاية تعالج أمر الحب البشري، واختتمها بالتفكير في أنه سيكون أمراً رائعاً على نحو لا مجال للشك فيه إذا استطاع الانسان حقاً أن يجعل ماهية العالم تتوافق مع قرارة فؤاده. وفي وقت لاحق، في غمار دراساته القانونية، كرّس قدراً يعتد به من التفكير لمذهب البعث على نحو ما عبر عنه في قوانين مانو. وصباح اليوم سمع رئيسة الدير تتحدث مجدداً. والآن ساوره شعور كما لو أن المفتاح الوحيد لحل اللغز، الذي كان يثير غيظه قد تدلى للحظة من خيط أمام

عينيه متأرجحاً جيئة وذهاباً بالعديد من الوثبات والانعطافات المحيرة بحيث أن اللغز نفسه بدا أنه أصبح أشد تعقيداً.

كان من المقرر أن يصل القطار الى محطة شيمباشي، في السادسة صباحاً. وكان الليل قد أوغل بالفعل في مسيرته واختلط تنفس الركاب الثقيل مع قرقعة عجلات القطار. لسوف يظل يقظان حتى الفجر ساهراً على كيواكي الراقد في المضجع الأسفل قبالته مباشرة. وكان قد ترك الستائر مفتوحة حتى يعرف في الحال إذا ما حدث أي تغير في حالة كيواكي، والآن راح يحدق مطلاً من إحدى النوافذ في الحقول، التي اكتست بالظلام.

ورغم أن القطار كان يندفع مسرعاً عبر الليل، فإن الظلام كان دامساً، والسماء مدلهمة للغاية، حتى أن الحقول والجبال الواقعة وراءها احتجبت، على وجه التقريب، دون أن تترك شيئاً لتحديد مدى تقدم القطار في مسيرته. ومن وقت لآخر كان تألق ضوئي صغير أو وهج محدد لمصباح يحدثان شقاً باهراً في ستار الظلام، ولكن هذه الالتماعات ما كانت لتدل أحداً على الاتجاه. راح هوندا يحدث نفسه مسلياً إياها بأن القطار لم يكن هو الذي يحدث هذه الضجة الصاكة، وإنما شيء آخر، شيء يلف هذا القطار الذي هو شيء صغير فيما يقوم برحلته المجردة من المغزى عبر الليل. كان الدوي يصدر عن الظلمة نفسها.

بينما كان هوندا يحزم الأمتعة على عجل لمغادرة النزل في أويتوكي، حصل كيواكي على وريقات قلائل، من النوع الرخيص، من صاحب النزل وكتب كلمة، ثم أعطاها لهوندا طالباً منه أن يسلمها لأمه الأميرة. وقد وضعها هوندا بحرص في جيب سترته الداخلي. ولعدم وجود ما هو أفضل للقيام به أخرجها الآن، وقرأها على الضوء الشحيح المنبعث من المصباح الكهربي المتدلي من سقف عربة القطار.

كانت مكتوبة بقلم رصاص، واليد التي سطرتها بعيدة عن الثبات،

خلافاً لما اعتاد كيواكي. لم يكن قد خط حروفه قط بجمال بارع، ولكن كانت هناك على الدوام لمسة قوية على نحو وافر تميزها:

«أمـي العزيزة:

هناك شيء أود أن تعطيه لهوندا، نيابة عني، هو مذكرة الأحلام الموضوعة على قمطري؛ ذلك أنها ستعجبه، وبما أنه ما من أحد آخر سيرغب في مطالعتها، فأرجو أن تحرصي على حصوله عليها.

كيواكي»

كان بمقدور هوندا أن يرى أن كيواكي قد استخدم الاحتياطيات الأخيرة من قوته لكتابة هذه الكلمة كنوع من الوصية. ولكن لو أن الأمر كان كذلك حقاً فمن المؤكد أنه كان ينبغي أن يضمنها كلمة أو كلمتين لأمه نفسها، بدلاً من أن يخاطبها على هذا النحو المقتضب والعملي.

تصاعدت أنّة من المضجع المقابل، فسارع بإبعاد الرسالة الموجزة ودنا في لمحة من كيواكي مطلاً الى وجهه.

- خيراً؟

- صدري يؤلمني. أحس كما لو كنت أُطعن هنا.

تردد تنفس كيواكي خشناً، وبدت كلماته متناثرة. لم يدر هوندا ماذا عساه يصنع غير ذلك، فشرع يدلك في رفق الجانب الأيسر الى أسفل من صدره، وهي البقعة التي قال إن الألم أكثر حدة فيها. ولكنه رأى في الضوء الخافت أن وجه صديقه لا يزال متشنجاً من فرط الألم.

غير أنه على الرغم من التشنجات، كان وجهاً جميلاً، وقد أضفت عليه المعاناة الحادة طابعاً شديد الغرابة، ناحتة فيه خطوطاً، منحته الكبرياء البعيدة عن الإسراف لقناع من البرونز. اغرورقت العينان الجميلتان بالدموع. غير أنه فوقهما تقوّس الحاجبان في إحكام، وشكلت القوة

الذكورية التي توحيان بها تقابلاً حاداً مع العناصر الآخذة بمجامع القلب الخاصة بالبؤبؤين المتألقين، الأسودين، اللذين ندَّاهما الدمع. وفيما هو بجالد الألم، برز أنفه البديع التكوين إلى أعلى كأنما يحاول أن يخترق الظلام من حوله باحثاً، وتراجعت شفتاه المحترقتان بفعل الظمأ لتكشفا عن أسنانه ذات لون عرق اللؤلؤ، التي تألقت، على نحو شاحب.

أخيراً، بدا أن الألم القاهر ينجاب.

ـ أنائم أنت؟ طيب. هذا ما تحتاجه.

قالها هوندا، وراح يتساءل عن دلالة الملمح المترع بالعذاب، الذي اكتسى به محيا صديقه، منذ لحظة. ألم يكن في حقيقة الأمر تعبيراً عن نشوة حادة من النوع الذي لا وجود له إلا عند أقصى أطراف الوجود البشري؟ ربما كان كيواكي قد تراءى له شيء ما، وحسده هوندا على ذلك، وهو انفعال أثار بدوره شعوراً غريباً بالخجل وتوبيخ الذات في أعماقه.

هزَّ رأسه بخفة؛ فقد كان قد بدأ في الشعور بالوقر الخدر للحزن. وفي أعماقه، ومراوغاً وملحّاً مثل مغزل للحرير، تشكل انفعال تدريجياً. راوغه مغزى هذا الانفعال، وأثار قلقه.

عندئذ، فتح كيواكي، الذي بدا أنه قد أغفى للحظة، عينيه على سعتهما، ومدَّ يده نحو يد هوندا، فأمسك بها في إحكام، وهو يتحدث.

ـ الآن تواً، تراءى لي حلم. سأراك من جديد، إني أعرف ذلك، تحت الشلالات.

حدَّث هوندا نفسه بأن حلمه قد حمله الى الحديقة المحيطة بدار أبيه. وهنالك لا بد أن أشد الصور توهجاً بالحيوية هي الشلالات التي تهوى المياه فيها، من قمة الجبل في مراحلها التسع.

بعد يومين من عودة كيواكي الى طوكيو، مات، في العشرين من عمره.

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

العمل الماثل بين يدي القارىء، «ثلج الربيع» رواية متكاملة وقائمة بذاتها، ولكنها في الوقت نفسه، ترتبط مع شقيقاتها الثلاث الأخريات: «الجياد الهاربة» و«معبد الفجر» و«سقوط الملاك» بوشائج لها قوة أمراس من فولاذ، لتشكل معاً رائعة ميشيما النادرة المثال، في الأدب العالمي كله: رباعية «بحر الخصوبة».

إن بطل «ثلج الربيع» الفتى «كيواكي»، وهو سليل عائلة ماكسوجاي اليابانية النبيلة، يحيا قصة حب، من النوع الذي يستعصي على الذاكرة أن تنساه، ويقف صديقه «هوندا» شاهداً على قصة حبه الفريدة والفاتنة تلك.

في كل مجلد يعقب ذلك، نجد أن البطل لا يعدو أن يكون هو نفسه البطل الأول ولكن بعد انتقاله من خلال تناسخ الأرواح، ليبدأ دورة وجود جديدة، وليتاح لـ «هوندا» وحده أن يعرف الرابطة التي تصل الأبطال الأربعة، وذلك من خلال عنصرين محدّدين، هما ثلاث شامات يحملها الأبطال جميعاً، ومجموعة الأحلام العجائبية...

كان ميشيما على يقين من أن رباعيته إنما هي نقطة الوصول لكل ما تعلّمه بوصفه كاتباً. فقد لفت انتباه أصدقائه الى أنه عندما ينتهي من كتابتها، لن يبقى له سوى عمل شيء واحد: «الانتحار». وهو ما حدث بالفعل...

تصميم الغلاف: فصيح كيسو

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت